تفريغ مشروع



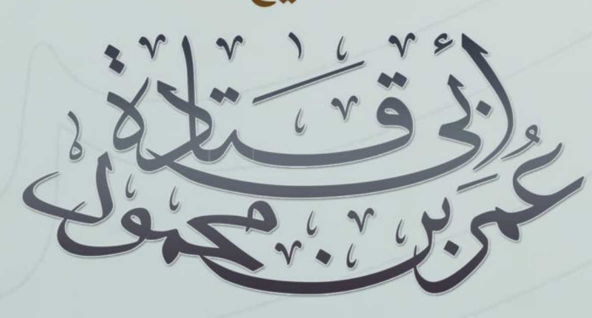
ألف كتاب قبل الممات

الجزء الأول

[1-25]



للشيخ:





1437هـ - 2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ

مشروع "ألف كتاب قبل الممات"

للشيخ/

أبي قتادة عمر بن محمود

الجزء (الأول)

من المناقشة [١] إلى [٢٥]

مُؤسَّسَة التَّحَايَا
قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

الفهرس

[١]

مناقشة كتاب (رسالة في الطريقة إلى ثقافتنا) لمحمود محمد شاكر

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين، وإمام الموحدين، وعلى آله الطيّبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإيّاكم منهم، آمين.

أمّا بعد؛

أيّها الإخوة الأحبّة، هذا هو اللقاء الأوّل في تحقيق مشروع "ألف كتاب قبل الممات". وبدأنا بهذا الكتاب وهو كتاب الأستاذ محمود محمد شاكر (**رسالة في الطريقة إلى ثقافتنا**). وهذا هو اللقاء الأوّل، وهو لقاء مفتوح يتّم فيه مناقشة الكتاب.

هناك مقدّمة أسوقها لكم بالنسبة لهذا الكتاب والكاتب. وبقراءة كلّ كتاب هناك طرق نافعة أنصح بها إخواني في قراءة الكتب. ضحكت في الصباح على أخ أقرأني كلمة لأحدهم يقول فيها: "صلى الله على محمد الذي بعث بالسيف ولم يبعث بالقلم". وهذه على قاعدة من قال في تعليقه على قوله ﷺ (إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق) فيستطيع أن يقول الحمد لله الّذي بعث محمدًا ليتمّم مكارم الأخلاق ولم يبعثه بالتوحيد!

فهكذا هي الجهالة تصنع بصاحبها.

بالنسبة للكاتب فهو قد شرح نفسه. الشيخ الأستاذ محمود محمد شاكر وهو شقيق المحدّث الشيخ أحمد محمد شاكر. وهو أخوه الأكبر والّذي ربّاه.

والشيخ محمود شاكر له تجربة غريبة ثريّة في واقعه مع أحوال عصره، وقد حكى هذه التجربة الشيخ شاكر في عدّة من كتبه؛ حكاها في رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، نوّه عليها تنويهًا يسيرًا، وشرحها شرحًا موسّعًا في كتابه (أباطيل وأسمار). وأنا أريد أن أقول ليس هناك كتاب كتبه الأستاذ شاكر -تمييزًا له على الشيخ أحمد شاكر-. ليس هناك كتاب كتبه الأستاذ شاكر على شكل كتاب أصدره إلّا كتاب المتنبي.

فكلّ ما صدر من كتب للأستاذ شاكر إنّما صدر تجميعًا لمقالات. وأهمّ كتبه الّتي جُمعت في مقالات غير كتابه الّذي كتبه كتابًا وهو كتاب المتنبي، وله مقالات جُمعت على شكل كتب؛ لأنّ لها موضوعًا واحدًا. الكتاب الأهمّ الّذي جمع من مقالات هو كتاب أباطيل وأسمار، وهذا كتاب كما سمّاه سرًكا. نصب سرًكا لكشف رجل هو لويس عوض سمّاه هو أجاكس عوض.

وهذا الكتاب ملحمة من الملاحم لمعارك الأدب، وأجاكس عوض كما يسمّيها هو لغوصته في كتب التراث عندما بدأ يشرح (سقط الزند) لأبي العلاء المعري وأخطأ أخطاءً فاحشة يربأ عنها المبتدئ وطالب العلم الصغير. فرأى الأستاذ شاكر أنّ هذا الرجل يريد أن يهدم المنهج واللغة في لغوصته هذه؛ فأنشأ مقالات جُمعت، ثمّ انتهت بسجنه. وسجن الشيخ بعد هذه المقالات سبع سنوات؛ تحت تهمة إثارة النعرات والطعن في الوطنية. كما يفعلون الآن وما زالوا.

وهذا سبب الكتاب وله أسباب أخرى ذُكرت عنه في ترجمته لا نريد أن نعرّج عليها. هذا شرح فيه نفسه. الأستاذ محمد شاكر شرح تجربته الّتي سنأتي عليها بسرعة. وشرح نفسه كذلك في كتاب (نمط صعب ونمط مخيف)، وكذلك هذا الكتاب هو مجموعة مقالات علّق فيها على كلمة للأستاذ يحي حقّي المسمّى بصاحب القنديل. يحي حقّي هو أديب عربي معتزّ بعربيته وله قصّة شهيرة سمّاها قصّة (قنديل أمّ هاشم) وتُقرأ؛ لأنّها تعبير عن صدمة الإنسان ما بين حضارة العلم وبين خرافة الشرق كما يسمّونها. كيف ارتقى بعد ذلك علم الطبيب القادم بعلمه التقني المتقن الصارم، وبين خرافة الشرق القائمة على العلاج بالخرافة. هذه خلاصتها.

غوته الشاعر الألماني كما يسمّيه الأستاذ شاكر بالشاعر العظيم في لغته الألمانية، قرأ ترجمة قصيدة منسوبة لتأبّط شرّا وهي لغيره. وحقّق الأستاذ شاكر أنّها لابن لأخت تأبط شرًا. بسبب مقتل تأبط شرًا في حادثة تُقرأ هي:

إنَّ بِالشِّـــعْبِ الَّـــذِي دُونَ سَـــلْعٍ　　　لَقتِـــيلًا دَمُـــهُ مَـــا يُطَـــلُّ

وهذه القصيدة مدحها غوته على ما في الترجمة من خلل. وهذه أدّت إلى أن يقول حقّي كلامًا في حقّ الشعر عندما يتذوّقه الغرب، أغضبت هذه الكلمة الأستاذ محمود شاكر؛ لأنّ شعرنا ينبغي أن يُقرأ من خلال نقدنا وأدبنا، وردّ عليه هذه الردود وأنشأ مقالات عظيمة فيها قواعد قراءة التراث كتاب (نمط صعب ونمط مخيف). وأخذ هذا العنوان من تعليق من علّق بأنّ هذه القصيدة على هذه الطريقة، أو أنّ بحر الوافر في الشعر نمط صعب نمط مخيف. وهذه القصيدة (إنَّ بِالشِّعْبِ الَّذِي دُونَ سَلْعٍ) على بحر الوافر.

الشيخ شاكر له كذلك مقالات متعدّدة لا نريد أن نعرّج عليها الآن، لكنّه مشهور كذلك بقصيدته القوس العذراء. بقي الأستاذ محمود شاكر مغمورًا؛ لأنّه كما قال وقرأته في رسالة الطريق إلى ثقافتنا قد رأى فساد الحياة الأدبية؛ فاعتزلها.

وكذلك أستطيع أن أقول لكم حتّى أكمل الفكرة الأولى، أنّكم تستطيعون أن تقرؤوا في (نمط صعب ونمط مخيف) و(أباطيل وأسمار)، تستطيعون أن تقرؤوا شيئًا من سيرته فيما يلي، لأنّ رسالة الطريق لثقافتنا طُبعت طبعة مستقلة كما هي بين أيديكم وطُبعت ضميمة إلى كتاب المتنبي الّذي كتبه سنة ٣٦، ثم أعاد طباعته مع تعليقات جديدة في العشرية السابعة من القرن الفائت، وشرح فيها بعنوان بيني وبين طه. على أساس الّذي أنشأ لديه عقدة النظر إلى فساد الواقع الأدبي، هو أستاذه في الجامعة المصرية الّتي كانت تُسمى بجامعة فؤاد ثمّ بالجامعة المصرية ثم سُميت بجامعة القاهرة، الّذي أنشأ لديه هذه المحنة الكبيرة هو أستاذه طه حسين فيما قاله في قضيّة محنة الشعر الجاهلي.

ولذلك كونوا على شكّ وليس تكذيبًا، أنّه لما يقول الأستاذ محمود شاكر -رحمه الله- أنا لا أحبّ الحديث عن نفسي، فلا تأخذوها مسلّمة. قد لا يكون محبًّا وهو صادق عندما يتحدّث عن نفسه لكنّه تحدث عن نفسه؛ لأنّه اعتبر تجربته في محنة الأدب مع واقع الحياة الأدبية الفاسدة تجربة ينبغي أن تُقرأ. وبقي الشيخ بعيدًا وأنشأ صالونًا أدبيًا توافد عليه طلاب الأدب الكبار الذين ملؤوا بعد ذلك الدنيا.

مثل الأستاذ إحسان عبّاس فهذا من الّذين كانوا يتوافدون. كان هناك طبعًا بعض من انضم إلى النظام المصري. وكان يأتي إليه الشيخ الباقولي الّذي انفصل عن الإخوان في زمن جمال عبد الناصر؛ لما رفض الإخوان المسلمون الانضمام إلى جمال عبد الناصر والوزارة الّتي أنشأها تحت مسمّى قيادة مجلس الثورة. الباقولي انفصل مع محمّد الغزالي. المهمّ كان الباقولي كذلك من روّاد صالونه الأدبي. وغيرهم وغيرهم ممن نشؤوا وتربوا على يديه من الشعراء والأدباء، لكنّه كان بعيدًا عن صدارة الكتب والمجلات الأدبية.

وبقي هكذا حتى بدأ تلاميذه يتحدثون عنه. وكذلك عندنا في الأردن غير المتوفى الأستاذ إحسان عبّاس، عندنا من أكبر تلاميذه هنا هو الأستاذ ناصر الدين الأسد، فهو من تلاميذ كذلك الأستاذ محمود شاكر واعترف بفضله عليه في مقدّمة كتابه مصادر الشعر الجاهلي. واعترف بفضله عليه قراءة وكذلك تنويهًا ببعض المسائل في قضيّة معالجة مصادر الشعر الجاهلي.

وكتاب ناصر الدين الأسد كتاب نموذجي في قضيّتين: القضيّة الأولى في طبيعة واقع القراءة المستقصية من القراءة النتش، هذه القراءة لا تنفع. من قرأ كتاب الأستاذ ناصر الأسد مصادر الشعر الجاهلي، رأى نموذجًا للقراءة المستقصية المستوعبة للموضوع. لا يبحث فقط عن الفهرست ليرجع إلى الموضوع، ولكن يقرأ الكتاب كلّه ليجد مراده مبثوثًا مغروزًا أو خفيًا في ثنايا الكتاب. وهو أفضل كتاب –مصادر الشعر الجاهلي– مع أنّه تأخر، لأنّ الذين ردّوا على طه حسين كثر بعد أن أصدر كتابه الشعر الجاهلي، مصادر الشعر الجاهلي تأخر كثيرًا، لكنّه أفضل كتاب في الردّ على طه حسين.

طبعًا الشيخ شاكر نشأ عنده عصبية كعادة الكثير من المشايخ والأساتذة الكبار. والعصبية شيء لا بدّ منه لمن يعرف الحقّ ويرى جهالة الجهالين أمامه. هو أصيب بالكآبة حتّى إنّه حاول الانتحار. في بداية عمره لما حدّث عن نفسه في هذا الكتاب وهو في السابعة عشرة من عمره أصابته الكآبة الشديدة وكفرانه بواقع الأدب المصري وسيطرة الفاسدين عليه فحاول الانتحار، وأرسل بعد أن فشلت المحاولة رسالة إلى أستاذه العظيم مصطفى صادق الرافعي. والرافعي تكلّم عن الانتحار ونفسية المنتحر وكيف يعالجها بالإيمان بالله في مقالات مبثوثة في وحي القلم. هناك أربع رسائل أو خمس تحت عنوان الانتحار المقصود بها من؟ الشاب الصغير ذو السبعة عشر عامًا وهو الأستاذ شاكر.

ووالده كان قاضيًا أُرسل إلى السودان، وولد بعضهم في السودان ودرسوا في كلية جوردن الّتي أنشأتها الحكومة البريطانية لأبناء وضبّاط البعثة البريطانية الحاكمة للسودان.

فهذا هو أمر هذا الشيخ، أُصيب بباب من أبواب الكذب في عالمه وهي قضيّة الشعر الجاهلي الّتي بسطها كما رأيتم في الرسالة. أنتم قرأتم الرسالة ورأيتم كيف تحدّث عن الكذب الّذي مارسه طه حسين، وسُمّي كذبًا بعميد الأدب العربي. وهو كان عميد كلية الأدب!

وهنا أنبّه إلى مسألة وهي أنّ العلمانيين وأهل البدع يعظمّون أساتذتهم ويرفعونهم مع جهالتهم، وأهل السنّة هم أئمة في قتل قاماتهم ورجالهم. هذا الفنّ نحن نتقنه! وغيرنا من أعدائنا يخالفوننا الطريق ويعظمّون رجالهم وينشرونهم. عميد الأدب العربي هو طه حسين!

وكشف الأستاذ ناصر الدين الأسد مرّة –لأنّه كان يدرس في الجامعة وكان عميد الكلية طه حسين–، يقول كنت أسمع –لأنّ طه حسين كان له صالون في بيته–، يقول: كان من أكثر الناس سبًّا للعرب ولأدبهم. هذه كلمة هو مأمون عليها ناصر

الدين الأسد. يقول: حتّى كان يقول من أنتم أيّها العرب إنّ أعظم شعركم قاله ابن الرومي وهو رومي. وابن الرومي ليس من شعراء العربية.

وأبناء طه حسين في البيت لا يعرفون كلمة العربية. زوجته فرنسية كانت تأبى في البيت أن تتكلّم أو يتكلّم أحد بالعربية في بيتها. ولذلك أبناؤه ذهبوا إلى فرنسا وعاشوا هنالك، وكتب ابنه ذكرياته بالفرنسية لا يعرف كلمة عربية، وماتوا هناك. هذا هو عميد الأدب العربي! ولكن هكذا تعُظّم قامات الجهالة عند خصومنا من قبل إعلامهم ورجالهم، ونحن عندنا تُقتل القامات. ونحن أهل فنّ في قتل رجالنا.

وانظروا طه حسين وكيف تلاميذه يتكلّمون! الآن تجدون شعراء الكذب لا يتقنون شيئًا، ولكن تجد أسماءهم تملأ الصحف، والمجلّات في قسم الأدب، وتُعطى لهم الجوائز والأسماء، وهم مجرّد أواني فارغة بل طبول فارغة لا قيمة لها. ونحن إذا صعد رجل وبان منه بعض العلم انتقصناه، وإن لم نجد ما ننتقصه به انبرت له أقلام الجهالة والحسد والحقد حتّى تقتله، وإن لم نجد شيئًا من ظاهره ذهبنا إلى نيّته ولم نعجز! وإن لم نجد شيئًا في نيّته وما علمنا، اتهمناه بالعمالة إلى آخره!

وأنا أقول لكم كلمة: أقسم بالله لا يوجد في الوجود أكثر إتقانًا لهذا الفنّ في قتل رجال الحقّ في هذا الدين كما يتقنه جماعة النسبة إلى السنّة. هم أئمة في هذا! لا أريد أن أعرض. لكن هذا لا ينبغي أن يشغلنا ما يقوله الأستاذ شاكر من فساد الحياة الأدبية عند غيرنا، أن يشغلنا عما نراه في واقعنا. هذا ينبغي أن نفهمه.

الآن يكفي أن نتكلّم هنا قليلًا عن الأستاذ شاكر. ولما ظهر الأستاذ شاكر وبدأ تلاميذه ينشرونه، والأستاذ شاكر يحبّ العزلة، وبدأ يظهر قليلًا قليلًا ويكتب وكتاباته في المجلّات وفي الصحف كانت قليلة، لكنّه ظهر كجبل عظيم وكأنّه الجبل الذي ورث العربية. فجأة الناس فوجئوا بهذا الرجل العظيم، وتلاميذه قاموا بحقّه مع أنّه ذكر بعض تلاميذه لما رثوه بعد وفاته –رحمه الله–، أنّه كان يشكو من وفاء بعض تلاميذه. وأنا عندي ظنّ لمن يقصد ولكن ما دام أنّ الرجل قد كتم فلنكتم.

وبدأت قامة هذا الرجل تظهر بأنّه رجل عظيم، وأنّ مقالاته وأنّ كتبه على قلّتها، إلّا أنّها أظهرت رجلًا عظيمًا قامة وجبلًا. رجل عظيم ذو قامة لا يبلغ مثلها في عالم الأدب وعالم اللغة. ومن قرأ كتاب (نمط صعب ونمط مخيف) رأى أنّ الرجل أتقن فنون اللغة. حتّى لما كتب عن موضوع الشعر ودوائر الخليل أبدع فيها إبداعًا عجيبًا.

الآن أراد أن ينصح أمّته، فلنأت إلى الكتاب. وهذا حديث قليل يسير، وأنا أحبّ لكم إن أردتم شيئًا عن سيرته فعليكم بكتاب الأستاذ عمر حسن القيّام، وهو رسالة ماجستير عن الأستاذ شاكر. وسمعت ولم أقرأ أنّ هناك كذلك لعمر حسن القيّام –دار الكوفة–، له رسالة دكتوراه عن الأستاذ شاكر. فهذه لا بد لكم أن تعودوا إليها. أنا فقط لم أقرأ الكتاب؛ لأنّه ربما خرج وأنا في السجن ولكنّي قرأت كتاب الأستاذ عمر حسن القيّام وهو رسالة ماجستير. ومناقشته ونقضه لقصيدة القوس العذراء. وهي قصيدة تستحق القراءة والتمتع فيها وأن يتلوها المرء على نفسه وأن يتغنّى بها في نفسه وأن يتغنّى بها لإخوانه.

انتهينا من هنا بشيء يسير ربّما خلال الحوار يتكلّم أحدنا شيئًا زائدًا عن هذا فيه الفوائد فلا بأس.

الآن نأتي إلى الكتاب. ما الذي يمثّله الكتاب أيّها الإخوة الأحبّة؟

أولًا أريد أن أنبّه إلى أمور ثم أترك الأمر لكم. لا أريد ان آخذ حقكم في الكلام. أريد أن أقول ابتداءً بأنّ الشيخ شاكر نبّهنا إلى ثلاثيتين: **الثلاثية الأولى المتمثلة باللغة الثقافة الدين هذه ثلاثية أولى.** وأنّ هذه الثلاثية هي شيء واحد بالنسبة إلى أمّة من الأمم، فلغتها هي أساس الثقافة والثقافة مع اللغة مرتبطة مع الدين. ولذلك يقول مشايخنا بأنّ الثقافة والدين وجهان لعملة واحدة. هذه واحدة. وهذه أريد منكم أن تناقشوها وأن تروها على حقيقتها من خلال كلامه ومن خلال ما تعرفون من قراءاتكم المتعددة، بأنّ الثقافة هي الوجه الآخر للدين الّذي نحياه.

أنا أريد أن أنبه بأنّ المصطلحات في أمّة من الأمم؛ هي نتيجة نزعة هذه الأمم ونفسيتها. وهذه نقطة مهمة، وإن شاء الله نناقشها في كتاب سأختاره لكم. كيف تنشأ المصطلحات في أمّة من الأمم؟ يعني عندما نقول كلمة حضارة، هذه مصطلح. كيف تنشأ كلمة حضارة؟ تنشأ من الحضور. الحضارة من الحضور. عندما نقول ثقافة، هذه لو تأخذونها كيف تنشأ في أمة من الأمم تجدون أن جذرها يعود إلى معاني تعشقها هذه الأمّة. نحن لما تنشأ كلمة ثقافة تنشأ من معنى مغروز في نفوسنا ونعشقه. وهو قولهم ثقفت الرماح، أو ثقف الرمح. ومعنى ثقف الرمح أي دُبب من أجل أن يصلح للرمي.

أساس كلمة ثقافة جاء من ثقف الرمح، بمعنى أنّه دُبب الرمح من أجل أن يصلح للرمي. انظر هذا الارتباط بين إصلاح الرمح للانطلاق والتصويب وتحقيق المنفعة المطلوبة منه وبين كلمة ثقافة في أن تُطلق على العلوم. ولما تأتي إلى الثقافة Cultur في أمّة من الأمم يقولون مصدرها من الزراعة. وتعرفون أنّه إذا نشأت من الزراعة ما هي همومهم، وعندما تنشأ من الرمح ما هي همومنا.

ولكن هنا يقول الشيخ وهذه منه عظيمة، يقول بأنّ الثقافة هي سرّ كامن في نفس الأمّة. كأنّه يقول ينشأ مع لبانتها. عندما يرضع الابن من أمه اللّبن يرضع معه الثقافة. لأنّ الثقافة ليست مجرّد كلام، هي مشاعر خفيّة في النفس، وتسري في مجموع هذه الأمة.

ما الذي يحيط هذه الثقافة بالحفظ؟ هو دينها. وأريد أن أنبّه على نقطة نعمّمها في كلام الشيخ، لماذا انشغل شعراء الشعر الحديث بالمصطلحات اليونانية والنصرانية أكثر من كلمة الصلب_الخطيئة كما هو يذكر، ولكن لا يعرّج على هذا. لماذا أكثر الحداثيين سواء كان من زمن بدر شاكر السيّاب إلى غيره إلى صلاح عبد الصّبور إلى آخره، ما من شاعر وما من شاعر حداثي إلّا ويرى أنّه لا يستطيع أن يكون شاعرًا حداثيًا؛ حتّى يستخدم، قمامات الأمم الأخرى في ثقافتها ودينها! لا بد من الخطيئة، لا بدّ من الصلب.

وانظروا إلى شاعر وهو إمام من أئمتهم يسمي نفسه أدونيس. وهو اسم يوناني مأخوذ من ثقافة اليونان الشركية الّتي لا تمت بالإسلام بصلة.

هذه ثلاثية الشيخ ينهض لها. **يقابلها ثلاثية الحرب المتمثلة بالاستشراق والتبشير والاستعمار**. هذا ما يشرحه الشيخ.

إذًا هو يريد منّا أن نلتفت إلى هذه المعركة؛ لأنّها معركة الأمة.

إذًا أوّلًا، مقاصد هذا الكتاب أنّه يعرفنا على معركة عظيمة لا يدركها العوام، ولكن يدركها هؤلاء حراس اللغة والثقافة والدين. ومن يحرس ثقافة الأمّة إنّما يحرس دينها، ومن يحرس لغتها إنّما يحرس ثقافتها.

ولذلك هذه تنشئ لدينا قضيّة أخرى أريد أن أقولها؛ حتّى أعمّم ما أقوله في الابتداء في هذه النقطة. ولذلك أحسن حارس المغارة –وهو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، الذي لم يستطيع في زمانه أحد ممّن توسّد الكلام في اللغة أن يتكلّم في الدين بأسلوب أدبي حتّى مات. حتّى العقّاد لم يستطع أن يكتب كتبه فيما يسمّى العبقريات، حتّى مات مصطفى صادق الرافعي. كأنّهم كانوا يخافون أن يقتربوا من هذه المغارة الّتي يحرسها هذا الجبل وهذا المحارب.

ولم يستطع طه حسين أن يكتب شيئًا في الدين، إنّما أراد أن يكفّر شيئًا عن سيئاته لما كتب وبئس ما كتب ما يُسمّى على هامش السيرة. بدأوا يكتبون هذا بعد وفاة الأستاذ مصطفى. وهذا الرجل العظيم وهو أستاذ من أساتذة أستاذنا شاكر، هذا لما تكلّم عن معركة اللغة والشعر القديم والشعر الحديث سمّى كتابه تحت راية القرآن؛ ليقول للناس إن معركة اللغة هي معركة القرآن.

وشرح هذا يحتاج إلى وقت ولا أريد الآن أن أتكلّم فيه حتّى لا آخذ وقتكم، فإن وُجد الوقت أتكلم بأنّ معركة الشعر هي معركة القرآن، ومعركة اللغة هي معركة القرآن.

هذا واحد.

الشيء الثاني الذي أريد أن أنبّه عليه وأقف عليه حتّى أسمح لكم بالكلام. هنا انتبهوا لهذه النقطة أنا قلتها للإخوة في الصباح ولكنّي هنا أسجّلها لكم، أقول لكم بأمانة ونظر صحيح **بأنّ أئمة البيان واللغة في الوقت الحديث هم أكثر الناس بصرًا بمعركة التغريب ضدّ الإسلام والمسلمين. وهم فهموا قوة هذه المعركة وفهموا شراسة هذه المعركة أكثر من الفقهاء.**

وحين تريد أيها المسلم، وحين تريد أيها الباحث، أن تعرف شراسة هذه المعركة، وحين تريد أن ترى دقائق هذه المعركة أي معركة الإسلام وهويّة الأمّة بأن تكون مسلمة أو لا تكون، فلن تستطع أن تراها بمثل هذا الجلاء إلّا في كتب أئمة هذا الأمر وهم أئمة الثقافة والبيان واللّغة. وإذا شئتم فاقرؤوا كتاب الأستاذ محمد محمد حسين، وكيف سجّل هذه المعركة في كتابه الذي سنقرأه، وهو إحدى اختيارات الألف كتاب قبل الممات، وهو كتاب (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)، وفي كتابه الآخر (حصوننا مهدّدة من الداخل). هذا رجل بقي حتّى الممات وهو يلبس الطربوش، وقال لي أستاذ لنا درّسنا اللغة وأنا في إعدادي ودرس على يديه في اللغة العربية قال أعطانا محاضرات على معركة الطربوش. يرى أنّ معركة الطربوش هي معركة الثقافة.

قال: لأنّ الطربوش يمثّل ثقافة وهوية. هذا كلام الأئمة. ومشايخنا ومشايخ الأزهر يذكرون بأنّهم كانوا يستغربون من حسن البنا كيف لشيخ أن تكون له لحية. انظروا إلى هذا وانظروا إلى هذا. يعني لا يوجد شيخ أزهري قبل السبعين من عمره له لحية! لا يوجد شاب أزهري له لحية في ذلك العصر. انظروا إلى هذا الانسلاخ ويؤولون، وتعرفون المشايخ في هذا الباب. ولكنّ أهل الأدب معاركهم على الطربوش، لماذا؟ لأنّه يمثّل العثمانية.

ويسمح لي الأستاذ شاكر مع غيبته، أنّه في كتابه ليته لم يذكر كلمة الترك وذكر كلمة العثمانيين. هناك فرق كبير بين كلمة الترك وبين كلمة العثمانيين أؤجلها.

أقول النقطة الثانية الّتي يجب أن تراعوها وتنتبهوا لها بأنّ أئمة اللغة هم أكثر الناس وعيًا بمعركة الهوية، أكثر من المشايخ! والطبقة الثانية وهذا ما سنختاره كتاب الشيخ مصطفى صبري؛ لأنّ فيه الدلالة على أنّ الفقهاء التقليديين هم أكثر بصرًا من

التجديديين، الّذين كانوا ينتسبون للسلفية في معركة الهوية. هذا سنبيّنه في كتاب شيخ الدولة العثمانية مصطفى صبري، وهو كتاب آسف سيكون مزعجًا لكم بأجزائه الثلاثة لكنّه من أعظم ما أنتجه العقل المسلم خلال المائة سنة الأخيرة.

بهذا أختم. ومن كان عنده شيء أنا عندي أشياء كثيرة سأعلّق عليها إيجابًا.

ما الفرق بين الترك والعثمانيين أنا أعتذر عن الشيخ بأنّه كان يتكلّم بلغة القوم، هكذا يسبّون الأتراك، ولكنّه لو نوّه بأنّ الترك كلمة لا تعني الإسلام بالنسبة لمجتمع المسلمين. كلمة الترك تعني القومية، قوم كالعرب، ولكن العرب والترك كانوا تحت راية يقبلون بها ويحاربون من ورائها وهي أنّهم عثمانيون. كانوا العرب يقبلون، يقولون نحن عثمانيون؛ لأنّ العثمانية هي راية الخلافة.

الآن أنا أترك من عنده شيء فليتكلّم. وأعتذر عن التطويل.

- **أحد الإخوة: بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللّهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلًا.**

الحقيقة لا بدّ من تقديم مقدّمة وهي أنّي أؤمن أنّ العامي قد يلقي الكلام على عواهله جزافًا من غير مكيال، لكن من تربّى بين دفوف الكتب ورفوف أهل العلم وما إلى ذلك، أعتقد أنّه يعتصر عقله ثمّ يتأملّ ما سيلقيه من كلام ثمّ يشرع بالكلام. فأعتقد بهذه المقدّمة قلت لماذا الشيخ أبو قتادة اختار هذا الكتاب لنبتدأ به. وأكيد أنّه كما أنّ الفاتحة لها في قلوب المسلمين هذه العظمة العظيمة، كانت من أسباب نظري إليها أنّها كانت فاتحة الكتاب، أو من الأسباب الّتي دعت كثيرا من أهل العلم لتأملّ آياتها أنّها كانت فاتحة الكتاب.

فهذا الكتاب حقيقة لجهالتي بادئ الأمر استهنت به. لكن الحقيقة بعد أن اطّلعت عليه وتأملّت ما بين السطور وإعادة بعض الجمل، وجدت في غالبه أنّه حوى ما افترق من حكم وقواعد بثّها شيخنا أبو قتادة في هذه الدروس الخمس وعشرين وغيرها من الدروس الّتي سمعتها دون تسجيل. كثير من القواعد حقيقة وجدتها أُعملت في هذا الكتاب. لكن وجدت –وهذه ليست سلبية– وجدت مسألة نوّه إليها الشيخ، أنّ ما يليق بهذه الأمّة هو خطابها على أنّها أمّة أمّية، يُلقى الكلام إليها دون تكلّف. فوجدت هذا الكتاب –وهذه يمكن أن تكون حقيقة سلبية وإيجابية، وجهين بعملة واحدة لمسألة واحدة. وجدت هذا الكتاب هو كتاب نخبوي حقيقة.

وذلك لجزالة ألفاظه وعمق معانيه وغرابتها. والشيخ واضح، وإن نبذ الأدب إلّا أنّه أديب في طالب أهل العلم. والشيخ اليوم في درسه قال مسألة عن الغزالي أنّه مزج بين الصوفية والفقه. وأنا وجدت من خلال هذا الكتاب أنّ الشيخ أبا قتادة مزج بين –إن صحّ التعبير– بين الأدب أو مدرسة الأدباء وهي مدرسة حقيقة وعرة المسالك بعيدة المنال.

مزج بين الأدب أو الحركة الأدبية وبين الحركة السلفية بمزج يصعب صهرهما مع بعضهما البعض. أو مزج بين الفكر والفقه. هذا ما رأيته. فمثلًا أضرب أمثلة على ما قعّد له الشيخ في دروسه. أضرب مثالًا هو مسألة إماتة الماضي بحثًا أو استقراء الماضي لتتملّك الحاضر. وهذا ما فعّله الشيخ –أعني الشيخ شاكر– أنّه استوعب الشعر الجاهلي. ولكلّ أمّة روايتها، ولكلّ أمة ديوانها. وديوان أمة العرب خلا الإسلام هو شعرها. الّذي يريد أن يعلم تاريخ العرب الجاهلي لا يستطيع بدون مفتاحه وهو الشعر الجاهلي. فالشيخ متأثر وقد تمكّن حقيقة من الشعر الجاهلي وأشبعه بحثًا، حتّى كما قال الشيخ أنّه بالتكرار قد تُفك العقد، والمناطق المظلمة في تاريخنا قد استطاع بالتكرار وبالبحث استطاع الشيخ محمود شاكر أن يضيئها.

هذه القراءة الاستيعابية الّتي استوعب بها الماضي استطاع منه خلال هذه القراءة أن يستدعي التاريخ في حلّ عقد الحاضر. وهذا الذي استفدته منه. استطاع أن يستحضر التاريخ، ومسألة استدعاء التاريخ أو استدعاء الفقه بهذه السهولة هذه لا يتمكّن منها إلا من استوعبها وقرأها قراءة وافية.

فالشيخ واضح أنّه يستدعي التاريخ الجاهلي خاصّة، وحكمه المنثورة في كتبهم وفي أشعارهم في حلّ عقد عايشها وتصادم معها.

الحقيقة الأخرى هي قصة لها مغازي. وأنا تعلّمت من الشيخين كيف أنّ هذه القصص إذا تُؤملت، تستطيع أن تجعلها مفاتيح لوقائع تصطدم بها في الحاضر. من هذه القصّة حقيقة وأنا أحبّ هذا التقديم لهذه القصّة، هو ما ذكره وذكر هذه القصة حتى كما قدم الشيخ في الصباح، أنّ الشيخ كان عنده حسّ فاق به عوام الناس. استطاع من خلال حسّه هذا أن يتنبأ إن صحّ هذا التعبير، يتنبأ بخطر المستشرقين. قبل أن يستشعر هذا الخطر أقرانه ممن عايشوه.

فالحقيقة هو ذكر أربع مراحل للحروب الصليبية. ما استوقفني في هذه القصّة هو طريقة تجييش الصليبيين وأعني منهم الرهبان تحديدًا. طريقة استنفارهم وتجنيدهم للجند، هم استغلوا همجية الهمج في الشمال، فكان المفتاح حقيقةً جعل

عقيدة ينطلق بها المقاتل نحو المشرق. فلبّسوا عليهم لبوس بزعم وهو أنّ أهل المشرق –أعني المسلمين–، وثنيون. فقتال هؤلاء الوثنيين هو من صلب العقائد –عقائد النصارى والمسيحيين– وبها مفتاح الجنّة.

الّذي استوقفني أنّ الآن للأسف، وأنا سأطبّق الماضي أو ما قرأته على الواقع. يعني تذكّرت الآن سبحان الله في المعضلة الّتي نحن فيها أنّه للأسف أنّ الدولة –أي الدولة الإسلامية– تجنّد جنودها بنفس هذه الطريقة. تجنّد الجنود بهذا الزعم الخرافي أنّ أهل الإسلام هم وثنيون. فبهذا التلبيس استطاعوا أن يجنّدوا الجنود.

أقفز على المرحلة الرابعة. وهو ذكر أنّ المرحلة الأولى أخفقت والثانية أخفقت والثالثة أخفقت والرابعة نجحت؛ لأنّها تقوّت بأمرين، الأمر الآخر هو تولّد الحقد الشديد في أنفس الصليبيين ممّا دفعهم دفعًا نحو المشرق. وهذه الحقيقة هي أيضًا في كتاب الله تبارك وتعالى؛ لأنّ الحرب وقودها الولاء والبراء، أو الحرب تقوم على الولاء والبراء، والولاء وقوده الحبّ، والبراء وقوده البغضاء. فحقيقة لمّا الجندي يُغذّى بالبغضاء على عدوّه، ويُغذّى بالولاء (بالحبّ) لرفيقه؛ فاندفاعه نحو عدوّه وذبّه عن صديقه يكون أقوى.

وهذا للأسف الّذي استخدمته أيضًا الدولة في ازدياد البغضاء، فاندفعت إلى أعداءها اندفاعًا شديدًا. هذا ما استفدته وأعتذر على هذه الإطالة.

الشيخ أبو قتادة: في الحقيقة أريد بسرعة في نقاط سريعة أنا أعرف أنّها خارج الإطار ولكنّها من الفوائد. الشيخ أحمد شاكر في تعليقاته على هوامش الرسالة قال: إنّ من أخطاء الدّارسين اليوم أنّهم يسمّون الأجزاء بالرسالة. كما يُقال قدّم رسالة دكتوراه، يقول هذا غير صحيح. والسبب أنّهم أخذوا الاسم من رسالة الإمام الشافعي وهي رسالة، وسُمّيت رسالة؛ لأنّ الإمام الشافعي أرسل الكتاب إلى عبد الرحمن بن مهدي، ولذلك سُمّيت رسالة والناس يخطؤون. والأصل في التسمية يُقال جزء. فكلمة رسالة في طلب العلم، رسالة في كذا، هذا غير صحيح. هذا ينبّه الشيخ على أنّه خطأ في فهمهم لكلمة رسالة لعنوان كتاب الإمام الشافعي.

فلماذا سمّوْا كتابه رسالة؟ لأنّه في الحقيقة رسالة. هو أراد أن يبّث رسالة لأمّته في الطريق إلى ثقافتنا، ولم يخطئ في هذا الباب وليس مناقضًا لأخيه الأكبر الأستاذ أحمد شاكر.

الأمر الثاني الّذي أريد أن أنبّه عليه وهو خارج الإطار الّذي قرأتموه، فأنا لا أريد أن أمر على كل ما قاله، فأنتم قرأتم الكتاب. لكن أريد أن أنبّه على جوانب: أنّ الأستاذ محمود شاكر التقى -وهذا لا يُعاب عليه، لأنّ هناك من يزعم أن الأستاذ شاكر أخذ جانب الحدية مع المستشرقين، وهناك من يزعم أنّ المستشرقين ليسوا سواءً، والأستاذ شاكر يقول لا، بل حتّى الّذين أسلموا نواياهم خبيثة -وهذا ثبت- بأنّ القليل من المستشرقين قد أسلموا والقليل النادر لا حكم له. مثل الأستاذ محمد أسد هذا أسلم وحسن إسلامه وكتب كتابه الرائع (الطريق إلى مكة). ولكن عامّة من ادعى الإسلام ودخل ديار المسلمين انقلب على عقبيه بعد ذلك مثل محمد فلبي، اقرؤوا ترجمته فيما عندكم من كتب. فالتقى الأستاذ محمود شاكر في نظرته الحدية عن الاستشراق مع رجل آخر لم يعش الثقافة العربية، وهو إدوارد سعيد الكاتب الفلسطيني النصراني الذي رحل إلى الغرب مبكرًا ودراسته في الأدب الإنجليزي. وهو متخصّص فيه وله مقعده، وأرسلوه لدراسة الاستشراق متغرّبًا لمدّة عام أو عامين، فألّف رسالة في الاستشراق وهي إحدى الكتب الّتي ضمن كتب مشروع ألف كتاب قبل الممات، كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد. كتب رسالته في كونرد، وهو إيرلندي ولكن أصوله غير إنجليزية. كتب عنه وعن لغته الإنجليزية وعن آدابها لأنّ إدورد سعيد يساري وكونرد من اليساريين.

الذي يهمّ بأنّه التقى معه، والأستاذ إدورد سعيد يقول بأنّ الاستشراق غير بريء، وأنّ الخلفية الاستشراقية لقراءة عالم الشرق هي خلفية القبح وخلفية ألف ليلة وليلة. نحن جماعة في الشرق فقط شغل راقصات وغيره كألف ليلة وليلة. والأستاذ شاكر في هذا يلتقي معه.

أريد أن أنبّه بأنّ أهمّية الثقافة عند خصومنا أكثر ممّا هي عندنا. والدليل التالي بأنّ دنلوب الّذي ذكره الأستاذ محمود شاكر، لما أراد المحتلّ الإنجليزي أن يسلّم إدارات الدولة للمصريين، سلّمها للمصريين وأبقى وزارة المعارف في يد الإنجليزي دنلوب. وزارة المعارف هي الّتي انقلبت بعد ذلك باسم وزارة التربية والتعليم ولا تربية ولا تعليم. وأريد هنا أن أذكر أنّ الّذين نشروا الشعر الحديث ونشروا رجاله وصارت الآن أسمائهم تملأ الصحف والمجلّات، هي مجلة شعر الّتي أنشأها يوسف الخال. ارجعوا إلى ترجمته عندكم في الأستاذ جوجل حتّى تعرفوا من هو، وهذا الرجل أخذ أموالًا من البنتاجون وأنشأ مجلّة شعر الّتي شاركه في دعمها أدونيس وأنسي الحاج.

وهذه نشرت وصارت مرجعا. هذه نشرت الثقافة الحداثية المعاصرة وليست حداثة كلام، ولكنّها كما قلت متضمّنة لثقافة الآخر. غلطت البنتاجون فأصدرت مذكّرة في دعم البنتاجون للثقافة الأمريكية، فغلطوا وذكروا مجلّة شعر خطئًا أنّها أعطت الملايين من أجل مجلّة شعر. ولما وُجه يوسف الخال بأنّكم أنتم صنائع البنتاجون. يعني ليست هي وزارة الثقافة الأمريكية وليست وزارة الصحة ولا وزارة الأشغال العامّة، الّذي دعم مجلّة شعر الحداثية الّتي قامت على أنقاض طعن اللغة العربية ودمارها إنّما هو البنتاجون، **لتعلموا أنّ معركة السنان تلتقي مع معركة اللسان.**

والشيخ من طبيعته أن يسهب ويبسط في الكلام على الشيء الّذي يريده. هذه طريقة الشيخ، ولا نريد أن نأتي إلّا لمامًا على ما يذكره في الكتاب. لكن هناك سائل يسأل يقول بأنّ الأستاذ شاكر بسط الكلام على حملة نابليون. والصحيح أنّ حملة نابليون هي أوّل من غرست فكرة التغريب في عالمنا الإسلامي. وأنتم تعلمون أنّها أكثر من ذلك.

والعجيب أنّ مصر انهارت أمام حملة نابليون، ووقف نابليون عاجزًا أليمًا منكسرًا منهزمًا أمام عكّا. وكان نابليون يقول بأنّ فتح عكّا هو الطريق للوصول للهند. فهو رجل عبقري لا أحد يقدح في عبقريته العسكرية ونظرته الاستراتيجية. انظروا لتعرفوا قيمة هذه المنطقة الّتي تعيشون فيها، قيمة المعركة على هذه البلاد، أنّ المعارك على القرية والمدينة هي مفاتيح الصراع في هذه المنطقة، مفاتيح الصراع بيننا وبين الغرب.

الشيخ شاكر نشأ في بيئة تسمّي غزو نابليون القبيح لمصر، يسمّونه الفتح. المتغرّبون وأسيادهم ورجالهم يمدحون الحملة النابليونية ويعتبرون أنّ بداية التنوير لعالمنا الإسلامي هي حملة نابليون. ويقولون أنّه جاء بالديوان، وجاء بالمطبعة، وجاء بكذا.

وهناك حلقة في الاتجاه المعاكس قامت بين شخصيتين، الشخصية الثانية لامرأة تقول عن نفسها بأنّها دخلت الجامعة وهي لا تعرف كلمة واحدة للعربية. مقابل شخص يمثّل معول هدم لثقافتنا هو سعد الدين إبراهيم، الّذي ثبت بالوثائق أن هذا الرجل يقبض كما هو شأن يوسف الخال في مجلّة شعر، ومركز ابن خلدون مدعوم من أمريكا مباشرة.

أرجو أن ترجعوا إلى هذه المحاورة بين هذه المرأة التي دافعت عن ثقافة هذه الأمّة، وهي قالت: أنا فرنسية، نشأت فرنسية ودرست في فرنسا، وتعلّمت في فرنسا، ولكنّي أدركت بعد ذلك أنّ فرنسا ليست بريئة في دعواها نشر التنوير في عالمنا العربي، بل التنوير هو معول هدم لتحقيق الاستعمار في أمّتنا. هذه امرأة تتكلّم كما تكلّم إدوارد سعيد من خلال حياته الّتي عاشها. فإدورد لا يعرف العربية ولم يدرس العربية قط، لكنّه إنسان عاش في الغرب ناقدًا له على طريقة تشومسكي، وكذلك هذه المرأة

عاشت في فرنسا وقرأت فرنسا قراءة المنصف وتناظرت في هذه الحلقة، أرجو أن تعودوا إليها فهي مهمّة. أرجو أن يكون سهلا الرجوع إليها فهي حلقة بين هذا المتغرّب الحاقد على أمّتنا سعد الدين إبراهيم وبين هذه المرأة، وأنا لا أذكر اسمها فأرجو أن تعودوا إليها.

أعود للسؤال يقول بأنّ الأستاذ شاكر كشف إجرام حملة نابليون. وفي الحقيقة أنّ الأستاذ شاكر مرّ عليها مرورًا سريعًا، وإلّا تحقيق إجرام حملة نابليون على مصر يحتاج إلى كتب ومجلّدات في كل جوانبه، ولكن من قرأ كتاب الأستاذ شاكر يستطيع أن يدخل بعد ذلك المداخل الكبيرة في هذا، فهو ردّ على المتغربين الّذين يزعمون أنّ حملة نابليون جاءت إلينا بالتنوير وما زال هؤلاء إلى اليوم، وفي احتفالية المائة عام لغزو نابليون لمصر وزارة الثقافة المصرية أنشأت احتفالات مدعومة من الفرنسين، والفرنسيون يشعرون بمعركتهم في إثبات الثقافة الفرنسية أمام الثقافة الأمريكية. ولذلك أعظم وزارة يُنفق عليها المال بعد وزارة الدفاع في فرنسا هي وزارة الثقافة. لماذا؟ لأنّ الثقافة الفرنسية مهدّدة أمام الثقافة الأمريكية. هذه قضيّتهم.

لماذا لم يتكلّم الشيخ عن القومية؟ له سبب. أريد أن أقول لكم بأنّ القومية العربية أضعف ما تكون في مصر والمغرب الإسلامي. وأما هوية القومية العربية الكافرة الشركية إنّما مركزها وقوّتها في بلاد الشام والعراق. وبقيت مصر خارج التأثير وهي عثمانية حتّى سقوط الخلافة. ويكفي أن تقرؤوا قصيدة شوقي في بكائه على الخلافة لتعلموا أنّ المزاج المصري كان مزاجًا عثمانيًا إلى اللّحظة الأخيرة. والذين انخدعوا بالثورة العربية من المشايخ عادوا وتابوا ومثالهم الأستاذ محمد رشيد رضا، فقد انخدع بالثورة في بدايتها ثمّ عرف أين مؤداها هو ومحبّ الدين الخطيب.

فالقومية في مصر ضعيفة الوجود. يحاولون أن يقولوا ناصرية والناصرية ليست فكر، مجرّد كلام هائم لا قيمة له، يتمسّحون باسم من أجل لا شيء ولا تحمل فقهًا.

هناك حرب بين التغريب مباشرة وبين الإسلام. بخلاف واقعنا في بلاد الشام والعراق، فكانت الواسطة ليست التغريب، كانت الواسطة هي القومية. وهذا له أثر تاريخي يحتاج إلى دراسة، ولمعرفة رجاله. ويكفي أن تعلموا أنّ رجل القومية الأوّل في بلاد الشام وفي العراق هو ساطع الحصري، وقد عُيّن أوّل وزير معارف في وزارة الثورة العربية.

فلذلك الشيخ شاكر لا يشعر بخطر القومية مع أنّه نبّه إلى الّذين يقرؤون التاريخ نظرة الوطنيين لكنّها بعيون تغريبية، عندما ذكر عبد الرحمن الرافعي وكتابه. وارجعوا إلى ترجمته فإنّه كتب عن تاريخ مصر وعن تاريخ الحركة القومية في مصر، ولكن الحركة

القومية في مصر ضعيفة ومهزوزة وإنّما هي معركة المواجهة بين الإسلام مباشرة وبين التغريب، بخلافنا. لكنّه نبّه إلى من يقرأ التاريخ بخلفية قومية لكنّها عيون غربية. أظنّ أنّ هذه هي عبارته في كتابه الرسالة في الطريق إلى ثقافتنا.

هذا هو الجواب باختصار وإلّا فالكلام طويل.

أمرّ على نقاط:

- أنا لا أوافق أستاذنا شاكر في أنّ هناك مقدّمة نهضة لأمّة من خلال هذه الشخصيات الّتي ذكرها. لا البغدادي –عبد القادر البغدادي رحمه الله في خزانة الأدب، ولا الجبرة الكبيرة، ولا الزبيدي الّذي شرح القاموس، ولا الشيخ محمّد بن عبد الوهاب. لماذا؟

الشيخ شاكر متأثر في هذه النقطة بمدرسة العقّاد، وهي أنّ النهضة هي أثر أبطال. وهذه نظرة مستقاة من الغرب. تستطيعون أن تقرؤوها في توماس كارليل في كتابه الأبطال الّتي ذكر فيها أوّل شخصية من الأبطال وهو محمد ﷺ. هناك نظرتان في قراءة التحوّلات الكبرى في الأمم، ونظرتان في كيفية نشوء الحضارات. هناك نظرة تعظّم البطل، وهي نظرة غربية، وتسيطر على الغرب. حتّى في الأفلام الّذي يستطيع أن يغيّر هو البطل. وأنّ بقية الجموع هي مجرّد صدى لهذا البطل.

يعني كيف تنشأ الحضارات عندهم؟ يخرج رجل عظيم يستطيع أن يقود جموع النّاس فيتبعونه وهو الّذي يصنع الحدث وبالتالي هو الذي يصنع الحضارة. وهذا المفهوم لمفهوم البطل الأسطورة، مأخوذ من ثقافة اليونان وسرى في الغرب حتى سيطر على تفكيرهم حتى امتزج في الرياضات. لازم في النهاية ينتهي الرياضة إلى البطل الوحيد. وكذلك كما قلت لكم في الثقافة حتّى في الأفلام، الأفلام دائمًا هناك شخصية البطل الأول وبقيّة الجموع هي مجرّد كما يسمونه في لغة المصريين للأفلام يقولوا "سمّيدة"

وهذه الفكرة هي التي أوحت للعقّاد العبقريات. طبعًا لا أريد أن أناقش العبقريات وما فيها من خطل وخطأ في أساس الفكرة. وأساس الفكرة تقوم عنده على أنّ هؤلاء العظماء في تاريخ أمّتنا كانت فيهم بذرة العبقرية الذاتية، ويسميها غازي التوبة حفظه الله في كتابه الفكر الإسلامي المعاصر يسمّيها بالمدرسة التاريخية. هذه المدرسة الّتي تقول أنّ الصحابة إنّما فيهم بذرة العبقرية الذاتية التي أضفت عظمة على الإسلام.

ولذلك إذا قرأتم كتب العبقريات بهذا الاتجاه تجدونه يعظّم الشخصية أكثر من أثر الفكرة التي آمنت بها فحملت هذه الشخصية إلى المواقع المتقدّمة في صناعة الحدث.

نحن نؤمن أنّه لولا الإسلام لكان عمر بيّاع بندورة. ونؤمن أنّه لولا الإسلام لما كان لأبي بكر شأن في الوجود. نعم فيهم خصائص عظيمة لكن هذه العظمة لا يمكن أن تنشأ وأن تُرعى وأن تحقّق أثرها إلا بعظمة الإسلام. هذا أغفله العقّاد ولم يهتمّ له. ولذلك عنوان كتابه العبقريات، عبقرية عمر، من الذي أنشأ هذه العبقرية؟ من الذي أوجد لها مساحة الفعل؟ هو الإسلام، الدين. وهذا يغفلونه.

والعقّاد كان يؤمن بالرجل البطل الأسطوري. هل الحضارة تُنشأ البطل الأسطوري؟! أم أنّ البطل الأسطوري لا وجود له في صناعة الحضارة إلّا من خلال بيئة اجتماعية أو فكرة دينية تصنعه؟ الآن الحضارة الإسلامية هل يستطيع الشخص أن ينشئ حضارة؟ الجواب: لا. والجموع ليست مجرد مسوقة لفكرة البطل. لماذا هذا أقوله؟ أقول هذا الكلام؛ لأنّ هؤلاء الذين تكلّم عنهم الأستاذ شاكر لا يستطيعون في عزلتهم العلمية وعبقريتهم العلمية، لا يستطيعون أن يصنعوا حضارة إن لم ينتجوا واقعًا اجتماعيًا. فالحضارة هي فعل أمّة وليست فعل شخص.

هو نظر إلى هؤلاء العباقرة أنّ هذا الزبيدي شرح القاموس وإمام لغة وغيره، لكن أين هذا الأثر في حياة المجتمع لينشئ الحضارة؟ أين يستطيع أن يثبت لنا أنّ الزبيدي في شرحه للقاموس في تاج العروس أنّه كان يمشي بين الناس ويتحرّك ويبثّ نوره وله جموع تمشي معه؟ فقط نستطيع أن نقول أنّ ابن عبد الوهاب هو الّذي حقّق شيئًا من هذا مع وجود المعوّقات. لأنّ السقوط كان أقوى من البناء في عالم الإسلام.

هذا الأب الكبير أين أثره في أن ينشئ علمًا ماديًا ما؟

ولذلك أستطيع أن أقول بأنّ ما ذكره الأستاذ شاكر من أنّ هؤلاء كان عندهم القدرة بما عندهم من علم خاص، أنّ عندهم القدرة على إنشاء حضارة هذا كلام يحتاج إلى توقف وعدم انجرار وراءه. وعندما تقوم أمّة بإنشاء حضارة فإنّها تستطيع إذا ملكت زمامها والأمّة لم ينقصها العدد، لم ينقصها الدين، كانت فيها مقومات البقاء، ولو كانت حقيقة في أفعالهم بذرة إنشاء حضارة. فإنشاء العلوم هذا ما عليه كلام، لكن بذرة إنشاء حضارة لو كان كذلك لما استطاع الغرب أن يفعل فعله.

والدليل أنّنا غُزينا من قبل، وهُزمنا من قبل على يد التتار وعلى يد الصليبيين. فإنّ هذه الأمّة قد غُزيت عسكريًا وسقطت بغداد على يد التتار، وسقطت بلاد الشام كرسيّ مملكة الإسلام ومع ذلك لم تسقط الأمّة، لماذا؟ لأنّ حالة الأمّة كانت حيّة،

لكن لما سقطت الأنظمة بسقوطها أمام نابليون ثم بسقوطها أمام الاستعمار لم تكن الأمّة موجود؟ لماذا؟ لأنّ حركة البناء كانت فردية ولم تكن على مستوى الأمّة.

هذه أردت أن أنبّه عليها في كلام الأستاذ شاكر، فهو يقول بأنّ هناك بذرة إنشاء حضارة عظيمة وإحياء ولكن أماتها الغرب. أقول لو كانت حقيقة لما استطاع الغرب أن يميتها. بل كانت الأمّة في حالة انهيار وفي حالة ذهاب ووجود هؤلاء الأعلام والشوامخ كان خارج إطار السقوط، وإلّا فالسقوط هو الأغلب والأقوى.

- **سؤال: هل الحضارة مربوطة بالغزو؟**

الشيخ: نقول لا يوجد حضارة –وهذا ليس كلامي، هذا كلام صاحب كتاب (الحضارة)–، يقول: لا يوجد حضارة في تاريخ الأمم وفي تاريخ البشرية لم تَغز. وكلّ أمّة نُزعت منها نزعة الاستعلاء الّذي يؤدي للغزو لم تنشئ حضارات. ومثّل هذا بإفريقيا والهند. قال هؤلاء جماعة ليس عندهم نزعة الاستعلاء، ولا يحتاجون إلى أشياء أخرى، ويعيشون في ترف، والهند مليئة بالخيرات، وإفريقيا يمدّ يده يجد الثمر، فهؤلاء ماتت عندهم نزعة الاستعلاء، ولا يوجد عندهم أديان تدعوهم إلى الرفعة؛ فماتت عندهم نزعة الغزو فلم تنشأ الحضارات. هذا كلامه. وهذا هو الجواب.

- **سؤال: لاحظت من الشيخ شاكر محاولته المستميتة بزرع البغض لأدب المسيح الشمالي واختصاره في هدف واحد وهو إفساد ثقافة المسلمين بغزو المستشرقين، ولكن كيف لنا دعوة الشمالي دون الاطلاع على فكرهم وتقاليدهم.**

الشيخ: يا شيخ أنت لم تقرأ كتاب شاكر قراءة صحيحة مع الاعتذار. اقرأ هذا الكتاب مرّة ثانية وأدعوك إلى قراءة كتاب (نمط صعب ونمط مخيف)، حيث يقول: لا يجوز لي أنا –وهو إمام العربية– لا يجوز لي أن أطعن في ثقافة أمّة من الأمم، وفي لغة من اللغات، فكلّ اللغات عند أصحابها عظيمة وكل الثقافات عند أهلها محترمة. ولكنّي يقول أنا المثقف، أنا الذي درست اللغة الإنجليزية أكثر مما درس المستشرق لغتي، لو أردت أن أتكلّم في الأدب الإنجليزي لتكلّمت أعظم مما تكلّم به ماجليون وتكلّم به فلان وفلان من المستشرقين الخبثاء لكنّي أحترم نفسي؛ لأنّي لو تكلّمت لن أتكلم كلامًا مستوعبًا لثقافة الغرب، وأنّى لي أن أتكلّم بثقافة لم أنشأ عليها ولم أرضع لبانتها ولم أستوعبها من كل جوانبها، فكيف جاز لأولئك الخبثاء الغربيين من المستشرقين أن يتكلّموا عن ثقافتنا، والواحد منهم لم يدرس إلّا كحصو الطائر.

ولذلك لما يتكلّم عن غوته وعن اللغة الألمانية يتكلم عنها باحترام. ارجع إليها في كتابه نمط صعب. يتكلّم عنها باحترام، الشيخ شاكر لا يقلّل من ثقافات الآخرين لكنّه يقول كل واحد يحترم حاله. ونحن للأسف صار كلام المستشرقين عندنا هو العلم وكلام أئمتنا فاقدًا للقيمة! حتّى لو واحد منهم بيّاع بندورة قال كلمة نذكرها، ولذلك تجدون الآن في كلام الذين ضُبعوا -من الضبع، وكنت أشرحها للإخوة من المغاربة لا يعرفون كلمة انضبع وليس الوقت لشرحها- الذين انضبعوا بحضارة الغرب، تجد الواحد منهم عندما يريد أن يتكلّم كلمة لا بدّ أن يقول قال كافكا، تعرفون الرجل الذي يضع على صدره على عشرة أقلام. يقول أنا مثقف أنا مثقف، ويقول قال كافكا، أنا مثقف أنا مثقف أنا مثقف. وهكذا ينطقون بأيّ كلمة حتى لو أنّها تعادل كلمة يقولها بائع البندورة أو بائع الغاز عندنا كلّ يوم، ويقول أحسن منها كلّ يوم فلا قيمة لها، ولكن القيمة لماذا نشأت؟ لأنّها قالها السكير العربيد المجنون، واحد مجنون حشّاش يعيش في الحبشة كتب هذيانه، فُعدّ أدبه من أعظم الأدب المعاصر وهو كافر.

إن شاء الله نجد كتابي (فنّ القراءة) وتحدثت فيه مفصّلًا عن أهمّية الكتب المبتدئة، وهذه ذكرها الشيخ هنا من أجل أن يبيّن لنا قيمة الكتب المبتدئة ورحم الله الشيخ، فهو الّذي فتح لنا علومًا من الفقه والحديث والنظر. وابتدأ كتبًا لم تكن تُعرف فجاء الآخرون وبنوا عليها، وهنا أنبّه على ما قاله الزاهد الكوثري ظالمًا لإمام الأئمة الشافعي، عندما قارن بين كتاب الشافعي اختلاف الحديث وبين كتاب الطحاوي مشكل الآثار، وقال: انظروا إلى الفرق بينهما. وهناك فرق بين من بنى علم وأنتجه ليبني بأسسه وبين من جاء ورفع فوقه الأعمدة وغيره، فالذي أسّس هو الأصل.

- كنت أتمنّى أن أحضر لكم (تاريخ الجبرتي) لأقرأ لكم فرمانات السيد المسلم العظيم نابليون عندما دخل مصر! كنت أتمنّى أن أحضرها وهذا فاتني فأنا أدعوكم أن ترجعوا إلى فرمانات نابليون عندما دخل مصر؛ لتروا أنّ الجهل لا زال هو الجهل، والفرمانات الّتي أطلقها -أي البيانات الرسمية إلى آخره- نابليون عند غزوه مصر هي نفس الفرمانات التي يتكلّمها بوش ويتكلمها هولند ويتكلّمها بلير، والله بألفاظها. والّتي يتكلمها باراك أوباما. نفس الألفاظ والكلمات: جئنا لنحمي الإسلام من هؤلاء الّذين أساؤوا للإسلام، وهكذا ارجعوا إليها. هي نفس الشيء وما زالت تعمل عملها. "نحبك يا باراك أوباما" هكذا قالوا له في جامعة القاهرة وصفّقوا له المشايخ وأصحاب الطرابيش، جلسوا أمامه وصرخ المشايخ وأصحاب الطرابيش نحبّك يا أوباما!

- **هذا سؤال من أخينا وهو سؤال عظيم، وهذا السؤال وهو قراءة تاريخية وقراءة بيئة الكاتب. وشكرًا لهذا السؤال. يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، شيخنا الحبيب، كنت قد تكلّمت عن التفسير التاريخي للدعوة، ويُتصوّر أنّ**

هذه الدعوة الشخصية لم تكون إلّا نتاج هذه البيئة والعوامل وردّ فعلها الطبيعي وتنكر بالتالي ارتباطها بالمصدر الإلهي، وفي نفس الوقت تقول بأنّه لكي تفهم الكتاب يجب أن تعرف نفسية الكاتب. والنفسية ولا شكّ مثلما تتأثّر بالدين تتأثّر كذلك بالظرف والبيئة. فكيف تميز بين ما هو ناشئ عن الدين وبين ما هو تابع أو نابع من الظروف والبيئة؟

الشيخ: الجواب هناك نصّ مقدس وعندما يُفسّر يجب أن يُفسّر بالطريقة الّتي نزل بها. أنتم تعرفون أنّ عمدة هذا المجرم الّذي مات قريبًا وهو نصر أبو زيد المصري الّذي أعلنوا ردّته وهرب إلى هولندا، هو يعتمد على هذا الأمر، على الفرق بين النصّ وبين التأويل، ويقول أنّ كل تأويل هو ناشئ من فكرة شخص والمقدس يبقى مقدّسا، وهذه هي طريقتهم لإسقاط فقه الأئمة.

الّذي أقوله عندما يُفسّر القرآن وتُفسّر السنة يُفسر على طريقة أئمتنا، لأنّه يُطلق فيُفسّر على طريقة الإطلاق. ونحن دائمًا في قراءتنا للموافقات، نقول علينا أن نفرق بين الفقه وبين الفتوى، بين التفسير وبين الفتوى، فالتفسير يُفسّر في عالم مطلق؛ لأنّ الذي يُفسّر به هو تفسير للمطلق فينبغي أن يكون فوق الزمان والمكان، ولكن لما نأتي إلى الفتوى وما في معناها من الكتب فهي إنشاء، نحن بهذا خرجنا من تفسير الكتاب والسنّة بما هو فقه وما هو تفسير إلى شيء آخر وهو الّذي نتحدّث عنه: إنتاج الإنسان، فإنتاج الإنسان هو إنتاج فكرته وشخصيته. وإذا كنت من المهتمين بالأدب فهناك مدرسة هي من أضلّ المدارس للتفسير، وهي ما تُسمّى البنيوية وهذه البنيوية تقول بموت الكاتب هذا عمدتها. والوقت انتهى ويكفي ما أجبتك به، وإن شاء الله إذا جاءت دروس في الأدب وغيرها نتكلّم عن البنيوية وعن مدارس التحليل اللغوي والأدبي، وأعظم جريمة في هذا الباب التي مارسها البنيوين وقالوا بموت الكاتب. الكاتب مات والنصّ عليه أن يُقرأ باعتباره نصًّا لا باعتباره إبانة عن كاتب! ونحن لا نقول بهذا، نقول أنّ كل كاتب لا بد أن يبيّن عن نفسه، لكنّها في خارج إطار الفقه والتفسير.

هذا خلاصة ما عندي.

هذا باختصار وجزاك الله خيرًا.

أسأل الله –عزَّ وجلَّ– أن نكون قد أوفينا الشيخ بعض الحقّ، وأنّنا دعونا إلى قراءة كتاب مهمّ لم نأت على ما فيه من معاني لأنّكم قرأتموها، ولكنّا عرّجنا على الجوانب الأخرى المهمة. وأعتذر عن التقصير، فكتب الأئمة عظيمة، ولسنا إلّا أقزاما أمامها نحاول أن نتلمّس بعض جوانبها. وهذا الكتاب إذا كان من كتب المتأخرين على هذا العمق، فكيف إذا دخلنا في كتب الأئمة. ومن قرأ معنا كتاب الموافقات وأيّ عمق نحتاج في قراءة الكتب. لكننا نعرّج قليلًا.

وجزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[٢]

مناقشة كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن الندوي

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وسيّد البشر محمّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين.

أمّا بعد؛

أيّها الإخوة الأحبّة، أهلًا وسهلًا بكم في لقاءنا الثاني. وهو في الحقيقة اللقاء الثالث حكمًا؛ لأنّ هذا اللقاء كان ينبغي أن يكون في الأسبوع الفائت، ولكنّه تأجّل بسبب المرض، وأجّلنا كذلك النقاش في الكتاب وأضفنا عليه كتابًا ثالثًا لئلا يأكلنا الزمن، الكتاب الذي بين أيدينا هو كتاب الأستاذ الشيخ أبي الحسن الندويّ عليه رحمة الله. الندويّ نسبة لدار الندوى.

أنا أعرف أنّ الكتاب الأوّل وهو كتاب الأستاذ محمود شاكر، كان فيه بعض المشقّة على بعض من لم يمارس القراءة في الحقيقة، أنا كنت أظنّ أنّه سيكون سهلًا لكن الإخوة شكوا منه وخاصّة في المقدّمة. ومقدّمات الكتب كما ذكر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، أنّ العلماء يستفرغون طاقاتهم وعلومهم في المقدّمات؛ لأنّ المقدّمة هي وجه الكاتب العلمي، وبه يبرز المرء نفسه.

والشيخ بدأ بيان منهجه في تذوّق الكلام أنّ الكلام ليس فقط تذوّق للشعر، وأنّ منهج التذوق ليس للشعر ولكنّه لكلّ الكلام. وضرب مثالًا بكلمة عليّ -رضي الله عنه-، وبكلمة الحسن بن أبي الحسن البصري.

الكتاب الثاني رأيت رغبة شديدة فيه، والأكثر أظهروا أنّهم قد قرأوه من قبل. وهو كتاب بلا شكّ عملت المؤسسات العلمية والجماعات الإسلامية على نشره، فانتشر هذا الكتاب. وهو كتاب **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** للأستاذ أبي الحسن الندويّ.

وأبو الحسن الندويّ من الذين يحسنون تسويق أنفسهم، وهذا من سياسة العلم والفكر. فإنّ بعض الناس يكون لديه العلم ولكن يموت علمه معه، أو يكتب كتابَه وكتابُه لا يحصل له الانتشار؛ بسبب عدم إتقان هذا العالم أو هذا الكاتب لفنّ سياسة النشر.

أنا أعرف بعض العلماء هم من أعلم أهل بلدهم، ولكنّهم ماتوا ولم يعرفهم إلّا الخاصّة، بل هم يعرفون أنّهم علماء لكن لا يعرفون علومهم. يعرفون أنّهم علماء؛ لأنّهم اختبروهم في مسائل لكن أين علوم هؤلاء القوم؟ لا تجد. يعني في الأردن كان الشيخ أحمد السالك من أعلم أهل الأردن في الفقه. وكان كبار المشايخ الذين يُشار إليهم أنّهم من الفقهاء يرجعون إليه، ومع ذلك هذا الرجل مات ولم يترك إرثًا علميًا قطّ. والسبب هو نفسيّته، وهذا هو الذي نتكلّم عنه.

الأستاذ أبو الحسن الندوي يحسن التسويق لكتبه. ولما أراد نشر هذا الكتاب ذهب بنفسه إلى مصر، وعرضه في البداية كما ذكر في قصّة الكتاب على مؤسسة حكومية يقوم عليها الأستاذ أحمد أمين، ولكن حصل ما حصل كما قرأتم. لا نريد في هذه الجلسة أن نعيد ما قرأناه، نريد أن نحلّل ما قرأناه، وأن ندرس ما قرأناه، وأن نقرأ ما قرأناه. قلنا القراءة الّتي نقصد هي القراءة الواعية، أو كما سمّيناها في حلقة من حلقات شرح الموافقات: القراءة الجدلية. فأبو الحسن يتقنها.

ولذلك لم يكتف أبو الحسن الندويّ رحمه الله –الذي مات في آخر عشرية من القرن الماضي–، لم يكتف بأن نشر كتبه وقام بطباعتها ولكنّه قام برحلات. أبو الحسن الندوي قام برحلات عديدة إلى العالم الإسلامي. بل هناك رحلة استغرقت تقريبًا جميع بلاد المسلمين. بدأها من باكستان إلى إيران إلى العراق إلى الأردن إلى مصر إلى المغرب.

وفي كل بلد يلقي محاضرة بما رأى في هذا البلد، وماذا ينصح هذا البلد. مثلًا لإيران له كتيب صغير: (اسمعي مني يا إيران). وذكر فيه شيئًا عجيبًا، أنه تجوّل في إيران فلم ير مدرسة قرآن واحدة. وعزا هذا لاعتقادهم في القرآن. ونصح أهلها لما عمل محاضرة أن يعودوا إلى القرآن.

ولما وصل إلى دمشق تعرف عليه أبناؤها. وهناك ألقى مجموعة من المحاضرات أنشأت سلسلة كتبه الرائعة وهي (رجال الفكر والدعوة في الإسلام). وتكلّم فيها عن هؤلاء الرجال كلامًا لا يشبهه أيّ كلام للمعاصرين. الآن سأبين خصائص هذا الرجل. نحن الّذي يهمّنا أن نعرف ما خصائص هذا الكاتب وكيفيّة دخول هذا الكاتب في خاصّية هذا العالم. فإذًا الأستاذ أبي الحسن الندويّ رجل رحّالة ومفكّر يقرأ بالإنجليزية، وهو من أئمة علماء التفسير في القارة الهندية. أبو الحسن الندويّ للذكر مرجع في القارة الهندية في علم التفسير وهذا هو تخصّصه. وإن كان عندنا لم يُعرف بهذه الخاصّية؛ لأنّنا لا نعرفه إلا من خلال كتبه، وهو لم يفرغ لكتابة تفسير. ولم يأت إلى البلاد العربية في دورة علمية ليعلّم بلدًا ما أو أهل بلد ما التفسير أو ما يعرف من العلوم.

وهو رحّالة مكثر النشاطات، ومع تخصّصه في التفسير إلّا أنّه كذلك إمام في الأدب العربي، وإمام في الأدب الأُردي. وإمامته في الأدب العربي جعلته أوّل رئيس للأدب الإسلامي، لأنّهم أنشؤوا رابطة الأدب الإسلامي وكان هو أوّل رئيس لها إن لم تخنّ الذاكرة، أو كان نائبًا لابن باز، والحقّ أنّ الّذي قام بها والذي فعّلها هو ومعه بعض العلماء وبعض روّاد الأدب الإسلامي.

وهو من تذوّقه للأدب العربي ومن تذوّقه للأدب الأُردي –وهذا سنأتي إليه من جملة خصائصه العلمية–، انتقد ترجمة عبد الوهّاب عزّام لمحمد إقبال، ونحن في مشروع الألف كتاب هناك كتاب سيأتي ربّما نؤجلّه قليلا وهي قصيدة إقبال شكوى وجواب شكوى. فهذه علينا أن نقرأها والّتي ترجمها صاوي شعلان ولم يترجمها، صاوي شعلان لا يعرف الأردية ومحمد إقبال كتب شعره في الأردية، فكان يترجمها رجل أعظميّ من دار الندوى من الأردية إلى العربية، ويأخذها صاوي شعلان الضرير الّذي لا يعرف الأردية فيصيغ الفكرة شعرًا. وهي في مطلعها:

حـــديثُ الـــروحْ لـــلأرواحِ يسْـــرِي وتدركـــهُ القلـــوبُ بِـــلا عنـــاءِ

هَتفْـــتُ بـــهِ فطـــارَ بِـــلا جنـــاحٍ وشـــقَّ انينـــهُ صـــدرَ الفضـــاءِ

والشيخ أبو الحسن الندويّ ترجم قصائد إقبال ترجمة فكرية فأحال شعر إقبال جثّة هامدة؛ لأنّ الشعر ليس فكرة. وسنأتي نحن عند مناقشتنا لشكوى وجواب شكوى كيفيّة قراءة إقبال، لأنّ إقبال عليه كلام. وبعض المعاصرين كتب فيه كتابًا ألحقه بالمعتزلة. وسنأتي إلى هذه القضية ليس هنا مدار البحث فيها.

فأمّا الحديث عن أبي الحسن، فهو إذًا رجل شرعي متقن لهذا، رحّالة كاتب جميل يتقن ما يكتب، وسنتكلّم عن ميّزات وخصائص كتبه.

الأمر المهمّ جدًا كذلك في موضوع أبي الحسن، أنّ أبا الحسن صاحب فكرة ولكنّه صاحب عمل. لأنّنا نرى الكثير من مجايليه من معاصريه يكتبون فكرًا إسلاميًا ولا يحملون همّ الإسلام. يكتبون الفكر الإسلامي وقد تكلّمت عن هذا، بعض الناس يحمل فكرًا إسلاميًا بمقدار القبّة ولكن رجليه من أعواد من كبريت. لا يملك إرادة الفعل. وأبو الحسن ليس من هؤلاء، هو داعية، ومتأثر جدًا من مدرسة الشيخ محمّد إلياس في جماعة التبليغ وقابله، ولكنّه تأثر بل ذاب وأؤكد هذه الكلمة، ذاب أبو الحسن الندوي في شخصية محمد يوسف الكاندهلوي وعمق اهتمامه بالدعوة إلى الله، وهو صاحب كتاب حياة الصحابة ورأى

فيه شخصية فذّة وشخصية آسرة لم ير مثلها في كل من قابله في قضيّة ذوبان هذه الشخصية في حياة الصحابة. وهو يستحقّ ذلك. الذين عاصروا محمد يوسف الكاندهلوي يثبتون له هذه المزيّة وهذا الهمّ ومات مبكرًا.

أبو الحسن الندوي كان معروفًا ببساطته على طريقة علماء الهنود. وهذه مزيّة علماء الهنود أنّ العلم –وهذه تكلمت عنها والآن أبني عليها–، وهو أنّ مؤسسة العلم في الهند بقيت مستقلّة في الدولة. ولذلك المساجد في القارة الهندية يعني في باكستان والهند وبنجلاديش، المساجد إلى الآن ما زالت أهلية. ربما أُمِّمت بعض المساجد لكن المساجد إلى الآن أهلية، أي يديرها النّاس فهي ليست خاضعة للحكومة.

وهذه الخصلة وهي كون المؤسسة العلمية بعيدة وغير ذائبة مع مؤسسة الدولة؛ جعل للعلماء خصائص. ما يهمّني في هذه النقطة بعد خاصّية الاستقلال وغيرها هي خاصية الزهد. وأنا ذهبت إلى ديوبند ودخلت فيها ورأيت حياة العلماء الّذين نقرأ عنهم، سواء خالفناهم في منهجهم وفي طرقهم، لكنّهم على الجملة لا ينافسون الناس في دنياهم على الجملة. إلّا لما دخل مال النفط صار هناك فساد عظيم، وبدأ شراء الذمم والجامعات تقوم بحسب من يدفع إلى آخره، ولكن على الجملة المؤسسة الديوبندية بقيت مستقلّة.

ولذلك كان أبو الحسن في هذا إذا جلست معه، وأنا جلست معه أكثر من مرّة، ومع بساطته رجل بسيط في مظهره متواضع في هيئته ومحبّ للمسلمين جميعًا، هذه بعض خصائصه النفسية والشخصية.

وللذكر أبو الحسن الندويّ حسنيّ النسب. يعني ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي –رضي الله تعالى عنه–. هذا الكتاب الذي بين أيدينا وهو ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين هو أوّل ما كتب أبو الحسن. لكن ما الّذي يشغل ويملأ ذهن أبي الحسن الندوي؟ هو في الحقيقة هو في فترة صراع الهوية. ولم يعالج الهوية فكرًا كما عالجها الآخرون.

يعني مالك بن نبيّ عالج قضيّة الهويّة، أن نكون مسلمين أو أن نكون غربيّين، أو أن نجمع بين الإسلام وبين الغربية، من يغلب وكيف نوفق. هذه قضيّة كانت ضمن معركة القرن الماضي ومنتصفه. وهناك من شُغل بها فكرًا، وهناك من شُغل بها نفسيًا، وهذا أمر يجب أن تضعوا تحته ألف خطّ، وهو أنّ هناك كثيرًا من الأفكار لا تعالج من جهة صوابها الفكريّ أو عدم صوابها الفكري، لكنّها تُعالج من جهة النفس.

الانهيار النفسيّ الذي أصاب أمّتنا أمام الحضارة الغربية كان انهيارًا نفسيًا. وأبو الحسن الندوي كان يعالج هذا الجانب؛ ليعيد الثقة. وهذا الكتاب ضمن هذه المعركة. **ما الّذي يريده أبو الحسن من هذا الكتاب؟ يريد أن يقول بأنّه يجب على كل مسلم أن يشعر بعزّته،** وأنّه مؤهل لقيادة العالم، وأنّ هذا العالم مع اتّساعه ومع انبهار النّاس بتقدّم الحضارة الغربية لا يصلح لقيادتهم إلّا الإسلام. وبالتّالي يجب أن نربّي كل مسلم على قيادة العالم، أنّك أنت سيّد هذا الكون وسيّد البشرية، وهذا هو مبعث بناء النبي ﷺ لأصحابه. هذه القضيّة كانت حاضرة في نفس أبي الحسن. ولذلك عامّة ما قام فيه من الكتب يدور على هذا الأمر.

هذا الأمر الأول. نحن لا نتحدّث الآن عن ماذا خسر العالم، نتحدث عن ميّزات كتبه. الأمر الثاني من الميّزات هي ميّزة وخصيصة لكتب أبي الحسن واقرؤوها كلّها وسأبيّن ما أُخذ عليها الآن، اقرؤوها كلّها مع اطمئنان نفس أنّها كتب رجل تربويّ.

الكثير ممّن يأتي إلى العلماء وإلى المجدّدين في تاريخ هذه الأمّة فيقرئونهم على أساس علمي، على أساس الشجاعة، على أساس قول الحق، على أساس إدراكهم لواقعهم، على أساس مصادمة البدع. أبو الحسن الندويّ اعتبر هذا، -انتبهوا فإنّ هذا أهمّ ما سيقال في هذه الجلسة-، **لكن أهمّ ما أدركه أبو الحسن الندوي في بناء المسلم المؤهّل أو الذي ينبغي أن يكون مؤهلًا لقيادة العالم هو بناءه من جهة التعبد بينه وبين الله.** وهذه عندما تقرأها للآخرين لا تراها بهذا الوضوح الّذي يطرحه بما سمّاه التزكية. فقد أُخذ عليه بعض ما أُخذ في كلامه على التزكية سنأتي إليه. لكنّ أبا الحسن الندويّ إنّما اهتمّ بهذه القضيّة.

ولذلك لما جاء إلى شخصياته التي اعتبرها قد جدّدت في التاريخ الإسلامي، اهتمّ بهذا البناء، كيفيّة دخول المرء لخلوته مع الله، وهذا في الحقيقة سرّ قرآني {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقْ}، {يَا أَيُّهَا المدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ}، {يَا أَيُّهَا المزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}. هذا هو بناء القرآن لهذا الداعية الّذي سيغيّر العالم. الداعية والعالم والقائد الّذي سيغيّر العالم ليس إنسانًا فكريًا فقط، وليس إنسانًا علميًا فقط، وليس إنسانًا يملك نفسية خاصّة فقط، هو إنسان عابد لربّه قبل كل شيء.

ولذلك يقول كلمة عظيمة: يقول خبرت هؤلاء الرجال الّذين غيّروا وجدّدوا هذا الدين وغيّروا مجتمعاتهم وأحدثوا لها الذات العظيمة في هذه الأمّة وجدت فيهم صفة جامعة لشخصياتهم، وهي قيام الليل. هذا جانب لم يتحدّث عنه أحد. نرى مثلًا في الآخرين عظمة في طرح الجوانب الأخرى، الجوانب لبناء العقيدة وأثرها على النفوس، ونرى في سيّد رحمه الله كيف يجعل الإسلام حركة وكيف يجعل العقيدة صراعًا مع الجاهلية، نجد أبا الأعلى المودودي

يطرح فكرًا صلبًا إسلاميًّا في مواجهة الجاهلية الغربية، ويطرح رؤى فكرية عملية لبناء المؤسسة الإسلامية، وهكذا نجد في مالك بن نبيّ طرحًا قويًا في إعادة صوغ العبارة الإسلامية صوغًا معاصرًا.

نجد في هؤلاء هذه الجوانب لكنّي لم أجد أحدًا بمثل هذا الجلاء والوضوح والعمق في بناء شخصية العابد لدى المجدّد والمغيّر. هذه قضية يجب أن تفهموها. كيف إذا دخل المرء بيته وأغلق عليه غرفة نومه كيف يكون شأنه مع ربّه، كيف يكون إخباته، كيف يكون دعاؤه، كيف تكون استغاثته بربه، ما هو مقدار حزبه من القرآن، ما هو مقدار حزبه من قيام الليل، ما هو مقدار حزبه من ذكر الله (التسبيح، الاستغفار..)، يقول هذا هو مرجل الوقود والنار لحركة المسلم في تغيير الحياة.

هذه ميّزة يجب أن تقرؤوها في كتب أبي الحسن. وكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) من أعظم كتبه وكذلك ينافسه في هذه العظمة سلسلته في رجال الفكر والدعوة في الإسلام، لما تكلّم عن شيخ الإسلام بن تيمية لما تكلّم عن أحمد السرهندي لما تكلّم عن الغزالي، وهكذا لما تكلّم عن عمر بن عبد العزيز، ولما تكلّم عن هؤلاء المجدّدين التفت إلى هذا الألق في شخصية هؤلاء العلماء في تعبّدهم.

ولو رأيتم الشخصية الإسلامية -مع الأمانة والاعتبار-، الّتي أنتجها أبو الأعلى المودودي في الجماعة الإسلامية تجد نقصًا في هذا الجانب. وعندما ترى الشخصية الدعوية الّتي أنشأها حسن البنا ترى فيها ضعفًا في هذا الجانب. ترى فيها هذا الضعف، لكنّه ينتبه إلى هذه النقطة وأنا أعتقد بأنّها من دراسته ونظره وتأثّره بالأستاذ محمد يوسف الكاندهلوي رحمه الله. وهذه من الأمانة ينبغي أن نذكرها، وهي مهمّة جدًّا في عالم الغيب وما تعمل معه بمقدار ما تتقن وتهتدي مع الواقع وتتعامل معه. لا توكي فيوك الله عليك. كيف رُبط عالم الغيب بعالم الشهادة، بفعلك، بعلاقتك مع الله، باستغاثتك، كيف تُحلّ المشاكل بينك وبين نفسك وبينك وبين الله؟ كيف إذا غابت عنك قضيّة حللتها ليس بالنظر في الكتب فقط -وأنبّه على فقط- لكن كيف تحلّها كذلك بقرب صلتك مع الله. أبو الحسن الندوي إمام في طرح هذه القضايا.

هذه من ميّزات أبي الحسن. الميزة الثالثة بلا شكّ هي: **الثقة بهذا الدين**. هذه الميّزة تملأ نفسه. أبو الحسن الندوي لا يوجد فيه تأثّر بالجاهلية، مع قراءته الإنجليزية وقراءة الفلسفة الإنجليزية إلّا أنّ أبا الحسن لو فتّشت في كل كتبه لا تجد خطًّا للجاهلية قد غزاه. تجد عند بعض المفكرين من ضعفت نفسه أمام الغرب تجد الجاهلية، ولكن أبو الحسن لا ترى شيئًا فيه من هذا الجانب قطّ، يريد الإسلام بكلّ معانيه.

ومن محاسنه مع أنّه نشأ في بيئة مذهبية، إلّا أنّه نجح نجاحًا باهرًا في الارتفاع عن المذهبية. لم يتحدّث في كلّ كتبه، اقرؤوا كلّ كتبه، لا تجدوا كلمة واحدة يريد أن يسرقك بها إلى مذهبه. ولذلك هو تكلّم عن ابن تيمية، وأنتم تعرفون عند المذهبيين والمقلدّة من هو ابن تيمية، وتكلّم عنه وتكلّم عن المذهبيين؛ تكلّم عن أحمد السرهندي، وتكلم عن الغزالي وهو صوفي، ولما تكلّم عنهم، تكلّم عنهم باعتبارهم شخصيات إسلامية وليس باعتبارهم ممثلين لمدارس فقهية أو مذهبية أو عقدية.

ماذا أُخذ على أبي الحسن؟

المسألة الأولى، وقع صراع الآن أبيّنه بما يمكن البيان به والأمر يحتاج إلى تفصيل، وربّما الوقت لا يتسّع له. والقضيّة الّتي دار حولها الخلاف تحتاج فقط إلى ندوة خاصة بها.

بعد وفاة أبي الأعلى المودودي، بعد وفاته أخرج أبو الحسن كتابًا. هذا الكتاب انتقد صورة المسلم الصحابي –هذه تسميته–، انتقد صورة المسلم المهتدي في كلام أبي الأعلى، ما هي الشخصية.

أوّل شيء أفصّل ما معنى هذه القضيّة، ثم أبيّن تاريخها، ثم أبيّن رأيي فيها.

ماذا يعني هذا الصراع؟ أنتم تعلمون أنّه بسبب دخول المناهج الغربية في قراءة الإسلام –فالمشكلة ليست فقط في قراءة الفروع، القراءة في المنهجية، كيفيّة قراءة هذا الدّين، هل تقرأه قراءة سلفنا، أم تقرأ هذا الدين قراءة غربية. فوقع بعضهم وهذه تمّ فيها انحراف كثير وبعضهم وقع في انحراف يسير، وهي كما سُمّيت في بعض الصور ما هو عمود الصورة للشخصية المسلمة.

يقول أبو الحسن الندوي في كتابه عند رده على أبي الأعلى المودودي وبنائه، وأنا سأفصّل ما ينبغي، يقول بأنّ أبا الأعلى المودودي نظر إلى المسلم بأنّه سياسي متديّن. أوّلًا سياسي متدين. الآن لو أنتم رأيتم شخصية من حزب التحرير وهذه مهمّة، أنا قلت عن الأولى أنّها ينبغي أن يُقال وهذه فرع منها، هذه الكلمة الّتي قلتها هي من أجل ما سأقوله الليلة؛ لأنّ هذا الموضوع هو فرع مما تقدم.

لو نظرتم إلى شخصية المتديّن الّتي ينشئها حزب التحرير أنّه سياسي. هل هو فقيه؟ لا، هل هو عابد يسبّح الليل والنهار ويقرأ القرآن؟ لا. بل هناك كلمات للشيخ تقيّ الدين النبهاني –رحمه الله– يعيب على من حاول جرّ حزب التحرير إلى غير التثقيف السياسيّ للفرد، وبالتّالي عمل الحزب هو الصراع السياسي وجرّه من كونه مفكرًا سياسيًا مثقفًا سياسيًا إسلاميًا إلى أن

يكون فقيهًا مرفوض في سياسة الحزب. يقول هذه محاولات حدثت وفتن وقع بها الحزب لكنّه استطاع أن يمنع تحويل الحزبيّ من مثقف أو مسلم سياسي أو سياسي مسلم إلى كونه فقيهًا أو درويشًا.

إذًا كيف تُبنى الشخصية أوّلًا في شخصية حزب التحرير؟ بأنّه سياسي. فيأتي الدين خادمًا لهذه القضية، أو تكون الوسيلة لفهم الدين أي لصبغ عمود صورة الدين هي الصراع السياسي.

ويقول أبو الحسن بأنّ هناك من صوّر أنّ عمود الصورة للمسلم المهتدي القرآني، إنّما هو القتال وأنه مقاتل، فكلّ ما يأتي من دين بعد ذلك يخدم شخصية الزرادشتي؛ لأنّ الفلسفة الزرادشتية هي فلسفة القوة، فلسفة نيتشة، بأنّ الإنسان يكون قائدا عسكريا ويصارع ويقاتل. ويقول بأنّ مدرسة عليكرة وهذه تجدونها مدرسة علي كرّم الله وجه. عليكرة هي مختصر لعلي، وهذه المدرسة هي ممّا نشأ فيها انحراف غلبة الفكرة الغربية على المنهج الإسلامي، كما هي طريقة محمد عبده وطريقة من معه؛ لأنّهم يريدون تفسير الإسلام تفسيرًا يوافق المنهج الغربي.

يقول بأنّ هناك من أراد أن يبني الشخصية المسلمة على أساس أنّها الشخصية المقاتلة، وبعد ذلك الصلاة خادمة للقتال، الوضوء خادم للقتال، الزكاة خادمة للقتال، أي أنّ الصورة هي الشخصية المقاتلة، كما أنّ في الأولى كما رأينا في الحزب الشخصية هي الثقافة السياسية وبعد ذلك الصلاة خادمة لها إلى آخره، وهكذا.

انتهينا من عرض القضية.

يقول بأنّ أبا الأعلى المودودي وقع في هذا الأسر. وما هو الأسر؟ هو أنّه جعل الشخصية المسلمة فيها غلبة السياسي على العابد وعلى المخبت، وعلى ما ذكرنا سابقًا من قوام الشخصية الّتي أراد أن يبنيها الإسلام كما رآها أبو الحسن الندوي.

اعتمد هذا لما رآه في المصطلحات الأربعة –وهذا سنقرأه فهو من الألف كتاب–، وهو المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم لأبي الأعلى المودودي. يقول بأنّ من قرأ هذه المصطلحات الأربعة رأى أنّ منتهى الصراع في الوجود هو صراع على الحكم والقيادة وليس هو صراعا على من يكون متدينًا ديانة إسلامية أو ديانة غير إسلامية.

أساس هذه القضيّة ليست ناشئا من أبي الحسن الندويّ، وهو أظهر كتابه بعد وفاة أبي الأعلى المودودي، واتهمّه تلاميذ أبي الأعلى المودودي وهم أبناء الجماعة الإسلامية في الهند، اتهمّوه –مع الاعتذار– بأنّه جبان؛ لأنّه أظهر كتابه بعد وفاة أبي الأعلى المودودي ولم يظهره في حياته. وصار ما صار من كلام، واعتذر هو وقال بأنّ الدين أهمّ وأنّ له محبّة لأبي الأعلى إلى آخره.

لكن هذه القضية لم ينشئها أبو الحسن، وكان الذي أنشأها تلميذ أبي الأعلى المودودي وهو وحيد الدين خان صاحب كتاب (الإيمان يتجلّى في عصر العلم)[١]، وهو مع تثبيته لمفهوم للإيمان إلّا أنّ وحيد الدين خان في طرح منهجه التغيري فاسد وأيّ فاسد. وابنه الآن من مناصري الدولة الهندية على طريقة أبيه. وأبو الحسن يرى أنّ هذه النقطة مهمّة، ولكنّها على غير طريقة وحيد الدين خان. وابنه الموجود الآن اسمه ظفر، ويأتي مرات في قناة الجزيرة مدافعًا عن الهند وسياستها كحكومة مع كلّ البطش. بل هو ظفر الدين خان على طريقة أبيه، حتّى بمنع استقلال كشمير عن الهند.

وهذه القضيّة لا أريد أن أخوض فيها فإنّ أبا الحسن الندوي أنا سمعته بنفسي، كان يرى أنّ انفصال باكستان عن الهند كان خطئًا. وحجتهم بأنّ انفصال باكستان -باك يعني أرض مباركة، وستان يعني الأرض- يقول بأنّ الانفصال أضعف المسلمين في الهند. وأنا لا أريد أن أخوض في هذه ربّما يأتي يوم ونتكلّم عنها، وهي تحتاج إلى تفصيل كثير لنرى من المصيب ومن المخطئ وماذا وقع، ويكفي أن أقول بأنّ أوّل رئيس لجمهورية باكستان الإسلامية مات وهو لا يعرف كيفيّة الصلاة لا أن يصلي!

الّذي يسمّونه الإمام الأكبر أو الإمام الأعظم كان لا يعرف كيفيّة الصلاة، وهو خبيث زنديق إسماعيلي ومات وهو لا يعرف الصلاة حتّى على طريقة الإسماعيلية.

ويكفي هذا لا أريد أن أفتح هذا الباب، لكن أرجع إلى القضية وهي أنّ أبا الحسن أنشأ هذه المعركة وأساسها؛ أنّ وحيد الدين خان ألّف كتابًا وكان عضوًا ناشطًا قويًّا في الجماعة الإسلامية الّتي أنشأها أبو الأعلى المودودي، وخرج منها وكتب كتابًا في نقض تصوّر أبي الأعلى المودودي للإسلام. وطرح هذه القضيّة أنّ أبا الأعلى المودودي —حسب عبارة وحيد الدين خان-، رأى الإسلام من خلال المرآة.

لما تقف أنت أنا أراك على حقيقتك، لكن لما أراك من خلال المرآة كيف أراك؟ اليمين في اليسار واليسار في اليمين. فقال رأى الإسلام مركبًا وهو الّذي يسمّيه بعض العلماء بالتشيع -وذكرت هذا في الموافقات-، الإسلام موجود ولكنّه مركب تركيبًا خطئًا؛ الرأس مكان الرجل والرجل مكان اليد وهكذا. فلو رأيت بدنه لوجدته كاملًا لكنّه على غير تركيب سنني.

نعود للقضية، هل أصاب أبو الأعلى أم أصاب أبو الحسن؟

---

[١] هناك كتاب بعنوان (الله يتجلّى في عصر العلم) لمجموعة من العلماء الأمريكيين ولم نجد لوحيد الدّين خان كتابا بهذا الاسم.

أنا مع أبي الحسن الندوي فيها، بأنّ الشخصية المسلمة عمادها هو التعبّد لله والإخبات، ثمّ هذا الإخبات يسيح على بقيّة الحياة. لكن للأسف وهنا نأتي إلى نقد أبي الحسن في نقطة ثانية، أنّ فهم أبي الحسن لقضيّة التغيّير كانت قاصرة؛ ولذلك كان أثره في عملية التغيّير ضعيفًا. نعم له أثر على من قرأ كتبه لكنّه كان يعمل دون أن يدري ودون أن يفهم عمق الجاهلية في بعدها السياسي والعسكري. كان يعمل ضمن الثقافة الإسلامية دون أن يدخل مجال الصراع السياسي والصراع الاجتماعي، ولم يدخل كذلك مؤيدًا لحركات الإصلاح العسكري، إن جازت هذه العبارة.

ولذلك ممّا يؤخذ على أبي الحسن وهذه من جهة شخصية، أنّ أبا الحسن كان تأثيره في الحياة الإسلامية يكاد يكون ضعيفًا. لا أريد أن أقول ضعيف هكذا مائة بالمائة ولكن يكاد أن يكون ضعيفًا؛ والسبب أنّ الشيخ لم يدرك عمق الجاهلية.

وهذه سنأتي إليها في قراءتنا للمصطلحات الأربعة، بلا شكّ أنّ أبا الأعلى المودودي في صياغته للإنسان كان عليه كلام سنأتي إليه في موطنه وعليه ما يُقال.

وللذكر حتى تعرفوا شخصية أبي الأعلى المودودي لما قام وحيد الدين خان بالكلام على أبي الأعلى المودودي، جاؤوا لأبي الأعلى المودودي بكلام وحيد الدين خان، فقال: أنا أعدائي مليون فليزيدوا واحدًا ولم يهتمّ له. والحقّ أنّ الشخصية الديكتاتورية تنتج نعاجًا وهكذا كان أبو الأعلى كان آسرًا فأنتج تلاميذ لم يستطع أحد منهم أن يملأ فراغه. وهذا ممّا يؤخذ على هذه المدرسة.

المهمّ نعود، هذه النقطة الأولى الّتي أُخذت على أبي الحسن.

النقطة الثانية وهو ما اتّهم به بأنّه سنّن التصوّف! أبو الحسن الندوي له كتاب في التزكية وجاء أحد ممّن قرأ هذا الكتاب وقال: لو سمّاه الصوفية لكان حسنًا. وهذا غير صحيح وظلم لأبي الحسن. ويكفي أن نعلم أنّ أبا الحسن لم يكن صوفيًا. بمعنى أنّه لم يمارس الطرق الصوفية الموجودة في الهند، ولا يُعرف عنه أنّه أخذ بيعة أو أنّه ارتبط بشيخ صوفي إلى آخره. لكنّه كان يرى أنّ كتب علماء التصوف في التربية الدينية يمكن أن تملأ فراغًا. هذه كلمة له حقّ فيها في جانب. لكن كتب الصوفية ليتها تُنظّف من جانب الصوفية الفلسفية.

هناك الصوفية التربوية وهناك الصوفية الفلسفية، بلا شكّ أنّ الصوفية الفلسفية غلبت على التصوف من زمن ابن عربي إلى ما بعده، وهي قضيّة تصوف وحدة الوجود إلى غير ذلك. وفي التصوف التربوي غلبت البدعة عليه. فاتُّهم أبو الحسن بأنّه حاول

أن يجعل التصوّف تحت اسم التزكية، وهو قال في كتابه بأنّ هناك مشكلة في الاسم. فلو أحضرت أمور التعبد الإسلامي تحت اسمها القرآن {وَيُزَكِّيهِمْ}؛ لكان هناك ردم للهوة بين دعاة الأمر التربوي وبين خصومهم الآخرين.

هذا ما أُخذ على أبي الحسن في هذه النقطة.

الآن نتكلّم عن قضيّة ما هو عمود الصورة في كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

أنا أترك الآن من يريد أن يعلق على الكتاب حتى نأتي إلى كتاب المسيحية والسيف.

- **سؤال: يا شيخ أنت دائمًا علمّتنا أنّنا لمّا نقرأ كتابًا نعرف ماذا يريد الكاتب من هذا الكتاب أو الباعث على التأليف. أنا فهمت أنّ قصد الشيخ –رحمه الله– من تأليفه هو إعادة العزّة أو بناء الشخصية المسلمة وبناء ثقته في دينه. هو لم يكن يطرح كيفيّة التغيير، كيفية إيصال الرسالة، يعني آخر شيء طرحه بتعليقات في أسطر قليلة، أنّه الثقيف الصناعي السياسي العسكري، يعني ماهي أسباب عدم إنتاج جيل استطاع التغيير والكتاب أُلّف سنة ١٩٥٠ تقريبًا، وكانت مقالته في البداية في التحليل وإعادة الثقة، فما هي الأسباب التي حالت دون تغيير من أجيال التغيير ينسب للندويّ؟ هل مثلًا لأنّه ما طرح نظرية تغيير واضحة في الكتاب؟**

الشيخ: هنا أخ في البالتوك يقول في نهاية الكتاب كنّا نود أن تكون هناك حلول عملية كما يقول ياسمين خان كلّها حلول نظرية، نفس كلام أبي عمر.

هل هناك أمر آخر؟

أنا أعلّق على هذه الكلمة: الحقيقة لنكن منصفين. أوّلًا أبو الحسن لما تكلّم عن كيفيّة حدوث تغيير الصحابة للعالم فهو في الحقيقة ذكر رؤيته، نعم هي ليست رؤية تفصيلية ولكنّه التفت إلى الركن الرئيس فيها –أو الرئيسي–. صحيح لم يقل افعل كذا، وعليه أن يقوم بكذا، ولكنّ أبا الحسن في بداية كتابه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ذكر كيفيّة حدوث اللمسة الإيمانية في نفس الصحابي؛ حتّى تحوّل إلى إرادة فاعلة، إلى التغيّير، إلى أن يكون عبدًا لا كَلًّا، كما هو وصف القرآن بين العبد والكَلّ. وأنّ هذه الشخصية الصحابية كيف انتقلت من حالة الخمول إلى حالة تغيير العالم. وهو لم يفصّل، وفي الحقيقة سيّد في معالم في الطريق وهو أحد الكتب الّتي سنقرأها إن شاء الله تعالى، فصّل قليلًا في حدوث الشخصية الصحابية كيف حدثت هذه

الشخصية الصحابية، هو أبقاها على هذا المعنى أنّ الإيمان بالله وقضيّة الغيب والآخرة أحدثت هذه الفعالية. والصلة بالملائكة ما يشرحه الإمام ابن تيمية –رحمه الله– عندما يتكلّم عن المقاصد ويعيب على الفقهاء الّذين ينظرون إلى مقاصد الأعمال الدنيوية دون النظر إلى الأخروية ورضا الله والعلاقة مع الملائكة والغيب والجنّة والنّار إلى آخر ذلك، فأبو الحسن يذكره.

لكن لماذا لم يفصّل، أوّل شيء علينا أن نعذره. السبب في هذا أنّه كتب الكتاب وهو شاب. شاب في مقتبل عمره يكتب هذا الكتاب بهذه الثقافة وهذه اللمسة فهذه منقبة له والرجل لم يبلغ الثلاثين من عمره. ومثل هذه القضايا وهي وضع برنامج للتغير في الحقيقة هذه لا تنشأ مع شاب.

الأمر الثاني أنّه ضمن مدرسة. فأبو الحسن كان ضمن مدرسة الديوبند وهي مدرسة دار الندوة. أُنشئت هذه المدرسة من أجل اللغة؛ لأنّهم كانوا في ديوبند يدرّسون حماسة أبي تمام ولا يعرفون العربية. وأنا قبلت ديوبنديين يدرّسون حماسة أبي تمام ولا يعرفون كلمة من العربية إذا تكلّموا، لا يستطيعون الكلام بالعربية. يقرؤون شعر الحماسة العظيم البليغ ويفسّرونه بالأردية، وإذا كلّمته بالعربي لا يفهمك. ولما رأى أبو الحسن وغيره هذه المصيبة في عدم إتقان العربية؛ ذهب وأنشأ دار الندوة على غرار دار العلوم. فدار العلوم أُنشئت للّغة بعيدًا عن الأزهر.

ودار الندوة التي كان قائمًا عليها أبو الحسن الندوي وتنسب للندوي، وهم أغلبهم أعظميون وهو يكون خالهم. أنشأوا دار العلوم من أجل هذا، من أجل قضية اللغة. ولذلك كان أبو الحسن يتقن اللغة العربية كما هي عادة خرّيجي دار الندوة.

إذًا هو كان ضمن مدرسة. يعني لو أردنا أن نرى أبا الحسن كيف يعمل سنراه ضمن المدرسة. وأما إذا أردتم أن تقولوا كيفيّة طرح أبي الحسن للتغيير، هو كان أميل مع أنّه كان يحترم الجماعات الأخرى؛ يحترم الجماعات الأخرى من المسلمين وله علاقات طيبة معهم، وبقيت علاقاته طيّبة مع أبي الأعلى المودودي إلا أنّه أقرب ما يكون إلى التبليغ لأنّه يرى أنّ هذه لمسة وهي لمسة ضعيفة عند التبليغيين، لمسة فقيرة وفيها بعض المرض. يعني التبليغيون عندهم أمران وهو كان يميل إليهم. أوّلًا هو ضعف لمستهم في عدم إحاطة جوانب العبودية. الثانية وجود الدخن. وهذا نقص موجود فينا وموجود في الآخرين، لكنّه في جماعة التبليغ باعتبارهم يرون أنفسهم لمسة التغيير في العالم هذا يُؤخذ عليه في هذا الجانب.

النقطة الثانية الّتي طرحها الأخ وهي أين نتاج عملهم؟

الجواب: أنتم. لولا جهود هؤلاء المفكّرين لحماية الهوية الإسلامية وتعميق الثقة بهذا الدين، من قبل هؤلاء المشايخ، واهتمامهم ببناء المسلم سواء كان على نقص أو بشيء من الدخن النتيجة؛ هو أنتم. ما نراه من العالم الإسلامي وهذا الذي أنتم عليه من الوعي في قضيّة الحرب مع الجاهلية، وقضيّة مفارقة الجاهلية تحت أساس التوحيد، ما الذي حمى الهوية خلال هذه المعركة السابقة؟ هم هؤلاء. نعم أبو الحسن لم ينشئ جماعة؛ لأنّه لم يؤمن بهذا، وكان يعمل ضمن خطوط الجماعات الموجودة.

وهو لا يملكه في الحقيقة. ولو أردنا أن نقول هل أبو الحسن الندوي يملك قوة الإرادة والشخصية الّتي نراها في الحسن البنا؟ الجواب: لا. في أبي الأعلى المودودي؟ الجواب: لا. لا نرى هذا، ويكفي أنّه قام بما قدر عليه. ولكن ممّا يُعاب على أبي الحسن الندوي أنّه لم ير جوانب التغيير الأخرى على طريقة التبليغيّة، فيه قصور، وإن كان يتعامل مع الأنظمة الحكومية ويتعامل مع المنظمات بإحسان الظنّ وغير ذلك، ولذلك وقع منه ما وقع.

هل أحد عنده موضوع آخر؟

- **سؤال: ذكر الشيخ الندوي كيف بدأت الأمم وتاريخ الأمم -يعني الأَسْوَد-، حتّى جاء الصحابة وغيّروا، فهل قول عمر: "إنّما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية"، هل لا بدّ من قراءة التاريخ من أجل التغيير؟**

الشيخ: السؤال الذي طرحه الأخ مركّب. لا دخل لكتاب أبي الحسن الندوي في قضيّة ضرورة معرفة الجاهلية. لا يوجد في الكتاب أيّ إشارة لهذا. هو يتكلّم عن قضيّة صدمة الإسلام وصدمة الصحابة من الجاهلية، قذيفة الحقّ الّتي مثّلها الصحابة في إضاءة ظلام العالم هو ما أراد أن يقوله، وأنّه لما ذهب هذا الضياء وهذا الحقّ انظروا ماذا حدث للعالم. هذا الّذي يريد أن يقوله، وأنّه بغياب المسلم الصحابي وغياب المسلم القذيفة (قذيفة الحقّ) {بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ}، يشكو العالم من ظلامات الظالمين وظلمة الجاهلين فيه.

هناك نقطة مهمّة جدًا أختم بها الكلام على (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) أجّلتها إلى آخر شيء، وهي في ثلاثة محاور.

الرجل يتكلّم في الخمسين، في العشرية الخامسة من القرن الماضي، ويتكلّم عن سقوط الحضارة الغربية، في ذلك الوقت هم يستطلعون كلمات يسيرة يقولها السياسي ويقولها عالم النفس، ويقولها الباحث الاجتماعي، مع أنّ الغرب في ذلك الوقت كان

في أوج قوّته وقوّة حربه ومتانة أمره الاقتصادي، ولكن الحقيقة في هذه النقطة أنا أشهد أنّ هناك أمرًا ربّانيًا، قذيفة حقّ في قلوب هؤلاء الناس، أن يكتبوا هذا الكلام في ذلك الوقت.

اليوم في هذا الوقت الذي نرى فيه الجهاد على مشارف فلسطين، ونرى حراكًا إسلاميًا يملأ العالم ونرى صحوة تمتدّ في الأفق، نعم ليست عميقة ولكنّها في الأفق منتشرة ثمّ يأتي من يشكّك بنصر الإسلام من المشايخ. وهم من أمثال سيّد في المستقبل لهذا الدين وغيره ممّن كان يرى أنّ الإسلام قادم وأنّ الغربة الثانية لا بد أن تزول شاء الغرب أم أبوا هذا ماذا إذًا؟ مع كل الّذي كانوا يرونه من انحطاط المسلمين فهو قد سمّاه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين). **كان أهل الإسلام يعيشون الانحطاط بكل معنى الكلمة، والمفكّر الذكي إذا طاف بلاد المسلمين لا يرى إلا الفكر اليساري والفكر القومي وهكذا، لا يرى إلا انحطاطًا اجتماعيًا على مستوى العامّة وغيابًا عظيمًا من القادة، ومع ذلك كان أبو الحسن وغيره يتحدّثون عن نصر الله للإسلام. فهذا نور ربّانيّ وعطاء إلهي. جزاهم الله خيرًا.**

وأشهد الله مرّات بيني وبين نفسي وهذا اعتراف، أقول لو أنّي عشت في زمانهم كيف سيكون أمري. معقول يكون الثقة بنصر الدين كما هي هذه، وهذا يدلّ على أنّ الأمر إلهام رباني وعطاء إلهي.

هذا محور.

المحور الثاني: انظروا إلى ما يقوله سيّد المستقبل لهذا الدين، وما يقوله أبو الحسن بأنّ الدين لا بدّ أن يعود وأن النصر آت، انظروا إلى هؤلاء المهديّين من قراءاتهم لتاريخ البشرية، وانظروا إلى رجل في العشرية الأخيرة من القرن الماضي، فوكوياما وهو يبشر بنهاية التاريخ! ماذا تعني نظرية نهاية التاريخ؟ تعني أنّ صراع الأيدلوجية قد انتهى. كل شيء انتهى، كل الديانات والمذاهب والعقائد كلها راحت، وورثها إمام التاريخ وهو أمريكا. لا يمكن لهذه الحضارة الأمريكية أن تنزل ولا أن تهبط، نهاية التاريخ، سكّرنا التاريخ وصراعات التحولات بين الشرق والغرب، لأنّ في التاريخ الصراع بين الحضارة. هذا بمفهومها الإنساني وليس بمفهوم سيّد للحضارة باعتبار كلمة الحضارة وصفًا مدحيًا. فسيّد في معالم في الطريق يقول لنا، يَهُبّ على مالك بن نبي كالأسد يقول له أنت تطلق كلمة الحضارة على الغرب هذه كلمة مدحية لا يستحقها الغرب. لكن نحن نتعامل معها على اعتبارها بناءً إنسانيًا من غير وصف المدح. كان واقع الحضارة ينقلب ما بين الشرق وبين الغرب، بين شمال المتوسط وجنوبه، مرّة الحضارة يأخذها هذا ومرّة هذا، ويبدأ الصراع بيننا وبينهم.

يقول فوكوياما وهو أحد راسمي السياسة الغربية من عصر بوش إلى يومنا هذا، ثم غيّر جاء إلى بريطانيا وغيّر، بلع كذبته في نهاية التاريخ واعتذر عنها، وقال بأن التاريخ قد أُغلقت كتبه وانتهت إلى انتصار حضارة أمريكا ولا تبدّل لهذه الحضارة. وفقط لو قرأ هذا المسكين آية من كتاب الله {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرْ}. قريش قالتها من قبل، ولينين قالها من قبل، قال أنّ العالم سينتهي من الشيوعية، وأن التاريخ يعود إلى سيرته الأولى الفطرية وينتهي العالم، فنظرية نهاية التاريخ هذه قالها من قبله، ويقولها فوكوياما وعلمائنا يقولون المستقبل لهذا الدين.

المحور الثالث وهو أنّ أبا الحسن الندوي نظر وقرأ تفرّعات الضّلال في داخل الحضارة الأوربية والمفاسد فيها وما وقع فيها من جرائم. وأنبّه إلى كلمة محمد قطب -رحمه الله- حين يقول بأنّ أساس كل المفاسد النفسية السياسية الاقتصادية الاجتماعية الدينية تعود إلى نظرية دارون. وأنا ذكرت هذا لأنّ أبا الحسن -رحمه الله- أعطى نظرية دارون مساحة واسعة من الكتاب. وكلمة محمد قطب أوسع دلالة وأكثر عمقًا. ويكفي أنّ الرجل قالها وهو كبير، وهذه كلمات شاب فالمقارنة ظالمة ولا شكّ. ونظرية دارون هي التي أنتجت الفساد الفرويدي، وأنتج الفساد النفعي (دعه يعمل دعه يمّر) لآدم سميث، أنتجت الفساد الاجتماعي، وهكذا. يقول منصفًا محمد قطب -رحمه الله- يقول إنّ دارون كان بريئًا من هذه النوايا ولكن النوايا السيئة استغلته.

ويكفي إلى هنا.

أشكر إخواني هنا في البيت وإخواني كذلك في البالتوك وحفظكم الله، ورجاءً مرة ثانية اقرؤوا وتناقشوا.

وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[٣]

مناقشة كتاب (المسيحية والسيف) لبرتولومي دي لاس كازاس

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وسيّد البشر محمّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين.

أمّا بعد؛

أيّها الإخوة الأحبّة، أهلًا وسهلًا بكم في لقاءنا الثاني. وهو في الحقيقة اللقاء الثالث حكمًا؛ لأنّ هذا اللقاء كان ينبغي أن يكون في الأسبوع الفائت، ولكنّه تأجّل بسبب المرض، وأجّلنا كذلك النقاش في الكتاب وأضفنا عليه كتابًا ثالثًا لئلا يأكلنا الزمن، وهو كتاب **المسيحية والسيف**.

الحقيقة أنّ اختياري لكتاب (**المسيحية والسيف**) أن يكون رديفًا بسبب تأجيل البحث فيه وقراءة كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن الندوي، اخترت هذا الكتاب؛ لأنّه ضمن السياق. أنّه لما انحطّ المسلمون وخسروا كان هذا الذي قرأتموه في هذا الكتاب (المسيحية والسيف).

وأنا أتحدّى من قرأه وأُزعِج في النوم أن يعترف، أنّه لما قرأه تعب في استقدام واستجلاب النوم، أما أنا فأقلقني لمدّة أسبوع هذا الكتاب. وهو أمامي لما أقوم أصلي، لما أجلس منفردًا، فهذا الكتاب أمامي من شدّة الألم الذي أحدثه في نفسي. وهناك كتابان هذا الكتاب وكتاب ثان أحدثا هذا الألم النفسي في نفس قارئيه، هذا الكتاب (المسيحية والسيف)، والكتاب الثاني –وسجّلوه وهو قريب ضمن المشروع–، وهو كتاب (المتعة) لشهلا الحائري. وكتاب (المتعة) لشهلا الحائري قراءة اجتماعية لواقع إيران قبل الثورة وبعد الثورة في قضيّة تطبيق مذهب المتعة الّذي تعرفونه.

شهلا الحائري جدّها هو أحد مراجع الشيعة الكبار. فحاولوا اقتناء الكتاب.

قبل أن ننتهي هناك الكتاب الرابع الذي بين أيدينا في الأسبوع القادم إن شاء الله وهو كتاب (مذبحة التراث) لجورج طرابيشي. أرجو من الإخوة إذا كان هذا الكتاب لدى أحدكم أن يصوّره وينشره على الكمبيوتر ليطّلع عليه الإخوة؛ لأنّي لا

أظنّ أنّه منشور في النت، لكن قرأت بعض التعليقات عليه، وهو كتاب مهمّ؛ لأنّه يكشف لعبة الأخباث في تدمير تراثنا الإسلامي، مع أنّه نصراني لكنه منصف وذكي. وسيأتي الكلام عليه.

كتاب المسيحية والسيف هو صورة من صور بيان خسارة العالم بسبب انحطاط المسلمين، وأنّ العالم كيف يصبح بهذه الدرجة من الوحشية والتوحش والانحطاط والسفالة؛ إذا غابت قيادة الرحماء وقيادة أهل الحقّ له. هذا هو موضوع هذا الكتاب المسيحية والسيف. وأهمّية هذا الكتاب وعادة من فضل الله وهذه أثبتها للتاريخ: من رحمة الله في إقامة الحجة الربّانية على الخلق أنّه ما من شرّ حدث في العالم إلا وكشفه أبناء هذا الشر.

وليم الصوري هو الذي كشف لنا، ولو جاء أهل الإسلام وتكلّموا ربّما لم يُصدقوا، وما تكلّموا في الحقيقة كما تكلّم وليم الصوري، هذا القسيس الخبيث الذي رافق الحملة الصليبية الّتي دخلت بيت المقدس، في مجلدين ترجمه سهيل زكّار دكتور في جامعة دمشق، وهو سجّل هذا. فما من شول حدث في الوجود إلّا وأهله قد سجّلوا هذا الشرّ بأنفسهم، حجّة من الله –عزَّ وجلَّ– على الخلق أنه بيدك تكتب.

والمسيحية والسيف هو من حجج الله على هؤلاء المجرمين عندما دخلوا أمريكا واستكشفوها.

ابتداءً أريد أن أقول في هذه القضية هذه سجّلوها في أذهانكم واحفظوها حفظًا جيدًا، وهي كيفية معالجة الغرب لمشاكله: يعالجها عن طريق الغسل. في تاريخه ما من وقت يصل فيه الغرب إلى درجة ما يسمّى بالحرب الأهلية الفقر؛ لأنّ الفقر قدر لازم لمنع الصدقة والربا. قدر لازم لا ينفك عنه.

الغرب الآن يهوي إلى الفقر، ليس بقوّة بل رويدًا رويدًا؛ لأنّه في الحقيقة ما يشبه الزكاة وهو ما يسمّى بالضمان الاجتماعي. ولكن الربا هو داء هذه العصا التي يتكئ عليها الغرب والربا يأكل منسأته. فالغرب بسبب الإقطاع وبسبب الفساد الاقتصادي بالربا تنشأ فورًا مظاهر التوحشّ؛ الفقراء، المشاكل، الصراع بين العامّة وبين الملأ، فتنشأ هذه الصراعات. الغرب ذكيّ وله تجربة تاريخية يعرف كيف يحلّها؛ لأنّ طبيعة الغرب هي طبيعة قاسية.

يذكر أستاذ حسين مؤنس في كتابه الحضارة وهذا كتاب مهمّ جدًا — لا أدري أذكره في الألف كتاب أم لا ولكن اقرؤوه ضعوه، ربّما تختار بدلا منه كتابا آخر ولكن نبقيه على الاحتياط يمكن نصل إلى ١٥٠٠ كتاب–، يكشف لنا هذا الرجل الإسلامي العظيم أنّ سبب النشاط الّذي تنطبع به بعض الأمم والكسل الّذي تنطبع به أخرى؛ سببه هو قسوة الحياة، قسوة

لقمة الخبز كيف يحصّلها. هم يقولون الإفريقي خامل؛ لأنّ جيناته خاملة، يقول لا ليس صحيحًا؛ ذلك لأنّ إفريقيا هي بلد الخيرات، بلد إستوائية المطر ينزل عليها أربعة وعشرين ساعة، فالخيرات كثيرة. فوجود الخيرات الكثيرة نتيجته الكسل.

الإنسان الغربي لماذا فيه هذه القسوة؟ السبب أنّ لقمة الخبز في الحقيقة قاسية في الحصول عليها. ومن يعش في الغرب يرى هذا، تصوّر أنّ مساحة أوروبا هي مساحة السودان قبل الانفصال. أوربا الغربية هذه كلها مساحتها تعادل مساحة السودان، ويعيش فيها الملايين، وطبيعتها قاسية جدًّا؛ البرد الشديد، والجبال وكذا، فإذا أراد الغربي أن يأكل لا بد أن يصارع. هذا ما سمّوه صراع البقاء. هذه الطبيعة الأرضية أنشأت إنسانًا قويًا. ولا أريد أن أتحدّث عن فضائل الغربي ويكفي أن تقرؤوا في صحيح مسلم كلام عمرو بن العاص عن خصال الغربيّ الّتي سمّيتها أسباب البقاء الحضاري. لماذا الحضارة تبقى وكيف تزول؟ ويكشف لنا عنها عمرو بن العاص –رضي الله عنه– في حديث المستورد بن شداد وهو في صحيح مسلم، والحديث موقوف وليس مرفوعًا.

فالإنسان الغربيّ لما تنشأ المشاكل وعنده شعور العظمة؛ بسبب تاريخه أنّه يصارع ويأخذ حقّه بيديه ويكتسب مكاسبه من خلال صراعه مع الآخرين، هذه النفسية تنتج نفسية عزيزة مع الحاجة. النفسية العزيزة أنت تضعها بديلًا للعقيدة. كيف؟ هل خرج العربيّ من جزيرة العرب تحت وطأة الحاجة ليحكم العالم أم خرج لأجل عقيدة؟ خرج لأجل التوحيد. التوحيد والعقيدة لا يوجد عند الغرب. طبعًا العقيدة أفرزت العزّة النفسية الموجودة في داخل نفسية المسلم الصحابي. الغرب لا يوجد عنده عقيدة عنده شيء واحد، عنده العزة النفسية الّتي مبعثها أنه ينبغي أن يحكم العالم، هكذا. لماذا؟ بسبب شعوره أنّه لما يريد شيئًا يقبض عليه.

ومن هنا فإنّ الغرب اليوم هو وارث العقيدة اليونانية. العقيدة اليونانية قائمة على صراع البشر مع الآلهة وانتصار البشر على الربّ. لو قرأتم الإلياذة اليونانية فمحطّها وعمود صورها؛ هي قضيّة صراع الإنسان مع الآلهة. ومن ينتصر؟ الإنسان. هذه هي العقيدة، أنّه هو ينتصر على الربّ على الإله في تصوّره فكيف لا ينتصر على الإنسان!

مع الحاجة الشديدة والقسوة تؤدي به إلى الغزو المتكرّر؛ ولذلك كلّما نشأت المشاكل نشأ الغزو. الحروب الصليبية، لو تقرؤون سيرة الغرب وما وصلوا إليه من حالة عجيبة جدًّا من الفقر ومن الإقطاع وغلبة أصحاب الأموال والجوع؛ النّاس يأكلون

الفئران، بل يأكل بعضهم بعضًا. هذا الجوع مع عزّة النفس هو الّذي بعثه أن يعود؛ تحت ستار العودة إلى قبر المسيح ليخلّصه من الوثنية.

الحركة الثانية بعد الحركة الصليبية جاءت حركة الاستكشاف. وحركة الاستكشاف كان توقيتها مع سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس. ونحن الآن قرأنا في كتاب المسيحية والسيف، رأينا أنّ أئمة الاستكشاف للقارة الأمريكية هما فرديناند وإيزابيلا، هذا الرجل وزوجته هما من بعض ملوك أوربا، وهما من قضوا على أهل الإسلام في الأندلس، وأنشؤوا ما يُسمّى بمحاكم التفتيش. وللأسف من كشف محاكم التفتيش ليس نحن، هي حدثت ضدّ المسلمين واليهود، والّذين ذاقوا ويلاتها هم المسلمون، واليهود تبعًا، ولكن الّذي كشفها هو نابليون. الّذي كشف محاكم التفتيش لما دخل إسبانيا وبدأ يفتش في الكنائس، وجد في الكنائس ملاحم. لم يجد كنائس، وجد فيها جزّارين، وجد فيها مسالخ بكل معنى الكلمة!

وهذا الصنف الّذي أحدث هذه النفسية من خلال سلخ المسلمين، هو الذي ذهب لاستكشاف أمريكا. لا نريد أن نتكلّم عن اكتشاف أمريكا وكيف أنّ كولمبس أخذ خرائط تركيّة وذهب مع بحار مسلم. دعونا من هذا، كلّه بكاء على الأطلال لا يزيد إلّا ألما في هذه الأيّام، فذهبوا إلى أمريكا وفي أمريكا ما هو أقلّ رقم مذكور في كتب التاريخ في عدد الهنود الحمر المقتولين، كم عدّوهم؟ ما هو أقل رقم مذكور في التاريخ في عدد الهنود الحمر الّذين قتلهم المستكشفون؟ أقل شيء ١٥٠ مليون. وإلّا فصاحب هذا الكتاب (المسيحية والسيف) يقول عدد القتلى مليار! وهو ذهب مع أكثر من حملة استكشافية إلى أمريكا.

ولذلك أُبيد الهنود الحمر. فأنا أرجو منكم أن تقرؤوا هذا الكتاب (المسيحية والسيف)؛ لأنيّ لا أستطيع ولا يستطيع أحد أن ينقل لك ما فيه من المجازر والآلام الّتي أحدثها هؤلاء المجرمون في هاته الشعوب المسالمة!

ولذلك أريد أن أنبّه على ما كان يُسمّى بأفلام الكوبوي قديمًا، كيف صوّرت السينما؟ ولما تكلّمت في الدرس الفائت عن مجلّة شعر قلت الذي دعّمها هو البنتاجون. ما دخل البنتاجون في الشعر؟ البنتاجون طيّارة ودبابة وسلاح فما دخله بمجلة شعر؟ يدفع ليوسف الخال وأدونيس وأنسي لويس الحاجّ لماذا يدفع؟ لأنّه في الحقيقة كما يقول شاكر وكما يقول صاحب الكتاب أنّ مادة الاستعمار ماذا؟ تبشير. ما هي قذيفة الاستعمار الّتي تمشي أمام الاستعمار؟ التبشير.

فهذا يؤيد هذه الفكرة. يعني أشهر ممثّل لأفلام الكوبوي وأشهر واحد كان في كلّ عام هو جون واين، مشهور هذا الشخص، ثبت أنّه كان يُعطى أجورًا مضاعفة من البنتاجون على أفلامه. من أجل ماذا؟ تصوير هذا المسكين الهندي الأحمر

بأنّه قاتل وهمجيّ وعدوّ للبشرية يريد أن يسرق حقوق الآخرين! جماعة قادمون من أوروبا ليأخذوا أرضه ويصوّرونه بهذه الصورة، الغباء. ولعلّ كتاب هذا النطران البرتغالي، لعلّ قوله الحقيقة يخفّف عنه شيئًا من العذاب يوم القيامة؛ أنّه قال الحقيقة وكشف كيف كان هذا الشعب مسالمًا.

ووالله ما قرأت هذا الكتاب واليوم أعدت قراءتي له ما قرأته إلّا وحزنت أنّنا لم نفتح نحن أمريكا؛ لأنّي أعتقد أنّه لو دخلها أهل الإسلام لكن {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}، فكلمة "لو" هذه ممنوعة منّا، لكنّي أقول لو وأستغفر الله–، لو دخل الإسلام أمريكا لما وجدت الهنود الحمر إلّا مسلمين بطيبتهم كما يصورها هذا الكتاب. بطيبتهم، وكرمهم، وحسن ضيافتهم، وحسن أخلاقهم. وأثبتت الدراسات الحديثة أنّه كانت مقدّمات بناء الحضارة موجودة عندهم، من النظام السياسي الرائع في القبائل، من نظام شبكات الريّ الموجودة عندهم كان شيئا عجيبا، صُدموا بهجوم هذا المجرم الأبيض القادم إليهم من أوربا كالجراد يجتاحهم.

فاقرؤوا هذا الكتاب رجاءً ولن يتعبكم بأفكار ومناقشات، فقط أخبار كيف يصل إجرام هذا الإنسان الغربي أمام أناس يستقبلونه بالترحاب ويقدّمون له قدم الضيافة وتكون النتيجة كما تعلمون.

إذًا كيف تحلّ أوربا مشاكلها؟ الغزو، ثمّ الغزو، ثمّ الغزو، وهكذا. ولما انتهت حروب الاستكشاف وصارت مشاكل كيف حلّوها؟ بحركة الاستعمار. وأوروبا في اعتقادي هي قادمة إلينا مرّة أخرى، والأحاديث تثبت ذلك. يأتون إلينا تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية ثمانون ألفًا إلى آخره.

الآن أنا أريد فقط أن أستغلّ هذا بفكرة لا يمكن أن أتكلّم عنها بوضوح إلّا بعد أن أقدم ما قدّمت من المقدّمة الأولى وهي: يا قوم، يا جماعة، يا أولاد الحلال، أمريكا كيف قامت؟ يا مسلمون، أمريكا كيف قامت؟ قامت على إفناء الآخر. فالجزر الإنساني الأمريكي يقوم على أنّه موجود، هو يشعر وهو موجود في داخل الأرض. لا أتكلّم عن أمريكا الشمالية فقط، حتّى الجنوبية على فكرة، لم يبق من الشعوب هؤلاء الآن في الأرجنتين، في البرازيل، في البيرو، هؤلاء أغلبهم إسبان. الشعوب الأصلية بادت كما أبادوها في أستراليا. إبادة كاملة، أنت تتكلّم عن مليار! تتكلّم عن رقم ١٥٠ مليون بني آدم قُتل! شيء مذهل. فالأرض فرّغت إلّا من هؤلاء المجرمين.

أريد أن أقول بالله عليكم هل يستطيع أن يصعد المنبر ابن زنا ليتكلّم عن الطهارة والعفّة، لا نقول هو زاني بل هو ابن زنا هل يستطيع؟ ابن زنا والناس يعلمون أنّ أباه غير معروف ويخرج يقول أيّها النّاس؟ يخجل. فهل تريدون من الغرب وأمريكا أن تتحدّث مع إسرائيل، الّتي قامت على اغتصاب الشعب، وجزر نفوسهم مركوز فيها، شعب قام على إفناء الآخرين؟!

لذلك الّذين يتحدّثون بغباء عن طلب العدالة من الغرب هؤلاء...! ابحثوا عن أعظم وصف في الغباء في كتب المعاجم وضعوه مكان الثلاث نقاط.

ممّا يستدعي انتباهك أول ما تقرأ هذا الكتاب هي قضيّة المقارنة. لا يوجد في تاريخ البشرية –وقل قالها أبو قتادة– أمّة غزت أمّة فغلبتها فصار المغلوب سيّدًا على الغالب إلّا في أمّة الإسلام. لا يوجد في تاريخ البشرية قطّ أمّة غزت أمّة فغلبتها فصار المغلوب سيّدًا على الغالب إلّا في تاريخ الإسلام. ولذلك فليقارن بين لما هم غزوننا ولما غزوناهم نحن. لما ذهب أهل الإسلام وفتحوا بلاد السند والهند وبلادًا تركب الأفيال، لما غزو فارس من صار أئمة الإسلام؟ من صار علماء الإسلام؟ من الذي حمى الإسلام بعد ذلك؟ هم المغلوبون.

غلبناهم وصاروا علماء وقادة وتبحث عن العالم العربي لا تكاد تجد في وقت من الأوقات إلّا هم. علماء اللغة من حفظها هم علماء الأعاجم الذين أسلم آباؤهم فصار أبناؤهم علماء هذه اللغة. تعرفون سيبويه أبوه كان لا يستطيع أن ينطلق الطاء. كان يتكلّم معه فينطقها أعجمية، وسيبويه هو سيبويه، وأبوه ليس عربيًا ولا يستطيع أن ينطق العربية نطقًا صحيحًا. كلّ علماء الحديث وعظماء علماء الأحاديث هم عجم. فهذا يدلّ على ماذا؟ أنّ الإسلام رحمة لإدخال النّاس، فلمّا غلبوا على ما يحصل به التقوى والإمامة صاروا هم الأئمة.

هناك قضيّة ثانية: التتار دخلوا علينا وهم مشركون فصاروا إيش؟ لم نقلدّهم نحن بل هم صاروا مسلمين. هذا لتروا هذا الفارق بين هذه الأمّة العظيمة الّتي حملت دعوة الله وكلمة الله إلى البشرية وبين الأمم الأخرى ماذا فعلت. هناك فروق عبثية بينهم.

كم قُتل في أوربا في الحرب العالمية الثانية؟! خمسين مليون إنسان في حرب بين نصراني ونصراني فقط على السيادة والإمارة والتملّك!

هناك كلمة أوّل الكتاب لما تقرأه تستحضرك كلمة لتوتو وهو أسقف جنوب إفريقيا. هذا كان أسقفًا في جنوب إفريقيا للسود، وكان محاربًا للأبارتيد وهي الفصيل العنصري. وكتب مذكّراته فقال فيها: "جاءنا الغرب فأخذوا منا الأرض وأعطونا

الإنجيل". هم وثنيون، فجاءهم نصارى خدموهم وأخذوا منهم الأرض. هذه مقايضة، بالرغم أنّ توتو خبيث ويكره الإسلام. يعني في كتابه يكره الإسلام ويرى أن البشرية لا سعادة لها إلّا بالنصرانية. ماذا نقول {أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}.

الكتاب فقط يعطيك المعاني الّتي أعطيتها لكم من قضيّة قراءة هذا الكتاب المؤلم، ودعواهم أنّ عصر الاستكشاف هو عصر تنويريّ مثل البقر الّذين عندنا يعدّون أنّ نابليون فتح مصر! وهكذا فعصر الاستكشاف، فيكشفه لنا هذا المطران الذي نسأل الله –عزَّ وجلَّ– أن يخفّف الله عنه في النار.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

نعود إلى الأسئلة. هل أحد يريد أن يعلّق بشيء على الكتاب؟

- **سؤال: هذه الكتب وهذه القصص ومثلها الكثير ما هو آثارها على الشعوب الغربية والأوربية، ماذا يحكون عنها؟**

الشيخ: سؤالك رائع، سأجيب جوابًا عجيبًا لكنّه يجيبكم. يسأل أخونا أبو عمر يقول لما يقرأ الغربي هذه الكتب ما هي ردّة فعله؟ ردّة فعله هي ردّة فعل الإنجليز لما أخذوا كأس العالم من الألمان في العشرية السادسة من القرن الماضي. يعني تعرف كيف غلبوا؟ دخلوا بهدف مشكوك فيه. فيقولون أخذتم كأس العالم كذب، فقالوا لا يهمّ. هذا هو الجواب يا أبا عمر.

أنا متأكّد وهنا أعلنها متأكّدًا مائة بالمائة؛ لأنّي حاورتهم كثيرًا في السجن ليس لي إلّا الجلوس معهم ومع إخواننا، فحاورتهم وعرفت نفوسهم معرفة تامّة. الغربيّ –وهذه نقطة مهمّة– لا يوجد عنده عقدة الندم. لماذا؟ لأنّه لا يؤمن بالخطيئة. لا يوجد عند الغربيّ شعور الخطيئة قطّ؛ لأنّه لا يؤمن بالخطيئة. إذا ذهبت إلى أي إنجليزي وتقول له أنت كذّاب يقول وما يعني؟ ما المشكلة؟ أما أنت إذا ذهبت إلى ولد صغير عندنا عمره ١٣ سنة تقول له كذّاب يمكن يكسر لك السيارة. هو يمكن يكذب لكن لا يكذب لدرجة أنّك تقول عنه كذّاب ثم يستملحها ويعتبرها ذكاءً. الغربي إذا قلت له أنت كذّاب فرح!

نحن نتكلّم عن النفوس. لو قلت له أنت كذّاب يقول وما المشكلة. لا أتكلّم تمثيلًا فيما لو حدث بل هو يحدث، تقول له كذّاب يقول وما المشكلة. بعد أن يكذب فتكتشف كذبه يقول عادي، هو يقول لك أنا كذبت وأنت لو شاطر امسك بي. فلمّا تمسكه يقول لك أنت شاطر؛ أنّك أمسكت بي ولكن ليست مشكلة.

فتتعجّبون أنّه قتل مائة وخمسين مليون وفرح! تقول له بلادك تحكم العالم وتسرق يقول شكرًا لها.

للذكر إخواني تذكرون لما صارت فضيحة أردوغان. لما قالوا هناك فضيحة اقتصادية في الاقتصاد التركي. ما الفضيحة الاقتصادية؟ أنّ هناك بنوكًا ذكيّة تحايلت على العقوبات الدولية على إيران؛ فتعاملت مع البنوك الإيرانية فاستفادت بعض المال بأن شغَّلت الشعب. البقر الذين عندنا؛ لأنّهم يكرهون أردوغان ويكرهون تجربته -ليس حديثا عن مدحها أو ذمّها-، فصاروا يقولون فضيحة، الشعب التركي يقولون لأردوغان: شكرًا لك، كلّ يوم اعمل لنا مثل هذا!.

يعني كيفية تحايل البنوك باتفاق مع الدولة، وغضّ بصر النظام الاقتصادي في تركيا، كيف تحايلوا على العقوبات الدولية ضد إيران فتعاملوا معها وأخذوا عمولات زائدة، وشغّلوا الاقتصاد التركي. جماعتنا هنا قالوا فضيحة اقتصادية. والشعب التركي فرحان: ياريت كلّ يوم فضيحة؛ لأنّه شغّل الأموال وعمل كذا وكذا.

فهذه النظرة كما ترون هي نظرة الغرب الّتي تدخله. يا رجل أنتم تأخذون أموال لأنّكم سرقتم النفط. يقول لك: من فعلها؛ حتّى ننتخبه مرّة ثانية. ولكن أنت قتلت شعبك راح، جيشك راح قتل في العراق ملايين وسرق منه النفط، يقول: هكذا فعل، شكرا له. هكذا عقدة الخطيئة لا توجد عند الغرب. لا أريد أن أطيل أكثر من هذا على أشياء أنتم تعيشونها.

ولذلك إخوتي هناك قضيّة مهمّة جدًّا وشرحتها من قبل، لماذا سعد بن معاذ حكم هذا الحكم -عندما ينظر الآخر إلى الحكم القاسي على بني قريظة، طبعًا لا أقول قاسيًا؛ لأنّ من قالها يكفر لأنّ هذا حكم الله-. لماذا؟ لأنّ هذا الرجل نظيف أي سعد بن معاذ، رجل صادق مستعدّ بتربية آبائه قبل أن يدخل الإسلام عليه، أن يموت هو، وعائلته، وقبيلته من أجل كلمة عاهد بها رجلًا آخر. هذا هو طهّر نفسه، هذا الذي تربّى عليه. ثمّ في لحظة اكتشف أنّ من كان يعدّهم آبائهم؛ لأنّه رضع فيهم، فهو رضع في بني قريظة، أخواله هناك، أمّهاته هناك، وكان يعدّهم من أهله ومن أقرب الناس إليه، ثمّ يكتشف هذا الرجل العظيم بهذا الطهر العظيم أنّ هؤلاء يخونون كيف سيتعامل معهم؟ سيتعامل معهم بأقصى ما يعرف من العقوبات فمن أجل هذا أصاب الحق. مثل هؤلاء الناس لا ينفع منهم إلا هذا، هذه نفوس شريرة، هذه نفوس قبيحة، هذه نفوس لا تعرف الوفاء، ولا تعرف الحبّ.

ولذلك أنتم مساكين. أقسم بالله أنّكم الآن تحقدون على الغرب ولو دخل عليكم الغرب ويتقن البكاء لسامحتموه وستكونون مخطئين، والصواب هو فعل سعد بن معاذ -رضي الله عنه-.

أنا لم يدركني الوقت في أن أبحث في الشيخ غوغل، لكن الكونجرس الأمريكي في السبعين في العشرية السابعة في القرن الماضي فقط، الكونجرس أذن للهنود باستملاك أراضيهم لكن أي سنة لا أعرف. فقط في السبعين من القرن الماضي أذن الكونجرس للهند الأحمر أن يتملّكوا أرضهم.

بقيت الأسئلة الّتي تتعلق بالحكم الإسلامي. سامحوني ليس هذا موضوعنا. وإن شاء الله تأتي بعض الكتب التي نناقش فيها موضوع قيام الدولة وغيرها. عندنا بعض الكتب في هذا.

أشكر إخواني هنا في البيت وإخواني كذلك في البالتوك وحفظكم الله، ورجاءً مرة ثانية اقرؤوا وتناقشوا.

وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[٤]

مناقشة كتاب (مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة) لجورج طرابيشي

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وسيّد الخلق أجمعين وإمام المتّقين محمّد بن عبد الله، عليه الصلاة وأتمّ التسليم وعلى آله الطيّبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإيّاكم منهم، آمين.

إخواني، سيكون الحديث عن هذا الكتاب وهذه الجلسة الثالثة، وهذا هو الكتاب الرابع الّذي نناقشه على الطريقة الّتي جرينا عليها، لكن سيكون الحديث هنا في هذا الكتاب على عدّة محاور، وهذه المحاور مهمّة. أوّلها سأتكلّم عن أهمّية هذا الكتاب، ليس باعتباره الخاصّ ولكن باعتباره نموذجًا ومثالًا من الأمثلة الّتي ينبغي أن يهتمّ لها القارئ المثقف، وهي قاعدة من قواعد القراءة، وأنا ذكرتها في كتابي (فنّ القراءة) عسى الله -عزَّ وجلَّ- أن ييسّر لي إيجاده؛ لنشره.

وهي قاعدة أنّ القراءة تولّد القراءة، هذه قضيّة مهمّة. البنيويون يقولون النصّ لا ينتج نصًّا، هذه سنناقشها. هم جماعة يعيشون في الوهم ويعيشون في الخلال يعتبرون أنّ النصّ ليس خطابًا خارجيًا لا يوحي بشيء للقارئ ولكنّه ذاته. هذه قراءة جنونية؛ لأنّ الكلام وُضع من أجل الإبانة عمّا في نفسك عند الآخرين. فهذه مهمّة القراءة، مهمّة الكتابة، مهمّة الكلام، مهمّة ما يقوم مقام القراءة والكلام أي الإشارة عند غياب الكلام، ما المقصود بها؟ المقصود هو أن يبين الرجل عمّا في نفسه كما قال الفاروق -رضي الله عنه-: "زوّرت في نفسي كلامًا". هو في نفسه كلام أراد أن يقوله، فهذا هو الإبانة، هذا هو البيان. وهو أن يبين المرء عمّا في نفسه.

ولما كانت القراءة لا تُعقل إلّا بقراءة، هذه قضيّة مهمّة. القراءة لا تُعقل إلّا بقراءة تقع عليها، وهذه الكلمة لها تفاصيل وتفاريع كثيرة، أهمّها ممّا نحن فيه وهو أنّه لا يصح لأحد أن يقرأ كلامًا دون أن يقرأ كلام المعارض.

إذًا القراءة أو الكلام لا يعيش في المطلق وإنّما يعيش في النسبيّ. ليس كلامًا مجرّدا، هو يعيش في النسبي، يُقبل ويردّ، يُقيّد ويُخصّص إلى آخره. ولذلك لا بدّ أن نقرأ بعض الكتب لكن لا بدّ أن نقرأ ما يقابلها. ومن هنا القراءة تلد قراءة. أنت عندما تقرأ كتابًا فإنّه لا بدّ أن توحي لك هذه القراءة بالذهاب إلى كتاب آخر.

وأنا المتكلّم ابن القراءة، ما تعرّفت على كتاب إلّا وكان المعرّف لي لهذا الكتاب كتابا آخر. بعض الكتب بلا شكّ نُصحت بها من الآخرين، وهناك كتب ذهبت إلى المكتبة فتشت عنها وأخرجتها، ولكنّ عامّة ما قرأته إنّما نتج من القراءة. وأنا ابن القراءة، لا أعرف ابن تيميّة ولا أعرف ابن القيّم. في الصف الرابع الابتدائي بدأت همّتي للقراءة في الكتب، وإلّا فقبل هذا العمر كنت أقرأ كل ورقة تقع مرمية على الأرض، كل مجلّة، كل كذا فأقرأها، لكن في الصفّ الرابع في العاشر من عمري قرأت كليلة ودمنة وبدأت.

ثمّ مثلًا تعرّفت على مصطفى صادق الرافعي بما قرأته في طه حسين، فهناك عدوّ له مخالف له. ولم أعرف ابن تيميّة إلّا من خلال قراءتي لابن القيّم. فالقراءة تولّد القراءة.

أنا نشأت تبليغيًا في بداية التدين، وهي مرحلة لاحقة عن مرحلة القراءة، وأحبّ كتب ابن القيّم أجدها في المساجد مبثوثة أقرأها، بعض النّاس في بيوتهم يوجد مثل هذه الكتب؛ لأنّها كتب رقائق. دائمًا الشيخ الثاني ابن القيّم يقول قال شيخنا، هذا رأي شيخنا، إلى آخره، من شيخك هذا فبدأت أبحث؛ حتّى تولّد لديّ قراءة أخرى. فالقراءة تولّد القراءة، هذه يجب أن تفهمها.

فلا يكفي أن تسمع فقط، لا بدّ أن تسمع رأي المخالف. وهذه القاعدة الأساسية لما سمّيتها لكم بالقراءة الجدلية؛ لأنّها قراءة تنشئ قراءة. وهذه القراءة قد تكون موافقة، قد تكون شارحة، قد تكون مخصّصة، وقد تكون ناقضة. وهذا شيء مهم.

ومن هنا ندخل إلى قضيّة مهمّة أيضًا، وهي قضية الجدل في التاريخ الإسلامي. أوّل كتاب جدلي بالمفهوم العلمي هو القرآن، فقد قال لنا حجج المخالفين وردّ عليها {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}. فقد ذكر لنا إمام المجادلين بالحقّ ضدّ الباطل وهو إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، كيف ناظر قومه، وكيف ناظر النمرود، إلى آخره. وهكذا موسى عليه السلام ناظر فرعون، والأنبياء ناظروا أقوامهم والنبيّ ﷺ ناظر، فالجدل علم عظيم لتنوير الحق وتنوير العقل.

لا بدّ أن تقرأ وتقرأ ما يُقال، وبضدّها تتميّز الأشياء. والحقّ لا يُعرف كماله إلّا بعرضه أمام الباطل. إذا أردت أن تعرف بياض البياض فقارنه بالسواد. ولذلك فبضدّها تتميّز الأشياء. الحقّ لا يُعرف بكماله الّذي يتجلّى فيه، الحقّ في أجلى صوره وأجملها لا يُعرف إلا بعرضه أمام الباطل.

ولذلك لا تخافوا من القراءة الّتي تتكلّم في الإسلام. ولكن لا بدّ أن يكون عندك النظر للتمييز بين السواد والبياض، أمّا الأعمى فلا. الّذي أنفه مسدود لا يستطيع أن يميّز بين الرائحة الخبيثة والرائحة الطيّبة. وأمّا علم الجدل في عرض الباطل لقذفه للحقّ فهذا هو دين النبيّ ﷺ وهو دين القرآن ولا تخافوا منه. ولذلك في تاريخنا كان هناك أئمة للجدل المهتدي سمّيته في مقدمة كتابي كسر الصنم للبرقعي، تعرفونه ربّما قرأتموه. هذا الرجل الذي خرج من دين التشيّع في أوسخ درجاته وأقذر درجاته إلى الهدى. لم يدخل السنّة كاملة ولكنّه خرج من التشيّع، وهذا كاف بالنسبة إليه وفي بيئته. وهو رجل خرج من التشيّع في العشرية السابعة من القرن الماضي، أعتذر في السبعينيات من عمره خرج فكتب وسمّيت مناظرته بالجدل المهتدي؛ لأنّ هناك من يجادل بالباطل، جدل الباطل لا قيمة له، جدل الحقّ هو الذي نطلبه ونسعى إليه ونتعلّمه.

ولذلك لا بدّ أن نقرأ الكتب الّتي فيها هذا الجدل. ومن ذلك كتب شيخ الإسلام بن تيمية، هذه الكتب جدلية عظيمة. كتب الباقلاني، هذا الباقلاني باقعة في الجدل. لا يوجد في تاريخ الإسلام أقوى من هذا الرجل في الجدل أي الجدل المهتدي؛ ولذلك كان الدارقطني –مع أنّ الباقلاني متكلم–، إلّا أنّ الدارقطني وهو إمام حديثيّ سنيّ كان إذا قابله قبّل يده. لقوته في ردّ كلام الزنادقة والباطنية وكلام النصارى وغيرهم. كتب الشافعي كلّها مبنية على الجدل. اذهبوا إلى جماع العلم، وإلى اختلاف الحديث، هذه كتب جدلية.

ومن الكتب الجدلية منهاج السنة، وينبغي أن نعرف مراد الكاتب. ومن الكتب الجدلية أيضًا: العواصم والقواصم لابن الوزير، أنا سأذكر بعض الكتب لتعرفوا قيمتها. هذا (العواصم والقواصم) عظيم في الجدل، في الجدل كذلك كتاب التنكيل لعبد الرحمن المعلّمي، هذا كتاب رجل ذوّاق ويعرف من أين تُؤكل الكتف، وصاحب علم متّسع ممّا يسمّونه موسوعة وكما يسمّيها الشيخ الأستاذ محمود شاكر جمهرة. موسوعة يقول هذه كلمة معاصرة والأصل أنّ كلمة الأقدمين الجمهرة بدلًا من الموسوعة. فهذا من الكتب الجدلية النافعة، التنكيل هذا يمرّن العقل.

ومن الكتب الجدلية المهمّة الّتي ينبغي أن تقرأها كتاب السيل الجرّار، وهو في المسائل الجدلية الفقهية للشوكاني وهو آخر ما كتب وهو بعد نيل الأوطار. وتظهر ملكة الشوكاني فيه بجلاء ووضوح. **القراءة تولّد القراءة.**

ومن كتب المعاصرين الّتي ينبغي أن تقرؤوها ولا تُعرف إلّا بضدّها، ما انتشر من كتب محمد عابد الجابري، ولا تُقرأ هذه الكتب إلّا مع كتب جورج طرابيشي. هذا كتابنا مذبحة التراث وهو يُعتبر كمقدّمة لكتبه الأخرى في نقد الجابري للعقل العربي. ومن ذلك كذلك تقرؤون كتب طه عبد الرحمن في نقضه، فهذه كذلك كتب جدلية مهمّة.

ومن الكتب الجدلية المهمّة كتب عبد الجبار المعتزلي في إعجاز القرآن في ردّه على من قال بالصرفة، لا أريد أن أتكلّم عنها؛ لأنّنا سنختار كتاب أو كتابين في إعجاز القرآن وسنتكلم عن هذا المذهب. مذهب الصرفة الّذي قال به بعض المعتزلة ونُسب خطئًا إلى الجاحظ. الجاحظ هو ضد مذهب الصرفة ولكن ينسبونه إليه.

إذًا من مبادئ فنّ القراءة أيّها الإخوة الأحبّة أنّ القراءة تولّد القراءة. وهذه قاعدة عظيمة تحتاج إلى شرح مفصّل ولكن أنا ذكرتها لهذا الباب. من الكتب الجدلية التي تولّد قراءة هو هذا الكتاب الّذي بين أيدينا. كتاب (مذبحة التراث) يولّد لدينا قراءات وليس قراءة واحدة.

هذا المحور الّذي فرغنا منه ولا نريد أن نعود إليه في هذه الجلسة إلّا بسؤال أو استفسار أو ضرورة.

المحور الثاني الّذي ينبغي أن نهتمّ له في قراءتنا لهذا الكتاب. هذا الكتاب كتاب جورج طرابيشي وهو بعنوان (مذبحة التراث) يلقي بظلال مهمّة، أريد أن تنتبهوا إليها. لا يكفينا فقط أن نقرأ نقده للتيارات الثلاثة الّتي جعلها نموذجًا لذبح التراث وإفساده وإزالة أجزائه كما قال هو المهمّة فيه، هناك ظلال. هذا الكتاب لا ينبغي ألّا تقرأه ينبغي أن تقرأ الظلال. ومرّات كثيرة تكون الظلال أهمّ من الحقيقة. التداعيات تكون أهمّ من الفعل. مرّات كثيرة.

أوّل ما يلقي هذا الكتاب علينا من ظلال أهمّية الدين. لمن قرأ هذا الكتاب يجد أنّ هذه التيارات وخاصّة التيّار اليساري الاشتراكي الشيوعي والتيّار الثاني هو القومي، وقد أفاض في القومي لأسباب سآتي إليها إذا لم أنس لماذا أفاض في التيّار القومي دون التيّار اليساري. ثمّ جاء إلى التيار الثالث وهو تيّار معرفي وليس سياسي. التيّار الشيوعي تيّار سياسي، يوجد في أرض الصراع العملي والسياسي ثورات، التيّار القومي يريد أن يبني دولة ويتعامل مع أمّة ويصارع غيره. التيّار الإبستمولوجي أو المعرفي أو التيّار العلمي الإبستمولوجي كما سمّاه، وهو تيار محمّد عابد الجابري وهو كان شيوعيًا، لهذا تيار معرفي. وكذا التيّار العلمي الذي يقوده زكي نجيب محمود، له آثاره في عالم الأكاديميات وهو مهمّ، وهذا ليس تقليلًا من شأنه ولكن لو قارنّاه مع التيّار القومي والتيّار الشيوعي لوجدنا الفارق كبيرًا.

ماذا يفيدنا هذا؟ هو يريد أن يقول بأنّ هذه التيّارات ذبحت التراث. لماذا ذبحت التراث؟ يقول أنّها استغلته. لماذا استغلته؟ هذا لم يبحثه هذا الكتاب وهذا الذي يعنينا. هو يريد أن يقول بأنّ التراث ذُبح، كيف ذُبح عنده؟ أي أنّه جُزّأ بإزالة أهمّ ما فيه وأخذ ما يلزم من هذه التيّارات لتفعيلها؛ من أجل إعطاء أرجل لأفكارهم في داخل المجتمعات، لماذا؟ هذا السؤال الّذي ينبغي أن نسأل أنفسنا فيه.

الجواب أنّ الدين هو الفطرة؛ لأنّ الّذي يحرّك الشعوب هو الدين؛ لأنّ الذي يجعل الآخر يتقبّل فعلك في توجّهه إلى حركة فعلية فاعلة هو الدين. فإذا كان الدين بهذه الفعالية وهذا التأثير في حياة البشرية من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، لماذا لا تصرّحوا بأنّ الدين يوافق الفطرة، تلتزموا بهذا؟ الجواب لا. لماذا؟ لوجود صفة الاستعلاء في هؤلاء على بقيّة الدهماء كما يسمّونهم.

يعني لما يأتي ماركس ليقرأ تاريخ الشعوب وما الّذي أثّر فيها وما الّذي ينشئ المجتمعات، ذهب ماركس قال الّذي ينشئ المجتمعات الاقتصاد والمادّة. وهذا كلامه هو أثر من آثار نظرية داروين –الإنسان إيش؟ قرد–. هذا أثر كما يقول الأستاذ محمّد قطب أنّ داروين وضع النظرية ولم يكن يهوديًا ولا وسخًا، لكنّه وضع النظرية فجاء فرويد وماركس إلى آخره، وبنوا على هذه النظرية ما يريدون من مسخ الشعوب وتدميرها وإفسادها.

عندما يأتي باحث اجتماعي وماركس منهم، باحث اقتصادي وماركس منهم، باحث فلسفي وماركس منهم، عندما يأتي قائل مثل زكي الأرسوزي وهو ركن من أركانه، وهو اختاره لسبب سأذكره، مع أنّه كان ينبغي أن يذكر ميشال عفلق لكن ذكر زكي الأرسوزي؛ لأنّه في الحقيقة الّذي أنشأ حزب البعث هو زكي الأرسوزي وليس ميشال عفلق، لكن ميشال عفلق كان أكثر دهاءً في الفعل، وزكي الأرسوزي كان أكثر تنظيمًا للفكر. ولذلك هو اهتمّ به دون غيره.

ما نحن فيه من الكلام أيّها الإخوة الأحبّة، أنّ ظلال هذا الكتاب توحي بأنّ الجميع وكلّ هذه التيّارات أرادت الدين. فلماذا أرادته؟ لأنّه عكّاز الحركة: قويّ ومؤثر. السبب لماذا مؤثر؟ هذا ينبغي أن يسأله كل ناظر وكل باحث. الجواب: لأنّ الدين موافق للفطرة.

عندما قال ماركس: الإنسان هو الدابّة حيوان تحرّكه أمعائه. عندما قال فرويد أنّ: الإنسان كلّ حركة من حركاته يحرّكها الجنس. الجنس هو الّذي يحرّكه حتّى في بغضه لأبيه الجنس، حتّى في مصّه لثدي أمّه الجنس. فما دام أنّكم تقبلون هذا الكلام

الباطل فلا تجدون أثرًا له في حركة الشعوب عند قيامها بالثورات، عند بنائها للحضارات، عند تحرّكها ضدّ خصومها لا تجدون الجنس هو الّذي يحرّكها، ولا تجدون المادّة ولا البطن هو الّذي يحركها، حاولتم كثيرًا تفسير التاريخ تفسير ماديّا، وأنّ كلّ الثورات في العالم قامت من أجل المادّة، ثمّ رأيتم أنّكم بحاجة إلى خطاب الدين من أجل هذا التغيير. فالدين هو الفاعل الحقيقي. لماذا لا تعترفون؟

لأنّهم يعتبرون أنّ هذا هو تفكير الدهماء. يقول أنّه بسبب فساد الدين الملائم لجهالة الدهماء والأميين والجويم كما يقول اليهود، أو كما تقول بعض نظريات الفرس: لا يجوز أن يكون مبادً بالنار إلّا رجل عظيم. البوذية تقول البشر خُلقوا من الإله والإله بشكل البشر؛ الّذين خلقهم الله من الرأس هم البراهمة والملوك، والّذين خلقهم من السواعد هم العسكريون، والّذين خلقهم من بطنه هم التجار، والّذين خلقهم من رجليه هم المنبوذون. صوّرها تصوير البشر.

هذه وإن كانت ساذجة في الأديان ولكنّها عميقة في عقول الفلاسفة. يعتبرون أنّه ما دامت الشعوب دهماء بسيطة يحرّكها الخطاب البسيط الساذج الشهواني فالدين ينفع لها. فما الّذي يحرّك القادة إذًا؟! لماذا لا يوجد في التاريخ فيلسوف قاد ثورة؟

لا يوجد في التاريخ أنّ فيلسوفًا قاد ثورة. وكلّ القراءات أنّ الثورات قامت بفعل الفلاسفة كلّه كلام فارغ، كلام إعادة الثورة الفرنسية لروسو وإعادة الثورة لفلان كلّه كلام غير صحيح. الناس لم يقرؤوا ولا يعرفون روسو ولا يعرفون الفلاسفة، هؤلاء الجماعة يكتبون الكتب ويقرؤوها هم فقط والشعوب في بعد عنهم. إذًا لأنّهم يحتقرون الشعوب؛ يرون أنّ الدين هو عامل مؤثر، فبالتالي حتّى ننزل لمستواهم نستغلّ الدين! هذه قضيّة.

القضيّة الثانية كلمة نستغلّ الدين تخرجنا إلى موضوع من ظلال هذا الكتاب: وهو التفريق بين الدين النافع وبين الدين الحقيقي. وهذه كلمة استفدتها من الخبيث لويس عوض! وهذه قراءة جدلية، الآن تضعون إحدى صور القراءة الجدلية كتاب أباطيل وأسمار. فهو من الكتب الجدلية الّتي تفيد. فيه حرب عجيبة؛ قعقعة، وحروب، وأرجل تطير، ورؤوس تُدمى، إلى آخره. أباطيل وأسمار للشيخ شاكر ربّما نضعه في البرنامج.

إذًا هناك قضيّة مهمّة جدًّا هي الّتي أنتجت الفكرة الأولى، هي المنتجة من الفكرة الأولى أنّنا لا بد من أن نستغلّ الدين. كيف نستغلّ الدين؟ يعني هناك دين نافع، وهناك دين حقيقي. الدين الحقيقي هو دين الأنبياء، بأن تأخذ هذا الدين كلّه. كما قال الله –عزَّ وجلَّ–: {وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ **بَعْضِ** مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ}. ولما قال الله –عزَّ وجلَّ–: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى

أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي **بَعْضِ** الْأَمْرِ}، {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ **كِدتَّ** تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ} فماذا قال؟ {إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ}.

فالصراع بين الأنبياء وبين خصومهم من أبناء قومهم لم يكن يدور حول كلّ الدين، إنما كان يدور حول الشيء القليل منه {عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ}. فالّذين يتخلّون عن البعض ويزعمون أنّهم لم يتخلّوا عن الكلّ فخرجوا من المحظور. هؤلاء القرآن يقرّعهم ويبطل كلامهم.

نعود إلى كلامنا: ما معنى الدين النافع؟ هو استغلال الدين من أجل قضايا الخصم. هذا يسمّيه أهل الجاسوسية العمل من خلال خطّة العدوّ.

إذًا هناك دين حقيقي صورته النبيّ ﷺ. أي نبيّ؟ بالنسبة لإسلامنا هو محمّد ﷺ، هم أصحابه كما طبّقوا؛ لأنّهم ممدوحون في تطبيقهم للهدي القرآني وللحكمة النبوية. الآخر لا، هو لا يريد الدين كلّه، هو يريد أن يأخذ من الدين ما ينفعه. وإذا قرأتم الكتاب وجدتم أنّ هذا هو مجمل ما قاله الجميع. كلّهم يقولون ما الّذي يمكن أن ينفعنا من الدين.

الجنرال باتون أحد قواد الحرب العالمية الثانية الأمريكي. هذه هي صورة الدين النافع، وبالتالي تستطيعون تطبيق هذا النموذج على ما ترونه من الدين في حياة الخصوم، الّذين كفروا ببعض ما أنزل الله فأخذوا بالبعض الآخر فهم يأخذونه لماذا؟ هذه نظرية باتون

كان في إحدى الحروب ضد النازيين ذكر هذا في مذكراته، ومذكراته نافعة. باتون وهو قائد عسكري شهير في الحرب العالمية الثانية في الفرقة ٢١ التي غزت وقاتلت النازيين في شمال إفريقيا ودخلت إيطاليا إلى آخره.

يقول: مرّة صارت معركة بيننا وبين النازيين ونحن خططنا، كنّا قد خفنا من شيء واحد في المعركة وهو نزول المطر، ما نريد أن ينزل المطر في المعركة. هذه كيف تُحلّ؟ إن لم يكن هناك بنزين أحضرنا، إن لم يكن هناك ديزيل أحضرنا، إن لم يكن هناك قوات أحضرنا، إن لم يكن هناك حماية أحضرنا، إن لم يكن هناك سلاح أحضرنا، لكن كيف نستطيع ألّا ننزل المطر؟ قال ما فيه غير القسيس هو الّذي يستطيع أن يمنع نزول المطر. فجاء القسيس المرافق للفرقة قالوا له: هذا شغلك، نحن ندفع لك الأموال في مقابل أن تمنع نزول المطر في المعركة حتّى نحقق النصر، فالقسيس قام بدعائه واستغاثته والمطر لم ينزل وتحّقق النصر. وبعد ذلك أحضر القسيس وأعطاه وسام ونيشان وزاد في رتبته.

إذًا هذا نموذج الدين النافع، هذا هو نموذج استغلال الدين. كلّ ما ترونه من شعارات إسلامية في جوانب إلى آخره كلّها لا قيمة لها. أين نجد هذا في القرآن؟ نجده في هذه الآية والّتي يجب أن تكون شعارً بين أعيننا {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ}. كل هذا الذي يقولونه قال لستم على شيء {حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}. هذا الفرق بين الدين النافع الّذي يريده هؤلاء وبين الدين الحقيقي الذي يريده ربّ العالمين.

ولذلك جورج طرابيشي يقول هؤلاء جاؤوا إلى الدين فأزالوا أهمّ ما فيه وأخذوا ما يحتاجونه. لماذا؟ كلّ واحد له سبيله وسنأتي إلى شرح ما يقول.

هذه النقطة الأولى أهمية الدين في حياة البشر.

النقطة الثانية أنّ الدين الّذي يريده خصوم الإسلام هو الدين النفعي لهم في دنياهم، وليس هو الدين الّذي جاء به النبيّ ﷺ. لو سأل سائل لو دخلنا في العمليات وهذا ليس من مشروع هذا الكتاب لكن مهمّ بالنسبة لنا باعتبارنا مسلمين كيف الردّ عليهم. الردّ عليهم هو أنّ الّذي أنزل الدين هو الّذي له الحقّ أن يفسّره. من الّذي ينبغي أن يفسّر هذا الدين؟ الله – عزَّ وجلَّ-. فلذلك أنزل هذا الكتاب. والكتاب قال عن نفسه {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}، يمكن أن يتّخذها أهل الأهواء لإبطال مقاصد هذا القرآن. قال يمكن. لماذا؟ لأنّ هذه هي طبيعة اللغة، اللغة تحمل هذه الجرثومة.

وهذه من سنن الله، ما خلق الله شيئًا من العرش إلى الفرش إلّا وفيه داء منه. أعظم ما خلق الله هو البيان، وأعظم ما وُجد في الوجود هو كلام الله، ومع ذلك لأنّه كلام يمكن أن يُؤوّل. قال {فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ}. إذًا يمكن.

فلقطع هذا التأويل ما الّذي حمى هذا البيان من التلعّب؟ النموذج العملي الّذي طبّقه رسول الله ﷺ. ثمّ إذا حصل بعض الضيق فحينئذ النموذج الصحابي الّذي طبّقه الصحابة والخلفاء (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)، مع أنّ هذا الحديث بعض أهل العلم تكلّم فيه لكن الأمر فيه يسير. ما المقصود بالسنّة هنا؟ السنّة العملية.

ولذلك السنّة هي العاصمة لحمل هذا اللفظ أي القرآن وهو لفظ ربّنا وكلامه على أن يُحمل على الباطل.

انتهينا من المحور الأول والمحور الثاني.

الآن ندخل في مواضيع أخرى.

أوّلًا ما المقصود بكلمة التراث؟ المقصود بها الدين. هل يوّسع من قبلهم؟ يُوّسع. ولكن المقصود بها الدين. فالتراث يعنون به الدين.

ولذلك هذه الأمّة عماد قوامها هو الدين. وهذا يفرز لنا قضيّة مهمّة تجدونها في الكتاب يتلعّب بها الجهلة وهي كلمة السلفية. من قرأ الكتاب يجد أنّه يضع التنوير مقابل السلفية، يجد أنّ الكاتب وهو نصراني لكّنه في الحقيقة يحترم نفسه. يعني لا يستطيع باعتباره نصرانيًا -وكان شيوعيًا ثم بعد ذلك انقلب على شيوعيته-، وأرجو أن يُفتح قوسان لأقول لكم: أنّ كلّ من زعم الثورية قد تخلّى عن ثوبه كما كان يقول الشيخ عبد الله عزام رحمه الله أستاذنا كان يقول: هؤلاء ثوريون نسبة للثور. وهذا حقّ، فإنه لم يبق من الثورية شيء، ولذلك كلّهم دخلوا في الحظيرة.

كان يقول فاروق حسني وزير الثقافة المصري: لم يبق من المثقّفين أحد إلّا وقد أدخلته الحظيرة. على قاعدة أحمد مطر: الثور فرّ من حظيرة البقر.

فكلّ الثوريين والمثقّفين دخلوا في الحظيرة. ما بقي ثوري، انتهى عصر الثورية. كلّهم الأصل أن يقولوا أن تقوم الثورة ضدّ الظلمة وضدّ الطغاة وينصروا أيّ ثورة، ولكنّهم في الحقيقة لما جاء في الإسلام قبلوا أن يكونوا مع الطغاة ضدّ الشعوب وضدّ الإسلام؛ لأنّهم من أفسد خلق الله. واحد منهم تعرفوه قال: أنا يجلدوني ثمانين جلدة لأنّي شربت كأس بيرة!

فلذلك هؤلاء يبغضون الإسلام وظهر أنّ كل ما كانوا يتمسّحون به من قضيّة الثورية وقضية الحريّة ومقاومة الشعوب، هذا كلّه كان مجرد غلاف بسيط لا قيمة له.

نرجع إلى النقطة: هم يضعون السلفية مقابل التنوير.

ما هي السلفية عندهم؟ يأتي البعض ويجعل السلفية هي السلفية بالمفهوم الدقيق في داخل المدارس الفقهية الإسلامية، وهذا غير صحيح.

ولذلك مرّة رابين قال: إنّ أخطر ما على دولة إسرائيل هي السلفية. طار بها السلفية، كأنّ السلفية هي الّتي تهدّد إسرائيل، كأنّ هذه الكتب هي الّتي تهدّد إسرائيل، كأنّ مشكلة صلاة التراويح عشرين ركعة هي الّتي تهدّد إسرائيل! لماذا؟ لهذا الجهل في معنى السلفية عند خصوم الإسلام. السلفية عند خصوم الإسلام تعني العودة، كلّ من يريد أن يعود إلى الدين، هذه هي السلفية.

كلّ من يريد أن يعود إلى الدين فهو سلفي. الإخوان المسلمون سلفيون عندهم. حزب التحرير سلفيون، كلّهم. السلفية يعني المتدين. ولذلك يقولون مسلم معتدل. مسلم معتدل يعني لا يصلي، يعني ليس هناك مشاكل، جالس مع ناس يشرب زجاجة الخمرة، وزوجته عارية إلى آخره فهذا مسلم معتدل.

فالقصد أنّ صاحب الكتاب يطرح مفهوم السلفية ليس بالمفهوم الفقهي الّذي هو إحدى تقسيمات المدارس الفقهية المعاصرة الّتي نمت.

رأينا وهذا نقد متأخر أخّرته لسبب. نقد متأخر عمّا قاله الأستاذ شاكر ونفصلّ فيه.

كلمة التبشير كلمة لها شقّان، لا ينبغي أن يكون الجانب العلمي عندنا طاغيًا على الجانب العملي. كلمة التبشير كما ترون هي كلمة تعني في الأصل إدخال المسلمين أو الوثنيين في النصرانية. وقد نجح التبشير بالنسبة للوثنيين، في إفريقيا للأسف كسلنا ودخل مجموعات كبيرة من الوثنيين في النصرانية، هذا حقّ. في جنوب شرق أسيا دخلت مجموعات وثنية كبيرة في النصرانية، كما دخلوا في الإسلام لكن بلا شكّ أنّ النصرانية في العقود الأخيرة انتصرت في قضيّة الإدخال للشعوب. يعني جنوب إفريقيا أغلبهم صار نصارى.

لكن السؤال: التبشير باعتباره مؤسّسة لها عدّة جوانب هذا لا ننكره، ولكن نتكلّم عن الجانب العملي. كم استطاع التبشير أن يدخل من المسلمين في النصرانية في تاريخه كلّه؟ الجواب في الحقيقة صفر. يعني كلّ هذه الجهود التي تُبذل فيما يُسمّى التبشير بهذا المعنى، فنحن لا نتكلّم عن المعاني الأخرى بل عن هذا المعنى وهو إدخال المسلمين في دين النصرانية الجواب صفر بكلّ معنى الكلمة. وما حدث من بعض الأمور هي في الحقيقة بسبب أنّهم لم يدخلوا في الإسلام.

يعني بعض الإخوة الدعاة تعرفون رجل حكى قصته الغريبة، قال: ذهبت إلى إفريقيا فوجدت قبيلة في قرية يقولون نحن مسلمون كاثوليك. قال لهم كيف مسلمون كاثوليك؟ قالوا نحن مسلمون ثمّ أتى لنا الكاثوليك فقلنا مسلمين كاثوليك. المهمّ بدأ يدعوهم إلى الله ويدعوهم فقالوا له: اسمع، كلامك كلّه حلو، ولكن لنا ثلاث سنوات ما ينزل لنا المطر، وإنّما هؤلاء الجماعة القسيسين نطلب منهم نزول المطر على قاعدة باتون، فقالوا له: إذا دعيت الله فنزل المطر سنؤمن أن دينك هو الصحيح.

المهمّ المسكين أُحرج قال اتركوني لغد، ففي الغد دعا الله ونزل المطر وصاروا مسلمين من غير كاثوليك.

هذه نماذج في الحقيقة ليست نماذج مطّردة، نحن نعرف في البلاد المسلمة الّتي فيها قليل من العلم، وإنّما هو صفر. والّذين يدخلون في النصرانية الآن كالمجموعة من الجزائريين يدخلون النصرانية لكرههم الدين، أصلًا هم كفار مرتدّون قبل أن يدخلوا النصرانية لكرههم للعرب؛ لأنّ الفكر القومي وهذه ربّما تكّلمنا عنها، كره الدين وكره العرب. يعني ما ترونه الآن من الأكراد في بغض العرب هذا ليس وليد اليوم. ما الّذي أنتجه؟ أنتجه القوميون. كما أنّكم إذا ذهبتم إلى جنوب شرق آسيا وجدت أنّهم يبغضون العرب. لماذا؟ لأنّهم مساكين يذهبون إلى دول الخليج يرون الإسلام ويرون العرب، يرجع الهندي يذهب إلى بريطانيا ثلاثة شهور يتكلّم إنجليزي ويصير اسمه محترم؛ حتّى تعرفوا كيف أنّ بغض الإسلام وبغض الدين ينتج من قبل الممارسات الباطلة أو من قبل الفكر الباطل.

نرجع إلى كلامنا: إذًا كلمة التبشير عندما تكلّم عنها الشيخ شاكر، ومن يتكلّم عنها ويضعها عنوانًا خطيرًا، في الحقيقة ليست خطورة التبشير في تحويل المسلمين إلى النصرانية. هذه الخطورة في الحقيقة ملغية ولا قيمة لها. لكن التبشير في أهمّيته يكمن فيما قال زويمر، أنا قرأت كتاب (دمّروا الإسلام أبيدوا أهله) يقول فيه زويمر: ليس من الكرامة أن ندخل هؤلاء الوثنيين في النصرانية؛ لأنّهم لا يستحقّون هذا الشرف.

إذًا ما هو المطلوب؟ هو أن نخرجهم من الدين. هذا مقصد تبشيري ولكنّه ليس مقصدا سياسيا. السياسي لا يهمّه الدين، كلّه كذب عنده، يهمّه شيء واحد وهو كيف يوظّف الدين عند المسلم من أجل خدمته، وكيف يمنع وجود معوّقات الدين في تنفيذ مقاصده. هذا ما يهمّ العسكري ويهمّ المستعمر.

ولذلك هم لما دخلوا ما نصّروا أحدًا. البريطانيون ما نصّروا أحدًا لا في فلسطين ولا في غيرها، لكن كيف فعلوا؟ فعلوا أمرين، هم منذ نابليون إلى اليوم وهم يفعلون نفس الفعلة، وهي إبطال فعالية الدين في مقاومتهم أو استغلال جوانب الدين في تحقيق مقاصدهم. فإذًا التبشير ليس له المفهوم الأوّل. هذا ينبغي أن نلغيه ولا نهتمّ له.

وحين يقرؤون تراثنا -لأنّ هذا كلّه ضمن استغلال الدين كما يقول-، حين يأتون إلى تراثنا يأتون إليه من أجل استغلاله في هذه الجوانب. من أجل هذا إذا دخلوا على أيّ بلد يأتون على الصوفية ويرفعونهم ويقدّمونهم. هذا الاستغلال المعاصر، الآن من أعطى العراق للرافضة؟ هم. لأنّ الرافضة يصلحون لهذا الأمر بخلاف الدين السنّي.

لماذا يريدون الدين نموذجًا مشوّهًا في بعض الحكومات؟ لأنّه يخدم مصالحهم. ولذلك هم لما قرؤوا التاريخ أبرزوا الصوفية. وقراءة المستشرقين أغلبها تدور حول التراث الصوفي كماسينيون وغيره. هؤلاء أبرزوا التراث الصوفي؛ لأنّه هو النافع لهم، لأنّه دين مستكين.

ولذلك التبشير لا يعني أن تدخل في دينهم بل كن على دينك، لكن بشرط أن تسقط فعاليتك في مقاومتهم وأن تكون عضوًا نافعًا في نصرتهم. هذا ما يهمّ، التبشير انتهى هدفه وصورته، لا ينبغي أن نكثر الكلام عن التبشير ومؤسسات و و، هذا انتهى، حتّى المؤسسات التبشيرية لما تأخذ هذا المسلم هنا وتأخذه إلى مؤسساتها فتربيه في المدارس التبشيرية لا تخرجه نصرانيًا. ولكنّها تخرجه ممثلًا، فاسدًا، مفكرًا، أستاذ جامعة يأتي ويدعو إلى انحلال المسلمين والانعتاق من دينهم.

ولذلك لما البنتاجون نشر -ربّما بطريق الخطأ أو بمقصد أو على طريقة الشفافية في الغرب في أنّ هذا أمر ليس من السرّ في شيء-. لمّا أخرج البنتاجون قائمة المفكرين المتحرّرين إسلاميًا وإذا هو محمد أركون، محمد شحرور، حسن حنفي. هؤلاء دعا البنتاجون كما ذكرنا سابقًا إلى إبراز هؤلاء ودعمهم ونشر تراثهم إلى آخره. هؤلاء لم يصبحوا نصارى، يكرهون الدين، لكنّهم كذلك يدرسون الإسلام من أجل أن يحطّموه.

إذًا هذا هو التبشير الحقيقي. التبشير الحقيقي هو استغلال الدين.

هذه كلمة استغلال الدين هي جزء من علم الجاسوسية. النّاس لا يعرفون من الجاسوسية إلّا نقل الأخبار، واحد يجلس يكتب الأخبار ويذهب بها إلى المخابرات أنّ فلان قال كذا وعمل كذا. الجاسوسية هذه جاسوسية ساذجة. الجاسوسية الأعظم هو كيفية استغلال عقيدتك من أجل تنفيذ مآرب خصمك. يعني كم مرّة استُغلت كلمة الجهاد في غير مقاصدها؟

أضرب لكم مثالًا: لينين جمع الروس وجمع الجمهوريات الإسلامية في مؤتمر كبير سنة ١٩١٦ وقال للمسلمين: إذا أنتم دخلتم هذه الثورة معنا فإنّه بعد انتصارنا في القضاء على القياصرة سيتمّ إعطاءكم الحقّ في تقرير المصير. إمّا بالضمّ ضمن الإمبراطورية الروسية وإما تستقلّوا. ودعمهم بالذهب، وهم حضروا الجيوش؛ حتّى إنّ بعض أهل التاريخ يقولون أنّ عامة ما يُسمّى بالجيش الأحمر كان من المسلمين للقضاء على القياصرة من أجل المال. وأخذهم واستغلّهم إلى آخره، وبعد أن انتهت الثورة وانتصروا، عاد وكرّ عليهم بالذبح والقتل؛ حتّى كانت المأساة من ستالين بعد الحرب العالمية الثانية عندما هجّر عشرات

الملايين بل مئات الملايين، هُجّروا إلى سيبيريا وماتوا هناك، وبُني الاقتصاد الروسي أو الشيوعي في ذلك الوقت، المصانع العظمى في سيبيريا بُنيت على أكتاف المسلمين وضحك عليهم.

وهذه الطريقة كثيرًا ما تطبّق: استغلال المسلمين بعقيدتهم. وأنا سمعت شيخًا سلفيًا كتب كتابًا من ثمانين دليل على وجوب التعاون مع الأمريكان ضدّ الإرهابيين أبي مصعب الزرقاوي وغيره! اليوم كلّه هو استغلال الدين؛ التوحيد، المبتدعة، انظروا الضخّ العظيم ضدّ الإخوان المسلمين ماذا أنتج من حزب النور في مصر. هذا إن أحسنّا الظنّ وقلنا أنّه ليس حزبًا عميلًا. يشتغلون كلعب الأطفال بالعشر قروش فبعضهم تضع العشر قروش وتضغط على الزرّ يحكي لك التوحيد والقرآن. إذا تريد تسمع أغنية، وإذا تريد تسمع موسيقى، وهكذا. فبعض الأحزاب بالعشر قروش يشتغل.

لكن انظر الضخّ في تعظيم البدعة أنساهم النظر إلى الردّة. استغلال الدين في قضيّة تنفيذ مآرب الخصم هذه لعبة يجب أن نفهمها. يجب أن نعيها، وأن تكون جزءًا حاضرًا في عقولنا، في تقييمنا للدول، للحركات.

هذه قضيّة كبيرة ويكفي هذا حتّى لا نطيل.

الآن هذا الكتاب أهمّيته بالنسبة إلينا في قراءة هذا الكاتب لمذهبين كان لهما الحضور الكبير، والآن خفّ هذا الحضور لكنّه ما زال فعّالًا في جانب السياسة وهو التاريخ القومي مع المسلمين والتاريخ الشيوعي مع المسلمين.

ما العدوّ لنا الآن؟ القوميون الآن نعم أعداء، وما زالوا يلعبون ويحوّرون ويحاولون طيّ المشايخ تحت عباءتهم. لكن في الحقيقة، الفكر القومي كان يستخدم الإسلام مطيّة لتنفيذ مآربه؛ الإسلام والمسلمين والجماعات والأحزاب، وجماعات مسلمين تحت وفوقهم الفكر القومي، وفوق المسلمين هو الفكر القومي. ما الّذي فوق القوميين؟ هي الطوائف المبتدعة، مثل الشيعة، ومثل الدروز، مثل الإسماعيلية. وكذلك كانت الطوائف الكافرة في داخل المجتمع المسلم كالنصارى وغيرهم.

ولذلك بأيّ وسيلة وصل النصيريون إلى حكم بلاد الشام؟ على أي مطيّة؟ على مطيّة الفكر القومي.

سؤال: من الذي كان يوصل أعضاء حزب البعث إلى البرلمان ضدّ المسلمين؟ المسلمون. انظر إلى المطيّة! والتحالفات التي كانت تقوم بين هذا الحزب وبين جماعات المسلمين.

ولذلك حتّى ترى هذه التركيبة كيف كانت، طوائف المبتدعة، الشيعة، الدروز، النصارى، الشيعة، الإسماعيلية، لماذا يستغلّون الفكر القومي؟ لأنّ الفكر القومي كان يمثلّ حصان طروادة في تدمير قلعة الإسلام. اليوم الفكر القومي انكشف. ما هو الفكر القومي؟ جامعة الدول العربية مجرّد أكذوبة لا وجود لها. والآن تحوّلت كلّ الدول القومية إلى دول عشائرية وعائلية. والدول الأخرى لا تعتمد القومية ولا تراها شيئًا، مثل دول المال، ودول النفط، ودول الملكيات، هذه أصلًا ضدّ القومية؛ لأنّها ترى أن القومية مدمّرة لملكها الخاصّ.

فتنازع الفكر القومي مع الفكر القطري فانتصر الفكر القطري باعتباره نافعًا لهذه الملَكيات ولهذه الإمارات إلى غير ذلك.

الغرب لماذا نصر هؤلاء دون الفكر القومي؟ السبب أنّ الفكر القومي كان حشوته هو اليسار.

الآن نشرح هذه العبارة: الفكر القومي لما جاء ساطع الحصري وطرح أنّه يجب بناء الأمّة على أساس اللّغة وصيرورة التاريخ وابتعاد الدين فلا دين يفرّقنا، هذا هو شعاره! الدين لله والوطن للجميع. هذا هو شعارهم ونحن عرب، وإلى الآن يطرحونها ولكن على صيغة أضيق بأنّنا نحن أهل البلد، نحن أردنيون، ارفع راسك أنت أردني، ارفع راسك أنت سعودي، ارفع راسك أنت خليجي، صارت الدولة القطرية الصغيرة، وهذه الدول الصغيرة القطرية الموجودة في داخل البلاد هي الّتي تنفع في قضيّة تشتيت الأمة. كان يمكن للفكر القومي أن يكون جامعًا لكنّه بحشوة يسارية. هكذا يطرحون وهكذا يقولون.

فالفكر القومي لما قام هو إطار عائلي. ما الذي يملؤه؟ من أين نأتي بالأفكار الاقتصادية؟ من أين نأتي بالأفكار السياسية؟ ما الّذي يملؤه؟ اليسار.

واليسار المقصود به الشيوعية والاشتراكية إلى غير ذلك.

وهنا طُرح في الفكر القومي الفرق لأوّل مرّة، وبعض النّاس ينسبها لعبد الوهاب المسيري وهذا غلط، بعضهم إلى الآن يظنّ أنّ عبد الوهاب المسيري هو أول من طرح التفريق بين العلمانية الصلبة والعلمانية المائعة. ما الفرق بين العلمانية الصلبة والعلمانية المائعة؟ أوّل من طرحها هو شبل العيسمي، وهذا أحد منظّري حزب البعث ربّما سمعتم به، قال بأنّ العلمانية الصلبة هي العلمانية الّتي ترفض الدين. تقول لا يوجد دين، مثل اليمن الجنوبي ممنوع دين، مثل تيتو ممنوع الدين، يُقاتل الدين في المساجد وفي الكنائس، الدين باطل مثل ألبانيا، هذه العلمانية الصلبة.

العلمانية المائعة هي الّتي يطرحها وهي قضيّة إبقاء الدين في حدوده الّتي تسمح بدعم الفكرة. وهذه يجب أن نستحضرها.

الآن أعود إلى النقطة: الآن في هذا الوقت الصراع الإسلامي القومي يكاد يكون تلاشى؛ لأنّ القومية آلت إلى عائلية، وقلنا من امتطى القومية؟ الطوائف المبتدعة وامتطتها العائليات والعشائريات. يعني بعثية صدّام البعثية القومية آلت لعائلة ولعصابة، البعثية في سوريا آلت إلى طائفة تحكمها، وهكذا امتطوها فانتهى الفكر القومي.

فقط نحن لماذا نقرأ هذا اليوم؟ نقرأه؛ لأنّنا لا زلنا في حالة استغلال من قبل خصومنا لمفاهيم ديننا. كيف يوظّف الدين. الدين ما زال يوظّف باعتباره دينًا نافعًا لا دينًا حقيقيًا.

الآن هل انتهى توظيف اليسار لنا؟ بلا شكّ أنّ الشيوعية أُصيبت في مقتل بعد "البول سترايك" الّتي حدثت وغورباتشوف بعد أن حصل ما حصل وانهار خط سور برلين، وتخلّى الشيوعين عن شيوعيتهم ولم يبق إلّا بعض أحزاب كاذبة هنا وهناك، ولكنّ تاريخها مع قضايا أمتنا كان تاريخًا قذرًا وفيه استغلال الدين.

الآن لو سأل سائل هل ما قاله هذا الكاتب أو ما حدث من استغلال القوميين واليساريين للدين هل هو حاضر هذه الأيام؟ الجواب: ذهب هذا الاستغلال لكن مبدأ الاستغلال ما زال قائمًا. استغلال الدين ما زال قائمًا من الدول العلمانية. عندما يأتي واحد سفير لدولة ترفع شعار الإسلام ويقول نحن في الداخل إسلاميون وفي الخارج علمانيون، هذه العلمانية المائعة. هكذا يقول.

وبعضهم يصرّح يقول نحن دولة علمانية ولكنّها لا تمنع الدين على قضيّة العلمانية المائعة. هذا موجود إلى الآن، واستغلال الدين الآن.

أنتم تعرفون بأنّ الناس ذهبوا إلى التنظيمات الفلسطينية من أجل تحرير فلسطين. يعني الفلسطينيون ذهبوا إلى التنظيمات الشيوعية مثل الجبهة الشعبية بقيادة جورج حبش هل ذهبوا لينصروا لينين؟ هل دخل الناس فيها من أجل أن يرفعوا شعار لينين أم ذهبوا للأجل أن يحرّروا فلسطين؟ ذهبوا لأجل أن يحرّروا فلسطين ولكن في النهاية ماذا صاروا؟ صاروا شيوعيين. ولذلك استغلال قضيّة لبناء قضيّة أخرى هذا أمر موجود.

وإلى يومنا هذا الآن يريدون الدين من أجل قضايا وطنية خاصّة، واستغلال الدين في هذا الباب كثير. يعني وقع فيه كبار العلماء. نحن قلنا مرة بأن مصطفى السباعي ألّف كتاب اشتراكية الإسلام. والاشتراكية لا تمّت للإسلام بصلة؛ لأنّ الاشتراكية هي فرع من عقيدة فلا يجوز قصّ الفرع عن العقيدة بعد ذلك يخرج إلى شيء آخر. الإسلام له عقيدة وله منهج وله فرعية.

الأديان تتشابه في بعض صورها فهل يعني ذلك أنّ الإسلام هو النصرانية؟ عندما يدعو الإسلام للتسامح والنصرانية تدعو للتسامح فهل يعني الإسلام هو النصرانية؟ هذه القضيّة يجب أن ننتبه لها. إسلام الآيات والأحاديث والجماعات الإسلامية من أجل قضايا شركية هذه قضية يجب أن تفهموها، ولذلك أنا قلت مرّات وأكرّرها مرات بأنّ أعظم ما أفسد حركة الإسلام في القرن الميلادي الماضي وهذا القرن هو التحالفات. وأقصد بها هذا، وهو زعمهم بأنّ الإسلام يلتقي مع هذه في هذه القضيّة. هذه قضيّة وطنية. مثل الآن تذهب للجامعة فالجامعة لا فيها دين ولا فيها إسلام هي مبنية لأجل آخر، يقول {وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ}. تدخل مصنع خياطة {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}. وهكذا استغلال الدين.

كلمة شهيد كيف الآن تُستغلّ وتوضع في غير موضعها. وبعد ذلك إذا حوكموا قالوا هذا فقط استغلال سياسي، هم يعرفون. ولذلك إحدى جوانب صراعنا مع خصومنا هو تبرئة الإسلام وتبرئة منهجه من هذه الدعاوى من استغلال الدين.

من جانب آخر في هذه القضيّة وهو قولهم بأنّ الدين هو عامل الفرقة؛ لأنّ الّذي يصنع المذابح والمجازر بين الأمم هو الدين، ولذلك إذا خلونا من الدين حينئذ يكون السلام. نحن نريد أن نعرف: الخمسة عشر مليونًا الّذين قتلوا في أوربا ما دخل الدين فيها؟ ما دخل هتلر مع فرنسا ومع بريطانيا؟ ما الخلاف الديني بينهم؟!

العالم صراع إرادات، الدين يوجّهك إلى أعظم مقاصد هذه الإرادات وهو توحيد الله. ويجعل أساس وجودك على ما أراد الله -عزَّ وجلَّ- لك وهو الدين، هذه قضيّة. هذه من ظلال هذا الكتاب.

بقيت بعض القضايا: القضيّة الأولى وهي هل هذا الّذي أخبرنا به من تلعّبهم بالدين في كتبهم، هل له أثر في الواقع؟

الجواب: يتكوّن من جوابين: الجواب الأول نعم، وأنا قلتها هناك أحزاب وتنظيمات تستغلّ هذا معنا. ولذلك صار هناك استغلال يعني صدّام رفع شعار الدين ضدّ خصومه. الآن لو بعض الدارسين يقولون إيران أصلًا هي عماد قوامها قبل الدين هو القومية الفارسية والدين شيء لاحق لها. يمكن أن يُقبل هذا في اتجاه لكن ليس في اتجاه كامل. الحروب الّتي تنشأ بأسباب ثم تُلبس الدين هذا موجود.

الأحزاب القومية عندما تستغلّ الدين في قضيّة صراع ما هذه موجودة، مثل الحزب الشيوعي والأحزاب القومية. لكن هناك عزلة -وهذه أنا نبّهت عليها مرارًا- أنّ هناك عزلة بين الأكاديميين وبين الجماهير.

يعني لما ذكر جورج طرابيشي لقضيّتين: مذبحة التراث عند الأكاديميين الّذين هم أصحاب المذهب العلمي الإبستمولوجي المعرفي تبع محمد عابد الجابري. هذا على ماذا يؤثر؟ لا تأثير له، أكاديمي فقط، ليس له تأثير شعبي، ولو خرج للنّاس لا يفهمونه ويضربونه بالحجارة. كذلك زكي نجيب محمود وهو يفسّر الدين تفسيرًا ماديًّا، وليس هو فقط الّذي قام به واعترف، وكلّهم يعترفون أنّهم لم يقرؤوا الدين قراءة كاملة كلّهم. وهذه سآتي إليها؛ لأنّها تمثل نماذج المثقفين الّذين قادوا هذه الأمّة ولم يقرؤوا تاريخنا.

هؤلاء لا خطر منهم. لماذا؟ لأنّ خطابهم أكاديمي. تكون في الجامعة يحكي لك، يؤلف كتابا ما ينتشر منه إلّا ٢٠٠ نسخة والباقي يعطيهم هدايا. لكن أين الخطورة؟ الخطورة إذا نزل هذا الفكر إلى الأرض. يعني قسطنطين زريق معروف أنّه من أكبر منظّري الفكر القومي. أين كان يدرس؟ كان يدرس في الجامعة الأمريكية في بيروت. هذا المفكّر قومي، وكان مدرّسًا لكن أنتج من؟ أنتج تلاميذ حملوا هذا الفكر إلى الواقع. مثل جورج حبش هو تلميذ له، أحمد الخطيب تلميذ له. طه حسين لو بقي في الجامعة لا قيمة له، لكن أين خطورته؟ أن يحمل هذا الفكر تلاميذ يمشون به.

هذا جانب من جوانب الخطورة. والجانب الأعظم من جوانب الخطورة قلنا إنّ انحراف الفقيه الدقيق والقريب في بدايته ينتج زندقة في نهاية الأمر.

المشكلة لما يأتي هؤلاء فيطرحون أفكارهم الدقيقة فتنطلي على المشايخ فيحملونها دون أن يشعروا أنّها فيروس للقضاء على الدين.

ولذلك تعجبون حين أقول لكم لو قيل لواحد من أفراد حزب النهضة التونسي، لو قلتم له اقرأ لسيّد قطب ينتفض غضبًا ويرد عليك بأقذع وأشدّ أنواع الردّ. يكرهون الخطاب الديني كرهًا عجيبًا. أنا أتكلّم عن البناء العلمي والنفسي لمثل هؤلاء. لكن لو قلت له ماذا تقرأ؟ يقول أقرأ محمد عابد الجابري. أين خطورته؟ في الجامعة؟ في تلاميذ يحملونه. أين خطورتهم؟ عندما تنطلي دقائق كلامهم على الأحزاب الإسلامية.

ولذلك تجد أنّ زمزمتهم وهمهمتهم وجمجمتهم هذه الأحزاب الّتي تكره الخطاب السلفي يعني المتدين، خطاب الدين، البناء الديني للإنسان، تجدونهم يفرّون إلى هذه الكتب؛ لأنّها تنتج لديهم معرفة هي أشبه بالعلمانية متسترة بالإسلام.

هذا واقع.

ذكرت لكم أنّ عامة الّذين يتكلّمون عن الدين، تصوّروا نصر حامد أبو زيد ألّف كتابًا عن أثر الشافعي في الفقه، وأراد أن ينشئ فقهًا عدلًا بين مدرستين، هكذا صوّر، وهو لم يقرأ ترجمة الشافعي، لذلك لا يعرف أين وُلد ولا أين مات ولا يعرف تاريخ ميلاده وأخطأ في تاريخ ميلاده. السنهوري هذا الرجل هو الّذي كتب أغلب دساتير الدول العربية؛ الدستور المصري شارك في كتابته، الدستور الكويتي شارك في كتابته.

ولذلك عامّة دساتير الدول العربية صياغتها فرنسية؛ لأنّ دراسة عبد الرزاق السنهوري فرنسية؛ لأنّها كلّها أُخذت «كوبي» من الدستور المصري وهو الّذي أنشأها.

هذا عبد الرزاق السنهوري في إحدى دروسه في الجامعة المصرية وهو يدرّس، واحد تكلّم معه وقال يعني الإسلام يقول كذا، فقال له: وهل الإسلام فيه نظام دستوري أصلًا؟ يعني الرجل هو فقيه فقهاء الفقه الدستوري، أستاذهم الأوّل الّذي إذا ذُكر سبّحوا بحمده، ومع ذلك لا يعرف عن الإسلام شيئا. ولذلك في آخر حياته بدأ يدرس عن الإسلام واقتنع أنّه موجود في الإسلام الفقه الدستوري، يعني بأن يكون رديفًا للفقه الدستوري الأصلي الّذي أنشأه فلاسفة التنوير في الغرب وهم الفرنسيون.

هذا نموذج.

النموذج الثاني زكي نجيب محمود، ذكر عنه من ذكر وموجودة في كتابه الّذي ذكره هو الطرابيشي، وذكر هذا الشيخ شاكر – مع أنّه ناقض للتراث يريد أن يبني الأمّة على وفق النظرية المادّية العلمية مع مساند لها من التراث، يقول مع ذلك: أنا أمضيت كل عمري لم أقرأ في التراث ورقة واحدة إلّا في آخر خمس سنوات خطر على بالي هل يمكن أن نستفيد من التراث أو لا نستفيد. لا يعرفون الدين! يتكلّمون عنه ولا يقرؤونه.

الأستاذ الدسوقي في كتاب القضاء والقدر وهو إحدى كتب الألف كتاب. القضاء والقدر رسالة دكتوراه وهو من أعظم ما أُنتج في المائة سنة الماضية. يقول عن أستاذه سامي النشار –وهو أستاذ أساتذة الفلسفة في العالم العربي، كل من درس الفلسفة خرج من تحت يديه–. يقول الأستاذ الدسوقي في مقدّمة كتابه هذا عن شيخه علي نشّار يقول بأنّه لما أعطاه رسالة في الماجستير طُلب منه رسالة في القضاء والقدر، فالدسوقي لأنّه كان عند أنصار السنّة في مصر؛ فكتب كتابًا في القضاء والقدر عند أهل السنة وأخذه من ابن تيمية ومراجعه، فلمّا عرضه عليه قال له: أنت تكذب، هذا دين المعتزلة وليس دين السنّة، لأنّ السنة هو الجبر؛ لأنّه لا يعرف إلّا أن الأشاعرة هم من يمثّل أهل السنة والجماعة فهو دين الجبر. قال أبدًا وتناقش معه وقال:

هذا غير صحيح، قال: فاضطررت أن أحضر له كتب أهل العلم ابن تيمية ومن معه وأبيّن له. فقال لأوّل مرة أعرف أنّ مذهب أهل السنّة هو هذا المذهب.

فهم لا يعرفون شيئًا. هؤلاء غرباء عن أمّتنا، في تاريخها، في قراءتها. يتكلّمون عن الدين باعتباره إرثًا كما يتكلّمون عن النصارى لا يعرفون شيئًا عن الدين ولا يقرؤونه. ولذلك لا تستغربوا أنّ عمرو موسى، لما وُضع في لجنة صياغة الدستور في زمن مرسي فهم وضعوا المرجع الكتاب والسنّة بفهم أهل السنة والجماعة. -هذا بجدّ وليس مزاحًا كنت أظنّه مزاحا، ولما سُئل واحد من الحضور في الجلسة هذه فقال له أهكذا قال، قال نعم المشكلة لا يعرفون شيئًا عن الدين-. قال: السنّة وفهمناها يعني السلفيين، الجماعة يعني الإخوان المسلمين؟

هذه الكلمة لم تأت على أذنه قطّ في حياته (أهل السنة والجماعة)! هؤلاء الذين يصيغون أفكارنا ويكتبون مناهج التعليم وهؤلاء الّذين يقودون سياسة الأمّة، وهؤلاء وهؤلاء إلى آخره حتّى تعرفوا إلى أيّ درجة ممن يظنّ أنّه يعرف الدين. هم لا يعرفون الدين أبدًا.

بهذا أستطيع أن أقول أنّي قد غطيت أغلب ما حول هذا الكتاب إن شاء الله.

أريد فقط أن أنبّه إلى أنّ قراءة جورج طرابيشي لهؤلاء قراءة منصفة.

العلمانية عند أصحابها تُقسم إلى قسمين: علمانية يمكن أن ينتجها التراث، يمكن أن نجد في تراثنا علمانية. وهناك علمانية تقول أنّ مجرد الاتّكاء على التراث جريمة. تجدون هذا في كتابين: الكتاب الأوّل الّذي يمثّل المدرسة الّتي تقول أنّ التراث ينتج ديكتاتورية بكّل ما فيها وهو كتاب الأسس الفلسفية للعلمانية لعادل ضاهر وهو كاتب باللغة الفرنسية، والثاني العلمانية من منظور مختلف للعظمة الّذي يمثل المدرسة الثانية الذي يقول يمكن أن نبني علمانية من تراثنا لعزيز العظمة الأول.

وكذلك ممن يقول بإمكانية إنتاج العلمانية من التراث هو برهان غليون.

القصد علينا أن نحذر ممن يمدح التراث؛ لأنّه يراه نافعًا لا حقيقيًا. يعني نحذر من الّذي يمدح التراث من هذا الجانب. هم يريدون استغلاله.

هذه انتهينا منها.

النقطة الثانية التي نأتي إليها وهي مهمّة، وهي: هل هناك ردّ على هؤلاء؟

الجواب: نعم، تُعتبر كتب طه عبد الرحمن جيّدة لولا اللغة الّتي يستخدمها ولها أسبابها النفسية عنده، ولكنّه يريد أن يقول بأنّ التراث شيء واحد، وأنّه منظومة عقلية واحدة لا يجوز أن تُجزّأ. وعامّة كتبه في الردّ على هؤلاء تقوم على هذه الفكرة.

وبهذا أختم، وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

▪ **سؤال: لماذا استفاض في القومية ولم يستفض في الشيوعية؟**

الشيخ: في الحقيقة؛ لأنّه شيوعي سابق وإن كان قد تحوّل. ثانيًا هو يكنّ احترامًا كما في كتابه، يكن احترامًا لنماذج قراءة الشيوعيين للتراث. ولذلك رأيتم مدحًا مبطنًا بل عميقًا في الحقيقة لحسين مروة صاحب كتاب النزعات المادّية في الفلسفة الإسلامية. يمدحه، وحسين مروة كان شيعيًا، وله صور كان باللفة السوداء ثمّ تحوّل شيوعيًا، ومات قبل أن يتمّ كتابه وهو نزعات المادية. العنوان واضح: النزعات المادّية في الفلسفة الإسلامية. وهذا من قبيل إنشاء الفكرة من التراث. على طريقة إنشاء الأفكار الضالّة من التراث الإسلامي.

فهو أوّلًا لشيوعيته القديمة فيحترم دراساتها. وثانيًا لأنّه يكنّ احترامًا لطرائق فعلهم مع أنّه ينتقد أصل الفعل وفكرته.

▪ **السائل: يا شيخ ما حدثتنا عن العقلية أو العقلانية الإسلامية الّتي نقد بها الدكتور محمّد عمارة، وماذا يقصد محمّد عمارة حين يقول بعث الإسلام العربي الّذي يريده؟**

الشيخ: هذا الموضوع وهو الموضوع الّذي ينبغي أن يُبحث في هذا الكتاب مذبحة التراث، وهم الّذين في خارج الصفّ الإسلامي ولكن ينتقون منه ما يلائمهم. لكن هناك للأسف من يريد أن يحي الإسلام على طريقة الانتقاء فيما هو نافع لكن هو إسلامي. الأستاذ محمّد عمارة من هؤلاء.

أنت تعرف أنّ هناك من يقول بأنّ التراث الإسلامي صراع بين ثلاثة عقول، وهذه رسخّها عابد الجابري هي أصلًا موجودة لكن رسخّها محمد عابد الجابري في نقده للعقل العربي. العقل الأول هو العقل العرفاني، العقل الثاني هو العقل المستقيل وهو العقل الّذي يسمّيه العقل البياني، والثالث هو العقل البرهاني. يقول أنّ التراث الإسلامي –وهذا يقوله عمليًا محمّد عمارة، وإن كان ليس بهذه الحدية–. ما المقصود بهذه العقول؟ يقول هذه صراعات عقول من يغلب على الإسلام.

تسمعون عن كلمة سرقة الإسلام الّتي استُخدمت في وقت من الأوقات؟ لما ابن لادن قام في ١١ سبتمبر واصطبغ الإسلام في العالم بصبغة بن لادن. يعني الآن العالم ما عرف الإسلام خارج إطار المسلمين، في الغرب النّاس عرفوا الإسلام من أين؟ من

١١ سبتمبر ابن لادن ومن معه. فنشط المفكّرون لتفعيل أصحاب العمائم النائمة؟ الّذين لا يفهمون شيئا ولكن يشتغلون بالريموت كنترول أو العشر قروش.

أتوا بهم؛ حتّى تكتمل الصورة، يأتون بأناس كلّهم حالقون لحاهم ولابسون كرفتات ويتكلّمون عن الإسلام لا أحد يتبعهم، لكن لا بدّ من وجود الطرابيش! فبدأت العبارة تُسوّغ بقوّة من يجوز له الحديث عن الإسلام، وبالتالي نشأت عبارة سرقة الإسلام، أنّ هؤلاء الإرهابيين سرقوا الإسلام. هذا جزء من المعركة، سرقوا الإسلام بمعنى أنّ الإسلام مسروق، علينا أن نعيد الإسلام لخطابه الذي يمثّله أهله الحقيقيون. من هم؟ كلّ واحد يأتي له بشيخ ويقول هذا هو الإسلام. على قاعدة حديث الفتى: كل ملك عنده ساحر! وفرعون ما عنده؟ سحرة. فلا بدّ من وجود السحرة. فهذه قضيّة.

الآن العقول الثلاثة: العقل البرهاني والمقصود به المعتزلة، الّذين يريدون فهم النص بتقييد العقل الصناعي وليس العقل الفطري. وكل نقل لا يخالف هذا العقل يُطرح حتّى لا يُؤول، هذا اسمه العقل البرهاني. مثّله المعتزلة، يمدحون ابن رشد أنّه يمثّل هذا العقل.

العقل الثاني العقل العرفاني. ما المقصود بالعرفاني؟ العقل الصوفي. وهو الّذي يريد أن يصل للمعرفة عن طريق الكشف. وهذا ينسبونه للغزالي ومن معه. ويعتبرون أنّ هذا العقل تحالف مع العقل البياني الّذي يمثّله الفقهاء والأصوليون. البياني نصّ، فهذا صراع.

محمّد عمارة بلا شك أنّه كان شيوعيًا كبيرًا، لكنّه انحاز إلى الإسلام وانحيازه للإسلام يُحترم. وهو في الحقيقة ليس انحيازا مصلحيا، بل انحياز حقيقي. ولذلك هو يمدح نماذج عظيمة في التراث السلفي. يعني يمدح ابن تيمية ويمدح ابن عبد الوهاب، ويمدح هؤلاء. وفي وقت قال أنّ الّذي يصلح لإصلاح الأمّة هو العقل البرهاني أي العقل المعتزلي. ونحن شرحنا في درس سابق أرجو أن يُرجع إليه في الموافقات، لما قلنا لماذا نشط الّذين يريدون إحياء الأمّة إلى العقل المعتزلي، قلنا لأنّ فيه تعظيم للإنسان؛ لأنّه يتوافق مع المذهب الإنساني، هذه شرحناها. ارجعوا إليها وهي مهمّة؛ لأنّهم أرادوا تفعيل المعتزلة لأنّها تؤمن بالإنسان السوبر، هو الذي يصنع إرادته.

ولذلك قال إمامهم لو أنّي سمعت فلانا يقول الحديث لما صدّقته، المهمّ مشى حتّى وصل إلى النبيّ ﷺ! قال: لو سمعت النبيّ يقول هذا الحديث لقلت له هذا الكلام العقل لا يقوله، قال: لو سمعته من جبريل ما أقبله، لو سمعته من الله مباشرة لقلت له ليس على هذا أخذت الميثاق منّي!

أنا أعتقد أنّ محمّد عمارة ولست قارئًا له قراءة تامّة وتاريخية كان كذلك، لكن هل هو الآن كذلك أم أنّه تطوّر إلى شيء آخر؟ أنا أعتقد أنّه خرج من هذا الإطار مع بقاء ما يمكن أن يُقدح فيه ولكنّه هو ضمن التيّار الإسلامي ضدّ التيّار العلماني المتفرنج الّذي يريد أن يلغي الدين من الأمّة وبهذا يُعتبر.

الأسس الفلسفية العلمانية لعادل ضاهر وهو الذي أراد أنّ يبيّن أنّ العلمانية تتناقض مع التراث. يجب أن نلغي التراث، التراث لا يصلح ميدانًا لإنتاج العلمانية.

أسئلة الإخوة في البالتوك

- **يقول أحدهم: أنّ الذي قال هذا هو عمرو بن عبيد.**

الشيخ: نعم هكذا قال الذهبي في ميزان الاعتدال.

- **تكلّم يا شيخنا عن الهرمسية**

الشيخ: الهرمسية هي أحد المذاهب العرفانية تبعًا لهرمس، ولذلك صاحب الشهرستاني وأنا من برامجي الّتي أريد أن أفرغ لها حتّى ينتهي الكلام عن التكفير والدم والمشاكل هذه الّتي كلّ يوم يشغلونا بها بساعات من الأسئلة، كان إحدى برامجي للكتابة في كتب الملل، وتقدمة هذه الكتب وما لها وما عليها، وكيف بُنيت هذه الكتب، دراسة كاملة عن الكتب. الشهرستاني بلا شكّ عنده ميل إلى العرفان فلذلك هو يمدحه.

عرفاني يعني صوفي. والمعرفة لها ثلاث طرق في تاريخ البشرية: الأجوبة على الأسئلة الّتي يطرحها النّاس وكيف تُتلقى المعرفة لها ثلاثة طرق:

الطريقة الأولى هي عن طريق الوحي وهو طريق النبوة.

الطريقة الثانية هي طريقة العقل، وهذه ثبت تناقضها وهم الفلاسفة.

الطريقة الثالثة هي طريقة العرفان، يسمونها الغنوصية، الهرمسية، بحسب الفلاسفة. ما معناها؟ معناها تلقّي المعرفة عن طريق الكشف. أن يتذوّق المرء الحقائق بنفسه فيخرج بها، ونهايتها وحدة الوجود إلى آخره. فهذه الهرمسية، الهرمسية هي إحدى مذاهب العرفان في التاريخ الإسلامي.

- **سؤال أحد الإخوة حول استعمال كلمة الإنثروبولوجيا**

الشيخ: فقط هذه معناها التفسير الاجتماعي، وهذه الكلمات يكبّرونها حتى يقولون نحن قرأنا. بعض الناس يقول أنا أفهم ولذلك أستخدم عبارة صعبة. يعني الإبستومولوجيا ما معناه؟ معناه النظام المعرفي. فضع نظام معرفي وخلاص، وما معنى النستولوجيا؟ يعني الحنين، ضع الحنين وأرحنا. لكن حتّى يقول أنا أفهم!

وهذا جزء من غيابنا وغياب لغتنا؛ لأنّ اللغة تبع لقوّة الأمّة ولضعفها. من يقول هذا؟ يقول هذا ابن حزم، يقول: إن قوّة اللغة وضعفها تبع لقوة الأمّة وغلبتها على غيرها.

- **سؤال أحد الإخوة: تكلّم الشيخ عن ابن سينا في الطبّ وتكلم عن ابن سينا في الفلسفة.**

الشيخ: جورج طرابيشي نقد البناء العلمي الّذي بنى عليه الجابري نقده للعقول الإسلامية والعربية.

هناك اتّهام وهو حقيقي. لو واحد قال: ما أهّمية هذا الكتاب؟ أهمّية الوصول إلينا أن تعرف الإسلام كما هو. هذا واحد. وإيّاك أن تأخذ الإسلام من غير أهله، وإيّاك والفقهاء الّذين يُستخدمون. وهذه العبارات واضحة المعاني، لا تهتمّ بالمشايخ الّذين يأتون والمفكرين الّذين يأتون بدفع المال دون أن يعرفوا إلى أيّ معركة يُساقون، موجود هذا. هناك أحزاب تحارب وشيوخ يتكلّمون ضمن معركة الإسلام مع خصومهم ضدّ المسلمين! هذا موجود. هذا الكتاب يبيّن ويكشف لنا هذه المعركة وهي معركة فكرية لها ظلال عملية ويكفي ما تكلّمنا به.

القضيّة الثانية وهي قضية ألّا نعمل ضمن خطّة العدو، هذه خطيرة. نحن عندنا إسلامنا وعندنا قضايانا. إذا تقاطعت مبادئ الإسلام مع غيره لا يعني أنّ الإسلام يُسرق اسمه ليوضع على هذه القضيّة للموضوع الآخر، ولا نخوض معارك للآخرين ضمن حماية الإسلام؛ لأنّ هذا يدعو إلى قضيّة يحميها الإسلام. مثل قضيّة الأسرة، كيف بنى الإسلام الأسرة. أنا ما أتكلّم عمّا هو صغير ترونه لتروا أنّ المعركة أعظم من ذلك.

القصد أعود إلى ما قال في قضيّة الطبّ. عابد الجابري متهمّ وهو اتهام صحيح بأنّه شوفيني -على قاعدة الإبستمولوجيا وكذا-، يعني عنصري، وهو عنصري حقيقة. وهذا الّذي جعل بعض الأحزاب الإسلامية تفرح به؛ لأنّه يعظّم المفكرين المغاربة.

يعني كيف يضع ابن حزم في العقل البرهاني؟! ابن حزم أقلّ شيء تضعه في العقل البياني على أساس جماعة الفقهاء والنصّ، بل هو من أكثر الناس التزامًا به في قوله بالظاهر. ولغى أيّ إنتاج معرفي للمشارقة بأنّه إنتاج برهاني، ولذلك هو أراد أن يقول بأنّ الجابري حتّى جاء إلى ابن سينا باعتباره نموذج عقلاني صرف وجعله ضمن العقل المستقيل أي العقل العرفاني. وهذا الذي ردّ عليه طه عبد الرحمن.

في الحقيقة كان الغزالي صاحب عقل بياني؛ لأنّه فقيه، وكان عقلًا عرفانيًا؛ لأنّه متصوف، وكان عقلًا برهانيًا؛ لأنّه مجادل ومتكلم. فهذا التفريق بين هذه العقول غير صحيح. بل كانت الشخصية الواحدة تملك هذا من المعرفة.

ولذلك حتّى ابن رشد الذين يفتخرون به أنّه كان عقلًا برهانيًا كان فقيهًا. صاحب بداية المجتهد هذا فقيه أم غير فقيه؟ وهكذا.

فهذا الذي يريده وهو يعرّض، جورج طرابيشي يعرّض بالجابري بأنّ كل ما جاء من المشارقة من العقل المستقيل. فسمّاه عقل مستقيل يعني عقل لا ينفع.

أظنّ يكفي إلى هنا.

وبارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا.

إخواني، الكتاب الخامس هو كتاب الاعتبار للفارسي الأديب المجاهد الحكيم أسامة بن منقذ. وهو كتاب موجود، اسمه كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ. وهو كتاب منشور ولا يوجد له حقوق طبع مثل هذا الكتاب وجدنا المشقة في نشره وتحصيله.

بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا.

والحمد لله رب العالمين.

[٥]

مناقشة كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين، وإمام المتقين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أهلًا بإخوتي الأحبة في لقاءنا **الخامس** من لقاءات مشروع "الألف كتاب قبل الممات".

واليوم نحن مع كتاب الفارس **أسامة بن منقذ** والمسمى بـ(**الاعتبار**)، والمحاور التي سنتكلم فيها؛ **أولًا**: بأن نتكلم عن فن القراءة وما يلزمنا وما يفيدنا، هذا الكتاب من فنّ القراءة. المسألة **الثانية**: نتكلم عن نوع الكتاب وكيفية قراءة هذا الكتاب. والمحور **الثالث**: يتعلق بالكتاب نفسه وما يفيدنا من ظلال ومن ارتدادات.

- **المحور الأول: فن القراءة.**

فأوّل ما يهمنا هو البحث في موضوع **فنّ القراءة**: ماذا يمكن أن نستفيد من هذا الكتاب كدليل من أدلّة قواعد فنّ القراءة؟

القراءة فن وعلم، ولم يُكتب إلى الآن في فنّ القراءة الشاملة. هناك كتب أُلفت في فنّ الطَّلب، في أدب الطلب، وكيف يبدأ المرء بالقراءة وبالتعلم. **لكن القراءة لها فنٌّ؛ لأنها علم مستقل**. وأنا حاولت أن أكتب فيها كتابي (فن القراءة).

الكلام الذي يدور حوله **محور فنّ القراءة** اليوم في نقطتين مهمتين:

النقطة الأولى أُعنونها بقولي: **النص وقراءاته**، -وليس وقراءته-.

النقطة الثانية في هذا المحور وهي: **النص ونص النقد**.

وهذا الكتاب يفيدنا كدليل في هاتين النقطتين في هذا المحور الأول.

- **النقطة الأولى: (النص وقراءاته)**

ماذا نقصد بقولنا **النص وقراءاته**؟

نقصد بأن النص يمكن أن تقع عليه قراءات؛ يعني استنتاجات. النص **الواحد لا يُفيد عادة معرفة واحدة**، لتقرأه مرة واحدة فتأخذ هذه المعرفة ثم ترحل وتترك بعد ذلك النص جثة هامدة قد أخذت منها المقصد ورحلت عنها! هذه طريقة يظنها البعض سديدة، فيفتخر أنه قرأ كتاب (البداية والنهاية)، -وأنا أتكلم عن (البداية والنهاية) باعتبار أن ما بين يدينا يمكن أن نصنّفه تاريخًا-.

يأتي إنسان ويقول أنا قرأت (البداية والنهاية)، كم مرة قرأته؟ يقول: قرأته مرة. أنت في الحقيقة لم تقرأه! لأن هذا الكتاب لا يمكن أن تستوفي منه أغراضه العلمية بقراءة واحدة، لا بد أن تقرأه مرّات.

وأنا لا أقصد بالقراءة مجرّد الاطلاع؛ هناك فرق بين "قرأ" بمعنى جَمَع. من أين أُخذت القراءة؟ من الجَمْع، ولذلك يؤخذ القُرء، لأنه جمع؛ فالقراءة جمع. وكذلك الكتابة؛ كتب يعني جمع.

فأصل كلمة "قَرَأَ" جَمَعَ، وأصل كلمة "كَتَبَ" جَمَعَ؛ ولذلك تؤخذ منها "الكتائب"؛ يعني جمع لإنسان وراء إنسان يُسمى كتيبة، فأصل كلمة "قراءة" في المعنى هو أصل كلمة "كتب"؛ **فالقراءة هي اطلاع المرء على ما كتب.**

إذًا أولًا: لك أن تقرأ بمعنى أن تجمع ما يريد الكاتب كتابته، وربما يمكن لك أن تجمع ما لم يُرِد الكاتب.

فإذًا الكتب الجامعة وخاصة الكتب التي تُؤلَّف لمقاصد عِدَّة لا يمكن أن تستوفي منها أغراضها بقراءة واحدة، وهذه قاعدة.

ولذلك لما سألني أحدهم: لماذا قرأت مثلًا (الرسالة) أكثر من مائة مرة؟ لكل قراءة مقصد؛ أنا أريد أولًا أن أقرأ (الرسالة) لأعرف أصول الفقه. هذا هو الوضع الأول لهذا الكتاب، يذهب إليه طالب العلم الأصولي ليعرف آراء الإمام الشافعي من كتاب (الرسالة)، هذه قراءة تأخذ منك أسبوعًا فقط، تذهب إلى كتاب (الرسالة) تضعه بين يديك، وتقول ما هو مذهب الشافعي في المسائل الأصولية التي عرضها في كتابه (الرسالة)؟ فتقول: يقول في البيان كذا، ما معنى البيان عنده، ما معنى النسخ، ما هي مذاهبه في النسخ، ما هو مذهبه في الحديث المرسل، ما هو مذهبه في القياس.

فأنت في أسبوع واحد تستطيع أن تستوفي مقاصد الإمام بالنسبة لهذا الموضوع. لكن كيف تعود إليه مرة ثانية؟ بحسب ما يُطرح أمامك من قضايا تعود إليه قراءة بعد قراءة. انتهيت من المسائل الأصولية، فهل للشافعي ذوق بياني في الشعر؟ هل للشافعي ذوق بياني لكلام العرب؟ فتذهب تتقفّر.

ما معنى تتقفّر؟ القَفْر هو الشيء قليل الغَناء، يتقفَّر يذهب للأماكن التي لا تبدو فيها الجواهر، يحفر، فيجد الجواهر مخبوءة. يذهب إلى الصحراء فيجدها قاحلة لكن يبحث فتخرج الكنوز، فهو يتقفّر. فأنت تذهب لهذا؛ لأنك سمعت الجاحظ يقول: "قرأت كلام هؤلاء النَّبغة فلم أجد أفضل كلامًا ولا أجمل كلامًا من كلام الشافعي". أين هذا الذوق؟ أنت في القراءة الأولى لم يكن هذا نظرك، كانت تفوتك هذه الجماليات في كلام الشافعي؛ فلا بد أن تعود إليه مرة ثانية.

انتقد الشافعيَّ عالمٌ مثل أبي بكر الجصَّاص -في القرن الرابع الهجري- في كلامه عن البيان؛ فتذهب إليه لتقرأ الشافعي ومذهبه في البيان، وهكذا في كل مرة لا بد أن تعود إليه. وهو كتاب فقط أُلِّف للأصول! فكيف بكتاب يتحدَّث عن الحياة؟! لما تقول (البداية والنهاية) أو كتاب (الاعتبار) فهو كتاب يتحدث عن حياة.

لماذا كتاب (الاعتبار)؟ هو وضعه لهذا العنوان؛ **أراد لمن يقرأ هذا الكتاب أن يعتبر بما يحدِّثه من أحداث**، يقول له: اعتبر، اتَّعظ!

هو أراد الاعتبار، أراد القصص. فأنت تقرأه على هذا المعنى مرّة، هو يريد أن يقول لك أن الموت لا يأتي بأسبابه التي يخافها الناس؛ الناس يخافون الموت فلذلك يهربون من المعارك، يذكر قصة فيقول: إن الذين رموا أنفسهم في المعارك لم يموتوا، وإنما مات الذي هرب منها بأن وضع رجله في زِربوله —وهي كلمة رومانية تعني الحذاء-، فإذا بها عقرب لدغته فمات! هو رجل هارب، أبوه خاض الحروب كلها ضد الصليبيين والإسماعيليين ومات على فراشه، فهو يقول لك اعتبر!

أنت تنتهي من هذه القراءة الأولى، لكن هل هذه القراءة كافية؟ أنت تعود إليه لتقرأ الحياة الاجتماعية، ما هو دور المرأة في تلك الفترة من حياة هذه الأمة. الرجل عاش تقريبًا مائة عام، وسنذكر سنة وفاته، وسنة ولادته، لأنه من أبناء الأمراء كانت سنة ولادته معروفة، كما يقول الأستاذ محمد أبو زهرة: "إن عامة الأئمة لا يُعرف وقت ولادتهم"؛ لأنهم وُلدوا مغمورين، لكن عُرف وقت وفاتهم لأنهم ماتوا مشهورين. قال: "بخلاف ابن حزم"؛ فإن ابن حزم ذُكر يوم ولادته، وساعة ولادته؛ لأنه وُلد ابن وزير، وكذلك أسامة بن منقذ هو ابن أمير فُعرف وقت ولادته. هذه قضية اجتماعية.

هذه الحياة الاجتماعية أنت تدرسها، لباس الناس، تذهب إلى الكتاب لترى ماذا كانوا يلبسون في الحروب. تريد أن تعرف العلاقة بين الغالب والمغلوب، بين المتصارعين؛ هل كانت هناك حياة اجتماعية بين الصليبيين والمسلمين؟ كان هناك أصدقاء يدخلون من الصليبيين على المسلمين؟ أنت تريد أن تعرف كيف كان يعمل الصليبيون مع الأسرى. هذه قراءة أخرى تختلف.

تريد أن تعرف كيف كان الأمراء يربُّون أبنائهم، كيف رُبِّي أسامة بن منقذ؟

فإذًا النص الواحد لا يُخرِج كنوزه بقراءة واحدة. من أجل هذا قلنا: **النص له قراءات،** يجب أن تفهمها، يجب أن تعرفها، يجب أن تنظر فيها، ولابد أن تُقلِّب النص حتى تعلم منه جميع جوانبه، هذه القراءات هي التي توسِّع لديك المدارك فتنتج.

أسامة بن منقذ أراده لعنوانه، **دائمًا الأئمة يضعون سرّ كتبهم في عنوانها،** الآن تجد العناوين السيف البتار على الأشرار الكفار، أو الرد القويم على المجرم الأثيم!. هذه عناوين اليوم يتفنَّون بها فتُظهر جهالات ولا تظهر علومًا، فقط السجع الممقوت. لكن الأئمة الأوائل كانوا يضعون العناوين ويُفرغون فيها إبداعهم، كما قلنا مرة أن الأئمة يُفرغون إبداعهم في المقدمات، كذلك يهتمون بعناوين الكتب اهتمامًا عظيمًا ولا يتكلَّفون.

إذًا النقطة الأولى من المحور الأول: لا يمكن للمرء أن يأخذ كل مكنونات النص من قراءة واحدة، لا بد أن تعود إليه مرة بعد مرة كلما احتجت إليه.

إذا أردت أن تُحضّر درسًا كيف كانت الأمة الإسلامية تربي أبناءها في وقت الحروب الصليبية، ترجع إليه تفتش، تجد الشجاعة والأمانة، تجد العجائب، لتعرف كيف استطاعت الأمة أن تهزم الصليبيين.

إذا أردت أن تعرف نظرة المسلم إلى الإفرنجي، هذا باب يُفرغ له أسامة قصصًا كثيرة.

وننبه هنا كلمة "الحروب الصليبية" لم توجد قط في تاريخ الإسلام، إنما هي "حروب الإفرنجة"، والحروب الصليبية هو عنوان قاله الإفرنج –الغرب–، لم توجد هذه الكلمة في كتب السلف قاطبة ممن حضروا هذه الحروب أو وصفوها بعد ذلك.

وتجد أسامة يُنصفهم عندما يتحدَّث عنهم؛ عندما يتحدَّث عن شجاعتهم يُنصف، وعندما يتحدث عن أخلاقهم يُنصف، ليس عندهم غيرة وليس عندهم نخوة، وأنت تستطيع أن تدرك هل يتكلم كلام الحاقد أو كلام العدو، أم يتكلم كلام المنصف، فتراه يُحدِّث بما رأى، عندما يكون المدح يمدح، وعندما يكون الذم يذم.

إذا أردت أن تعرف نموذج المجتمع الغربي في رقيّه العلمي أو هبوطه بالمقارنة بالأمة المسلمة، يتكلم عن موضوع الطب، قرأت له قصة ربما مررتم عليها، من العجب العجاب كيف أُرسل الطبيب لأجل أن يعالج النصارى، فقتل الطبيب الإفرنجي الزوج والزوجة وارتاح!

أمر آخر قد تستغربوه، هو لغة الناس حينئذ، أسامة بن المنقذ فارس وأديب وشاعر، وهذا معروف عنه، وله ديوان شعر، ومع ذلك لـمَّا تكلم في (الاعتبار) لم يُقِم شأنًا للغة، بل تكلَّم بلغة العوام في عصره، تجد كلمة (إيش) و(شو) و(ليش) وأحيانًا يقدِّم ما لا يُقدَّم على طريقة العوام، فيمكن بهذا أن تعرف لغة العرب في القرن الخامس الهجري.

وتعرف أيضًا المستوى الديني، حيث ذكر أقسام العلماء وشأنهم في الحروب.

هذا يجب أن تتعلمه، عندما تقرأ النص تُقلِّبه كالجوهرة؛ لها جوانب متعددة، في كل جانب تُعطيك من الألوان الزاهية المبهرة ما لا تجدها في الجانب الآخر، لذلك تحتاج إلى تقليب.

أما القراءة مرة واحدة فهذه لا تصلح إلا لروايات الحب والغزل، فهذه مثل العلكة، هناك بعض الكتب والقصص مثل العلكة -وهذه تسميتي- لأول دقيقة حلوة ثم تتحول إلى بلاستيك، كتب فاسدة لا قيمة لها، فقط عليها غلاف جميل ثم إذا عُدت إليها لا تجد فيها منفعة.

أما الكتب العظيمة يُشبّهونها بالمسك، كلما تقادم الزَّمن عليه ازداد طِيبًا وأهمية، مثل العود كلما زاد الزمن عليه زاد جمالًا.

- **النقطة الثانية: (النص ونص النقد)**

من خلال تجربتي مع هذا الكتاب قراءة وتعليمًا له وتنبيهًا لأهميته، أخرج بهذه النتيجة: **لا تقرأ نصًّا قبل النص**، لأن النَّقد نص؛ **إذا سمعت عن كتاب فاذهب إليه مباشرة**، إذا أردت أن تقرأ كتابًا إياك أن تقرأ نقده لا ذمًا ولا مدحًا ولا دراسة قبل أن تذهب إلى الكتاب أولًا فتقرأه كله.

لا تجعل غيرك يصنع لك دروب الكتاب. النَّقد عند العوام تعني السلبية، وهذا غير صحيح، بل هو قراءة تُنشئ نصًا يحتمل السلبية أو الإيجابية أو مجرد الشرح والإفاضة، لذلك بعض الناس يذهبون إلى كتاب (الاعتبار) بعد أن يسمعوا ما قاله أبو قتادة عنه، ألغِ ما سمعته عنه، الكتاب نُقد كثيرًا، تكلَّم عنه المستشرقون، تكلم عنه النصارى، تكلم عنه بعض الدَّارسين وأخذوه رسالات للماجستير.

فإياك أن تقرأ نصًا متعلقًا بالنص قبل أن تقرأ النص نفسه. وهذه مَهَمَّة خطيرة، فقد يكون القارئ مبتدئًا، لكن يجب أن تمرِّن نفسك على سلوك الدُّروب المتعلِّقة بالكتاب، فتقرأه بنفسك وتتأمله، ثم تذهب إلى الناقد فتنظر هل هو مصيب أم لا؟ هل وصلت إلى ما وصل إليه؟

وقال لي ابني: قرأت كتاب (الاعتبار) فكنت أبحث عن القصص التي كنت تُلقيها علينا، ففاته الكثير، والكتاب مليء، لكنه ذهب للقصص التي أظهرتُ من جمالها، وفاتته القصص التي تُشكِّل الاعتبار الذي أراده أسامة بن منقذ.

إذًا عليك أن تقرأ الكتاب بنفسك، تأمله بنفسك، وراجعه بنفسك، وهي مسألة مهمة لأنها غاية في الصعوبة، فالنقد والنظر لا يقدر عليه المبتدئ لكنه يتمرَّن.

وذكرنا سابقًا أن القراءة تولِّد القراءة، ومن معانيها أنك تقرأ الكتاب والرد والنقد والجدل الذي يدور حوله، لكن أولًا اقرأه أنت، لتستكشف نفسك، هل استطاع الكتاب أن يسرقك؟ هل استطاع الكتاب أن يُقنعك مع أنه باطل؟ هل استطاع الكتاب أن يلتهم ذهنك؟

وقلنا أن من مهمَّات الكاتب أن يسرقك، وأن يُلغي على شخصيتك، يزين لك ما في داخل أحشائه فيسرق ذهنك، فإياكم وهذا.

وذكرت في (فن القراءة) نموذج جبران خليل جبران، وهو كاتب لبناني كان يكتب بالعربية والإنجليزية، وعامة ما كتب بالإنجليزية، وهو ممن عاش في الغرب مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي. يقول ميخائيل نعيمة: "كنا نجلس مع جبران فنراه صار يريد أن يصبح مثل شخصية نيتشه عندما قرأ كتاب (هكذا تكلم زرادشت)"، وهو كتاب مهم في بيان فكرة نيتشه في موت الإله وظهور الإنسان العظيم، فكان يحاول أن يقلد صورة الإنسان العظيم، وهذا معناه أن الكتاب التهمه!، فعليك أن تجعل بينك وبين الكتاب حاجزًا.

فاقرأ بنفسك، وإذا أنشأ الكتاب نصًا ناقدًا، فعليك أن تقرأه باعتباره نصًا جديدًا قراءة واعية لتكتشف عدله من ظلمه، فهاتان قضيتان يجب أن نعتني بهما.

من الأخطاء التي يقع فيها القارئ موضوع التصنيفات إلى كتب تاريخ، أدب، حديث، فقه، هذه تصنيفات يجب على القارئ أن يلغيها إذا أراد القراءة الواعية.

والمثال الذي بين أيدينا كتاب (الاعتبار) على ماذا يصنَّف؟ هل هو كتاب سيرة ذاتية؟ الجواب نعم، هل هو كتاب تاريخ؟ هل هو كتاب موعظة؟ هل هو كتاب رصد اجتماعي؟ هل هو كتاب أدب؟ الجواب على كل ذلك نعم. والتصنيفات هذه حذَّر منها علماء الأدب، مثلًا هذا شعر رثاء وهذا شعر مدح، فهي تصنيفات قاتلة لا تصلح إلا للضبط العام والنَّمطية، وهذه كتبتها في بحثي عن المنافقين في (مجلة المنهاج)، خذوها عني: **النمطيَّة توضع لتسهيل العلوم لكنها لا تصلح لسلوك دروب العلوم**.

النمطية أي السياق الواحد، فيأتي بعض الناس ويضعون المجتمِعات في مكان والمختلِفات في مكان، وهذه النمطية وُضعت من أجل ضبط العلم، لكن إذا سلكت العلم من خلالها تدمّره، ومثال ذلك ما يُسمى بالقواعد الفقهية، هي وُضعت لضبط العلم، لكنك إذا اقتصرت عليها تدمّر لديك النظر الأعلى.

ولذلك هذا الكتاب لا يصح أن يأتي أحد ويضعه في تصنيف معين، هذا -كما يقولون- من الكتب **المتفرِّقة المفاهيم**؛ أي جامعة، والحق أنه لا يوجد كتاب تستطيع أن تبرِّئه من معانٍ أخرى غير ما وُضع له، هذه التصنيفات لا تصلح لطالب علم؛ يجب عليه أن يقرأ الكتاب من غير النظر إلى ما وُضع فيه من نمط.

- **المحور الثاني:**

قضية مهمة ذكرتها لما نقدت الأستاذ شاكر، عندما قال أن هؤلاء الأئمة: الجبرتي، وابن عبد الوهاب، وعبد القادر البغدادي، والزَّبيدي -صاحب (شرح القاموس)-، قال: هؤلاء كان عندهم مقدمات صناعة الحضارة الإسلامية وإعادتها إلى جادَّتها، وقلت: هذا كلام غير صائب؛ لأن صناعة الحضارة الإسلامية تتعلَّق بأمة ولا تتعلق بأفراد وأبطال منفردين.

فالزبيدي يعكف على كتبه ويُبدع في اللغة دون أن يكون له حراك داخل الأمة يحرّكها نحو مقاصدها، هذا لا يصنع حضارة!

الجبرتي يجلس في بيته ويكتشف مبادئ علمية جديدة، هذا لا يصنع حضارة!

إنما الذي يصنع الحضارة هي الأمة، وقد تُصنع الأمة من خلال رجل أو رجال، لكن لا بد من الأمة لصناعة الحضارة.

وأذكر لكم تجربة شخصية، قرأت كتاب (البداية والنهاية) عدة مرات قراءة كاملة، لا تقل عن ثلاث مرات، أما أن أعود إليه مرة بعد مرة لأجل قضايا تاريخية فهذه لا يمكن حصرها، وأذكر أنني لما قرأته أول مرة أصبت بحالة من الإحباط لا يعلم بها إلا الله!؛ لأن صاحب الكتاب حصر تاريخ الأمة في الحكام والخلفاء والأمراء.

أنا أتكلم عن الانطباع كقارئ يريد أن يرى التاريخ، نعم هو يهتم بقضايا الحروب الكبرى بين أهل الإسلام أنفسهم، وبين أهل الإسلام وخصومهم، ولكن المحور الذي يدور حوله الحديث في التاريخ إنما هو الملوك والخلفاء، وهذه كما يقول الأستاذ محمد قطب –ومن بركة العلم أن يُنسب لصاحبه– :"نحن نستطيع أن نفتخر بكل جوانب الحضارة في تاريخنا إلا الجانب السياسي وهو الجانب الدَّموي الأسود"!، وفي الحقيقة أحب أن أضيف عليه كلمةً لا بد منها: أن هذا السَّواد في تاريخ أمتنا مما يتعلق بالجانب السياسي هو أطهر بكثير في هذا الجانب من الأمم الأخرى.

فلو قارنا هذا الصراع السياسي بين الخلفاء والسلاطين والملوك في تاريخ أمتنا، وفي الأمم الأخرى لوجدنا هنا بياضًا وهناك السواد!

ما أريد أن أقوله قاله الأستاذ علي الطنطاوي، وله كتاب لا بد أن يُقرأ وهو كتاب (قصص من التاريخ)، في بدايته يقول أستاذ الجيل المربِّي –رحمه الله– فيما معناه: أن الذين كتبوا التاريخ لأمتنا كتبوا تاريخ القصور والكبار والعلماء المشهورين، لكنهم لم يدخلوا حواري الناس ولا العوام ولا الأزِقَّة وغير ذلك.

وأنت عندما تقرأ تاريخ الملوك لا تستطيع أن ترى حياة الناس وحركتهم العلمية، حتى أن صاحب (البداية والنهاية) يختزل كثيرًا من تاريخ العلماء بوفياتهم، فتحتاج أن تقرأ كتبًا أخرى لتعلم حياة العالِم وشأنه.

يقول الأستاذ علي الطنطاوي: فأردت أن أدخل الكتب لأستخرج من تلك الجوانب المظلمة شيئًا من حياة الناس، فهي جوانب مضيئة وعظيمة. فذهب وصنع هذا الكتاب (قصص من التاريخ)، وصاغه على طريقة إمام هذا العصر في ذلك الفن وهو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، ممن أبرزه ولم يسبِقه إليه سابق، صاحب بكارة هذا الفن.

إذا ذهبت إلى (وحي القلم)، من الأمور التي تجدها أنه يأتي إلى نص في كتب التاريخ لا يتعدَّى السطر أو السطرين أو الثلاثة، مجرَّد خبر، تقرأه أنت قراءة سريعة، وهو يصنع منه القصة الحقيقية التي يتخيَّلها!، على طريقة القُصَّاص اليوم، فهذه امتدادات القصة للخبر، استطاع الرافعي أن يملأها بما علم من الجوانب الحياتية.

جاء إلى قصة زواج ابنة سعيد بن المسيب لما طلبها عبد الملك بن مروان لابنه فرفض وأعطاها، قصة موجودة في التاريخ صغيرة، فجاء الرافعي وصنع منها قصة كبيرة، كيف جلس الشيخ، وكيف تعلَّم وكيف زوَّج ابنته، وكيف ذهب إلى بيته، فصنع منها قصة كبيرة كما تخيلها، وهي ذُكرت في التاريخ فقرة!.

والذي يُعينك أن تُوجد هذا الخيال لصناعة القصة هو إدراكك للحياة الاجتماعية التي يبثُّها مثل كتاب (الاعتبار).

دعكم من الصراع السياسي في أول الكتاب، فقد وجدت العامة استثقلوا الكتاب في الصفحات الأولى، لأنه عن الصراع السياسي بين الأمراء. كأننا أمام فيلم يُصوَّر في الظلام، بعد ذلك تتفتَّح لك جوانب الحياة فيما أراده الأستاذ علي الطنطاوي من النزول إلى حياة الناس، بعيدًا عن الصراع السياسي بعيدًا عن القتل والاغتيال، تكتشف الحياة الاجتماعية في حروب الصليبيين، تكتشف الإفرنج من خلال سوقه لأخبارهم، حياة بكاملها.

لذلك من أسباب اهتمام المستشرقين بهذا الكتاب هو كيف يرى العرب –أي المسلمون– الغازي الأجنبي، وأسامة رجل معاصر لذلك عاش تقريبًا مائة عام، وُلد قبل أول حملة صليبية دخلت بلاد المسلمين بأربع سنوات فقط، فعاشها من أولها حتى أنهى عمره رجلًا يقارب المائة –تقريبا ٩٦ عامًا–، خاتمًا حياته منفردًا معتزلًا يقدم له ما يجب أن يقدم من قِبل صلاح الدين –رحمه الله–.

وأهمية هذا الكتاب أنه ينزل للحياة الاجتماعية بعيدًا عن الأسماء العظيمة، أخبرنا عن علماء استشهدوا ولـمَّا حاولت في تجربة سابقة لقراءة هذا الكتاب أن أبحث عن ترجمة لهؤلاء العلماء لم أجدهم، مثلًا الحلحولي العالم الذي وقف كما وقف ابن تيمية، فهاجم الصليبيين حتى قُتل هو والإمام الزاهد معه.

مثلًا الزُّمركل هذا اللص الإسلامي النظيف الذي لا يسرق إلا من الصليبيين!، فيأكل ويشرب ويأتي بأفضل الخيول للقادة المجاهدين. ولفتات رائعة في الشجاعة، لا تجدها إلا في هذا الكتاب.

إذًا الأمر الأول: **يجب أن نذهب إلى جوانب الحياة لنرى عظمة الإسلام**، يكشف لنا الشجاعة والوفاء وكيف كانت الأمة تعيش.

الأمر الآخر الذي يدعونا إليه الكتاب بهذه القراءة، **هو ضرورة كتابة تاريخنا الذي نعيشه حتى لا يُكتب من قِبل غيرنا**، فأسامة بن منقذ شاعر أديب فارس أمير، لكنك حين تقرأ كتابه كأنه صديق لك يتحدَّث معك، ما الذي يمنعك أنت –بكل

مستوياتك- أن تكتب؟! ليس مطلوبًا منك أن تكون كالرافعي، ولا كابن كثير، ولا كالطبري، مطلوب منك فقط أن تُسجل، اكتُب، واليوم العالِم والعامي كلاهما معروضان أمام شاشة واحدة!.

ولا أعلم كيف فاتنا أن نكتب تاريخ الجهاد في أفغانستان!، لولا أن الشيخ عبدالله عزام كتب بعضًا من صور الشهادة العظمى التي إلى الآن عندما نقرأها تُحدث فينا آثارًا عظيمة، يكتب قصة عن امرأة عجوز، عن أم، عن شاب..

والقرآن عندما حدَّثنا عن الأنبياء، حدثنا عن ناس حتى أسماؤهم لا نعرفها، ولا نعرف أين هم، مثلًا أهل الأخدود لا نعرف أين هم، ومن هم، لا نعرف أسماءهم، ولا أسماء آبائهم. بعض الكتب وثَّقت هذه الحادثة من قتل ذي النوَّاس اليهودي للنصارى المسلمين – الذين اتبعوا المسيح على التوحيد. وأيضًا أصحاب يس.

فهذه أخبار يجب أن نوثّقها، ومن الأمانة أن من يستطيع أن يكتب بالقلم أن يكتبها كل يوم، ولذلك كان الشوكاني لا ينام حتى يكتب ثلاث ورقات، وفي الحقيقة المذكرات قضايا نافعة جدًا، ومن أحب القراءات إليّ، وهي كاشفة، لما أقرأ كتاب السَّكاكيني وهو نصراني، وأول من ألَّف كتب الصغار للصفوف الابتدائي، لما يكتب مذكراته وهي مذكرات يسيرة جدًا، ومع ذلك تجد متعة وفوائد.

فلماذا لا تكتب أنت؟! خاصة إذا كنت مشاهدًا، عالـمًا، الذين ذهبوا للجهاد هنا وهناك، والذين السجون، لماذا لا يكتبون؟! أمسك القلم واكتب بأي لغة، ثم يأتي من يقرؤها ويفهمها ويفسّرها، لا تهتم، لكن فقط اكتب.

فهذا مما يدعونا إليه هذا الكتاب.

- **المحور الثالث:**

كتاب (الاعتبار) هو من الكتب التي لم يكتشفها المسلمون، حتى طبعها المستشرقون، وأول من طبعها مستشرق بريطاني، والكتاب مفقودٌ بعضه، فقد جمعه المستشرق من بين ثنايا الكتب، وكان الكتاب أوراقًا مبعثرة في بعض المخطوطات، فظل يجمع حتى جمع الكتاب كله، مع أن أوله مفقود.

وأسامة بن منقذ من قلعة شيزر، وهذه قلعة إسلامية عظيمة، بعض المؤرخين يقولون أن أهلها فيهم بعض تشيُّعٍ، والصواب أن أسامة بن منقذ لم يكن كذلك، ولا يدل شيء على ما يقولونه، بل وجدنا أنهم من أشد الناس محاربة للإسماعيلية، كما فعلت أمه عندما وضعت أخته على الرَّوْشَن –النافذة– وجهزتها لترميها في الوادي إذا حضر الإسماعيلية؛ لئلَّا تقع في أيديهم.

والشاهد أن هذه القلعة كان لها دور عظيم ومواقع مشهودة في محاربة الصَّليبيين، حتى هلكت هذه القلعة بعد خروج أسامة، حيث خرج بطريقة مؤلمة لحسد عمّه له، الذي جاءه في الليل وأقامه من النوم، وأخرجه من القلعة وقال له اذهب فأنا لا أستطيع أن أنام مرتاحًا في القلعة وأنت فيها!، مع أن عمه أخذ إمارة القلعة من أبيه بعد تنازله عنها، وكان زاهدًا، شجاعًا، كاتبًا للقرآن، وهو متأثر بأبيه كثيرًا.

فبعد أن خرج من هذه القلعة بمدة، أحاطتها نيران فأهلكتها كلَّها، وبادت هذه القلعة، وهذه القلعة ليس لها أثر. لكن أسامة بن المنقذ أبقى ذِكر هذه العائلة، يقول واحد من عائلة الرنتيسي في لقاء له: "جزى الله الشيخ عبد العزيز الرَّنتيسي خيرًا، فقد شَهَر عائلتنا، لم يكن أحد يعرفها، حتى جاء فصارت أشهر ما يكون"، فقد يأتي الرجل فيُشهر العائلة والقبيلة، وهذه قيمة الرجال في هذا الباب.

وهذا أسامة بن منقذ وُلد سنة ٤٨٨هـ أي نهاية القرن الخامس الهجري، وتوفي سنة ٥٨٤ هـ، أي أنه عاش ٩٦ سنة، وهذه عِظة وعبرة فأنه ما ترك مظانَّ الموت إلا وأقبل إليها. وذكرتُ أنه وُلد قبل أربع سنوات من أول حملة صليبية، وهذا ما ذُكر في كتاب (الحروب الصليبية في المشرق) لسعيد أحمد برجاوي، وهو من أفضل ما كُتب في الحروب الصليبية، وقد قرأت معظم ما كتب فيها –إن شاء الله تعالى–، لكن هذا الكتاب هو أفضل كاتب في بيان مسارها وآثارها ونهاياتها.

وهذا الكتاب أكاد أجزم أنكم لا تجدوه في السوق، فقد سرقه بأصله ووصفه أمين معلوف، وهو لبناني يعيش في فرنسا، ويكتب بالفرنسية وتُترجم كتبه ولها سوق، فمن الكتب التي كتبها: (الحروب الصليبية كما رواها العرب)، وهو كتاب مشهور، ولما تُرجم للعربية وقرأته، –وكنت قد قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة قراءة استيعابية ومرة بعد مرة–، وجدتُ أن الرجل قد سرقه حرفًا بحرف. مع أن هذا الرجل لأمانته العلمية وشهرته اختير عضوًا للأكاديمية الفرنسية، وهي أكبر أكاديمية في العالم للناطقين والمفكرين باللغة الفرنسية –الفرنكفونية.

وهذه القبيلة من بني كنانة، أشهر من ذُكر فيها مَن ذكرنا، لأجل مسيرته التاريخية. والذين يظنون أن المقدمة الأولى لا فائدة منها فذلك غير صحيح، لكنها صعبة لأنها مصورة على طريقة التصوير في الليل. ففي المقدمة ذكر أسامة بن منقذ رواية حياته، وكيف جرت، وأن والده كان أمير القلعة فتنازل لأخيه، وقد ظلمه عمه، وكنت وأنا أقرأ الكتاب أبحث عن صوت رجل مكلوم أو صوت رجل حاقد، أو غاضب، فما وجدته في كلام أسامة البتة، بل بقي بارّا به معجبًا بشجاعته!.

وأسامة معناه الأسد، وقد كان فنَّانًا في صيد الأسود.

وكانت جدته صاحبة فِطنة وحذَّرته لما صاد يومًا أسدًا فجاءته بالليل تحمل السراج، وكان يظنها جاءت لتهنئنه على شجاعته في صيد الأسد، فقالت له: "مالك تُعرِّض نفسك وفرسك لقتل أو مهلكة، إن ما تفعله يغيظ عمك!"، وهذه تذكرني بكلمة ابن حزم في (مداواة النفوس): "إياك أن يعرف عدوُّك منك النَّباهة"، فأفضل طريقة لصرف العداوة هي التَّغابي، وهي خصلة من علمائنا السلف.

فبعد أن أخرجه عمه ذهب إلى الموصل، مكث مدة مستشارًا لحاكمها، ثم ذهب إلى دمشق، ومنها إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق مرة أخرى ناصحًا ومقاتلًا ومجاهدًا مع آل زنكي، ثم استقر به المقام مُعتزلًا الناس جالسًا في بيته عاكفًا على الكتب، وله كتب أدبية رائعة منها كتاب (المنازل والديار) الذي حقَّقه الأستاذ أحمد شاكر صاحب تحقيق (كتاب مسند الإمام أحمد).

ومما يفيدنا هذا الكتاب كيفية تربية مجتمع الإمارة لأبنائهم، يبين لنا هذا الفارس كيف كان والده يعلّمه، فأخبر أنه ما نَهَره ولا مرَّة في حياته، إلا مرة واحدة رآه قد جاء الأسد من وجهه فقال له: "يا مجنون لا تأتِه من وجهه"!، اليوم الولد إذا صعد السلم احذر أن تقع أو أن تنكسر، لا تذهب.. فينشأ الولد عنده رهبة وخوف.

سنذكر قصة عجيبة أنه رأى أفعى عظيمة فوق البيت، فذهب وأحضر السلم ووضعه وصعد، والظاهر أنها أفعى قاتلة بالضغط وليست سامة، وقتلها بالسّكين ووالده ينظر إليه وما صرخ فيه، فقارنوا حياتهم بحياتنا!.

ومن أشد من تأثر به والده، وقد علمنا زهد هذا الرجل حيث ترك الملك لأخيه، ورأينا عبادته حيث كان ينسخ القرآن ويتبرَّع به، فلما سأله أسامة كم نسخت من القرآن؟ فأخبره أنه سيعرف عندما يموت، فكل مسطرة -أي خشبة- داخل الصندوق بمقدار نُسخة، وكان والده يحفظ القرآن، فلما مات وجدوا عدد المساطر ٤٣ مسطرة، أي أنه نسخ القرآن ٤٣ بخط يده وهو

الأمير!، وقال أن نسخة من النُّسخ نسخها بخط الذَّهب، وكتب فيها العلوم والقراءات والناسخ والمنسوخ، وأحكام الابتداء والوقف، مما يدل على علم الرجل وما كان فيه.

وكان متأثرًا شديد التأثر بأمه، وكان من نخوتها ما صنعت عندما هجم الإسماعيلية وكان والده في الصيد، فدخلت البيت وأخرجت كل السلاح ووزَّعته على الناس. والأعظم من ذلك أنها ألبست أخته الخفَّ وشدَّت اللباس عليها ووضعتها على النافذة، فلما سألها عن السلاح فأخبرته أنها وزعته على الناس، وسألها عن جلوس أخته على النافذة، فقالت: حتى إذا جاء الإسماعيلية دفعتها فقتلتُها لئلَّا تقع بين أيديهم.

مما ذُكر في هذا الكتاب وهو مما يُمدح به عمه، أن النصارى مدحوا حسن إدارة القلعة، لما قال له الإنطاكي النصراني: أنت مدير جيد، فقال: لم؟ قال: مررنا على البلاد فوجدناها خربة إلا هذه القلعة وجدناها خضرة فعلمنا حُسن إدارتك لها.

مما ذكره ونبَّهْنا عليه أنه ذكر علماءنا وما كانوا عليه من الذين لم يُذكروا في طبقات العلماء الكبار، ذكر قصة رجلين أحدهما من العلماء وآخر من العبّاد الزهاد، فسمَّى الفقيه الفندلاني، وبحثت عنه فلم أجده، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي.

ومما يُستفاد من أنه مرَّ بوادي موسى، ومر بحلحول وكذا، مما يدل على أن أسماء القرى الفلسطينية قديمة من ذاك الوقت.

ومن أهم ما ذكره الكتاب وصف الصليبيين، فنرى ما عندهم من الخير والشر، الصفة الوحيدة التي يمدح بها الصليبيين هي الشجاعة، حتى أنه يذكر هذا بالنص والوصف، وقد ذكر قصة عجيبة، أن إفرنجيًا واحدًا قتل مجموعة كبيرة من المسلمين، لكن كانت النتيجة جيدة..

لعلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقبه وربَّما صحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ

هؤلاء صاروا من أشجع الناس بعد ذلك، لأنهم وقعوا في العيب فأرادوا أن يمسحوا عارهم. يقول بالنص: "**والإفرنج –خذلهم الله– ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدِمة ولا منزلة عالية سوى الفرسان، فهم أصحاب الرأي وأصحاب القضاء والحكم.**"

وحين يأتي إلى أوصافهم الخُلقية الأخرى التي هي من شمائل الإسلام يُجرِّدهم منها تجريدًا شاملًا، ومنها عدم وجود النخوة أو الغيرة، وأقرأ لكم نصًا في هذا الباب، يقول: "**ولا فيهم نخوة ولا غيرة، وفيهم الشجاعة العظيمة**". وذكر أيضًا: "**وليس عندهم**

شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاهُ رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدَّث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طوَّلت عليه خلَّاها مع المتحدث ومضى"!.

وذكر قصة من أعجب ما تكون -وأعتذر عن قراءتها لكنها موجودة في الكتاب-، أن رجلًا دخل فوجد رجلًا في فراشه مع زوجته، فدار بينهما حوار، ففي النهاية قال له: "**وحقُّ ديني إن عُدتَ فعلت هذا تخاصمتُ أنا وأنت**"!، يعلق عليها أسامة بقول: "**فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته**"!.

وذكر قصة من أجمل ما تكون، وربما هو نقلها خطأ أو أنه لم يسمع الكلمة جيدًا فنقلها على معنى آخر، وهي قصة حلق العانة، لأنهم يدخلون الحمام عراة، وصاحب الحمام مسلم ويلبس الإزار، فمر بجانب نصراني في الحمام فسحب الإزار فكشف عورته، فوجده حالقًا للعانة، وهم لا يحلقونها يستقذرون ذلك رجالًا ونساءً، وسبحان الله انظر كيف الشيطان زيَّن لهم، كل ما هو فطرة يفعلون ضده، وهم يستقذرون كذلك حلق ونتف الإبط الرجال منهم -أما النساء يفعلن-، وكنا في السجن لما يرون أننا نحلق الإبط يضحكون منا.

فالرجل طلب منه أن يحلقها له، ففعل، فلما رأى سرَّه ذلك، قال له افعل لزوجتي!

من أعجب ما ذكر أسامة أنه عندما أُسر، دخل حمامًا للرجال، فنبَّهه رجل أنه قد دخل الحمام الآن امرأة، فيقول تستَّرت وخرجت، فلما خرج قال له: هذه هي المرأة، فقال له أسامة: بل رجل، فذهب إليها وكشف عنها، وقال له انظر: هي امرأة، وأنا أبوها أدخلتها الحمام لعلاجها ما المشكلة!

ويقول كلمة حكيمة في قضية الغيرة -وكان من الحكماء رحمه الله-: "**فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم، ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الحدوث**"!

وقال أسامة في القرن الخامس الهجري ما قاله ابن تيمية في القرن الثامن الهجري، أن الإفرنج الذين عاشوا بين المسلمين خير من الإفرنج الذي عاشوا قريبي عهد ببلادهم، بالنص يقول: "**ومن الإفرنج قوم عاشروا المسلمين فهم أصلح ممن القريب العهد ببلادهم، لكنهم شُذَّاذ لا يُقاس عليهم**".

ويخبر أن بعض النصارى كانوا لا يأكلون لحم الخنزير تقليدًا المسلمين، وكما قال لهم أبوهم شنودا أنصحكم ألا تأكلوا لحم الخنزير لأنه ضار ومُجمِّع للجراثيم.

وتكلم عن طرق التعذيب العجيبة، وهي قريبة مما يفعله الناس اليوم. وعن طريقة اكتشاف المذنب من البريء عند المثقفين النصارى!، قال: يُحضرون الرجل ويربطونه بحبل ويربطونه بخشبة، فإذا طاش فهو متهم، وإذا غاص فهو بريء، وهم يربطون فيه خشبة!، وحاول رجل مسكين أن يغوص فلم يستطع فكحَّلوه، أي فقأوا عينيه بالحديد المحمّى.

وهذا يُستفاد منه الفرق بين المجتمع المسلم في الحروب الصليبية وبيننا، عندما دخل الإفرنج لبسنا بدلاتهم وبناطيلهم وحلقنا لحانا، والنساء كشفن وجوههن وتعرَّين، فانهزمنا عسكريًا واجتماعيًا ودينيًا، فانظر كيف كان أهل الإسلام ينظرون إلى الإفرنج وهم الغالبون، ومع ذلك لم ينهزموا.

وهذا حديث رجل بأمة في ذلك الوقت، يقول: "**إذا خبرُ الإنسان أمور الإفرنج سبَّح لله وقدَّسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والتحمُّل**".

يقول: "**لعنهم الله هم أكثر الناس احترازًا في الحروب**"، يذكر قصصًا كثيرة في الكتاب على محاولتهم جرّ النصارى في مكائد الحروب، وما نجحت ولا مرة.

نذكر شيئًا عن شخصيته، ذكرنا الشجاعة، والشعر، والمكتبات، وأمتنا المعاصرة لا تعرف أهمية الكتاب لأمتنا السابقة، وذكر أسامة أهمية الكتب عندما وقع أسيرًا وأخذوا كل ماله فلم يأبه، وحمد الله على سلامته وأهله، لكن بعد ذلك تحدَّث عن ألمه لذهاب الكتب، قال: "**أربعة آلاف مجلَّدة عظيمة ذهبت، وبقيت في النفس حزازة الألم إلى الوفاة**"، رجل يهاجر ويتنقل ومعه أربعة آلاف كتاب! وهذا رجل واحد، مما يدل على عظمة الكتب في تاريخنا، ومعظم الكتب أحرقها الصليبيون كما تعرفون.

رأيت أسامة بن المنقذ معجبًا بعنترة ويستشهد بشعره مثل:

الخيلُ تعلمُ والفوارسُ أنني ... فرَّقتُ شملهمُ بطعنة فيصلِ

نذكر لكم قصة الزُّمركل وهو لص إسلامي، يمارس اللصوصية الشرعية، قال: "**وكان لابن عمي ليث الدولة غلَّة نَجَزت –أي زرع نضج– وهي بالقرب من الإفرنج، فجمع دوابًا يريد أن يمضي إلى الغلة يجمعها، فسِرنا معه في عشرين فارسًا معدّين،**

وقفنا بينه وبين الإفرنج إلى أن حمل الغلَّة ومضى. فعدلت أنا ورجل من مولّدينا يقال له حسام الدولة مسافر إلى كَرْم رأينا فيه شخوصًا، وهم على شط النهر.

فلما وصلنا الشخوص، والشمس على مغيبها، فإذا شيخ عليه مَعْرَقَة -أي غطاء الرأس- ومعه آخر، فقال له حسام الدولة -وكان رحمه الله رجلًا جيدًا كثير المزاح-: يا شيخ أي شيء تعمل ههنا؟ قال: أنتظر الظلام وأسترزق الله تعالى من خير هؤلاء الكفار، قال: يا شيخ بأسنانك تقطع عن خيلهم؟ قال: لا بهذه السكين، وجذب سكينا مشدودة بخيط كشعلة من النار وهو بغير سراويل، فتركناه وانصرفنا.

وأصبحت من بكرة ركبت أنتظر ما يكون من الإفرنج، فإذا الشيخ جالس في طريقه على حجر والدم على ساقه وقدمه وقد جَمُد، فقلت: يُهنئك السلام أي شيء عملت؟ قال: أخذت منهم حصانًا وترسًا ورمحًا، ولحقني رجل وأنا خارج من عسكرهم، طعنني فنفذ القنطاري -وهو أشبه الرمح لكنه أطول- من فخذي وسبقتُ بالحصان والترس والرمح. قال وهو مُستَقِلٌ بالطعنة التي فيه كأنها في سواه!، وهذا رجل يقال له الزُّمركل وهو من شياطين اللصوص."

أما قصته مع القرآن، فيقول عن أبيه: "وكان يكتب خطًا مليحًا، فما غيَّرت الطَّعنة من خطه، وما كان ينسخ سوى القرآن. فسألته يومًا فقلت: يا مولاي"، وهذه تعلمنا كيف كان الأبناء يتحدثون مع آبائهم، "كم كتبت ختمة؟ قال: الساعة تعلمون -أي عند وفاته-. فلما حضرته الوفاة قال: في الصندوق مساطر كتبت على كل مسطرة خِتمة، ضعوها تحت خدي في القبر، فعددناها فكانت ثلاثًا وأربعين مسطرة، وكتب بعددها ختمات، منها ختمة كبيرة كتبها بالذهب وكتب فيها علوم القرآن، قراءاته، وغريبه، وعربيته، وناسخه ومنسوخه وتفسيره وسبب نزوله وفقهه بالحبر والحُمرة والزُّرقة لوَّن، وترجمه بالتفسير الكبير -أي عنونه-. وكتب ختمة أخرى بالذهب مجرَّدة من تفسير، وباقي الختمات بالحبر مذهَّبة الأعشار والأخماس والآيات ورؤوس السور ورؤوس الأجزاء" إلى آخره.

ويومًا سأل أسامة والده عن شجاعته، وكان يدرس النجوم على طريقتهم، فقال له في أحد المعارك: "يا ولدي في طالِعي أنني لا أرتاح"؛ أي أن نجمي أني لا أعرف الخوف. ويستفاد من ذلك أن قراءة النجوم كانت منتشرة في ذلك المجتمع على طريقتهم.

كذلك قلنا أنه كان منصفًا للنصارى، وأن هناك فارسًا إفرنجيًا يهزم أربعة مسلمين، وهنا فائدة من فوائد التربية، يقول هنا: "**فكأن أن تلك الهزيمة منحتهم قلوبًا غير قلوبهم، وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها، فانتخوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب وصاروا من الفرسان المعدودين بعد تلك الهزيمة**".

يقول عن الشيخين لما استُشهدا نذكر نصه لجماله وروعته: "**ومن الناس من يقاتل كما كان يقاتل الصحابة -رضوان الله عليهم- يقاتلون من أجل الجنة، لا لرغبة ولا لسمعة. ومن ذلك أن ملك الألمان الإفرنجي -لعنه الله- لما وصل للشام، اجتمع عليه كل من بالشام من الإفرنج، وقصد دمشق فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي -رحمهم الله- وكانوا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن: ما هؤلاء الروم؟ قال: بلى، قال: فإلى متى نحن وقوف؟ سِر على اسم الله تعالى. فتقدَّم حتى قُتل**".

والكتاب كله رائع جميل.

ويُعلّم هذا الكتاب الطرق العلمية لصيد الأسود عند الأوائل، في الموصل، وغور وادي موسى، وذكر شيئًا مؤلمًا عنه أن أهله كانوا يأكلون الموتى لشدة فقرهم ومع ذلك لا يمرضون.

وقال: "**بل رأيته يومًا رحمه الله وقد خرج لقتال أسد ظهر على الجسر، فلما وصلنا حمل علينا من أدمة كان فيها، فحمل على الخيل ثم وقف، وأنا وأخي بهاء الدين منقذ -رحمه الله- بين الأسد وبين موكب فيه أبي وعمي -رحمهما الله- ومعهما جماعة من الجند، والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرَّب بصدره على الأرض ويهدر، فحملتُ عليه، فصاح علي أبي -رحمه الله-: لا تستقبله يا مجنون فيأخذك، فطعنتُه، فلا والله ما تحرَّك من مكانه، فمات في موضعه. فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم**".

بقي نص أخير أريد أن أقرأه لكم مع طوله لأهميته، لبيان أن (حُسن العهد من الإيمان)، كأنه يختم الكتاب بهذه الكلمات الرائعة -رغم أنه بقي فيه بقية- يقول: "**أعجزني وَهَنُ السنين عن خدمة السلاطين، فهجرتُ مَغْشى أبوابهم، وقطعتُ أسبابي من أسبابهم، واستقلت من خدمتهم، ورددتُ عليهم ما حوَّلوا لي من نعمهم، لعلمي أن ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم، وأن سوق الشيخ الكبير لا ينفق على الأمير. ولزمت داري وجعلت الخمول شعاري، ورضيت نفسي بانفرادي في**

الغربة، ومفارقة الأوطان والتُّربة –الأتراب أي الإخوان والمقاربون في السن–، إلى أن تسكن نفارها عن مرارها. وصبرت صبر الأسير على قدِّه، والظمآن للغِلَّة عن وِرْده.

فناداني إليه مكاتبة مولانا الإمام الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، جامع كلام الإيمان قامع عبدة الصُّلبان، رافع علم العدل والإحسان، مُحيي الدولة أمير المؤمنين أبو المظفر يوسف بن أيوب جمَّل الله الإسلام والمسلمين بطول بقائه..".

وما أردته هو أن أوضح كيف ختم حياته على ما ترون، هذه هي الحياة، وقلت لكم مرة أن الله يريد لبعض الناس أن تكون فيهم صفات مفارقة الدنيا كصفات الأنبياء؛ **الأنبياء لا يموتون حتى يُستأذنوا، والعلماء لا يموتون حتى يكرهوا الدنيا، والصالحون لا يموتون حتى يكرهوا الدنيا، هذه غربة العلماء!** كما فعل عمر بن الخطاب والبخاري، فتجتمع لهم منقبة من مناقب الأنبياء أنهم يتمنَّون مفارقة الدنيا، الأنبياء إذا خُيِّروا قالوا نموت، (ما من نبي يمرض إلا خُيّر بين الدنيا والآخرة) كما قال النبي ﷺ وفهم أبو بكر أنها نعي النبي ﷺ.

الأسئلة

▪ **السائل: ذكر عبارة: "الفأل موكل بالمنطق"، وما صحته؟ أنا بحثت في المكتبة الشاملة فوجدت أنه حديث لا يصح.**

الشيخ: هي مشهورة، وفي الحقيقة العكس، هم يذكرون أن الشؤم موكل بالمنطق، أو الكذب أو الظلم موكل بالمنطق.

وهو حديث لا يثبت، وهو ليس من رجال الحديث، وإنما يذكر الأحاديث التي يسمعها.

▪ **السائل: هل يكون استخدامه لها نوع من المخالفة الشرعية بأنه علَّق على غير الأسباب الظاهرة؟**

الشيخ: إذا أردنا أن نُحسن الظن فهي على قضية الطيرة الحسنة، والنبي ﷺ كان يحب الفأل؛ عندما يُذكر له الاسم الحسن يتفاءل به، ويُذكر له اسم مكان فيتفاءل به. وهذا من قبيل دفع المرء على العمل، لكنها لا تؤثر، لا الأسماء تؤثر، ولا طيرة الطير، فهي ليست أسباب شرعية ولا مادية، لا تُعرف لا بالخبر ولا بالخبرة، الخبر مثل التَّسبيح والذكر وهذه تؤثر، وإما أن نعرفها بالخبرة. لكن نهى الرسول ﷺ عن الطيرة والشؤم لما تُحدث من الشؤم والفأل السيء.

لكن الفأل ليس باللفظ، وما ينسب للنبي ﷺ وهو ضعيف: (البلاء موكل بالمنطق)، والمقصود به النُّطق.

▪ **سؤال: من القضايا التي انتقدوها على تمثيل المسلسلات التاريخية، أن القصص التاريخية أو قصص الصحابة لا تُملأ من جميع الجوانب، فهل نشترط أن الذي يكتب السيناريو يكون عالمًا بالحالة الاجتماعية للقصة التي يكتبها حتى يملأ باقي الجوانب الفارغة وبعد ذلك تُضبط بالضوابط الشرعية؟**

الشيخ: قبل أن نتكلم عن كتابة السيناريو نتكلم عن التمثيل، في الحقيقة تمثيل الشخوص حرام، أما الرسوم المتحركة فجائز، لتُصنع نماذج تاريخية من غير أن تكون أسماء حقيقية، وإلا فلا تجوز. وهذا الذي صنعه المشايخ من مسلسل عمر الخطاب إثم

وإجرام، والوقت يضيق عن الحديث عنه، لكن هذا من الفساد. والأولى أن لا تُمَثَّل الشخوص التاريخية القديمة، كلها مفسدة، والمضار فيها أكثر بكثير من المنافع. وأما الصور المتحركة للتربية والتعليم وغير ذلك فلا بأس بها.

أما كتابة السيناريو، سمعت مرةً لقاءً لمصطفى العقاد، وهو مخرج مشهور عالمي، لما قيل له: ماذا واجهك في فيلم الرسالة؟ قال: الخط التاريخي.

وقلت لكم أن الأفلام هي جزء من الفلسفة والدين الغربي، حتى المسابقات هي جزء من فلسفة الغرب أنه لابد في النهاية من شخص واحد هو الذي يصنع التاريخ وله البطولة. ويعجبني العنوان الذي وضعه خالد محمد خالد –مع ما على الكتاب من المخالفات– لكن انظر إلى العبارة الجميلة: (رجال حول الرسول).

الشخصية العظيمة تصنع سهامًا عظيمة حولها ولا تُلغيهم، الشخصية الديكتاتورية الفاسدة هي التي تُميت من حولها، هذه قضية مهمة، ونحن الآن في تربيتنا عندنا عقلية الشخصية الآسرة التي تُلغي من حولها. وهذه ليست الطريقة النبوية؛ لما نتكلم عن أبي بكر شخصية عظيمة، لما نتكلم عن عمر نتكلم عن شخصية عظيمة أنشأ عظامًا، والعالِم لا يُلغي من حوله، تجده ينتج علماءً ويمدُّهم ليكونوا شيئًا عظيمًا في الوجود.

الغرب لا يقبل بقضية المشاركة، لا بد من الشخص الواحد، البقية كلهم "كومبارس" على طريقة الأفلام، وهذه نظرية جاهلية، لا يوجد سَيِّد في العمل الإسلامي كلهم رجال عظماء، العظيم يصنع العظماء، حتى إذا مات لا تتأثر المسيرة وتبقى وتشتدّ ويحملها من بعده.

فلما جاء مصطفى العقاد أراد أن يبحث عن شخصية، وحمزة لم يكن البطل العظيم في بدر ولا في أُحد الذي دارت الحروب به. وجوابه يدل أن هذه طبيعة الفيلم، والفيلم لا بد أن يكون به خط، طبيعة هذا الأداء التعبيري في السينما له شروطه التي لا تنسجم مع العلم، وإذا أردت العلم لابد لها من طريقة أخرى، لذلك هذه الأفلام لا تصنع علمًا وإنما تصنع فسادًا.

الآن العوام ممن شاهدوا الفيلم إذا قلت لهم حمزة، فورًا تقفز لذهنهم صورة الممثل!

وقرأت عن مسلسل الخطاب في الجريدة، فشاهدتُ منه دقيقتان أو ثلاثة، وعندما رأيت صورة عمر –ضي الله عنه– كما عرضوها في المسلسل غضبت!، والله لو جاز لعن من صنعه لفعلت، لأنهم أساؤوا إساءة عظيمة، حتى على طريقة بناء

الشخصية، صنعوه رجلًا عاجزًا كلًا يتحرَّك بالتثاقل، وهو لم يكن كذلك، كان إذا مشى يعجز الناس وراءه، فلما أرادوا صناعة هالة لعمر -رضي الله عنه- صنعوا هالة باطلة كاذبة.

اتركوا النص الذي يصنع الفكرة، ولذلك لا يجوز كتابة السيرة على طريقة التنظيمات، يقول: القاعدة الصلبة أو الكتلة السياسية! اكتب السيرة كما هي ثم فسِّرها في الهامش كما تريد، فإذا رفضنا كتابة السيرة على طريقة الإسقاط، كيف نقبل أن تحوَّل السيرة على طريقة المخرِج!، والمخرج ليس عنده دين ولا تقوى، ناس يريدون أن يصنعوا صورة باطلة عن تاريخ أمتنا.

ما زال الناس يكتبون في السيرة النبوية، لا أدري ماذا بقي في السيرة النبوية حتى يُكتب فيها؟!

الآن السيرة النبوية موجودة، الإبداع أن تبني عليها، أن تستخرج منها، أما كتب جديدة ومؤرّخون جدد، لا نحتاجه!، اكتب العبر والفوائد، الجوانب النفسية والتربوية والاقتصادية، جوانب الشجاعة، وجوانب كثيرة مفقودة، والتاريخ مليء بهذا والله تعالى أعلم.

- **السائل: هل ممكن أن يكون فيما جاء عن أسامة بن منقذ في كتاب (الاعتبار) مبالغة في تحقير شأن الصليبيين رغم أنهم كانوا أرفع منهم منزلة وأرقى معيشة، وهل يحدث العكس اليوم؟**

الشيخ: في الحقيقة هم يشنّعون علينا بما فينا ونحن نشنع عليهم بما فيهم. وأسامة يذكر قصصًا، وهو أنصفهم، فلما كان عندهم الشجاعة أثبتها ولم يُلغها، ولما كان عندهم الدِّياثة وعدم الغيرة ذكرها. ولما ذكر قضية الطب، ذكر فيها قصتين، قصة حدث فيها أن قتل الطبيب الزوج والزوجة، وقصة تم فيها الإنقاذ، وهذا من الإنصاف.

والغرب يعيبون علينا ما هو فينا، حدث من فترة أن رجلًا مغربيًا أقام دعوى قضائية في محكمة فرنسية أنه وجد زوجته ثيبًا وطلب الطلاق، والطلاق هناك بيد الحكومة، لا بد أن يذهب الاثنان للقاضي المدني ويطلقهما، وقبل الطلاق هناك الانفصال. فالقاضي طلَّقها لأنه ذُكِر في العقد أنها بِكر، وصدر هذا الحكم وتناقلته وسائل الإعلام، وبدأت فضيحة كبرى في فرنسا سببها هذا القاضي، واستهزأوا بنا كيف تشترط أن تكون بكرًا! يعتبرونه جنونًا.

فهم يستهزئون بأمور موجودة عندنا، يستهزئون بحلق العانة، وبحلق الإبط للرجال، خدمة المرأة لزوجها وضيوفها، أن الأب يزوِّج ابنه، لا يتصوَّرون هذه العلاقات الاجتماعية، وأن المرأة لا مال لها، وأن الإنفاق على الزوج وحده. وهكذا صاحب الفم المريض يجد الماء الزلال مرًّا في فمه، وهذا ليس من الكذب على الإفرنج كما ذكره أسامة —رحمه الله—.

▪ ما حكم مشاهدة كرة القدم والتكسُّب منها؟

الشيخ: المشاهدة أمر جائز ولكن يدخل فيها أمور ليست من الجواز ولا بد من بحثها.

[٦]

مناقشة قصيدة (شكوى وجواب شكوى) لمحمد إقبال

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هذا هو الكتاب **السادس** من مشروع كتاب ألف كتاب قبل الممات، وقد اخترنا **قصيدة الأستاذ محمد إقبال** -رحمه الله- نموذجًا لقراءة الشعر في بعض جوانبه.

وكالعادة نبدأ بتأصيل بعض قواعد **فن القراءة** الموصلة للقراءة الجدليَّة الواعية، ثم بعد ذلك نأتي إلى الكاتب وجغرافيته في الفكر، وأرجو أن تحفظوا هذه الكلمة لأننا سنقف عندها موقفًا مهمًا؛ وهو أن ما يُسمى بالأصول الجامعة للفقيه في الحكم على معرفة فروع الفقيه، هي ما يُسمى بالنسبة للأفكار **بجغرافية الفكر**. لا يمكن أن تثوِّر معلوماتك ولا أن تستفيد من الكتاب الاستفادة المطلوبة حتى تضع الكتاب ضمن منطقته الصحيحة، حتى تعرف الكتاب ضمن جغرافية الفكر الذي يتكلم عنه الكتاب والكاتب. هذه قضية -إن شاء الله تعالى- نُفصِّلها في مجلس آخر.

المحور الثاني: سيكون كلامًا طويلًا عن محمد إقبال؛ ذلك لأن الرجل شغل الكاتبين من مستشرقين ومن مسلمين، ولم يستطع المعاصرون -بسبب جهالتهم في طرائق التَّجريح والتعديل عند أئمتنا- التعامل مع هذا الرجل.

ثم نأتي إلى القصيدة، وهي نموذج لقضيتين في الشعر، القضية الأولى هي ترجمة الشعر، هل يُترجم الشعر؟ وهل الشعر فكرة؟ أم هو حالة وجدانية فقط؟

هذا ما سنتكلم عنه عند كلامنا عن (**شكوى وجواب شكوى**) -إن شاء الله تعالى-.

- **المحور الأول: هو حديث عن قضية القراءة الجدلية الواعية، وهو ضمن سلسلة الحديث عن فن القراءة.**

بداية، أول نقطة مهمة في هذا الباب، وهذا الكتاب (قصيدة شكوى وجواب شكوى) يعد نموذجًا مهمًا لهذا المبحث من فن القراء، **وهو افتراق النص عن كاتبه.**

من المهم جدًا قبل أن تقرأ نصًا أن تعرف كاتبه، وهذه القضية مُسلَّم بها لأسباب كثيرة؛ منها أن النص قد يعجز بذاته عن الإبانة عن مراد صاحبه حتى تعرف الكاتب كله في شخصيته، وعماد صورته. كل إنسان له عماد الصورة، عماد الصورة هي الفكرة المكوِّنة له، أو هي العقيدة التي تنبثق منها أفكار هذا الرجل، وتنبثق منها كلماته وكتبه. وقد تشتبه كلمات الكاتب في مراده وتشتبك، فلا بد أن تعرف من الذي يقول هذا الكلام، حين تعرف الكاتب تستطيع أن تغوص وتغور في مدارك ما يقول هذا الكاتب، هذه قضية ملتبسة مُشكلة؛ نحن نقول: عليك أن تعرف الحق دون أن تعرف رجاله، كما قال الإمام علي -رضي الله عنه-، وقد جُودل في مسألة خلافه مع عائشة وطلحة والزبير، قال: "لا يُعرف الحق بالرجال"، إنما قصده أن يقول إنما يُعرف الحق بالحق، اعرف الحق تعرف أهله.

إذًا القضية الأولى بالنسبة لنا هي أن تقرأ النص بعيدًا عن كاتبه، وهنا أفتح قوسًا وأقول: (بلا شك أن هناك شيئًا اسمه "**علم النفس الدليل**"؛ سيكولوجية الدليل)، وهذه أنا أضطر إليها، وكل كاتب يضطر إليها، وهي إحدى تطبيقات قوله -سبحانه وتعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ}، من لسان قومه أن تعرف الشخوص المؤثِّرين في هذا الإنسان من أجل أن تطرُق الحق الذي يغيب عنه من خلال ما يعرفه ويحبه.

أتكلم عن نفسي؛ أحيانًا أعرف نصًا للشافعي، لا أقول قاله الشافعي، وأعرف أن ابن تيمية قد قاله، وأنا أعرف الناس، فأقول: "قال ابن تيمية"، مع أنه ليس بأجلّ من الشافعي في شيء، لا يقارب ابن تيمية الشافعي في أي باب من أبواب المعرفة الدينية، لا في العربية، ولا في الأصول، ولا في الفقه، ولا في الحديث، لكنني أضطر أن أقول: "قال ابن تيمية" لأني أعلم أن الذي أمامي مفتاح قبوله للكلام أن يُمهَّد له بذكر ابن تيمية. يعني لما أريد أن أُفتي في موضوع صدقة الفطر أنه يجوز أن تُخرج مالًا، لا أقول: "قال أبو حنيفة"؛ لأني لو قلت: قال أبو حنيفة ستجد الناس تقول: من أبو حنيفة؟!، لكني أضطر أن أقول: "قال ابن تيمية". فيبدأ الجدال؛ الأول يجادل بالقول هل أصاب أبو حنيفة أم أخطأ، لكن عندما تقول: "قال ابن تيمية" يبدأ الجدال في منطقة أبعد من هذه النقطة؛ وهي: حقًا قال ابن تيمية هذا الكلام؟ لأنه يريد أن يتوثَّق أنه قاله، فإن قاله فإنه لا يُناقش، بخلاف النقطة الأولى فهو يناقش من أجل أن يعرف كيف يرد على القائل، هذا اسمه "**علم نفس الدليل**".

الآن لو قلت: "قال عبد الرحمن بن مهدي في حديث أنه ضعيف"، يقول القائل في نفسه: من عبد الرحمن بن مهدي؟ فهم غائم في ذهنه، لكن لو قلت له: قال أحمد، أو قلت: صححه الألباني، فكأنه فوق مستوى النقد!.

إذًا كيف نوفِّق بين ضرورة معرفة القائل، وبين أن النص يحمل سِمَته بنفسه؟ لا بد أن ينشأ لدينا علم الجرح والتعديل كما نشأ عند أئمتنا، وهو العدل؛ وهو أنه **لا بد أن نُفرِّق بين النص وقائله بميزان**.

الناس لا يعرفون أن كتب العلماء هي كتب منهجية، حتى وهم يُرتِّبون الروايات، أفتح فقط رَوْزَنَة –نافذة صغيرة– على طرق كتابة العلماء السابقين لكتبهم المبنيَّة على الرواية، يأتي الجاهلون ممن لا يعرفون قيمة السلف، ولا يعرفون عقولهم، فيرونها كتب رواية، فقط هم نَقَلَة، إذا جاء الرجل إلى كتاب (تفسير الطبري) لا يرى فيه عقل الطبري، هكذا يظن، لا يرى علمه، يرى حفظه، لا يرى عقله، لا يرى إبداعه، يرى فقط أنه حافظ، انظر إلى حفظه، انظر إلى سعة اطلاعه، انظر إلى جمعه لروايات المفسرين السابقين، ولا يرى منهجًا!.

وهذا من الانحراف؛ فالاختيار منهج، كان عند علماء الحديث شيء يسمى "الانتقاء" أو "المُنتَخَب"، –يُرجع إليها في كتب المصطلح–، ما معنى المنتخب؟ ما معنى الانتقاء؟ الانتخاب والانتقاء هو منهج نقدي صارم، هو إعمال هذا المحدِّث لأعلى درجات النقد لترتيب وسَوْق الأحاديث.

عندما يأتي واحد ويقرأ (سير أعلام النبلاء)، هذا الكتاب تجده في عامة مكتبات الشباب، ويقرأونه ولا يرون الذَّهبي فيه، يرون أخبار السابقين، لكن لا يرون المصنِّف ومنهجيته، وعقليته فيه؛ السبب لأنهم جهلة ولا يعرفون المادة التي أنشأت هذا الكتاب، كيف قَبِل الذهبي هذه المادة ورفض غيرها مع أنها عنده، هذا منهج.

عندما يأتي الذهبي في (سير أعلام النبلاء) ويقول عن رجل: أنه العاقل الذكي الألمعي، وهو مع ذلك من القائلين بكذا وكذا من العقائد البدعية الجبرية؛ هذا التمايز في قراءة الشخص هو ما نحتاجه هنا، ما الذي أبدع فيه، وما الذي أخفق فيه. طريقة الكيل بمكيال واحد لا تنفع في قراءة الشخص، قلنا أن النص له قراءات، والآن نقول: الكاتب له قراءات؛ يجب عليك أن تعرف ما الذي تأخذه من هذا العالم، ما الذي ترده، ما الذي تقبله، ما الذي ينفعك فيه، وما الذي لا ينفعك فيه، هذه طريقة أهل الحديث في افتراق النص عن كاتبه.

يجب أن تفرِّق بين النص وبين كاتبه، بحيث تقرأ النص قراءة منفصلة عن بقية مكونات هذا الكاتب، ولذلك أنا أعلم أني عندما أقول: "قال الجاحظ" أعرف العقل الإسلامي المتخلف، خاصة العقل السلفي المعاصر، كلمة "الجاحظ" تثير الاشمئزاز لما

أقول: "قال أبو حيان التوحيدي"، وهو زنديق –يقول ابن الجوزي: الزنادقة ثلاثة؛ رأسهم وإمامهم أبو حيان التوحيدي، وليس الأندلسي صاحب التفسير–، هذا لا بد أن تقرأه، هو جزء من تكوين تاريخك الإسلامي، وجزء من الثقافة التي أنشأت مجتمعًا إسلاميًا، وكانت فيها حروب يجب أن تعرف فروعها.

فأنت لـمّا تستَدِل به لا يعني أنّك زكّيته، ولا يعني أنك أخرجته ليكون إمامًا مُتّبعًا في الدين. أنت أخرجته على طريقة المحدثين؛ هو محدِّث صدوق، صادق ومرجئ أو خارجي، هل تجتمع هذه المعادلة؟ لا شك تجتمع، روى البخاري عن مرجئة وعن قدرية، وروى عن خوارج؛ لأن هذه محنة الحق؛ الحق له مصدره وحقله فيُمكن أن يُقبل وحينئذ لا توجد فتنة، أن يأتي الحق من معدنه، فهل هذه فتنة؟ يؤتى من مصدره، ليست فتنة هذا مقبول، لكن أن يأتي الحق من غير سبيله المعتاد هذه فتنة.

كون الصراع في منطقة هي الخطأ ومنطقة هي الصواب، منطقة هي السنة ومنطقة هي البدعة، لا يعني أن كل ما صدر عن منطقة البدعة هو بدعة، ولا على أن منطقة السنة لا تُنشئ إلا سنة، هذا خطأ. وهناك نص لعبد الرحمن المعلمي صاحب (التنكيل)، في شرحه لكلمة التوحيد أرجو أن يُرجع إليه فهو في هذا الباب جليل عظيم.

ونحن نقرّر ما قرره السلف بأنه يجب عليك أن تقرأ النص بعيدًا عن قائله، لماذا أقول هذه الكلمة؟ لأن محمد إقبال إذا قرآناه في (تجديد الفكر الديني) أدخلناه ضمن كلام محمد البهي، أنه ضمن تأثُّر الفكر الإسلامي المعاصر بالاستعمار الغربي، ضمن تيار محمد عبده.

لكن حين نقرأ محمد إقبال في هذه القصيدة، نقرأ مزاجًا وصفوًا وعسلًا إسلاميًا عظيمًا، ونحتاج إليه، والشعراء يتغنّون بشعره، والمجاهدون في التيارات الجهادية يتغنّون بشعره، وهكذا. مع أننا حين نحاسبه في دقائق فكره الإسلامي نجده خارج منطقة التغطية بأن يُسمّى سنيًا، لا يخرج عن كونه مسلمًا، كما يقول محمد البهي –عليه رحمة الله–.

إذًا يجب أن نُفرّق بين النص وبين كاتبه. **ويجب علينا كذلك أن ندخل النص من خلال قراءتنا لكاتبه،** لا لنحمل ما نعرفه عن كاتبه لنقبل النص أو نتركه، **بل من أجل أن نقرأ النص من خلال رؤيتنا لعمود صورته،** حتى لا نخطئ، حتى نعرف هذه العبارة ما موقعها من جغرافية الفكر وما هي جغرافيتها من الكتابة.

أضرب لكم مثالًا، دخلت مكتبة رجل، ينتسب لمرتبة الدعاة، والدعاة هي مرتبة وسط بين القُصَّاص وبين طلبة العلم. هناك قُصّاص ودعاة وفقهاء، لم تكن كلمة "دعاة" قديمًا، كان إما قُصَّاص أو محدِّثون، أو فقهاء إلى آخره. زرته في بيته، وأول ما أستطلع به المكتبة، نظرت فما وجدت كتاب أصول، ولا حتى كتاب عبد الوهاب خلاب (أصول الفقه)، لم أجده في مكتبه، والكتب الأولين، ففي الغد ذهبت أنا وهو إلى المكتبة وأول ما وجدت كتاب (المحصول) للرازي، قلت: هذا كتاب جيد، قال لي: لمن هذا؟ فنظر فإذا مكتوب عليه الرازي، قال لي: أليس الرازي هذا الذي ردَّ عليه ابن تيمية في (درء تعارض العقل والنقل)؟ قلت: نعم، قال: لا أريده!، فهو أغلقه لمجرد أن ابن تيمية رد عليه في (أساس التقديس)، وهي أصول قواعد المتكلمين في العقائد، ويقول ابن تيمية هو أفضل كتاب يتكلم عن عقائد المتكلمين فاختاره للرد عليه، في (درء تعارض العقل والنقل)، وهو كتاب أصول، كيف لو قدَّمتُ له كتاب (الإحكام في أصول الأحكام) للآمدي؟! هذا إذا عرف من هو الآمدي، المشكلة هو عرف الرازي من خلال ابن تيمية، وإلا فهو لا يعرف الآمدي، بعضهم لا يعرفه إلا من خلال (الإحكام في أصول الأحكام)، والآمدي فيلسوف على طريقة المشَّائين، وكتابه في الأصول هو أحد كتب عمد الأصول عند المتكلمين.

فيجب علينا أن نعرف الكتاب ما هو منهجه؟ وما هي خارطته باعتبار نفسه بعيدًا عن الكاتب باعتبار صورته ما هو، وإلا إذا طبَّقنا طرائق بعضهم من المعاصرين حرقنا كتب السنة، كما قام بعضهم بإحراق (فتح الباري)؛ لأن ابن حجر أشعري!، وهذا ما كنت أصدقه، ما ظننت أحدًا ممن يُسمّى في خلق الله بالإنسان أن يأتي إلى (شرح صحيح المسلم للنووي) ويحرقه، ويزعم أنه من طلبة العلم!!

وهذه لم يفعلها قد أحد من الأئمة، أبدًا، قد يقول قائل أن الإمام مالك ينفِّر من أهل البدع، نقول: الإمام مالك كان في زمنه المحدِّث من أهل السنة، والفقيه من أهل السنة، وصاحب العقيدة لأهل السنة، لماذا يذهب إلى أهل البدع؟ أما اليوم إذا أردت الفقه يجب أن تذهب إلى من هو أشعري، وإذا أردت اللغة يجب أن تذهب إلى من هو صوفي، وإذا درست العقيدة يجب أن تذهب إلى من هو سلفي وهو من أجهل خلق الله في الفقه أو اللغة، إلى آخره، فالعلوم قد افترقت، وشيخ الإسلام له نص في (الفتاوى)، يقول أنه تلقَّى العلم عن آبائه وفيهم بدع، يقول: لما نشأت في بداية الطلب كان في آبائي مذهب؛ ويقصد الإمام بذلك أن عامة الحنابلة في زمنه، كان مذهبهم هو التَّفويض، فكان مذهب آباء ابن تيمية، من زمن ابن قدامة يقرِّرون أن مذهب أهل السنة هو التفويض، أي تفويض المعنى، وهو خلاف أهل السنة فأنكره. ومع ذلك فمن أين أنتج ابن تيمية علومه

في أصول علومه وعلوم الآلة؟ من آبائه؛ في الأصول من آبائه، في اللغة من آبائه، في التفسير من آبائه، وكانوا على هذا. فهل جاء إليهم وكفّر آباءه؟ هذا لا يفعله إلا جاهل!.

فيجب علينا أن نتعامل بعلم الجرح والتعديل كما هو عند السلف، وذلك بالتفريق بين النص وكاتبه، فالحق نقبل به إن جاءنا من أي جهة. وسنرى في إقبال ما هو مقبول وما هو مرفوض. وهذه تحتاج إلى معاودة كتب في هذا الباب، ومعرفة كلام علمائنا في قبول السُّني، وأن السني قد يُخطئ، والبِدعيّ قد يُصيب، وأن من اعتاد الخطأ قد يصيب، ومن اعتاد الصواب قد يخطئ، وكل ذلك من أجل أن تكون المحنة في الناس من أجل أن ينظروا إلى الحق وليس بالنظر إلى الشخص، هذا من العدل والإنصاف، وهذا إن أخطأناه كفَّرنا الأمة.

وهذه النقطة التي نتكلم عنها، لا تظنوا أنها بيِّنة واضحة؛ نحن الآن من يخالفنا في مسألة ضلّلْناه، وهناك من خالفنا في مسألة فكفّرناه، هناك من يُكفِّر في خلافه في المسائل، يجعل أمورًا من أصول الدين ويكفِّر من خالفها، وبالتالي يكفِّرون علماء ثقات أثبات كالجبال!، ويبدأ التساؤل: هل فلان كافر؟ في بعض كتب بعض الأئمة يتساءلون عن ابن حجر الهيتمي صاحب كتاب (الزواجر عن ارتكاب الكبائر)، هل هو كافر لأنه قال بكذا؟ صار الحديث عن علماء!

وهذا الذي ترونه في مفاصلة الناس بمجرد الخطأ والإعراض عنهم وعدم محبتهم، بل مقاتلتهم لمخالفتهم، هذا الافتراق في الجماعات الإسلامية لأنه يقوم على أساس تدمير هذه القضية، ولما قال حسن البنا: "يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه"، قال: "فيما جاز فيه الاختلاف"، ما الذي يضبط ما جاز فيه الاختلاف؟ ما دام الرجل مسلمًا وتأويله سائغ يُعذر، ويُعذر ليس معناه أن لا يُرد عليه، ولا يعني ألا لا يُخالف، لا يعني ألا يناظره، لا يعني ألا يخطِّئه، لكن في سبيل قيام الإسلام هذا هو الحق، وهي كلمة صحيحة حين تُطبَّق التطبيق السُّني الصحيح، أن يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه على معنى ألَّا يكفِّره وألَّا يخرجه من الملة، وليس معناه إيقاف المناظرة، وإيقاف الدعوة، وإيقاف الرد، بل هذا حق العلم.

إذًا النقطة الأولى أيها الإخوة: علينا أن نتعلم كيف نقرأ النص بعيدًا عن كاتبه، حتى تستقيم لنا القراءة، وإلا فنحن نقرأ للكفار ونستفيد منهم، نقرأ لمن يتكلم ونأخذ منهم. وهذا الكلام بيّن، وإلا فلو أردنا أن نُزيل كل كتاب في الوجود اختلط فيه بعض الخطأ بالصواب لرمينا كل الكتب إلا ما شاء الله.

لماذا ذكرت أنا النقطة الأولى؟ كيف نطبّقها على ما نحن فيه من نص شعري لإقبال؟ إقبال نموذج للعاطفة الإسلامية في الشعر، والصوفية في باكستان، والمشايخ، والمودودي صاحب الجماعة الإسلامية، هناك إجماع في البيئة والمجمع الهندي والباكستاني على إمامة إقبال، ليس من باب ما يطرح من أفكار، وسنرى أن أفكار محمد إقبال الفرعية في فهمه للإسلام منهارة ضعيفة، ولو ناقشناه في هذا الباب لكان الحكم عليه قاسيًا وجائرًا.

لكن لماذا يحبون إقبال؟ لماذا إقبال شخصية معتبرة ومحترمة في المجتمع الهندي؟ السبب هي تلك العاطفة الجيّاشة العظيمة التي يثيرها إقبال في شعره خاصة في اللغة الأوردية، ولذلك تجد الناس يتغنون بشعره، وأنا نمت مرة في أحد المساجد في بنجابي، – بنجابي: منطقة الأنهار الخمسة؛ بنج: خمسة، اب: نهر–. فواحد بدأ يقرأ ويتغنى بشعر إقبال، من بعد صلاة العشاء إلى الفجر، على الطريقة الصوفية والتَّحنُّن، وكذا، وهم يرونها تعبدًا، كما يقرأ الصوفية الشعر ويتعبدون به.

ولذلك إقبال لو ألغيناه من هذا الاعتبار، وذهبنا إلى فكره في مسائل الإيمان، ومسائل العقائد، لكنا ظالمين له، حين نقرأ (شكوى جواب شكوى)، وما فيها من معانٍ عظيمة، تلزمُنا، وتثوِّر هممنا، ينشدها المنشدون من أجل الإقبال على الشهادة، ومن أجل علو العزة الإيمانية أمام الخصوم، لا يجوز لأحد أن يقول: "تقرأون لإقبال!!، إقبال يقول كذا وكذا"، وهذه نراها للأسف تُطبَّق كحالة مرضيَّة حين يأتي شيخ يخطب خطبة ما شاء الله!، تثوِّر الإيمان، تذكِّر بالدار الآخرة، تبكِّي الناس، فيها موعظة، لما تقول ما شاء الله على الخطيب، يقول لك: بالأمس كان يفعل كذا وكذا، فهذا يأتي يريد أن يهدم الحق الذي قاله الآن فرفع الإيمان، والعمل الصالح، والإقبال على السنة، أراد أن يهدمه بما علم عنه في مجال آخر، وهذه طريقة أهل البدع، في النهاية لا يسلم لك رجل، لا يسلم لك دين.

ولذلك حين نقرأ إقبال شاعرًا، علينا أن نُخرج إقبال من قضية الفكر، وأن نقرأه شاعرًا.

وهذه طريقة علمائنا، هذه طريقة لها أصولها في طريقة تفريق المباحث في الشخص الواحد، وإلا بعد ذلك وقعنا في مصيبة.

أنا أتكلم عن تجلياتها في واقعنا، لأننا كلُّنا نتكلم عن هذه النقطة ولكن حين نُطبِّقها تبدأ المصائب، وكما يقولون: "الشيطان يكمن في التفاصيل"، أهل الحيث يقولون: "فلان قدري ثقة"، وتكون مقبولة، لكن نحن نطبقها لا نحترم. والدليل ما ترونه من سلخ وتدمير وإزالة الرموز الإسلامية، لمجرد الخطأ وتجميع الأخطاء وحملها على غير محاملها. وهم يقولون الحق في باب فإذا

استشهدوا بالحق الذي في الباب رُموا بما أخطأوا فيه، إما على جهة الاختلاف وإما على جهة اليقين، قد يكون خطأ وقد لا يكون خطأ.

- **النقطة الثانية: هي كيفية قراءة الشعر.**

وُلد إقبال في سيالكوت ونشأ في بنجاب لاهور، ودرس الفارسية، ولذلك كان يكتب شعره بالفارسية، والشعر الفارسي قوانينه أشدّ من الشعر العربي، وإن كان متأثرًا في دوائر الخليل لكنه أشد في شروطه من الشعر العربي، والشعر الفارسي مشهور في التاريخ الإسلامي بأنه شعر رائق عظيم كتب فيه كبار الشعراء. ولكنه بعد ذلك تركه وتوجّه إلى كتابة الشعر باللغة الأوردية، هذا الشعر أثَّر في داخل المجتمع الهندي، التي كانت تسمى القارة الهندية ثم افترقت الهند وباكستان الشرقية والغربية، فالشرقية سميت بنغلادش والغربية باكستان. كان شعر إقبال يمثّل النَّفَس الإسلامي الذي يتغنّى به أهل الإسلام بلغتهم، وعامة أهل الإسلام في القارة الهندية يتكلمون الأوردية.

هذا الرجل سُوّقت شخصيته غربيًا وسُوّقت عربيًا. بعد أن أنهى دراسة الحقوق في لاهور، رحل إلى بريطانيا، درس في كامبريدج، ألقى محاضرات، فاهتمت له دوائر الاستشراق؛ كتب عنه هاملتون جب، صديقه توماس آرلوند أستاذه في لاهور كان قد أوصى بأن يُعتنى به، نيلسون المستشرق كتب عنه وحاوره، فدوائر الاستشراق الغربي اهتمت بإقبال فصار له وجود وحديث.

ونحن كما تعلمون في كثير من الأوقات صرنا صدى لما يُتلقى في الغرب فكثير من الكتب وُجد الاهتمام بها لأن الغرب اهتم بها، مثلًا ابن رشد اهتم الغرب به فصار إمامًا عند العلمانيين المائعين العرب. فبسبب الاهتمام الغربي به صار له صدى في العالم العربي الإسلامي، فكتب عنه من كتب من العرب، فصار له وجود فكري أولًا؛ لأنه ضمن من كتب في معضلة العصر منذ أن تخلَّفنا وتقدَّم غيرنا، هذا الشعار الذي صاغه شكيب أرسلان بعنوان: (لماذا تأخر المسلمون وتقدَّم غيرهم؟)، هذه معضلة المعضلات، هذه مشكلة كُتب فيها الحبر الكثير، وسالت فيها الأفكار وتكلم بها الناس، وكان محمد إقبال ممن كتب فيها، وكان كلامه ضمن دائرة الاهتمام عند الغرب فاهتم به العرب، حينئذ بدأ الاهتمام بشعر محمد إقبال من خلال أفكاره.

أول من ترجم شعر محمد إقبال هو عبد الوهاب عزام -وهو خال الدكتور أيمن الظواهري-. وعبد الوهاب عزام كان سفيرًا لمصر في باكستان وترجم شعر إقبال، وعبد الوهاب عزام كان يكتب الشعر ولكن ليس شاعرًا كبيرًا مجيدًا، فترجم شعر إقبال شعرًا.

فبداية الاهتمام بإقبال باعتباره مفكرًا يُنتج معرفة في الإجابة على السؤال التقليدي: لماذا تأخر المسلمون وتقدَّم غيرهم؟ لكن بعد ذلك قفز وإذا بإقبال شاعر، يقول أبو الحسن النّدوي عن شعر إقبال بعد أن ترجمه عبد الوهاب عزام: حوَّله إلى جثة هامدة، أبو الحسن الندوي قارئ للشعر الفارسي والأوردي والعربي، فلما قرأ ترجمة عبد الوهاب عزام لشعر إقبال مع أنه صاغه شعرًا قال: دمر الأفكار!، ضاع شعر إقبال بين المعنى والنظم. والشعر هو كلام موزون مُقفّى، لكن هل هذا كافٍ لأن يكون هذا الشعر شعرًا يُتغنّى به؟ فكانت الفجوة عظيمة بين شعر إقبال في تغنّي العلماء والعامة والصوفية والمفكرين بالأوردو ولما تحوَّل إلى العربية إذا هو شعر لا يستحق أن يُقرأ، لا من جهة معناه ولا من جهة جَرْسِه، فهو كمن ركب بين فرسين، تقول العرب: من ركب بين فرسين شُبِق ظهره!.

فهو لم يصبح شعرًا مغنّى عند من يريد أن يتغنَّى بالنبي ﷺ والتاريخ الإسلامي وعظمة الدين ومخاطبة الإله، وفقد معانيه لمحاولته أن يصيغ المعاني شعرًا، فاضطر أن يعمل هذا وهذا. فهو درس الأوردية لأنه كان سفيرًا لمصر هناك، ثم تعيَّن عبد الوهاب عزام أول رئيس للجامعة العربية.

فالقصد أن أبا الحسن النّدوي قال أن عبد الوهاب عزام حطم ودمر شعر إقبال، فأراد أبو الحسن الندوي أن يترجمه ليحافظ على المعنى ولم يمكن أن يبقى شعرًا، فحوّل الشعر إلى نثر. فالأول ترجمه شعرًا ونثرًا فجنى على الشعر وجنى على المعنى؛ لأن إقبال فيلسوف ومفكر. فلما جاء أبو الحسن قال أنا أريد فقط أن أوصل إليكم أفكار محمد إقبال جانيًا ومدمرًا للتغني، والشعر إنما عظمته في التّغني.

ولذلك هناك قاعدة يجب أن نعرفها بأن **الشعر لا يُقرأ قراءة صامتة**، لا تقرأ الديوان كما تقرأ الكتاب، إذا أردت أن تقرأ شعرًا صامتة فقد دمَّرت هذا الشعر؛ لا بد أن تقف في بيتك وزوجتك تظن أنك جُننت وابنتك تضحك عليك، وأنت تقرأ القصيدة وتغنيها، أولًا تُقيم ألفاظها وبعد ذلك تُقيم إعرابها، ثم تغنيها حتى يدخل الشعر دماغك، فالشعر لا يُقرأ قراءة صامتة، هذه قاعدة، من قرأ الشعر قراءة صامتة أحاله إلى جثة لا يمكن أن تصنع مقصد الشعر في نفسه أي التّمتُّع والفهم.

إذا أراد المرء أن يُترجم الشعر بالشعر فإنه إما أن يجني على المعنى وإما يجني على المغنى، وإذا أراد أن يترجم المعنى فقط ترجم الشعر، ولذلك الشعر لا يُترجم، ويحتاج إلى شاعر يسرق الشعر، وهذه سرقة ممدوحة؛ كانوا يقولون: كان جرير يسطو على الشعراء فيسرق سرقة لا توجب القطع؛ يعني شاعر قال شعرًا لكنه بعيد عن طريقة جرير، حتى أن المتنبي -مع أنه حكيم الشعراء- يزعمون أن عامة شعره مسروق، لكنها سرقة جميلة؛ لأنه يأخذ الفكرة الصغيرة التي لم يستطع الشاعر الآخر الإبانة عنها ولا تحليتها ولا تزيينها وتوشيحها بالكلمات الجميلة الرائعة، فيأخذ الكلمة ويُنشئ فيها الحكمة البيّنة المضيئة، ويوشّيها بالألفاظ الجميلة فكأنها خلق جديد، هذه سرقة لا قطع فيها، سرقة ممدوحة جيدة والناس يعرفونها.

إذًا أولًا: الشعر لا يُترجم، متى تستطيع أن تترجمه؟ حين تسرقه وتنسبه إليك وتصيغه الصياغة الجميلة.

والشعر الجميل وقف عنده النّقّاد؛ متى يكون الشعر جميلًا؟ نشأت نظرية النَّظْم عند عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله- في كتابه (أسرار البلاغة) الجامعة بين النظم والمعنى. وقبله الجاحظ قال: الجمال يكمن في الألفاظ لا المعاني، وقال: المعاني مثل الحجارة فوق الأرض والعالم يأخذها فيصيغها. صاحب (المثل السائر) ابن الأثير قال: إنما هي المعاني لا الألفاظ، وعبد القاهر جمع بينهما وقال لا بد من الألفاظ والمعاني. ولكن يبقى للشعر سحره وأثره، وله ميزانه الذي يترقّى به، قواعد كثيرة، وكان الناس قديمًا لا يعدُّون الشاعر حتى يقول الحكمة.

إذًا الشعر هو صناعة، مع أنه شعور، ومن هنا نأتي إلى النقطة الثالثة: هل الشعر فكر؟ الجواب نعم.

إذًا الشعر لا بد أن يُتغنّى به ولذلك لا تنفع القراءة الصامتة، ما هو السبب لئلا تنتفع بالشعر ولا تفهمه حين تقرأه؟ لأنك تقرأه كما تقرأ الجريدة وهذا لا ينفع، لا بد أن تصنع كما يصنع السلف إذا جمعوا الأحاديث كانوا يذهبون إلى بيوتهم ويجمعون إماءهم وخدمهم ويلقون عليهم الأحاديث وهم عجم، أنا لا أقرأ لك أقرأ لي حتى أحفظ. لكن إياك أن يقع فيك كما وقع لغيرهم، أحد الأئمة كان جالسًا على النيل يقطّع بيت شعر: فاعل مفاعل مفعول، فمرّ عليه أعرابي فقال هذا يسحر النيل، فرماه في النيل فقتله!.

فالشعر لا يُترجَم، وإذا أراد الشاعر أن يترجم الشعر فعليه أن يسرقه، وبين أيدينا نموذج للشعر المسروق، صحيح أنه شعر إقبال لكنه شعر مسروق. إذًا هذا تاريخ إقبال مع قضية انتشاره في العالم، ثم الناس غنوا هذا الشعر كثيرًا.

- **النقطة الثالثة: وهي هل الشعر فكر أم أنه مجرَّد وجدان؟ هل يمكن أن تتلقَّى المعارف الفكرية من خلال الشعر؟**

الأصل عند الناس أن الشعر ليس هذا، لذلك يقولون أن أعظم الشعر الرثاء، بعضهم يقول الغزل، وهذا كلام خارج عن منطقة الفكر، فالرثاء ليس فكرًا، والغزل ليس فكرًا، هو وجدان، لكن كثيرًا ما يكون الشعر سببًا لنشر الفكرة، ومن ذلك الحكماء، الآن نستطيع أن نعرف فلسفة المعرّي –إن جازت العبارة– من خلال الشعر، واستطاع هذا الرجل العجيب الفيلسوف في الشعر أن يصنع من الأفكار المعقدة التي يؤمن بها شعرًا، فتذوَّقها شعرًا وتذوقها فكرًا، هذه مهمة كبيرة. هل الفقهاء يصنعون شعرًا؟ هربوا من الشعر إلى المتون، فالشعر في أساسه هو عمل وجدانيّ، لكنه يمكن أن يعبّر عن فكرة صاحبه.

بقيت لدينا قضية، أحد النُّقّاد وهو عادل التل كتب كتابًا عن محمد شحرور، وكتب كتابًا ثانيًا عن إقبال وجودت سعيد، ونبَّهنا إلى نقطة مهمة وهي جديرة بالاهتمام في القراءة، قال: بأنه ما دفعني للكتابة عن إقبال إلا بسبب أن اسمه استُغل لتمرير أفكار منحرفة؛ ولذلك قلنا النقطة الثالثة من محور القراءة الواعية هي القراءة المستغلة، كيف تُستغل القراءة؟ هذه مبناها على ما تقدَّم، من النقطة الأولى وهي أن الرجل قد يُستغل اسمه في تمرير الفكرة، مع أنها ليست له.

هذا الرجل يقول بأن الذي كان سبب نشاطه للرد على محمد إقبال أنه وجد أن بعضهم ويقصد جودت سعيد، وجودت سعيد سنقرأ بعض كتبه لأنها نموذج للقراءة المتهافتة، وسنقرأ كتبًا كثيرة في القراءة المتهافتة سواء في القراءة الدينية والقراءة التاريخية، سنقرأ من نماذج القراءة المتهافتة (هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس)، هذا كتاب من القراءة المتهافتة، كتب جودت سعيد نموذج للقراءة المتهافتة، وكتب كثيرة –سيأتي البحث فيها إن شاء الله–.

فيقول بأن جودت سعيد أراد أن يستغل اسم محمد إقبال ووَهَجَه واحترام الناس له من أجل تمرير أفكاره، هذه **قراءة مستغِلَّة؛** عندما يريد أحد أن يمرِّر باطله لأن العالم الفلاني قاله، هذه علينا أن نحذر منها، وهذه قراءة مستغِلّة ونماذجها كثيرة في الواقع، جماعة الغلو والانحراف إلى الآن يسوّقون على أتباعهم، إذا قيل لهم من يفتي لكم؟ قالوا: الشيخ أبو محمد المقدسي، مع أنهم يكفّرونه ويستغلّون كتبه للترويج لهم. وحتى تُكتشف الكذبة يكون قد سُلِّك، التسليك أن يأتي بك من أجل المقصد لكن يُسلِّكُك من طريق معروف لك من أجل أن يوصلك إلى ما يريد، هذا التسليك يجب أن نعرفه.

وبعض الأحزاب تقول: هذا منا، وهذه تجربة عشتها، أنت مبتدئ لا تعرف هذا الرجل، لكن هذا الرجل تكون له شهرته الخطابية وشهرته العلمية، فيبدأ الحزب يقول: هذا من جماعتنا لكنه زعيم سرّي!، فعلى طريقة هذا التسويق يكون قد أخذ مائتين أو ثلاثمائة واحد من محبي هذا الشيخ ودخلوا معه، فبعد أن تُكتشف الكذبة يكونون قد سلَّكوا ثلاثين أو أربعين منهم في الجماعة ولا يهم الباقي. ولذلك ينبغي لك أن تحذر، ليس مجرَّد ظهور شخص معيَّن أن الحق معهم، وليس ظهور رجل في فكرة يعني أن الحق معه، ولذلك نبهنا إلى قضية وهي أن القراءة المستغلِّة يجب علينا أن نحذر منها.

هذه محاور ثلاثة أردت أن أقدمها في فن القراءة، وهي تطبيق لما بين يدنا من الحديث عن الأستاذ محمد إقبال.

الآن نأتي إلى شخصية هذا الرجل الذي له تأثير كبير، ولا شك أن أفكار محمد إقبال التي اختارها من أجل تجديد الفكر الديني بقيت حبيسة الكتب، لم يتبنّاها حزب ولا جماعة، وإنما بقيت في حدود المحاضرة الأكاديمية -لأنه كان محاضرًا أكاديميًا يدرِّس العربية والإنجليزية والقانون-، وألقى ست محاضرات تكوّن منها أكبر كتاب يعبّر عن أفكار محمد إقبال اسمه (تجديد الفكر الديني)، وهذا كتابه المعبِّر عنه.

محمد إقبال لم ينشئ جماعة، هل تأثَّرت جماعات في واقع الأمر بفكر محمد إقبال؟ الجواب: لا، في الحقيقة لم يُقَم لمحمد إقبال في فكره أي اعتبار وتأثير سوى الدراسة الأكاديمية فقط، وبقيت صورة إقبال الشاعر أكبر من صورة إقبال المفكِّر، بقيت صورة إقبال في عالمنا العربي وفي القارة الهندية باعتباره شاعرًا ينشّط الهمم، يثير كوامن الإيمان، يثير استعلاء الإيمان على الآخرين، ويدمّر ويحارب التصوّف الهندي، حتى أن بعض الباحثين يقول أن شريعتمداري -وسنقرأ كتابه في نقد الذات ضمن الألف كتاب-، يقولون بأن شريعتمداري متأثر في قضية التفريق بين التشيع الصوفي والتشيع الفاطمي بإقبال حين يفرّق بين التصوف العربي والتصوف الهندي، بمعنى أن التصوف الهندي هو تصوُّف الكسل والخمول والدّعَة وترك الصراع والالتجاء إلى الداخل دون الصراع مع الخارج، يقول هذا من أسباب التدمير.

إذًا لدينا إقبال المفكّر وإقبال الشاعر، والذي غلب هو الشاعر، الذي يدعونا هنا للحديث عن إقبال المفكر هي فقط دراسة أكاديمية، وبقي إقبال مدروسًا أكاديميًا إلى يومنا هذا، لا يأتي أحد ويقول أنا على فكر إقبال، فقط يحتجُّ به أصحاب دعوة غاندي، جودت سعيد وهو صاحب مذهب "ابن آدم الأول"، وهو فكر متهافت.

الحديث عن إقبال المفكر يطول ولذلك سنختصر، وسنرى أنه لم يصل إلى درجة الرُّقي المطلوبة التي وصل إليها بعض مفكري الإسلام، ولذلك سيد قطب في (خصائص التصور الإسلامي) أقام ملحمة من صفحة أو صفحتين في تدمير صورة التفكير لمحمد إقبال، تكلم عن إقبال كلامًا شديدًا ويُدخله مع محمد عبده في فهمه لإحياء الأمة.

فلذلك الكلام عن إقبال فقط المفكر، ولنعرف وجهته في الخارطة الفكرية للعالم الإسلامي، وأما أثره فلا يكاد يُذكر. والأستاذ محمد البهي في كتابه (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي)، وهذا كتاب مهم جدًا يتحدَّث عنه ويصل إلى نقطة بأن محمد إقبال إسلامي التفكير لكنه غربي الصياغة والأسلوب كما يقول. والذين تكلَّموا عن إقبال كثر.

الأستاذ محمد إقبال وُلد كما قلت لكم في سيالكوت، واسمه إقبال، وكلمة (محمد) يضعها كثير من الناس للبركة، مثلًا محمد يعقوب، محمد علي، يفعلها كثير من الأعاجم، والعرب يفعلونها، وكل رؤساء مصر إلى السيسي يفعلونها، محمد أنور السادات، محمد جمال عبد الناصر، محمد حسني مبارك، يضعونها للبركة.

هو ذكر أن أحد أجداده كان من الوثنيين وأسلم على يد شيخ الصوفيين كما يقول، وأبوه كان يُكنّى بالشيخ تتهو، تتهو تعني الشيخ صاحب الحلقة في الأنف. وسيالكوت هي من مدن البنجاب، والبنجاب هي أحد الأقاليم الخمسة لباكستان ومعناها الأنهر الخمس، ووُلد هذا الرجل سنة ١٨٧٣، وجدت بعضهم يقول ١٨٧٧، وتوفي سنة ١٩٣٨، أي عاش ما يقارب ٦٥ عامًا.

درس في لاهور وتعلَّم الحقوق، ودرس على يد توماس آرلوند المستشرق المعروف، وبعضهم يذكرها من أجل التشديد عليه بأنه صنيعة للاستشراق، وهذا الكلام غير صحيح، نعم هو درس على يد توماس آرلوند وتأثر به واعتنى به توماس آرلوند، ولكنه كان متعاليًا على الفكر الغربي بخلاف الأستاذ محمد عبده الذي لم يكن متعاليًا على الفكر الغربي، محمد إقبال نَفَسُه حتى في تجديد الفكر الديني، ومن قرأه يراه ينقض الفلسفة اليونانية التي هي أساس الفلسفة الرومانية التي هي أساس عمدة الحضارة الغربية المعاصرة، ينقضها نقضًا شديدًا.

ولما أرسل إليه نيكلسون صديقه يقول له بأن البعض يقول أنك تأثرت بنيتشه، قال: أنا كتبت كتابي قبل أن أعرف نيتشه، وقال الفرق بيني وبينه أن نيتشه يريد أن يُميت الإنسان ليصنع السوبرمان، وأنا أريد أن أُحيي الإنسان.

وقلنا أن نيتشه يعتمد على موت الإنسان وصناعة السوبرمان، ويقول بموت الرب ويحل بدلًا منه الإنسان حين يصل إلى درجة الألوهية، هكذا تكلم زرادشت وهكذا يقول نيتشه. والأستاذ محمد إقبال يتكلم عن المسلم كلامًا عظيمًا.

ظن البعض أنه يؤمن بوحدة الوجود، يعني وصول الكمال الإنساني لدرجة الإله، ومحمد إقبال بريء من هذا لكنه كان معظِّمًا لجلال الدين الرّومي، وكان معظّمًا للأنا التي يعظّمها الصوفية، (الأنا) التي تنمحي، ما هي أعظم درجات الصوفية؟ هي الأنا التي تنمحي بحيث يحل بدلًا منها صورة الإله، يقولون:

العبـــــدُ ربٌ والـــــربُّ عبـــــدٌ	**يا ليـــت شـــعري مـــن المكلَّـــف**
إن قيـــل: عبـــدٌ، فـــذاك ميـــت	**وإن قيـــل: ربُّ، أنَّ يُكلَّـــف؟!**

فعبارات محمد إقبال تشِي بهذا المعنى لكنه بعيد كل البعد عن قضية وحدة الوجود. والبعض حاول أن يقول بأن محمد إقبال كان صناعة استشراقية عن طريق أستاذه والصواب أنه كان متعاليًا على الغرب يحاول أن يصنع إسلامًا عظيمًا مركزه الإسلام لكنه يستفيد من الآخرين التاريخية –وهذه عبارته–. هذه نقطة ضعف يفترق فيها الأستاذ محمد إقبال عن نموذج المسلم المتعالي عن كل الآخر إلا الإسلام، من هو هذا النموذج؟ سيد قطب، –هذه كلمة مهمة وأنا مسؤول عنها أمام الله–.

سيد قطب هو نموذج المسلم المتعالي عن الآخر والأغيار ثقةً بأن الإسلام وحده كافٍ بأن يصنع الحضارة والغلبة لأمة الإسلام، الآخرون يقولون نحتاج إلى شيء آخر في داخل الإسلام.

الآن أذكر لكم بعض أفكاره في كتابه (تجديد الفكر الديني)، هو في كتابه نقد الفكر الغربي لكنه استفاد منهم. والكتاب فيه عبارات مقلقة، عبارات تصل إلى معنى وحدة الوجود لكني لا أعتقد أنه يقول بها، عبارات خطيرة تصل إلى كلام الباطنية، لأنه يؤوِّل الحقائق الدينية، انظر إلى كلمته في الجنة والنار، وقبلها انظر إلى رمزية قصة هبوط آدم إلى الأرض، لا يجعلها حقيقة، كلمات خطيرة له في هذا الباب، يقول إن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب وإنما أُريد بها بالأحرى بيان الارتقاء الإنساني من بداية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفسًا حرَّة قادرة على الشك والعصيان.

يقول عن الجنة والنار: الجنة والنار حالتان لا مكانان، حالات نفسية، وجاء وصفهما في القرآن تصويرًا حسيًّا لأمر نفساني!، يعني لمعالجة النفس وليس هما حالتان حقيقيتان.

نقرأ لكم نقد سيد له، سيد مبدع والله يا إخوة، إنصافًا لهذا الرجل، هذا الرجل عظيم ومهدي، له كلمات كأنها خلوص من لغة القرآن ومعاني القرآن، يقول سيد في (خصائص التصور الإسلامي): "المعنى متأثّر بالقالب، والناس يختارون القوالب لآثارها التي تخدم المعاني"؛ القوالب تؤثر على المعاني، يقول: "لأن القرآن حين أراد المعاني القرآنية استخدم أسلوبًا يخدم هذه المعاني للوصول إليها، فلم يجعلها خطابًا عقليًا مجردًا، ولا منطقًا ذهنيًا مجرّدًا، خطاب فيها الإنسان كله"؛ خاطب فيها العقل والقلب والخوف والحب والوجدان والرضى خاطب الإنسان كله من أجل أن يُحقِّق فاعلية هذا العلم في نفس هذا السامع. يقول هذه المقدمة ثم يقول بعدها: "نحن نخالف إقبال في محاولته صياغة التصور الإسلامي في قالب فلسفي مستعار من القوالب المعروفة عند هيغل من العقليين المثاليين وعند أوغست كونت من الوَضْعيين الحِسيين"، وهو ينقض هنا أسلوبه ولا ينقض معانيه، وإن كان في موطن آخر ينقض المعاني.

قلنا بأنه جاء في فترة قضية لماذا تأخر المسلمون وتقدَّم غيرهم؟ وهو ضمن ما يسمى بالتجديد الإسلامي، يقول علي الديب عن محاولته: "أحاول بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناءً جديدًا آخذًا بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة"، هذا هو الاختراق، هذا الفرق بينه وبين من تقييمنا لسيد، ولذلك هو يجعل مصادر المعرفة: الدين، الواقع، التاريخ.

له كلمة خطيرة جدًا في الحقيقة ليتني لم أقرأها له، يقول: "إن النبوة لتبلُغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها". نهاية ما يقوله محمد البهي في كتابه: "إن إقبال لم يكن إلا مسلمًا أولًا، ومفكرًا غربيًا في الصياغة والمنهج ثانيًا".

يقول إقبال: "إن الفلسفة اليونانية مع أنها وسَّعت آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام، غَشَت على أبصارهم في فهم القرآن".

اهتم كثيرون بإقبال وكتبوا عنه، واهتم المستشرقون به كثيرًا، وهذا يدل على أن الاستشراق ليس نائمًا والدوائر الغربية في دراسة الأفكار الإسلامية لم تكن في غفلة، تستطيعون أن تقرأوا لهاملتون جب في كتابه (الاتجاهات الحديثة للإسلام)، تكلم عنه كلامًا

طويلًا ولم يكن منصفًا له لأنه كان معاصرًا له، وتكلم عنه من قبيل المنافسة؛ لأن إقبال تكلم تعالى على الفلسفة الغربية وهذا لا يعجب المستشرقين.

مالك بن نبي ذكره مرتين في كتابه (وجهة العالم الإسلامي) مادحًا إياه، قلنا بأن توماس آرلوند مدحه، كتاب محمد البهي ضروري أن يُقرأ في فلسفة إقبال وتقييمه الإسلامي. قلنا إن سيد تكلم عنه في (خصائص التصور الإسلامي)، وكذلك الأستاذ عادل التل في (النزعة المادية عند إقبال).

من العجيب وهذا من أغرب ما يكون أن إقبال يرى أن البابية والبهائية قد نشأتا تأثُّرًا بفكر محمد بن عبد الوهاب، لا أريد أن أعلق عليها، كيف هذا لا أدري!.

- **والآن إلى قصيدة (شكوى وجواب شكوى)، وهو المحور الثالث:**

وأنتم تعرفون بعض هذه القصيدة، ويعرفها العجائز لأن أم كلثوم غنتها، فاشتهرت هذه القصيدة بما تلعَّب بها الملحِّنون المغنون تحت باب (حديث الروح)، فالناس يعرفونها لو قلت لهم (حديث الروح)، لقالوا: لأم كلثوم، على قاعدة أن الشعر يُنسب لمغنيه. وأنتم شباب تعرفون هذه القصيدة من خلال ما بعض المنشدين الذين أنشدوا بعض هذه الأبيات، فهي مشتهرة لكم.

ما هي قصيدة شكوى وجواب شكوى؟

اسمها شكوى وجواب شكوى، عماد هذه القصيدة يقوم على أن رجلًا هو إقبال يقف في منتصف الليل عند السَّحر، هل هو يناجي ربه أم يشكو لربه، ويطرح نجواه وشكواه في هذا الليل البهيم والنجوم شاهدة عليه، أم أنها تعاديه أم أنها تعودُه على مرضه، وهو يلقي هذه الشكوى من هذا القلب الجريح إلى ربه كيف كنا وكيف أصبحنا، لماذا نحن هكذا؟!

فيطرح هذه الشكوى الطويلة لربه وهذه النجوى الجميلة لله -عز وجل-، فيها ما يُستكره من الألفاظ، القصد أن فيها نَفَسًا قد يبدو أنه اعتراض وليس كذلك، هو نفس الشكوى التي تريد جواب، ولذا هو يقول: شكوى وجواب شكوى.

بعد أن يفيض في ذكر تاريخه، وهو يستعرض التاريخ، يستعرض فعالية الإيمان، يستعرض الواقع المرير الذي يعيشه يستعرض واقعه الشخصي في هذه القصيدة، كيف يعيش الألم المتواصل في كل ليلة. بعد ذلك كله من الاستعراض الطويل في الشكوى يأتيه جواب الشكوى من السماء لماذا حصل بكم يا أهل الإسلام ما حصل، أنتم تنتسبون للدين، عندكم القرآن، عندكم الأئمة وعندكم التاريخ، وعندكم كذا وكذا، لماذا أصبحتم هكذا، فيأتي الجواب إليه، لذلك سميت شكوى وجواب شكوى.

فهي صياغة شعرية لفكرته: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، هذه فكرة القصيدة. فهذا جواب على سؤال الوضع المَرَضيّ الذي عشناه منذ أن دكَّت طلائع الاستعمار بلادنا وهزمتنا ودمرتنا، وبدأت عوامل الانهيار الكلي في مفهوم الأمة ووجودها.

النقطة الثانية أن هذه القصيدة صيغت باللغة الأوردية فكيف تحولت إلى هذا الشجن الجميل وهذا الغناء الرائق؟ هذه قضية غريبة؛ أن إقبال صاغها بالأوردو والذي صاغها عربيًا لا يعرف أي كلمة أوردو! وهو الصاوي شعلان، أحدهم من دار الأعظمي وهم القائمون على دار الندوة، تكلمنا عن الأستاذ أبي الحسن الندوي ودار الندوة، وأنه أنشأها من أجل تعلم اللغة العربية لأنه رأى أن المدارس الدينية في ديوباند تُخرِّجهم من غير لغة عربية، يقرأون ديوان الحماسة وشرحه ولا يعرفون أن يتكلموا كلمة عربية واحدة.

فكان مصطفى الأعظمي يترجم شعر إقبال إلى العربية، فيأخذها الصاوي شعلان -وكان ضريرًا- ويصيغ الأفكار شعرًا، فوصلت إلينا نحن العرب بهذه الصياغة، كتبها إقبال بالأوردية وترجمها مصطفى الأعظمي وترجمها رجل لا يعرف من الأوردية شيئًا هو الأستاذ الصاوي شعلان الضرير.

الآن أنتم تعرفونها لأنها مشتهرة، وهنا يأتي دور التغني بتذوق الشعر، يعني لماذا نحب هذه القصيدة؟ لأن هناك من غنَّاها، الآن أنتم لا تحفظون الشعر إلا ما غُني، بل في الحقيقة لو قيل لأحدناكم تحفظ من الشعر؟ لوجد أن أغلب الشعر الذي أخذه عن طريق السماع، ولذلك أول مبحث من مباحث: فن القراءة من الذي يعشق العين أم الأذن؟ أنا على قاعدة أبي العلاء: والأذن تعشق قبل العين، عشق الأذن أعظم من عشق العين، حتى أنهم يقولون بأن الأفكار التي تطرُق الأذن أعظم تأثيرًا وبقاءً من الأفكار التي تطرق العين، وأنا لا أريد أن أدخل في الخصومة من هو الأفضل الأذن أم العين، يكفي ما قاله ابن قتيبة في (المعارف) أنه جعل الأذن أعظم من النظر، وقال لا يوجد نبي أصم لكن يوجد أنبياء أعمياء، فدل على أنه يمكن الاستغناء عن النظر لكنه لا يمكن الاستغناء عن السماع.

يجب أن تعلموا شيئًا وهذه القضية مهمة جدًا في قراءة القرآن ومهمة جدًا في سماعنا، وهي تقوم على أن بعض الكلام فَهْمُه قراءته، وبعض الكلام فهمه صوته الذي يُلقيه. عندنا مشكلة يعاني منها القرّاء جميعًا وخاصة قرّاء الشعر، أنه لا يعرف حين يقرأ الشعر أين يقف ومن أين يبدأ، وهو ما يسمى **بالقراءة التعبيرية؛** بمعنى عند السؤال تكلّم بصيغة السؤال وليس بصيغة التقرير، وكان بعضهم يقول أن الفرق بين ناقد الشعر الجيد وناقد الشعر السيء هو كيفية قراءة الشعر، فهناك كثير من الشعر لو قرأته بطريقة صحيحة يفهمه المقابل دون شرحه، فهمه قراءته بالصوت.

وهذا تحسه في بعض قرّاء القرآن؛ حين يقرأ تشعر بفهمك لما يقرأ أكثر مما لو قرأ غيره، وكأن طريقة القراءة لها دور مهم في إلقاء المعاني والمفاهيم. ولذلك الشعر ينبغي أن يُقرأ وطريقة قراءته أن تعرف أين تقف وكيف تعبّر عن هذه الكلمة بطريقة ما تُفهم المراد، وهذا ما يسمى بالقراءة التعبيرية.

يقول في بداية الكلام في شكوى وجواب شكوى:

شكوايَ أمْ نجْوايَ في هذا الدُّجى ... ونجومُ ليلي حُسَّدي أو عُوَّدي

أمْسَيتُ في الماضِي أعيشُ كأنَّما ... قَطَعَ الزمانُ طريقَ أمْسِي عنْ غَدِي

والطيرُ صَادحةٌ عَلَى أفْنَانِها ... تُبْكِي الرُّبى بأنِينِها المتجدّدِ

قدْ طالَ تَسْهِيدِي وَطَالَ نشيدُها ... وَمَدَامِعي كالطَّلِ في الغُصنِ النَّدِي

فإلى مَتَى صَمْتي كَأنِّي زهْرةٌ ... خَرْساءُ لمْ تُرْزَقْ بَراعةَ مُنْشِدِ؟!

****

قِيثَارتي مُلئتْ بأنَّاتِ الجِوَى ... لاَ بُدَّ لِلْمَكبُوتِ مِنْ فَيَضَانِ

صَعَدَتْ إِلَىَ شَفَتِي بلابلُ مُهْجَتِي ... لِيُبِينَ عَنْهَا منْطِقِي ولِساني

أَنَا مَا تَعَدَّيْتُ القَنَاعَةَ والرِّضَا ... لَكِنَّمَا هِيَ قِصَّةُ الأشْجَانِ

أشكُو وفي فمِي التُّراب وإنَّما ... أشكُو مُصابَ الدِّينِ للدَّيَّانِ

يَشْكُوْ لَكَ اللَّهمُّ قَلْبٌ لَمْ يَعِشْ ... إلَّاَ لِحَمْدِ عُلاكَ فِي الأكْوَانِ

***

قَدْ كَانَ هَذا الكَوْنُ قَبْلَ وُجُودِنا ... رَوْضًا وأَزْهَارًا بغيرِ شَمِيمِ

وَالــــوَرْدُ فِي الأَكْمَــــامِ مَجْهُـــولَ الشَّـــذَى | لا يُرْتَجَـــــــى وَرْدٌ بِغَـــــــيْرِ نَسِــــــيْمِ
بَـــلْ كانـــتِ الأَيَّامُ قَبْـــلَ وُجُـــودِنا | لَــــــيلًا لظَالِمِهــــــا وَلِلمَظْلُـــــومِ
لـــمَّا أَطَـــلَّ محمـــدٌ زَكَـــتِ الـــرُّبَى | واخْضَـــرَّ فِي البُســـتَانِ كـــلُّ هَشِـــيمِ
وأَذَاعَـــتِ الفِـــرْدَوْسُ مَكْنُـــونَ الشَّـــذى | فــــإذا الـــوَرَى فِي نُضْـــرَةٍ وَنَعِـــيمِ

****

مَـــنْ كـــان يَهْتِـــفُ بِاسْـــمِ ذَاتِـــكَ قَبْلَنَـــا | مِـــنْ كَـــانَ يَـــدْعُو الواحِـــدَ القَهَّـــارَا؟
عَبَـــدُوا تماثِيـــلَ الصُّـــخورَ وقدَّسُـــوا | مِـــنْ دُونِـــكَ الأَحْجَـــارَ والأَشْـــجَارا
عَبَـــدُوا الكَوَاكِـــبَ والنُّجُـــومَ جَهَالَـــةً | لَمْ يَبْلُغُـــوُا مِـــنْ هَـــدِيِها أنْـــوَارَا
هَـــلْ أعْلَـــنَ التَّوْحِيْـــدَ دَاعٍ قَبْلَنَـــا | وَهَـــدَىَ الشـــعوب إلَيْـــكَ والأَنْظَـــارا؟
كُنَّـــا نُقَـــدِّم للسُّـــيوفِ صُـــدُورَنَا | لَم نَخْـــشَ يومًـــا غاشِمًـــا جبَّـــارًا[٢]

****

مـــن ذا الـــذي رفـــع السيوف ليرفـــع اسْـــ | ـمَـــك فـــوق هامـــات النجـــوم منـــارا
كنـــا جبـــالاً فـــي الجبـــال وربمـــا | سرنـــا علـــى مـــوج البحـــار بحـــارا
بمعابـــد الإفرنـــج كـــان أذاننـــا | قبـــلِ الكتائـــب يفتـــح الأمصـــارا
لـــم تنـــس إفرقيـــا ولا صحراؤهـــا | سجداتنـــا والأرض تقـــذف نـــارا
لـــم نخـــش طاغوتـــاً يحاربنـــا ولـــو | نصـــب المنايـــا حولنـــا أســـوارا
ندعـــو جهـــاراً لا إلـــه ســـوى الـــذي | صنـــع الوجـــود وقـــدَّرَ الأقـــدارا
ورؤوسنـــا يـــا رب فـــوق أكفنـــا | نرجـــو ثوابـــك مغنمـــاً و جـــوارا
كنـــا نـــرى الأصنـــام مـــن ذهـــبٍ فنهـــ | ـدمهـــا ونهـــدم فوقهـــا الكفـــارا
لـــو كـــان غيـــر المسلميـــن لحازهـــا | كنـــزاً وصـــاغ الحِلـــيَ والدِّينـــارا
مـــن غـــيرنا هـــدم التماثيـــل | الـــتي كانـــت تقدســـها جهـــالات الـــورى
حـــتى هـــوت صـــور المعابـــد ســـجدًا | لجـــلال مـــن خلـــق الوجـــود وصـــوَّرا

---

[٢] وهنا انتُقد إقبال وكأن فيه بعض المنة، ولكن هذا من جواز الشعر.

ومـــن الأُلى حملـــوا بعـــزم أكُفِّهـــم ... باب المدينـــة يـــوم غـــزوة خيـــبرا
أمَّـــن رمـــى نار المجـــوس فأطفئـــت ... وأبان وجـــه الصـــبح أبـــيض نـــيِّرا
ومـــن الـــذي بـــذل الحيـــاة رخيصـــة ... ورأى رضـــاك أعـــز شـــيء فاشـــترى
نحـــن الـــذين اســـتيقظت بأذانهـــم ... دنيـــا الخليقـــة مـــن تهاويـــل الكـــرى
نحـــن الـــذين إذا دُعـــوا لصـــلاتهم ... والحـــرب تســـقي جامهـــا أحمـــرا
جعلـــوا الوجـــوه إلى الحجـــاز وكـــبروا ... في مســـمع الكـــون العظـــيم وكـــبَّرا
محمـــود مثـــل إياز قـــام كلاهمـــا ... لـــك بالعبـــادة تائبًـــا مســـتغفرًا
العبـــد والمـــولى علـــى قـــدم التُّقـــى ... سُـــجَّدًا لوجهـــك خاشـــعين علـــى الثـــرى

***

قـــد هبـــَّت الأصنـــام مـــن بعـــد البِلـــى ... واستيقظـــت مـــن قبـــل نفـــخ الصـــور
والكعبـــة العليـــا تـــوارى أهلهـــا ... فكأنهـــم موتـــى لغيـــر نشـــور
وقوافـــل الصحـــراء ضـــلَّ حُداتهـــا ... وغـــدت منازلهـــا ظـــلال قبـــور
أنـــا مـــا حســـدت الكافريـــن وقـــد غـــدو ... فـــي أنعُـــمٍ ومواكـــبٍ وقصـــورِ
بـــل محنتـــي ألا أرى فـــي أمتـــي ... عمـــلًا تُقدمـــه صَـــدَاقَ الحُـــورِ
لـــك فـــي البريـــة حكمـــةٌ ومشيئـــةٌ ... أعيـــت مذاهبهـــا أُلـــي الألبـــابِ
إن شئـــت أجريـــت الصحـــارى أنهـــرًا ... أو شئـــت فالأنهـــارُ مـــوجُ ســـرابِ
مـــاذا دهـــى الإســـلامَ فـــي أبنائـــه ... حتـــى انطـــووا فـــي محنـــةٍ وعـــذابِ؟
فثراؤهـــم فقـــرٌ ودولـــة مجدهـــم ... فـــي الأرض نهـــبُ ثعالـــبٍ وذئـــابِ
عاقَبْتنـــا عـــدلًا فهـــب لعدونـــا ... عـــن ذنبـــه فـــي الدهـــر يـــوم عقـــاب

***

عاشـــوا بثروتنـــا وعشنـــا دونهـــم ... للمـــوت بيـــن الـــذل والإمـــلاقِ
الديـــن يحيـــا فـــي ســـعادة أهلـــه ... والكـــأس لا تَبقـــى بغيـــر السَّاقـــي
أيـــن الذيـــن بنـــار حبـــك أرســـلوا ... الأنـــوار بيـــن محافـــل العشـــاقِ؟!

سكبوا الليالي في أنين دموعهم وتوضّؤوا بمدامع الأشواق

والشمس كانت من ضياء وجوههم تُهدي الصباح طلائع الإشراق

***

ما زال قيسٌ والغرام كعهده وربوع ليلى في ربيع جمالها

وهضاب نجد في مراعيها المها وظباؤها الخفراتُ ملء جبالها

والعشق فيّاضٌ وأمة أحمد يتحفَّزُ التاريخ لاستقبالها

لو حاولت فوق السماء مكانةً رفّت على شمس الضحى بهلالها

ما بالها تلقى الجدود عواثرًا وتصدها الأيام عن آمالها؟!

***

هجْر الحبيب رمى الأحبة بالنوَّى وأصابهم بتصرُّم الآمالِ

لو قد مللنا العشق كان سبيلُنا أن نستكين إلى هوى وضلالِ

أو نصنع الأصنام ثم نبيعها حاشا الموحِّدَ أن يَذِلَّ لمالِ

أيام سلمان بنا موصولة وتُقى أويس في أذان بلال

إن الجواهر حيَّرت مرآة هذا القلب فهو على شفا البركانِ

أسمِعهُمُ يا ربِّ ما ألهمتني وأعد إليهم يقظة الإيمانِ

وأذقهم الخمر القديمةَ إنها عينُ اليقين وكوثرُ الرضوانِ

أنا أعجمي الدَّنِّ لكن خمرتي صُنع الحجاز وكرمُها الفَيْنَانِ

إن كـــان لي نغـــمُ الهنـــود ولحـــنهم   لكـــنَّ هـــذا الصـــوت مـــن عـــدنانِ

الآن يسمع النجوى، في البداية هو يناجي ربه ويُشهد النجوم والأفلاك إلى غير ذلك، يقول:

كـــلام الـــروحْ لـــلأرواحِ يسْـــرِي   وتدركـــهُ القلـــوبُ بِـــلا عنـــاءِ

هَتفْـــتُ بـــهِ فطـــارَ بِـــلا جنـــاحٍ   وشـــقَّ أنينـــهُ صـــدرَ الفضـــاءِ

ومعدِنـــهُ تُـــرابيٌّ ولكـــنْ جـــرتْ   في لفْظِـــهِ لغـــةُ الســـماءِ

لقـــدْ فاضـــتْ دمـــوعُ العشـــقِ مـــنّي   حـــديثًا كـــانَ عُلـــويَّ النـــداءِ

فحلَّـــقَ في رُبى الأفـــلاكِ حـــتى   أهـــاجَ العـــالمَ الأعلـــى بُكـــائي

تَحـــاوَرتْ النُجـــومَ وكـــلَّ صـــوتٍ   بقـــربِ العـــرشِ موصـــولُ الـــدعاءِ

وجاوبـــتِ المجـــرَّةُ عـــلَّ طيفًـــا   سَـــرى بـــينَ الكواكـــبِ في خفـــاءِ

وقـــال البـــدرُ هـــذا قلـــبُ شـــاكٍ   يواصـــلُ شـــدواهُ عنـــدَ المســـاءِ

ولمْ يعـــرفْ سِـــوىَ رضـــوانَ صـــوتي   ومـــا أحْـــرَاهُ عنـــدي بالوفـــاءِ

ألم أكُ قبـــل في جنـــات عـــدن   فـــأخرجني إلى حـــين قضـــائي

وقيـــل هـــو ابـــن آدم في غـــرور   تجـــاوز قـــدره دون ارعـــواءِ

لقـــد ســـجدت ملائكـــة كـــرامٌ   لهـــذا الخلـــق مـــن طـــين ومـــاءِ

يظـــن العلـــم في كيـــف وكـــم   وســـر العجـــز عنـــه في انطـــواءِ

وملـــئ كؤوســـه دمـــعٌ وشـــكوى   وفي أنغامـــه صـــوت الرجـــاءِ

فيـــا هـــذا لقـــد أبلغـــتَ شـــيئًا   وإن أكثـــرتَ فيـــه مـــن المـــراءِ

الآن بدأ الجواب:

عطايانـــــا سحائــــبُ مرســــلات ... ولكـــــن مـــــا وجدنـــــا السائلينـــــا

وكـــــل طريقنــــا نَــــورٌ ونُــــورٌ ... ولكـــــن مـــــا رأينـــــا السَّالكينـــــا

ولـــــم نجـــــد الجواهـــــر قابـــــلاتٍ ... ضـــياء الوحـــــي والنـــــور المبينـــــا

وكـــــان تـــــراب آدم غيـــــرَ هـــــذا ... وإن يـــــك أصلـــــه مـــــاء وطينـــــا

ولـــو صـــدقوا ومـــا في الأرض نَهْـــرٌ ... لأجرينـــــا السمـــــاء لهـــــم عيونـــــا

وأخضعنـــــا لمُلكهـــــم الثُّريـــــا ... وشيَّدنـــــا النجـــــوم لهـــــم حصونـــــا

ولكـــــن ألحـــــدوا فـــــي خيـــــر ديـــــنٍ ... بنـــــى فـــــي الشمـــــس ملـــــك الأولينـــــا

تـــــراث محمـــــدٍ قـــــد أهملـــــوه ... فعاشـــــوا فـــــي الخلائـــــق مهملينـــــا

تولـــــى هادمـــــو الأصنـــــام قُدمـــــاً ... فعـــــاد لهـــــا أولئـــــك يصنعونـــــا

أباهـــــم كـــــان إبراهيـــــم لكـــــن ... أرى أمثـــــال آزر فـــــي البنينـــــا

***

وفـــــي أسلافكـــــم كانـــــت مزايـــــا ... بكـــــل فـــــمٍ لذاكرهـــــا نشيـــــدُ

تضـــــوعُ شـــــقائقُ الصـــــحراءِ عِطْـــــرًا ... بريَّاهـــــا، وتبتســـــمُ الـــــورودُ

فهـــــلْ بقيـــــتْ محاسنُهـــــم لديكـــــم ... فيجمـــــلُ فـــــي دلالكـــــم الصُّـــــدودُ

لقـــــد هامـــــوا بخالقهـــــم فنـــــاءً ... فلـــــم يُكتـــــب لغيرهِـــــم الخلـــــودُ

وكوثـــــرُ أحمـــــد منكـــــم قريـــــبٌ ... ولكـــــنْ شوقكـــــم عنـــــه بعيـــــدُ

***

لقـــــد ذهـــــب الوفـــــاءُ فـــــلا وفـــــاءً ... وكيـــــف ينـــــالُ عهـــــدي الظَّالمينـــــا

إذا الإيمـــــانُ ضـــــاعَ فـــــلا أمـــــانٌ ... ولا دُنْيـــــا لمـــــن لـــــم يُحْـــــيِ دِينـــــا

ومَـــــنْ رَضـــــيَ الحيـــــاةَ بغـــــير ديـــــنٍ ... فقـــــد جعـــــل الفنـــــاء لهـــــا قرينـــــا

وفـــــي التوحيـــــد للْهِمَـــــم اتّحـــــادٌ ... ولـــــنْ تبنـــــوا العُـــــلا مُتفرّقينـــــا

تســـــاندتِ الكواكـــــبُ فاستقـــــرَّتْ ... ولـــــولا الجاذبِيَّـــــةُ مـــــا بقِينـــــا

ويُطيل الحديث بماذا فعلت الأمة بهذا التراث العظيم وهذا الدين الكبير، فيقول:

أتَشْكُـــو أنْ تَـــرَى الأقْـــوَامَ فَـــازُوْا بِمَجْــــدٍ لايَــــرَاهُ النَّائِمُونَــــا
مَشَـــوْا بِهُـــدَى أوَائِلِكُـــمْ وَجَــدُّوْا وَضَيَّعْتُـــمْ تُـــرَاثَ الأوَّلِيْنَــــا
أيُحْـــرَمُ عَامِـــلٌ وَرَدَ الْمَعَالِــــي ويَسْعَـــــدُ بِالرُّقِـــيِّ الْخَامِلُوْنَــــا
ألَيْـــسَ مِـــنَ الْعَدَالَـــة أنَّ أرْضِـــي يَكُـــوْنُ حَصَادُهَـــا للزَّارِعِيْنَــــا
تَجَلِّـــي النُّـــورِ فَـــوْقَ (الطُّـــوْرِ) بَـــاقٍ فَهَـــلْ بَقِـــيَ الْكَلِيْـــمُ بِطُـــوْرِ سِيْنَـــا؟

***

أرى الفقــــراءَ عُبَّــــادًا تقــــاةً قيامًــــا في المســــاجد راكعينــــا
هــــم الأبــــرارُ في صــــومٍ وفطــــرٍ وبالأســــحارِ هُــــمْ يَسْــــتَغْفِرُونا
ولــيس لكــم ســوى الفقــراء ســترٌ يــــواري عــــن عيــــوبكم العُيُــــونا
أضــــلَّت أغنيــــاءكم الملاهــــي فهــــم في ريــــبهم يــــتردَّدونا
وأهــــلُ الفقــــر مــــا زالــــوا كنــــوزًا لــــــدينِ الله ربَّ العالمينــــا

***

أرى التفكــــيرَ أدركــــهُ خمــــولٌ ولم تبــــقَ العــــزائمُ في اشــــتعال
وأصــبحَ وَعْظُكــم مــن غــير سِــحْرٍ ولا نــــورٌ يُطِــــلُّ مــــن المقــــال
وعنــد النَّــاس فلســلفةٌ وفكــرٌ ولكــن أيــن تلقــين (الغــزالي)[٣]

[٣] في الحقيقة هو ينتقد الغزالي وينتقد ابن رشد ويراهما ليسا على مثال تام في الفكر في كتابه (التجديد).

أختم ببعض الأبيات يقول:

لقـــــد ســــئم الهــــوى في البِيْــــدِ   قَــيْسٌ ومــــلَّ مــــن الشِّــكاية والعـــذابِ

ويحــــاولُ أن يُبــــاح العِشْــــقُ حـــتى   يــــرى لـــيلاه وهـــي بـــلا حجـــابِ

يريـــدُ ســـفور وجـــهِ الحُســـن لمَّـــا   رأى وجـــهَ الغـــرام بـــلا نقـــابِ

فهـــذا العهـــد أحـــرقَ كـــلَّ غـــرسٍ   مـــن الماضـــي وأغلـــقَ كـــلَّ بابِ

لقـــد أفنـــت صـــواعقُه المغـــاني   وعاشـــتْ في الجبـــال وفي الهضـــابِ

ويكفي أيها الإخوة الأحبة وأعلم أني أطلت عليكم، وأرجو أن تقرأوها قراءة المتلذِّذ وأن تتذوقوها شعرًا وفكرًا ولفظًا.

الأسئلة

- **سؤال: ذكرت في فن القراءة يجب قراءة النص بعيدًا عن قارئه، ذكر العلماء من الاساليب الشرعية للتعامل مع الشخص معرفة القائل وحمل كلامه على المعنى المناسب، هل تنطبق القاعدة الأولى على الحكم على النص؟**

الشيخ: لا بد من معرفة خريطة الكاتب لفهم كلامه على المعنى الصحيح؛ لأن هناك الكثير من الكلام لو أُفرد لاحتمل معانٍ كثيرة، لكنك حين تُرجعه إلى أصول الكلام وإلى معرفتك بالرجل وعلى مزاجه وقواعده فهمت كلامه على المعنى المراد، هذه قضية موجِبة لمعرفة القائل وكلام القائل وأن تعرف القائل في جميع كلامه، وهنا لا بد حين تقرأ رجلًا أن لا تقرأه من كتاب، أن تقرأه من جميع كتبه حتى تفهمه فهمًا صحيحًا.

لكن هذا ليس ناقضًا لمقولة أن نفرّق بين النص وقائله؛ لأن النص ينبغي أن يؤخذ إن كان حقًّا سواءً كان صاحبه هو مصدر الحق أو أنه في أغلبه مصدر الباطل، وعلينا أن لا نسمع الكلام لمجرد أن يقوله فلان أنه الحق لمجرد معرفتنا أن الرجل من الدين بمكان، وضربت لكم مثالًا لو أن رجلًا فقد خاتمًا هل يبحث عنه في مكان وجوده أم في مكان الضوء؟

تعرفون طرفة أن رجلًا فقد خاتمًا فجاء رجل وهو يبحث تحت الضوء في الليل، فقال له ماذا تفعل؟ قال: أبحث عن خاتمي، قال: أين ضاع خاتمك؟ فقال: في المكان الفلاني، فقال له: لماذا تبحث هنا؟ قال: لأن الضوء هنا!، هذه يصنعها الكثير، عليك أن لا تبحث في مكان الضوء عليك أن تبحث في مكان الفقد. وهذا المثال الذي ضربه الشيخ عبد الرحمن المعلّمي وقال: لو أن رجلًا فقد خاتمًا، فعُرِض خاتمه في يد مولاه وعرض الملك خاتمًا آخر في يد الملك، فإن يأخذ خاتمه الذي في يد المولى أم الذي في يد الملك؟ يأخذ خاتمه في يد المولى، وليس معنى تركه لخاتم الملك أنه يسبه، لكن هو يأخذ حقه، فعلينا أن نتعلم هذا، أن نبحث عن الحق، وعلينا أن ننظر إلى الحق بغض النظر عن قائله. وهذا نذكره في الإسلام وغير الإسلام، فكيف في مسائل العلم، لمجرد أن هذا العالم يقول هذا الكلام نأخذه وهذا العالم لأني أحترمه آخذ قوله!.

هذا خطأ، ومن هنا يجب التفريق بين النص وقائله.

▪ **سؤال: ذكرت يا شيخ جزاك الله خيرًا أن شعر إقبال أثر في المجتمع الهندي حتى أصبح يتغنَّى به عوام الناس، أليس لدينا في العالم العربي أو الثقافة العربية ما يشابهه؟ هل يفتقر لدينا الشعراء العرب، أم العوام العرب يفتقدون للغة الشعر؟**

الشيخ: هل في العالم العربي ما يوازي شعر إقبال؟ الجواب باختصار لا، والسبب أن هذا من قضايا إعراض الأمة عن تراثها وعن شعرها وعن أدبها، وذكر الإمام الخطيب البغدادي في كتابه (الفقيه والمتفقِّه) عن الشافعي نصًا بأن المجتهد يجب عليه أن يعرف من الشعر العربي ما يُعينه على فهم القرآن، فمعرفة الشعر جزء من الدين.

لكن لماذا أعرضنا عن الشعر والتغني به؟ وانعدم ظهور شعراء يعيشون مع الأمة بحيث يُتغنَّى بشعرهم؟ وأنا هنا أسجل نقطة مهمة أن مِن حسنات الجهاد أنه أوجد شعرًا يوازي الجهاد، وهذه الأناشيد والشعراء وإن كانت ليست بالمستوى المطلوب لكنها سدَّت مسدًا، وأحيت ناسًا يتغنون بشعر سيد قطب، يتغنون بشعر عبد الرحيم محمود: سأحمل روحي على راحتي، ويتغنون بشعر يوسف العظم، ويتغنون بشعر عبد الرحمن عشماوي، ما الذي جعل هذا الغناء يتردد في الأصداء؟ هو الجهاد، ولولا الجهاد لبقيت ميتة.

لكن هل وُجد من الشعراء ما هو في موازاة إقبال في العالم العربي؟ الجواب: لا، لأن الشعر حُورب منذ أن أطلَّ طه حسين في كتابه (الشعر الجاهلي)، حيث صار الشعر ممقوتًا ولم يُحيا ولم يحصل فيه الإبداع الكافي.

حصلت بعض الإضاءات لكنها لم تكن بمستوى الشعر الذي يوازي إقبال وهذا له أسباب تاريخية، الذي بناه وأسس أركانه الفاسدة لتذوق الشعر ولعظمته هو طه حسين.

مثلًا قصيدة (القوس العذراء) للأستاذ محمود شاكر، هذه قصيدة عظيمة، ولو كانت الأمة تتذوق الشعر لكانت هذه مفروضة في المدارس الثانوية والإعدادية يحفظها الناس ويقرؤونها والشباب يرددونها، ولكن للأسف الشعر في العالم العربي مات بسبب ما يسمى بالشعر الحر.

والشعر الحر يفقد أعظم مزية، ولا أريد أن أتكلم عن قضية المعاني ودخول الثقافة النصرانية فيه والصَّلب، ودخول المعاني الإغريقية فيه أبولو وأدونيس، أريد أن أتكلم أن الشعر الحديث أول ما حطَّم التغني، والشعر هو التَّغني، الناس يتغنَّون بالشعر، المرأة تعمل في بيتها وتتغنى بالشعر، والحادي الذي يقطع الطريق والفيافي ويُضيع الهموم عن نفسه يقرأ الشعر، لكن اليوم

يُضيعونه بالغناء الفاسد الماجن والكلمات الساقطة، واستُهزئ بالشعر كما استهزئ بالدين، وسقطت قيمة الشعر من النفوس ولم يبقَ من الشعر الجليل الجميل إلا ما أحياه المجاهدون.

وأنت تعلم أن هناك من المعاهد العلمية وهناك من المؤسسات الثقافية ما تعطي ملايين على الشعر السافل الساقط الذي لا قيمة له، ولا يهتمون ولا يقيمون قدرًا للشاعر الذي به تتغنَّى الأمة في أمجادها وتعيد صياغة ونفوسها وجيلها، وللأسف لا يوجد من يُعادل إقبال في العالم الإسلامي، وأما الحديث عن شوقي والحديث عن حافظ إبراهيم فتلك مسألة أخرى.

- **سؤال: ذُكر أن محمد إقبال كان مريضًا في حياته، وقال الكاتب أن إقبال عظيم والعظماء كثيرًا ما يمرضون فتجد العظماء عندهم خلل في الهيكل الجسمي، وقطع الغيار عندهم لا تتوفر، كالكلى والعين واليد وهذا أمر معلوم بالاستقراء والله أعلم، فهل هذا حقيقة، فالعلماء كثيرًا ما يمرضون؟**

الشيخ: نعم صحيح، لماذا لا يمرضون! اسمعوا هذه القصة واحفظوها، سأل الجاحظ عن رجل، قال: ما فلان؟ قيل: أحمق مرزوق، قال الجاحظ: هذا السعيد!. ولذلك قالت عائشة –رضي الله عنها– في الحديث الذي في الصحيحين قالت: "كان يصلي عشرة ركعات فلما حطمه الناس صار يصلي ست ركعات".

- **سؤال: لماذا علينا أن نرجع إلى علماء يخالفوننا في أمور شرعية عندما نجد العلم عند من لا يخالفنا وهم كثير، فمثلًا لماذا نأخذ اللغة العربية من الصوفي وعندنا من العلماء ما يغنينا عنه، فالخوف أن يلبِّس علينا بأمر ونتبنَّاه وهو غير صحيح؟**

الجواب: إن وُجد السُّني الذي يعلمك العلم النافع فلا تُقبل على البدعي، الكلام عندما تفترق العلوم.

وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين، وجزاكم الله خيرًا.

[٧]
مناقشة كتاب (المتعة) لشهلا الحائري

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه، والصّلاة والسلام على أشرف الخلق وسيّد المرسلين وإمام المتقّين، سيّدنا وحبيبنا وإمامنا وقائدنا محمّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإيّاكم منهم، آمين.

أهلًا بكم أيّها الإخوة الأحبّة في مناقشة الكتاب السابع من مشروع "ألف كتاب قبل الممات"، وهذا اليوم مخصّص لمناقشة كتاب الباحثة الاجتماعية شهلا حائري في كتابها (**المتعة**)، وهو مناقشة للحالة الاجتماعية لفقه زواج المتعة عند الشيعة.

نبدأ كالعادة ببعض المقدّمات في فنّ القراءة وأصولها، ثمّ إن شاء الله نعرّج على الكتاب، وخارطة الكاتبة غير معلومة. يعني أيّ باحث يريد أن يعرف من هي هذه، من الصعب عليه أن يعرف إلا من خلال ما كتبت عن نفسها وما كُتب عنها من نذر يسير من المعلومات؛ ولذلك سندخل في كتابها ومباحثه وسيكون الأمر قصيرًا، ولن يطول الأمر إن شاء الله كعادتنا معكم في الدروس السابقة حتى لا نشقّ على إخواننا.

من الأمور المهمّة جدًا في القراءة أيّها الإخوة الأحبّة -وهذه النقطة يتفرّع عنها نقاط عديدة-، **وهو أنّ القراءة عبادة**. وهذه القضيّة وهذا المبحث وهذا العنوان والشعار يجب أن يكون حقيقة، وليس مجرّد تسويق لكلمات جميلة، كما هي عادة كثير ممّن يتكلّم من أجل صناعة فكرة جديدة تُنسب إليه. هذه حقيقة يجب علينا أن نمارسها وأن ترتدّ آثارها عملًا وفقهًا ووعيًا وسلوكًا في حياتنا.

كيف نصنع من القراءة عبادة؟

تشكّلت لديّ قضيّة خلال رحلة القراءة الطويلة، فوجدتُ أنّ كلّ قراءة إن فقهتها على وجهها الصحيح ووضعتها في مكانها الملائم لها؛ علمت أنّ كلّ قراءة، كلّ كلمة، كلّ قضية، تشكّل نقطة ضوء، لها لون معين، وسمة معينة، تضيء في ذهنك وقلبك معالم. هذه النّقطة إذا اجتمعت مع النّقاط الأخرى، فإنّ كل القراءات الّتي تجنيها في حياتك، سواء كانت هذه القراءة نظرًا إلى مكتوب أو نظرًا إلى تكوين أو سماعًا لقضية أو تفكّرًا لمسألة؛ فإنّ كلّ قراءة من هذه القراءات تشكّل نقطة ضوء، بمجموع هذه

النّقاط تتشكّل لديك الكلمات الأربع وهي عماد وقوام هذا الدين، وهذه الكلمات هي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

عندما تدخل إلى مسألة من المسائل، أو تسير في الأرض لترى حكمةً من حكم التاريخ، أو تمشي في قضيّة لتشكّل لديك عبرة من العبر التي أمر الله -عزَّ وجلَّ- بالنظر فيها والاعتبار، وبنائها من أجل قضيّةٍ إيمانيةٍ، أو تدخل في كتاب من الكتب لتقرأ فيه؛ فإن لم تنقدح في ذهنك هذه النقطة الضوئية فتشتعل وتضيء، فأنت قد فشلت في القراءة ولم تحقّق المطلوب!

الواجب عليك أن تقرأ كلّ كتاب، وأن تسمع كلّ قضيّة، وأن ترد على ذهنك كلّ قصة، وأن ترى كلّ حادثة من الحوادث؛ في التاريخ، في المعاصرة، فيجب أن ترى هل أشعلت نورًا إيمانيًا في قلبك؛ شكّل معلمًا من معالم هذه الكلمات العظيمة؟ فإن شكّل لديك هذا الضوء فأنت قد أصبت المقصد الذي من أجله يقدم المسلم على القراءة. وإن لم تُضأ لديك هذه الأنوار، فأنت قد فشلت! ولم تحقّق القراءة مقاصدها من نفسك.

ونحن لا نريد أن نقول ونكرّر أهمّية القراءة والنظر، ولكن في الحقيقة حين تقرأ -ومن هنا سيتفرّع على هذه النقطة بعض النقاط الأخرى لنرى فساد الدعوة إلى القراءة الطهرية، لا يوجد شيء اسمه القراءة الطهرية-، حتّى وأنت تقرأ لأعداء الدّين، فإنّ المعالم الإيمانية تتفجّر في نفسك، عندما تقرأ للمفسدين في الأرض، وتقرأ للملحدين في الأديان، وتقرأ للمناوئين للإسلام والإيمان؛ فإنّها تضيء في قلبك أنوارً ربّما -أقول ربّما فليس دائمًا-، ربّما تضيء لديك من أنوار الإيمان ومن معالم الهدى والدين خيرًا مما تضيئه بعض القراءات في كتب المتديّنين.

ولذلك الخصوم يصنعون من الخير في نفوس المؤمنين والمجاهدين أكثر ممّا يظنّون! وهذا ذكره علماؤنا، في كتاب (مداواة النفوس) للإمام أبو محمد ابن حزم الظاهري قال: "إنّ خصومي صنعوا فيّ من الخير ما لم يصنعه غيرهم." وقال: "لولا وجود الخصوم لي ما كتبت كتابًا!" فكان وجود الخصوم له دافعًا للكتابة وللبحث ولإشراق الأنوار ولنشر الخير وحصول الاجتهاد والردّ إلى آخره.

فإذًا المخالف يصنع من القوة كما يصنع المضاد الحيوي في البدن من المناعة. المضاد الحيوي هو مادّة من نفس نوع الجرثومة الّتي تنشئ مقاومة في الجسد؛ لتصنع المناعة من هذه الجرثومة أو هذا الفيروس.

فقراءة الخصوم تصنع لديك من المنارة والثّقة بما معك من الحقّ. هذه التي قالها ابن حزم في القرن الخامس الهجري قالها ابن تيمية رحمه الله عندما جاء إلى قوله تعالى في سورة الفرقان: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} قال ابن تيمية في بعض معاني هذه الآية العظيمة: "إنّ وجود الأعداء للأنبياء هو مصدر نصرهم. ومن أجل أن ينصر الله أنبياءه أوجد أعداءه!".

إذًا وجود الأعداء هو الذي يحقّق النصر، ولولا وجود الأعداء لما تحقّق النصر، فكأنّ الحقّ يحتاج إلى عدوّه الّذي يناكفه ويثوّره ويعاديه؛ من أجل أن يظهر الحقّ وأن ينتصر.

هذان القولان لعالمين جليلين، نظر أحدهما إلى حاله فقال لنا النّصيحة الذهبية، والآخر نظر إلى آية في كتاب الله فأخرج منها مكنونًا ذهبيًا عظيمًا كما ترون. {هَادِيًا وَنَصِيرًا} فالهداية لا تتبيّن إلا بوجود العدو، والنّصر لا يتبيّن ولا يظهر ولا يكون إلّا بوجود العدو.

ولذلك لا بدّ من القراءة للأعداء، والقراءة للأعداء تصنع عبادة؛ لأنّها تقوّي. ما الذي عندكم؟ فعندما تقرأ هراءهم، فسادهم، جهالتهم؛ فإنّك تزداد ثقة بما معك من العلم، وتزداد ثقة بما معك من الهدى، وتزداد ثقة بما معك من الحقّ.

أعود لشرح القضيّة الأولى: ما من قراءة تقوم بها يا أيّها المسلم إلّا وينبغي أن تقدح في ذهنك: تسبيحًا، حمدًا، تعظيمًا، توحيدًا لله –عزَّ وجلَّ–. **عليك دائمًا أن تربط هذه القراءة الّتي بين يديك في الكتاب، التفكّر، السّماع، عليك أن تربط هذه القراءة بالله –عزَّ وجلَّ–، وكيفية تقوية هذه العلاقة مع الله وتعبّدك له،** تقوّيها من خلال ما تقرأ، حتّى لخصوم دينك! حتّى لخصوم الهدى الّذي تحمله!

وأنا دائمًا هذه الصورة أمامي، ولو استعرت بعض العبارات من الآخرين؛ لقلت لكم كأنّ القراءة لديّ أراها دائمًا. إنّني أرى كل قراءة، كأنّني أمام لوحة مكتوب فيها الأربع كلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. هذه اللّوحة كيف تشكّل هذه الكلمات؟ تشكّلها من خلال ضوء صغير.

تعرفون اللوحات الكهربائية تتشكّل من أنوار صغيرة، وهذه الأنوار الصغيرة مبثوثة، هنا نور وهنا نور، فإذا اجتمعت هذه على وفق ترتيب وهندسة متقنة، فحينئذ تنظر، فأنت بحاجة إلى هذه الكلمة؛ لتزيد جلاء هذه الصورة: سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر.

لكن أين يقع الخطأ؟ يقع الخطأ في وضع الأنوار في غير محلّها. إذا الإنسان قرأ شيئًا ولم يوجد لديه هذا المعنى أو قد وُجد ضدّه، بمعنى أنّه اختلّ معلم من معالم الإيمان في نفسه بهذه القراءة، فما السبب؟ السبب هو أنّه لم يرتّب الأنوار ترتيبًا صحيحًا. مثل لوحة تقول عنها باللغة العربية "مخرّبشة"، لوحة غير متقنة؛ فإذا أنت وضعت هذا الضوء في مكانه الصحيح؛ ازدادت هذه اللوحة ألقًا، وضوءً، ونورًا. فعليك أن تنتبه لكيفيّة ترتيبها، وهذا قلنا عنه شيئًا سابقًا في جغرافية الفكر، فهذا يخدم هذه القضيّة. فعليك أن تضعها في موضعها الصّحيح.

ما من قراءة إلّا وتخدم إيمانك! وحتّى القراءة قلت لكم المعادية للدّين تصنع دينًا، وتصنع إيمانًا، وتصنع هدايةً. كما أنّ توجّه جيش الأعداء إلى حصن من حصون المسلمين؛ يصنع إيمانًا وجهادًا وعبادةً ودعاءً وثقةً بالله ووحدةً لجموع المسلمين، فيكون وجود الأعداء سببًا في تكوير معالم الإيمان في هذه القرية أو القلعة أو الحصن.

هذه الصّورة ينبغي أن نتذكّرها دائمًا، أنّ توجّه جيش من الأعداء لحصن من حصون المسلمين يصنع الخير: ترى جموع هؤلاء الناس يتوحّدون وهذا عمل إيماني، ترى الفقراء والمساكين يدعون إلى الله –وإنّما تُنصرون وتُرزقون بالضعفاء–، ترى النّاس يحصل فيهم الشهادة يموتون هذا اصطفاء واختيار من الله، وترى الناس يبذلون أموالهم، وهكذا يكون وجود الأعداء سببًا لتثوير معالم الإيمان في هذا الحصن.

وكذلك لو توجّه كلام شرّ وكلام شيطاني إلى قلب المؤمن؛ فيكون سببًا لتثوير معالم الإيمان، يذهبون لكتاب الله للرّد عليهم، يذهبون للتاريخ يقرؤون، يستغيثون بالله، وهكذا فيحصل من هذا الفساد في الأرض من الأعداء، الخير العظيم في هذا القلب الإيمانيّ بسبب هذه القراءة.

إذًا أنت انتبه لهذا! اذهب إلى الكتاب حتّى ولو كان من أعدائك. اذهب إليه؛ ليزيد إيمانك، ليزيد أنوار كلمة سبحان الله، أن تسبّح الله وأن تحمده، وأن تؤلّهه وأن تعظّمه، هذه الكلمات الباقيات الصالحات.

في داخل كلامنا الإشارة إلى أنّه ينبغي على المسلم، حتّى لا يخاف، أن يقرأ لأعداء الله. القدماء لم يكونوا يخافون من القراءة، والدليل أنّهم كانوا يقرؤون شعر الجاهلية وفيه ما فيه، قد يكون فيه الكفر، وقد يكون فيه الإباحية كما هو شعر امرؤ القيس، وقد يكون فيه الافتخار الجاهلي، وقد يكون فيه المدح للظالم، وقد يكون فيه الدعوة إلى الظّلم، وقد يكون وقد يكون، ولكنهم يذهبون إليه؛ ليستقوا منه ما يريدون من الخير، يذهبون فينزعون منه ما يريدون من الدسم، ويتركون ما فيه من السمّ.

وبهذا لا يوجد قراءة طهرية، بمعنى أنّ الّذين يريدون الذّهاب إلى كتب التراث لتنظيفها -كما يزعمون- ممّا علق فيها، هؤلاء مخطئون. وعلينا أن نفرّق بين ما ينتج معرفةً وبين ما هو مجرد سبّ! لماذا أمرنا الله -عزَّ وجلَّ- بعدم الجلوس مع الذين يخوضون في آيات الله ويستهزؤون بها {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}، لماذا؟ لأنّه مجرّد سبّ واستهزاء. ولكن لو أنّهم أرادوا النقاش والحوار والجدال، فينبغي أن تجلس لهم وتثني ركبتك وتربط على رجليك، بأن تجادلهم وتناظرهم بالحق، وشرط هذا أن يكون معك السلاح! فلا يجوز لمن لا يحمل السلاح أن ينزل في أرض الميدان ويطلب البراز.

فالواجب على الذي ينزل إلى أرض النّزال، ويطلب الشجعان أمامه أن يكون متقوّيًا، وأن يكون مدرّبًا، وأن يكون حاملًا للأسلحة اللازمة لهذه المعركة. ولذلك نحن دعوتنا لقضية ترك القراءة الطهرية، إنّما هي للّذين يقدرون على الخوض في معتركات الرجال.

وَابنُ اللَّبُونِ، إذا ما لُزّ في قَرَنٍ لَمْ يستطعْ صولةَ البزلِ القناعيسِ

ابن اللّبون يعني الّذي أمّه درّت اللبن لابنها ونُسب لأمّه، فهذا لا يقدر لأنّه جديد، وولد صغير لا يستطيع المحاربة. "لم يستطع صولة البزل القناعيس" لا يستطيع أن يفعل كما يفعل العجائز الكبار، البزل يعني الّتي وصل عمرها عشرة فأكبر، فلا يستطيع أن ينافسها.

فلذلك ينبغي على من يخوض أن يكون متحضّرًا؛ **ومن هنا فإنّه لا يجوز لرجل أن يذهب ويقرأ كتب الملحدين وهو لا يعرف الرد عليهم؛ لا يعرف سبلهم، لا يعرف كيفيّة تحويل الإيمان إلى أفكار مرتبة ترتيبًا علميًا، والإيمان لديه ساذج.** والفطرة جيّدة لكنّها ليست متينة! والدليل قوله ﷺ: (كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرةِ، فأبواه يُهَوِّدانِه، أو يُنَصِّرانِه). إذًا الفطرة لا تملك الدفع. هل تملك الإثبات؟ نعم، لوحدها هي مسلمة، لكن لو أرادت الحرب هل تقدر؟ لا تقدر، فأبواه يهوّدانه. واحد عنده إيمان فطري ويريد أن يحارب نقول له إيمانك الفطري لا يستطيع، لا بد أن تحوّل إيمانك إلى علم صناعيّ وآلة محاربة تستطيع أن تخوض بها في غمار الحروب.

الّذين يعيشون على الفطرة لا يقدرون على الحروب، كما أنّ الرّجل من غير تدريب لا يستطيع أن يخوض الحروب العسكرية ولا المصارعات البدنية. وهكذا فالفطرة لا تستطيع، عندما يُقال فأبواه يهوّدانه، تُغيّر بمجرّد البيئة ونظام القطيع الذي يعيش فيه، أبواه يهوّدانه أو يمجّسانه أو ينصّرانه، والفطرة لا تقدر.

فنحن نقول بأنّ طالب العلم لا ينبغي أن يتوقف أمام القراءة، لا يخاف، يقرأ كلّ شيء، ولكنّه يقرأ علمًا. ومن هنا فإنّنا ننبّه إلى هذه القضيّة المنتشرة، واليوم طبعًا بفضل الله، في فترة من الفترات صارت هذه القضيّة من أسواق صراع الجاهلية، بعد فتنة ما يُسمّى سلمان رشدي ومسألة الآيات الشيطانية.

رجل من غمار النّاس لا يُعد شيئًا في الأدب الإنجليزي، سلمان رشدي هذا الرجل الهندي صاحب الأصول الإسلامية، وربّما ليست إسلامية ربّما إسماعيلية، فهذا الرجل كتب كتاب (آيات شيطانية) وبعد ذلك خرجت المظاهرات، واستغلّتها الدول من أجل التسويق، والخميني أخذها من أجل أن يتبنّى قضايا الإسلام.

بالرّغم أنّ (آيات شيطانية) يسبّ أمّهات المؤمنين، والخميني ورافضته يسبّون أمّهات المؤمنين أشدّ مما يسبّهنّ سلمان رشدي ولكنّها السّياسة. وخرجت المظاهرات، وأُحرقت نسخ الكتب، وانتشر حتّى صار هذا الرجل مشهورًا في بلاد العالم أجمع، واستقبله رئيس الولايات المتحدّة، ووُضع تحت المراقبة، وتُرجم كتابه إلى أكثر من مائتي لغة فاشتهر.

والّذين يريدون أن يدخلوا التاريخ من باب البول في ماء زمزم كُثر. سمعتم الأعرابي بال في الحجّ في ماء زمزم، أخذته الشرطة: لماذا تبول؟ قال: أريد أن أدخل التاريخ! فكثير من النّاس يريدون دخول التاريخ من هذا الباب؛ فإذًا هي قضيّة سهلة، يكتب الرجل شعرًا ممجوجًا لا قيمة له في سبّ نبيّنا أو التعريض بالقرآن، فيشتهر ويبدأ الدفاع عنه، وهناك مؤسسات حقيرة سافلة تدعو إلى قضية حرية الفكر، ويبدأ العالم بالدفاع عنه إلى آخره، وتبدأ الصحف بالحديث؛ وهكذا ليشتهر وليصبح الرجل الّذي ينبغي أن يدافع عنه كل أحرار العالم كما يزعمون. ولو تُرك لمات! لو تُرك القطا ليلًا لنام.

ولذلك ينبغي الانتباه لهذا، النّاس الذين لا يُعرفون اتركوهم، دعوهم يموتون، لا تردوا عليهم. واحد كتب قصةً لم يقرأها مائة شخص، وأنتم تعرفون اليوم هؤلاء العلمانيون، الّذين يكتبون الشعر الحرّ على قاعدة طار الفيلُ وأكلتُ الماءَ وشربتُ الخبزَ، هذا فنّ لا تستطيعون فهمه! فهؤلاء يكتبون هذا ولا يقرأ أحد كلامهم، يطبع الواحد منهم ٢٠٠ نسخة لكتابه، سواء كان قصة أو غيره لا يقرأ الناس كتبهم. هذه ٢٠٠ نسخة يعطيها مع مزيد من الشكر أن اقبلوا الهدية، ولا أحد يقرأ كلامهم. والنّاس لا يهتمّون بهم، ومن الّذي يسمع شعرهم؟ لأنّ الشعر غناء كما قلنا في درس سابق، الشعر غناء يحتاج إلى تغني، والشعر الحر هذا شعر كره! مع دخول مذاهب الحداثة وعلى قاعدة أحمد سعيد أدونيس أنّه يريد أن يفجّر اللغة يعني يدمّرها، وهو أستاذهم ومدعوم كما قلنا لكم من قبل في مجلّة شعر مدعومة من البنتاجون.

هؤلاء يموتون ولا أحد يعرفهم، يدعون إلى محاضرة فلا يأت لسماعهم أحد، يدعون إلى مجلس شعري فلا يحضر أحد، وكتبهم لا تنتشر. إذًا ما هي الطريقة؟ الطريقة هي أن يخرج ديوانًا أو قصيدة أو يخرج قصة فيها سبّ دين المسلمين وقرآنهم، فيأتي واحد والنّاس لا يقرؤونها، ما الّذي أوصلك إلى هذه القراءة؟ ما الذي عرّفهم بها؟ إذًا هي مرسومة، فيبدأ الصراخ والمسلمون يبدؤون الانتصار لدينهم. دعوه يموت! هذا لا قيمة له، ليمت غيظًا بألّا يعرفه أحد، هذا الذي يقتله. ولكن يبدأ الدخول في هذا الباب، وتبدأ المتاجرة النّاس يتاجرون فيها، انتصروا لدينكم. بل دعوه!

والقصد أنّ هذه ليست من القراءة في شيء، هذه القراءة ساقطة لا ينبغي الالتفات إليها ولا النظر فيها؛ لأنّها لا تنشئ ثقافة ولا علمًا ولا تشكّل هداية، حتّى في مذهب الجاهلية لا تشكّل عمدًا في تقويتها، ليست قيمة، رجل داخل البيت يكفر بنفسه، ليس عندنا الحكم الشرعي لنقيم عليه الأحكام ونتركه ليموت، ولا نرفع شأنه كما يحب هو؛ لأنّه هو يرغب ويشتهي أن يُعرف، فتخرج المظاهرات من أجل أن تسقطه كما يزعم.

إذًا القصد أن نقول كلّ القراءات عبادة وكلّ القراءات دينية. هذه قضيّة. ولا يوجد قراءة طهرية، هناك قراءة نافعة وهناك قراءة غير نافعة، هذا الفرق. هناك قراءة لها قيمة حتّى لو كانت من أعدائنا، وهناك قراءة مجرّد كلام لا قيمة له، سواد على بياض لا يقدّم ولا يؤخّر. هذه لا ننتبه لها ولا ننظر فيها ولا نقيم لها شأنًا في هذا الوقت.

النقطة الأخرى في قضيّة فنّ القراءة في هذا الباب اليوم، وهي أنّ هذا الكتاب وهو كتاب شهلا حائري (المتعة)، هذا الكتاب بلا شكّ يتحدّث عن وضع خطير في داخل تاريخ البشرية، وأنتم تعرفون أنّ الجنس بصراحة هو معلم من معالم حركة الإنسان. الإنسان تحرّكه شهواته، وأعظم الشهوات بالنّسبة للإنسان هو الجنس!

ولذلك لو قرأتم سورة الأعراف؛ لوجدتم أنّ سبب الفساد الّذي حصل لأبينا آدم، ثمّ نزل آدم عليه السلام إلى الأرض، فجاء التحذير من هذا الفساد الّذي يسلكه الشيطان في إدخال مبادئه الكافرة الضالّة الشيطانية في سوق الإنسان إلى مراده، وهو قضيّة الجنس (الشهوة).

الشهوة أمر خطير في تاريخ البشرية، تُسقط أناسًا وترفع آخرين، وربما تتلف بيوتًا وتتلف ممالك؛ ولذلك هذه قضيّة خطيرة، وينبغي على أهل الإسلام أن يهتمّوا بها، وأن يراعوها بشأنها الصحيح فلا يضخّموها لدرجة السرطانية التي تُهلك، ولا يغضّون الطرف عنها؛ حتّى تتفجر فسادًا وألما في حياة المجتمعات والأسر والبيوت والحضارات!

الأستاذ مصطفى صادق الرافعي –رحمه الله– يقول أنّ البشرية تسير بثلاثة أركان، وذكر منها الجنس. وقال: "البشرية تسير في بنائها لهذه الثلاث قضايا منها الجنس إحدى أعمدتها إلى بناء هرمي، حتّى تصل إلى الأعلى إلى الرأس ثم تبدأ بالانحدار." هذا توصيفه.

وقال بأنّ: "بناء الإسلام لا يبني هذه الثلاث بناءً هرميًا، بل يبنيه بناءً مربعًا أو مستطيلًا بحيث يتمّ البناء حيث لا يصل إلى نقطة السقوط".

قضيّة الجنس بالنسبة للإنسان مهمّة جدًا، والله –عزَّ وجلَّ– ركّبها في الإنسان وهي إحدى دوافع الإنسان، وهي إحدى مكوّنات الإرادة الإنسانية؛ ولذلك اهتمّ بها الشارع.

وأنتم تعلمون ما حدث ليوسف عليه السلام، وقال ﷺ: (ما تركت بعدي فتنةً، هي أضرُّ، على الرجالِ، من النساءِ). فتنة هذه الأمّة في النساء؛ ولذلك هذه قضيّة خطيرة. لا أريد أن أفصّل فيها لأنّها بنفسها تحتاج إلى حديث مستقل، ولكن أنا أدعو إلى قراءة سورة الأعراف على وفق أنّ سورة الأعراف –وهي حقيقة كذلك–، هي سيرة الإنسان في هذا الوجود وعوامل فساده ورقيّه، وما هي مداخل الفساد في قضية تحقّق التقاء الشهوات مع الشبهات؟ وما هي آلات الشبهات في وصولها إلى داخل عقل وقلب المسلم؟

ونحن نعلم أنّ ما حدث لأبينا آدم من هذه القضيّة في أنّ إبليس كشف عنه سوءته.

هذه لماذا قلتها؟ قلتها لأنّ بعض القراءات تخضع لهذا القانون، ويُكتب هذا القانون ويُحفظ: **إنّ الدرّة في بعض الأحيان لا تُلتقط إلا من العذرة.**

العذرة هي القذارة. ونحن تكلّمنا في الدرس الفائت على قضيّة أن تبحث عن الدرّة في مكان وجودها وفي مكان ضياعها لا في سهولة المكان، الآن افترض أنّ المكان عذرة فينبغي أن تذهب إليه! فحينئذ تضطرّ أن تضع يدك، وبعد ذلك تغسلها وتتنظّف، لا بدّ منها، لا بدّ أن تذهب. وهذه قضيّة يجب علينا أن نفهمها، ومن هنا فإنّ بعض المسائل لا بدّ من الذهاب إلى الكتب التي لا تحب أن تحملها ولو حملتها لاتهمّك الناس، ولو حملتها لاتهمّوك في دينك ولقالوا عنك الكثير. وأنت مضطر أن تحمل هذا، كما أنّك تريد أن تذهب فتحضر الدرّة في مكان قذر؛ لأنّها وُجدت فيه قدرًا.

ومن هنا فإنّ هذا الكتاب كما رأى إخواني، عند قراءته ربّما يشكون من حديث لا يحبّ الشباب أن يُثوّروا فيه خاصة عند غياب التفريغ. واحد لم يتزوّج مسكين كيف يقرأ! سيتورّط! المتزوّج يفعل كما حثّ النبي ﷺ: (فليأت أهله فإن معها مثل الّذي معها). خلاص تنتهي القضيّة ويرتاح الإنسان. لكن كيف يفعل الآخر؟! لذلك عليه أن يحاذر في هذا الباب.

ويحضرني في هذا كلام سيّد -رحمه الله-، وهو يتحدّث عن قصّة يوسف في القرآن، كان ممّا قاله سيّد في الظلال في قصة يوسف عليه السلام في القرآن قال: "إنّ قصّة يوسف هي حديث عن قضيّة الشهوة الإنسانية -ممّا فيها وليس كلّ ما فيها، ومما فيها هو حديث عن الشهوة-، ولكنّ القرآن ذهب إلى هذه المنطقة -هذا معنى كلامه- المثيرة ولكنّه ذهب إليها ويذهب معه القارئ فيها فلا يرجع فيها إلّا بالمعاني وليس بالشهوة."

يعني كيف أنّ القرآن تحدّث عن منطقة خطيرة، لو جاء الكلام فيها من قبل آخر لذهب إليها وعلقت به المعالم الحسّية للشهوة! "فهمّت به وهمّ بها" و"هيت لك" أي تهيّأت إليك فأقبل، فلو ذهب مع كاتب آخر لرجع نعم بالعبر، ولكن علقت به المعالم الحسّية في الرحلة. لكنّ القارئ لكتاب ربّنا يذهب مع كلام الله -عزَّ وجلَّ- في هذه الرحلة، ويعود فلا يعود إلا بالمعاني العظيمة الإيمانية. وهي تربية للّذين يريدون أن يكتبوا قصص الحياة، حتّى وهم يكتبون فعليهم أن يكتبوا بمثل هذا الرقيّ؛ بحيث يجنّبوا القارئ من أن يحمل معه المعالم الحسّية الّتي تثير الغرائز والشهوة؛ لأنّ الفكرة الشهوانية كالمرأة العارية، لا يجوز أن تتعرّى المرأة فالكاتب لا يجوز له أن يعرّيها كما أنّ النّاظر لا يجوز أن ينظر إليها. هذا كلامي وليس كلام سيّد، الأوّل هو كلام سيّد.

يعني الآن على المرء أن يكتب وهو يتحسّس ألّا يحمل كلامه إثارة لشهوة، تجلس المرأة للنظر إليها كما ينظر للمرأة العارية التي نهى الشارع عن النظر إليها.

ولذلك هذه قلتها من أجل أن نضع معلمًا من معالم القراءة، وهو أنّه يجب على القارئ أن يضع حاجزًا بينه وبين الكاتب. وهذه قلتها من قبل وأكرّرها لأهمّيتها لئلّا يبتلعك الكاتب!

ومن هنا فإنّ في قراءتك هذا الكاتب يجب عليك أن تبقى مشرفًا مطّلعًا، لا داخلًا في تيّاره سارقًا لك. هذه لا ينبغي أن تحصل لك، ينبغي أن تقرأ بوعي وأن تقرأ بنقد، وهي التي سمّيتها لكم سابقًا بالقراءة الجدلية.

يكفي إلى هنا في قضايا القراءة.

الآن جئنا إلى الكتاب، قلنا بأنّ الكاتبة شهلا حائري -كما اعترفت-، هي حفيدة المرجع الأكبر في إيران وهو الحائري. وذكرت في الكتاب أنّها علمانية، والعجيب كما رأيتم أنّ زوجها نصراني. هذه ينبغي أن تُقرأ من خلال ما لا تريد، ينبغي أن تلتفت إلى هذه الدقائق. هي ماذا قالت في بداية الكتاب؟ قالت: وأشكر زوجي والتر، فزوجها نصراني. والكثير من المسلمات اللّواتي هاجرن للغرب، تزوّجن من كفّار وعشن هناك، وبعضهن فلسف هذا الزواج للنّصارى وغيرهم. هناك كاتبة اسمها عفاف البطاينة وواضح من اسمها أنّها أردنية ربّما، وكتبت رواية في فلسفة العيش كعشيقة في ظلال الرجل الأجنبي، وبرّرت هذه الرحلة الّتي وصلت إليها في كتابها أظنّه روح الجسد أو ما شابه ذلك تقليدًا لأحلام المستغانمي في كتابها ذاكرة الجسد.

القصد أنّ هناك من المسلمات من ارتددن وذهبن، وهي في الحقيقة رافضية، ولكنّها رحلت إلى الغرب وتزوّجت من الغرب وصارت دكتورة أو بروفيسورة في علم الاجتماع. ولا نعرف عنها أكثر من هذا، وهي في هذا الكتاب لو أردنا عنوانًا لهذا الكتاب -وهذا المهمّ-، هو أن ندرس الفقه من خلال واقعه الاجتماعي. عنوان الكتاب الذي يريد المرء أن يراه وهو واقع الفقه اجتماعيًا.

يقع الخطأ في الفقه لكن كيف تكتشف الخطأ؟ ربّما لا تكتشفه فقط من خلال الدليل، ولكن قد تكتشفه من خلال مآلاته. وهذا يفسّر لنا كلام بعض أهل العلم في قولهم: "إذا عُرض لك قولان في مسألة فانظر إلى مآلاتهما". هذا الفقه إلى ماذا يؤدي؟

يعني لو أنّنا جئنا وقلنا بأنّ صلاة الجماعة سنّة، وانتشر هذا في الناس، ما الذي سيؤدي إليه هذا الفقه؟ إلى هجران المساجد وضياعها. لا! نقول واجب بالنّظر إلى المآلات وعمارة المسجد مقصد إسلامي.

وهكذا مسائل كثيرة، فيُنتبه إليها. الّذين يقولون جواز الجمع من غير حاجة على ألّا يدوم، هو يقول أعطني عبرة الدوام، فينتهي الأمر إلى أن يفعل كما يفعل الروافض يصلون فقط ثلاث صلوات وليس خمسة. **هذا ينبغي الانتباه له، وهو النظر إلى الفقه باعتبار واقعه الاجتماعي.**

والنّاس ربّما يختلفون ولكنّهم حين يرون النتائج لا يختلفون في النظر. وهذا زواج المتعة هو مسألة فقهية من مسائل الخلاف ومعالم الخلاف بين أهل السنّة والروافض. وأنتم تعرفون أيّها الإخوة الأحبّة، أنّ في متون العقائد صار بعض أهل العلم يذكر مسائل فقهية كمعلم للفرق بين السنّي والبدعي. ألم يذكر أبو جعفر الطحاوي في متن عقيدته المسح على الخفين؟ والمسح على

الخفين مسألة فقهية، ولكن لما صار المسح على الخفين معلمًا من المعالم الفارقة بين السنّي والبدعي ذُكرت؛ فإنّ الرافضيّ هو الذي يمسح على رجليه، والسنّي لا يمسح على رجليه وإنّما يمسح على الخفين.

وكذلك المتعة، زواج المتعة اليوم هو إحدى معالم الفرق بين السنيّ وبين الرافضيّ، ولهم تبريراتهم، وأنا فقط أقول لطالب العلم: إنّ أفضل كتاب في بيان أدّلة الروافض في المتعة هو كتاب هاني الفكيكي كتاب (نكاح المتعة). ردّ عليه الشيخ محمّد عبد الرحمن الأهدل في رسالة ماجستير اسمه نكاح المتعة، هذان الكتابان هما أفضل الكتب في تجسيد رأي كل مذهب. الأوّل هو هاني الفكيكي وهو عراقي، جمع كل الأدّلة التي عندهم والمزعومة عند أهل السنّة في جواز نكاح المتعة، وليس هذا المجلس من أجل الردّ عليهم فيه. وقام هذا محمد بن عبد الرحمن الأهدل بالردّ عليه في رسالة ماجستير اسمه نكاح المتعة دراسة وتحقيق أو هكذا، وهذا أفضل الكتب في الردّ رواية على هذا الكتاب؛ لأنّ الأوّل هو أكبر كتاب جامع لمذاهبهم فردّ عليه، تعقّب أحاديثه حديثًا حديثًا ودرسها وهو أفضل كتاب في هذا الباب.

ولذلك إذا أراد المرء مرجعًا فيرجع له وهو كتاب قديم رسالة ماجستير. ولما حضر الروافض بعد الثورة الإيرانية وصار ما صار، نُشرت كتبٌ كثيرة في نكاح المتعة ليست بشيء أمام هذا الكتاب.

إذًا هذا الكتاب هو دراسة اجتماعية لفقه عند أمّة ما، هذا فقه، ثمّ بعد ذلك يجب أن ننظر إليه باعتبار واقعه. لماذا يُنظر إليه باعتبار واقعه؟ لأنّنا نعلم قاعدة من قواعد البحث في المذاهب البدعية بأنّ المذاهب البدعية تتطوّر، —فلنبقى مع مذهب الروافض لا نريد أن نذهب إلى غيرهم وكل المذاهب كذلك–، عندما بدأ تشكّل مذهب الرفض وسُمّوا بالرافضة؛ لأنّهم رفضوا زيد بن علي إمامًا، لما ترضّى على الشيخين أبي بكر وعمر فقال: "رضي الله عنهما ولعن الله شاتمهما"، فقالوا: "رفضناك"؛ فتشكّل مذهب الرفض: جعفرية، اثنا عشرية، رافضية، إلى آخره. فتشكّل هذا المذهب، وعند كل إمام ينشق المذهب إلى مذاهب، إلى مذهبين أو أكثر وأقلّ شيء مذهبين. وعند كل مذهب تظهر عقيدة جديدة. ما معنى هذا الكلام؟

معنى هذا الكلام أنّ المذهب لا يملك أسًّا علميًا يُعاد إليه في القضاء على البدعة؛ لأنّ الأول فتح باب الشرّ فالثاني ولغ فيه واستخدمه من أجل هواه، **وبالتّالي معلم من معالم أهل البدع تطور البدعة**. وإذا قيل أنّ أهل السنّة يقع منهم ذلك نقول: إذا وقع فانظروا إلى الفارق بين السنيّ والبدعي.

يعني الآن جئنا لمذاهب أهل السنّة ممّن ينتسب لأهل السنة فإنّنا نجد في العقائد، إمّا أهل حديث وإمّا أشاعرة و إمّا ماتريدية. كم مذهب؟ ثلاثة في المسائل، والأشاعرة والماتريدية الفرق بينهم يسير. وكما قال بعض الباحثين قديمًا والمحقّقين: الفرق بين الأشاعرة والماتريدية يكاد يكون لفظيًا. وبين أهل الحديث الافتراق يسير.

لكن انظروا إلى الفرق بين مذاهب أهل البدعة نفسهم، الشيعة، انظر إلى الزيدية والرافضة، انظر إلى الرافضة وما انشقّ عنهم، انظر إلى الزيدية وكيف صاروا إلى مذاهب، أساس مذهب الزيدية الترضّي على الشيخين، ثمّ نشأ فيهم مذهب من الزيدية يلعن الشيخين ويسبّهم، وهكذا.

القصد بأنّ الفرقة في أهل السنة يسيرة وضعيفة، مقابل ما أحدثه أهل البدع في أنفسهم، وكفّر بعضهم بعضًا والحمد لله. فإنّ ذلك لم يحصل بين أهل السنة، لا الأشاعرة كفّروا أهل الحديث ولا أهل الحديث كفّروا الأشاعرة. وما تسمعونه من تكفير معاصر إنّما هو من جهالات العوام وليس هو صنيع العلماء، وأمّا أصل المذاهب فهذا الذي قلناه.

أريد أن أقول بأنّ المذاهب البدعية مذاهب تتطوّر وخطيرة، ومن الواجب علينا أن ننظر تطبيقاتها في واقع الأمّة، كيف طُبّقت هذه المذاهب؟ عندما تقرأ عن المتعة مثلًا كيف هي؟ وهذه سنأتي إليها في قضيّة تحوّل الفكرة إلى مؤسّسة. عندما يتحوّل الجائز، وهذه بحثها الإخوة الّذين يقرؤون معنا في الموافقات، فصّلها الشاطبي خير تفصيل، وأنّ الشيء قد يكون جائزًا في الجزء محرّمًا في الكل. ما معنى محرّما في الكلّ؟ أن يتحوّل إلى مؤسّسة في بعض معانيه -وقد ذكرناه وشرحناه-، أن يتحوّل هذا الجزء الجائز إلى حالة اجتماعية سائدة ويغلب عليها وتصبح هذه مؤسسة وراءها الأموال.

الآن أذكر لكم أمثلة كما ستبيّن لنا شهلا حائري في تحوّل المتعة إلى مؤسسة، تتحوّل إلى أموال، تتحوّل إلى جماعات، تتحول إلى بيع وتجارة، وسأضرب لكم مثالًا أنا أعرف أنّ البعض يخالف فيه، ولكن لنرى أنّ الفقه الصحيح ينبغي الحديث عن الأصل وينبغي الحديث عن تطوّره في تحوّله إلى مؤسّسة. الفتح في المصحف بدل الاستخارة، هذه من الفأل، وكما في حديث ابن مسعود عن الطيرة: (فلا يصدنّكم). لكن واحد يريد أن يتفاءل، التفاؤل من السنّة. ربما يكون الرجل ماشيًا ليقضي حاجته فيسمع أبًا يقول لابنه: يا بنيّ، امض لحاجتك، فيتفاءل الرجل. هل هذا جائز أم غير جائز؟ جائز. رجل يقول لابنه امض لحاجتك لا تتردّد، فهو يقول: هذه الله -عزَّ وجلَّ- أراد بها أن يقويني للفعل. وهذه فأل حسن، وكان النبيّ ﷺ يعجبه الفأل، حتّى إنّه يمرّ على المكان فيسأل عن اسمه فيقولون كذا فيتفاءل باسمه. هذا موجود، وما العلاقة؟ العلاقة هي الفأل فقط. وبعض

الناس يتفاءل يقول: يا شيخ افتح لي القرآن اشوف اروح أو لا أروح فيتفاءل. أنا أعلم أن كثيرًا من الفقهاء يحرّمونه لكنّني وجدت لتلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية قال له: "يا شيخ أريد أن أفتح لك في القرآن" فأذن له، قال: "وتبسّم ابن تيمية". لم ينهه، ولم يجعله على أساس بدعة. هذا أمر جائز أو غير جائز هو من باب الفأل تفعله أو لا تفعله، لكن أن يقوم مقام الاستخارة لا يجوز، أن يصبح ديدنك لا يجوز، تحوّل إلى حالة كلية.

المصيبة أنّه عند الشيعة اليوم هو حالة مؤسّسة. الملا جالس في بيته في الحسينية وعنده المصحف ومثل الطبيب مؤسّسة، تذهب عند الطبيب تقول: له رأسي يؤلمني، فيقول لك: افتح فمك، عندك التهابات خذ هاتين الحبتين وانتهى، نفس الحالة تدخل المرأة والرجل يقول له: أنا أريد أن أتاجر بخمسين ألف تومان، أريد أن أفعل كذا، يقول له: انتظر قليلًا ضع أجرة الاستشارة، يفتح المصحف، يقول المصحف كذا فيقول له اذهب.

فتحوّلت هذه الحالة إلى حالة مؤسّسة، تجارة قائم عليها صارت مذهبًا يصير الناس عليه، فحينئذ تمنعها، مع أنّنا لو قلنا هي جائزة في الجزء فهي محرمة بالكلّ. لماذا؟ لأنّها تحولت إلى مؤسّسة.

فإذًا ينبغي النظر إلى تحوّل الفكرة إلى مؤسّسة، وما أجازه الشارع في بعض صوره ربّما لو تحوّل مؤسّسة؛ لتحوّل إلى نصب واحتيال. ومن هنا خطورة تحوّل الفكرة إلى مؤسّسة وقد أراد الشارع إطلاقها، حتّى تبقى على هذا المعنى من عدم وجود نصّابين ولا وجود قطّاع طرق يستخدمون هذا الجائز من أجل أن يتحوّل إلى دين. وهذا الأمر أظنّكم تعرفونه من تحوّل كثير من الصور في مجتمعاتنا الجائزة إلى مؤسّسات يكتسبون عليها ويعملون، ومن ذلك اليوم أتكلّم عن قضية الرقية. تحوّل الرقية إلى مؤسّسة! وجالس الرجل، ومال، والناس يعملون فيها وصار الّذي يعمل فيها في بلادنا هو الّذي لا يجد عملًا، فقط عنده لحية، وتجد أنّه فاشل في كلّ شيء ولكنّه لحية فاتحة لمؤسّسة. وما شاء الله أعجب من هذا الأمر، أنّ الرقية هي بركة عظيمة، يعني رجل له تأثير ولا يشتغل فيها إلّا الضعفاء. والعجيب أنّه قلّما تجد عالمًا هو من يعمل فيها. فتحوّل ما أجازه الشارع وما مارسه الشارع مرّة على جهة من الجهات أن تتحوّل إلى مؤسّسة، هذا جلل خطب ينبغي أن ننتبه له.

ومن ذلك ما يُسمّى بمجلس الأشراف! أو نقابة الأشراف. الآن الأصل أنّ آل البيت هم تيجان الرؤوس وهم أطهر الخلق باعتبار أصلهم، وقد يكون فيهم من هو أفسد الخلق لكفره كما هو أبو جهل. ولكن أن تتحوّل هذا الأمر من التعظيم إلى

مؤسسة. يدخل في نقابة الأشراف ويشتغل فيها ويشغّل أولاده ويشغّل جماعة عنده، وهكذا يتحوّل هذا الأمر العلمي النَسَبِي إلى مؤسسة وإلى باب من أبواب الرزق والاكتساب، وسرقة أموال النّاس والضحك عليهم.

ما أقوله هنا هو ما ينطبق على ما شرحته شهلا حائري في قضية المتعة.

لو افترضنا أنّ المتعة فقه جائز في الشرع، ولا شكّ أنّنا نقول أنّ المتعة في أصل وضعها الشرعي لا في تطوّرها الاجتماعي – وهذه نقطة أنا أريد لأوّل مرّة التنبيه إليها–، حتّى أنّني رأيت بعض أهل السنّة يقع فيها دون أن يتنبّه لها، وهو أنّهم يقولون بأنّه لا يجوز أن تقولوا بأنّ المتعة زنا، وهذا كلام حقّ، ولكنّهم يخطئون في عدم فهمهم لتحوّل المتعة إلى مؤسّسة، بدل أن يكون زواجًا، ولكنّه تحوّل إلى مؤسسة ريعية فيها أموال وشغل ونصب وواضعين عمارات، عمارة فيها نسوان ورجل جالس والشيخ جالس ويأخذ أجرة العقد إلى آخره.

فهذا لما تقول أنّه دعارة، يقوم لك شيخ سنّي يقول لك: هذا لا يجوز. تقول له: لم؟ يقول: لو كانت هذه دعارة وزنا فكأنّك أجزت أن تقول بأنّ رسول الله ﷺ لما أجاز المتعة يوم أجازها في غزوة أوطاس، أنّه أجاز الزنا. سمعتم هذا الكلام أظن، بأنّه لا يجوز أن تقول بأنّ المتعة هي زنا؛ والسبب أنّ رسول الله أجازها يومًا ثم حرّمها كما في حديث عليّ –رضي الله تعالى عنه– إلى أبد الأبد كما في حديث خيبر. لكنّه أجازها لحظة فهل يجوز لك أن تقول إن رسول الله أجاز الزنا؟!

كيف يُرد عليهم؟ بأنّ المتعة في صورتها الاجتماعية الّتي يطبقونها ليست زنا بل دعارة وبغاء، وهو ما يشرحه لك هذا الكتاب.

الأصل أنّ الزّواج في كلّ صوره هو بناء بيت، هو رجل وامرأة، هذه هي صورته. حتّى عندما أجازه الشّارع فهو على هذا المعنى، ولكن حين يتحوّل إلى هذه الصورة الّتي أرادها الملالي! كما ذكرت هي، فذكرت أنّها ذهبت إلى مكان فيه الزواج ويضعون عبارة "الزّواج الغير جنسي"، وتقول بأنّ هناك الصّور وجالسين ملالي، ثمّ صار مقنّنًا والنّساء جالسات، وتُعرض الصور لمدّة ربع ساعة أو عشرة دقائق، فتحوّل هذا إلى مؤسّسة إلى ما تعلمون.

وهذا يقع في عالم المسلمين في عالم السّنّة كما ذكرنا في قضيّة الأشراف والرقية، يتحوّل كما هيئة كبار العلماء. هيئة كبار العلماء بدعة، ولما أقامها من أقامها، السلطان سليم لما دخل إلى دمشق وعيّن هيئة كبار العلماء في دمشق، قام العلماء ونبذوها

وقالوا هذه بدعة. العلم تحوّل إلى مؤسسة! ومفروضا من قبل من؟ المصيبة؟ ليس من قبل العلماء، من قبل مؤسسة أخرى مسيطرة عليها، ينبغي أن تكون مؤسّسة العلماء هي المسيطرة عليها.

القصد من هذا أريد أن أنبّه إلى قضيّة مهمة جدًا: أنّ الأشياء ببساطتها قد تكون مقبولة، لكنّها حين تتحوّل إلى مؤسّسة تتحوّل إلى صورة أخرى، إلى صورة نصب واحتيال ومساومة وتجارة على أساس غير صحيح.

الأسئلة

▪ **سؤال: المحصلة عندما نقول نكاح المتعة زنا حرام؟**

الشيخ: عندما نقول زواج المتعة لا نستطيع أن نقول أنّه زنا؛ لأنّ رسول الله ﷺ قد أجازه، ولكنّنا حين نقول أنّ المتعة اليوم هي زنا هذا جواب صحيح؛ لأنّها صارت مؤسّسة بالحالة الّتي يفعلونها وبالصورة الاجتماعية الّتي وصلت إليها.

ومن هنا فإنّ الشيء قد يُحرّم لما يؤدي إليه وقد يُحرّم لأسباب أخرى.

فالقصد لما نقول بأنّه لما أجاز رسول الله ﷺ حالة المتعة التي فعلها الصحابة يومئذ، لم يجز الزنا، نعوذ بالله أن نقول كذلك، لكن أن يتحوّل هذا الحلال إلى صور لا يستطيع الفقيه أن يسدّها، حتّى وصل إلى درجة تعدّد الأزواج كما في الكتاب! أنّه أجاز لمرأة أن تتزوج أربعة في وقت واحد بشرط ألا يمسّوها، ولكن أصدقاء من أجل أسباب أخرى!

▪ **سؤال: لم حرّمها النبيّ بعد فترة إذا ؟**

الشيخ: الشارع له هذا. نحن عبيد لله. ولا شكّ أنّ الشيء قد يجوز لحالة طارئة تمّت، فتُعالج بعد ذلك بالنهي إلى الأبد لعدم هذه الحاجة وعدم وجودها.

يعني أنا أستطيع أن أقول إذا قرأتم الكتاب، فإنّ الكتاب يغني عن أيّ شرح فيه إلّا في هذه النقاط الّتي ذكرناها. وهي أنّ الإنسان السويّ -وهذه ما تكشفها شهلا-، حين يرى قبح واقع المتعة لا يمكن أن يقبله، والدّليل إقرارها أنّ الطبقة الوسطى في إيران لا تقبل هذا الزواج. حتّى الّذين يمارسونه يخجلون منه!

وأنا أردت أن أنبّه لقضيّة مهمّة جدًا في قضيّة الزواج، وهي أنّ المشايخ الذين أجازوا بعض صور الزواج لاكتمال أركانها في صورهم دون أن ينظروا إلى الحالة الكلّية، إلى مآلاتها، وأشياء كثيرة مما يُنسب لأهل السّنّة، هؤلاء شيوخ أخطؤوا الطريق في مثل هذه الفتاوى؛ لأنّ مثل هذه القضايا العامّة الّتي تُعطى للأمّة، ينبغي أن يُنظر إليها باعتبار حتّى أسبابها، هل هي أسباب مَرَضِيَةٌ

أم هي أسباب واقعية صحيحة؟ ومن ذلك بعض الزواج الّذي لو أردت أن تقول له ما ركن خطئه؟ تقول ركن خطئه هو أنّه لا يمكن تطبيقه على صفة عامّة إلّا وأحدث الفساد في الأرض.

مثل الذين يجيزون مثلًا الزواج بنيّة الطلاق! هل هؤلاء نظروا إلى مآلاته، ثمّ لو عُرض هذا الأمر على فطرهم في تطبيقه على بناتهم ماذا سيفعلون؟ لو علموا أنّ رجلًا جاء ليتزوج من بلدهم، طبعًا هم ربّما يجيزونه؛ لأنّ أبنائهم يسافرون ولا يُسافر إليهم، ولأنّهم أولاد أغنياء وليس العكس، ولكنّنا حين نراه يُطبّق في البيئات الفقيرة ويصل لهذه الدرجة، هذا لا فرق بينه وبين المتعة.

الآن ألا تعلمون من كلام أهل العلم: لو أنّ رجلًا كان في بلدة جرى فيها الرّبا على وفق عرف غير مكتوب وغير مذكور. لما قال له: أنت تذهب إلى بيئة أو إلى بلدة يكثر فيها الرّبا، فقال له: الرّبا الذي ينتشر في تلك القرية أنّ رجلًا يطلب من آخر خمسين دولارا دينًا، فيرجع له ستين دينارً، العرف قد جرى أنّ خمسين بستين! هذا الفعل هل فعله رسول الله ﷺ؟ بأن أمر بلال أن يعطي اليهودي كيله وزيادة عليه؟ جاز، ولكن لما جرى مجرى العرف العام صار كأنّه هو مشروط في العقد، فالمعروف عرفًا كالمشروط شرطًا. وبالتّالي ينبغي النظر إلى ما هو معروف، لما رجل يعرفون أنّه أتى ليتزوج ويطلّق، يعني القضيّة معروفة، أتى ليتزوّجها أسبوعا ثمّ يطلّقها. صحيح ليس مذكورًا في العقد أنّه متعة ولكنّه معروف عرفًا. والعرف قد لا يُذكر ويقول لا ليس هذا عرف! لا، هو عرف جاري، وينبغي على الفقيه أن ينتبه له. والّذي نعيبه على الآخرين ينبغي ألّا نقع فيه!

وقعت الكاتبة في بعض الأغاليط، منها أنّ عمر حرّم المتعة، هذا هو المنتشر عند الشيعة أنّ عمر هو الّذي حرّمها، وهذا كذب؛ فعمر لم يحرّم المتعة وإنّما عمر حرّم متعة الحجّ! وعامّة أكاذيب الشيعة في حلّ المتعة يخلطون بين متعة الحجّ ومتعة النكاح. فكلّ كلمة ليس فيها متعة النكاح يستدلون بها، وإنّما هي متعة الحج. متعة الحجّ منعها عمر لأسباب يُرجع إليها، ليس هذا مكان شرحها. وهذا ممّا كشفه محمد عبد الرحمن الأهدل في كتابه نكاح المتعة في أغاليط الشيعة في هذا الباب.

وتقرّر هي بأنّ الطبقة الوسطى لا تعطي بناتها بهذا الزواج ولا تقبله، وأغرب ما في الكتاب وأقبح ما في الكتاب أن أعمّ وأشمل وأكثر من يمارس هذا الزواج هم من؟ الملالي. وهي صورة قبيحة قذرة تنفّر من الإسلام، وتنفّر من دينهم ودينهم باطل، ولكنّها في الحقيقة كاشفة لمثل هذا الواقع الذي مكان الصيد فيه هو المسجد! مكان صيد الساقطين فيه هو المسجد، ولهم إشارات، ولهم قضايا لا أريد أن أخوض فيها، أنتم اقرؤوا الكتاب ستجدون الكثير من هذا.

بهذا أختم لكم الحديث عمّا عندي والآن أترك الكلام لكم جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم لوعدي ألّا أطيل عليكم.

- **سؤال: ما هو كتاب الأسبوع القادم؟**

الشيخ: كتاب الأسبوع القادم هو كتاب لغوستاف لوبون وهو (سيكولوجية الجماهير) أو علم نفس الجماهير كما ترجمه بعض المترجمين، وترجمة هاشم صالح سيكولوجية الجماهير وأظنّ جورج طرابيشي ترجمه بعلم نفس الجماهير، فالكتاب له نسختان ولا بأس، هذه نسخة وهذه نسخة كلاهما يتقن اللغة الفرنسية إتقانًا جيّدًا، سواء جورج طرابيشي أو هاشم صالح.

وهاشم صالح أصله من الباطنية، وهو التّلميذ النجيب لمحمّد أركون، ترجم كتبه وهو باطني، وجد محمد أركون يخدمه في فكره، المهمّ ترجم كتاب سيكولوجية الجماهير لغوستاف لوبون.

وكنت أحبّ، ولكن أخاف أن يزيد عليكم أن يُقرأ معه، ولكن سنفرد له قراءة خاصّة، ولكن ليتكم تراجعوا مراجعة سريعة مع سيكولوجية الجماهير لغوستاف لوبون، كتاب (الأمير) لميكافيلي؛ لأنّ كتاب (الأمير) فيه حديث كبير وكثير ومهمّ عن الجماهير، وعن الغوغاء، والمقصود بالغوغاء هم الجماهير.

وانتبهوا إلى هذه الكلمة أنا الآن مستعجل بها ولكنّها مهمة: فإنّ ما يُشاع عن كتاب ميكافيلي (الغاية تبرّر الوسيلة) لإسقاط هذا الكتاب، معهم حقّ، ولكنّ هذا الشعار يذهب الكثير من فوائد الكتاب. يعني الّذي يقرأ كتاب (الأمير) لميكافيلي يجد أمورًا كثيرة يحتاجها، كما يحتاج في سيكولوجية الجماهير. ولكن لأنّ الأمير، ميكافيلي الوزير وضعه للحاكم الإيطالي من أجل أن يُرضخ الشعب فأخذ السّمة القبيحة، وإلّا ففيه مقرّرات فلسفية ونفسية مهمّة للإنسان أن يفهمها وأن يستخدمها استخدام المحقّ لها لا المبطل. فقط هذه الجملة وسنشرحها عند بابها.

- **سؤال: هل قراءة الإنجيل تُقاس على كتب الأعداء؟**

الشيخ: في الحقيقة يمكن قرأته أكثر من ثلاثين أو أربعين مرّة، من أجل دراسته، الإنجيل والتوراة، ولكن الإنجيل قرأته أكثر للضرورة. ولكن ما أنصحكم بقراءته! ما تضيّعوا وقتكم. يعني إذا اضطررت لقراءته لمسألة علمية ما فلا بأس، أمّا أن تقرأه لتستفيد ما فيه شيء. الإنجيل ما فيه شيء، أنا قرأته لأسباب. فأنا أنصح الطّالب إن لم يكن يريد قراءة الإنجيل لأسباب –طبعًا الإنجيل والتوراة الّذي يسمونه الكتاب المقدس وليس كذلك، والعهد القديم المقصود به التوراة وما فيها والعهد الجديد–، وليس فيه شيء.

- **سؤال: يعني كتاب (المتعة) نستفيد منه ولكن الإنجيل لا؟**

الشيخ: أكثر بلا شكّ!

- **سؤال: يا شيخ هل ردّ السلام على الشرطة والأمن واجب؟**

الشيخ: العلماء اختلفوا في الردّ على الكافر. يعني أوّل شيء ابتداء السّلام عليهم لا يجوز. أما ردّ السلام فاختلف أهل العلم والصواب الوجوب، أنّه من سلّم عليك كائنًا من كان تردّ عليه السلام لقوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}، أمّا قوله ﷺ لليهود السّام والسّاء عليكم هو لقولهم السّام. هذا هو الصواب وفي حديث النبي لعائشة أما ترين أنّي رددت عليهم. الحديث.

- **سؤال: وماذا عن الزواج العرفي الموجود في مصر؟**

الشيخ: الزواج العرفي الموجود في مصر، وربّما ينتقل إلى بلاد أخرى لأسباب وتقييدات يضعها الطواغيت في الزّواج كالعمر وما شابه ذلك فيهربون. فالعبرة كما قلت لكم بالنّظر إلى واقعه، النبيّ ﷺ لم حرّم بعض البيوع؟ قال ﷺ رأيت أنّها تفعل كذا وكذا، يعني حرّم البيوع لكثرة ما حصل فيها من خصومات، مثل قضيّة بيع ما لا يملك. هذا لأنّ النبيّ ﷺ قال وجدت أنّ خصوماتكم تدور عليه، معنى كلامه ﷺ. وأنّ عامة خصومات النّاس في البيوع تدور على هذا فحرّمه.

والحقّ أنّ الزّواج العرفي فيه خصومات كثيرة وفيه مظالم كثيرة، فلو مُنع لحسن. ولكن في منعه قد نضطرّ النّاس الذهاب إلى قبول ما وُضع من شروط على الزّواج الشرعي من قبل المحاكم الشرعية، وهكذا يُعالج المرض بالمرض! والصواب لا يُعالج المرض إلا بالحقّ، أن يعود الناس إلى الزّواج الشرعي بشروطه الشرعية، ورفع القيود الّتي يضعها الأعداء استجابة للمنظمات الدولية: من قضيّة عدم زواج الصغيرة، أو ممنوع الزواج بثانية إلا برضا الأولى! كما قال أوّل من وضعه بورقيبة –عليه من الله ما يستحق–، وسرى في بلاد المسلمين، وهذه شروط باطلة!

ولذلك من أجل هذه الشروط يذهب الناس لإحداث العلاج، فيقعوا في الأخطاء كما أنّ هناك خطئًا فيُعالج بالخطأ! والصواب أنّ الّذي يحلّ المشاكل هو الدين.

وكلّ هذا من العقوبات الربّانية علينا لترك الشّريعة! عقوبات ربّانية علينا بسبب قوانين الجاهلية الّتي سكتنا عنها حتّى دخلت في بيوتنا ومع أزواجنا ومع بناتنا ومع أولادنا.

▪ سؤال: ما هو الضّرر المترتّب على وجود هيئة كبار العلماء؟

الشيخ: أكبر ضرر هو وجود مؤسسة تقيّم العلماء من خلال منهج غير إسلاميّ؛ لأنّ الأصل أن يدخل المرء المؤسّسة العلمية من خلال المؤسّسة ومن خلال واقعه وقوّة دليله.

كيف النّاس يعرفون بأنّ هذا عالم وهذا جاهل؟ النّاس لهم أحاسيس، كما أنّ النّاس يتذوّقون الكلام الحسن، الله وضع في فطرهم تذوّق كلام من هو العالم ومن هو الجاهل. وقد يأتي الرجل فيخدع بعض النّاس بعض الوقت، ولكن لا يستطيع أن يخدع كل الأمّة كل الوقت. هذا معروف.

فلذلك ينبغي أن تترك سمة العالم إلى تقديرات الناس، وتقديرات مؤسّسة العلم نفسها، كما قال مالك: "ما أفتيت حتى أذن لي كذا وكذا عالم". فهناك مؤسّسة علمية موجودة النّاس يعرفونها. والعلماء يقرّونه. من الّذي شهد لك؟ يقول فلان شهد لي، فلان كذا. من الذي زكّى فلان؟ زكّاه فلان، وشهد له، تكلّم بكلام فأعجب العالم الفلانيّ وقال: هذا كلام العلماء. فتبقى هذه مؤسّسة مفتوحة بتقرير العلم نفسه وأهله، وبتقرير ذوق النّاس المسلمين لهم وأحكامهم عليه.

المصيبة أنّ هذه مؤسسة مفروضة على شكل ما فُرض من قوانين، بقولهم لا يجوز الفتوى في أمور العامّة إلّا للمؤسّسة الدينيّة. هذا من الشرّ، هذا ضلال وانحراف، هذا مخالف لدين الله شاؤوا أم أبوا! على المرء أن يقول إنّ الطفل في الإسلام يردّ على شيخ الإسلام، فالعبرة بالدليل.

فقولنا هذه هيئة كبار العلماء ما الّذي فرضها؟ أهي مؤسّسة علمية فرضت نفسها؟ أم أنّها مؤسّسة حكومية فرضت هذا الاسم.

هذا أدنى ما يُقال في الأمر، والدّليل أنّنا نجد الشيخ فيهم والعالم فيهم يفتي بمسألة على خلاف ما وضع الحاكم، فيُطرد من المؤسسة! يقول كبار علماء، بمعنى أنّك اعترفت أنّه عالم، فلمّا خالفك يخرج عن مسمّى العلم؟! هذا ميزان العلم هو مخالفة الحاكم؟! وهكذا فهذا ضلال وانحراف ولا يجوز، وحتّى لا يجوز لأبي بكر الصدّيق أن يقول هؤلاء هيئة كبار العلماء، فلان عالم وفلان غير عالم إلّا إذا كان عالمًا وهو كذلك. ولذلك كان يقول عمر –رضي الله عنه– من أراد المال فليأتني، ومن أراد الفرائض فليأتي زيد، ومن أراد القرآن فليأتي أبيّ، ومن أراد الفقه فليأتي ابن مسعود، ومن أراد المال فليأتني هذا من قبيل تواضعه. لأهل الحقّ في ذلك كحكّام؟ لا. هل عمر له الحقّ باعتباره حاكمًا أن يقول هذا الكلام؟ الجواب: لا، بل عمر يقوله باعتباره عالما،

باعتباره ناصحا لأمّته، ولو خالفه الناس لما عاقبهم على مخالفته. واحد لم يذهب إلى من أشار إليهم وذهب إلى غيرهم لأنّه رآهم أعلم لو افترضنا، فلا يجوز أن يعاقبه.

فوجود مؤسّسات دينية مفروضة من قبل الحاكم حتّى لو كان مسلمًا، فكيف إذا كان مرتدًّا؟! هذا لا يجوز، هذا مفسد، هذا ضلال وانحراف. مؤسّسة العلم هي أعظم مؤسّسة في تاريخ أمّتنا، وهي الحاكمة على تصرّفات البشر جميعًا حتى على الحاكم. فمصيبة أنّها صارت خاضعة لأهل الأهواء. هذا أوّل الشرّ أما الشّرور كثيرة. هذا يفسد أصلها، وأما المفاسد فكثيرة جدًا.

- **سؤال: هل الشيعة تطوّروا في أصول بدعتهم حتى لم يبق عندهم كفر فوق ما هم عليه من الكفر؟**

الشيخ: الجواب هو قول أحدهم: "إنّ ما كان غلوًا عند أئمتنا صار من ضرورات مذهبنا". تصوّر ما كان غلوّا وكفرا يقولون ما يعني كفر، كما كانوا يكفرون النصيّريّن، لكن صار النصيّريّون إخوانهم وأوليائهم. ما السبب؟ هو أنّه لما حكم الصفويون إيران وقضوا على أهل السنّة، قتلوا العلماء وأغلقوا مدارس السنّة وفعلوا وفعلوا، ولاحقوا المسلمين، فإنّهم احتاجوا إلى علماء شيعة من أجل أن يملؤوا الفراغ. أحضروا من؟ أحضروا النصيريين؛ فعلّم النصيريون أهل فارس الدين النصيري تحت شعار الدّين الاثنا عشري. ومن هنا نشأت هذه العبارة: ما كان غلوًا عند أئمتنا صار من ضروريات مذهبنا.

ولذلك هل بقي كفر لم يصلوا إليه؟ إذا كان القرآن، والسنّة، والصّحابة، وأمّهات المؤمنين، انظر إلى الأركان المضروبة! القرآن، والسنة، الصحابة الواسطة، أمّهات المؤمنين، الرموز، فقضوا على أركان الدين!

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم وحيّاكم الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[٨]

مناقشة كتاب (سيكولوجية الجماهير) لغوستاف لوبون

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين، سيدنا وحبيبنا وإمامنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عز وجل- وإياكم منهم، آمين.

هذا هو اللقاء لدراسة الكتاب السابع من مشروع الألف كتاب قبل الممات. واليوم الكتاب المختار والذي نحن بصدده هو كتاب (**سيكولوجية الجماهير**) أو (علم نفس الجماهير) لكاتبه عالم النفس الفرنسي **غوستاف لوبون**. وكالعادة نبدأ بمحور القراءة؛ أردت أن أتكلم اليوم عن جنايات القراءة وهذا فصل غريب، أن يكون للقراءة جنايات وضحايا، وهذا فصل قصير من كتابي (فن القراءة) ابتدأته بقولي: "هو فصل إن قُلت هو كالجد أشبه بالهزل، أو هو هزل أشبه بالجد، فيُمكن أن تُطبِّق عليه ما شئت".

فإن الكثير من الناس فقدوا زوجاتهم بسبب القراءة! فإما أن يُضيِّع ماله، أو هي تراه قد ضيَّع وقته فهي تطلب الطلاق، وربما تحرق المكتبة كما وقع لبعضهم. وربما الكتب تسقط عليه فتقتله كما فعلت مع الجاحظ كما يُذكر في سبب وفاته. وإما أن القراءة تقتله كما قتلت إمامنا وإمام المؤمنين في الحديث وهو الإمام مسلم. المعروف أن هذا الإمام مات بسبب أنه روجع في حديث فأراد أن يرجع إليه في كُتُبه، فذهب من المسجد بعد العشاء إلى البيت، وقال للخادم أوقد السراج وأحضر شيئًا من التمر، فجعل يُقلِّب الأجزاء الحديثية ويقلّب الاختيارات والمباحث ويأكل من التمر، فما جاءت عليه صلاة الفجر حتى مات وهو لا يدري أنه يأكل لانشغاله بالفكرة عن الجسد.

وهذا ما سنقرؤه لابن حزم أن الوعي يبدأ بانعتاق الفكر عن الجسد. فلا أريد أن أتحدث عن هذا ونؤجل البحث فيه -أي في مبحث جنايات القراءة- إلى لقاء قادم -إن شاء الله-.

ولكني أقتصر الحديث اليوم على قراءة لابن حزم في أمر يتعلق بنا في معرفتنا، وفي تصورنا كيفية بناء العالم نفسه؛ لأن هذه القضية اليوم تعاني من ضعف وجهل.

كيف تكوّن الإمام الشافعي؟ كيف تكوّن الإمام أحمد؟ وبالتالي إذا علمت كيف تكوّن ابن حزم، وإذا علمت كيفية تكوّنهم في قراءاتهم وفي اطلاعهم استطعت أن توازي بينك وبينهم.

لأننا أمام جهّال في هذا الزمان. وهؤلاء الجهّال يظنون أنه بمجرد أن يراجع كلمة لعالم قد ملكها، صارت ملكًا له فهو يستطيع أن يُشكّلها ردًا، قبولًا، تطويرًا، كما يريد. وهو لا يعرف كيفية صناعة هذه الكلمة.

وأنا أكرر أن هناك نظرية منتشرة بين المسلمين وخاصة شباب الإنترنت والذين يسمونهم بـ"العلماء" جهلًا، وإذا جلست إليهم عرفتهم أنهم أشبه بأبي جهل منهم بطلبة العلم!. وهم فقط ينقلون ويظنون أنهم يملكون هذا العلم وقد صاروا رجاله وأهله، وعندهم القدرة على التمييز والانتقاء، إلى غير ذلك.

فإذا علمنا كيفية صناعة العالم وما الذي قرأه هذا العالم ليُنتج هذا العلم وضعنا أنفسنا بميزان صحيح.

نظرية "الصنبور" يا إخوة وهي لو تصورنا بدويًا نزل إلى المدينة ورأى أن الناس في المدينة يفتحون الصنبور فيُخرج ماءً. هو ظن أن الأمر سهل فقال أين تُشترى هذه؟ فدلّوه على محل سباكة فاشترى وأخذها إلى صحرائه وجعل يُلصق الصنابير في بيت الشعر. هو نصب الصنابير وبالتالي يظن أن الماء خرج منها باعتبار أن العلة في وجود الماء هي الصنبور وهو الآن موجود. هو لا يعرف ما الذي جرى وراء الصنبور، ما هي التمديدات التي تعب الناس في مدّها، كيف يصل الماء إليك، من التمديدات والحفر في الأرض ومضخّات المياه الكبيرة، إلى غير ذلك. لا يعرف كيف حصل هذا الماء، كيف تجمّع في السدود، كيف بنى الناس السدود، كيف نقّبوا في الأرض مئات الأمتار حتى استخرجوا المياه الجوفية، وكيف أحضروا جبال الجليد من القطب الجنوبي حتى جاؤوا فأذابوه. هو لا يعرف هذا، هو يظن أن الصنبور أخرج الماء.

واليوم جَهَلتُنا من مشايخ الإنترنت والشباب الجديد يؤمنون بالصنبور فقط؛ يظن أنه إذا أخذ الكتاب ملك العلم، ولا يعرف كيفية إنتاج هذا العلم. وبالتالي هو يوازي نفسه، في لحظة من اللحظات الوهم والجهل يركب على حجر ويظنه حصانًا، ويركب على مِكنسة البيت ويضربها لتطير بها. هو يعيش الوهم! وإذا قرأ كلمة ففهمها ظنّ أنه وصل إلى مرتبة ابن حزم.

وأنا أردت أن أقرأ لكم نصًا لابن حزم؛ لأن العلماء الأوائل للأسف ما ذكروا لنا هذا الأمر كثيرًا عن أنفسهم، كانوا يسترون أنفسهم، وإنما يُذكر في كثير طلب العلم والرحلة إلى آخره؛ ولذلك اليوم يأتي المعاصر فيقرأ كلمة لعالم ينتقد فيها الشافعي فيقول:

ما شاء الله علماء اليوم أقوى من الشافعي! الناس نظروا إلى الصنبور؛ الرجل يتكلم ما شاء الله ويحسن الكلام، والكلام هو العلم، فهو ابن تيمية هذا العصر، هو شافعي هذا العصر. وهو لا يدري أنه يُخرج هواءً، لكنه الوهم!

لذلك أردت أن أقرأ لكم نصوصًا قليلة لابن حزم -رحمه الله- في قضيتين: القضية الأولى تتعلق فيما قاله في سبيل معرفة الأدوات التي أنتجت الماء في الصنبور؛ كيف أُنتجت علوم هؤلاء العلماء، ونوازي بيننا وبينهم، هل قرأنا هذه القراءة؟ لما يأتي شيخ ويقول للناس اقرؤوا، يقولون: لماذا نقرأ؟ لماذا نقرأ (سيكولوجية الجماهير) هل هي ضرورية ليكون مفتيًا؟ يكفي أن أنظر في كتاب في الأحاديث ماذا قال الشيخ فلان في الحديث إذًا أقول بالفتوى وانتهى الموضوع.

ولذلك نقرأ لابن حزم في كلامه على كيفية نظرته لإنتاج العلوم ثم نقرأ -وهذا باب أؤجله كما أجلت فصل جنايات القراءة- وهو طقوس القراءة، وهذه الطقوس تختلف عند العلماء؛ يعني بعض العلماء إذا كتب يحتاج إلى طقوس خاصة وإلا لا يعرف الكتابة. يذكر مثلًا محمد سعيد العريان عن الرافعي في كتابه (حياة الرافعي) أنه إذا أراد أن يكتب دخل غرفته الصغيرة وأغلق على نفسه والحر شديد ولا يريد أن يسمع شيئًا، ويبدأ يكتب.

هناك طقوس بيئية ظاهرية وهناك طقوس نفسية، وهذه نؤجلها لمبحث قادم.

ولكن أنا أريد أن أقرأ لكم نصًا لابن حزم، وأريد أن أقرأ لكم في فهم كيفية التعبد. نحن قلنا إن القراءة عبادة، ولا بد أن نعرف كيفية القراءة، فأقرأ لكم نصوصًا تحتاجونها.

وأنا اخترت لكم كلام ابن حزم؛ لأن كثيرًا من الناس يحبونه فيظنون أن ابن حزم لما طَعَن فيمن طعن من العلماء فيستطيع هؤلاء الجهلة أن يطعنوا مثله في العلماء، ولا يدرون تركيب هذا الإمام.

واليوم المبحث كبير ومتشعّب، ولكن سأحاول لملمة الموضوع ملائمة للوقت.

يقول ابن حزم في رسائله: "إن الوقوف على الحقائق لا يكون إلا بشدة البحث، وشدة البحث لا تكون إلا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال، والنظر في طبائع الأشياء، وسماع حجة كل محتج، والنظر فيها وتفتيشها، والإشراف على الديانات والآراء والنحل والمذاهب والاختيارات، واختلاف الناس، وقراءة كتبهم؛ فمن ذمّ من الجهّال ما ذَكَرنا فليعلم أنه خالف ربَّه تعالى؛ فقد أعلمنا -عزَّ وجلَّ- في كتابه المنزّل أقوال المختلفين من أهل الجحد القائلين بأن العالم لم يَزَل من أهل الثنوية ومن أهل التثليث ومن الملحدين، في صفة كل ذلك ليُرينا تعالى تناقضهم وفساد أقوالهم.

ولا بد له من الاطلاع على القرآن ومعانيه ورُتب ألفاظه وأحكامه، وحديث النبي ﷺ وسِيَره الجامعة لجميع الفضائل المحمودة في الدنيا والموصلة إلى خير الآخرة.

ولا بد مع ذلك من مطالعة الأخبار القديمة والحديثة، والإشراف على أقسام البلاد ومعرفة الهيئة –أي الفلك–، والوقوف على اللغة".

هذا النص يُريكم رحلة الإمام ليقول ما قاله من كلام، ثم انظروا ماذا يُقرأ اليوم وما هي حال الناس!

وهذا النص في الحقيقة ينبغي أن يُقرأ مرة ومرة ومرة.

الآن هو يتكلم فقط عن قضية كيفية القراءة.

يقول: "إنه كلما انفردت النفس وتخلّت عن الجسد أدركت غوامض الأشياء"؛ الانعتاق من الشهوة، الانعتاق من الجسد والرحلة في داخل العقل هي التي تُحقِّق المعرفة الصحيحة.

ويقول: "إن قوة البصر الباطن ونوره بحسب بُعده عن الشهوات التي هي تكدّره وتطمس عليه وتحجبه عن الاتصال بمادته، ومادته عِلم الله الأعلى الذي يمدُّ به من يشاء"؛ هذا لأن القراءة كما قلنا عبادة، والإنسان لما يدخل الصلاة ينبغي أن يتخلَّى عن الشهوات، ولما يدخل الصيام ينبغي أن يتخلى عن الشهوات، كذلك لما يدخل إلى القراءة والنظر ينبغي أن يتخلى عن الشهوات.

في كل القراءات التي ذكرها لا بد من البصر الباطن بالُبعد عن الشهوات وهذا مُتعلِّق بالمدد الإلهي، والمدد الإلهي لا يحصل إلا بالبعد والانعتاق عن الجسد، ويُصرّح بهذا يقول: "إن المرء إذا فكَّر في شيء فإنه كلما تخلّى عن الجسد كان أصحّ لفهمه وأقوى لإدراكه".

يكفينا إلى هنا لأن الكتاب واسع والبحث فيه طويل وعريض.

الآن نتكلم عن هذا الكتاب وهو (**سيكولوجية الجماهير**). ماذا نريد نحن أن نُقدِّم إسلاميًا في هذا المبحث؟ هل نحن بحاجة لقراءة الآخر من أجل أن نعرف كيفية التعامل مع الناس؟ أم أن في ديننا الكفاية؟

المرء إما أن يُنتج إنتاجه المعرفي العلمي من خلال النص. وأنا أتكلم لكم عن تجربة، إذا أردت أن تبحث قضية ربما تتفجَّر هذه القضية في نفسك من خلال النص؛ وأنت تقرأ القرآن فتخرج معك هداياته وأنواره في قضية من القضايا التي تشغلك، وهذه قضية غالبة. وأنت تقرأ السنة تهديك وأنت تتفكَّر فيها تهديك إلى المعاني. وهذه الطريقة الأولى.

هناك طريقة ثانية أن التجربة تؤدي بك إلى هذه المعاني، فأنت تبحث عنها في الكتاب والسنة. بمعنى أن الفكرة تستقر لديك من خلال التجربة والملاحظة والاستقراء والنظر، فتُصبح لديك مَعْلَمًا علميًا لأنها ظاهرة متكررة وليس فقط لمجرد أنها نزوة. فأنت تبحث عن هذه القضية في الكتاب والسنة، وحينئذ يشترك عندك في أدلة هذا الأمر ما حصل لديك من التجربة والنظر والبحث والملاحظة في كتاب الله.

والطريقة الأولى طريقة عليها الكثير في هذه القضايا، ما يتعلق بقضية السلوك والحركة، لا نتكلم عن الفقه، نتكلم عن السلوك والحركة وإدراك السنن الإلهية في الاجتماع، والسنن الإلهية في الوجود.

وكثير من الناس يظن أن هذا هو المسلك القرآني. يعني أنت إذا ذهبت إلى جماعات إسلامية هم يحتجّون بالكتاب، ويظنون أن الكتاب يُقرِّر هذا المعنى؛ لأنهم يقرؤون الكتاب قراءة الأماني {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ} يقرؤونه قراءة غير علمية وغير واعية. وهذا موجود.

أضرب لكم مثالًا: هذا الخطيب الذي يخرج للناس، هذا الشيخ الذي يتكلم، وهذا المحرِّض الذي يتصوَّر أن الكفار لا يقاتلون المسلمين إلا من وراء جُدُر. هذا رجل يقرأ القرآن ويستخرج منه فيما يظن أن قاعدة القتال مع الكافرين: أن الكافرين {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ}. ويفسر هذا على أن هذه قاعدة الحياة في القتال بين المؤمنين وبين الكافرين. وهو لا يلتفت إلى قوله تعالى: {ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ} وهذه صورة من صور القتال. فلو جاء رجل آخر ناظر لكتاب الله إلى هذه الآية لوجد أن قانون القتال بين المسلمين وبين الكافرين هو فقط مجرد أن تدخل عليهم وتحصل الهزيمة.

والآخر يأتي إلى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا} لا وراء جدر ولا في قرى محصَّنة، هم يزحفون إلينا!

إذًا هذه القراءات هي قراءات غير سديدة؛ لأنها تُعمِّم الحالة. وفي الأصول: "الفعل لا عموم له"؛ العموم إنما هو في اللفظ، لا يكون العموم في الأحداث ولا في الأحوال.

القصد أن هذه قراءة خطيرة، والناس كثيرًا ما يزعمون أن القرآن يُقرِّر هذا المعنى وهو على معنى الإطباق. ما معنى الإطباق؟ أنهم يظنون أن هذه الحالة هي حالة الزمن المتجددِ والمتكرِّر، لا تتخلف. وحينئذ ينظر إلى الواقع فلا يجد هذا! فهذا مثال.

وكذلك الآخر الذي تحصل لديه الفكرة فيبحث عنها في الكتاب. أين الخطأ؟ قد يقع في الخطأ وهو يظن أن النص يخدمه في هذه الحالة، وربما يضطر إلى ليّ أعناق النص ليُلائم نظريته وحالته ولا يكون كذلك. وليس معنى هذا خطأ ملاحظته في الباب، ولكنها تكون في قضية ملائمة النص لهذا الباب.

يعني كثير من الناس يقولون كلامًا حسنًا وجيدًا، لكن ليس معنى هذا أنهم يستدلون له بدليل صحيح. وهذا يقع، ونبّه عليه أهل التفسير، بأنه ليس شرطًا لكل كلام حسن أن يكون حديثًا نبويًا، فقد يُخطؤون في دلالة هذا النص على ما يريدون.

الطريقة الأولى: **هي طريقة النظر إلى الكتاب واستخراج منه هذا المعنى وفيها ما فيها**.

والطريقة الثانية: **هي الملاحظة ثم البحث عنها في الكتاب**.

الطريقة الثالثة: المنتشرة هذه الأيام وهي من أفسد الطرق وأجهلها **هي أخذ تجارب الآخرين ونظرياتهم التي أنتجوها ضمن ظروف أو لأسباب ويصبغونها إسلاميًا بمجرَّد أن يبحثوا عن الدليل**.

ومن هنا فإن قراءة مثل هذه الكتب التي بين أيدينا محفوفة بالمخاطر، ومن أخطر ما يُتحدث عنه اليوم من طرق التغيير وحاجتنا إلى بعض الوسائل التي فعلتها بعض القوى الثورية في صراعها ضد أنظمتها.

فإننا وجدنا الكثير من الدعاة يريدون تكرار تجارب الثورات الناجحة. وذلك من خلال قراءتها والبحث عما يُقاربها من السيرة وإلصاق السيرة بهذه المعاني. حتى إنهم يضطرون في بعض الحالات أن يُشَرعِنُوا الباطل بحجة أنه لا غنى للحركة عنه؛ لا بد أن نفعل كذا وكذا، ننظر إلى الثورة الفرنسية، ننظر إلى ثورة لينين، ننظر إلى ثورة ماو تسي تونغ، ننظر إلى ثورة جيفارا وهكذا،فيقرؤون هذه التجارب ثم بعد ذلك يأتون للسُّنة ليُلصقوا بهذه التجارب الأدلة! وهذه قضية خطيرة.

ذلك أن السيرة النبوية هي الصورة التي رضيها الله للعبيد للوصول إلى المقاصد من خلال الشرع. الطرق الأخرى فيها مسالك باطلة، قد تصل، **لكن السيرة هي المسلك الحق للوصول إلى المقصد الحق**. ولذلك لا بد أن نقرأها قراءة واعية في هذا المعنى، وليس للأسف أن نقرأ السيرة قراءة من أجل أن نحتجّ بما أنتجه الآخرون. وهذه قاعدة يجب على طالب العلم أن يفهمها وأن يعيها.

من الأمور الخطيرة في هذا الباب: **هو علم النفس**. وهذا ما سنتكلم عنه؛ لماذا هذا الكتاب علينا أن نقرأ مقصده؟ وتقدَّم الكلام بأنه لا يجوز لأحد أن يقرأ كتابًا حتى يعرف مقاصد واضعيه.

إذًا هذه قضايا ربما تُصيب وربما تخطئ، ولكن من أجل الإصابة لا بد من اتباع القواعد الصحيحة في البحث والنظر، في رصد الظواهر، وفي قراءة الكتاب والسنة قراءة على طريقة سلفنا؛ بحيث لا نخرج عمَّا قالوه ولا نبتدع أقوالًا ننسبها للكتاب والسنة ظلمًا وعدوانًا تحت باب أن هذا حق ولا بد أن يكون في الكتاب.

وأنتم تعرفون من صور تفسير القرآن الباطلة ما فعله البعض من زعمهم أن النظريات موجودة في القرآن، ولذلك فسّروا القرآن تفسيرات باطلة لا تمت إلى اللغة التي هي مفتاح كتاب ربنا –سبحانه وتعالى–.

الآن النقطة الأولى التي سنهتم بها وهي: لماذا هذا الكتاب؟

وهذه إحدى النقاط الفارقة بين منهج القرآن في كشف الإنسان وبين منهج الأغيار في كشف الإنسان. بغض النظر أن اكتشافاتهم صحيحة أو باطلة، هذا ليس هو المطلوب، المطلوب هو لماذا هم يقرؤون الإنسان؟ هذا الكتاب –كتاب غوستاف لوبون– وكتاب (الأمير) لميكافيلي إنما يريدون معرفة الجماهير من أجل طبقة الملأ. يعني هم يقرؤون الجماهير لمعرفة كيفية إخضاعها للملأ. ولذلك غوستاف لوبون هو ارستقراطي، هو من جماعة الملأ، هو الذي يجعل الجماهير (جوييم) حسب نظرية الجوييم اليهودية أن هؤلاء لا قيمة لهم، هؤلاء رعاع. ونظرية الرعاع هذه صحيحة حقًّا وموجودة، ويقولها علي –رضي الله عنه–: "أكثر الناس همج رعاع".

ولكن هناك فرق بين ما يقوله علي –رضي الله عنه– وما يقوله هؤلاء. علي –رضي الله عنه– يقول هؤلاء الهمج الرعاع لهم الحق في أن يرتفعوا، بل الواجب على طبقة العلماء وعلى المفكرين وعلى طبقة الفقهاء والصالحين أن يرفعوا هذه الطبقة لتخرج من هذا المستنقع. وبين طبقة أخرى ترى أن هذه الطبقات رُقُم حديدية لا يجوز تغيُّرها على طريقة المذهب البوذي، الطريقة

الهندوسية؛ أن الناس خُلقوا من ذات الرب، بعضهم خُلق من رأسه وبعضهم خُلق من يديه وبعضهم خُلق من رجليه وهي طبقة المنبوذين، فطبقة الرعاع تبقى رعاعًا.

فالقرآن يكشف الإنسان لسبب آخر.

إذًا لماذا كتب ميكافيلي كتاب (الأمير)؟ كتبه من أجل أن يقول للطاغية: هذه هي حبال جَرِّ هؤلاء الهمج الرُّعاع إلى سلطانك وطرق إخضاعهم لشهواتك وقراراتك!. وكتاب غوستاف لوبون من هذا الباب، هو يريد أن يقول بأن هؤلاء الهمج الرعاع هذه صفاتهم وعلينا أن نحذر منهم. وهي بداية ظهور المذهب الاشتراكي الذي يرى قوة الجماهير، الذي يريد أن يُثوِّر هذه الطبقة من أجل القيام على الطبقة الارستقراطية ليدمّرها وليغيّرها إلى آخره.

وكتاب غوستاف لوبون يُبشِّر أن المستقبل القادم هو مستقبل الجماهير ولذلك هو فساد الحضارة. هذه هي نظرته.

إذًا لماذا يقرأ الآخرون الإنسان في هذا الباب –وهو السبب النفسي–؟ يقرؤونه لمقاصد الشر.

هل هناك مذاهب أخرى تقرأ الإنسان لأسباب أخرى؟ نعم.

الآن المبدأ الرأسمالي العلماني ما الذي يريده؟ يريد أن يقول بأن الذين يغيرون التاريخ هم أصحاب المال، "دعه يعمل دعه يمر" مبدأ آدم سميث. ما الذي يحق له أن يخلد في الحياة؟ هو المال الارستقراطي. وكلما ازداد غنى الغني كلما تقدَّمت الحضارة، والبقية ماذا؟ جوييم لا قيمة لهم، اسحقهم، لا تلتفت إليهم.

بل إن بعض الاقتصاديين في هذا المبدأ في دراسته للإنسان يقول بأن التوراة تُقيم هذا المبدأ. من قرأ المذاهب الاقتصادية التي هي جزء من النظرية السياسية في علاقة الملأ مع الفقير، الملأ مع الجماهير، إنهم ليدَّعون أنهم يستقون هذه المبادئ في قضية وجوب سيطرة الملأ وقيادة حركة الحياة وبناء الحضارة وإغفال أهمية قيمة الجماهير. ومعهم حق في الحقيقة.

وهناك مبدأ الاشتراكية الفابية التي يقول بها حزب العمال البريطاني وتخلوا عنه، حتى إنهم سموا "New Labour" يعني العمال الجديد وهو اقتراب للمحافظين. والمحافظون يعني الذين يُقدِّسون صورة الملأ، الذين هم اللوردات والإقطاعيون.

والعمال مبدأهم هو إنشاء أعمال متوسطة صغيرة ليقوم بها الفقراء والمساكين. يعني دعمهم من أجل إنتاج من لا مال لديهم، من أجل توزيع هذه الثورة. فلما جاءت تاتشر ووُجهت أن قوانينها من أجل تكريس نظرية الملأ، تكريس الإقطاع،

تكريس غنى الغني وفقر الفقير، فسُئلت عن هذا، قالت: نعم هذا مقصدي! ذلك لأن الذي يصنع الحياة هو الغني، هو الذي يُقدِّم لي المال، هو الذي يدفع الضرائب، هو الذي يعطيني المال من أجل أن أنفق على الفقير، فلماذا أهتم بالآخر وأضيع وقتي معه؟

فمثلًا هذه قراءات. والشيوعية جاءت للإنسان وظنّت أن الإنسان لا قيمة له. والنظرية الرأسمالية.

نظرية أخرى نظرية الاشتراكية وترى أن الإنسان هو مجرد سن في دولاب الإنتاج ولا قيمة له؛ ولذلك ألغت الملكية. وبالتالي في النهاية ألغوا التملُّك فجعلوا التملك للحزب، الذي يملك كل شيء هو الحزب، والناس بعد ذلك ماتت عندهم نزعة الإبداع بسبب عدم الملكية فيهم.

إذًا لماذا يقرؤون الإنسان؟ يقرؤون الإنسان لخدمة مقاصدهم، والنوايا السيئة موجودة.

هل هناك كتاب في الوجود يشرح الإنسان أكثر من القرآن؟ الجواب: لا.

يُقدِّم القرآن الإنسان أنه هلوع، جزوع، ضعيف، منّاع للخير، إلى آخره. يقدمه على هذه الصورة من صورة غلبة الشهوة. هكذا يتكلم القرآن عن الإنسان، في المقابل يتكلم عن الفَرَادة. وهذا المبحث –مبحث الفرادة– في القرآن مهم جدًا.

ولما أردت أن أشرع في تفسير سورة المؤمن لأنها نموذج لموضوع الفرادة في القرآن وهو مؤمن آل فرعون، لما خرج من نظام القطيع بسلطانه السياسي وبسلطانه القبلي بأنه مؤمن آل فرعون. فالقرآن لما يطرح موضوع الهداية يطرحه فرادة إنسانية.

لكن هل يلغي القرآن موضوع المجموع؟ هذا الذي سنتكلم عنه.

إذًا لماذا يطرح القرآن نفسية الإنسان؟ يطرح القرآن نفسية الإنسان أولًا من أجل إصلاحه وعدم متابعته. يقول له الإنسان كذا فإياك أن تتابع ما جُبلت عليه من حب العاجلة والمصارعة للشهوة، أبوك وقع فيها من قبل وهذه هي العاقبة. فما يطرحه القرآن من نفسية الإنسان لا من أجل بناء النظرية عليه، ولا من أجل بناء التشريع عليه.

الذين قالوا إن الإنسان كذا وكذا بنوا النظرية على هذا، أن الإنسان عنده شهوة التملُّك إذًا أعطه، الذين قالوا الإنسان لا قيمة له قالوا إذًا ألغي نفسيته وحب التملك. ولكن القرآن لا يقول هذا، يقول الإنسان كذا وكذا فالمطلوب منك أن تعالج نفسك وأن تربيها.

إذًا وُضعت نفسية الإنسان في القرآن مقابل الشرائع. لماذا؟ لأن الشرائع هي التي تقوّمها. وهذا رد على بعض المشايخ. هذه من مسائل الأصول أنا أنبه عليها لأهميتها. كيف؟ عندما سُئل بعض المشايخ لماذا تُجيز الموسيقى؟ فقال كيف أُحرّم الموسيقى ونحن ندعو الأفارقة أن يدخلوا في الإسلام، ولو قُلت للإفريقي إن الموسيقى حرام لم يُسلم، فالنتيجة أن نقول له أسلم والموسيقى حلال!.

هذا المنهج في الفتوى والدعوة إلى الله يخالف منهج القرآن. لما غيّر الله -عزَّ وجلَّ- القِبلة وكانوا يتوجَّهون إلى بيت المقدس ثم أمرهم أن يتوجهوا إلى مكة ماذا قال؟ {إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}. إذًا الشرائع لم تُوضع من أجل موافقة الإنسان في هواه ولكن من أجل امتحان الإنسان في هواه. هذا جانب مهم في الأمر.

الجانب الآخر: نحن نرى أن القرآن يطرح الإنسان ويلوّح له من أجل اتباع الشرائع من خلال شهوته؛ يقول له في الجنة هناك حور عين، في الجنة أكل وشرب، إلى آخره.

أول شيء لمعالجة شهوته، ولكنه كذلك يرفع له الشهوة من أجل أن يحقق المقصد، لكنها الشهوة التي ترتبط بالمقصد بعيدًا لا عاجلًا. ليست الشهوة التي يريدها الطفل، ولكن الشهوة التي يريدها العاقل وذلك بأن يدفع ثمنها عاجلًا من أجل أن يحققها آجلًا.

إذًا لماذا يكشف الله لنا الإنسان؟ يكشفه من أجل أن تعرفه فتعالجه. هو يريد كذا فعالجه بالشرائع، هكذا نزلت الشرائع، وكذلك أبقت له الفطرة التي كُوِّن عليها فلم تُلغها؛ هو يحب النساء {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ} هل قال له لا تتزوج على طريقة القطع؟ لا، ولكنه جعلها فتنة وابتلاءً فقال ﷺ في الحديث الذي ذكرناه في الدرس الفائت: (ما تَركتُ بَعدي فِتنَةً أضرَّ على الرجالِ منَ النساءِ)، إذا خرجت عن حدها، إذا تجاوزت. فإذًا ذُكرت من أجل علاجها.

وكذلك من أجل تمريرها بطريقة الشريعة. وثانيًا وهو المهم أنها رُفعت في آخر الناصية لتشُدَّك إلى العمل.

إذًا هذه القضية في معرفة الإنسان ينبغي أن تكون في موضع خطورة شديدة، كيف توفق بين علاجه وبين إعطائه هذه الشهوة بمقدار، وبين أن تنصُبَها مقصدًا له في آخر المقام. هذا هو غذاء القرآن للإنسان. ومن أجل ذلك يكشف الله -عزَّ وجلَّ- الإنسان لهذا الأمر. هذا هو علم النفس، كيف نقرأ الإنسان من أجل أن نتعامل معه.

القرآن من أجل فترة من فترات القوة والبلاء الواقع عليك يقول لك -سبحانه وتعالى-: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} حالة ابتلاء عظيمة لا تستقيم إلا مع القرآن.

ومع ذلك يقول -سبحانه وتعالى-: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} يتكلم عن الدنيا. وذلك بأن سورة النحل كما يقول ابن القيم هي سورة تفصيل النِّعم. ولذلك البلاء وقع على النعم {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا} في سورة النحل، وقال في آخرها: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ **فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ** اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} ما قال فكفرت بالله.

إذًا الابتلاء الدنيوي في كشف حقيقة الإنسان من أجل الابتلاء، وكذلك من أجل التعامل الرفيق معك. فإنه لو بقي على حالة واحدة لتعب، من أجل أن تعرفه.

إذًا من هنا يجب علينا في النقطة **الأولى** أن نعرف ماذا تحدَّث القرآن عن الإنسان.

ثانيًا ما هي الفوارق بين كشف القرآن للإنسان وبين غيره.

الآن نأتي إلى **الثالثة** وهي مدار البحث في قضية: هل هناك سنن اجتماعية تخص المجموع وهناك سنن اجتماعية تخص الفرد؟ الجواب: نعم. فما هي العلاقة بينهما؟ القرآن أقام في مواطن عدة الحديث عن الملأ. نحن قلنا القرآن كتاب الفرادة. إذًا كيف يتحدث القرآن عن المجموع؟ هل يتحدث عنه أنه لا قيمة له؟ هل يتحدث عن المجموع بعدم اهتمام؟ هذه هي القضية.

ما دام أن القرآن هو كتاب الفرادة مما يدل على أن المجموع -أي الجماهير- هو أمر خطير، وأن القرآن ذكر في مرات أن الجمهور آمَن، ومرات ألغى وجود الجمهور إنما ذكره على سبيل الذكر ثم ألغاه كأنه غير موجود. وفي الأصل يتحدث القرآن عن علاقة التابع بالمتبوع.

وهذه قضية ليت طالب علم يتفرّغ لها وهي قضية علاقة التابع بالمتبوع. ومواطن ذكر التابع والمتبوع معروفة في القرآن. ففي سورة البقرة قوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا}. إذًا القرآن لا يتحدث عن الناس كلهم باعتبار صفة تملُّك الفكرة على درجة واحدة، هناك تابع ومتبوع. والقرآن لا يعذُر في هذا الباب أبدًا.

هناك فرق بين الإعذار بسبب عدم القدرة، في موطن واحد القرآن كأنك تراه يتحدث عن الإعذار وعدم الإعذار كما في سورة النساء. ومع ذلك القرآن لما يتحدث عن المتبوعين يوم القيامة لا يعذرهم أبدًا، ويسميهم ابن القيم في كتابه (طريق الهجرتين) عندما جاء إلى طبقات الـمُكلَّفين في آخر الكتاب: يسميهم الحمير، حمير البشر وبهائم البشر. وهم الذين يتبعون أسيادهم على الكفر والشرك لمجرد الغفلة والجهل أو لمجرد الدنيا. {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ}.

في سورة إبراهيم قبل أن يذكر ربنا -سبحانه وتعالى- خطبة إبليس في النار، هذه كلمة ابن كثير -رحمه الله-، وأنا شرحت هذه الخطبة في مجلة (نداء الإسلام) القديمة وتحت باب (مع أحسن الحديث). قبلها قال: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} فما الجواب؟ {قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} نحن وإياكم مصيرنا واحد.

فدلّ على أن اتباع هذا الملأ -الذي سماه القرآن وأفاض في ذكره- أمام هؤلاء الجهلة ليس لهم عذر يوم القيامة.

في سورة سبأ كذلك: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا} نظرية المؤامرة الآن تبين في السورة. {يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

فقضى الله -عزَّ وجلَّ- أن الأتباع والمتبوعين في باب واحد، وعلى حال واحدة من العذاب، مما يدل على أن التابع للكافر في الشرك ليس معذورًا.

في سورة النساء ذكر الله -عزَّ وجلَّ- أقوامًا اعتذروا بالاستضعاف لما قال -سبحانه وتعالى-: {قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} فلم يعذرهم. ثم بعدها يقول -سبحانه وتعالى-: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} فدلّ على أن هناك فرقًا.

هذا يجب أن يُقرأ، أنا لا أريد أن أقف عنده، وإلا دخلنا في موضوع آخر غير الكتاب. لماذا لم يعذر الأوائل وأعذر الضعفاء الذين لا يجدون حيلة؛ إذًا هناك فرق بين هذا وهذا. لا بد أن هذا الفرق ينشأ عن اختلاف الحالة بين الصورة الأولى والصورة الثانية.

إذًا موضوع الجماهير هو موضوع خطير. كيف ألغى القرآن الجماهير كأنهم غير موجودين؟ لما قال موسى -عليه السلام-: {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} إذًا هو له مقصد فيوم الزينة يجتمع الناس. هذا التقى مع رغبة فرعون. فربما أنت تدعو لأمر تريد به مقصدًا ويريد الخصم نفس المقصد. ماذا قال فرعون في سورة الشعراء؟ {وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ} ما قال لعلنا نتبع الحق، لكنه قال: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}!. ولكن القرآن لم يتحدث عنهم، ألغاهم بعد ذلك، كأنه ليس هناك ثمة وجود لهم.

ومع ذلك حصل لأقوام مثل قصة {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ}؛ الناس جاءهم الداعي فأسلم الجميع وحصلت حادثة الأخدود والنيران، وأسلمت الأمة في هذه القرية جميعها.

إذًا هذه القضية لا ينبغي أن توضع في ميزان واحد، يجب أن يُنظر إليها باعتبار ظرفها. ولكن الاهتمام بالجماهير أمر مهم.

انتهينا من هذه، الآن نأتي إلى نقطة أخرى مما يتعلق بالجماهير، وهذه القضية ذكرناها في أول لقاء مع (رسالة في الطريقة إلى ثقافتنا) لما اختلفنا مع الأستاذ محمود شاكر لما رأى أن وجود مثل هؤلاء الأفذاذ العلماء كان يمكن أن يُشكِّل بناء الحضارة والعودة إلى القمة وقيادة العالم. وقلنا الشيخ لم يُصِب فيها.

فإذًا هنا سؤال: **هل الحضارة تُصنع بالفرادة أم لا بد من الجماهير؟**

هناك نظريات تقول نظرية الأبطال؛ البطل هو الذي يغير التاريخ، البطل هو الذي يقود، البطل هو الذي يصنع، هرقل هو الذي يغير، إلى آخره.

وهناك نظرية أنه لا بد من الجماهير فهي التي تخرج وتغير. وغوستاف لوبون يرى أن الجماهير لا يمكن أن تصنع حضارة، ولا يمكن أن تكون حركتها منبعها الفكرة، إنما هي الطغيان والجهل والخراب، لا يمكن أن تتحرك الجماهير من خلال الفكرة، وإنما تتحرك من خلال شهوتها. هذه نظرية.

النظرية الشيوعية ترى أن الجماهير هي التي تستطيع أن تصنع الحضارات، وهي التي تستطيع أن تغير.

فما هو الموقف الصحيح في هذا؟ إذا أردنا أن نستلهمه فنقول بأن القرآن دائمًا يُقدِّم الحق بصورة الرجل وهو النبي.

وهذا النبي يدعو، وأعظم نموذج في قضية التغيير هو نموذج النبي محمد ﷺ، وقبله أعظم نموذج تاريخًا هو موسى –عليه السلام–. موسى هذا رجل عظيم، إمام نبي مُسدَّد مهدي، ومع ذلك لم يستطع أن يُحقق مَقصد التغيير والانتصار عندما وقف أمام الأرض المقدسَّة. وهذا لتخلِّي الأمة عنه وتخلي الجماهير عنه. {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}.

هو لم يستطع أن يحقق وهو نبي عظيم، ولا يفقد هذا النبي ما يُسمى اليوم "كاريزما القيادة"، هل هذا لعجز منه في قدراته؟ هل فقد موسى القدرات لهذا؟! الجواب: لا. وهذا دليل على أن التغيير الأعظم لا بد له من وجود قائد فذّ.

ولذلك النبي ﷺ: (إنَّ اللهَ يبعثُ لهذه الأمةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يُجدِّدُ لها دينَها). العلماء لما قرؤوا التاريخ كان يمكن حصر المجدِّد في شخص في وقت من الأوقات، لكن بعد ذلك وجدوا أن التغيير يحصل من خلال شخوص متعدّدين لما توسَّعت الأمة وكثُر مجال الانهيار فيها. يعني في زمن عمر بن عبد العزيز كان الانهيار في المؤسسة السياسية، فأصلحه، فيُمكن هذا. الشافعي في المؤسسة العلمية والخلاف الذي حصل أصلحه، لكن لما يكون الخرق من كل باب فلا بد من وجود رجل في كل باب، فوزَّعوا قضية المجدِّد.

ولكن على الجملة إن الفرد ضروري لأن القرآن يطرحه، ولكن التغيير لا يتم إلا من خلال جموع تتبع هذا الإمام، وهذا الأمير، وهذا القائد الفذ. هذه لا بد منها، مع قضية مهمة نبّهنا عليها: أن القائد الفذ هو الذي لا يُلغي الجموع وراءه؛ لأن هذا ليس من الحكمة. والنبي ﷺ وهو نبي، من الذي وراءه؟ لا يعدلونه شيئًا، ووُزن النبي ﷺ بمئات الآلاف من أمته فوزنهم، ومع ذلك لما ذهب النبي ﷺ إلى ربه استطاع الواحد من هؤلاء أن يقود أمة إلى التغيير.

فإذًا القائد هو الذي يصنع التغيير ولكن لا بد من وجود الجماهير وراءه.

هل هناك طرف وسيط بين القائد والأمة؟ الجواب: نعم، النُّخبة. ونستطيع أن نقرأ هذا في قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} أين هذه الأفواج في أعظم حكمة دعا بها نبي هو رسولنا ﷺ في مكة، لماذا لم يتَّبعه إلا القلائل؟

في (صحيح البخاري) عدد المهاجرين الذين شاركوا في بدر لا يزيدون عن ثمانين شخص. مع الغائبين والنساء مائة وعشرين شخصًا. يعني كل الذين هاجروا من مكة خلال ثلاثة عشر سنة استجابوا لدعوة النبي مائة وخمسون شخصًا. بالكلمة، والحكمة، والبيان، والبرهان، والكلمة البليغة التامة الكاملة المؤسَّسة على كل قواعد الحق ووسائل الحق، ومع ذلك لم يستجيبوا.

وكانت العرب ترتقب من يغلب قريش أم النبي ﷺ، فلما غلب النبي ﷺ قريشًا ودخلت مكة في الإسلام دخل الناس في دين الله أفواجًا وجاءت الوفود.

فلما ذهب النبي ﷺ هذه الجموع ماذا حدث فيها؟ رأينا رِدَّة بعد وفاة النبي ﷺ، كلها ظنّت أن موضوع الإسلام قد ذهبت قوته. هل ذهب حقًا؟ هل هم راقبوا الحق أم راقبوا القوة؟

إياكم أن تسمعوا لهذه الدعوات: "يجب فقط أن يكون مع كلمة"، هذه لا تُغيِّر، الذي يصنع التغيير: الكلمة مع القوة. والذي يُحقِّق للكلمة وجودًا هو القوة. وهذا مهم جدًا ليُقيّد ما قلناه؛ لأن بعض الناس قال: "الفكرة عندما تتحول إلى مؤسسة"، فظنّ البعض أن الفكرة يجب أن تبقى بعيدًا عن موطن الجماعة التي تدعو إليها. هذا ليس في قضية الحق والإيمان، بل لا بد في قضية الحق والإيمان من قوة وجماعة تحميها.

وإلا بعد ذلك فالكلمة تبقى في إطار دعوة الأنبياء، يستجيب لك خمسون، بل قد جاء في الحديث (فجعلَ النَّبيُّ يجيءُ ومعَهُ الثَّلاثةُ من قومِهِ، والنَّبيُّ ومعَهُ العِصابةُ، والنَّبيُّ ومعَهُ النَّفرُ، والنَّبيُّ وليسَ معَهُ أحدٌ مِن قومِهِ)، هذه الكلمة. ولكن إذا أردت للحق أن يكون له سلطان في الأرض لا بد له من قوة. لا بد له من قوة يعني لا بد من جماهير. وهذا الذي نحن في صدده.

إذًا لا بد من الجماهير، لا بد أن نعتني بها، وأن نراقبها، وأن نعرف ما الذي يُحرّكها وما الذي لا يحرّكها. وهذا ضمن مجالات الجهاد والصراع بين الإسلام والجاهلية، وهو من الذي يستطيع أن يستخدم الجماهير. وإلا فالجماهير الفكرة بعيدة عنهم، والموضوع العلمي يُتعبهم ولا يريدونه، وهذا مما يقرره غوستاف لوبون وواقع التاريخ يشهد به.

انتهينا في هذا الباب، والآن نأتي إلى قضية مهمة وهي تتعلق بموضوع علم النفس. **هل هذا علم حقيقي**؟ الجواب: نعم، هذا علم يجب على الأمة أن تعتني به، وعلماؤنا تكلموا فيه؛ تكلموا عن الحسد هذا من علم النفس، تكلموا عن حب الأَثَرَة هذا من علم النفس، تكلموا عن الأخلاق فالأخلاق هي مَلَكَات نفس. كيف يُرَبَّى الأطفال؟ هذا ينبغي أن ندرسه وأن نعرفه. وهذا في السنة من أوضح ما يكون، وفي الكتاب من أوضح ما يكون.

الآن نتكلم فقط عن قضية وهي مهمة جدًا وهي قضية **علم نفس التغيير**.

إن أعظم مهمة يمارسها إنسان في هذه الدنيا هو التغيير الاجتماعي؛ وهو تغيير الإنسان، والدليل أن الله بعث الأنبياء وهم أعظم وأجلّ المقامات؛ لأنهم قاموا في أعظم وأجلّ المهمّات. ما أعظم المجالات والمهمات؟ هو مجال العمل في الإنسان. هناك ناس في الأرض يعملون في البطاطا، في البندورة، في القمح، وهناك أناس يعملون في صناعة الأثواب، ولكن أعظم ما قام به إنسان في الوجود هو أن ينظر إلى إنسان فيتعامل معه، يصيغه على صياغة الحق؛ **ولذلك كان عمل الأنبياء ومجالهم هو مجال الإنسان**.

إذًا أعظم أمر هو أن تغير الإنسان. هذا الذي يسمونه التغيير الاجتماعي.

إذًا ما دام هو أجلُّ عمل في الوجود فهو الأصعب، وإنما تَشتقُّ الأعمال قيمتها بصعوبتها وآثارها. فإذًا أعظم مجال يمكن أن يتم حوله الحديث لصعوبته ومشقته هو التغيير الاجتماعي تغيير الإنسان. هذه واحدة.

وقولنا أن هذا أشق عمل يوجب علينا أن نتعامل معه باحتراز وأدب، واحترام وتقدير. ولكن أين الخطأ فيما يفرضه الآخرون علينا؟ هل يوجد حقًا قوانين ثابتة للتغيير يمكن أن تتكرر كما تتكرر العملية الفيزيائية؟ يعني معادلة في تكوين الماء تُحضر أكسجين وتحضر ذرتين هيدروجين ضمن ظروف معينة فلا بد أن تُحضر الماء. هذه نظرية فيزيائية لا تتغير. لو أنك حرقت لا بد أن يحصل الحرق، الحرق لا بد أن يوجد ثاني أكسيد الكربون أو أول أكسيد الكربون إلى آخره، هذه قوانين ثابتة.

فهل التغيير الاجتماعي له قوانين ثابتة؟

المعاصرون أرادوا أن يقولوا نعم، وهذا كلام غير صحيح. وهذه لها علاقة في مناقشتنا للمشايخ في قضية ضربهم الأمثال أن التجارب الجهادية أثبتت أنه هذا طريق مسدود.

ما هي طرق إبطال مشروع الجهاد في تغيير الأمة؟ هو ضرب الأمثال. كيف؟ يقول لك: لقد أثبتت التجارب أن هذا الطريق مسدود، وأنه لا يصلح. إذًا هو رأى أن تكرار الظاهرة في مشروع التغيير عن طريق الجهاد في سبيل الله باعتبار الجهاد في أذهانهم -المساكين- هو مجرد حمل السلاح! هكذا ينظر البعض، حتى بعض من يمشي في هذا الطريق يظن أن المشروع الجهادي هو مجرد حمل السلاح وليس هو مشروعًا متكاملًا في أبعاده وفي بنيانه وفي تفصيله إلى آخره.

فالآخرون يقولون بأن هناك ثمة قواعد إنسانية نسميها نفسية ونسميها اجتماعية إن سلكتها ضرورة توصل إلى هذا الباب. هذا الكلام غير صحيح. لماذا؟ لأن الإنسان ليس رقمًا ماديًا ثابتًا. هذا أول خطأ وقعوا فيه. وقعوا في قولهم بأن الإنسان كأنه الماء، كأنه الحديد، رقم ثابت لا تتغير صفاته. وللأسف بعض المشايخ وقعوا في هذا عندما راهنوا على طبائع بعض الشعوب. هل الطبائع البشرية ثابتة؟ لو كانت ثابتة لما جاء الأنبياء.

والإنسان لا ينطلق من منطلقاته الفطرية أنه رجل صلب شجاع له قوة، لو أننا قلة بأن أمة تشتغل كل يوم بأن تمشي عشرة كيلو فتقوى أجسامهم في هذا الباب، هذا لا علاقة له في قضية تلقيهم للأفكار بطريقة قوية أو بطريقة باطلة أو بطريقة مهترئة. فالشجاعة ليست مسألة بدن، الشجاعة مسألة نفس.

هل يمكن أن نتعامل مع الإنسان بأنه هو موطن التغيير بالنسبة للأنبياء، أن نتعامل معه شيئًا ثابتًا؟ القرآن يقرر: لا. يقرر أنه يمكن أن تدعو إلى الله فيهتدي السامعون، ويمكن أن تدعو إلى الله فيكفر بك السامعون، ويمكن أن تدعو إلى الله فيقتلك السامعون، ويمكن أن تمشي معك الجيوش في بعض الظروف وفي نفس الظرف يقول لك {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا}، ويمكن ويمكن، وأن تأتي جموع لتقاتلك وتحارب دينك فتهتدي في لحظة قذفٍ إيمانيّ قوي.

وبالتالي لا وجود لهذا.

والذين يقولون بأن التجارب تثبت لنا، السبب لأنهم لم يروا الظروف الموضوعية لتحقيق الفعل وليس الفعل ذاته.

الآن الجهاد حركة أمة، لماذا الجهاد في هذه الفترة يُحقِّق نتائجه فينتشر في الناس كما نرى الآن في الشام؟ لماذا لم يكن هذا سبيله في عام ١٩٨٢ عندما قاموا ضد حافظ الأسد؟ هل هو لأن الإنسان قد تغير؟ الحقيقة لو أردنا إن الإنسان قد ضعُف، لكن لماذا يتغير؟ للأسف لأن هذه القراءات إنما تتوجَّه إلى ذات الفعل إلى الجهاد، ولا تنظر إلى الظروف السُّننية التي سُميت في بعض أدبيات الآخرين بالظروف الموضوعية التي تُحقِّق الفعل. من أجل هذا حرَّم الشرع كلمة (لو)!

كلمة (لو) هذه هي التي تُفسد السُّنة، فتجعل المرء يغير سبيل الحق لأنه لم ينجح فيه ظانًا أن هذا السبيل لا يوصل. وأكبر مثال ما ذكره الناس من قصة رجل يقول لرجل: أين تشتغل؟ قال: أشتغل في البحر. قال: ماذا كان يعمل أبوك؟ قال: في البحر. قال: وأين مات أبوك؟ قال: في البحر. قال: أبوك مات في البحر وتعمل في البحر؟! فقال الآخر له: وأين مات أبوك؟ قال: على فراشه. قال: وأين تنام؟ قال على فراشي. فقال: أبوك مات على فراشه وتنام على الفراش؟!

هذه القضية في سورة آل عمران في قضية هزيمة الصحابة في أحد جلّاها تجلية كاملة أن القضية لا تتعلق بالفعل لتُغيره، ولكن انظر إلى الظروف التي أحاطت به من التعامل معه، فالإنسان ليس رقمًا ثابتًا.

الآن الذين يحاولون التفسير مكثوا مع هذا المسكين الذي يسمونه انتحاريًا ونحن نسميه استشهاديًا. يريدون أن يقرؤوا ظاهرة الاستشهادي في علم النفس، أن يعرفوا كيف يُصنع الاستشهادي. من أجل ماذا؟ من أجل مقاصدهم.

هم تعجبوا رجل يخرج من الخمّارة لا يصلي، بعد خمسة أيام يضع الحزام في وسطه ويُقبل ويستشهد، كيف؟! ما هي الأسباب الدافعة لهذا الفعل؟

الآن نحن جلوس، ربما رجل يُخاصم أخاه فبكلمة واحدة يقوم يقبل رأسه ويصطلحان. وهذه حدثت ملايين المرات في البشرية. لكن كم مرة حدثت كذلك أن هناك أخوان حبيبان يحب بعضهما الآخر فرجل قال كلمة لأخيه فقام الآخر وقتله! هذه كيف تُفسر؟ الجواب: لأن الإنسان ليس رقمًا ثابتًا في معادلة التغيير.

والدليل على هذا أنه لا يوجد قط قائد تغيير اجتماعي استطاع أن يستقرئ مُصيبًا نتيجة حركته والقرآن يُقرِّر ذلك. لينين قبل ستة شهور من انتصار الثورة سألوه: ما نتيجة الثورة؟ قال: لا أعرف. قالوا له أنت ممكن تعيش الفترة وتنتصر ثورتك الاشتراكية؟ قال: إذا انتصر أحفادنا وكونوا دولة اشتراكية فنكون قد حققنا نصرًا. يعني هو كان ينظر إلى ثلاثين أو أربعين سنة، وبعد ستة شهور انتصر!.

قبل ذهاب الشاه بستة شهور احتفلت إيران احتفالًا كبيرًا في ذكرى مولد محمد رضا بهلوي، وخرج الشعب كله يصفق ويهتف باسمه. بعد ستة شهور انقلبوا عليه ولعنوه!.

وكل الثورات لم يستطع أحد أن يقول نحن نمشي ونسير هكذا. هذا لا وجود لها لأن الإنسان ليس رقمًا ثابتًا في معادلة التغيير.

النقطة الثانية أن كثيرًا من دارسي علم النفس الاجتماعي الذي هو جزء مما نحن فيه من هذا الكتاب، أنهم حاولوا أن يدرسوا الإنسان من خلال ظاهرة الحيوان. وممن طبّق هذا الشيوعيون. وتسمعون اسم بافلوف، وهذا رجل من دارسي علم النفس حاول أن يستقرئ حركة الإنسان من خلال سيرة الحيوان. ولذلك أخرج بعض النظريات مثل الانعكاس الشَّرْطي، ومثل قضايا قراءة حركة الاجتماعات، وهذه يستخدمونها في صناعة الأمثلة الباطلة. فأحضر فأرًا وأجاعه لمدة أسبوع، ثم وضع شريطًا كهربائيًا بينه وبين قطعة جبنة، وفتح له الباب من القفص، ولشدة جوع هذا الفأر انطلق غير آبهٍ بالشريط الكهربائي وأكل الجنبة، وضربه الشريط الكهربائي ولم يلتفت له بسبب الجوع.

ولكن طبّقها مرة ثانية فوجد انطلاق الفأر المرة الثانية أقلّ اندفاعًا من الأولى في نفس الظروف. وكرّرها مرة ثالثة فوجد أن الفأر انطلق ولما جاء إلى الشريط تلكأ قليلًا ولكن الجوع شدَّه فأكمل. جاء المرة الرابعة انطلق من القفص ولكنه لما جاء الشريط توقّف وما تجاوزه ورجع إلى القفص! وفي المرة الأخيرة لم يخرج من القفص.

فهذه يطبقونها ولا شك أنها أفادتهم في بعض جوانبها، ولكنها للأسف أنزلت من مرتبة الإنسان، هنا نظر لماذا؟ نظر للغريزة. هل الإنسان تُحرّكه غريزته أم تُحركه عقائده؟ أناس كثير بلا عقائد تُحركهم غرائزهم كأهل الباطل في غزواتهم، التتار ما الذي حركهم؟ غرائزهم. الصليبيون لما جاؤوا ادَّعوا أنهم جاؤوا لتخليص قبر المسيح من الوثنيين المسلمين، لكن الحقيقة للغرائز.

لكن الذين صنعوا نتائج عظمى في تغيير التاريخ هم الأنبياء الذين بنوا الإنسان على طريق العقائد.

فإذًا هم نظروا إلى الإنسان كالفأر والفأر ليس له ثمة عقائد بل تحركه غرائزه.

والقصد أن الدراسات النفسية فيها هذه الأخطاء. ويكفي إلى هنا.

أرجو أن أكون قد أجبت عن هذا الكتاب.

ولم نتحدَّث عن كتاب غوستاف لوبون كثيرًا ويكفي ما تكلَّمنا عنه. إن شاء الله الكتاب القادم هو كتاب (قدر الدعوة) للأستاذ رفاعي سرور. وهو في الحقيقة خوض بطريقة رائعة في قضية مسار الدعوة وقدرها. وقد حاول أن يستخلصها. وسنتكلم إن شاء الله عن محاولته سلبًا وإيجابًا فيما يأتي.

كنت أحب أن أتكلم عن هذا الكتاب عن الجهل والتطرف واقترانهما في الجماهير وكيف نفرّق بين الجهاد وبين التطرّف في المفهوم الإسلامي.

كنت أريد أن أتكلم عن مفهوم التاريخ عند غوستاف لوبون وقد تكلم كلامًا فاسدًا بعيدًا عن الحق.

كنت أريد أن أتكلم عن جوانب يمكن الاستفادة منها عن كيفية تحرك الأفكار في داخل الجماهير. قيمة العواطف والانفعالات لدى الجماهير. والجماهير ما الذي يحركها الصور أم الأفكار؟ والكلام على قوله: "الجماهير حركة تسبق البناء لأنها هدّامة". وهذا مهم جدًا أرجو أن يُنتبه له وهو كيفية خطاب الجماهير، وقد أحسن فيها.

ويمكن أن أتكلم باختصار فأقول إنَّ من توفيق الله أن الفكر المعتزلي لم يدخل في الأمة، والسبب هو نخبويته. ولذلك نحن لا نخاف من النَّخبويين أن يتكلموا فيما بينهم، لكن المشكلة لما يصبح النخبويون هؤلاء هم القادة، فيضعون المناهج، ويضعون التشريعات، ويُدرّسون أبناء الجيل في الجامعات هنا خطورتهم. وإلا فالذين يتكلمون بالفلسفة والمنطق لا نخاف منهم. الخطاب الأعظم هو الذي يحرك الجماهير وهو الخطاب الجامع بين العلم وبين الحماسة والعاطفة. ولذلك كان ﷺ إذا خطب ارتفع صوته واحمرّت عيناه كأنه يقول صبَّحكم ومسَّاكم. هذا هو الخطاب العاطفي مع الخطاب العلمي المؤسِّس، ونحن بحاجة لمثل هؤلاء من القادة.

يتكلم عن خطورة انضمام الفرد إلى القطيع، وهذا يحتاج إلى بيان واسع منا في تحديد كتابه.

يكفي إلى هنا، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا.

الأسئلة:

- **سؤال: شيخنا ذكرت الله يجزيك الخير أن الإنسان ليس رقمًا ماديًا ثابتًا في معادلة التغيير، فكيف يتعامل المصلح الاجتماعي مع هذه الطباع غير الثابتة؟**

الشيخ: الطريقة أن يتكلم معه بالحق. حينئذ القرآن يقول: ليس من مهمتك هداهم {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ}. هذه قضية، فلا ينظر إلى النتيجة في قضية دعوته إلى الحق؛ لأنها قضية غير متعلقة بطبيعة وغريزة في الإنسان بل هي تتعلق بما قال الرسول ﷺ: (إذا ذُكر القدر فأمسكوا)، نحن لا نعرف قط ما هي علل الاستجابة وعدم الاستجابة، الله قال هذه ليست لكم. فنحن نتعامل مع الناس ندعوهم، نُبيّن لهم الحق، وعند الاستجابة أو عدم الاستجابة هذه القضية {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ}. يقول الله –عزَّ وجلَّ–: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}.

وتأمل لماذا جاء قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} بعد آية الكرسي. يعني آية الكرسي كما قال ابن كثير –رحمه الله– نقلًا عن بعض العلماء أنها ذكرت عشر صفات لربنا مِن العَظَمة والجَلَال، فكان ينبغي لكل عاقل أن يتبعّه، ومع ذلك قال: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}. إذا كان مثل هذا الحق يُنكرونه فلا إكراه في الدين.

{لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}. فقضية الهداية ليست لنا، ندعو الناس للتغيير استجابوا أو لم يستجيبوا، وبعد ذلك مهم جدًا علينا ألا نَكِلَّ أنهم لم يستجيبوا؛ لأن بعض المشايخ أصابهم اليأس في آخر عمرهم، منهم الشيخ كشك وهذا خطأ منه –رحمه الله– عندما قال: "لو كان الناس ذبابًا لسمعتُ أزيزهم!" وترك الخطاب وجلس في بيته، أنا أظن أنه لهذا السبب. فكثير من الناس في آخر حياتهم أصابهم اليأس من التغيير، ورأيت بعض المشايخ في هذا، وهذا خطأ!

الكلمات الحق يُستجاب لها، {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ} متى استجاب الناس لها؟ استجابوا لها بعد بعثة النبي ﷺ، بعد آلاف السنين، وهكذا.

فلا ينبغي أن نهتم بقضية التغيير بالكلمة، لكن عندما يكون الصراع بالقوّة فحينئذ لها سننها، الانتصار والهزيمة لها سنن غير ثابتة؛ لأنها تتعلق بقضية المادة المحسومة والنفسيَّة كذلك.

ولكن فتح باب "لو" على المنهج الباطل هذا القرآن ضده؛ لأن فتح باب "لو" في نتيجة الأمر كما تراه الآن يؤدي إلى تغيير المنهج. والسبب أنهم لا ينظرون إلى الظروف، لا ينظرون إلى العوامل الداخلة على هذا الفعل التي حرَّفته وغيَّرته وأبطلت فعله، لم ينظروا إلى القوة؛ فميزان القوة يتغير. قد تكون أنت قويًا، وقد يكون خصمك ضعيفًا، وهكذا تنقلب المعادلة، فليست لذات المنهج. وهذه نقطة مهمة.

وأرجو أن أكون قد اقتربت من البيان الكافي، أنا أعرف أن الموضوع كبير جدًا لكن أنا أقترب منه.

- **سؤال: هل يوجد عُذر للمصلحين حينما يحاولون أن يُغيّروا المنهج لعدم رؤياهم للنتائج؟**

الشيخ: فقط هو جهل، لكن هل هم معذورون أمام الله أم غير معذورين؟ هذا بينهم وبين ربنا، لكنهم مخطئون.

- **سؤال: يعني لا مبرر لتغيير المنهج.**

الشيخ: للأسف هم أرادوا بناء منهج سهل، والطريق صعب وشاق ودماء ومشقة وفيه سجون وفيه قول حق، فحاولوا أن يُحصِّلوا المقاصد بالوسائل السهلة. فلم يحصّلوا المقاصد وأعطوا الدَّنيَّة في دينهم وحقّ فيهم القول: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}.

بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا.

والحمد لله رب العالمين.

[٩]

مناقشة كتاب (قدر الدعوة) لرفاعي سرور

الجلسة الأولى:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيّد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا ونبيّنا وسيّدنا وإمامنا وقائدنا محمّد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله –عزَّ وجلَّ– وإيّاكم منهم، آمين.

إخواني الأحبة، ربّما لن نستطيع أن نستوفي الكلام عن هذا الكتاب في هذه الجلسة، وربّما نحتاج إلى جلسة أخرى، فسأرى بحسب ما ينتهي إليه الوقت إن شاء الله –عزَّ وجلَّ–.

وعدتكم في الدرس الفائت أن أتكلّم عن طقوس القراءة، وطقوس القراءة ليست من أركان فهم القراءة الواحدة لكنّها حالة من حالات مراقبة القراءة. لا يوجد هناك سمة واحدة أو سمة نموذجية للقراءة في طقوسها.

ما المقصود بالطقوس؟ يعني البيئة الملائمة أو المحيطة بالقراءة، ماذا يفعل المرء حين يقرأ! بلا شكّ هناك أمور جيدة للمرء أن يذكرها، لكن على الجملة، القراءة والكتابة حالة ذاتية نسبية بحسب القارئ، يعني المرء كما يرتاح؛ المهمّ المقصود منها أن تحصل لديك القراءة، وأن يحصل لديك الفهم، وأن تبحث عن الوسائل التي تناسبك في القراءة الصحيحة.

لكن على الجملة هناك طقوس أولًا عامّة ثمّ هناك طقوس خاصة، وهذه الطقوس الخاصّة فيها طقوس غريبة جدًا، يمكن للمرء في قراءته لكتب تراجم الرجال أن يجد الحالات الغريبة للقراءة. وأنا سأفتتح حالة واحدة من حالات القراءات الغريبة ولا أريد أن أطوّل فيها؛ لأنّي سأتركها لكم لتجمعوها بأنفسكم. ويمكن للمرء أن يجمع مصنفًا في هذا الباب وهو غرائب طقوس القراءة.

وأغرب ما قرأت في غرائب طقوس القراءة لأئمة أجلاء علماء ثقات متديّنين، وهو جدّ ابن تيمية، أنّه كان لشغفه بالقراءة؛ إذا دخل بيت الخلاء طلب من عمّ شيخ الإسلام ابن تيمية أن يقرأ عليه، يواصل القراءة وهو في بيت الخلاء! وهذا يدلّ **أولًا**

على الحرص على الوقت، كما يقول ابن هُبَيرة رحمه الله:" الوقت أنفس ما عنيت بحفظه"، وهو أكثر ما يضيّعه النّاس فهذا أوّلا.
ثانيًا الشغف بالقراءة والسماع، وتعليم الآخرين.

فطقوس القراءة تختلف، هناك أمور عامّة يمكن أن نقرأها في آداب حفظ القرآن؛ لأنّها هي الآداب التي فيها جماع الذهن، فمثلًا هم لا يحبّون للمرء أن يحفظ القرآن وهو ينظر إلى البيئة الجميلة والمناظر الجميلة؛ لأنّها تشتت الذهن، ولكن يجلس في مكان مغلق لينجمع عليه ذهنه، فهذا أدعى. وهناك من آداب القراءة {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا}، والقراءة هي استماع داخلي لقراءة الذات، يعني أنت عند الاستماع تسمع لغيرك والقراءة هي استماع لذاتك، فينبغي أن تستمع لتجمع ذهنك كله، فالإنسان المشغول ذهنيًا والإنسان المشغول نفسيًا لا يستطيع أن يجمع ذهنه ليقرأ قراءة سليمة ليفهم المراد.

وخاصّة أنّ هناك فرق بين قراءة كتب العلم التي تحتاج إلى مزيد انتباه، والقراءة التي هي قراءة متعة، يعني يقرأ كما يقرأ الرواية، هو يريد أن يرى حركة الشخوص في داخل الرواية، وهذا لا يحتاج إلى تجميع ذهن. وإنّما الّذي يحتاج إلى تجميع ذهن هو القراءة في كتب أهل العلم القدماء، هذه لا ينفع معها تشتت الذهن، لا بدّ أن تستجمع ذهنك من أجل القراءة لتستوعب ما يُقال لك من الكتاب.

هذه أمور عامّة لا أريد أن أخوض فيها فإنّ الخوض فيها أشبه بصناعة كتابٍ جديدٍ تعرفونه وأنا لا أحبّ هذا، تستطيعون أن تعودوا إليها في آداب قراءة القرآن، في آداب حفظ القرآن، وفي غيره. ولكنّي أحاول فقط أن أعطي بعض السمات للكاتبين، ما الذي يستحضرونه عند الكتابة وكيف يكتبون.

والكتابة هي قراءة للذات، أنا أقول لكم هذه العبارة وأكرّرها: **الكتابة حفر في الداخل واكتشاف للذات**.

بعض الناس يظنّ أنّ الرجل يكتب لشيء هو مستوف الكمال في ذهنه، هذا لا وجود له. الكاتب يحفر في داخله، يكتشف ذاته، يذهب إلى نفسه ويكتشفها فيكتب. تكون الفكرة في هذا الموضوع واضحة ولكن حين يكتب كأنّه يحفر داخله ليستنبط ما فيها من معاني وأفكار. الكتابة قراءة للذات، هذا من معانيها.

ولذلك إذا أردت أن تعرف نفسك فاكتب، ولا تنشر حتى تعرضه على الآخرين. هذا من إحدى طرق اكتشافك لذاتك ومعرفتك لقراءتك لنفسك، في أيّ مستوًى أنت؟ هل تكتب شيئًا يرضي العلماء؟ هل تكتب شيئًا هو من مستوى الطفولة وكتابة صغيرة قليلة وهكذا.

ولذلك لا بدّ من النظر إلى الطرق، أن تكتشف كيف يكتب العلماء، بعد ذلك تحاول فتجد أنّك ارتحت.

ولكن أنبّه على نقطة وهي مهمّة في حياتك كلها ليس في القراءة فقط: **إيّاك أن تنتظر الظرف الذي تتمنّاه من الكمال لتمارس الفعل،** هذا لا وجود له! أعظم فعل للشيطان وأعظم سبيل للشيطان على العابد هو التسويف. ما هو بناء التسويف؟ ما هي أركان التسويف؟ هو أن ينتظر المرء الظرف الملائم كمالًا من أجل أن يأتي بالفعل!

تقول له احفظ القرآن يقول لك:" والله مشغول إن شاء الله السنة القادمة"، يقول لك:" الآن أنا عليّ بعض الأشغال السنة القادمة إن شاء الله أتفرغ التفرّغ المطلوب". والسنة القادمة كم بقي لها؟ ٨ شهور! تقول له ما الذي يشغلك الآن؟ يقول لك هو: "فقط أشياء بسيطة". نقول له كم معك من وقت الفراغ؟ هو يظنّ أنّه إذا جاءت السنة القادمة سيجلس في بيته يحفظ القرآن من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء! هذا يكذب على نفسه. لا وجود لهذه الحالة.

المطلوب منك الآن، أنا معي نصف ساعة أستغلّها، نصف ساعة أنت تستطيع أن تحفظ شيئًا من القرآن، وفي نصف ساعة إذا أردت قراءة القرآن من غير حفظ تستطيع قراءة جزء. والحفّاظ إذا كانوا متقنين في ثلث ساعة، وبعض الحفاظ أقلّ من ذلك! ورأيت عجائب فيمن يحفظون ويقرأون في أقلّ من هذا!

فالقصد لا تنتظر الوقت أن يأتيك، وبعض الناس يفعل ذلك، تقول له قم يا رجل اعمل هذا العمل، يقول الآن مشغول وذهني مشغول وماذا سأشتغل؟ سأشتغل لمدة ساعة فقط، لكن غدًا في الصبح سأقوم بهذا العمل وأشتغل عليه حتّى الظهر. هو يكذب على نفسه! هذا الظرف لن يأتي.

ولذلك من أعظم أبواب الشيطان في إسقاط الفعل للمسلم المتديّن العابد هو التسويف. مرض خطير موجود في الشباب، وللأسف الآلة المعاصرة كرّست هذا المرض. آباؤنا كانوا أذكى منّا، تأتي إلى رجل كبير في السنّ تتعجب، وتمر على القرى تتعجب، تجد ما يُسمّى ب(السلسلة) وهو بناء الحجارة الصغيرة ليصنع منها الجدار الحجري. ماذا يصنع العجوز لبنائه؟ يقوم الصبح متوكلًا على الله، ويأخذ كل يوم حجرين أو ثلاث، ويضعهم فوق بعض، وفي النهاية يُشكل هذا الجدار من الحجر الصغير. فأنت تريد -لأنّ الآلة أفسدتك في هذا العصر- آلة تصنعه لك في ساعة؛ ولذلك آباؤنا بنوا بيوتًا وربوا أبناءً وعلموا أبناءهم في الجامعات بالقرش والقرشين. والرجل الآن لا يعجبه إلا أن يكسب المليون في لحظة واحدة!

ومرّة الشيخ محمد أفضل -وهو أوّل أمير لدولة إسلامية في أفغانستان- رجل عجوز عمره خمسة وسبعون إلى ثمانين سنة، وأنا زرته في (نورستان) ثمّ في يوم من الأيام قالوا إنّه في بيشاور، ولما ذهبنا هناك ضربنا له أكباد السيارات، وفي بعض السفر ما توجد سيارات فتضطرّ أن تمشي، ويحضرون لك الخيل مرّة، ثمّ تمشي مرّة، إلى آخره. هذه المسافة الطويلة والطريق مليئة بالأعداء! يعني هناك قبائل بينهم الثارات والمشاكل. فجأة! وإذا الرجل في بيشاور! كيف؟ المرافق له يكشف السرّ. المرافق يقول لي: "لا يعرف أحدًا من أهل القرية أنّه سيسافر يريد الحج"، وبعد العشاء -وهناك لا يوجد لا كهرباء ولا ضوء بعد العشاء، لا نور-، قال له احضر ملابسك وحمل معه الحقيبة ومشى مشيًا بطيئا بطيئا حتّى وصل إلى المكان الذي هو فيه، ما أشرقت الشمس إلا وقد وصل. تقول للشاب هذا افعلها، يقول لك حرام عليك أعطني سيارة. بعض النّاس حتى السيارة لا تنفع ويريد طائرة، وبعضهم الطائرة لا تنفع ويريد صاروخ في لمح البصر.

التسويف وعدم النظر إلى سنن الله في البناء.

ولذلك أنا في قضيّة حفظ القرآن لا أحبّ أبدًا وأكره أن أسمع أحدًا يأتي يقول: "وأنا حفظت البقرة في أسبوع، وحفظت البقرة في جلسة واحدة". هذا رجل يجب على طلبة العلم أن يغلقوا فمه! لماذا؟ لأنّه يفسد التربية. الآخر يأتي مسكين أول يوم وهو له سنين لم يحفظ بيت شعر، وله سنين لم يحفظ حديثًا، وله سنين لم يحفظ آية. والحفظ آلة مثل العضلات، في البداية تبدأ كما قال الشعبي: "تبدأ كأنّها نقل الجبال"، الحفظ كأنّك تنقل الجبال، ثم ينتهي الحفظ كأنه شرب الماء.

الآن تحمل خمسة كيلو وتمشي بها ثلاثة أو أربعة كيلو متر فتتعب، مرة ثانية تُقوّى العضلات فتصبح تركض بها ولا تهتمّ. الدماغ ملكة وآلة كآلة العضلات تقوى.

فالأصل أنّك تشرع في الحفظ. دائمًا أضرب مثلا أنّ والدي قد حفظ القرآن في أربع عشرة سنة، في النهاية حفظه! الرجل الذي ينتظر اليوم الذي يريد أن يتفرّغ فيه، مضى عليه أربعون سنة ولم يأت اليوم الذي يتفرّغ له ولم يحفظه.

فلذلك أنت عليك أن تقرأ.

ومن قضيّة القراءة أريد أن أنبّه إلى أنّه لا يوجد كتاب لا يُقرأ. كتاب واحد فقط لا يُقرأ كاملًا ولم يُقرأ كاملًا، وهو التلمود وليس التوراة، ذكر هذا الدكتور الأستاذ عبد الرحمن الوهاب المسيري في كلامه عن الصهيونية. لماذا؟ لأنّ التلمود هو كلام كل

رِبّي ورِبّي يعني رب، حبر من أحبارهم. كلّ حبر يكتب كلمة في التعليق على التوراة توضع في داخل التلمود؛ ولذلك هو كبير جدًا لم يُقرأ قطّ، يعني كل شيء يضيفونه، ممكن تقرأ فيه فصل (ماذا قال فلان).

(مناحيم بيجِن) كتب شرحًا لبعض نصوص التوراة ووُضعت في التلمود، فكلّ لما واحد من هؤلاء الأحبار يعلّق على التوراة يوضع تعليقه في التلمود؛ فهو ضخم جدًا ولم يُقرأ. ويُقال بأنّ هناك من حاول ترجمته للعربية ولكنّه سُرق -وهي قصة طويلة ليس هذا موضعها-.

مرّة ذكرت لأحد المشايخ أنّني قرأت فتاوى ابن تيمية ولم أذكر له كم مرّة، فقط قلت له قرأها، فكان في جلسة، وأمام الحضور قال لهم: "أبو قتادة قرأ الفتاوى". فانبرى واحد قال: "مستحيل، لا أحد يستطيع أن يقرأ الفتاوى، خمسة وثلاثين مجلد!" فلمّا جاءني قال: "يستغربون أنّك قرأت الفتاوى، بل كذّبوا هذا الخبر"، فقلت له لماذا؟ قال: "استعظموا واحد يقرأ الفتاوى". قلت له: "واحد يقرأ الفتاوى! فمن الذي صفّ الفتاوى من هو؟! من جمعها وحققها؟ ومن كتبها في حياته؟! ما الأسهل أن يكتبها المرء أم أن يقرأها؟!" هذا شيء من أسهل ما يفعله طالب العلم إن كان حقًّا يستحق هذا اللقب "طلب العلم".

إذًا نرجع إلى قضية ما هي طقوس القراءة؟ طقس القراءة هو أن تفعل ما يحقّق لك القراءة الواعية، وهناك أمور عامّة في القراءة ينبغي أن يمارسها المرء.

ونأتي إلى بعض صور الكتابة. هناك نماذج للكتابة عجائب! وأنا ذكرت لكم في الدرس الفائت مثلًا نموذج كتابة الرافعي، كيف يكتب الرافعي؟ يدخل الغرفة، -وهو صاحب أذنين كبيرتين، وكان أصمًّا لا يسمع فقد أصابه الصمم وهو في الثالثة من عمره-. فكان يدخل البيت ويغلق عليه، ويجلس يكتب والعرق يتصبب منه وممنوع فتح النافذة؛ لأنّه لو فُتحت النافذة لا يستطيع أن يكتب، وهكذا.

والبعض يكتب في الصباح وبعضهم يكتب في المساء وبعضهم يكتب في الليل. ومن عجائب بعضهم أنّ أمةً للإمام البخاري وصفت حالةً له، أنّه كان في الليل يقوم أكثر من عشرين مرّة يتوضأ ثمّ يذهب إلى كتاب ليراجع فيه مسألة في الأحاديث تخطر في باله فيريد أن يراجعها. يقوم يتوضأ فيفتح الكتاب الذي يريد أن ينظر فيه، ثمّ يغلق، ثمّ يرجع لينام، ثم يفيق فيتوضأ ويرجع للمسألة وهكذا. هذا لشدّة شغفهم.

ومن طقوس القراءة الغريبة، من أغرب القراءات، هي قراءة الخليل بن أحمد الفراهيدي. قال بعض أهل العلم للمبالغة ولتبيان شدّة ذكاء الرجل: "لا يمرّ بعد الأنبياء على الصّراط أذكى من هذا الرجل والشافعي".

هذا الرجل، من غرائب الأمر أنّه كان يخرج من بيته إلى الصلاة فيتفكّر في المسألة؛ حتّى يرى نفسه خارج البلدة! لا ينتبه أين هو.

ومن غرائب القراءة طقوس قراءة الإمام مسلم إذ قتلته؛ هو مشغول يراجع الحديث الذي سأله عنه الرجل في المسجد، فيذهب إلى بيته يريد أن يأكل فيأمر بإحضار التمر، فتُوضع له قفة التمر أمامه، ويجلس يراجع الأحاديث، فأصبح الصبح وقد أنهى قفة التمر جميعها ومات. هذه من طقوس القراءة!

وذكروا عجبًا من قراءة الخطيب البغدادي، أنّه لم يُر قطّ ماشيًا في الشارع إلّا وفي يده كتاب ينظر فيه.

ومن طقوس الكتابة: أسوأ الخطوط في التاريخ الإسلامي هو للزركشي. ومن أراد أن يرى خط الزركشي، فليرجع إلى مقدمة الأستاذ سعيد الأفغاني لكتاب (الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة)، وهو إحدى كتب الألف كتاب قبل الممات؛ لأنّ فيه قراءة مهمة جدًا لأمّنا عائشة –رضي الله عنها–، نموذج عائشة –رضي الله عنها– لقراءة الأذكياء.

ويُذكر عن أحد العلماء أظنّه الزركشي، أنّهم كانوا يعيبون عليه قبح خطه، وكان الزركشي عامّة علومه من الورّاقين، يذهب عند الورّاقين يأخذ الكتب؛ ولذلك تجد كتبه مليئة بالنقولات، يعني اذهب إلى (البحر المحيط)، اذهب إلى (البرهان في علوم القرآن)، تجد كتبه إذا جاء للمسألة ذكر الكثير من المراجع للمسألة؛ وذلك لكثرة اطّلاعه على كتب أهل العلم من الورّاقين. فيومًا من الأيام كان عند الورّاقين فوجد خطًا أسوأ من خطه! فحمله وركض به إلى أصدقائه يعيّرهم، فبحثوا عنه وإذا هو خطه وهو صغير!

فهذه من طقوس وغرائب القراءة.

ومن غرائب قراءة الذات أنّ ابن تيمية يقول: "كنت أناظر الرازي صاحب (تأسيس التقديس) في المنام" فيصحى ويكتب الرد عليه. وهذه ينبغي أن توضع في أحلام العلماء، بماذا كان يحلم العلماء.

فكان يناقشه ويناظره في المنام فإذا أفاق قال: "عامّة ما ناظرت به كتبته بعد ذلك في كتاب (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول)" وعامّته قد ناظر فيه الرازي في المنام! هذه من غرائب القراءة.

ويُذكر عنهم الشيء الكثير في قضية الشّغف، ومنهم الإمام البرديجي أحد أئمة الصناعة الحديثية، من شدّة قراءته للحديث يقف أمامهم، فبدل أن يقرأ الفاتحة يقول حدّثنا! حتّى يرده الناس خلفه ويذكّرونه أنّها صلاة. فهذه من غرائب القراءة.

المهم المقصود بهذا أيها الأخ الحبيب **وهو أن تبحث لنفسك عن طريقة لأن تقرأ**.

وهناك أمور مهمّة لطقوس القراءة وهو النظر في نوع الكتاب، يعني مثلًا الكتاب الذي تكثر فيه الأخطاء إيّاك أن تنظر فيه، هذا يعوقك، لأنّك كأنّك تمشي بالسيارة فوق المطبات، فبدل أن تمشي لتقطع تمشي لتصحح، فتُثبّط النفس ويُقطع عنك الأمل.

ومن طقوس القراءة المهمّة، ينبغي ألّا تُشعر ابنك بكتاب ممنوع؛ لأنّه حينئذ سيسعى له إلى الممات. وعائشة عبد الرحمن التي تُسمّى بنت الشاطئ ذكرت أنّها اهتمّت بكتب المتكلمين؛ لأنّ والدها كان يخبئ الكتب عنها، فذهبت إلى هذه الكتب من أجل أن تعرف لماذا كان يخبئها عنها، فنشأ الشغف بهذه الكتب التي كانت تُخبأ عنها. فلذلك افتح الباب ولا تخبئ، أعلمهم ما في هذه الكتب، وبيّن لهم أنّ هذا أولى من هذا إلى غير ذلك، حتى تبدأ القراءة الصحيحة.

أعود وأقول أنّ **القصدَ البحثُ عن القراءة الملائمة لك التي بها تستوعب وتمشي ولا تقف، وتحصيل المراد في النهاية**.

وإيّاك أن تقول سأفعل! بل الآن افعل، الآن تستطيع أن تفعل. الآن تستطيع أن تمسك كتابًا فتقرأ، والآن تستطيع أن تنتهي من أيّ كتاب مهما كان كبيرًا. الآن تبدأ وهكذا.

النقطة التي وعدتكم فيها وهي جنايات القراءة.

سأذكر لكم بعض الجنايات التي لاحظتها في نفسي، وهذه تؤدي إلى بعض سوء الخلق وإلى بعض ما لا يُحمد. وأسوأ ما وجدت في القراءة، هو أن يزورك ضيف وأنت تقرأ. هذه من جنايات القراءة على القارئ؛ لأنّك تكون منغمسا في رحلة خاصة بك، وهو يريد أن يدخل عليك! وحينئذ تظهر منك أسوأ الأخلاق!

فلذلك إذا جاء، إمّا أن تمسك الكتاب وتضعه وهذا حتى يبقى أثره؛ لأنّ الكتاب يصنع حالة من الغمامة عليك، يعني أنت لا زلت تعيش معه، لا زلت تعيش مع آثاره، مع روائحه، مع ما يقول ومع ما يتكلم، ومهما خرجت فإنّك تحتاج إلى وقت من أجل أن تخرج من الحالة التي أنت فيها. ولذلك فهذه من الجنايات، وهذه في الحقيقة من أسوأ ما وجدت. وأنا أتمنّى ألا يُزار أحد وهو يقرأ، وإذا دخل أحد تحتاج إلى أن تذهب وتتوضأ وتستعيذ بالله من الشيطان.

أما أعظم جناية فهي عند أهل العلم أنّ الكتاب عند بعض النساء كالضرائر. وقلت لكم سابقًا أنّ بعض النساء حرقن مكتبة أزواجهن، ترى الرجل طول النهار مع الكتاب فهي تظنّ أنه يعشق الكتاب أكثر منها فتغار، وكما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه عبد الرزاق في مصنفه بسند مرسل: (إن الغيرة لا تعرف أسفل الوادي من أعلاه)[٤]. يعني المرأة الغيورة لا تفرق بين أسفل الوادي من أعلاه.

ومن جنايات القراءة إنفاق المال الكثير على القراءة، حتّى أنّه يضيّع الكثير من واجباته. وهذه لا تُسوّء صورة القراءة ولكن ينبغي أن تصنع التوازن، ينبغي للمرء أن يكون ذكيًا لصنع التوازن.

من أعظم جنايات القراءة التي أتمنّى أن أكررها في كل جلسة: **إيّاك أن يبتلعك الكاتب**.

جنايات القراءة كجنايات الأفلام.

قرأت في الصحف لما خرج فيلم (سوبر مان) أنّ امرأة في الثمانين قفزت من فوق الطابق الثمانين من أجل أن يلتقطها (سوبر مان)!

هناك بعض الناس يقرأ عن شيء فيظنّ نفسه هو، ويضحك عليه الكاتب فيبتلعه، وهذا ذكره كثير من أهل العلم في أنّ القارئ ابتُلع. كما قالوا عن الغزالي قال أبو بكر بن العربي: "شيخنا دخل في أجواف الفلاسفة ولم يستطع الخروج"، لما قرأ لهم ابتلعوه.

قرأت لخليل نعيمة لما ذكر جبران خليل جبران قال: "جبران لما قرأ لنيتشه صار يشعر بالإنسان السوبر"؛ لأنّ نيتشه في كتابه (هكذا تكلم زارادشت) أعطى صورة للإنسان السوبر. الإنسان السوبر يعني الإنسان المميز الذي يستغني عن الإله ويستطيع أن

---

[٤] قال الحافظ: أخرجه أبو يعلى بسند لا بأس به عن عائشة مرفوعا.

وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة [٢٩٨٥] بلفظ: [إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه].

يُخضع الطبيعة؛ لأنّ فترته فترة اكتشاف العلم والطيران والمتفجرات وغير ذلك، فأعطت صورة للإنسان أنّه فوق كل شيء! وهذا الذي أنشأ العقيدة النازية الّتي جعلت الإنسان السوبر هو العرق الآري.

فلمّا قرأ جبران هذا الكتاب صار يمشي وكأنّه الإنسان السوبر، ولم يتغيّر شيء! كالّذي ينظر إلى واحد له عضلات فهو يشعر أنّ عضلاته قد كبرت وهكذا! فهذه من الجنايات الّتي ينبغي أن تنتبه لها. يعني لا تظنّ نفسك وأنت تقرأ للمجنون أنك صرت عاشقًا، أنت تقرأ لتتعلم لا لتكون الحرف! بعض الناس يقرأ عنترة يظنّ أنّه صار عنترة وأنّه صار شجاعًا، وهو على ما هو عليه.

كالّذي ينظر إلى رجل يستطيع أن يفعل فعلًا، فهو يتصوّر أنّه يستطيع أن يفعله وهو لا يستطيع! تجد رجلا يستطيع أن يحمل الأثقال، وأنت تنظر إليه فتقول أنا أستطيع أن أحملها، تجد المراقب للاعب كرة القدم يقول أنا أستطيع أن أفعلها، هو يظنّ ذلك.

الجزائريون عندهم مثال جيد: "الموال في الرأس لكن الأرجل مختلفات". كالّذي يترنّم في داخله أنّه هو المغني العظيم، فعندما يرفع صوته يجده سيّئًا.

فهذه من الجنايات التي ينبغي أن تنتبه لها، ينبغي أن تنظر إلى نفسك ولا تلغي ذاتك. **القراءة ليست خداعًا، القراءة وعي.**

يكفي إلى هنا في هذا الموضوع، وإن شاء الله سنعود إلى هذين البحثين عندما يتيّسر لنا، فيما يتعلّق بطقوس القراءة وثانيًا جنايات القراءة.

الآن نأتي إلى كتاب (قدر الدعوة) للأستاذ رفاعي سرور.

ابتداءً أريد أن أقول لكم شيئًا مهمًّا وهذا اعتراف؛ الحركة السلفية ومنها التيار الجهادي لم تنتج فكرًا، إذا اعتبرنا أنّ التيار الجهادي هو خروج أو انبثاق من المنهج السلفي، وإن كان هذا الأمر الآن بدأ يتلاشى وأنّ السلفية باعتبارها شعارً علميًا ينبغي للجهاد أن يتجاوزها، وهذا موضوع آخر يحتاج إلى تفصيل؛ لأنّ الجهاد أكبر من الشعارات العلمية.

لكن لنرجع إلى الإنتاج، المدرسة السلفية لم تنتج فكرًا؛ ولذلك هي أضعف من أنتج مثلًا في قضايا التفسير. ماهي المدرسة السلفية المعاصرة وما هو عمادها؟ تحقيق كتب التراث وتخريج الأحاديث، وهي أعمال الورّاقين. أين الإنتاج الفكري؟ الإنتاج العلمي؟ الذهني؟ الذي هو صدى هذا النص الإلهي من قرآن وسنة على نفس الإنسان؟ لا تجد.

يعني عندما تريد أن تقرأ لشيخ الإسلام ابن تيمية، أو أن تقرأ لابن القيم، هل تجد له كتابة ذاتية بعيدة عن الفقه وأحكامه؟ عندما تقرأ كتاب ابن القيم (طريق الهجرتين)، هو يتحدّث عن صدى النص على نفسه، وأنا لا أريد الآن أن أخوض في موضوع الفكر الإسلامي -وإن شاء الله سيأتي الحديث عنه- هل هناك حقًا شيء يُسمى فكرًا إسلاميًا؟ أم أنّ الإسلام لا يعترف بالفكر وأنّ كلمة الفكر الإسلامي غير صحيحة؟ وسنأتي إليها، هذه من المباحث المهمة التي يدور حولها موضوع القراءة إن شاء الله تعالى.

لكن المدرسة السلفية على الجملة لم تنشئ فكرًا، وعامّة ما أنتجت المدرسة السلفية هو ما ذكرته لكم من المسائل الفقهية والخصومة، وحتّى المسائل الفقهية لم تكن على درجة عالية من التعمّق، إنّما هي المسائل التي يخوض فيها الفقهاء كثيرًا. لكن أين الفكر؟ هل يستطيع شيخ سلفي أن يكتب لنا عشر صفحات من الفكر المميّز كما كتب فلان المفكر -وهم كثر في خارج المدرسة السلفية-؟ لو اعتبرنا المدرسة السلفية باعتبارها حدًّا بلديًا أو حدًّا مدرسيًا، وأخرجنا سيّد من المدرسة السلفية -وهذا غير صحيح طبعًا-، فهل يستطيع هذا أن يكتب عشر صفحات كما كتب سيّد؟ أن يكتب لنا فكرًا دون يملأها بالطريقة التي تُسوّد بها الدفاتر على طرقهم؟ لا تجد. وكبار المشايخ منهم لا يستطيعون.

ولذلك لما جاء بكر أبو زيد في نقده لنقد ربيع المدخلي لسيّد قطب، وهذا من إنصافه، الرجل مات وعليه ما عليه وله ما له، ولكن من إنصافه أنه قال: "إنّ من يقرأ كلام ربيع المدخلي في حقّ سيّد قطب ويقرأ كلام سيّد قطب يرى أنّه تلميذ في الثانوية أمام عملاق!" السلفية لا تنتج عملاق الفكر، يتكلّم عن الإسلام باعتبار صدى هذا الإسلام على نفسه فكرًا. كيف يتأمل واقع الحياة! كيف يقرأ الحياة تأملًا بعيدًا عن الحالة الحديّة التي يتعامل فيها! لا تجد.

ولذلك حتّى المسألة الجهادية التي يسمّونها، وهي جزء من المدرسة السلفية بالتقسيمات التي لا أقرّها، ولكن أتعامل معها مضطرًا، لا تجد فكرًا. الّذين ينتجون الفكر الإسلامي -وهذه المفروض أن أؤجلها ولكن أقولها مضطرًا الآن- ينبغي لهم واقعيا أن يكونوا قد تجاوزوا كل المحطات السابقة التي يمارسها ذاتيًا ودائمًا السلفيون، يجب أن يتجاوزوها. بمعنى أنّ المفكر الإسلامي -

ونحن نقرّها بهذا المعنى وليس بمعنى آخر-، يجب أن يكون رجلا قد تجاوز أن يكون محدّثًا. تجاوز ليس بمعنى أعرض عنها، إنّما استوعبها، هو محدث، وهو أصولي، وهو فقيه، وهو بلاغي، وهو نحوي، وهكذا. تجاوزها ليصل إلى ما يمكن أن يُسمّى بالمثقف الإسلامي أو المفكّر الإسلامي.

مع أنّ الواقع أنّ المفكر هو تجاوز لها بمعنى إلغاء. وأنا دائمًا أقول يسمّونه مفكرًا إسلاميًا ليهرب من التبعة؛ لأنّه لو قال فقيه سيُحاسب، لكن يقول أنا مفكر إسلامي حتّى لا يُعامل معاملة الفقيه مع أنّه يخوض في قضايا عظيمة يعجز أن يخوض فيها الفقيه ويخاف منها.

عندما يتحدّث المفكّر عن تصوّر الدولة الإسلامية، هذا تجاوز، الفقيه ربّما يخاف أن يتكلّم فيها. ما هي علاقة المسلمين بالآخرين؟ هذه قضية تجاوز لقضية الفقه، فبعد أن تستوعبها وتهضمها تستطيع أن تتحدث.

إذًا ينبغي لمن يعرض نفسه للنّاس على اعتبار أنّه مفكّر إسلامي -وليس على طريقة المفكّرين الذين يريدون أن يبطلوا قواعد الأصول وقواعد الحديث وقواعد التفسير من أجل أن ينفلتوا من عقال العلم وضوابطه الشديدة الحديدية فيسمّونه مفكرًا إسلاميًا- ينبغي أن يكون مستوعبًا لهذه العلوم وقادرًا عليها ليقدم الفكر الإسلامي.

فهذه لم تستطع المدرسة السلفية أن تخطو نحوها اقترابًا، لا نقول وصولًا بل لم تستطع أن تخطو نحوها اقترابًا. وإلى الآن كلّ من يريد أن يتكلّم في هذا المعنى في الفكر الإسلامي الذي طرحته إيجابيًا وليس سلبيًا، الّذي يريد أن يقترب، هذا للأسف لا يجد عند الناس احترامًا وحاله كحال الشيخ علي الطنطاوي -هذا نراه من الصغار- ما هو حال الشيخ علي الطنطاوي؟ الشيخ علي الطنطاوي يكتب أدبًا راقيًا؛ لأنه تلميذ الرافعي، فيكتب مقالات أدبية راقية، وهو في واقع الأمر يمارس القضاء الحنفي، فيجلس مع القضاة يقولون له: "ما أدخلك معنا أنت لست فقيهًا"، يقول: "فما أنا يا جماعة؟" يقولون: "أنت أديب، اذهب إلى جماعة الزيّاد وجماعة الرافعي والعقّاد"، فيذهب إلى جماعة الأدب، يقولون : "ما دخلك بنا أنت فقيه". فقال:" أنا ضيّعت حالي بين الفقه والأدب لا أهل الأدب قبلوني ولا أهل الفقه قبلوني". فهذا واقع.

وإذا سُئل أحد الصغار هل هذا المفكر هو فقيه؟ يقول لا، هذا ليس عالمًا. لأنّ العالم عنده هو الحالة الّتي تجاوزها هذا المفكر. يعني حملها واستوعبها ودرسها، وعرف مذاهب الفقهاء، وعرف الترجيحات ودرسها، وإذا ذهب إلى الأصول استطاع أن يتكلّم فيها مع كبار العلماء، وإذا ذهب إلى الحديث وصل إلى درجة المناظرة. ثمّ بعد ذلك يأتي هذا الصغير ويقول هذا ليس

عالمِا، لماذا؟ لأنّ صورة العالم عنده هو الذي جلس ليشرح (الآجرومية) ويشرح (متن أبي شجاع) و(زاد المستقنع)، إلى غير ذلك من الصور الموجودة في عالم المسلمين.

وهذه من الأمور المهمّة جدًا في بيان العلم، وهذه أنا أفعلها وتقع من أكبر النّاس، وتقع من العلماء ومن غيرهم، وهو سطوة الجمهور كما قال (غوستاف لوبون): "سطوة الجمهور على المثقف والمفكر". يقول أنا إذا تكلمت ببيت شعر سيقولون عني شاعر، أنا ما لي دخل بهذا، أنا صورتي صاحب طربوش وفقيه وقاضي. فهو يهرب من أن يتكلّم فكرًا؛ لئلا يُتهم على قاعدة الصغار أنّه لم يجلس أمامهم ويقول حدّثنا فلان ليصل السند لرسول الله بالأسانيد التي الآن لا تزيد المرء علمًا ولا تقدم له فقهًا، ولكن الآن للأسف عند بعض الناس هي إشارات العلم.

وكما أنّ الطربوش، وهو صناعة، صار سمة للعالم والذي لا يلبس الطربوش ليس عالمِا، فكذلك هذه صارت طرابيش، لكن طرابيش اسمية، تلك طرابيش ثيابية وهذه طرابيش لقبية. يقول لك الشيخ هذا صاحب طربوش، وهذا شيخ صاحب أسانيد.

هذه مقدمة من أجل أن أقول بأنّ المدرسة السلفية لم تنتج فكرًا؛ ولذلك من أضعف إنتاج المدرسة السلفية هو التفسير. انظروا كم الذين يتكلّمون في الحديث، انظروا الّذين يتكلّمون في الفقه: المسائل والعبادات والأحكام وغيرها، الأصول جديد بالنسبة إليهم بدأوا يدخلون عليها، وإن كان لا زال من العلوم التي لم توضع على النار الوقت الكافي، أمّا التفسير فتجد أنّ القليل من القليل من القليل الّذي يقترب منه، وهذا في الحقيقة لماذا؟ لأنّ التفسير هو بالمعنى الذي ذكرته للمفكّر الإيجابي؛ لأنّ نهاية ما يصل إليه الحاصي والجامع لعلوم الإسلام هو أن يتكلّم في القرآن، فلا يمكن أن يتكلم في القرآن إلا بعد أن يكون عالمِا في كل جوانب العلم حتى يتكلّم في القرآن، ومن أجل أن يفعّل القرآن في حياة الأمّة.

لا تنظروا إلى واحد جالس يقول قال ابن كثير، هذا علم. أنا لا أتكلّم عن هذا، كما لا أتكلّم عن الرجل الّذي يجلس أمام الناس ليقرأ لهم صحيح البخاري مع تعليقات فقهية قديمة يأخذها من هنا ومن هنا، مع أنّها علم، أنا لا أحقّر والعياذ بالله، لكنّي أتكلّم عن أن يقرأ الحديث القراءة التي تنتج ما سمّيته صدى هذا العلم على نفس المتكلّم، وصدى هذا العلم على واقع الأمّة، وأن يقرأ هذا العلم من أجل إصلاح الأمة والنهضة بها.

وكذلك الذي يريد أن يقرأ القرآن ما هو صدى هذا القرآن علميًا؟ من هذا الذي يقرأ القرآن لينتج صدى علميًا في حياته فيتكلّم عنه؟ لما قال سيّد في ظلال القرآن قال: "هذا صدى القرآن"، هو لا يسمّيه تفسيرًا لكنّه تفسير في الحقيقة وفيه أركان التفسير. لكنّه أراد أن يجعل السمّة البارزة فيه هو صدى هذا القرآن على نفسه، وصدى هذا القرآن في إحياء الأمّة ورقيّها.

لماذا أقول هذا؟ لأنّ الأستاذ رفاعي سرور هو من المحاولات القليلة التي أرادت الخروج من هذا الحدّ القاتل في داخل المدرسة السلفية.

يعني الأستاذ رفاعي سرور أراد أن يتكلم سلفيًا في الفكر الإسلامي، وهذا يكاد يكون وجوده -أي الفكر الإسلامي- في داخل المدرسة السلفية يكاد يكون صحراء قاحلة. ولما تكلّم البعض كلامًا جيدًا، حملها البعض الآخر ونشر هذه الورقات باعتبار أنّها هزمت المفكرين الإسلاميين في التيّارات الأخرى. ولو صرّحت بالأسماء لاحمرّت أنوف. لو صرّحت بالذين كتبوا كتابات يسيرة في مسمّى الفكر الإسلامي في داخل المدرسة السلفية وكيف أخذوها وطاروا بها أن هذا هو الإنتاج العظيم، ثمّ قارنّاها بما يستحق أن يُسمّى بالفكر الإسلامي لكانت مهزلة، لكن لأنّ السلفية ليس عندهم هذا فرحوا. كانوا في القبيلة إذا وُجد الشاعر يفرحون ويذبحون الذبائح ويصنعون الأغاني ابتهاجًا وفرحًا أن ظهر شاعر في القبيلة، ولكن لو أنّنا تصورنا ظهور رجل في هذه القبيلة يستطيع أن يقرأ الشعر ويستطيع أن يصفّد الكلام كشعراء "الحلنبتيشي" اليوم والناس ظلّوا يصفقون له مساكين؛ لهذا يُقال (القرد في عين أمّه غزال)، فالسلفيون لما رأوا بعضهم يغرّد فكرًا قالوا ظهر منّا شاعر وظهر منّا مفكر، وإذا وجدنا من يريد أن يكتب فكرًا إسلاميا وجدنا المسكين سارقا.

ولذلك أنتم تجدون عامّة ما يسمّى فكرًا في السلفية المعاصرة مسروقا من الآخرين ولا ينسبونه. ولا أريد أن أفتح باب السرقات في هذا الباب: يسبّون سيدًا ويأخذون منه، يسبّون الغزالي ويأخذون منه، ويسبّون فلانًا ويأخذون منه. لماذا يسوّقون هذا؟ لأنهم يعرفون أنّ السلفيين لا يعرفون هذه الكتب. ولو أنّ واحدًا اطّلع في النت ووضع الجملة وإذا هي قال الغزالي. على قاعدة من قال (لو أن أحدًا جاء لكتاب فقال لكل جملة فيه ارجعي من حيث أتيت لم يبق له من الكتاب شيء).

القصد من هذا بأنّ ما يُسمّى بالفكر الإسلامي بمعناه الإيجابي كانت المدرسة السلفية عاجزة عن إنتاجه

الحالة الثانية: الذين تكلّموا في الفكر الإسلامي ما هي أخطائهم؟ أخطائهم أنّهم بنوا الفكر الإسلامي من غير أصول، وسمحوا لأنفسهم الخوض في قضايا عظيمة من غير القواعد العلمية وأتوا بالعجائب. على قاعدة ابن حجر رحمه الله في فتح

الباري حين يقول: "من تكلّم في غير فنّه أتى بالعجائب". فهم تكلّموا في غير فنّهم، ومنهم من دعا إلى تغيير أصول الفقه وهو لا يعرف الأصول، ومنهم من دعا إلى تغير الفقه، وهكذا تكلّم هؤلاء المفكرون فأتوا بالعجائب والفواقر -جمع فاقرة يعني مصيبة-.

ومن تكلّم وجمع بين الأمرين هم قليل في هذا الباب، الذين تكلّموا فكرًا إسلاميًا متينًا قويًا تقرأ لهم فتستوعب، في الحقيقة قليل. ولذلك أنا قلت لكم مرّة أنّي أفرح لقراءة خصوم الإسلام أكثر منّي لقراءة المسلمين؛ لأنّ هؤلاء يتعاملون مع الفقه الإسلامي تعامل المفكر لكن في غير مساحة الإسلام، فيتكلّمون بكلام عظيم في ضرب الإسلام فيجعلك تذهب إلى عظمة الإسلام الذي تكلّموا عليه.

الأستاذ رفاعي سرور لا بدّ أن أكون أمينًا وتردّدت أن أقول هذا الكلام لكن سأقوله أمانة: الأستاذ رفاعي سرور انقطع حبل ارتقائه. هكذا الحياة، والصوفية لهم عبارة جميلة أحبها: "من كانت بدايته محرقة فنهايته مشرقة".

ولما أنت ترى المرء يكدّ، يعني كتاب (قدر الدعوة)، كتاب أقسم بالله وأنا أقرأه كنت أحسّ أنّ رفاعي سرور كأنّه يضرب في الصخر، مسكين، تعبان. لماذا؟ لأنّ عنده شيئا في ذهنه ولكن الوسائل التي ملكها في ذلك الوقت لم تكن كافية، وكان يمكن أن يبني عليها.

ولذلك (قدر الدعوة) قرأته أكثر من مرّة احترامًا للرجل ومعرفة له؛ لأنّني رأيت كتبه سواءٌ كتاب (قدر الدعوة) أو كتاب (أصحاب الأخدود) أو كتاب (عندما ترعى الذئاب الغنم)، يعني أنت ترى أنّ الرجل يحاول أن يأتي بالجديد على قواعد العلماء، بصرامة السلفي في الأصول والحديث والنظر. لكن الرجل عندي انقطع عنه الحبل، ولذلك ترى كتبه قليلة، وكنت تظنّ أنّه سيمشي في هذا الوادي ليصل به إلى مستقرّ عميق وقوّي، ولكن يخرج لنا الجزء الثاني من (ترعى الذئاب الغنم) فأنت تعجب أنّه ارتداد إلى الخلف وليس تقدمًا إلى الإمام.

أنا أعرف أنّي سأغضب حبيبًا لي وهو ابنه -وابنه من أحبتي وإخواني- ولكن هذا ليس من خطأ الشيخ. والحمد لله كان بيني وبينه سلامات ومودّة عن بعد، لم نتقابل. لكن هذا من الإنصاف حتى نعرف كيف جنت الفترة السابقة على رجالنا. يعني هذا من جنايات الواقع أنّ الرجل بأحواله وأوضاعه والسجن والقلّة المالية، اليوم مع الإنترنت ممكن الحال أفضل، مع أنّي لا أعرف

كيف يمكن للنّاس أن يقرؤوا الكتب في الإنترنت، أنا أمرض بعد قراءة خمس عشرة صفحة أو عشرين صفحة في الإنترنت. وربما في الجلسة أقرأ كتابًا لكن في الإنترنت كيف تقرأ؟! هذا من طقوس القراءة.

فالشيخ بلا شكّ عاش مرحلة معاناة شديدة منعته من الإبداع أو التطور في الإبداع. من قرأ كتابه (قدرُ الدعوة) -أقولها على جهة الحكاية- من قرأ كتابه يجد الرجل يملك الضوء الذي به نسمّي الفكر الإسلامي على المعنى الإيجابي. ونكرّر هذا على المعنى الإيجابي حتى لا نخطئ؛ لأنّ هذا مقام شريف أن يُقال مفكر إسلامي أو مثقف إسلامي، على هذا المعنى مقام شريف.

وقد قرأت كلمة أنّ الغزالي وهو من هو، الّذي يسمّونه حجة الإسلام كان يتمنّى أن يُنادى بالأستاذ؛ تشبيهًا له بأبي إسحاق الإسفراييني، فأنت لما تقول لواحد أستاذ أو دكتور فهي كلمة إرضاء، ولذلك أنا أقول "مثقف إسلامي" بمعنى إيجابي، هذه ليست كلمة قليلة، هذه لأنّه استوعب العلوم فارتقى بها إلى ما هو ذاتي وإلى ما هو واقعي وموضوعي.

أقول من قرأ كتاب الأستاذ رفاعي سرور يجد أنّه يعاني، خاصّة أنا أقصد هذا الكتاب وكتاب (عندما ترعى الذئاب الغنم) وأنا أحب لكم أن تقرؤوا الأول. الثاني اقرؤوه، ولكن ليس بشيء مقابل الأول، الجزء الأول هو الذي يعبر حقًّا عمّا يريده هذا الأستاذ وعن قبسة النور في داخله التي أراد بها أن يصنع شيئًا.

أمّا لماذا لم يواصل في الحقيقة؛ فالخطأ ليس منه، ليس منه مائة بالمائة، ومن علم أحواله والقسوة التي عاش فيها سواء قسوة الواقع والإخوة، أو قسوة المال والظروف الّتي منعته من أن يواصل أو الحالة الشديدة الّتي منعته من مواصلة الكتابة. وربّما -أقول ربّما لأنّي سأضعها مهمة جدًا-وهذا خطأ إن كان الأستاذ -رحمه الله- قد وقع فيه فالحق يُطلب الاستغفار له -أنا أقسو وفي الحقيقة أحبّه فالإنسان يتكلّم عمّن يحبه بهذا المعنى-لعلّ الأستاذ شعر أنه يكتب لمن لا يقرأ، وهذه خطيئته، لأنّي لا أدري لماذا توقف. ولما بدأ يكتب مرّة طلب منه الإخوة في مجلّة (نداء الإسلام) أن يكتب على صدى يعرفونه، والحقّ أنّه كتب بعض المقالات على قاعدة المجلّد الثاني من (عندما ترعى الذئاب الغنم)، لم تكن بمثل ما بدأ به.

فلماذا لم يكتب؟ أقول ربما أنّه شعر أنّه يكتب لمن لا يقرأ. والمرء يكتب لماذا؟ ليسمعه الناس. هل يكتب من أجل أن يرمي في الصحراء؟! يريد أن يسمعه الناس، فلو شعر الكاتب العلميّ الرصين أنّ كلامه لن يقرأه أحد؛ فهذه مميتة للكاتب. يجب أن يكون في ذهنك أنّ هناك من سيقرأ هذا الكتاب. على أيّ قاعدة؟ على قاعدة الإخلاص. ممكن الكتب الأخرى هناك قواعد مزوّقة ومزيّنة مثل الدعاية، يعني هاري بوتر، هذه الروايات السخيفة التي كان يصفّ لها طالب الشراء الليلَ لأنّها ستخرج غدًا،

وتجد الطوابير بالكيلو والاثنين كيلوا على المحلات التي تزيد عن عشرات الآلاف من المحلات التي تبيع هذه الرواية والناس يصطفون. ما الذي صنعه؟ هو خداع.

وهناك كتاب من الألف كتاب قبل الممات، وأنا أعرف أنّه شاقّ أرجو أن تبدؤوا بتجميعه الآن وهو كتاب مهمّ اسمه (المرايا المحدبة). أنا سأستخدمه الآن في قضية الخداع. هذا المرايا المحدّبة ماذا تصنع؟ المقعّرة تصغّر، والمحدّبة ماذا تصنع؟ "شلاطيفة"!! لأنّها الملائمة للاسم لو قلت "شفايف" فهي تلائم اسم الشفاه طبيعيًا لكن لما تظهر أمام مرآة مقعّرة ماذا يصير عندك؟ كلمة "شفايف" قليلة نقول "شلاطيف" يعني تظهر الشفاه عظيمة. ماذا يقول الكاتب –وهو كان سفير مصر في أمريكا–يقول:" أنا درّست الأدب في مصر في جامعة القاهرة، ودرّست الأدب الإنجليزي والأدب الإنجليزي المقارن والعربي". قال: " لما آتي إلى ما يُسمّى بشعر الحداثة وأقرأ لكي أفهم فلا أفهم، ولكن أستغرب فأجد في المقابل كلامًا عظيمًا في تمجيد هذا الكلام!" يقول: "أنا أظنّ أنّي بين قوسين حمار. لكن لما أقرأ الناقدين كيف يفهمون، كذلك أفهم كيف ينقدون".

يقول: "في النهاية أدركت أنّي لا ألغي عقلي". بعد هذه الرحلة من قراءة ما يُسمى بالحداثة والبنيوية والكلام هذا قال:" أتمنّى أن أفهم ما يكتبون فلا أفهم، أتمّنى أن أفهم كيف ينتقدون الكلام في تعظيمه فلا أفهم"، قال:" وأنا رجل دكتور وأعلّم في الجامعة ودارس الأدب العربي والأدب الإنجليزي وكل هذا ولا أفهم فيها شيئا"، قال:" اكتشفت المرايا المحدبة". أنّهم كذابون، الصورة صغيرة، لا شيء، ولكنّها وُضعت أمام المرايا المحدبة فصارت "شلاطيف".

يقول لك الشاعر العظيم، ولما تقرأ شعره لا تفهم شيئًا، في النهاية ستتهم نفسك أنّك لا تفهم ولا تعرف. فهذا خداع، هذه ينبغي أن تخرج منها.

ولذلك ما يُسمّى بالإعلام هو قصف العقول. هناك شخصيات تُعظّم، مثل القصّة الّتي ذكرتها لكم لأنّ لها تسويق.

في العالم الديني فقط معيار الصعود والهبوط هو الإخلاص. ذوّق كما تريد، اعمل دعاية كما يفعل بعض المشايخ: وقد توجّه إليّ بعض الإخوة بسؤال مهمّ، وهو جالس في بيته، فتتصوّر أنّ الجموع في خارج البيت تتوجّه إليه بالسؤال، وهو لا أحد يدري به، وهذه يصنعها الشيوخ كذلك، فالشيوخ يكذبون كذلك.

وهذا من التزويق، لما نأتي إلى المسألة في أمر الدين فلا ينفع فيما هو طاف طاهر للناس وما هو راسب لا قيمة له إلّا الإخلاص. ولذلك علمائنا لما يأتون لكتب النووي، ما الذي نشرها؟ الإخلاص. لما تأتي لكتب ابن كثير، ما الذي نشرها؟ الإخلاص. لأنّ الدين لا ينفع معه إلّا الإخلاص.

نرجع إلى هذه القضية وسنواصل إن شاء الكلام عنه في الدرس القادم.

فأنا أقول لعلّ –وأرجو من ابنه الأستاذ عمر أن يكتب لنا شيئًا من هذا–، هل كان رفاعي سرور يشعر أنّه يكتب للا أحد. هل وصل للحظة أن يقول: أنا أكتب لمن؟

وهذه وجدتها للأسف في حياة بعض العلماء المعاصرين كما وجدتها في الشيخ كشك لما قال يومًا: "والله لو كنتم ذبابًا لسمعت لكم طنينًا". وهذا غلط، مع أنّ الشيخ كشك هو أستاذ الخطوة السياسية في العالم الإسلامي، ولا أحد يجادل أنّه أستاذها وإمامها، لكن من بعض الأقوال التي نُسبت إليه أنّه قال: "أنا تكلّمت سليم ما صنعت شيئًا". ورأيت بعض المشايخ يجلس التسع سنوات يخطب في مسجد ثم ييأس ويجلس في بيته يقول ماذا صنعت، وهذا خطأ.

عدم الانتشار وعدم التأثير هذا له أسبابه لكن ينبغي ألّا تتوقف، إمامك في هذا ينبغي أن يكون إبليس! من إمامك في عدم التوقف؟ إبليس. كم من نبيّ خرج من تحت مخالبه؟ كم من نبيّ دخل الجنة؟ آلاف الأنبياء. كم من الصالحين خرجوا منه؟ كم من العبّاد؟ كم من المجاهدين نجوا من براثنه ومن مخالبه؟ سيملؤون الجنّة، وهل يئس؟ ما يئس.

ولذلك الأنبياء لم ييأسوا والدعاة لا ييأسون. تعبت في جانب لم يفلح اتركه، وعند اللهمّ ربّ هذه الدعوة التامة، أنت تؤذن في الناس، والمؤذن يضع أصابعه في أذنيه ويؤذن. اكتب، ثم يأتي من يقرأ كتابك. سيأتي يوم من يقرأ كتابك. ولذلك التوقف عن الكتابة لسبب أو ظنّ أنّ الناس لا يسمعون هذا خطأ.

وليس المهمّ أن يُنشر كلامك بالآلاف، المهمّ أن يأخذ كلامك رجل يستحق أن يحمل هذا الكلام. الآن هناك واحد خطب في الملايين ثم طلب منهم فعلًا فلم يستجب له إلّا مائة، وواحد خطب في مائتين فلم يستجب له إلّا مائة وخمسين، فمن الأفضل؟ الذي استجاب له المائة والخمسون. أنت ما دخلك؟ المهمّ أن يأخذ هذا الكلام لمن يفهمه ومن يمشي فيه ومن يسير به ويفعّله في حياة الأمة وليس العبرة بالكثرة. فبعض النّاس يكتب وينظر هل يقرأ النّاس، هل يسمعون، لماذا لم ينتشر هذا الكتاب؟ لماذا تنتشر الكتب الضعيفة؟ لماذا تنتشر الكتب الّتي لا قيمة لها والّتي فقط بالأسماء؟ هذا عالم التسويق، في النهاية

سيموت هؤلاء المشايخ فلا يذكرهم أحد، في النهاية، هذه الكتب تُسوّق في وقت من الأوقات فإذا جاء وقت الملمّات لا يذكرها الناس ولا يعرفونها، إنّما يذهبون إلى ما هو إخلاص. هذه مسألة مهّمة وأنا اليوم أكثرت على الأستاذ رفاعي سرور؛ لكن لأنّي أحبه ولأنّ كتابه وهو كتاب (قدر الدعوة) كتاب مهمّ. إن شاء الله أفصّل فيه أكثر في الدرس القادم. ولذلك سامحونا الدرس القادم سيكون مع الأستاذ رفاعي سرور في كتابه (قدر الدعوة).

مع أنّ كتبه التي نمدحها ونحبها على نسق واحد من قضية وعيه في تفعيل الإسلام فكرًا بالمعنى الإيجابي. هي رؤى ذاتية وصدى هذا النص على نفس هذا الرجل في قضية تفعيل هذا الدين للواقع، وكان معنيًا، فالرجل لم يعش فكرًا كما يريد البعض أن يعيش الإنسان فكرًا، بل كان يعيش الإسلام واقعًا؛ سُجن، وعُذّب؛ ولذلك تجد في كلامه حرقة المتدين. وهذا شيء خفيّ في داخل الكتب لا يدركه بعض الناس، ينظر إلى الكلام جميل أو غير جميل لكن الكثير يتأمّل هل هذا الكلام مدفوع الثمن أو غير مدفوع الثمن! هل فيه حرقة الكاتب أم تجد فيه برودة الكاتب!

وهذا ممّا ينبغي أن يُذكر في كلامنا على الأستاذ رفاعي سرور، وبهذا نختم، وبارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا.

والحمد لله رب العالمين.

الجلسة الثانية:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله وصفيّه من خلقه أجمعين.

أمّا بعد؛ فيا أيّها الإخوة الأحبّة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هذا هو اللقاء الثاني بخصوص مناقشة كتاب **(قدر الدعوة)** للأستاذ رفاعي سرور رحمه الله. والوقت يضيق علينا في شرح الكتب، وكثير من الكتب التي مضت وضعنا عليها أمارات وإشارات فقط، ولم نفصّل ما فيها، فإنّ كلّ كتاب يحتاج أصلًا إلى ندوات وإلى دورات. وأنتم تعرفون أنّ المباحث والدورات ربّما يُستفرغ فيها قراءة كتاب واحد فقط وهي دورات متعددة.

وبهذا لو أردنا أن نسلك هذا السبيل في مناقشة كلّ مباحث الكتاب، وكلّ ما له وما عليه، وأن نقرأ ظروفه وتاريخه، وكما قلنا في وقت سابق أن نقرأ مكانه الجغرافي، ما وسعنا إلّا أن نخرج من كتاب واحد، والّذين يقرؤون معنا كتاب (الموافقات) يرون هذه المشقّة في قراءة الكتب قراءة استيعابية تفصيليّة، وحتّى قراءة نفسية نحاول أن نقرأ نفس الكاتب في الكتاب.

ولذلك لن نعود إلى الكتب السابقة العودة الّتي تجعلنا نقف عند كل قضيّة من قضايا الكتاب. نحن نقول هذه كتب مهمّة عليكم أن تقرؤوها وأن تشكّلوا معارفكم الذهنية والعملية من خلال قراءتكم لهذه الكتب، ومن خلال جعل هذه الكتب منظومة واحدة: فيها الحقّ، وفيها الغلط، فيها الصواب وفيها الباطل، وهكذا، فأن تقرأ وتقرأ وتقرأ.

وأنا هنا أريد أن أنبّه فقط على بعض خدع القراءة، ونبّهت على بعضها من قبل وهي: إيّاك أن يسرقك الكاتب. لكنّي هنا أنبّه على مسألة فيما نحن فيه، وهي مسألة مهمّة، وهي أنّ كثيرًا من الإخوة يقرؤون كتبًا ما يُنصح بقراءتها، أو أنّهم يجدون فيها الفوائد والمنافع من قبل النظر والتنبيه من الآخرين، أو أنّهم يشترونها يرونها مشتهرة فيبدؤون، يعني الكلّ من طلبة العلم يحبّ أن يقرأ كتب ابن تيمية، عندما يسمع أنّ لابن القيم كتاب (طريق الهجرتين)، يريد أن يقرأه فيذهب إلى السوق ويشتري الكتاب. وأنا هنا أقول طرفة قالها لي أحد الإخوة: إذا رأيت الشاب قادمًا إلى محلّ الرياضة أو إلى إستاد الرياضة وهو يلبس الحذاء الرياضي الجديد واللّباس الجديد فاعلم أنّه جديد!

بعض النّاس في القراءة شأنهم كشأن الرياضة، وسأضرب مثلا بالرياضة؛ لتروا نفس الصورة في القراءة. واحد يسمع أنّه لا بد أن يمارس الرياضة؛ فيذهب ويشتري الحذاء الجديد واللباس الجديد، ويبدأ يركض المسكين، يقول له المدرّب عليك بساعة أو

بنصف ساعة وهكذا. هو مسكين يركض أوّل دقيقة، أوّل لفة، فيتلم فيقول كما يقول العوام في بلادنا "حرّوم" لا أعود إليها، لماذا؟ لأنّه لا يجد المتعة التي غُرست في ذهنه من أجل القراءة، هو لم يجدها.

هو سمع الشيخ في التلفاز، أخذ الشّريط سمع أنّ شيخًا يقول: "هذا كتاب جميل ستتمتّع به اقرأه هذا كتاب مهمّ؛ فالمسكين يذهب إلى السوق فيقع بين يدي نصّاب من بائعي الكتب –وأغلبهم كذلك–، فيأتي إلى الكتاب، البائع يضحك عليه، يعرف أنّه جديد، نازل على الساحة جديد؛ فيبيعه الكتاب الذي بثلاثة دنانير بعشرة وهو لا يعرف، فيذهب المسكين البيت ويجلس جلسة يريد أن يتثقّف، هو يريد أن يبدأ رحلة المتعة! فيبدأ الكتاب وما إن ينتهي من نصف الصفحة الأولى؛ حتّى يشعر أنّه قد أُرهق –من أول لفّة!–.

المسكين ماذا يصنع؟ يأخذ الكتاب يقول ربّما أنا غير منتبه، فيرتاح ثمّ بعد ربع ساعة يرجع إليه يقرؤه، يزداد الكتاب عماءً أمام عينيه، ثمّ يعود إليه مرة أخرى، يقول: ما المشكلة؟ يقول: الظاهر أنّ هناك مشكلة، إمّا أنّني لا أصلح لهذا الفنّ أبدًا فيقول: "حرّوم"، وإمّا أن يقول: لعلّ هذا الكتاب مزوّر ليس هو الكتاب الذي قال عنه المحاضر، وهكذا.

وهنا أنبّه على أنّ القراءة –كما قلت كثيرًا لكم– هي تدريب، القراءة ملكة عقل، والعقل يُدرّب كما تُدرّب أيّ عضلة في البدن. فلا بدّ أن تسلك معه القليل، ملكة القراءة، هذا فنّ عظيم ينبغي أن تبدأ فيه الرحلة الطويلة من خلال الخطوات الأولى البطيئة؛ حتّى تصل إلى القراءة الواعية وتصمد. كما أنّك دخلت الصف الأوّل الابتدائي وأنت لا تعرف شكل الحرف، لا الألف ولا الباء، فبدأ معك المدرّب والمدرّس ببيان الحرف، حتّى ارتقى هذا الطفل الصغير الذي تكمن في داخله قوّة الطبيب ولم تظهر، حتّى بلغ مبلغ الرجال ودرس وسلك جميع الدرجات حتى وصل بأن أخذ شهادة الطبيب.

لو جاء واحد وقال لك: هذا الطفل الصغير هو طبيب، فأنت إذا كنت سننيًا تقول: نعم فيه قوّة الطبيب ويمكن وليس بعيدًا، ولكن الجاهل يقول: كيف يكون هذا طبيبًا؟ وهكذا.

أوّلًا، من خلال القراءة إيّاك وأنت تقرأ أن تقول أنا لم أفهم شيئًا. بعض النّاس وهذه يراها كل أحد، إيّاك أن تظنّ أنّك أنت المختصّ بهذه الصفة، وأنّها فيك دون بقية الناس، لا! هذه موجودة في كل النّاس، ما هي؟ حين تقرأ كتابًا، فبعد أن تقطع منه الشوط الّذي تحبّ، أو الّذي تريد، أو الّذي وصلت إليه، فتقف قليلًا ما الّذي بقي في ذهنك من هذه القراءة؟ الجواب: لا

شيء. تقول: أنا أقرأ ولو جاءني أحد وقال لي: ماذا قرأت، أنا ما فهمت شيئا ولم يبق في ذهني شيء. الجواب: هذه لعبة إبليسية. إيّاك!

الملكات انتبهوا لها، لا يوجد لها حدّ يُؤقّت بها. وهذه قاعدة. ما معناه؟ سل أيّ إنسان منّا يتقن السياقة، قل له: قل لي اللّحظة التي بها صرتَ سائقًا؟ لا أدري. كيف صرتَ سائقًا؟ يقول: لا أدري، ولكن أوّل يوم ركبت السيّارة، فلان علمني ومشيت "شوي شوي"، لكن أعطني اللحظة التي بها دخلت مسمّى السواقين وعندك ملكة السياقة؟ لا وجود لها، لا توقيت لها.

ولو سألت أيّ كاتب متى صرت تكتب؟ يقول لك لا أدري، أنا كنت متخرّجًا ثم كتبت. متى صرت قوّيًا؟ يقول لك لا أدري أنا كنت أذهب وهكذا. فالملكات لا يوجد لها حدّ يُؤقّت بها. لا يوجد حدّ تستطيع أن تقول هذا وقت امتلاكها لا وجود لهذا.

إذًا كيف تنشأ الملكات؟ تنشأ رويدًا رويدًا باختلاس ذكيّ وخفاء لطيف، حتّى أنّها لخفائها يعجز صاحبها عن إدراكها. وفجأة، كيف صرتَ قوّيًا بالتدريب؟ أيّ يوم وصلتَ إلى هذه المرتبة؟ يقول لا أدري، ولكنّه أخذها رويدًا رويدًا بلطف، حتّى غزت نفسه فصارت مستقرة وبعد ذلك نُسبت إليه.

وبالتّالي أنت حين تقرأ كتابًا وتقطع فيه تقول: والله أنا ما فهمت شيئًا منه، هذا من تلبيس إبليس! أنت في الحقيقة استفدت، ويومًا من الأيام ستُخرج المغرفة هذا الشيء الّذي اكتسبته من هذا الكتاب، يومًا من الأيام ستخرج هذه المغرفة هذا الشيء الذي وضعته في هذا الإناء! وبعد ذلك سيُقال لك من أين جئت بهذا الكلام؟ تقول لا أدري، هل أخذته من كتاب؟ تقول لا هو في ذهني، كيف تكلّمت بالحكمة؟ لما اجتمعت عنده الكتب، وقرأ المرّة والمرّة والمرّات، فبعد ذلك ينطق ويتكلّم ويخرج العلوم، ويتكلّم في هذا الباب وهذا الباب وهو لا يدري من أين أتى بها، وربّما هي من نفسه، ولكن هذه التي قالها تشكّلت من أفراد دقيقة ما لو أُفردت لا تكوّن هذه الحكمة التي قلت بها. فهمت الكلام، هذه مهمّة جدّا!

ربّما لو أخذت فكرة أو حكمة يسيرة ما لو أُفردت من هذا الكتاب لا تشكّل حكمة، ثمّ لو أُخذت حكمة من كتاب الآخر فبمجموعها تشكّلت هذه الكلمة الحكيمة الّتي قلتها، فصار النّاس يقولون فلان مفكّر، فلان حكيم. ولو قيل له: من

أين أتيت بها؟ يقول: لا أدري. لماذا لا يدري؟ لأنّ مجموع هذه الحكمة التي نطق بها هي أفراد ما لو أُفردت لما شكّلت هذه الحكمة؛ لكنّها باجتماعها صارت هذه الحكمة التي نطقت بها. هذه مهمّة جدًا.

أنت وأنت تسمع الآن، السّماع أكثر وعيًا من القراءة، الأذن أكثر وعيًا عند الحفظ وعند الانتباه. لماذا؟ لأنّها تحسّ بالكلام، الكلام له إحساس. ليس فقط كلمة تبيّن عن المعنى، وهذا شرحناه أنّ اللغة ليست فقط من أجل إبانة المعاني، قلنا هي أعظم من ذلك، هي أحاسيس بل هي ميزان عقلي. ذهبنا إلى أبعد من هذا، اللّغة ليست من أجل الإبانة فقط، ليس فقط من أجل أن تعرّف الآخر ماذا في نفسك عن هذا الموضوع، سواء كان هذا الموضوع يتعلّق بالمعاني أو يتعلّق بالأعيان، ولكنّها كذلك نقل مشاعر وأحاسيس، أمر كامن في النفس تحسّه وتشعر به حين ينطق به الذي ينطق بها أمامك.

وبهذا أنت تعلم أنّك حين تقرأ، إنّما هي كقطرة الماء التي توضع في البحر، هو لا يحسّ بها، ولكن هذه القطرات عندما تتدافع وتتكاثر تشكل نهرًا عظيمًا، تشكّل تسونامي!

ولذلك من خدع القراءة الأولى قولك: إنيّ لم أستفد! لو لم تستفد إلّا أنّك صبرت على القراءة فأنجزت الكتاب لكان كافيًا؛ لأنّها علّمتك أن تنظر، وهذا مرهق للذهن في الابتداء. يعني بعض الناس يقول: والله يا شيخ ما أمسك الكتاب إلا وأنعس. بمجرد أن أفتح الكتاب لأقرأ أنام.

إذًا مجرّد القراءة هي عملية، سواء حصلت آثارها أو لم تحصل. مجرّد أنّك تصبر في أن تنظر للكتاب وتحاول أن تدرس فيه هذا شيء عظيم، بعد ذلك تصبح حكيمًا.

فإذًا أن تقول أنا أشعر أنيّ أقرأ ولا أفهم وربّما أفهم ولكنّي عندما أعود إليه، أو أمرّ إلى فكرة أخرى، أشعر أنيّ لم أقرأ شيئًا، فهذا من خدع القراءة.

ولذلك يُقال للمرء: اقرأ، اقرأ. وكما قال النبي ﷺ للرجل وقد اشتكى بطن أخيه: (اسقه عسلًا)،راح ورجع فكرّر عليه: (اسقه عسلًا). اقرأ، اقرأ لا تتوقف، وهكذا.

النقطة الثانية وهي قضيّة أنيّ أقرأ ولا أفهم. ما تفهمه هو خير، وما لا تفهمه تجاوزه، يعني الكتاب ربّما تجد فيه أفكارًا صعبة ليس مهمًا أنّك لم تفهمها، ويكفي أنّك قد خرجت بفائدة.

وهنا أنبّه: إيّاكم أن تظنّوا أنّ كل كتاب هو كصحيح البخاري، معنى ذلك أنّ كل حرف فيه ينبغي أن ينشئ فقهًا وعلمًا. هذا خطأ!

وهناك من الكتب والله ما خرجت منها إلّا بفائدة، كتاب تجدونه أربعمائة صفحة، والله لست نادمًا أنّه شغلني يومًا أو يومين، مع أنّي أخذت منه فائدة واحدة، وأعتبر أنّ هذه الفائدة يكفي أنّها أثّرت في حياتي وغيّرت لي مفهومًا.

يعني هناك كتاب من آواخر ما قرأت في السجن، أنا ذهبت المكتبة كلّها من أوّلها إلى آخرها في السجن، فرأيت كتابًا جميلًا وهو (حياتي في الفنّ). **وأنا أنصح إخواني بقراءة كتب الذكريات والمذكرات والتراجم. اقرؤوها بعناية؛ ففيها فوائد عظيمة،** سواء كان لمسلمين أو لكفّار، اقرؤوا هذه كتب المذكرات انتبهوا لها، فيها فوائد عظيمة. وهذا "ستانسلافسكي" وهو رجل مشهور مسرحجي، وأنا لا أعرفه ولم أقرأ له شيئًا من قبل ولست خبيرًا بعالم المسرح خاصّة الغربي، ولما قرأت الكتاب يمكن يومين أو يومين ونصف، وهو أربعمائة وخمسين صفحة في الحقيقة قرأته؛ فعرفت هذا الرجل من هو وكذا، ولكنّي أصدقكم أنّي خرجت منه بثلاث فوائد فقط، ووالله أنّ الواحدة يُضرب لها أعناق الإبل! واحدة فقط من هذه الثلاث.

فلا تظنّوا أنّ الكتاب قرأته وفوائده قليلة، هذه الفائدة القليلة هي نبراس في عقلك ومهمّة جدًا، فلا تظنّ أنّك قد أضعت الوقت. نعم هناك كتب تقدم على غيرها لكن المرء لا يحصل له بأن يقرأ فقط من يفتح له مفاتيح الكتب.

بعض الإخوة يقول أنا أريد أن أعرف كيف جئت بهذا الكتاب. مرّات أقول للإخوة اذهبوا إلى هذا الكتاب، وهو مرمي في السوق لا أحد ينتبه له. يقول كيف عرفته؟ كيف خرج معك هذا الكتاب؟ أقول له أنا أقرأ كلّ شيء. وهناك مرّات كثيرة قرأت كتبًا وما خرجت منها بشيء. لكنّني قرأت، في النهاية عرفت أنّ هذا الكتاب لا يستحق أن يُقرأ. لما يأتيني سائل ويقول لي أريد هذا الكتاب وله دعاية، والكتاب عظيم ومهمّ فيكفي أن أقول له: "لا قيمة له"، هذا جواب نافع أو غير نافع؟ جواب نافع، هذا كتاب لا قيمة له.

أضرب لكم مثالًا: عليّ الوردي. هذا عليّ الوردي باحث اجتماعي راقي أصوله شيعية ولكنّه علمانيٌّ، وكتب كتبًا كثيرة. أنا أعجب، وكنت قد قرأت كتبه قبل قضيّة دخول الأمريكان وإسقاط صدام وكان ممنوعًا، ولكنّه بعد سقوط صدام وعودة الشيعة إلى الحكم ظهرت كتبه؛ لأنّه إنتاج لهم في النهاية، كما يفتخر اليهود بمن يكفر باليهودية ولكن أصوله يهودية. وبدأ تعظيم كتب عليّ الوردي، وبدأ انتشارها، ولا تذهب إلى مكتبة إلّا وتجدها ولا تجد صحيفة إلّا والكلام فيها عن عليّ الوردي.

ولولا أنّي أعرفه وقرأت غالب كتبه من قبل ولا أقول كلّها لكن الكتب المشهورة له. فلم أقع في الخدعة، هذه كتب عليّ الوردي لا تستحق أن تضيّع وقتك فيها. وإذا قرأت هذه الكتب لا تخرج بفائدة، رجل ينثر كلامًا مزاجيًا ويزعم أنّه يتكلّم علمًا!

هذا مثال لي ولغيري بأنّك ربّما تقرأ كتابًا وتظنّ أنّ ورائه الشيء العظيم، ومع ذلك يخرج كالبطيخة البيضاء ما فيها شيء. المهمّ أنّك قرأت.

فلذلك أوّلًا، إيّاك أن تقول أنا لم أستفد، أو أنّي لم أبق متذكرًا. لا! أنت تشّكل قراءة، لديك معالم عقلية ونفسية مهمّة، وكلّ قراءة تنتج هذه. وإيّاك أن تقول أنا لا أفهم، إذا لم تفهم تأتي الجملة التي بعدها وتفهمها، تحاول أن تسأل عنها، **وأنا كما قلت لكم سابقًا: كل قراءة تولّد قراءة**. أنت لم تفهم هذه الكلمة ماذا يُقال فيها تذهب إلى كتب أخرى تشرح هذه الكلمة وهكذا.

ولذلك لا يوجد هناك إنسان فوق طاقته القراءة إلّا إذا كان هو حمارا! وهذا الذي يقوله البنيويون والحداثيون يقولون: نحن نتكلّم كلامًا لا نريد به الإبانة، لا يملك دلالة النص ولا الدّلالة. هم يكتبونه. نقول لهم مبروك عليكم، أنهك نفسك في غرفتك كما تحب، أما وقد تكلّمت للنّاس فينبغي أن تتكلّم بما يفهم الناس، فالّذي يريد أن يكتب كلامًا على قاعدة: سأتكلّم كلامًا لا أفهمه أنا ولا يفهمه الناس حتى يُقال علماء. بعض النّاس يحب هذا! وهؤلاء كلما فعلوا هذا سقطوا من أعين الناس والنّاس لا يسمعون لهم.

وهذه من خدع القراءة أنبّه عليها لأهميتها في هذا الباب وأرجو أن تكون نافعة.

نأتي الآن إلى الدرس النهائي -لن نطيل فيه-، من كتاب الأستاذ رفاعي سرور (قدر الدعوة):

من المعلوم أيّها الإخوة الأحبّة، وأنا أعرف أنّ المسألة فيها شيء من الصعوبة في هذا الباب، ليس لأنّ الكتاب صعب، بل كتاب الأستاذ رفاعي سرور رحمه الله كتاب سهل ميسور لكنّه يخوض في قضايا يبتعد عنها منظّرو الفكر الإسلامي. **وهي قضيّة إدراك الحقّ من خلال معالم القدر**. وهذه مسألة قرآنية، المرء يجد فيها العجب.

وابتداءً أقول: بأنّ فتنة العابد في القدر أكثر بكثير من فتنة العابد في الشرع، ماذا يعني هذا الكلام؟ يعني هذا الكلام أنّنا لما نتأمّل حياة الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، نجد أنّ أعظم فتنة أصابت الصحابة مع النبيّ ﷺ تتعلّق بما رأيناه في صلح الحديبية، وصلح الحديبية هو أمرٌ قدري. بمعنى كيف أفهم أنّ هذا الفعل فيه الخير للمسلمين؟ المسلم العابد لا يعترض على الشرع، بل هو كلّما جاءه الشرع طلب المزيد منه من أجل زيادة القربة لله.

ولذلك أبو بكر وعمر -رضي الله تبارك وتعالى عنهما-، لما زاروا أمّ أيمن وكان النبي ﷺ يزورها -وهي حبشية أرضعت ورعت النبي ﷺ-، فبكت وجعلا يبكيان معها، ثمّ قالا لها: "لم تبكين؟ أما تعلمين أنّ ما عند الله خير لرسول الله -ﷺ"-؟ قالت: " إنّي لأعلم أنّ ما عند الله خير لرسوله، وأنّ رسول الله قد صار إلى خيرٍ ممّا كان فيه، ولكنْ أبكي أنَّ الوحيَ قد انقطع عنّا من السماء".

هذا الإحساس الرائع الجميل في علاقة العابد بالغيب، وتحرّره كثيرًا كثيرًا من عالم المادّة إلى عالم الغيب هو ما يطلبه العابد. ومعنى كلامها من جهة أخرى أنّ الوحي إنّما يحمل الشرع. فالمزيد من الشرع المزيد من القربة إلى الله. فالعابد يتعلّم ليزداد معرفة بالشرع من أجل أن يزداد قربًا إلى الله.

فالعابدون لا يعترضون على الشرع، وإنّما فتنة العابد أغلبها في القدر. وهو القيام بين مقامين عظيمين، هو مقام الشكر ومقام الصبر.

القدر مجموع كلّه في قوله ﷺ: (إِنّ أَمْرَ المؤْمِنِ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ) مقام الصبر ومقام الشكر. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}، وهذه تكرّرت كثيرًا في كتاب ربّنا. فمقام الصبر في الابتلاء هو على الأمر القدري في الأغلب وإن كان الشرع يُبتلى به المرء. ومقام الشكر كذلك في الأمر القدري، وإن كان كذلك يمكن أن يكون الشكر على الأمر الشرعي. ففتنة العابدين أغلب ما تكون في القدر حين يتأمّل مجاري الحياة وسنن جريان حركة الوجود فلا يستطيع فهمها.

الآن سأضرب أمثلة كيف يمكن للحدث الواحد أن يكون ابتلاءً للرفعة وأن يكون عذابًا. يعني عندما يقول الله -عزَّ وجلَّ-: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} ساق الله -عزَّ وجلَّ- هذه الأفعال القدرية على جهة الابتلاء للمؤمنين، من أجل: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} حتّى يحصل هذا الفضل من الصبر: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}.

فدلّ على أنّ هذا هو ابتلاء من أجل تحقيق مقامات غيبية في الجنّة لا يمكن أن يدركها المرء في مقام الشكر. هناك درجات في الجنّة خاصّة لأعمال كما قال النبي ﷺ: (إن اللهَ أعدَّ للمجاهدِ في سبيلِه مائةَ درجةٍ) لا يبلغها إلا المجاهد، قال تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، مقام الشكر له درجاته الخاصّة به، مقام الصبر له درجاته الخاصة به، حتّى أنّ النبيّ ﷺ قال في الحديث مع الاختلاف في قوّته: (من الذُّنوبِ ذنوبٌ لا يُكفِّرها إلا الهمُّ بطلبِ المعيشةِ). هناك مقامات لا تُكفّر إلا بأنّ

تصبر في أن تقوم بشأن أهلك. كما قال النبيّ -ﷺ أنّ الجنّة لها أبواب، منها باب يدخله الصائمون المصلون، هكذا. -وباب الصائمين هو باب الريّان-.

فإذًا هناك أبواب خاصّة بالله -عزَّ وجلَّ- يبتلي بالصبر عبادًا له يحبّهم؛ من أجل أن يبلغوا هذا المقام. هذا المقام في عالم القدر هو على نفس وفق مقام القدر، دون النّظر إلى الأمر لا في عاقبته ولا في حال الواقع عليه هو على نفس الحال بالنسبة للمنافق قال -سبحانه وتعالى-: {أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ}. فممّا ابتلى الله -عزَّ وجلَّ- به المنافق -انتبهوا هذا الابتلاء للمنافق، أنا ذكرت الأوّل الذي فيه خصوصية الإيمان، الثاني ليس هناك خصوصية هناك الاشتراك، هذه الآية من سورة التوبة إنّما نزلت في حال اختلاط المؤمنين والمنافقين، فالحال القدري واحد. يعني هو وقع على المدينة فأصاب المؤمن والمنافق، أصاب هذا وهذا، فسمّاه الله -عزَّ وجلَّ-: {أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ} هذا خطاب للمنافقين، والأمر القدري في نوع جنسه واحد في وقوعه على هؤلاء وهؤلاء.

وكذلك في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا}، ما هو هذا الحال؟ الحال أنّ الله -عزَّ وجلَّ- ما أرسل نبيًا لقوم إلّا ابتلاهم بالسّرّاء والضّرّاء ثمّ كان عاقبة الأمر أن فتح الله عليهم الدنيا حتى عفوْا، عفوْا حتّى كثر عندهم الخير والعطاء الإلهي. ولما قيل لهم هذا من الابتلاء قالوا: {قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ **فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**}.

هذا حتّى عفوْا في واقعه القدري هو نفس عين ما قاله -سبحانه وتعالى-: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}، {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}.

أنتم ترون أنّ الأمر القدري في واقعه شيء واحد، ولكن لا بدّ من النظر إلى شيء آخر وهو النظر إلى الإنسان، إلى حال الإنسان ما هو من أجل أن تعرف أنّه ابتلاء أو تعرف أنّه نعمة ورفعة. ولا بدّ بعد ذلك أن تنظر إلى العاقبة كيف تعامل الناس مع هذه النعمة ومع العطاء، لكنّها في الأصل ما هي؟ مشكلة.

عندما يعد الله -عزَّ وجلَّ- المؤمنين بالنّصر، ثمّ يجدوا أنّهم في حال هزيمة وهم أتقياء، عبّاد، ليس عندهم القدرة، ذهاب القدرة عندهم ليس بسبب الكسل بل بسبب العجز، وهم يقولون كيف يقع فينا هذا؟ كما في الآية {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا **قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا**}، وقع منهم التساؤل القدري.

إذًا هذه النقطة أريد أن أنتهي منها، وهي أنّ موضوع القدر بالنسبة للعابد أمر شديد الفهم عسير، في مرّات كثيرة لا ينفع معه الفهم بل يغيب ولا يبقى إلا مقام التّسليم والتّصديق فقط.

وهذا الذي وقع من الصّحابة في صلح الحديبية، ما فُسّر بشيء، (إن الله أمرني)، وعمر -رضي الله عنه- وهو من هو، يعني هذا عمر فدلّ على أنّ ما بعده دخل في هذا الأمر، وهذا العجز عن الفهم دخل من بعده كل من هو تال له، ولم يبق في مقام التسليم والقبول دون اعتراض إلا النبيّ ﷺ وأبو بكر. هو يقول له: "إنّه رسول الله ولن يضيّعه الله"، خلاص، انتهى. عمر يريد أن يفهم كيف وقع هذا، الزم غرزك يا عمر!

ولذلك أقول: هناك من وقائع القدر ما لا ينفعه معها إلّا التسليم، لا تستطيع أن تفهمها، وهذا ممّا يدخل في قوله ﷺ: (إذا ذُكر القدر فأمسكوا). هذا من نوع هذا، لا تستطيع. كما أنّك تأتي إلى الذكيّ وإلى الرجل الصّانع فلا يمكن أن يوصلك إلى ما تريد من الصنعة النهائية حتى يدمّر لك الجيد. يأخذ الورقة، ويأخذ الجلد، ويقطّعه وأنت تبكي. اصبر!

ولذلك هو القضاء والقدر. ما معنى القدر؟ القدر من التقدير، والتقدير معروف ما هو. أنت عندما تريد أن تصنع ثوبًا فأوّل شيء تقدّره وتفصّله بحسب الطلب ثمّ بعد ذلك يُقضى أمره بصناعته. أوّل شيء التقدير. وأنت لا تفهم كيف هذا الفعل يؤدي إلى هذه النتيجة. ولما كان الأمر أمرًا غيبيًا والله لا يعجزه شيء وأنت لا تدري كيف يقع؟ دلّني كيف سينتهي صلح الحديبية؟ أنت الآن مفهوم لديك؛ لأنّك قد رأيت الخاتمة، لكن لو أنّك لا ترى الخاتمة، وتعيش في البلاء والمحنة والضغط النفسي والابتلاء، وتقول ما أظنّ أنّ وراء هذه حكمة، خلاص تعذبّنا وانتهى الموضوع، وكان أحد الإخوة وقع قال: "وقعنا وما أحد سمّى علينا!".

لا، بل علينا أن نسلّم، والأصل هو التسليم. لماذا لا يكون هذا؟ أنا لا أدري، ولكنّي أُوقن أنّ الله -عزَّ وجلَّ- لا يوقع من الأمر في الوجود إلا ما هو منفعة للمؤمنين وعقاب للكافرين، انتهى الموضوع.

وربّما كما قال عبد القادر الجيلاني ومدح هذه الكلمة ابن تيميّة رحمه الله قال: " إذا ذُكر القدر فأمسَكوا إلّا أنا فقد فُتحت لي فيه روزنة -يعني نافذة وهي أن الأقدار تجري بالتعارض من أجل الحقّ وابتلاء المؤمنين-، نازعت أقدار الحقّ بالحقّ للحقّ". وذلك أنّ القدر مُنازع وتُنَازعه بقدر مثله، القدر الذي مثله هو الطاعة والشرع، ولماذا؟ من أجل أن تحقّق رضا الله وهو الحقّ.

فنازعت أقدار الحقّ لأنّها أقدار من الله، وبماذا؟ بالحقّ، أيّ بأقدار شرعية من أجل رضاء الله –عزَّ وجلَّ–. ومن هنا انتهى موضوعي والباقي على الله. لكنّي لا بدّ أن أقوم بالواجب من الحقّ لمنازعة أقدار الحقّ.

القصد من هذا أنّ القدر في حركة الوجود يمكن ضبطه كليًّا ولكن لا يمكن معرفته تفصيليًا وهذه الّتي أريد أن أصل إليها. كيف؟ أنت توقن أنّ العاقبة للمؤمنين، هذه من اليقين. وتوقن بـ {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}، هذه كلها أحكام سننية.

وقد حاول الأستاذ رفاعي رحمه الله أن يأتي بأكبر عدد ممكن ممّا يتعلّق بسنن الدعوة التي يحتاجها النّاظر إليها. وأنا أنصح بقراءة كتاب الأستاذ عبد الكريم زيدان وهو (السنن الإلهية). وقد جمع فيها السنن الكونية الّتي تتعلّق بالدعوة وبغير الدعوة، وإن كانت محاولة الأستاذ رفاعي رحمه الله في البحث عن السنن متعلقة بالدعوة.

هذه نقطة ننتهي منها وأنا مضطرّ أن أقول يكفي إلى هنا وإلّا فشرحها يطول. هذه نقطة مهمة، ويتبعها أمور عظيمة، من يقرأ الكتاب يجد أنّ الشيخ يحاول أن يوجد لها المنافذ في حلّها كأفراد. ولكن في الحقيقة أنا أقول بأنّ حياة الصحابة دالّة على أنّ هناك من الأقدار ما لا يمكن للعقل البشري أن يدرك كيفيّة جريانه بنصرة الحق وإماتة الباطل. ما عليك إلّا أن تسلّم وتقول أنا أوقن أنّه الحقّ وإلى آخره.

النقطة الثانية التي أنبّه عليها في هذا الكتاب وكنت أتمنّى أن توضع في الإطار؛ لأنّها في الحقيقة هي الّتي تكشف أساس العبودية للإنسان.

في بداية الكتاب الأستاذ رفاعي سرور يربط بين القدر والشرع، يربطهما بأسماء الله وصفاته. وربّما يجد النّاس المشقّة في فهم هذا الكلام، واستخدم عبارات يستخدمها الكتّاب القدماء كمسألة ظهور أسماء الله بدلًا من كلمة التجلّي. مع أنّها يُستخدم بدلًا منها عند الصوفية "تجلّي" أسماء الله، ويستخدمها غيرهم، وهو تجليات أسماء الله وصفاته في عالم الشرع والقدر.

وأنا أحبّ أن أخرج لأنّكم إن فهمتم ما سأتكلّم عنه يصبح كلام الشيخ سهلا؛ لأنّي رأيت بعض الإخوة يجد مشقّة في هذا، فإذا شرحته في صورة أخرى ودخلتم الكتاب تجدونه سهلًا في هذا الباب؛ لأنّه يردّد هذه الكلمة أو هذا الموضوع من أوّل الكتاب إلى نهايته: **وهو كيفيّة جريان الأقدار الخاصّة بالدعوة وارتباطها بأسماء الله وصفاته.**

لماذا خلق الله الإنسان؟

نحن نجيب الإجابة العامّة، وهي إجابة صحيحة، ولكنّها لا تكفي عند العلماء الذين يبحثون عن التفصيل ولا يقفون عند العمومات. ولا أريد أن أستخدم كلمة يستخدمها العلماء في أبواب أخرى. نقول نحن لعبادة الله. وهي كلمة صحيحة لكن هذه الكلمة العبادة لا بدّ من تفصيلها لنعرف لم خلق الله الإنسان. في البداية وهذا إذا قدّر الله أن نجلس ونقرأ ونفسّر ما يقوله ربنا -سبحانه وتعالى- في سورة البقرة، تعلمون قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

لما تحدّث الله عن الإنسان، بدأ يبيّن لنا القرآن ما هو أصل الإنسان ولماذا خُلق، فكان الحديث الجليل العظيم الذي تكرّر خمس مرات تقريبًا في القرآن في تفصيل حوار الله -عزَّ وجلَّ- مع إبليس. ولكن الحوار مع الملائكة في سبب خلق آدم لم يكن إلّا في سورة البقرة في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} هذه في البقرة فقط. أمّا الحوار مع إبليس موجود في سورة ص، وموجود في سورة الأعراف.

على ماذا اعترض الملائكة؟ حتّى يصبح كلام الشيخ مفهومًا، لأنّه لو تقدّم الكلام عليه لكان بقيّة الكلام أسهل، لأنّه ينقل من كلام ابن القيم دون أن يبدأ معه البداية التي بها يفتتح ابن القيم الفهم في هذه المسألة: في أنّ فهم القدر، إنّما يكون بفهمنا لأسماء الله وصفاته.

لما قالت الملائكة: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}، وجود الملائكة هو مظهر لأيّ صفة من صفات الله، لماذا خلق الله الملائكة؟ لأنّه هو القدوس، فيحبّ سبحانه أن يُحمد وأن يُقدّس. فالله -عزَّ وجلَّ- يحبّ المدح، وما من أحد يحب المدح كربّنا. فمن أجل مدحه خلق الله الملائكة يسبّحونه ويقدّسونه ويسجدون له وهكذا، فهم لا يعلمون -أي الملائكة- من صفات الله -عزَّ وجلَّ- إلّا هذه الصفات. لكن لا يعلمون صفة الغفور لأنّهم لا يعصون الله ما أمرهم، لا يعلمون أنّ الله -عزَّ وجلَّ- يغفر، هذه لا بدّ من وجود إنسان يعصي، أو لا بدّ من وجود خلق يعصي. الملائكة لا تعرفها ولا تحقّق واقع هذه الصفة.

صفات الله -عزَّ وجلَّ- حادثة أم أزلية؟ أزلية، كان الله وصفاته حيث كان، فالله غفور قبل أن يكون هناك معصية، والله رازق قبل أن يكون هناك مخلوق يرزقه، وهكذا فهذا مقرّر عندنا ولا نريد أن نعود إليه أو نفصّل فيه. فالعلماء تكلّموا فيها والأدلة من كتاب ربّنا -عزَّ وجلَّ- وسنّة نبيّنا ﷺ واضحة جلية.

فإذًا لماذا خلق الله الإنسان؟

الملائكة لا تعلم من الأسماء والصفات إلّا ما هي تقوم بشأنها، ولكنّها لا تعلم من الأسماء والصفات ما لا يقوم بها إلّا من هو عاصم، فقالت {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} فقال -سبحانه وتعالى-: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} فخلق الله الإنسان؛ من أجل إظهار صفات لربّنا لا يمكن أن تظهر إلّا بهذا الإنسان العاصي.

ولذلك في الحديث: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم). ولذلك لا يوجد في الكتاب ولا في السنّة قطّ مقام ظهر فيه فرح الربّ، كما ظهر فرح الربّ في توبة المذنب.

وأقول هذا وليستقصي بعد أن أقول من يستقصيه، فإنّ قوله ﷺ: (لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فأضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وان ربك، أخطأ من شدة الفرح) هذا توصيف لفرح الربّ.

والله لا يخطئ، ولكن درجة ذهاب وعي هذا الذي وجد دابّته إلى درجة فرح أنّه تاه في مدلولات الكلام وفيما يقول، أخطأ من شدّة الفرح، وهذا فرح لا وجود له في أيّ عمل يعمل به العابد قطّ، وهو أن يستغفر الله. فدلّ على أنّ الاستغفار هو أعظم عبادة يمارسها الإنسان.

إذًا فهمنا الآن بأنّ الشرع وُجد لماذا؟ من أجل أسماء الله وصفاته، فالله يحبّ المدح قال لك: قل سبحان الله، قل الحمد لله. الله يحب الحمد، يحب أن يُحمد، ويحب أن يُشكر. الله يحب التذلّل والإخبات، قال لك: اسجد لي، طأطئ رأسك لي. الله -عزَّ وجلَّ- لا يحبّ من أحد أن يعانده، قال له: إيّاك! كن عبدا! ما معنى عبد؟ العبد هو الذي تجري عليه أقدار الله، وتجري عليه أحكام الله بالاعتراض. ولذلك يُقال: شارع مُعبَّد. أي لا مطبّات فيه، مطبّات يعني عوارض. تمشي عليه الأحكام بلا اعتراض، تمشي عليه الشرائع بلا اعتراض، فأنت عبد فالله يريد منك أن تكون عبدًا؛ لأنّ الله يحبّ ذلك، لكن كيف تحقق العبودية؟ يريد منك أن تفرح لما يفرح، وأن تكره ما يكره، وأن تقوم بما يحبّه، فإذا نظر إليك فرح أنّك تقوم بما يحبه، ولا يريد منك أن تقوم في مقام يبغضك فيه. فأعظم ما يريده منك هو أنّك إذا أذنبت ولا بدّ من قدرك أن تخطئ هو أن تستغفر!

ولذلك أنا كنت أعجب قبل أن أفهم هذا، وكلّما جئت على هذا الحديث أعجب، ويصيبني حقيقة الحيرة. وعندما يسأل – أبو بكر رضي الله تعالى عنه– رسول الله ﷺ عن دعاء يريد أبو بكر، وهو أجلّ رجل في عين الرسول ﷺ، أجلّ رجل في هذه الأمة، وكأنّه يريد عبادةً خاصّة يُميّز بها في خلوته وفي صلاته، يقول: "علّمني دعاء أدعو به في صلاتي"، وهذا هو أبو بكر الذي بلغ مقام الصدّيقية والصدّيقيّة في بعض معانيها دخول العبد في كل مراتب التعبّد. من أين أتينا بهذا؟ أتينا بهذا في قوله: "يا رسول الله ما على العبد أن يُدعى من كلّ هذه الأبواب"، قال: (نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر).

فالصدّيقيّة هو أن يُدعى العبد من كل أبواب العبادة، ومن ذلك قوله ﷺ: (من أنفق زوجين من شيءٍ من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنّة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصّدقة دعي من باب الصّدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وباب الريان)، وجمعها من؟ جمعها أبو بكر الصدّيق. فبعد أن دخل الصدّيق في كل هذه المقامات، أراد أن يكون له البروز في شيء، وهو في ذنبه حين يستغفر هو في مقام العبد الّذي يستغفر لئلا يقع في الذنب، لا في مقام العبد الذي يستغفر بعد الوقوع في الذنب. من أين أتينا بهذا؟ في قوله تعالى في سورة التوبة: {لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ} تاب! أين معصية هؤلاء؟ معصيتهم أنّ الله تاب عليهم بألّا يقعوا في المعصية، فيستغفر المرء ربّه من هذا المقام، أنّ مقامه يحتمل هذه المعصية، فتاب الله عليهم. ولذلك قال: {مِن بَعْدِ مَا كَادَ} فهو مقام الوقوع فيه ولكن الله حماه، فاستغفر ربّه من هذا المقام. ولذلك قال بعدها: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ} ما قال ثم تاب عليهم ليتوبوا {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ}.

لكن لما جاء في الآية بعدها الحديث عن الذين تخلّفوا ووقعوا في المعصية قال: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ **لِيَتُوبُوا**}. لا أريد أن أفصّل أنا ضربتها من أجل أنّ هذا هو المدخل أنّ **أقدار الله على العبد من أجل تجليّات أسماء الله**.

إذًا الدعوة هي فعل إنساني. **وهنا نأتي إلى نقطة مهمة:**

الآن القسم الأول في الكتاب واضح، ما معنى أنّ العبد لا بدّ له من معرفة أسماء الله وصفاته ليفهم شرعه، ولا بدّ له من معرفة أسماء الله وصفاته ليعرف قدره. علمنا الشرع، الله أمرك تسبح، أمرك تستغفر، تسجد، تصوم؛ لأنّ هذا يحبه الله. (يدع شهوته من أجلي) يحب الله ذلك.

فكيف تفهم القدر؟ كيف يمكن فهم القدر -أي جريان السنن في الوجود-؟ من خلال فهمك لأسماء الله وصفاته تفهم الأقدار. القرآن كلّه يدور حول هذا، القرآن كلّه يدور حول عاقبة الطاعة وحول عاقبة المعصية. ولكن ههنا نقطة كنت أتمنّى في (قدر الدعوة) أن تُبرز، أقول تُبرز ربّما ذكرها وربّما هي في نفسه ولم تكن بالدرجة الّتي ظهرت: وأنّ من عجائب الدعوة، أي من عجائب دعوة النبيّ ﷺ أنّها مُعترضة في القرآن بكل أنواع الأقدار ومع ذلك تتقدّم.

أنت ترى أنّ دعوة النبي ﷺ اُبتليت بكل أنواع الأقدار؛ من العطاء، والمنع، والهزيمة، والنصر، والردّة، والإيمان، ما من قدر في الوجود إلّا وقد أُبتليت به الدعوة ومع ذلك تنتصر وتتقدّم!

ولما قرأت كتب التفسير في دعوة ربّنا لعبيده بالسير في الأرض لرؤية عاقبة المكذّبين، كان يقابلها أنّ أعظم دليل على نبوّة النبيّ ما ذكرته لكم. هناك كتب اسمها دلائل النبوة، فيها معجزات وفيها إخبار عن الغيب، وأعظم الكتب وأجمعها هو كتاب (دلائل النبوة) للإمام البيهقي، والعلماء يفصّلون في دلائل النبوّة، ولكن لو سألت العلماء -وهذا تجدونه في كتب التفسير-، ارجعوا إلى ابن كثير وارجعوا إلى الطبري تجدون أنّ أعظم دليل على صدق نبوّة النبيّ هو ما ذكرته لكم؛ أنّ هذه الدعوة مُبتلاة بكل أنواع البلاءات القدرية ومع ذلك تتقدّم!

انظروا إلى {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ}، والرواية الثانية: {قُتِلَ مَعَهُ} تعجب!

وأنا أردت هذه النّقطة لأنّها من غرائب ما وجدته في حياتي ولا أفهمها، هذه النّقطة عندما آتي إليها أسكت. حتّى في الوقائع تعجب عجبًا كبيرًا شديدًا جدًا، كيف يكون الفعل خطئًا من العابد فيستغفر ويتوب ويأتيه على وجه الإخلاص لله فتكون العاقبة خيرًا. وتعجب من فعل بعضهم ويأتيه بحذافيره السننية دون إخلاص ودون صدق مع الله فتكون العاقبة هواءً لا قيمة لها.

وبحثتُ في كتاب الأستاذ رفاعي سرور عن كلمة قالها في المقدمة، وجدتُ معناها منتشرًا في الكتاب كلّه ولم يبرزها كما ينبغي وكنت أحبّ أن تُبرز. وهي كلمته التالية:

لماذا ألّف الأستاذ رفاعي سرور هذا الكتاب؟ قال: كتبته من أجل تحديد منهج الدعوة بتصوّر القدر والسّنن وأحاديث آخر الزمان. والرجل أوفى في هذا.

ولما أراد أن يتكلّم عن أهداف الكتاب **قال في النقطة الثالثة: حماية الحركة الإسلامية من مادّية الفكر وتنظيم الدور العقلي لها".**

ما هي آثار قراءة دعوة النبيّ ﷺ قراءة مادية؟ الآثار أنّك حينئذ لا تستطيع في كثير من الصور أن تفسّرها التفسير التّام. ومن باب آخر للأسف لو أنّ مادّية النظر والتحليل دخلت في قراءتنا للسيرة –وهذا قلته مرّة عندما أردت أن أنبّه على هذه المسألة، لما قلنا لماذا نقرأ كتاب حياة الصحابة ونقرأ سيرة النبيّ؟– سنضطرّ إلى أخذ مناهج الأغيار في حركة التغيّير الّتي نسعى إليها.

أنت عندما تحضّر لمعركة هذه ليست قراءة بعيدة عن السنن، أنا أفهم ما سيقول الخصوم، أعرف البيئة التي يعيش فيها. عندما جاء النبيّ ﷺ إلى بدر: ألف مقاتل مقابل ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، بم يُملأ الفارق؟ الفارق العددي في ذلك الزمان له أهمّيته، اليوم الفارق العددي له قيمة ولكن قيمة قليلة، يعني طائرة بطيّار واحد تقصف ألفًا وألفين. ولكن في ذلك الوقت الفارق العددي له أهميّة في موازين القوى.

ألف رجل مقابل ثلاثمائة رجل بم يُملأ هذا؟ نحن رأينا إملاءً غيبيًا! أوّلًا الكلام عن العاقبة، وهو أنّ النبيّ ﷺ دخل العريش وخرج ﷺ وجعل يخبر القوم مصارع الأعداء. هذه نبوءة، هذا شيء عظيم! خلاص انتهوا، النصر قادم لا بدّ منه. هذا امتلأ، وملأه بالدعاء، فأين الفكرة المادّية هنا وأين المادّة في هذا الأمر؟ لما دعا الله أنزل الغيث وصارت حالة الأعداء ليست كحالة المسلم.

انتهينا من هذه الصورة المذكورة تاريخيًا.

لو لم تكن هذه الصورة موجودة، لو جئنا إلى قائد وقلنا له كيف الحالة وكيف نملأ الفراغ؟ إن لم يكن هذا القائد مهديًا سيملأ الفراغ بالباطل!

ولذلك أنتم تجدونهم يقولون نحتاج مالًا، فيقول اذهب تاجر في الحشيش! يقول اذهب بع نفسك إلى أحد الأنظمة الأخرى التي تعادي النظام الذي تقاتله وخذ منها أموالًا واملأها، وهكذا! فبدل أن يملأ النقص بالجانب الإيمانيّ المطلوب، وأن يسعى

فيه سعي المهتدي على وفق قراءته للسيرة النبوية يذهب ليملأه بالباطل. وفي النهاية الباطل هو سبب الهزيمة! وهذه تجارب عاشتها الحركة الإسلامية المعاصرة.

وهنا نقطة مهمة جدًا في قضية قدر الدعوة: ما زلنا في حديث أنّ من أعجب المقادير وأعجب القراءات في قراءة قدر الدعوة أنّها تعيش جميع الظروف السننية ومع ذلك تتقدم. **وهنا نقطة وهي جزء من ابتلاء الله -عزَّ وجلَّ- المؤمنين، وهي خفاء اليد الإلهية في هذه النصرة**. ما معنى هذا الكلام؟

يعني أنّ السنن الجارية لا تجري إلّا بسبب، وهذا وفق سنة الله. والعلماء قالوا لا يجري شيء في الوجود الدنيويّ ولا في الوجود الأخرويّ إلّا بسبب وشيخ الإسلام ابن تيمية قال: "لا يوجد شيء إلا بسبب".

إذًا عندما يتحقّق فعل من أفعال العطاء الإلهي في نصرة الدعوة فما الذي يخفي يد الله في حركة هذا النصر؟ هو سبب. وهذا الخفاء هو فتنة للنّاس.

قال ﷺ في الحديث لما كانوا في الحديبية الصحابة قاموا الصبح ونزل عليهم المطر فقال النبيّ ﷺ: يقول الله -عزَّ وجلَّ-: (هل تدرون ماذا قال ربّكم؟) قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمَّا من قال : مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال : مُطِرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب).

صحيح أنّ الأنواء في زمانهم ليست هي الأسباب القدرية الّتي نعرفها اليوم، في كيفيّة صعود الماء من البحر والتبخّر وتكاثف السّحب ومشيها عن طريق المنخفضات والمرتفعات الجويّة إلى آخره، لكن في النهاية من الّذي أعدى الأول، من الذي أوجدها؟ هذه السنن التي نحن نراها اليوم هي إخفاء لفعل الله. ما السبب؟ كما قال ﷺ لما قال لا عدوى ولا طيرة فاعترض الأعرابي، فقال النبيّ ﷺ: (من أعدى الأول؟)، السبب ما الّذي أوجده؟ لماذا لا يوجد غيره؟ لماذا لم يكن غيره فتحقّق المخالف أو تحقّق المعارض؟

فإذًا الأسباب الّتي نراها نحن اليوم هي للأسف معوّقة في رؤية يد الله -عزَّ وجلَّ- مع أنّها ضرورية، ولا يقع شيء إلّا بها. ولكنّ حين يتمّ الفعل يجب نسبة الفعل إلى الله وهذا هو فعل النبي ﷺ لما قال: (وهزم الأحزاب وحده). نحن ليس لنا دخل! **نحن كنّا أواني فارغة لأقدار الله تجري فينا. ومن رحمة الله أن كنا الأواني لقدر الله الحقّ مقابل الباطل الذي يعادي الله -عزَّ وجلَّ- على تنوّع خلق الله في القدر.**

السؤال: كيف نوفّق بين هذه القراءة للسنن وبين اعتمادنا على الغيب؟ هذه هي موازنة المؤمن، والّتي لا يمكن أن يجدها المرء إلّا في سيرة النبيّ ﷺ.

هناك مسألة لم يأت لها الشيخ، والآن، أظنّ أنّ الكتاب صار واضحًا وبيّنًا لمن يقرأه بهذا السياق الذي تكلّمنا عنه، ولكن هناك مسألة جاء بها الشيخ ومرّ عليها المرور الّذي اعتاده، وهي قضيّة ارتباط الدعوة بالنبوءات.

كيف نتعامل مع النبوءة؟

الواقع أنّ مسألة النبوءة في التاريخ الإسلامي أحدثت فتنًا، والتعامل معها كان سبيل شرّ. عندما يقاتل يقول نحن، وعندما يُقاتل يقول نحن الّذين ينطبق علينا هذا الحديث، وهكذا! ولكن ما هو الحقّ في هذه المسألة؟

يعني عندما يأتي واحد يقول أنا المهديّ! وقضيّة المهدوية هي أكثر مسألة في التاريخ الإسلامي أحدثت فتنًا ودماءً، وهي قضيّة من قضايا الغيب. فهل نلغي النبوءات من أجل هذه التصرّفات الشائنة؟ أم أنّ النبوءات لها دور في قراءة الواقع؟ وثانيًا هل النبوءات تُقرأ في الواقع من أجل تحقيق الشرع أم أنّها تعارض الشرع؟ يعني هل النبوءات في باب من الأبواب تصلح تخصيصًا للحكم الشرعي العام؟ ومثال ذلك أنّ الناس يعرفون أنّ الاستعانة بالكفار لا تجوز إلّا في الاضطرار، ومذكورة في كتب الفقه وتُعرف بالأحكام وطريقة النبيّ ﷺ والأحكام الشرعية وكلام الفقهاء.

فهل حين يأتي الفقيه أو النّاظر أو الباحث أو المجتهد فيقرأ نبوءةً ما، هل له أن يجعلها خاصّة في قراءة الحكم الشرعي؟

نرجع إلى السؤال الأوّل؛ لأنّه سيجيبنا على هذه القضيّة، وهي قضيّة: هل النبوءات يجوز لنا أن نستخدمها؟ الجواب: نعم، ولكن لا يجوز لأحد أن يستخدمها كما يستخدم الآخر النصوص في التأويل ويتلعّب بها. يعني النبوءة نص نبويّ صادق، هل يجوز أن نستخدمها؟ الجواب نعم. لكن ما الخطأ في الأمر عبر التاريخ؟ هو أنّ النّاس أنزلوا هذه النصوص على غير موضعها، تأويلًا لها، تلعّبًا بها.

عندما جاؤوا إلى حديث المهديّ فأرادوا أن يقرؤوا أحاديث المهدي ويطبقوها على عمر بن عبد العزيز، وجدنا العلماء الكبار الثقات المحققين ينهون عن ذلك ويقولون: لا، عمر بن عبد العزيز ليس كذلك. لماذا؟ لقراءتهم للأحاديث قراءةً صحيحة. لكن مع ذلك وجدنا أنّ الصحابة –رضي الله عنه– يقولون عند مقتل عمّار: (تقتلك الفئة الباغية). استخدموا هذا النص.

ووجدنا أنّ أبا بكر الصديق وهو يحرّض الناس على القتال يقول: "وعدنا الله بالنصر"، والوعد بالنصر نبوءةٌ، فهو يستخدمها.

ووجدنا النبيّ ﷺ نفسه فيما ذكرنا يستخدم النبوءة لتقوية القلوب كما ذكرنا في بدر، فوجدناه في بدر ﷺ يقول: (إنّي أرى مصارع القوم)، الله أراه مصارع القوم، وهذه نبوءة، ولو كان استخدام النبوءة باطلًا لكان أبعد الناس عنها هو رسولنا ﷺ. لكن لما كان استخدامها على الوجه الحقّ استخدمها رسول الله ﷺ.

إذًا استخدام النبوءة حقّ، ولا يجوز لأحد أن يشكّك فيه. لكن أين الخطأ إذًا؟ يقع في استخدامها من الأخطاء ما يقع في استخدام النص في غير موضعه من الفقه، وإمّا أن يكون قارئًا للنص على غير وجهه، وإمّا يكون قارئًا للواقع على غير وجهه. وهذا من أسباب الأخطاء في الفقه.

فمن أسباب أخطاء الفقيه، هو أنّه إمّا أن يقرأ النصّ قراءةً غير سديدة، وإمّا أن يقرأ الواقع قراءةً غير سديدة. لكن أعظم شرٍّ في قراءة النبوءات، هو المشي من أجل تحقيقها ظانًّا أنّها تلائمه. كيف؟ هو يبحث عن الحديث ماذا يقول ثمّ يطبّقه، مطلوب منّا واحد اسمه محمّد، فيسمي ابنه محمّدًا. مطلوب منّا نذهب إلى الجبل الفلاني في النبوءة، لازم نذهب نقاتل على هذا الجبل في النبوءة. مطلوب منّا نسافر إلى البلد الفلاني.

وطبعًا هذا يُقال، لكن مثله يقع ووقع من أناس كثيرين. يعني أنّ الشام هي أرض المحشر، وفي الحديث أنّها حيث تقع الفتن. فجاءت الجموع المقاتلة إلى بغداد، يقولون النصر يبدأ من دمشق فلا بدّ أن نذهب إلى دمشق لنقاتل من في بغداد، هذه قراءة باطلة للنصوص!

ومن ذلك أنّ الناس سمعوا من اليهود والنّصارى أنّ هناك نبيًّا اسمه محمّد، فجاء بعض العرب وسمّى ابنه محمّد رجاء أن يكون هو النبيّ. ثلاثة أو أربعة سمّوا أبنائهم محمّد حتّى يكون هو النبيّ.

فإذًا من الخطأ أن تقرأ النبوءة من أجل أن تعمل بها، **والصواب أن تقرأ الواقع والشرع لتعمل به، فقد تصيبك النبوءة وقد لا تصيبك، قد تكون أنت وقد لا تكون أنت.**

عبد الله بن حنظلة الغسّيل ماذا فعل في موقعة الحرّة؟ لما جاء مسلم بن عقبة إلى المدينة في الحادثة المشؤومة الشهيرة، فذهب من أجل أن يدافع عن المدينة كما دافع النبيّ ﷺ في الخندق. فحفر الخندق ليمنع جيش الشام من دخول المدينة فانهزم! أين الخطأ؟ لماذا لم تتكرّر؟ لأنّ التاريخ ليس وجهًا واحدًا، التاريخ فيه معطيات جديدة، فيه واقع جديد، وهكذا.

وهذه نبّهت عليها في قضية مسيرة الدعوة، بأنّه لا يجوز لأحد أن يمشي على السيرة مشي السيرة كما وردت في كل ظروفها. يريد أولًا أن يبدأ سريّة، ثمّ جهريّة، ثم دعوة، ثم يهاجر! هذه قراءة باطلة للسيرة.

لأنّ السيرة تتعامل مع الواقع، فأنت اطلب من الواقع قراءة صحيحة ثم ابحث عن السيرة الّتي تعاملت معه في أيّ ظرف، قد يكون في الابتداء، قد يكون في الوسط، قد يكون في الانتهاء.

ومع ذلك فإنّ المسائل القدرية في معالجة وقائع الحياة، النبيّ ﷺ لم يُجز لنا اتباعه فيها. كيف؟ لما تدخّل في قضيّة تأبير النخل ماذا قال؟ يعني كيف أنت تقاتل بسيف ورمح وكذا، وضع قاعدةً عامّة (ألا إنّ القوة الرمي)، لكن هذا مفهوم الرأي بحسب واقع الناس وأحداثهم.

فالأمور الدنيوية خاصة بالنّاس، والأمور الدنيوية عن الواقع كيف نقرؤه؟ وبعد ذلك كيف نقرأ الواقع هو الذي يحكم علينا قراءة الشرع بعد ذلك.

إذًا قضيّة النبوءات من أخطر ما يعتري الدعوة، وهو أن نقرأ الواقع بحسب النبوءة قراءة صحيحة وسليمة.

إذًا هل المطلوب هو أن نطبّق النبوءة أم نطبّق الشرع؟ نطبّق الشرع، قد تقع النبوءة عليك وقد لا تقع عليك.

هذه مهمّة جدًا: الشرع هو المقدم، والنبوءة هي إشارة على الصواب. وأفضل ما استدلّ به الشيخ رفاعي سرور في هذا الباب، وهو أنّه استدلّ بقوله ﷺ: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل). أنت ما يهمّك النتائج، المهم أن تستجيب لأمر الله. لأنّ استفادتك أو عدمها هذا موضوع ثان، لكن أنت حقّقت الأمر الإلهي في قضيّة إعمار الأرض.

لو أراد أحد أن يقول ما المقصود بهذا كلّه؟ **المقصود بهذا أنّ النّصر للدعوة قادم، وأنّ الابتلاء هو قدرها، وأن اتباع الشرع هو المنجي في كلّ ظروفها. هذا هو خلاصة الكلام.**

وهناك كلمة رائعة للشيخ، **الشيخ له كلمة رائعة في الابتداء يقول بأنّ: "السنن الإلهية جارية على الخلق أجمعين ومن هؤلاء المؤمنين، فإنّ السنن جارية عليهم"**.

هناك مسألة كانت في الذهن ولا بدّ من ذكرها في هذا الباب: كيف نوفّق بين هذا؟ بأنّ السنن الإلهية جارية على الجميع ومن ذلك الجميع المؤمنون، فإنّ السنن لا تستثنيهم بل هم من ضمن هذه السنن، فكيف نوفّق بين هذا وبين قول البعض إنّ الله يهزمنا بالابتلاء؟

يعني الرجل يأتي بكل الجوانب الموجبة للفعل قدرًا، ومع ذلك لا تتحقّق النتائج. قال لماذا؟ قال هذا ابتلاء من الله. هل هذا فهم صحيح؟ فهم غلط. لماذا؟

لأنّه في الحقيقة الفعل الإيمان فيه صفة البركة، وفيه صفة التأييد الإلهي. صفة الفعل الإيمانيّ فيه أنّه مبارك من الله، وفيه أنّه مؤيّد إيمانيًا. فالأصل حتّى لو كان فيه بعض النقص أن يُجبَر بالعطاء الإيماني، وأن يُجبَر بالعطاء الإلهي. وهم يريدون أن يقلبوا المعادلة ويقولون أنّه مكتمل من جهة السنن ومع ذلك لم نحصّل النتيجة. فهذا خطأ! هذا ينبغي أن نحذر منه.

نعم علينا أن نفعل الفعل الإيمانيّ حتّى لو أنّنا لا نرى نتيجته؛ لأنّ الشرع أمر به، هذه نفهمها كما في قضيّة الفسيلة، وكما في قضيّة اتباع النبي ﷺ في صلح الحديبية. وعلينا أن نعلم حين يقع البلاء إنّما يقع على وفق الأسباب التي يجب أن ندرسها، وعلينا أن نلاقيها بالشرع، فإذا كانت ابتلاءً كان مقام الصبر، وإذا كانت عطاءً نتلقّاها بمقام الشكر.

ولكن هذا لا يمنع من قراءتنا لسنن الوجود حيث نتعامل معها باحترام وتقدير؛ لأنّ الله له الخلق والأمر، فمن ضيّع سنّته التشريعية هو كمن ضيّع سنّته القدرية، بل الحقيقة أنّ السنن القدريّة -كما شرحناها في موطن آخر- هي أشدّ متانةً وثباتًا من السنن الشرعية. السنن الشرعية فيها التأويل، فيها رفع العذر والإثم، إلى آخره، لكن السنن القدرية لا تحابي أحدًا! والنوايا لا تنفع معها! وهي تصيب الجميع ولا تستثني أحدًا!

والله تعالى أعلم.

أرجو أن أكون قد أوفيت الكتاب حقّه، مع أنّ فيه أمورًا أخرى ترجعون إليها.

بارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

* * * *

الكتاب القادم أريد من الإخوة أن يبحثوا لأنّي ما بحثت، لأنّ هذا الكتاب له علاقة بكتاب سيكولوجية الجماهير وكتاب الأمير، فنريد أن ننهي هذا البحث، وإن كان هناك كتب أخرى لها علاقة بهذا ولكن هذا الكتاب أريده من الإخوة، إذا وُجد هذا الكتاب وإلّا اضطررنا لتغييره. هذا الكتاب لصلاح نصر رئيس المخابرات المصرية لجمال عبد الناصر وهو كتاب (الحرب الثورية الشيوعية). قد يقول قائل: اندثرت الشيوعية ولكن لازال هناك بعثية.

كتاب (الحرب الثورية الشيوعية) مهمّ جدًا في دراستنا لطبائع الشعوب وحركات الكفر الّتي تعاندنا وكيفيّة استخدامها لنا! الحركات المعادية للإسلام كيف تستخدم المسلمين إلى غير ذلك، وكيف تتلعّب بالشعارات والحاجات وأقدار الناس.

إذا ثبت أنّ الكتاب غير موجود وصعب الحصول عليه، فربّما نغيّره إن شاء الله ونعلن على موقع تويتر. وهو كتاب مهم جدًا، والقواعد فيه ليست كما في كتاب (سيكولوجية الجماهير)، فكتاب سيكولوجية الجماهير كلّه قواعد. هذا لا، هذا يتحدث عن القواعد ويتحدث عن استخدامها من قبل الاتحاد السوفيتي، فيفصّل كثيرًا في الأمثلة، ويمكن اختصاره بأقلّ من هذا. لو أنّ طالب علم قرأه واختصر القواعد فيه فقط مع التمثيل بالقليل لكان أقلّ بكثير من النصف.

- **السائل: في نهاية حياة الشيخ أو بالأخصّ في آخر شهرين تعرّف على د.حازم صلاح أبو إسماعيل وصار يلقي محاضرات فما رأيكم بموقفه في هذه الفترة؟**

الشيخ: في الحقيقة أنا لست متابعًا لهذا، ولكن أبناؤه راسلوني، أحدهما عمر الله يحفظه وشقيقه يحي راسلني عن طريق أخيه عمر وقال لي عمر: "أنّ كتب الأستاذ كُتبت إجابة على نوازل عاشها". يعني يقول: "بأنّ أوّل كتاب كتبه هو (أصحاب الأخدود) لما أُعدم الأستاذ سيد قطب رحمه الله". وهكذا يقول: "كتب (عندما ترعى الذئاب الغنم) عندما انتشرت في مصر دعوة إنكار الغيبيات والجنّ"، يريد أن يقول لهم: الجنّ غير موجودين أنتم يحكمكم الشياطين. عندما ترعى الذئاب، فذئب الإنسان شيطان والشياطين هي التي ترعاكم. وهكذا قال لما صارت مشكلة لكذا أُلّف بيت الدعوة وحكمة الدعوة ثمّ كتاب قدر الدعوة لأسباب.

واعترف الابن يحي بأنّ الوضع الاجتماعي والاقتصادي ربّما منعه من مزيد من التأليف أو الترقّي. طبعًا هم لم يرضوا ببعض الكلام؛ لأنّي قلت أنّ الكتاب الثاني لعندما ترعى الذئاب الغنم ليس في مستوى الأول، لأنّه في الحقيقة هناك ظواهر منتشرة

اجتماعيًا لكن لا حقيقة علمية ورائها. يعني مثلا مثلّث برامودا كلام فارغ ودجل! يقولون مثلّث برامودا عنده سلطان الشيطان، وهو جالس هناك وفي الحقيقة لا يوجد إلى الآن ظواهر كونية بهذا المستوى من التكرار. فمعنى الظاهرة أن تكون متكررة.

فالقصد أنّه حاول أن يقول بأنّ بعض الظواهر الكونية هي بعض مظاهر الشيطان. الأخ يقول: "أنّ الكتاب الثاني هو ضمن هذا وهو في مستوى الأوّل" ولا أرى في الحقيقة ذلك.

الموضوع الآخر الذي ذكرته هو أنّ الأستاذ رفاعي سرور، في وقت من الأوقات وجدناه يميل إلى تيّار سياسي ما، فهذه تقديرات علماء، وإلّا فالأستاذ رفاعي سرور هو من المنشئين الأوائل لجماعة الجهاد. وليت أبناءه يكتبون عن هذا، وهو يحمل هذا المنهج وهذا الطريق ولكن ربّما في وقت من الأوقات يخطئ أو يصيب. يعني مثال: إلى الآن ما تكلّمنا عن أبي الأعلى المودودي لكن سيأتي الكلام عنه، أبو الأعلى المودودي يعتبره أغلب الدّارسين أستاذ سيّد في تقرير قضية الحاكمية في المصطلحات الأربعة في القرآن. ومع ذلك هو تحالف مع محمد علي جناح في قضيّة استقلال باكستان! يعني الممارسة السياسية بعيدة كل البعد عن رؤاه العقائدية.

حتّى إنّ بعضهم كالأستاذ صلاح الصاوي قال: "لو أنّ سيّد قطب عاش كما عاش أبو الأعلى المودودي ربّما دخل الانتخابات!"

فالقصد بأنّه ربّما تكون للإنسان رؤية عامة، ولكّنه يخطئ في توصيف حالة بذاتها على جهة ما فيقع. وعلى كلّ حال فلو نظرنا إلى الواقع المصري في ذلك الوقت لوجدنا أنّ الأستاذ حازم ابن الشيخ صلاح إسماعيل هو خير من طُرح في هذا المجال، ولكن كان هناك الهجوم لاستبعاده؛ لأنّهم يعلمون أنّه لو دخل لما وقف أمامه أحد، لصدقه وكذا إلى آخره فاستبعدوه بما استبعدوه به وانتهت القضيّة.

ولكنّي أريد أن أقول بأنّك لو سألت هذا السؤال دون أن أكون في نهاية الدرس، لكان الجواب أوسع؛ وهو أنّنا دائمًا نخطئ بأنّ هذه الفرصة مع وجود القليل من التنازلات.

يعني التجربة المصرية من الأستاذ حازم ومن جماعة الإخوان ومن السلفيين الذين كانوا يحرّمون الانتخابات، كلّهم يقعون، حتّى النّاس الذين يأتونني، لما صار الموضوع في تونس، تُرسل أسئلة فيها الهجوم لينتخبوا! لينتخبوا! وهذه فرصتنا، ولو انتخبنا هذا لكان أحسن. أقول كلّ هذا خداع! ولو الناس يقرؤون القدر؛ لعلموا أنّ هذا خداع ولا وجود له وكلّه أكاذيب.

ولكن هذه الحالة هي ذوبان في اللحظة الراهنة وهي اللحظة القلقة، فيقولون نعم نتنازل كمن أيّد الدستور لما صار هناك استفتاء على الدستور المصري، مشايخ التوحيد أخطؤوا! أنا لا أتهمّ توحيدهم ولكن انظر إلى هذه المفارقة. يقولون الأفضل موجود، ولو علموا سنن الله في جريان النصر والهزيمة لما التفتوا لهذا. {وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ}. يقولون هذه اللحظة تجنّبنا المصائب والمزالق، لما فررت منه وقعت فيه! وتفضلّ النتيجة!

فلا يُضحك علينا في هذا. وهذه النقطة تحتاج إلى شرح ولكنّي أنبّه عليها، بأنّ طالب العلم لا يجوز له أن -أنا لا أتكلم عن طالب العلم المبتدئ-، أتكلم عمّن درس القرآن دراسةً كافية، ومن قرأ تجارب التاريخ وخاصة التجارب المعاصرة. لا يكفي أن تكون قارئًا للسيرة على طريقة غيب ذهب وتقول أنا أريد أن أراها في واقعي. يعني آخر خمسين أو ستين سنة فيها أحداث أعتذر لهذه الكلمة: تُعلّم الجاهل! ومع ذلك لا زالوا يقولون اقرأ السيرة، أي القراءة الغنّوصية. فلا يؤخذ من كلامي ترك قراءة السيرة. هم يقرؤون السيرة قراءة غنوصية، قراءة غيبية، أنّ هناك يد إلهية تحرّك الوجود وانتهى الموضوع. واليوم نحن قراءتنا قراءة مادية، قراءة القوى، ولا يعرفون أنّ السيرة هي قراءة القوى، وقراءة الأسباب، وقراءة الأقدار، كما تقدّم الشرح. واليوم ينبغي أن يُقرأ الواقع قراءة الغيب كما نقرأ قراءة السيرة.

قضيّة الدستور، انظروا إلى التضخيم، يعني لو تذكر انتخابات الدستور في مصر، صار الحديث مجرّد أن تقول لا تنتخبوا! هذه كأنّها خذلان لنصر الإسلام، هذا أعظم ما عندنا. انتبه! لا أتكلّم هنا من جهة شرعية فقط، فالجهة الشرعية واضحة وينبغي أن تكون هي الحاكمة، ولكن لا يعرفون أنّ الله لا يصلح عمل المفسدين، وأنّ هذا لا يكون فيه الخير ولا يكون فيه النّصر ولو جاء فلان وجاء علّان وكذا، ما لم يتحقّق النّصر الإلهي الّذي به يتمّ نصر الإسلام. يا سيدي، النّصر هو أن ينتصر الإسلام، والنّصر أن يرى الناس يد الله في الوجود. النّصر الحقيقي أن يخرج الناس بعده يقولون الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله.

وهذا كلّه الذي تراه آيات لكلّ عاقل، ينتبه إلى أنّه لا ينبغي له أن يذوب في تضخيم الآخرين لقضيّة الصراع بين الحق والباطل. {وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ} الصّراع عن البعض هو توحيد {لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ}، هذا شيء قليل يكون له عذاب الله هذا.

إذًا ما هي النتيجة؟ النتيجة هو الحقّ. وسُتبتلى، ولكن في النّهاية نصر. عندما تقول هذا باطل لا أقبله، ما النتيجة؟ ستُبتلى ويقع عليك البلاء، ولكن النّتيجة أنّها تقدّم في مواطن الصراع لأنّها الدعوة الحقّ كما شرحنا. التّقدّم للوصول للنّصر. لكن الآن أين نحن؟! كل عمليّة ترجعنا للوراء؛ والسبب الاختيارات الباطلة.

بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا

والحمد لله رب العالمين.

[١٠]

مناقشة كتاب (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) للزركشي

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين، حبيبنا وسيدنا وإمامنا وقائدنا محمد، وعلى آله الطيبين لطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدىً إلى يوم الدين، جعلنا الله -عز وجل- وإياكم منهم، آمين.

اليوم مع الكتاب العاشر، وهو أول كتاب نبحثه ونراجعه من كتب التراث؛ فإن الكتب التي تقدَّم ذكرها والبحث فيها كانت تدور حول كتب المعاصرين. وكتب التراث لها مزيّة بلا شك تختلف عن كتب المعاصرين، ولها سياقها فيما نحن فيه، وإن كان كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ يُعتبر من كتب التراث ولكن المقصود أن الموضوع مختلف، فإن كتاب (الاعتبار) لأسامة بن المنقذ يتحدَّث عن حالة اجتماعية، **وكتاب الإمام الزركشي** الذي بين أيدينا وهو **(الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة)**، يتحدث عن مسألة ربما في الابتداء تبدو أنها مسألة تعالج وضعًا يدور حول الفِرق الإسلامية، لكننا سنرى أن مثل هذه الكتابات والتجميعات من كتب سلفنا لها مجالات أخرى ينبغي على القارئ أن ينتبه لها.

والقصد أننا نريد أن نرى هذا الكتاب من جوانب أخرى غير ما يراجعه المرء من الجوانب المطروقة المعروفة، ربما يستفيد القارئ من هذا الكتاب في نشر فضائل أمنا عائشة -رضي الله عنها-، وهذا جانب مطروق فإن عائشة -رضي الله عنها- تستحق الحب؛ لأنها حبيبة رب العالمين وحبيبة رسولنا ﷺ، ثم إنها تُحَبُّ لما أفضت علينا من نِعم، فإن المرء يحب المحسن إليه، فإنها حفظت لنا ما يقارب نصف ديننا، وهي أمنا نحبها لأنها أم المؤمنين، ونحبها لفضلها على هذه الأمة، ونحبها نكاية بأعداء الله -عز وجل- الذين سبوها. فكل هذه الجوانب هي جوانب مطروقة نذهب إلى كتاب (الإجابة) من أجل أن نحصّلها، وأقول وأكرّر: هذه مقاصد وجوانب مطروقة يعرفها الناس ويذهبون إليها، ونحن سنحاول أن نطرق سبلًا جديدة من أجل تحصيل الفوائد العميقة من قراءتنا لكلام سلفنا وكلام أئمتنا.

اليوم الحديث عن فن القراءة وجوانبه محصور فيما يخص هذا الكتاب، **وهي تتعلق بأنك لن تكون قارئًا حتى تقرأ تاريخ العلوم، وحتى تقرأ الكتب التي مهَّدت للعلوم.** تاريخ العلوم مهم، **التاريخ هو بوابة العقل البشري في إدراك معالم كثيرة**، أهم

هذه المعالم هو إدراك الصواب والخطأ؛ لأنك لا يمكن أن تثبت أن القرآن لم يتغيّر ولم يتبدّل حتى تعرف تاريخه، -هذا تكلمنا عنه وشرحناه-. وأن وجود الظلام في تاريخ شخصية ما أو في وجود كتاب ما، يعني أن هذه الشخصية قد دخلتها الأسطورة والخرافة، عندما نقول: من الذي حدّثك بأخبار أبي زيد الهلالي؟ تجد الناس يتحدثون بهذا يقولون: هكذا سمعناها، من هي الشخصية التي نقلت إليك؟ لا يستطيع أن يُجيب؛ لأن هناك فترة من الزمن لم تُعرف هذه القصة ولم يتناقلها الناس ولا تعرفها الأجيال، فإذًا دخلت في حُقبة مظلمة، هذه الحقبة هي التي يُدار فيها الشر والخطأ والدسائس، ويُزاد عليها ويُنقص منها.

فإذا بقيت العلوم والمعارف على السطح ولا تُتداول في الأقبية بقيت تحت الشمس، هذه العلوم تبقى تحت الشمس جليّة واضحة يُراقب الناس حركتها، يراقب الناس الزيادة فيها والنقصان منها. فالتاريخ هو حَكَم بين الناس في إظهار الحقائق وتمييز الصدق من الكذب. ونحن عندما نقرأ تاريخنا يجب علينا أن نقرأه بعناية الناظر وعناية المؤمن، والمؤمن لا يمكن أن يكون كذلك في ديننا حتى يكون عاقلًا.

ماذا يعني الإيمان في الأديان الأخرى؟ هو التسليم بلا مناقشة، والتسليم بلا تعقُّل، أول كُتيِّب يُعطى لك من قِبل النصارى (ما هو الإيمان؟) يقول: "اخلع عقلك"!، ينشرون كتبًا صغيرة -ربما غير موجودة في هذه البلاد لكنها موجودة في بلاد أخرى-، كتيّبات ومطويّات صغيرة لنشر الإيمان المسيحي، تجد أن أول مبدأ من مبادئ الإيمان عندهم هو: "اخلع عقلك"؛ لأن الإيمان لا يتعلَّق بالحسابات العقلية، ولا بالطرائق المنطقية التي بها يحكم العقل على الأشياء بالصحة والصواب. يقولون: الإيمان يُضادّ العقل من كل وجه، وهذا باب الشر والتلعُّب؛ لأن الإرادة والعقل هما مناط التكليف، فلا يجوز لنا في أي فترة من الفترات أن نلغي العقل.

حتى الذين قالوا في وقت من الأوقات: "العقل يُسلِّم بصواب النقل ثم استقال"، هذه عليها الكثير من الكلام، وعائشة -رضي الله عنها- التي بين أيدينا ترجمَتُها لا تقبل هذا، منهجها لا يقبل هذا، فتُناقش الصحابة -رضي الله عنهم- وتستدرك عليهم بالرواية؛ أي بالنقل، وبالعقل كذلك، هو منهج.

ولذلك التاريخ نقرؤه بعين الناظر المحقِّق، ونقرؤه كذلك بعين المؤمن.

وهنا ندخل لقضية مهمة؛ وهي أن **القراءة عندنا هي التي تصنع المثال، وهو ضرورة التربية**، التربية لا تنشأ بالموعظة فقط، من أضعف وسائل التربية الموعظة، لا بد أن تتشارك الموعظة مع شيء مهم هو ركن من أركان التربية وهو وجود المثال، **التربية بالمثال هي أعظم مناهج التربية**، أن تقول له: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ}، أن ترفع له المثال وتقول: هكذا تكون، لذلك حتى في الإيمان قال: {فَإِنْ آمَنُوا **بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ** فَقَدِ اهْتَدَوْا}، المثال.

وهذا سنبحثه أصوليًا في هذا الدرس لأنه مهم، **وهي قضية إفراغ المنهج من الرجال**، هذه طريقة إبليسية، هم يقولون: "لا نناقش المنهج، لا نناقش الدين، لا نناقش النص، نناقش الرجال"، والقصد هو إبطال المنهج من خلال إبطال الرجال، وهذا سنذكره في بيان (سورة النور) وكيف أن المنافقين أرادوا إبطال دعوة النبي ﷺ من خلال إبطال المثال الذي حمل هذا المنهج، وهو بيت النبوة المتمثّل بالنبي ﷺ وخاصة بعِرضه؛ فإن الرجل يقبل الخطأ من ابنه فيهجره، ويقبل الخطأ من أبيه فيهجره، ويقبل الخطأ من حفيده فيهجره، ولكن لا يقبل المرء قط الخطأ في أهله -في عُرف أهل الفِطَر السليمة.

يمكن أن تقول: ابنك أخطأ، فيقول لك: ابني أخطأ ما دخلي به؟ تقول: أبوك أخطأ، فيقول: ما دخلي به؟ لا يمكن للرجل صاحب الفطرة السديدة السليمة الصحيحة التي لم تتبدَّل ولم تتغيَّر، ولم تُسلَّك مسالك الشر، أن يُقال للرجل: زوجتك أخطأت، فيقول: أنا لا يهمني، وماذا يضرني؟ لا يمكن أن يقولها!.

ولذلك المثال في التربية مهم جدًا، وحِرص القرآن عليه مهم جدًا، والرجال غير الأنبياء وإن كانوا غير مقدَّسين ولا عصمة لهم، ولكنهم يُصبحون في وقت من الأوقات جزءًا من المنهج، تصبح محبة الرجال جزءًا من المنهج، وكما أن القرآن ذكر عن الصالحين مثل إبراهيم -عليه السلام- في براءته من المشركين: {أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ}، قال: "أف"، قبل أن يقول: لمنهجكم، قبل أن يقول: لدينكم، قال: {أُفٍّ **لَكُمْ** وَلِمَا تَعْبُدُونَ}، وقال: {إِنَّا بُرَآءُ **مِنْكُمْ** وَمِمَّا تَعْبُدُونَ}، فذكر الرجال قبل المنهج، فكذلك من جهةٍ مُقابلة **كما أن البراءة من رجال منهج الباطل قبل الباطل هو منهج قرآني، كذلك اعتبار الرجال الصالحين في المنهج هو من المنهج.**

وهذه قضية مهمة، وهي قضية أصولية وقضية من ديننا، ولذلك نحن علينا ألّا نجعل القراءة مجرَّد ثقافة تنمو بها عقولنا، ولكن القراءة تربية، ومنها إحضار المثال دائمًا، أن يكون قصدك أن تتعلم من أجل أن تُرقِّي مراتبك، ولذلك النبي ﷺ عندما رغّبنا

بالقرآن ماذا قال؟ قال: (مَثَلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة)؛ طيّب في نفسه لكن لا رائحة له، لا يصنع المثال، لا يصنع النموذج، لا يصلح للإمامة، لا ينتقل خيرُه للناس؛ لأن القرآن هو مادة حمل الخير للناس، ولـمّا قال رسول الله ﷺ: (ومثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجَّةِ ريحها طيب وطعمها طيب)، فذكر فضلًا داخليًا فيه، وذكر فضلًا خارجيًا فيه؛ إذًا المثال مهم جدًا في ديننا.

وعندما يسأل أحد: لماذا تجعلون أبا بكر وعمر من الدين؟ ذلك لأن هؤلاء حملة الدين، فإذا سقطوا سقط الدين، ومن أهم ما يجب على المرء أن يقرأه: أن يقرأ سير الرجال، وهذا مما حضّ عليه أئمتنا حتى كان يقول سعيد بن المسيّب –رحمه الله–: "ذِكر عُمَر عِبَادة"؛ لأن ذكر عمر يذكّركم بالعدل، يذكّركم بالتقوى، يذكّركم بالصلاح، يذكّركم بالأخذ بالدين بقوة إلى آخر ذلك، فهو دين.

فالذين يطعنون بالرجال تحت ادّعاء أنهم لا يطعنون في المنهج، في الحقيقة هم يطعنون في المنهج، يطعنون في الدين، وهذه لعبة إبليسية يجب علينا أن نحذر منها، لا يمكن لأحد أن يقول: بأنني أعبد الله ولكن لا أصدق الرسول، نقول له: كفرت، ولا يمكن لأحد أن يقول: أنا أصدق الرسول ولا أصدق الصحابة، نقول: كفرت، ولا يمكن أن يقول أحد –هكذا على الجملة–: أنا أصدق الصحابة ولا أصدق التابعين، نقول له: كفرت، لماذا؟ لأن هذا في الحقيقة هو لازم القول، أنك تُبطل الدين، تنسفه من أُسسه.

ولذلك ما هي مبادئ صناعة الحكمة للعابد والتقي والباحث عن الحق؟

أولًا: **الملاحظة**. ثانيًا: **قراءة السِّيَر**؛ من أجل أن تتعبّد وأن تزيد عبادتك، أن تنشّط همتك، أن تصنع دينًا متوازيًا، لا بد أن تقرأ سير الرجال، لأن سيرتهم تصنع التوازن الحقيقي في نفسك.

لو أن رجلًا جاء إلى الناس فوعظهم في الزهد من غير أن يُقدِّم المثال، ربما يأخذهم إلى جانب الانحراف، كما تصنع كتب الصوفية من هجران الدنيا بالكلية، فإذا أقمت رسول الله ﷺ في خيال الناس أن هذا الرجل العظيم كان متزوجًا، وكان يأكل إلخ، وكذلك الصحابة، فإنك تجد نموذج الصحابة نموذجًا إنسانيًا، ولذلك لا بد من النموذج. نحن نقرأ عن علمائنا لأننا نقرأ القرآن، والأمة ورثت من رسول الله ﷺ أنه (كان خلقه القرآن)، هذه وراثة هي خاصة وكاملة في رسول الله، لكنها سَرَت في

الرجال، **والنَّفس متطلِّعة إلى الانعتاق من التكليف تحت دعوى الخصوصية ولكنها مجذوبة إن خرجت من شخص الرسول ﷺ لزومًا.**

ماذا أقصد بهذا الكلام؟

عندما قال الصحابة: "لسنا كرسول الله"، هذه موجودة في كل عصر، يقال: "هذا نبي يا أخي، هذا يُوحى إليه". ولكن إذا خرجنا من شخص الرسول ﷺ وجدنا رجالًا لا فرق بينهم وبيننا في التكوين البشري ولا في أساس الفطرة الإنسانية، ومع ذلك ارتقت هذه المعالم فيهم.

ولذلك أولًا: **القراءة من أجل صناعة الحكمة ومن أجل صناعة التعبُّد**، ومن أهم مراحل صعود المرء في مراتب الحكمة ومراتب التعبد أن يكون أمامك المثال، هذا شيء مهم، وإذا أخطأنا اختيار المثال فقد أخطأنا، إذا تشوّه المثال لدينا فقد تشوّهت الصورة التي ندخل فيها، نحن نبحث عن صورة نريد أن نقلِّدها.

ما هي أركان الشخصية الإسلامية؟

أولًا: التوحيد؛ وذلك يعني البراءة من الشرك، ويُشرك المرء من العرش إلى الفرش، يشرك الناس بالأصنام والحجارة والشخوص وهكذا. أول مبدأ من مبادئ الشخصية الإسلامية هي التحرُّر التي يصنعها التوحيد، ليس هناك علاقة إلا مع الله، هذه قوة الإمداد في نفسية المسلم الصحابي.

الثاني: الاتباع، وكما أن التوحيد مبنيٌّ على العبادة التي هي أمر فِطريٌّ في الخَلْق، أنت مجبول أيها الإنسان –مطلق الإنسان– على التعبّد، لا يمكن أن تخرج منه، كما أنك مجبول على الحاجة للنَّفَس وإلا لذهبت إنسانيتك، الإنسان روح وبدن، احبس عنه النَّفَس فتفرق الروح عن البدن فيخرج مسمى الإنسان عنك، تصير جثة مقابل الروح في عالم الغيب، في عالم الأرواح. كما أنك مجبول على الفقر فالفقر هو أساس التعبد، إذًا أنت مجبول على التعبُّد، فإما أن تكون موحِّدًا وإما أن يكون فيك شركاء متشاكسون.

إذًا ما هو العماد الأول في بناء الشخصية المسلمة؟

أولًا: هو التوحيد، ونحن قلنا: موافقة الشرع للقدر، التوحيد يعني عبادة الله، يعني امتثال أمر الله،{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ} كفار مشركون تعبدون غير الله {لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}.

العماد الثاني والركن الثاني من أركان الشخصية المسلمة هو: الاتباع، لماذا؟ لأن الإنسان مفطور على الدخول في الصورة؛ أنت عندما ترى الصغير من بداية أمره وهو يقلّد والده، إذا والده تحرَّك هكذا أو تكلم، لأنه مفطور على التقليد، مفطور على الدخول في الصورة، لأنه يبحث عن صورة يريد أن يدخل فيها. وأنتم عندما تدخلون بيوت أبناء بعض الناس فتجد صورة الممثل وتجد صورة المغني وتجد صورة لاعب كرة القدم، هذا أمرٌ فطريٌّ لكنه صُرف في غير مجاله الصحيح، فالإنسان من طفولته إلى يوم وفاته وهو في ذهنه صورة يريد أن يدخل إليها، صورة نموذجية هي التي سميناها "المثال"، يريد أن يعيشها، يتنفس مثلها، يحكي حكايتها.

ونحن عندنا هذه الصورة قد ملأها الشرع، حتى وهو يتعامل مع أعظم شخصية في الوجود وهي شخصية الحبيب المصطفى ﷺ أوقف له مرايا أمامه، هم الأنبياء وقال له: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ}، قال له: {اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}، نَسَب الملة إليه مع أنها هي التوحيد، ولكن نسب الملة إلى رجل لأن الفطرة تقوم على هذا، فنحن نريد أن نصنع المثال. وأنت تقرأ لا تكفي الكلمة، الكلمة هذه قد تصنع شيئًا كثيرًا من الحق، لكنها لوحدها لا يمكن أن تصنع التوازن، ولا يمكن أن تصنع دَفْق الإرادة لوحدها، ولا يمكن أن تدفع أنت عنك نوازع الشيطان إلا بوجود المثال، فعلها أبو بكر ففعلها مثله، وهكذا.

فحينئذٍ لا يوجد هناك جانب من جوانب في الحياة إلا وقد امتلأ إسلاميًا في مرآة بصورة تستطيع الدخول فيها، من هنا تبيَّن ضرورة المثال، لأن المثال هو إملاء لحاجة الفطرة الإنسانية التي هي الاتباع، ولهذا (محمد رسول الله) هي من أجل إملاء هذه الفطرة، (لا إله إلا الله) هي التوحيد، الانخلاع القلبي من كل توكل من كل طاعة، أنت تصبح موحدًا خارجًا عن سيطرة الأصنام والأوثان، وبعد ذلك أنت في حياتك لا بد من صورة تعيشها سلوكًا وعملًا، فتبدأ تتشكّل لك الصورة من خلال الشخوص المهتدية.

ولذلك هنا استدراك يسير –ليس من قبيل التخطئة–، إن الصحابة لم يصنعهم القرآن فقط ولكن صنعهم المثال كذلك، ما قاله سيد –رحمه الله– في (المعالم)، قال: "جيل قرآني فريد"، لم يصنعه فقط القرآن ولكن صنعه مع القرآن المثال، وهي الشخصية النبوية العظيمة التي أَسَرتْهُم، وكان هؤلاء الصحابة على درجات، فهناك من الصحابة الصغار من امتلأت مخيلتهم بالصحابة

الكبار مثالًا، كما كان عند ابن عباس وعمر –رضي الله عنهم-؛ كان ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما- قد امتلأت نفسه تعظيمًا لهذا الشخص (عمر)، كان متابعًا له يسأله ويتقفَّر وراءه ما يقول وما يسمع وما يُفتي وما يُحدِّث.

وقيمة المثال في ديننا تبدأ بأنك لا يمكن أن تعبد الله إلا بمثال، ولذلك: (صلوا كما رأيتموني أصلي)، (خذوا عني مناسككم)، والشارع أمر رسوله ﷺ بقوله: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ} وصار هؤلاء الأنبياء ركنًا إيمانيًا، هل هؤلاء ذهبوا وبقيت أخبارهم؟ جاء الرسول ﷺ وعاش مع الصحابة والتابعون عاشوا مع الصحابة وهكذا، ولذلك قال الرسول ﷺ: (في كُلِّ قَرْنٍ مِنْ أمتي سابقونَ)، الله يُقيم من الرجال في بعض الأوقات ما يكون فيه هؤلاء هم معيار الحق، وهذا مما أخطأ فيه بعض الناس في عدم فهمهم بأن مذهب الصحابي يؤخذ به أو لا يؤخذ به، الناس في وقت من الأوقات لا يصح تمام دينهم بل ربما لا يصح دينهم أساسًا إلا بأن ينتموا لهذا الدين، ليس فقط نموذجًا ذهنيًا ولكن سلوكيًا عمليًا واتباعًا واقعيًا في الدخول في جماعة المؤمنين، ممن يكون فيها هؤلاء الذين تحدث عنهم النبي ﷺ: (في كُلِّ قَرْنٍ مِنْ أمتي سابقونَ)، أن يكون عثمان –رضي الله عنه- معيار الصلاح والتقوى في وقت من الأوقات، وكما قالوا : "لم يجتمع حب علي وحب عثمان في قلب أحد إلا وكان من فحول الرجال"، هذه فتنة تتعلق بالرجل الذي أمامك.

أن يصبح الإمام أحمد في وقت من الأوقات هو معيار الإمام أو معيار السنة، ما الذي جعله كذلك؟ هذه القاعدة التي نحن فيها، لا ينبغي للرجل أن يقول: "أنا لا يهمني الرجال أنا أذهب للدين مباشرة"، نقول له: صدقت لا يوجد الحق المطلق إلا في الكتاب والسنة، حتى الصحابة –رضي الله عنهم- لا نتعامل معهم تعاملنا مع الرسول ﷺ لكن هؤلاء الرجال يجب حبهم، وإن إسقاطهم هو إسقاط المنهج، وكل هذا يتعلَّق في أننا نتعامل مع قراءة تاريخنا تعامل الدين.

النقطة الثالثة في هذا الباب: أننا نعجب أن (سورة الأحزاب) بعد أن فرغت في حديثها عن أعظم فتنة أصابت المجتمع المدني بعد تكوينه؛ جاءت الجموع العربية المشركة من أجل القضاء على المدينة وفتنة كما سماها ربنا –سبحانه وتعالى- حتى زُلزلت القلوب وحتى ظهر ما ظهر منها وبلغت القلوب الحناجر، وزلزلوا زلزالًا شديدًا وحصل ما حصل، ولم يُنجِهم إلا القدر الإلهي لعدم قدرتهم، وحدث ما حدث. وبعد أن يفرغ القرآن الكريم من حديثه عن الفتنة الخارجية الآتية القادمة من الخارج لاستئصال المدينة، فورًا يقفز من القرآن إلى حديث عجيب، وهو حديث عن بيت النبوة، هكذا هي سورة الأحزاب، فبعد أن ينتهي الأمر ويقول: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}، يقول: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا..} ويبدأ هذا

الحديث عن علاقة هذا الإمام والنبي العظيم لأمته وهو حديث عن داخل الأسرة، هذا ينبِّهنا **أن البناء الداخلي المتعلِّق ببيت هذا الإمام الفتنة فيه والبلاء فيه يعادل البلاء الخارجي، وأن سلامة هذا البناء مهم بالنسبة لتحقيق النصر**، وأن الاهتمام به من أجل تصفيته وتربيته مهمة إيمانية هي جزء من معركة الإنسان في هذا الوجود بين الحق والباطل.

ومما يشهد على هذا أنه لما حدثت حادثة إشاعة أن رسول الله ﷺ قد طلَّق نسائه والحديث في الصحيح، عمر يقول: "كان بيني وبين الأنصاري اتفاق أن أذهب إلى النبي ﷺ فأشهد الذكر والحديث ويوم آخر يذهب الأنصاري"، كما قال البخاري: "باب التناوب في طلب العلم"، فاتفقا أن يذهب أحدهما للعمل والثاني لطلب العلم، يقول: "فطرق الأنصاري بيتي ليلًا، قال: أدرك فقد هلك الناس"، هذا تقييم الصحابة لوضع بيت النبوة، فقال له وكانت غسان تنعل الإبل لغزونا، -غسان قبيلة الغساسنة في الشمال لهم علاقة بالروم-، قال: "غزتنا غسان؟"، ما الذي حدث حصل أمر خطير ما هو؟ قال: "طلَّق رسول الله نساءه".

فالصحابة يقيِّمون الفتنة بما يحدث في بيت النبوة كأن غسان قد غزتهم، وهذا كالذي ذكرناه في التشطير لغزوة الأحزاب بين قضية الفتنة الخارجية القادمة بالجيوش وبين الفتنة الداخلية وتنقية العوامل المهِّيئة لها، وتهيئة السبل المُزيلة لأسباب الفتنة، فهذا عمل مهم جدًا، والنتيجة التي خرجنا بها أنه كما نصر الله والنبي ﷺ الصحابة بتدمير الأحزاب وإزالة شرهم كذلك نصر الله رسوله بتطهير بيته من أي فتنة أو أي شر يحدث فيه، وهذا من أعظم التزكية لبيت النبوة، كما أن الله حمى الإسلام وأبقاه قويًا وانتصر وانقلبت المعركة إلى أن الصحابة يَغزُون ولا يُغزَون كما في الحديث: (اليوم نغزوهم ولا يغزوننا) فكذلك الله -عز وجل- أزال كل خاطر شر يحدث في قلوب الناس أو في قلوب النساء في الداخل مما لا يُحقِّق أعظم درجات الإيمان، ولذلك هذا العَرْض {إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا}، ولا يمكن للكلمات أن تشرح نفسها إلا بمعرفة الواقع.

لأنك لو جئت الآن لبيت رجل ثري عند زوجته ذهب ومنَّعم في بيته وفي الأثاث، فيقول لها: إما أن تقبلي بهذه الحياة، وإما إن كنتِ تريدين الحياة الدنيا وزينتها فتعالي لأطلقك، فإذًا أنت في هذا العَرْض ما هو معيار الزينة؟ يعني هذا شيء متواضع لا قيمة له من الأثاث والطعام، فتكون الحياة الدنيا التي تطلبها المرأة شيء آخر، هي تنظر لزوجة الوزير ولزوجة السارق الذي في الأعلى، هو الذي يسرق المال فتذهب إلى بيته ولا تجد إلا نعيمًا وفراشًا وذهبًا وتجد هذا البيت كله يعادل المطبخ في بيت السارق الوزير، أو السارق العميل أو ما شابه ذلك، فهي تطلب هذه المرتبة العالية. فحينئذ أنت عندما تقول لزوجتك إما ان

تحتاري ما أنا فيه أو الحياة الدنيا، إذًا كلمة الحياة الدنيا كلمة نسبية ليس لها معيار واحد، لكن لو رأيت المجتمع المدني، والإنسان مطلقًا لا يمكن أن يطلب شيئًا غير حاضر، تجده يقول: أريد أن أتنعَّم مثل فلان. فالصحابيات في بيوتهن شيء وبيت النبي ليس فيه هذا الشيء، فنساء النبي يطمعن أن يكون في بيوتهن ما يقارب بيوت الصحابيات، لا أن يطوف رسول الله ﷺ على كل بيوته ويسأل عندكم طعام فيكون الرد: لا عندنا إلا الماء.

(ولقد أتت علي ثلاث من بين يوم وليلة وما لي طعام إلا ما واراه إبط بلال) الطعام المقصود به التمر أو الخبز، لو وُضع تحت إبطه لملأ جوف إبطه، ونتكلم عن رجل نحيف لإبطه جوف، فلو وُضع الطعام الذي أكلوه في ثلاثة أيام في جوف إبط بلال لكان التجويف في إبط بلال يسع أكثر مما وُضع فيه.

ومع ذلك جاء التعليق: إذا أردتُنَّ الحياة الدنيا وزينتها، مثل الآخر، الحديث عن البيت الآخر هو حديث قطعًا متواضع. هذا أولًا يعرِّفنا –ولا نريد أن نطرق هذا الباب لأنه صار يقينيًا في نفس كل مسلم– أن فضل نساء النبي ﷺ لا ينتهي، وأينما طرقت هذا الباب لا تجد إلا روعة وعظمة وجلالًا وكمالًا.

ولكن بعض الناس لتعوّدهم شمّ الباطل إذا وُضع عليهم الطيب ماتوا، فهذا الرافضي الذي لا يعرف إلا القذارة ولا يسمع إلا السفالة فلو سِيق له حديث في فضل أمهات المؤمنين، وأعظمهن في حياته ﷺ عائشة، لو سيق له حديث في فضلها لمات!، لكننا نتحدث بأن البناء القرآني لبيت النبوة هو بناء الكمال، وأن على الداعي أن يهتم في بنائه الداخلي اهتمامًا تامًّا.

وأنا دائمًا أذكر في سورة القصص لما قال الله –عز وجل–: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} كان أول أمر أصدره الله بعد هذه المقدمة التي بَنَت قَدَر موسى مع فرعون في إزالة ملكه ونصر الله له ولبني إسرائيل قال: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ} إياك أن تتنازل في موضوع بناء أسرتك، إياك أن تتنازل في موضوع أن تكون المرأة التي بجانبك على قدر المهمة التي رَصَدْتَ نفسك لها، وإلا بعد ذلك لا بد يومًا من الأيام أن تهلك وتضعف وأن تؤثِّر في اختياراتك، وأن تؤثر في عملك وتؤثر فيما رصدت نفسك له، هذا أمر لا تنازُل فيه، فإذا رجعت من شأنك وكما قال الله –عز وجل–: {إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا} فأنت تسبح في الناس في الدعوة والتعليم وشأن الصبر، ثم تعود إلى بيتك فلا تجد إلا النكد ولا تجد إلا صورة مماثلة

لعالم الدنيا الذي تُنفِّر الناس منه، وعالم الغلط الذي تُحذّر الناس منه، وعالم الشر الذي تقاتله في الخارج، ثم يكون هذا في بيتك، أنت دمَّرت نفسك!

ولذلك البناء الداخلي للداعي وللعالم وللمجاهد هذا أمرٌ مهم، وأكرر اقرؤوا سورة الأحزاب على هذا المعنى كيف شطرت هذه السورة المعركة بشقيها، المعركة الداخلية في قضية تنظيف البيت من أي معوِّق من معوّقات النصر والعبادة والدار الآخرة، وكذلك كيف نصر الله -عز وجل- الصحابة بإزالة العدو إزالة كاملة قلبت وجه المعركة.

ولذلك لما نذهب لسورة النور نجد أن المنافقين عندما وجدوا فقط ثغرة ليدخلوا منها للطعن في النبي لم يجدوا إلا أن يطعنوا في زوجته -عليه الصلاة والسلام-، وقالوا ما قالوا وصارت الفتنة العظيمة، وكما يقول الصحابة -رضي الله عنه: "ما علمنا أهل بيت أكثر كرامة لهذه الأمة وأكثر خيرًا لهذه الأمة كما هو بيت الصديق -رضي الله عنه-"، ما من حادثة حدثت معهم إلا وكان في هذه الحادثة إرثًا عظيمًا ورثته هذه الأمة، كحادثة الإفك، كالتيمم، هو بفضل أمنا عائشة -رضي الله عنها-، **والله -عز وجل- يُقيم من أهل الحق أسبابًا لنشر الخير، فيرتبط هذا الخير بهذه الأسباب من الرجال فيصبحون معالم خير لهذه الأمة؛** يدعون لهم ويحبونهم ويتمنون لقاءهم، ويرتقون في سلم العبودية لله -عز وجل- بالتقرُّب من هؤلاء الأشخاص. ولذلك في سورة النور لما حصل ما حصل من حديث الإفك كانت هذه الشريعة العظيمة بسبب هذا الموقف.

أعود وأقول: **بأن الطعن في المنهج يتضمن الطعن في الأشخاص، وإن الطعن في أشخاص المنهج هو طعن في المنهج،** هذا لا يعني أنهم لا يخطئون، هناك فرق بين خطأ يُصبح في نفس الناظر المعرَّة، نحن نقول: أبو بكر أخطأ -رضي الله عنه- في هذه المسألة لأنه ليس معصومًا، نقول عمر أخطأ في هذه المسألة، هل نتكلم عن أخطاء تُصنع منها المعرّة التي يُنفَّر منها؟! ما من عالم في تاريخنا إلا ورُدّ عليه في أبواب العلم ونوقش وأُخذت عليه مآخذ، لكن أعطوني عالـمًا اتُّهم في عِرضه، اتّهم في موالاته للكفار، اتهم في دينه على جهة إسقاط دينه بالكلية؟!

إن الله -عز وجل- أكرم من أن يجعل قادة هؤلاء الأمة والذين هم سبب خيرها وسبب رفعتها ودفعها للحق، أن يجعلهم فتنة للناس حيث تتعلَّق بهم القاذورات التي يُنفَّر بها عن المنهج، الله -عز وجل- أرحم من أن يفتن الناس هذه الفتنة.

ولذلك هذا الحديث عن قراءتنا لتاريخ هذه الأمة، وأن نقرأها بعين العابد الباحث عن المثال ليمتثل صورته في نفسه وفي حياته. لماذا عندما يأتيك أمر هو خيار بين الشجاعة وبين الجبن فأنت تتذكر بيت شعر أو تتذكر موقفًا لصحابي؟ لأن هذا هو الأمر الذي جُبِلت عليه. لماذا عندما يكون هناك مجال إما أن تبخل وإما أن تجود فأنت تتذكر صورة رجل جواد من أمتك أعطى؟ وهكذا، عندما تكسل عن أمر من أمور الطاعات فتتذكر صورة مثال تريد أن تلحق به من صورة أمتنا، وهذه يدل على ضرورة -أي ركن من أركان الوجود وركن من أركان الشخصية الإسلامية- وهو وجود المثال.

الركن الثالث من أركان تكوين الشخصية الإسلامية: هو ذكر الدار الآخرة، وهو المقصد.

أولًا: التوحيد؛ وهو البراءة من الشرك والأصنام والأوثان. ثانيًا: الاتباع وهو تحقيق المثال. ثالثًا: المقصد؛ وهو أن يكون أمام ناظر المسلم في بناء شخصيته لقاء الله -عز وجل- والدار الآخرة، ولو رجعتم إلى القرآن المكي لما وجدتم فيه إلا هذه الأمور.

القرآن المكي كله يقوم على هذه العمد الثلاثة وهي التوحيد وما يتعلَّق به، والاتباع وداخله الأخلاق وأصولها، وثالثًا: وهو تحقيق المقصد وتعيينه وهو الدار الآخرة.

الآن بقي **الحديث عن هذه الأم العظيمة**، هذا المثال النبوي وهذا المثال الشريف وهذا المثال العظيم وهو مثال أمنا عائشة، بالنظر إلى هذه الشخصية باعتبار خصوصيتها، ما هو المطلوب؟ كيف نقرأ هذه الشخصية؟

الذي فعله الإمام الزركشي أنه أحضر الروايات، وهذا الأمر مهم جدًا لأصحاب المرحلة الأولى في التاريخ ما فعله أئمتنا هو نموذج ما يفعله المؤرِّخ، الآن الناس يقولون -ويكذبون لأنهم جهلة-: بأن المؤرخين القدماء كان دورهم الرواية فقط، لأنهم نَقَلة، نقول: هذا هو قمة إخلاص وصدق المراحل الأولى في تثبيت التاريخ، التاريخ أولًا قبل أن تحصل به العبرة لا بد أن يحصل له التوثيق، قبل أن تبحث عن العبرة والفوائد يجب أن توثق، ولذلك قالوا: "أثبت العرش ثم انقُش"، "التقميش ثم التفتيش"، هذه قواعد، أولًا أنت تُثبت هل الفعل التاريخي حدث أم لم يحدث، بعد ذلك تنطلق منه إلى حاجتك.

ولذلك ما فعله الصحابة -رضي الله عنهم- من الرواية لسيرة النبي ﷺ وما فعله التابعون من رواية هذه الأحاديث وهذا التاريخ ومن رواية سيرة الصحابة وهكذا، ما فعله المؤرخون ابتداءً من توثيق الخبر دون تدخل الراوي فيه تحليلًا وغير تحليل واستفادة وعبرة، هذا تركوه لك.

وأنا أنبه على قضية مهمة، أن الذين كتبوا هذا التاريخ كانوا يُحسنون الظن بهذه الأمة؛ وأنا أضرب مثالًا؛ يظن بعض الناس أن العرب لا تُنقِّط الكلام وإنما التنقيط في أصوله هو أمرٌ طارئ على اللغة العربية، وهذا خطأ، الصواب أن الحروف العربية منقَّطة في أصولها، لكن السؤال لماذا لم يكونوا ينقطون الحروف المعجمة ويُبقون المهملة؟ السبب لأنهم كانوا لا يتصوَّرون أن يأتي غبي فيخلط بين المعجم والمهمل!. والحال لو أنك جئت لمهندس وأردت أن تشرح له خارطة بيت، وهو مهندس خبير له عمر في البناء وقراءة الخرائط، وأرسلت له رسالة فيها مخطَّط بيت، وجعلت تشرح له كل خط فيها ما هو، ما معنى هذا الكلام؟ أنك تحتقره! سيقول هذا الرجل يحتقرني لأنه يفصِّل ما هو معلوم لدي، أرسلها أنا أفهمها!

لذلك حين تعامل العالم تعامله أنه يعرف الكلمات ويعرف المدلولات، وأنت تتصور أن عربيًا قديمًا تضع له التنوين والإعراب وإشارة الجر والنصب والرفع، يقول لك الرجل: واضح أنه يعاملني كأعجمي لا يعرف من العربية شيئًا!.

فمشكلة علمائنا الأقدمين أنهم كانوا يُحسنون الظن بالأمة وبمن كتبوا لهم الكتب، وقد أحسنوا وتعاملوا مع زمانهم تعاملًا لائقًا، لكنهم لم يعرفوا أنها ستصل إلينا، وسنحتاج أن نتعلم أن نضع النقاط، والإشارات وبعد الإشارة الشرح في الأسفل، وبعد الشرح نحتاج لمزيد شرح وبيان ووضع ضوابط جديدة!، حتى أننا الآن نلوّن المصاحف، هذا إخفاء وهذا إظهار، يعني زدنا على الشرح شرحًا لأن هذا مستوانا.

فعلماؤنا كانوا يضعون الكتب ويتركون ألغازها، ومهمات استكشافها للعلماء، ولكنها صارت إلينا فصارت المسألة عندنا الآن لأننا لم نفهم مرادهم ادَّعينا جهلهم للأسف!.

الآن أذكر لكم مثالًا، نحن الآن نبرّئ الإمام الطبري في تاريخه، نحمل عبارته في أول الكتاب على أنه: هكذا وصلتني الأخبار، فكما يُقال: العهدة على الراوي، لكن هو يتعامل مع علماء ينظرون في الأسانيد فيعرفون الرجال، ويعرفون الأخيار ويعرفون كيف يحكمون على الخبر قبولًا وردًا، كما فعل ابن خلدون، ابن خلدون لما كتب التاريخ ووضع مقدمته ووضع ضوابط في نقد المتن غير ضوابط المحدِّثين في ضبط ونقد السند، فهو يتعامل مع علماء يعرفونها لكنها صارت إلينا، أولًا حتى ما هو ضابطٌ جليٌّ من ضبط السند أصبحت الأمة لا تعرفها، وحين يشرحها الطلبة يشرحونها بالطريقة التي تعرفونها، وأما نقد المتن فصار عيبًا في المدارس المعاصرة يفعله البعض على جهة الإفراط في نقد متن بلا ضوابط علمية، أو أنهم يُحرِّمون كليًا نقد المتن، وليست هذه من طرائق العلماء في شيء.

ردّ النصوص بمجرد احتمال عقلي باطل، ردّ النصوص بمجرد احتمالات مبنية على الهوى بغير ضوابط العلم وقواعده غلط، وكذلك عدم نقد المتن بالقواعد العلمية غلط.

القصد بأن العلماء عندما يذكرون لنا أحاديث عائشة وفضائل عائشة إنما يتركونها لنا، حتى إنهم حين يشرحونها على جهة الإجمال، الكتب التي تفسّر القرآن عامتها تقوم على شرح الألفاظ، لأن الألفاظ صارت غريبة، وأما ما يُطلب من القرآن على جهة الاعتبار وعلى جهة العلم وعلى جهة آثاره في النفس وعلى صدى هذه الكلمة في نفس القارئ وفي نفس العالم هذه لا يتكلمون عنها؛ لأنهم لو تكلموا عنها لاحتاجت كل سورة إلى مقدار (تفسير الطبري)، يعني البقرة لوحدها تحتاج إلى مقدار (تفسير الطبري)، لكنه يقول هكذا جاءت الرواية.

لذلك عندما نقرأ الآن ما جمعه الإمام الزركشي، هو يريد أن يقول: هكذا وردت وأخذ جانبًا وجمعه في نصوص عائشة، التي تتعلق بأنها ردّت على الصحابة، وأما جوانب العلوم التي تحتويها أحاديث عائشة –رضي الله تعالى عنها– وهو ما يقارب ألفًا ومائتي حديث، هذه تحوي من جوانب العلوم الكثير، لكنه اختار جانبًا واحدًا وهو ما ردَّت به عائشة –رضي الله عنها– على الصحابة في مسائل العلم والأخبار.

كمن يريد أن يقرأ شخصية الخليل ﷺ في القرآن، فهذه الشخصية ممتلئة عظيمة، شخصية تحوي شمول الإنسان من كونه فتى إلى أن شاخ وكبر وصار له الأبناء، حتى أن الملائكة قد مروا عليه –عليه السلام– وقد بلغ من الكبر عتيّا، ولذلك لما بُشر بالولد {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي **شَيْخًا** إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}، وتحدَّث القرآن عن هذه الشخصية من كونه: {قَالُوا سَمِعْنَا **فَتًى** يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}، أنت تريد أن تبحث عن هذه الشخصية ربما تبحث عن جانب من جوانب عظمة هذه الشخصية وهي كونه مناظرًا قويًا جَلِدًا مُفحِمًا حكيمًا في إثبات الحق من جهة العقل، كيف يتحدث إبراهيم –عليه السلام– عن الإيمان تحدُّثًا عظيمًا من جهة العقل، ولذلك الزركشي هنا فقط يجمع لنا مسألة ما استدركته عائشة على الصحابة –رضي الله عنها–.

هذه الشخصية شخصية عظيمة، وهي شخصية أمنا عائشة –رضي الله تعالى عنها–، وفي الحقيقة لا أريد أن أطبّق بعض المناهج لأن العقّاد لما جاء إلى عبقرية علي –رضي الله تعالى عنها– وقال: "يكفي للرجل أن يكون عظيمًا أن يفترق الناس فيه هذه الافتراق بين مؤلِّه له وبين مكفِّر له"، انظر هذه المفارقة العجيبة!.

لذلك أن تُحدث هذه الشخصية هذه الآثار المهمة في أمتنا، علمًا وفقهًا وعقلًا وأن تكون على مثل هذا، فهذه ليست بالشخصية التي تُبحث بحثًا عاديًا، لا بد أن نَلِج إليها. لذلك استوقفتني كلمة سعيد الأفغاني يجب أن توضع ويجب أن نتعلمها، وسعيد الأفغاني هو أحد أساتذة اللغة العربية الكبار في هذا العصر لكن حصل ما حصل أنه تفرّغ للجامعات وغير ذلك، ولكن كتبه تدل على عِظم هذا الرجل وعلمه.

قال سعيد الأفغاني عنها: "شخصية أو امرأة طُلْعَة"، وهو الذي يسمى هذا الزمان بـ"حب الاستطلاع"، وهذه القضية هي قاعدة العلم، أن يكون المرء بحّاثًا متقفِّرًا سائلًا مدقِّقًا، يحب أن يخوض في كل شيء وأن يستوعب كل شيء، هذه قاعدة العلم. ولذلك مما يُذكر بأن الطفل إذا أعطيته اللعبة وجئت له بعد شهر ووجدتها كما هي لم تُكسَّر فاعلم أنه غبي، لا بد أن تأتي إليه بعد مدة وقد كسَّرها لأنه يريد أن يعرف ما بداخلها، فأنت تراه مخرِّبًا وهو في الحقيقة مستطلع ومتعلم.

وأحيانًا أنا أعجب من مفارقات التَّربويين، استوقفتني كلمة في التربية كتاب (حياتي في الفن)، والكتاب كبير لكن استفدت منه في ثلاثة أو أربعة مواطن، يتحدث عن بنت -وهم يعتبرون هذا من الفنون العظيمة ونحن نعتبره من المفاسد العظيمة في الحقيقة-، وعلى الذكر حتى أرسطو قديمًا كان يعتبر أن الفنون لا أهمية لها في بناء الحضارات، وهذه حقيقة أن الفنون مُفسِدة ومدمِّرة للحضارات، بل إن من أسباب خراب ودمار الحضارة الإسلامية في الأندلس هو انتشار ما يسمونه "رقيًا إنسانيًا"، ولذلك الأهرامات هذه التي يمدحونها أنها تراث إنساني هي في الحقيقة جريمة إنسانية؛ لأنهم يغفلون كم مات فيها من عشرات الآلاف لبناء حجارة، ماذا استفاد منها الوجود؟ لكن لا بأس أن يموت مئات الآلاف ليقول الناس: كان هناك ملك عظيم بنى هذه الحجارة!، الناس مفاهيمهم في القيم مقلوبة.

فهو يتحدث عن بنت، يقول سلافسكي كان هناك مدرب للباليه، وكان هناك بنت يُطمع أن تكون مميزة فيه، باعتباره فنًا راقيًا في مجتمعاتهم، العائلات الكبيرة تُرسل بناتها لتعلُّمه ويفرحون كما يفرح العرب بالشاعر إذا ظهر رجل صاحب موهبة في هذا، فيقول هذا الكاتب المسرحي: " كنت أعجب لهذا المربي وقد رأى البنت في وسط حديقة البيت وقد استغرقت في اللعب يأخذها في هذا الوقت من الاستغراق ليُجبرها على التعلم والتدرب"، فهو سأل هذا الأستاذ فقال: "حتى تقوى عندها إرادة العمل"، حتى أعلمه كيف ينتشل نفسه من أقوى المحبوبات لديه ليؤدي الواجب، وهو مستغرق في لعبه ولهوه وأنت تأخذه من أجل أن يتدرَّب لتصبح لديه الإرادة في أن يُقبل نحو الواجب الملقى عليه وهو في أشد حالاته، وهذه نحن نمارسها في الصلاة،

نخرج في أشد ساعات العمل لأن الصلاة حانت، كما وُصف النبي ﷺ " كان يحدّثنا ونحدّثه فإذا حضرتِ الصلاةُ فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرِفه"، هذا من تقوية الإرادة في إقامة الواجب.

كان عروة بن الزبير وهو ابن أسماء أخت عائشة –رضي الله عنهم جميعًا– يقول: أنا أعجب أقول عالمة، فقيهة، تفهم في الشعر، فأقول أبوها فلان، لكن كيف تعرف عائشة الطب؟! فهي تفسر له، الأعراب كانوا يأتون فيصفون الأدوية للنبي ﷺ وهي تراقب الملاحظة، كم منا يراقب حركة الطبيب كي يصبح هو الطبيب؟ حركة الفاعل حتى يصبح هو الفاعل. هذه عائشة –رضي الله عنها– وهي ذات شخصية قوية طُلعة.

وأذكر لكم قصة الأستاذ سعيد الأفغاني لما فيها من تربية، كان هناك شخصية أدبية عظيمة حققت بعض التربية اسمها أحمد راتب النفاخ، وهذا كان بينه وبين سعيد صداقة مع تنافُس، لكنها صداقة الكبار وتنافس الكبار، وسعيد الأفغاني مدرِّس في الجامعة، والنفَّاخ ليس له عمل، فتخاصما يومًا وتشاتما على ما يتشاتم به الكبار.

وأحمد راتب النفاخ فقير واحتاج مالًا فأين يذهب؟ يذهب لصديقه الذي شاتمه البارحة، فماذا يصنع! وفي النهاية لا بد أن يذهب لمكتب سعيد الأفغاني في جامعة دمشق ويطلب منه المال، فجاء أحمد النفاخ وطرق باب مكتب سعيد الأفغاني وطرق الباب عليه وفتحه سريعًا وقال له: "ولاه بدي ميتين ورقة"، فسعيد أعطاه ما طلب وسبه وأخرجه. هذه خصومة الكبار، على ما فيها لكن فيها الوفاء وفيها الرجولة وفيها الحب بين هؤلاء.

القصد لو قرأنا هذا الكتاب نجد التاريخ في شخصية أمنا، أنها أولًا كما ذكر أنها امرأة عظيمة في نفسها، وهذا أمر مهم، إنَّ الإناء له دور مهم في الذي يُوضع فيه، يُشكِّله، ولو كان الصحابة –رضي الله عنهم– جبناء لتشكَّل الإسلام على صورتهم وإنائهم، ولو كان الصحابة بخلاء لتشكل الإسلام ببخلهم، ولو كان الصحابة في أصلهم أهل كذب، حتى يقول أبو سفيان –رضي الله عنه–: "لولا أن يُؤثر علي الكذب لكذبت"، لتشكل الإسلام بصورتهم، فإن الإسلام العظيم في جوهره لم يكن في واقع الأمر ليكون عظيمًا لولا أن الصحابة عظماء.

لا يمكن أن يكون هذا الإسلام عظيمًا نزل في أوانٍ قذرة، ولا يمكن أن يكون هذا الدين عظيمًا ونزل في بيت لا يستحق في أن يُنسب إليه، ولذلك أمنا عائشة –رضي الله عنها– فيها الشخصية العظيمة، في داخلها في نفسيَّتها، وهذا من ينبغي أن نهتم

به. أولًا: **أن نصيغ شخصية المسلم في نفسيَّته قبل أن نصيغ شخصية المسلم في علومه**، وما حاولته في كل كتبي التي كتبتها في سجني خاصة، وهو الاهتمام بالجانب النفسي في صياغة شخصية المسلمين، نحن مشكلتنا اليوم ليست في العلوم، وأنا أقول لكم: إن أجبن الناس يستطيع أن يجد في الإسلام ما يجعل الإسلام جبانًا أو قريبًا من الجبان، والبخيل يصنع كذلك إسلامًا بخيلًا، وأنا دائمًا أقول: العجيب أن الذي يجاهد يقول دائمًا: "قال ابن تيمية"، والذي يوالي الحكام ويناصرهم ويكون حذاءً لهم يقول: "قال ابن تيمية"، والذي يدخل البرلمانات يقول: "قال ابن تيمية"، والذي يكفّر الذي يدخل البرلمانات يقول: "قال ابن تيمية"، كلهم يقولون: "قال ابن تيمية"!.

إذًا أين المشكلة؟ المشكلة كيف يتلقَّى الناس العلوم، وأنا أقول دائمًا: **إن الفكرة الواحدة تتغيَّر إذا تغيَّرت بيئتها**، والدليل أنك تضع العصا في الماء، فتنظر إلى العصا فتراها أنها مكسورة، لماذا تغيرت صورة العصا؟ لأن كثافة الماء تختلف عن كثافة الهواء؛ وهكذا الأفكار تكون عندك على شكل تنقلها من خلال البيان لشخص آخر، هذه الأفكار تنكسر إذا لم تكن النفسية واحدة، إذا لم تكن كثافة النفس في التلقي واحدة.

وهذا أهم شيء في القراءة ومن هنا ينشأ فساد القراءة الانتقائية، لماذا القراءة لا تُنشئ حالة واحدة مع أنها قد تكون ضارة فتنشئ ضررًا أو مهديَّة فتنشئ هداية؟ السبب هو وجود قراءة انتقائية.

ما هي أُسس القراءة الانتقائية؟ أنك تقرأ كلامًا طويلًا فلا يعلق في ذهنك إلا ما تحب ويلائم نفسيَّتك، وأما ما أتى من المعارف والمعالم على خلاف ما تحب نفسيتك إما أن تنساه وتضع يدك عليه مُبعدًا له عن عينيك وإما أن تبدأ بتأويله. هذه هي مفاسد القراءة الانتقائية، والدليل أنك مثلًا تريد فكرة ما، يعني لو تقرأ لابن تيمية وكنت مرجئًا ستبحث عن كلمة فيها شيء قريب من هذا المعنى، لو كنت مكفّرًا مُغاليًا فأنت لا تلتفت لكلام الآخر تؤوِّله أو لا تهتم له، حتى تجد الكلمة التي تبحث عنها. فهو يقرأ الأخبار فلا يهتم إلا بالخبر الذي يلائم نفسيته، هذه قراءة انتقائية فاسدة جاهلة. المطلوب هو القراءة الشاملة.

ولذلك نحن نعلم أن الصحابة لهم النفسية التي تلائم الحق الذي نزل عليها فالتقت كثافة الحق في النص مع كثافة الحق في النفس فلم يحصل الانكسار، ثم تغيَّرت الكثافة بعدهم، النص بقي على كثافة الحق الذي فيه ولكن تغيَّرت كثافة النفس فحصل الانكسار، النصوص صارت مقلوبة، هذا الذي يُنشئ التأويل.

وهذه إحدى صور القراءة المتهافتة الفاسدة، وهي بجانب من الجواب هي القراءة الانتقائية. ولذلك من أهم ما ينبغي أن نفهمه في قراءتنا وتعلُّمنا لحالة الصحابة ولحالة العلماء أن نقرأ نفسيَّتهم، كيف يمكن إدراك نفسية العلماء؟ بالنظر إليهم وإلى اختياراتهم، أنت تجد العلماء في نفوسهم وفي أصل تربيتهم وفي نزعتهم يحبُّون الجلاء والوضوح، لا يحبون التَّعمية، تجد في نفوسهم محبة الحق، تجد في نفوسهم الاستعداد، ودفع الماديات مقابل الأفكار والحِكَم، هذه قضية كامنة في نفس العالم، هذه قضية مهمة جدًا في نفس العالم، أنه مستعد أن يدفع المال ويدفع الوقت ويتخلَّى عن كل زهرات الدنيا مقابل أن يتعلَّم حكمة، ومن هنا نشأت الرحلة في طلب الحديث، نشأ عند علمائنا محبة الفقر مقابل العلم أن يُنسب إلى العلم.

قيـــل للفقـــر أيـــن أنـــت مقـــيمُ؟	**قـــــال في عمـــــائم العلمـــــاءِ**
إنَّ بيـــــني وبيـــــنهم لإخــــاءً	**وعزيـــــزٌ علـــــيَّ تـــــرك الإخــــاءِ**

واليوم إما أن الفقر تغيَّر وإما أن العلماء تغيَّروا!

ولذلك طريقتنا في قراءتنا لتاريخنا وفي قراءتنا التي تصنع لنا شخصية مسلمة مهتدية متوازنة وشخصية عاملة؛ لأن العلم في ديننا ليس إنتاجًا علميًا بل هو تربية إرادة، يُنشئ الفعل والإقدام واختيار المكارم والمحاسن، هذا هو العلم. علينا أن نهتم بالتربية النفسية، لا التربية النفسية التي يقولها الخصوم، لكن نقصد بها المفهوم الفطري وذلك بأن نقوِّم اختيارات أبناءنا ونفوسنا على المعالم الصحيحة، على قبول الحق، نقوِّمها على الصدق، نقوِّمها على أن الأمور لا تأتي إلا بجهاد، على أن الإرادة هي الإنسان، علينا أن نُميت الكسل، علينا أن نُميت التسويف.

شخصية أمنا عائشة –رضي الله عنها– هي مثال لنا في هذا الباب، ومن أهم ما ينبغي أن نعلمه أنَّ على العالم والقائد الكبير في تاريخ أمته أن يعرف قيمته، وأي إذهاب لهذا المعنى من نفس العالم والقائد والمربي يعني التواضع البارد، كما يوجد ورع بارد فهناك تواضع بارد!

فعائشة –رضي الله عنها– كانت تعلم قيمتها، وهذا جواب على سؤال بعض الإخوة: لماذا كانت تُشدِّد مرات في جوابها وفي استدراكها على المخالف؟ لأنها تعلم قيمتها في سلسلة حلقات الحق في زمانها.

كما ذكرنا ذلك عن عمر –رضي الله عنه– فلو نزلت هذه المعالم من نفسيَّة عمر لما أصلح، يقول: كيف أرد على أبي بكر، كيف أرد على هؤلاء المشهود لهم بالجنة؟ هو متواضع، هو يشك في نفسه أنه من أهل الجنة أو من أهل النار، ويتعامل مع شخصيات أخبر عنها رسول الله ﷺ أنها من أهل الجنة ويشك في نفسه، ومع ذلك هو يعرف قيمته خلال هذه الحقبة وأين دوره.

هذه المعالم النفسيَّة في هذه الشخصية العظيمة تُنبئنا أن **القارئ لشخصية أمنا عائشة –رضي الله عنها– يجد مثال الشخصية الإنسانية في كل تجلياتها**؛ ذلك لأننا نتعامل نحن الرجال مع امرأة، وركن المرأة في تاريخ البشرية هو الغيرة، ونحن نعرف في بيت النبوة الغيرة مع مبدأ العلم والقوة في الحق وبركة الخير وقبول الدار الآخرة والزهد والورع في هذه الشخصية العظيمة، وأهم قضية فيها هي العلم، لكننا كذلك لا بد أن ننتبه أننا نتعامل مع شخصية أنثوية، يعني إنسانة امرأة، فهذه القضية يجب أن نهتم بها ونراعيها، وهي تُنبئنا أننا نتعامل مع بشر لم يخرجوا عن بشريتهم، ولذلك الولاية بشريَّة وليست ملائكيَّة.

وأنا يُعجبني أن يجمع لنا طالب علم أفعال أبي بكر المضحكة، أنا ذكرت يومًا شيئًا عنها كيف يفعل إذا غضب، وفي ذلك قصص مع عائشة ابنته –رضي الله عنها– فهناك أعظم الأولياء في البشرية منذ أن نزل آدم –عليه السلام– إلى القيامة بعد الأنبياء هو أبو بكر، ومع ذلك نحن أمام شخصية إنسانية فعلينا أن نتعامل مع أولياء الله على هذا الاعتبار، وإذا أراد المخالف أن يسب على هذه الشخصية بما جُبلت عليه من إنسانية فهو أمام حالتين: إما أن الشخصية التي يعظمها لا وجود لها؛ لأنه يتعامل مع مثال، لأنه يرى شخصية إنسانية والإمام عنده عظيم فهو خارج الإنسانية فهذه حالة. وإما أنه قذر لا دين عنده، لا يعرف الإنسانية في تجلِّياتها الإيمانية العظيمة أنها تنخلع من إنسانيتها. ونحن نرى أنَّ هذا الأب العظيم الذي قيل للنبي ﷺ: "من أحب الناس إليك؟" قال: (عائشة)، قال: من الرجال، قال: (أبوها) فهذا بيت مبارك، إذا أردنا أن ندعو الله –عز وجل– أن يغفر لنا ويرحمنا فلندعُه بما هو من الإيمان من أعمالنا، وإننا والله متيقِّنون على أن أعظم أعمالنا بعد التوحيد واتباع السنة هو محبتنا لهؤلاء الأولياء وهؤلاء العظماء وهم الصحابة وعلى رأسهم نساء النبي ﷺ.

اللهم إنا نسألك بحبنا لأمنا ولأمهاتنا أمهات المؤمنين وأصحاب النبي ﷺ أن تغفر لنا وترحمنا.

الأسئلة

- **سائل يقول: يكرر المحقق كلمة "السيدة عائشة".**

الشيخ: رسول الله هو سيدنا وأمهاتنا هنَّ سيداتنا، وإنما نهى النبي ﷺ عن كلمة السيد لأن السيد المطلق هو الله، ولكن السيد النسبي من هو سيد، ولذلك النبي ﷺ هو سيدنا، وأمنا هي سيدتنا، ومعنى السيد الذي إذا أمر أطاع، والأب إذا أمر أطاع، والأم إذا أمرت أطاع، والسيد على عبده أو أمته إذا أمر أطاع، ولكن السيد المطلق هو الله.

فلما رأى النبي ﷺ الرجل يقول: أنت سيدنا وابن سيدنا، ورأى في ذلك شيئًا موحيًا بما يخدش التوحيد نهاه عن ذلك، وأما أنه سيدنا فهو سيدنا وأمهاتنا سيداتنا وليس في ذلك شيء، والله تعالى أعلم.

وهذا يؤكّد أن سب وقذف أمنا –رضي الله عنها– من الكفر وهذا بإجماع، لو أن رجلًا اتهم أمنا بما برَّأها الله منه فقد كفر، ومن ذلك الخوري فقد زعم في تفسيره –عليه من الله ما يستحق–، وهو رافضي يزعم البعض أنه من المعتدلين، ومع ذلك يقول: "إن الله قد برأها حكمًا وليس واقعًا"!

- **السائل: ذكرت أنه ينبغي حتى لا نقع في موضوع القراءة الانتقائية ولا ينشأ عندنا فساد في القراءة أن تكون الكثافة النفسية للقارئ في الحق وفي قبوله عند الآخر، ما هي السبل في تطوير هذه الكثافة لتلقي الحق حتى لا تنشأ عندنا القراءة الانتقائية؟**

الشيخ: في الحقيقة الذي يُضادّ الحق دائمًا هو الهوى، يقول الله –عز وجل–: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ} وجعل مقابل الهوى: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} فلا ينشأ ضلال في الوجود إلا وهو قائم على الاثنين معًا أو على أحدهما؛ الظن وهو أخذ الشيء وهو مرجوح ولا دليل عليه، والثاني الهوى. فلا بد للمرء أن يسلك السبل الكفيلة بإزالة الهوى، وهنا يأتي دور الشريعة، نأتي بالماء الموضوع في الإناء، فلا بد من تربية، من نموذج، من مثال، لا بد أن يجلس مع العلماء ويتعلَّم من هؤلاء العلماء إذا كانوا مصدّرين في المجالس وجاء رجل ردَّ عليهم فكيف يقبلون، لا بد أن يقرأ في سيرة العلماء الذين على هذا

المنوال، الذين لا يتَّبعون الهوى بل يقولون كلمة الحق ولو كان في ذلك ضياع لمصالحهم، عليه أن يتربى على هذا ويُكثر منه، هذا ما يتعلق في البناء النفسي والبناء العلمي في هذا الجانب.

الجانب الآخر هو الجانب العلمي الصِّرف، عليه أن يتعلم ما هي القواعد التي بها يُحكم على الحقائق، عليه أن يتعلم ما هي الأصول التي يميّز بها الحق عن الباطل، وكل علم له قواعده.

وأعظم ما يدمِّر هذا هو التقليد، الذي يقول لك: "لا تقرأ" فاعلم أنه يريد أن يتَّخذك حذاءً لقدمه، -أعلم أنها كلمة غليظة لكني أصف الحقيقة-، الذي يقول لك لا تقرأ هو يريد أن يتخذك عبدًا لهواه ومطيَّة لشهوته. اقرأ، إيَّاك أن تحكم على أحد من خلال حكم آخر، إلا إذا خرج ذلك الحاكم إلى درجة كونه مقبولًا دون وجود المعارِض، يعني عندما تقول عن البخاري قال عن فلان منكر الحديث، فأنت يجوز لك أن تخالفه إذا وُجد المعارض، لكن إذا غابت عنك المادة العلمية التي تحكم على هذا المحدِّث بها تقبل منه، وإلا يمكن أن تخالفه وذلك بسلوك الطريق الذي سلكه البخاري في الحكم عليه، ما هي الطريقة التي جعلت البخاري يحكم على تابعي بأنه منكر الحديث؟ جمع أحاديث هذا العالم وقارنها مع أحاديث الثقات، فوجد له ألفاظ منكرة فحكم عليه بأنه منكر الحديث، إذًا هو سلك سبيلًا علميًا.

لكن عندما تغيب عنك المادة العلمية، وعندما يغيب عنك المخالف أنت تُسلِّم له، لا على سبيل التقليد ولكن على جهة عدم وجود المعارض له، والعلوم هكذا.

فعليك أولًا أن تفتح ذهنك، ووالله إن المرء ليستفيد أحيانًا من خصوم الحق في تقوية الحق أكثر مما يستفيد في الذين يتكلمون الحق مادحين إياه؛ لأنها بضدها تتميز الأشياء، ولا تخافوا من وصف: أنت ضعيف وأنت كذا، إذا كنت ضعيفًا تستطيع أن تسأل غيرك، وإذا كنت قد بُنيت على حقانية الدين فربما يأتي سؤال لا تفهمه فهذا السؤال يُنشئ سؤالًا وقراءة تنشئ قراءة.

لماذا صار هناك متخصصون في الرد على النصرانية؟ تجد أن أغلبهم على هذا الباب، سمعوا نصرانيًا يتكلم في الإسلام فذهب ليقرأ، بعد ذلك أصبح إمامًا معروفًا مشهورًا في الرد، وهذا الذي أنشأ الشيخ أحمد ديدات –رحمه الله-.

فالقراءة الانتقائية هي قراءة هوى؛ لأنه يقرأ من أجل أن يدعم ما عنده لا من أجل أن يعرف الحق، هذه قراءة هوى وقراءة ضعيفة، ولذلك يتجمَّع فيه الشر كله، هو لا يحب أن يسمع غيره ويضع يده عليه. وللخروج من هذا افتح النوافذ واقرأ، اقرأ كما يقول لا كما تريد، إياك أن تُسقط نفسيتك على الكلام، اقرأ الكلام كما هو، وحينئذ تستفيد وترتفع مراتبك في القراءة والفهم، وهذا كلام مختصر وإن كان يحتاج إلى شرح أطول.

- **السائل: طلبت منك كتابًا يتكلم عن علم النفس فقلت لي: القرآن، فأريد ما يترجم لي القرآن والمداخل له.**

الشيخ: في الحقيقة أنا لا أعلم في الوجود كتابًا يكشف حقيقة النفس البشرية بما هي عليه كالقرآن، القرآن هو كتاب شرح النفس البشرية من أجل تقويمها، لكن هل هناك كتاب يتحدث عن هذا الجانب؟ في الحقيقة هذا الجانب النفسي ضعيف في قضية الشرح بالنسبة للمتأخرين، لأن غالب الذين يتحدثون عن علم النفس التربوي يأخذون من القرآن لكن قواعدهم غربية وهذه المشكلة، هم لم يأتوا إلى القرآن في هذا المعنى من أجل إنشاء المسلم الصحابي، نحن نبحث عن التربية النفسية الإنسان المسلم الصحابي من أجل إنتاج هذا الإنسان المتوازن العظيم الذي يستطيع أن يغيّر، الإنسان الصبور أمام المحن، الإنسان الذي لا تُهمّه العوائق ولا تتغير أفكار الحق لديه بكثرة المخالفين، هذه نفسية ليست سهلة، وأنت تعرف أنها إنتاج.

وأنا ذكرت لكم كلام حسين مؤنس في كتابه (الحضارة)، وهذا كتاب مهم، وهو يرى أن الإنسان الغربي عنده قوة الإرادة بخلاف الإنسان الأفريقي بسبب التربية، يقول: الإنسان الغربي لا يحصّل لقمة الأكل إلا بالكد والجهد والتعب، والإنسان الأفريقي لكثرة الطعام والشراب مع طول المدة صنع عنده إرادة، والآخر لا يمكن أن يحصّل طعامه إلا بلحاق الحيوانات وقتلها وصيدها إلخ.

فالإرادة تربية يجب أن نربي أبنائنا على الإرادة، هذه مسألة يستطيع أن يتخذها الإنسان في بيته وفي مدرسته وغير ذلك. الشجاعة تربية وصناعة، نعم هناك أناس يُعطيهم الله -عز وجل- نزعة الشجاعة ابتداءً، لكن لا يعني أن الجبان لا يستطيع أن يخرج من الجبن إلى الشجاعة، رجل من أساتذتنا يقول: كنت من أجبن الناس أخاف من الظلمة، وكنت أخرج قبيل المغرب بنصف ساعة وبيتي على طرف القرية ويوجد مقبرة، ثم غابة فأمشي في النهار في وسط المقبرة إلى الغابة ولا يمكن أن أعود إلا في الليل، ولا بد أن أمر من الغابة ومن المقبرة في الليل حتى صار يمشي في الليل، وهذه تربية يُربَّى عليها الإنسان.

أنا عندما أقرأ السيرة لا يعجبني إلا قراءة النفسية، نفسية الصحابي ما هي؟ هذه التي نزل عليها القرآن فتفاعل التفاعل الإيجابي، تفاعل الحقّ بالتنزيل مع الحق في الخلق والتكوين. فنحن نُرسي القواعد ونكتشف المعالم قدر المستطاع.

بوركتم وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

[١١]
مناقشة كتاب (نذر العولمة) لعبد الحي زلوم

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا وسيدنا وقائدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإياكم منهم، آمين.

أيها الإخوة الأحبة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هذا هو الكتاب الحادي عشر من مختارات ألف كتاب قبل الممات. وهذا الكتاب لا أريد أن أفصّل كثيرًا في فوائده كمنهج في موضوع فنّ القراءة؛ ولكن أريد أن أنبّه على قضية بنيتها بالاستقراء في موضوع المعالجات العلمية للواقع والأخبار التاريخية.

ابتداءً هذه قاعدة خذوها منّي: لا تثقوا بأي كتاب ألّفه عربي، أتكلّم عن العلوم المعاصرة والتحقيقات التاريخية، فعامّة ما يُقال فيها إنّما هو من سبيل التأملات، والتأملات تكون بعد التجميعات -إن صحت العبارة-، بعد التجميع يكون التأمل، الجماعة عندنا على خلاف ذلك؛ يبدأ التأمل من لا شيء، يبدأ التخيل، ثم بعد ذلك ينشئون القصص أو يلتقطون القصص.

لذلك إذا أردت أن تقرأ كتابًا علميًا بخصوص العلوم المعاصرة والأرشيف المعاصر؛ فلا تُقبل على الكتاب العربي ابتداءً. وتجد كثيرًا من الكتب العربية المعاصرة تسرق فكرة ما أو خبرًا من جريدة أجنبية أو من كتاب أجنبي ويبدأ الكاتب بمزج الرؤى والأوهام والتأملات حول هذه القصة، فتجد أنّ الكتاب ضخمٌ جدًا ولكنّ الفكرة صغيرة! تستطيع أن تستخلصها من المقدمة وانتهى الموضوع، وهذه مشكلة، ولذلك أنت تُضيّع الكثير من وقتك. وتجد هذا حتّى في كتب الثقافة؛ فمن يسمون بالعلمانيين يضخّمون الكتب تضخيمًا مع أنها تراب لا قيمة له ليقولوا بعد ذلك: "أنا ألّفت كتابًا من ثلاثمائة ورقة من القطع المتوسّط" إلى غير ذلك مما يُقال ليفتخر بكثرة عدد أوراق الكتاب.

ولذلك في الموضوع الاقتصادي خاصة والموضوع السياسي التاريخي المعاصر لا بدّ أن ترجع إلى الأرشيف. والدول العربية ليس فيها أرشيف. " آفي شليم" كان له كتابين: الكتاب الأول: (التواطؤ عبر الأردن)، والكتاب الثاني: (الملك حسين أسد الأردن). قال أنه لما أراد أن يقرأ تاريخ الصراع في المنطقة؛ زار الدول العربية وزار دار الأرشيف هنا في الأردن، فلم أجد أرشيفًا البتة! يعني

لما جلس الوزراء؛ عن ماذا تحدثوا؟ لما تقابلت الشخصية الكبيرة المسؤولة الفلانية مع الشخصية الفلانية الكبيرة الأخرى في بلد آخر؛ عن ماذا تكلموا وماذا قالوا وماذا أثبتوا في محاضر الجلسات؟ قال -وهو مؤرخ-: "لم أجد شيئًا، فاضطررت أن أختصر"، وهو يعتذر أنه اقتصر في قراءته لتاريخ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي على ما هو موجود في أرشيف اليهود في الدولة الإسرائيلية اليهودية، فلا يوجد عندنا أرشيف، والناس مضطرون أن يذهبوا إلى كتب وأرشيف الدول التي تحترم نفسها فتثبت كل واقع وبعد ذلك تبدأ القراءة.

كتاب (نذر العولمة) هو ضمن نظرية المؤامرة-، فأنت إذا ذهبت إلى كتاب من الكتب المعاصرة ممّا يؤلّفه العرب تجد النقول والنقول، والكثير منها مكذوب، والكثير منها مُؤوّل، والكثير منها يخدم فكرة -يختار، وهو ما سمّيناه بالقراءة الانتقائية، وهذا باطل-. ولو أردت أن تقرأ تاريخ حكوماتنا المعاصرة منذ أن تشكلت الدولة القطرية بعد الحرب العالمية الثانية وقبلها؛ لا تجد لماذا هذه الدولة تخاصم هذه الدولة؟ من الذي قتل فلان؟ لماذا قام الانقلاب؟ بل تجد كلامًا عامًا.

نحن خسرنا حرب ٤٨ وإلى الآن لم يُكتب في العالم العربي أيّ كتاب ليشرح المعركة أو يقول أيّ شيء عنها، ليشرحها من خلال أرقام. شخصية مثل عبد القادر الحسيني كيف تلتقط أنت معالم حركته الّتي هي جيش الإنقاذ؟ لا تجد. وأنت تعيش في نفس المعركة وتريد أن تعرف كيفية حركة الشخوص في داخلها. الانقلابات في العالم العربي، في سوريا كانت الانقلابات أكثر من الجرائد اليومية -يعني في كل يوم-، كيف هي؟ كيف تنشأ؟ كيف تكوّنت هذه الصيغة لوصول عائلة أو طائفة؟ فمن هنا تبدأ القراءة الضعيفة والقراءة الذاتية، يعني عندما نقرأ (سقوط الجولان) لمصطفى خليل -وهو كتاب مهمّ-؛ ما يرصد فيه الرّجل إلّا المنطقة التي هو فيها، كيف سقطت الجولان من خلال المنطقة التي يعيشها وليس من خلال قراءة كلية للحدث.

نحن، عندما خسروا في ٦٧ وأُخذت سيناء كاملة والتي تعادل ثلاثة أضعاف مساحة فلسطين؛ الناس يقولون أنها خيانة، لكن ما هي أدوات الخيانة؟ الناس يقولون أنهم ضحكوا عليهم في وقت من الأوقات وقالوا أنها الأسلحة الفاسدة. هل هذا كلام صحيح أو غير صحيح؟ لا تجد.

لو ذهبت إلى المكتبة الأجنبية الغربية لا تجد مفردة واحدة غائبة عن الذهن والبيان والتفصيل والشرح، فالعلم مبذول، والمتخصص يستطيع أن يصل إلى المعلومة بسهولة. وبعد ذلك تبدأ القراءة الذاتية لهم، ولا يعني هذا أنّهم قد وصلوا إلى درجة

النزاهة التي وصل إليها المؤرخ الإسلامي، ولكن في النهاية تستطيع من خلال النقل والنقل المضاد والرأي والرأي المخالف أن تستخلص الصواب، ونحن لا يوجد عندنا هذا.

أنا قرأت عن العولمة، ومرة أعطيت محاضرة عن العولمة والجهاد -ومناقشة كتاب اليوم (نذر العولمة) لعبد الحي يحي زلوم لن يخرج عن هذا الإيقاع-، فواحد استمع إلى الشريط واستهزأ بما قلت وقال: "أستطيع أن أقدم أكثر"، فالأخ الجالس سأله كم قرأ عن العولمة؛ فقال "قرأت كتابًا أو كتابين"، قال له: "انتظر"، واتصل بي قال: "يا شيخ، أسألك سؤالًا: قبل المحاضرة؛ قرأت كم كتاب عن العولمة؟"، قلت له: "ممكن أحد عشر تقريبا"، لكن في الحقيقة لا أعرف كتابًا مهمًّا تقرؤه عن العولمة بالعربية إلّا هذا الكتاب، وبقية الكتب مترجمة.

كل الكتب التي كتبت عن العولمة باللغة العربية كلها كلام منثور؛ تدخل في الكتاب وتخرج من الكتاب فكأنك دخلت خطبة جمعة على طريقة الشيخ "الزَّناطِمِ والرّباعِمِ"، تعرفون قصتها؟ الزنا طمّ والربا عمّ"، هو يقرؤها: "الزناطِمِ والرَّباعم"!

والغرب تكلّم عن العولمة مادحًا، تكلّم عنها ذامًا، تكلّم عنها تقويمًا، تكلّم عنها تأريخًا، إلى غير ذلك. وهذا الكتاب (نذر العولمة) هو الكتاب الوحيد الذي ألّفه عربي ويستحق عندي أن يُقرأ، وقبل مدة اشتريت كتابًا عن العولمة باللغة العربية ونفس الشيء: ليس فيه أي شيء يُذكر.

فالقصد؛ اقرؤوا الكتب المحكَّمة، ما المقصود بالكتب المحَكّمة؟ الكتب التي فُرّغ أصحابها من جامعات محترمة، -وأقول جامعات محترمة من جهة علمية لا من جهة مقاصدية-، فُرّغوا ودُفعت لهم الأموال وأنتجوا هذه الكتب؛ ككتاب (الاستشراق) لإدورد سعيد، هذا دفعوا له مالًا، تفرغ سنتين في أكبر مكتبة في العالم -وهي مكتبة الكونجرس-، لا تجد كتابًا في العالم إلا وهو فيها، أيّ كتاب يصدر لا بد أن تشتريه وتضعه هناك وتؤرشفه. فهذه تُسمى الكتب المحكَّمة.

وكذلك الأبحاث الْمُحكَّمة من جهات محترمة، لأنّ هناك جهات غير محترمة. وأنا أقول أنها جهات محترمة لأنّها في النهاية تُبنى عليها سياسات؛ يعني هذا الذي يكتب هذا الكتاب سيصبح مرجعًا في جامعته، وهذه الجامعة يتخرّج منها قُوّاد هذه البلد. ومنذ وقت طويل جدًا لم يستلم رئيس وزراء في بريطانيا إلا وهو خرّيج جامعة (كامبريدج)، متخصصون وخرّيجو جامعة ولهم مساقات خاصة بهم، يُحضرون لهم كبار الخبراء والدّارسين ليعطوهم أسبوعًا فقط فيه مساق معين ويقدم فيه امتحان وينجح -لأنّه فصل كامل-، فلهم طريقة تشبه طريقة أسلافنا في تعليم الأشخاص، ليست كطريقة (البقر) عندنا، والطالب المسكين

يدخل الصف الأول الابتدائي وينهي التوجيهي وهو فارغ إلّا من كلام عام كبير وفي النهاية هو كلام صغير لا قيمة له، هذا لا يوجد عندهم، يدرس ليصبح قائدًا. وعلى قاعدة "قطرة عرق في التدريب تغني عن إزهاق روح في الميدان"؛ فهو يعلم أن كلمةً خاطئة في داخل قاعة الدرس تعني قرارًا خاطئا غدًا في داونج ستريت (Downing Street) أو داخل وزارة المالية. من هنا أقول هي محترمة، يعني هي محترمة لأن لها فعاليتها بعد ذلك في الواقع.

القصد ألا تهتم كثيرًا بكتب المعاصرين، القليل منها فيه الفائدة. والكتب المترجمة مع أنّ الكثير منها سيء؛ لكن لأنّ اللغة تكون مرّات عالية، وبعض الناس لا يتقن اللغة الأجنبية فيضطر أن يقرأ الكتب المترجمة لا بد.

وللذكر، أضعف أمة الآن بأعدادها نسبةً إلى الكتب المترجمة هي الأمّة العربية. دولة يهود (إسرائيل) العدد فيها خمسة ملايين وهي تترجم أكثر من الوطن العربي كله! يعني الجامعة العبرية في دولة إسرائيل المجرمة تترجم أكثر من الوطن العربي كله؛ كتب علمية، ووثائقية، وأبحاث مُحَكَّمة، إلى غير ذلك، إسبانيا لوحدها تترجم أكثر من ثلاثة أضعاف الدول العربية.

هذا لتعرفوا مقدار كم نقرأ وكم يقرؤون، كم يهتمون بملاحقة الإنتاج العلمي. وبالتالي عندما تأتي دولة عربية تريد أن تعلّم الطب باللغة العربية؛ الكلمة صحيحة والشعار جيد، لكن الواقع بلا أرجل. لما تُدرّس في جامعة عربية الطب باللغة العربية؛ كيف سيلاحق الإنتاج العلمي؟ اليوم تخرج الإصدارات ومن لا يعرف اللغة الإنجليزية لا يستطيع أن يكون شيئًا، مجرد ورّاق. كلمة ورّاق: فقط هو يكتب على الكمبيوتر للدور الفلاني، وانحلت المشكلة.

فهذا ينبّهنا إلى أنّنا إذا أردنا أن نقرأ التاريخ المعاصر فلنبتعد عن كُتابنا العرب فأغلبهم دجالون كذبة انتقائيون. حتى في حروبنا التي عانينا منها وانتصرنا انتصارًا مبهدلا -انتصارًا بخزي يعني-. أحد القواد قديمًا دخل معركة انتصر فيها، أفنى جيش خصمه لكن قُتل نصف جيشه، جاؤوا يهنئونه قال لهم: "انتصار آخر ويفنى الجيش كله!"، فهذا انتصار مبهدل. إلى الآن جيوشنا تحتفل بحرب ٦٧! اخجل! جيوشنا الآن تحتفل بانتصارنا العظيم في ٤٨، يعني مهزلة.

فتصور مقدار الدجل وتغييب العقل بالنسبة لتاريخنا المعاصر. والقضية طبعًا تطول في هذا الباب ولكني أريد أن أنبه بألّا تضيّع وقتك بالبحث عن الكتب المعاصرة. وهذا ليس هذا مطلقًا؛ بل يوجد نماذج جيّدة ويوجد اختراقات ممتازة لا شك، ولكن هذا الاختراق الممتاز كذلك يكون "طالب لجوء"، هذا الإنتاج يكون كالطيور المهاجرة، طالب لجوء للخارج، لا يستطيع أن يكتب في داخل البلد وإلّا يُلقي بنفسه إلى التّهلكة إذا فعل!

وحتّى التاريخ يُزوّر إرضاءً للضلال، والفساد، والكذب، والدجل.

يكفي هذا ابتداءً لأبدأ معكم في قضية مهمة جدًا. انتهينا من هذه القراءة وهي نصيحة عامة نستطيع أن نضعها في فنّ القراءة، وهي نصيحة لكم حتّى تهتموا بأوقاتكم وتبحثوا عن القراءة النافعة لكم في مسائل العلوم وفي مسائل التاريخ المعاصر.

الآن نأتي إلى نقطة تتعلق بهذا الكتاب (نذر العولمة).

أول قضية من لم يفهمها لا يستطيع أن يشتغل ولا يعمل، ونحن حين نقرأ إنّما نقرأ لنتعبد، لنتقرب إلى الله ولندرك حكمة الوجود ونرى يد الله النافذة في الكون والمحركة لكل شيء بحكمة وعدل ورحمة. وكذلك من أقسام التعبد الذي يعنينا وهو أن نتعلم لنغيّر، لنعرف سنن الوجود. نحن نعلم أن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- كانوا عقلاء، وهم إناء الخير، فلا يمكن لهذا الإناء أن يُفعّل الخير الذي هو فيه إلا بعقل سديد، فلا بدّ من العقل السديد، هذا العقل السديد ليس إنتاجًا ذاتيًا وإنّما هو معرفة، هذه المعرفة كانت متاحة لدى الصحابة بحسب أدواتها ووسائلها في عصرهم، وبالتالي نحن عندما نقرأ نريد أن نغيّر. ولا يمكن أن نغير دون أن ندرك ما هو الواقع، ما هي أدوات الصراع، لا بد أن نعرف خصومنا.

القرآن يكشف هذه القضية: {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ}، يفصلها لماذا؟ {وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجْرِمِينَ}. فلا يُعرف الشيء إلا بضدّه، وكلّما كان الضدّ مميّزًا كان ما يقابله مميّزًا -هذه انتهينا منها-. متى يظهر الشيطان ويغضب؟ عندما يكون الحق قوّيًا، ومتى يظهر الباطل بكلّ أفقه وبكل قوته؟ عندما يكون الحقّ قويًا. فلو أن الحقّ تنازل عن بعض حقّه؛ فالباطل كذلك يتنازل عن هذا الباطل الذي لديه، ومن هنا من مهمة الدعاة إلى الله ومهمة العلماء كشف الواقع، وكشف الواقع لا يكون فقط بالكتابة، ولا يكون بالكلمة، ولكن حين نفهم هذه السنّة التي تقدمت وهو أنّه كلما علا صوت الحقّ قابله ظهور الباطل، فكان ينبغي على الحقّ أن يفرض نفسه بأساليب متعددة من أجل أن يُظهر الباطلُ نفسَه ويخرج من جحره إلى الظهور والبيان والوضوح.

هذه نقطة مهمّة وأنا الآن سآتي إليها.

أقول: كشفُ الباطل لا يكون فقط بالطّريقة الّتي يظنّها البعض بأن نتكلم عنه، دورة من أجل أن نكشف الدور الأمريكي في القضية الفلسطينية، ثم ماذا بعد؟! دورة من أجل أن نبيّن اللعبة الاقتصادية التي تُدار حولنا، جزاك الله خيرًا، ثمّ ماذا بعد؟! هذا دور مهم، لكن الدور الأعظم هو تجلية الحق واظهاره، ونحن قلنا أنها القاعدة الأولى وقد أظهرتها السنة النبوية، متى ظهر الشيطان إلى عالم التّأنّس والظهور؟ عندما كانت شخصية النبي ﷺ بكل الحقّ الذي تحمله قد تألّقت وظهرت؛ فالشيطان اشتدّ

غضبه من الحق فقام بإظهار نفسه وهجم على النبي ليحرقه، فمتى يظهر الشيطان ظهورًا كاملًا؟ عندما يتجلى الحق بكل ظهوره وقوّته ويطرح نفسه مصارعًا على أرض الواقع للباطل، الباطل هنا يميط اللّثام ويكشف عن وجهه القبيح وينتهي دور الإنسان ليبدأ دور الذئب.

إذًا المطلوب هو أن تقوم أنت بفرض نفسك على أرض الواقع في معركة حقيقية واضحة من أجل أن يسارع رغم أنفه لإظهار حقيقته. ولذلك لما جاء شيخ الإسلام إلى قوله: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} كما في سورة الفرقان؛ قال بأن مِن نصر الله لأنبيائه وجود الأعداء، ما معناه؟ معناه أنّ الحق يظهر ويبين وتبين معالمه إذا وُجد الباطل، وكلّما فرضت نفسك واقعًا ومقاتلًا للباطل؛ كلّما كشف عن نفسه وتعرّى. في الأول يدعوك للمهاودة والتنازل، لكن كلّما رفعت صوت الحق لديك وفرضت نفسك على أرض الواقع ودخلت في المعركة الحقيقية معه؛ كلما جلّى عن نفسه وانكشف، يضع الشيطان العمامة ويبين عن نفسه.

هذه نقطة مهمة يجب أن نتذكّرها في صراعنا مع الجاهلية، لأن العولمة هي مادّة ووسيلة من وسائل الجاهلية ضدّ الأمم وضدّ البشرية. ونحن من الكتب التي تقدّمت –وهي مهمة جدًا– وهي كلمة أبي الحسن الندوي (ماذا خسر العالم)؛ هل خسر المسلمون فقط أم العالم خسر؟ لما الطاغوت الأوربي والأمريكي قام؛ هل خسر الإنسان الإفريقي أم لا؟ مع أنّه غير مسلم لكن خسر. فالعالم خسر بانحطاط المسلمين، المدافع الحقيقي عن العالم هو المسلم، وحين يخرج المسلم من معادلة الصراع؛ فإنّ الشيطان يرعى الغنم –على قاعدة الأستاذ رفاعي سرور (عندما ترعى الذئاب)–، العالم يصبح مجرد غنم وتأتي الذئاب فتفترسه، وهو ما ذكره عبد الحي يحي زلوم في كتابه، العالم يصبح ثمانين بالمائة مقابل عشرين بالمائة، وهذه في الحقيقة نسبة خاطئة، هي ثمانية وتسعين مقابل اثنين في المائة، والاثنان في المائة بدأت تتقلص.

يعني تصور الذي يتحكم في أكثر من تسعين في المائة من نقد العالم وأموال العالم وثروات العالم فقط اثنان في المائة، ليس من كل العالم، اثنان في المائة من الأثرياء ومن نسبة الدول الغنية الثرية، وإلا فبقية الدول ما فيها، ولكن النسبة موجودة، يعني في الأردن الاثنان في المائة موجودة، بالرغم من ذلك أقول هذه النسبة بدأت تتقلص، يعني الآن يمكن نصف في المائة والبقية مجرد غنم على قاعدة اليهود.

وبالتالي الذي يجب أن نفهمه هو: ما هي الطريقة المثلى لضرب نظام الجاهلية؟ تبدأ هذه المسألة عندما نفهم الجاهلية على حقيقتها. وهذا الكتاب لم يستطع أن يصل عبد الحي زلوم فيه إلى هذه الأفق من هذه المسألة، وهو ظنّ أن مسألة الصراع بين النّظم هي في طرحها على الواقع؛ فمن ينجح هو الذي يبقى، وهذا غير صحيح. هل هناك صراع عادل وحلبة عادلة بين ما هو صحيح وبين ما هو خطأ في العالم؟ إذًا لماذا ينتصر الباطل كثيرًا في تاريخ البشرية؟ إذًا الصراع لا يقوم في قضية مناظرة الصراع بين الحق والباطل وبين ما هو حسن وبين ما هو سيّء، ليست معادلة كلامية، ولا صراعًا على من يستطيع أن يثبت نفسه، لا، بل هي صراع بين ذئب يشتهي الدماء، وبين ضعيف! حمل لا يقوى على الدّفع عن نفسه ولا يستطيع دفع الشّر عنها.

وبالتالي علينا أن نعرف الواقع حتى نفككه. وبهذا نكتشف خطأ كثير من الذين يريدون أن يبنوا دولة الإسلام في واقع جاهلي ترتبط هذه الدولة الإسلامية بشرايين حياتها مع الجاهلية. هذا لا وجود له.

تبدأ القصة كالتالي:

أولًا بمعرفة تراكمية، والعالم يتقن هذا، يعني أنه في أساليب الشر تتراكم المعرفة، الأخلاق لا تتراكم، لأنّ التراكم المعرفي الأخلاقي لا يوجد، ويوجد تراكم معرفي تقني، كل زمن تتقدم فيه الصناعات، لكن الأخلاق لا تتقدم. قيم الأخلاق لها معيار واحد مثل المتر لا يزيد ولا ينقص؛ فالصدق هو الصدق والكذب هو الكذب والأمانة هي الأمانة إلى آخره. فالعالم لا يتقدم في معاييره الأخلاقية ولكن هناك تراكم معرفي تقني، ومن التقنية أن تكتشف كل يوم طريقة جيدة في هزيمة عدوك، كما أنك تكتشف الأسلحة المادية، تكتشف طرق إذلال عدوك وهزيمته.

ونحن تكلمنا في كتاب (سيكولوجية الجماهير) عن كتاب (الأمير)؛ فهي جزء من التراكم المعرفي في إذلال الشعوب وإخضاعها، فهذه الجاهلية قرّرت بأنّ حكمها يجب أن يكون هو العالم.

وذلك الصراع الذي دار في أوربا ليس فقط صراعًا على أوربا؛ هو صراع على العالم. حركة الاستكشاف هي لأنّ الجيب الأوربي لم يعد يكفيه الخيرات التي تأتي من العالم القديم، استنزف طاقات وقدرات وثروات العالم القديم فبحث عن عالم جديد ليستنزف ثرواته، ومن هنا كان لا بد أن نقرأ كتاب (المسيحية والسيف) لنرى كيف اكتشف العالم أرضًا جديدة لأنّ الجيب والنّهم الإنساني لا ينتهي: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثا)، وهكذا النهم البشري نَهم ذئبي لا يشبع من الدماء، هذه قضية بشرية، وهذا الأمر من طبيعة الشر ومن طبيعة الإنسان ومن طبيعة حركة التاريخ.

وبالتالي العالم اكتشف أنّه لا بد أن يُصيغ نظمًا متكاملة من أجل أن يبسط سلطانه على العالم، لا نستطيع أن نقول أبديًا وإن كانوا قد ظنّوها في وقت من الأوقات. كيف ظنّوا أن الصراع قد حُسم إلى أبد الآباد؟ ذلك تجده في كتاب (نهاية التاريخ) لفوكوياما؛ ظنّ أنّ المعركة انتهت وأنّ أمريكا هي وارثة حضارات البشرية جميعًا ولا توجد فيها عوامل الاندثار التي وُجدت في الحضارات السابقة فانتهى الصراع وأُغلق كتاب التاريخ وهذه نهاية التاريخ، أُغلق كتاب التاريخ وانتهى الصراع وبقيت فقط مناوشات من المسلمين والبعض من العرق الأصفر وجماعة عندهم نظرية البناء الحضاري والنزوع نحو الآخر والغزو، ولكنّها تحت السيطرة! ظنّوا هذا، ولكنّهم في الأساس أقاموا نظمهم لعدم فتح باب من أبواب النفاذ لخصوم الجاهلية ليخترقوها.

ومن هنا فكل ما يُقال لكم عن أنّ الديمقراطية تستطيع بها التغيير هذه "حمرنة" -كلمة "حمرنة" الكل صار يستخدمها-. الجاهلية لا تعطيك السلاح لتذبحها، الديمقراطية وُضعت من أجل صراع أهل البيت الواحد، وليس من أجل صراع خارج البيت مع أهل البيت فيعطيك بيته! الديمقراطية من أجل ترتيب صراع أهل البيت الواحد؛ صراع (Conservative) الكونسارفاتيف مع العمال، يعني المحافظين مع العمال، الديمقراطيين مع الجمهوريين، أهل بيت واحد. لكن يأتي شيوعي يحكم أمريكا بالديمقراطية؟ ويأتي مسلم من خلال النظام الديمقراطي ليزيل نظام الجاهلية؟! يعني أنا أعجب لمن يفكر هذا التفكير.

ولأنّ الجاهلية ذكيّة لن تعطيك إلا ما يحقق من دمك أسباب قوتها ومناعتها ودوامها، والأمثلة كثيرة لكن كما قالت الضُبّع: "إنّ في فمي ماءً وهل يتكلّم من في فيه ماءٌ؟"، فالبقية عندكم، أنه لم تُفتح الديمقراطية في بلد عربي، الديمقراطية هناك، مأسورة للشعب في أمريكا وبريطانيا وفرنسا، هي مأسورة بمجتمعاتها لا يستطيع المسلم أن يصنع شيئًا، لكن فُتحت الديمقراطية في بلاد المسلمين من أجل أن تحقق مقاصد الجاهلية. وإذا قيل: هل دخول المسلمين في اللعبة الديمقراطية يقوّي الجاهلية؟ فالجواب أن هذا من أسس الجاهلية، الناس يجهلون أنّ الديمقراطية من أسسها وجود الأغلبية والأكثرية، لا وجود لنظام أو شيء اسمه ديمقراطي إلا بوجود هذا التقسيم: أكثرية وأقلية، لا تُسمّى ديمقراطية دونه؛ فوجودك أنت المسلم المعارض في نظام جاهلي قائم، وجود مسلم مصارع يحقق معنى الديمقراطية التي صارت إلهًا يُعبد ومجرد ذمّه يُعتبر قدحًا.

ويكفي هذا.

فلذلك نقول إن الجاهلية -وهذا الكتاب يثبت ذلك- بسطت سلطانها في كل جوانب الحياة على أسس عالمية -انتبه هذا مهمّ جدًّا-. التفكير الذرّي الذي يعيشه الفقيه لا يصلح لمعالجة مشكلة عالمية، عندما تذهب لشيخ مشغول بمشكلة الفرد

المسلم في أداء زكاته؛ هذا لا يصلح لحلّ المشكلة الإسلامية، هذا يُسمى تفكير ذرّي. ولذلك إذا سألت الشيخ عن نظام بلد أنه يطبّق الإسلام؛ لا يوجد شيخ مسلم على ظهر الأرض يستطيع أن يحاكم بلده بالنسبة للعلاقات والنظم الخارجية. يعني فقط أنا أسألكم: أعطوني كتابًا واحدًا أو فتوى سمعتموها في حكم الانضمام إلى الأمم المتحدة؟ هل سمعتم شيخًا يتكلم عن هذا الأمر؟ لا يوجد. العقل الذرّي الذي يعيشه الفقيه لم يستوعب الإسلام في حركة الوجود المعاصرة، إنّما كل الكلام عن الإنسان الفردي، فإذا زاد قليلًا تكلم عن الأسرة، إذا زاد قليلًا تكلم عن المجتمع في داخله ضمن الإطار الذاتي البسيط الذي يعيشه، والغرب والجاهلية هذه قضيةٌ تبعيةٌ وليست أصلية.

يعني الحديث أن تكون أنت مسلمًا صالحًا؛ هذا من ضمن صلاحية ومن ضمن الأفعال الجاهلية التي تسمح ببقاء الجاهلي، أن تكون أنت موظفًا صادقًا، موظفًا نظيفًا، تذهب إلى دوامك في وقت الدوام وترجع وتصلي ويدك أمينة من أجل تقوية الهيكل الجاهلي، ولذلك هو جيد، نعم هو عمل إسلامي؛ لكن هو في النهاية خادمٌ للجاهلية. ولذلك هذا الجانب الفردي الذي يطالب به المشايخ هو في الحقيقة "برديش" يمد الجلوكوز والكلوكوز للجاهلية.

فالنقطة التي يجب أن نفهمها في هذا الكتاب هي أن **الجاهلية كيان دوليّ عالميّ**، ما الّذي صنعه؟ صنع من المؤسسات ما يحقق السيّطرة على العالم ليضبط حركة الوجود ضمن حركة الجاهلية. أريد أن أستعير كلمة لواحد مكث خمسة وثلاثين سنة، وهذا الكتاب تضعونه، وهو الكتاب القادم اسمه (الحرب العالمية الرابعة) لدي مارينشز الفرنسي، هذا الرجل خمسة وثلاثون سنة وهو رئيس المخابرات الفرنسية من زمن ديجول حتى استقال في زمن صديقه ميتران الرئيس الفرنسي.

يقول هذا الخبير –وكتاب (الحرب العالمية الرّابعة) ضروري وواجبةٌ قراءته: جاء خورتشوف على رأس النّظام الشيوعي –وهو ثالث زعيم لهذا النّظام بعد لينين وستالين–، ثمّ أزالوه –وسنتكلم عن سبب إزالته وهي قصّة رائعة–، المهمّ أنّه في يوم من الأيام ذهب لزيارة أمريكا وكانت زيارته لها لضرب النظام الشيوعي في الأرض، وهو كان نكتيًّا وإنسانًا فلاحًا بسيطا ونظيفا، وآمن بالشيوعية إيمانًا حقيقيًّا وليس مثل غيره، لأنّه فلاح! فلمّا رأى الأمم المتحدة؛ خطب فتناول حذاءه، وحاول القذافي أن يقلده، أراد أن يمسك الأمم المتحدة ويرميها. لكن كيف المقارنة بين رئيس الاتحاد السوفيتي –الذي هو قطب العالم الثاني في ذلك الوقت–، وبين واحد صايع، يعني أكبر ألقابه "ملك ملوك إفريقيا"، "ملك ملوك القبائل المنتهية في إفريقيا"، انتهت صلاحيتها.

فهذا خورتشوف خلع حذاءَه وضرب الطاولة في الأمم المتحدة وهو يخطب، قال لهم: "كل كلامكم فارغ وأنتم آتون لتضييع الوقت وتتكلمون بكلام ليس له قيمة وهذا لا يساوي ضربة حذائي هنا"، وترك الجلسة ورجع إلى روسيا. هذه إهانة للنظام العالمي.

ماذا يقول دي مارنشيز في كتاب (الحرب العالمية الرابعة)؟ قال: "حتى وهو يفعل ذلك هو يتعامل مع العالم ضمن خطوطه، ولم يخرج عن خطوط الصراع". يعني العالم يصارع ضمن موازين وضمن خطوط"، فلو افترضنا أنّ العالم يقاتل من خلال خطوط الطول؛ فخورتشوف لم يكن يقاتل ضمن خطوط العرض، هو لا زال يقاتل ضمن الخطوط العالمية، ضمن نظام الجاهلية، يعني لم ينسحب من الأمم المتحدة، لم ينسحب من بنك النقد الدولي، إلى آخره. قال: "حتّى وهو يضرب الحذاء على طاولة الأمم المتحدة لم يخرج عن النظام الدولي، ما نخاف منه هو ظهور رجل في العالم العربي الإسلامي يخرج ويقاتلنا ضمن خطوط مختلفة عن خطوطنا".

هذا الرجل، الذي أصلًا لما استقال لم يكن للإسلام وجود في فاعلية مثل اليوم، ومع ذلك كان يرى بأنّ الخوف الأعظم أن الأمّة الوحيدة القادرة على أن تنجب رجلًا يخالف الخطوط التي يمشي بها العالم هي الأمّة المسلمة، ورأى أنّ الإسلام قادم ولكن ينقصه رجل قائد يقود ليقاتل العالم ضمن خطوط مختلفة عن خطوط القتال المتعارف عليها ضمن النظام العالمي والنظام الدولي.

ما يهمّنا في الأمر أن نعرف بأنّ العالم مرسوم، هذا ليس من نظرية المؤامرة، هذا شيء متفق عليه.

الآن نصل إلى نقطة **ما هو التمثيل؟**

الأستاذ عبد الحي لا يتكلم عن الجانب السياسي، ويقول بأنّ الجانب الاقتصادي يخدم السياسي. أين النظام السياسي الذي فُرض على العالم؟ هو الأمم المتحدة، والخمس دول أو الأربعة دول غير أمريكا رفضت أن تدخل في الأمم المتحدة حتى يُكوّن مجلس الأمن وتوضع في عضويتها الدائمة حقّ الفيتو. فالعالم مرسوم في نظامه السياسي، والآن أيّ دولة تريد أن تخرج عن النظام يجتمع مجلس الأمن فورًا ويضعونها تحت المادة السابعة وكذا ويفرضون عليها وانتهى؛ فالعالم لا يخرج على النظام السياسي الذي بُني خلال هيكلية الجاهلية الكليّة.

فإذًا ضُبط العالم سياسيًا من خلال الأمم المتحدة وأنظمتها ولا يستطيع أحد أن يخرج منها إذا أراد أن يخرج منفردًا. لو أراد أيّ نظام أن يخرج منفردًا لا يستطيع، هم يسمحون له ولكن لا يستطيع أن يعيش، الكلاب تبدأ بالنبح عليه ثم بعد ذلك

يُلجؤونه كما تفعل الأنظمة: يذهب الوزير أو رئيس المخابرات –موكب واحد– ويلتجئون إلى الرئيس الأكبر. الطريقة: يضربونه، لأنّ الرجل لا أحد يحتاجه فلا بد للناس أن يحتاجونه، يشغل كلابه في الخارج فيعضّون ويهربون، وأين يهربون؟ يهربون إلى بيت الزعيم، هذه هي الطريقة. يعني سهل جدًا في النظم، هناك أساليب كثيرة لإلجائك رغم أنفك إلى الحظيرة، فهو نظام مرسوم.

ما الذي أعطى أمريكا حق الفيتو، ما الذي أعطى الصين حق الفيتو؟ النظام والجاهلية الوقحة. بعض الناس يظنّ أن الجاهلية أدبية محترمة، يعني يخرج الناطق الرسمي لوزارة الخارجية لدولة محترمة تدعو للسلام والعدل والمساواة فيتكلم كلامًا أدبيًا، وهذا لا يعنيه، هو يخرج ليتكلم على قاعدة ستالين؛ قيل لستالين: "البابا زعلان منك" –وهذه حقيقة–، قال لهم: "البابا كم دبابة عنده؟"، يعني يخوّف أو لا يخوّف؟

فالعالم ليس له منطق الأدب والعدل والأخلاق، هذا لا وجود له، هذا فقط من أجل الكلام، وإلا فالعالم كلّه يعرف، وهم يعرفون، وشعوبهم تعرف، وأصغر "زبّال" في العالم يعرف بأنّ الأخلاق لا وجود لها في هذا العالم المتوّحش، فقط مساكين جماعتنا ومشايخنا، وأنا لم أجد في الوجود أغبى منهم، كذلك الحركات الإسلامية التي تقول وتناشد مؤسسات المجتمع المدني والعالم المتمدن! لا إله إلا الله، هل له عقل هذا الرجل أم لا؟!

فضُبط العالم سياسيًا من خلال الأمم المتحدة، وضُبط العالم اقتصاديًا من خلال بنك النقد الدولي، والكتاب كله يدور على هذا.

النقد الدولي شعاره في الابتداء هو ضبط أسعار المال وإعطاء النصائح للحكومات كيف تخرج من الأزمات الاقتصادية، إعطاء المال للدول الفقيرة، وكلّها شعارات جميلة. والواقع أنّه لا يوجد مرة واحدة أنقذ فيها بنك النقد الدولي دولة، هو مجرّد سلاح فتّاك في يد الطاغوت الأكبر، دائمًا هم يضعون موزعيهم.

بنك النقد الدولي أعطوه لرئاسة أوربية، والبنك الدولي معطى لأمريكا، هذا هو التقسيم. وبنك النّقد الدولي –وهو الأخطر والأشرس– هو الّذي له السيطرة على النظام المالي في العالم.

وهنا السؤال: كيف نشأ النظام المالي؟ وكيف هو مضبوط؟ لأن هذا يحلّ لنا مشكلة غباء جماعتنا الذين أخرجوا لنا دنانير ذهبية قبل مدة!

القصة بسيطة في ظهور ما يُسمى بنظام النقد الجديد الذي بدأت تسميته ب"البنكنوت" حتّى نفهم الأسس ونعرف كيف نحمل، وهذا الذي يهمنّي في الكتاب، الكتاب كلّه مليء بالأخبار والقصص ليمثلّ لك بأنّ ما تراه صراعًا على المبادئ والحقوق هو صراعٌ بين الذئب والحمل. وقصة الذئب والحمل تعرفونها، والدي حكاها لي من ثلاثين أو خمسة وثلاثين سنة، قال: "يا بنيّ، الذئب أتى للخروف الصغير الطليق قال له أريد أن آكلك، قال له: لماذا؟ قال: لأنك تعكر عليّ الماء، قال: أنا أشرب من ورائك ولا أشرب من أمامك، قال له: لكن يمكن أبوك هو الّذي يعكّر عليّ الماء، قال له: أبي مات من زمان، قال له: لا يهمّ مات أبوك، تشرب من ورائي، قرّرت أكلك".

فهو نظام متوحش، لكن كيف نفهم هذا النظام؟ هناك كتاب (الربا) للأستاذ أبي الأعلى المودودي كشف فيه هذا، والكتب كثيرة، لكن هذا كتاب عربي موجود يشرح الطريقة بطريقة سهلة ووسيلة جميلة. أنتم تعرفون أنّ الربويين في العالم هم اليهود، وتعرفون قصة تاجر البندقية لشكسبير، شخصية "شارلوك" مشهورة وهذه الشخصية هي شخصية تبيّن أنّ الأوربي يعرف أن الربوي شرّيب الدم، الذئب المتوحش هو اليهودي، وهذه قضيّة معروفة، -سنناقش نحن هذا إن شاء الله ببعض الكتب التي تشرح النفسية اليهودية-.

هذا الربوي اليهودي يقترض النّاس منه الذهب فيعطيهم ذهبًا، يأتي واحد يقول له أريد مائة دينار من الذهب فيعطيه المائة دينار -وللذكر فإنّ كلمتي دينار ودرهم من أصول غير عربية، هي مترجمة من لغات يونانية قديمة ولكنها عُربت-، فيأتي إليه يقول أريد خمسين دينار يقول له الخمسين ترجع لي مائة. اليهودي تفتّق ذهنه، قال لماذا أعطيه ذهبًا ويرجع لي ذهبًا أنا سأعطيه ورقة تثبت أن له عندي مائة دينار ذهب أو خمسين دينار ذهب، فماذا تريد بالخمسين دينار؟ قال أريد أن أشتري هذ البيت، قال له سهل اذهب إليه بهذه الورقة ككمبيالة مثلًا أو وثيقة ديْن أنّ لك عندي خمسين دينار. وأنا أعرف أنّ هذا الرجل يقبل ورقتي لأنّه يعرف أنّه إذا جاء بهذه الورقة يطلب مني خمسين دينار سأعطيه إيّاها.

ولوجود الثقة والمعاملة الطويلة اكتسب هؤلاء الربويون العتاة المجرمون ثقة شعوبهم من خلال التعامل المالي، فيعطونهم الورقة فيأخذونها، يقول: أنا أتيت لأشتري هذا البيت ولكن معي هذه الورقة تثبت أنّ لي خمسين دينار عند الربوي، وهو أعطاني بدل الذهب هذه الورقة، فيقول له: نعم صحيح. فبدأ يوزّع أوراقًا. ماذا استفاد؟

كان الأول عندما يعطي الذهب -وهذه الذي اجتنبها الإسلام أعظمَ اجتناب-، هذه الورقة (البنكنوت) — تركيب انكليزي مكوّن من كلمتين: بنك ونوت- أعطت قوّة للربوي بأن استخدم أموالًا أكثر من الحقيقة. لأنّنا لو افترضنا أنّ للربوي مائة ألف دينار ذهبي وجاء عليه عشرة كل واحد يطلب ألف إن كان يعطيهم الألف سينتهي ما عنده، وإذا أتى له واحد آخر قال له أعطيني ألف يقول ما عندي.

انتبه هذا مهم جدًا، لا أنّه سيبيّن لك فساد اليهودي ولكن سيبيّن لك بعد ذلك فساد الحياة الاقتصادية المعاصرة. هو يستطيع الآن أن يعطيه ورقات أكثر، عنده مائة ألف دينار يستطيع أن ينفق مليونًا! والناس لا يعرفون عدم وجودها إلّا عند وقوع الإفلاس أو الدعاية الكاذبة أو يقع قدر ما فيذهبون كلّهم مرة واحدة فيكتشفون أنّه ما عنده. نزول الأموال الكثيرة تحيلنا إلى المساوئ التي نعيشها في هذه العصر.

بعد ذلك هؤلاء الربويون انتشرت أوراقهم، وكالعادة الدولة طاغوت في كل أدوار البشرية وأطوارها، الدولة دائمًا تريد أن تلتهم وتبتلع مثل النار، في كل زمان، حتّى إنّها تبتلع العلماء وتدخلهم في الحظيرة. حالة الدولة شيء وجودي ضروري لكن من طبيعتها أن تغتال المجتمع مع أنّ المجتمع هو الذي ينشئها. وهذه سنشرحها إن شاء الله في الصراع التاريخي في تاريخ إسلامنا بين الدولة والعلماء؛ العلماء هم الذين يعطون شرعية الدولة، لكن الدولة بعد ذلك تحاول أن تبلعهم. من هنا؛ الصراع منذ عصر التابعين بعد أن انتهت الخلافة الراشدة إلى يومنا هذا هو صراع بين الدولة والعالِم، من الذي انتصر؟ الدولة طبعًا، والعلماء كلهم صاروا في الحظيرة. طبعًا إذا قلت كلمة الحظيرة فورًا تتذكرون كلمة أحمد مطر "الثور فرّ من الحظيرة".

فالدولة لما رأت هذا تدخّلت وأرادت أن تنفخ النفخة المباركة! فجاءت لأنّها رأت هذا فتغوّلت وأعجبها هذا النظام فأخرجت ورقًا ونفخت عليه فصار له قوة النقد، وهي في الابتداء أعطته ما أعطى الربوي من قوة. كيف اكتسبت ورقات الربوي القوة؟ من خلال الذهب بين يديه، والدولة كذلك لأنّها تعطي الأجور للناس فتقول لهم: خذوا وإذا تريدون الذهب نعطيكم، وبقيت أمريكا للسبعين حتى جاء نيكسون وهي تقول: أي واحد يريد الدولار مقابل دولار ذهب نعطيه، ثم قالوا: لهم انتهى. هذا أول المكر، في السبعين نيكسون قال: أنهينا ارتباط الدولار بالذهب، لا أحد يطالب بالذهب، لماذا؟ نتكلم عنهم إذا معنا وقت، كيف تكتسب العملة القطرية قوتها.

فإذًا الدولة دخلت في هذا النظام وصارت تعطي أوراقًا مثلهم، وسحبت أوراق الربويين وأعطت مقابلها الذهب للربويين وأخذتهم وأصدرت بدلًا عنها ورقًا جديدًا وبهذا انتشر الورق النقدي. هذه الدولة ليس لها ضابط.

طبعًا الذهب قديمًا الذي تتعامل به الشعوب حتى الطاغوت دخل فيه وأزال بسبب فسادِه معياريَّتَهُ. صارت كل دولة لها دار ضرب، تُسمى في العربي دار الضرب –أي التي تطبع الذهب والفضة–، فيأتي الحاكم حتى يكتسب قوة أكثر يخرج ذهبًا مغشوشًا، الدينار الخاص به يكون مغشوشًا، يضع فيه أربعين في المائة أو خمسين في المائة من النحاس فيأمر ويجبر كل تاجر وكل إنسان دخل بلاده أن يستبدل الذهب الذي جاء به من الخارج نقيًّا بالذهب الذي يعطيه إيّاه، فيخرج وقد أعطاه نصف الذهب فقط! يعني حتى الذهب تلاعبوا به. الإنسان شرير وصراع الحق مع الباطل لا ينتهي، وهذا للأسف موجود في العالم.

وللأسف في تاريخ أمتنا أيضا موجود، وأكثر من فعلها مماليك مصر، كانوا من أفسد الناس في هذا الباب، ويجبرون الناس، ممنوع البيع والشراء في داخل القطر إلا بالذهب الذي يخرجونه، فيضطر الرجل ليبدل الذهب الذي معه بالذهب الخاص بهم حتى تتمّ اللعبة وتبقى وتستمر.

هذا البنكنوت –أي الورق النقدي– في العالم قلنا أنه كان من فساده أن انتشر النقد أكثر من الذهب والفضة. وهذه نقطة أرجو أن تنتبهوا لها، من أين اكتسب الذهب والفضة معياريتهما؟ من فطرة الخلق الإلهي. البشرية كلها مجمعة على الذهب والفضة، فدلّ على أن الذهب والفضة فيهما معيارية النقد في الوجود بوضع الخلق الإلهي.

الله خلق الوجود متناسبًا، والإنسان يدمّره. كيف؟ الفيلة في العالم ضرورة، فيذهب ويقتلها. وقد نهى رسول الله عن قتل الأمم، فقد كان أمر بقتل الكلاب ثم نهى عنه، وعلّل المنع بأنها أمّة من الأمم. يعني أن الوضع القدري في الوجود متوازن، يأمرك بقتل الأفعى لكن لا تستطيع أن تقتلها كلّها؛ فإنك لو أفنيت أمّة من الأمم لاختلّ التوازن في الوجود، إفناء أمّة من الأمم يصنع الاضطراب في الوجود، والاضطراب ممنوع، يجب أن يكون الكون متوازنًا. ولَمَّا تذهب تقضي على الفيلة في العالم يصير اختلال في الوجود، مثل الذي أتى ب"الزقير" ووضعه في داخل المطار حتى يطرد الحمام. وفي بلاد قضوا على الحشرات الزواحف فنتجت مصيبة أخرى بدلًا منها؛ فالعالم متوازن والقضاء على أمة من الأمم يصنع الاضطراب.

فالله –عزَّ وجلَّ– لما وضع فطرة الذهب والفضة معيارًا نقديًا في العالم؛ أوجد التوازن، والعالم لا يصير فيه اضطرابات. من أجل ذلك –وهذا يتكلم عنه يحي زلوم– منع الشارع اتّخاذ الذهب والفضة تجارةً وبضاعة؛ لأنّ المعيار سيكون متقلبًا يطلع

وينزل. الباذنجان يطلع وينزل على قاعدة آدم سميث: دعه يعمل دعه يمر. نهى رسول الله عن تلقّي السلع، نهى عن بيع بادٍ لحاضر، قاعدة الإسلام: دع الناس ينفع بعضهم بعضًا، ارم في السوق واترك العالم متوازن.

ولكن لا يجوز أبدًا أن يُتاجر في الذهب والفضة، من أجل هذا لما تباع؛ يجب أن تباع يدًا بيد، لكن ما دام يدًا بيد ومتماثل؛ فلماذا أبيع؟ خمسين كيلو ذهب بخمسين كيلو ذهب، لماذا أبيع؟ لأنّه لو دخل هذا المعيار ميزان البيع والشراء لاختلّ الوجود. مثل ما ذكرنا: لو ذهبت أمّة من الأمم يختل الوجود. ولو صار الذهب والفضة –وهو معيار السلع في الوجود ومعيار النقدية– لو دخل فيه الفساد لفسد الوجود.

هذا ماذا نستفيد منه؟

النقد الآن بسبب العولمة فتحوا لكم ما يُسمى بسوق الأوراق النقدية، وحتى تصبح أنت دولة رأسمالية ويأتي عليك المتنافسون والاقتصاديون؛ لا بد أن يكون مالك عرضة للنقد الذي تتعامل به، الدينار والريال والدولار يجب أن يكون بضاعةً داخل سوق النقد الذي يُباع في بلدك، ويدخل عليه الآخرون يشترونه ويبيعونه حتى يحافظوا على توازنه. في الحقيقة حتّى يُدمّروا الاقتصاد متى شاؤوا!

كيف يُدمرون الاقتصاد متى شاؤوا؟ تصوّر بلدًا مثل السودان، لو أراد رجلٌ أن يستثمر في السودان، والسودان من أعظم بلاد العالم إنتاجًا للمواد الغذائية –وهذه سنأتي إليها وهي دائرة الاستهلاك والإنتاج–، لو جاء رجل بخمسة ملايين دولار، ولا بدّ إذا دخل السودان من أجل أن يستأجر ويستثمر في أراضيها أن يحوّل أمواله للدينار السوداني، فلمّا يزرع مساحات شاسعة من الأراضي ذُرَةً يربح، يعني نفترض أنّ الخمس ملايين دينار تحولت إلى نصف مليار دينار سوداني، لما ربح وكان له مائة بالمائة، إذا باعها يكون له مليار دينار سوداني. ربح أم لم يربح؟ في سنة واحدة مائة بالمائة. لكن في النتيجة سيخرج خسرانًا. لماذا؟

لأنه خلال هذا العام الموسم الذي زُرعت فيه الذُرَة يكون الدينار السوداني مضروب في العالم بحيث لما يريد أن يرجعها للدولار كما دخل خمسة مليون تأتي له بثلاثة مليون!

هو ربح ولكن لأنّ الدينار عرضة للصعود والهبوط؛ فهو أحضر مليار دينار سوداني لكن خلال المضاربة المليار دولار أصبحت قيمته أقلّ ممّا كان يستطيع أن يحضره قبل الموسم (خمسمائة مليون). يعني هو خرج خسرانًا لأنه سيعطي حقّ المال،

لأنّه استثمر وعاش ودفع للناس وشغل الأرض ودفع لهم الأموال؛ يريد أن يخرج بأرباح ويحولها للدولار ويرحل، ولكن إذا خرج لا يخرج بخمسة مليون دولار التي أحضرها ولكن يخرج بثلاثة مليون، هو ربح ولكن خسر، ربح بالسوداني وخسر بالدولار.

إذًا هذا العالم كيف فسد؟ هم وضعوا هذا النظام ليسيطروا على حركة النقد في العالم، بنك النقد الدولي يضبط سعر الصرف.

إحدى الشركات "ستاندرد" أو غيرها منشركات تقويم الديون، قبل السنة الّتي مضت أو السنتين نظام المال الأمريكي اهتزّ، فعادة يعطون قوّة سندات الخزينة الأمريكية AA، فبسبب الظروف الاقتصادية الشركة هذه أعطت أمريكا -AA خفضتها درجة، فأمريكا أقامت دعوة قضائية على الشركة. يعني هذه لا تُطبق علينا، على قاعدة العجائز في بلادنا نحن الذين صنعنا النظام تريد تطبقه علينا!

فهمتم القاعدة؟ الذي وضع النظام لا يجوز أن تطبقه عليه، هو وضعه من أجل أن يستثمر العالم، يستغفل، يستحمر العالم.

الآن أنتم أدركتم قليلًا كيف أنّ العالم من خلال ورق البنكنوت هذا دمّر العالم وجعله كلّه مكانًا لتجارة الأقوياء، يعني البلد يُباع ويُشترى.

هناك شيخ لا نريد أن نذكر اسمه حضرت له خطبة يتكلم عن الاقتصاد، فوجد المشكلة تُحلّ، إذا تريدون أن تضربوا الجشعين لا تشتروا البندورة! المشكلة في عالمنا هنا هي هؤلاء الشّيوخ على قاعدة القدماء: اللحم غلى، كيف تنزل سعره؟ لا تشتريه، دعه مرمي ثم سينزل من سعره رغمًا عنه.

كنت أمشي مع رجل شيبة كبير هنا محترم والله رأيت أنه رجل فقيه ومثقف، أمطرت السماء ونحن نمشي فقلت: "الحمد لله أنّها تمطر"، فقال: "اسمع لا تجنني، لنا خمسين سنة في هذه البلد تمطر أو لم تمطر ندفع السعر"، ينزل مطر أو لا ينزل المطر يقطعون الماء علينا، والله احترمت كلامه، لأنّ معنى كلامه أنّه في الحقيقة هذا لا قيمة له، لست أنت من يضبط حركة العالم، يعني الآن والحمد لله نزل المطر، دمّر رجلًا طيبًا في المسجد هنا -أنا أضرب العالم بالحالة التي يعيشها الفرد-. أُسلّم عليه -رجل طيّب- أقول له: "أين أنت؟" قال: "أنا الحمد لله لي أرض زرعتها بازلاء". فقلت له: "أين البازلاء؟"، قال: "والله خسرنا، أنا عندي الأرض وفي نهاية الموسم خسرنا مائة دينار". نزول المطر كان مصيبة عليه! قال أنّ جاره من عشيرة فلان والله ما قطفها.

المطر في داخل البلد مصيبة؛ لأنّ المسألة لا تتعلق بإصلاح داخلي. يعني يمكن في لحظة -وهذا صار عندنا في بلدنا هنا- من اللحظات الدينار ينزل إلى النصف! لماذا؟

في كتاب أظنّ اسمه (أزمة آسيا) حوار بين مهاتير محمّد وصحفي ياباني، فضحكوا عليهم. مساكين يظنون أنّ العالم بريء. فبدأت النمور الآسيوية، كل شيء موجود، الصناعة موجودة، والشركات موجودة، ولكن لأنّ الدينار صار تجارة؛ في لحظة من اللحظات انتهت البلد وسقطت اقتصاديًا. يا جماعة، المصنع موجود؛ كيف سقطت اقتصاديًا؟! المصنع موجود، والناس يعملون، والتجارة شغالة، ما الذي حدث؟

بسيطة: أضرب مثلا "سورس" هذا ديمقراطي وهو شيخ المضاربين، ليس أكثر واحد في العالم ولكن هو شيخ المضاربين، وهو يهودي، هذا دخل على بريطانيا خسّرها مليارين وخرج، عن طريق "الديجيتال"، يعني أدخل رقمًا ماليًا (ديجيتال) في بريطانيا وسحب معه مليارين! ثم بعد ذلك ذهب إلى فرنسا ولم يكمل القصة، في الحقيقة اتصل رئيس وزراء بريطانيا بالرئيس الأمريكي وترجّاه أن يرحل "سورس" هذا لأنّه سيدمّرهم. لماذا؟ تصور لعبة الكبار، لما يكون أنت معك أموال؛ الدول تنهار. رأس مال الدول خمسة مليار، خمسة مليار بالنسبة لشركة عابرة للقارات لا قيمة لها يعني عادية جدًا. فلمّا يصير الصراع بين دولة رأس مالها السنوي خمسة مليار يعني شحاذة متسوّلة، خمسة مليار متوقعة من التسوّل، يعني لا يوجد خمسة مليار، يوجد مليار أو ملياران في الخزينة والباقي ينتظرون من يعطيهم إياهم! فيدخل واحد أو شركة عابرة للقارات تعمل هذا النظام المالي الذي ذكرنا لكم وتسحب هذا المبلغ فيصبح لا شيء.

فلذلك كل شيء موجود، الأرض موجودة، وما شاء الله على قاعدة الدنيا تمطر، خير ما شاء الله، والناس في خير حال والدنيا ماشية، وبعد ذلك تكتشف أنّك خسرت كل شيء: الوظيفة، وخسرت الشركة، وانتهى كل شيء، وذهبت لبيتك! لماذا؟ **لهذا الفساد**.

النقطة الثانية التي أريد أن أقولها بعد ذلك هي أنّ المؤلف يضع قضية مهمة جدًا وهي صراع –ولَيْتَهُ فسّرها بغير النفط، لأنه هو أصلًا متخصص لشركات النفط– بين دول الإنتاج ودول المعلومالية. هكذا سماها: معلومات+ مال= معلومالية.

سؤال: قوة المال بم اكتُسبت؟ ليس هناك استثمار، إذًا هي قوة أخرى. ومن هنا صارت قوة عملة البلد ليس الذهب والفضة بل قوة أخرى منها القوة العسكرية، منها رضى العالم عليك، ساكتين عليك، لأنّه بلحظة أنت تتعجب، يقولون اليوم انتخبوا كاميرون فارتفعت الأسهم! ما دخل هذا بهذا؟ أعطى ثقة للمستثمر أنّ البلد مستقر ولن تتغيّر سياسته وكذا، فالمستثمر يأتي ويضع ماله. ووضع المال في الدولة ماذا يفعل؟ يرفع قيمة المال. فلمّا يخرج فقط بخبر بسيط جدًا تنقلب الأمور.

وهذا الذي أسقط ما يُسمى بنك (أنترا). بنك (أنترا) أنشأه واحد فلسطيني في لبنان، وكاد أن يقضي على بنوك كثيرة دولية، ولكن أخرجوا دعاية بسيطة جدًا أن البنك قد أفلس! صفّت مئات بل آلاف الطوابير على البنك يسحبون المال فانتهى البنك وسُمي بنك الإفلاس.

وهذا العالم عالم قذر. أنتم لعلكم تابعتم –وأرجو أن تكونوا قد تابعتم– أخبار تجسس أمريكا على أصدقائها البريطانيين وعلى ألمانيا وفرنسا، أصدقاؤها تتجسس عليهم لسرقة المناقصات، يعني تعرفون الدولة الّتي ضربت برجلها فأخرجت ذهبًا، لأنّ العالم لا يحترم أموالنا، هو يعتبر أنّ حمارًا يمشي فضرب برجله فأخرج ذهبًا، بخلاف الإنسان الذي أنتج فأوجد قوة مالية من خلال عقله.

فيكتشفون مثلًا أنّ هناك مفاوضات من أجل شراء طيارات، دبابات، فهذه المعلومات لها قيمة ولها ثمن، فيبدأ الصراع من خلال المعلومة والمال.

أرجو أن تكونوا قد استوعبتم النظرية العالمية في قضية عولمة الاقتصاد، أن يصبح الاقتصاد مربوطًا من خلال حركة النظام القطبي الذي يحرك البقية ولا قيمة للإنتاج فيه.

يعني اليونان ما زال إلى الآن بلدًا منتجا وبلدا زراعيا، لا يعتبرونه مثل بريطانيا مثلًا بلدًا صناعيًا، ومع ذلك لماذا يُدمَّر بلدُ تاريخ الزراعة؟ لأنّ المزارع في بريطانيا عندما ينتج لتر حليب واحد تعطيه الدولة، يعني لو افترضنا أنّ سعر لتر الحليب دينار، تعرفون كم يأخذ المزارع؟ يأخذ دينارًا ثمن لتر الحليب ويشتريه الزبون العميل من السوق بثلاثين قرشا، السبعين قرش دفعتهم الدولة، وهذا لا تستطيع الدولة اليونانية أن تصنعه؛ فبالتالي المزارع في بريطانيا هو مزارع ثريّ والمزارع داخل اليونان مزارع فقير لا يجد لأنّ الدولة لا تستطيع أن تعطيه.

ومن هنا فإن قضيّة الزراعة هي أضعف ما يكون، بالرغم من أنّها هي الّتي تستحق أن تُسمّى استثمارًا وإنتاجًا،

دورة الحياة، وننتهي بهذا حتى نصل إلى النقطة الأخيرة.

دورة الحياة الاقتصادية دورة متكاملة، ليتمّ الرخاء في العالم لا بد أن يكون الإنتاج أكثر من الاستهلاك: تصدّر، تأتيك الأموال، تنتشر الخيرات، الناس لا تجوع، فتصير دورة الحياة، الإنتاج أكثر والاستهلاك قليل فبالتالي يصير فائض ويصير رخاء.

الآن؛ كرة القدم من الاستهلاك أم من الإنتاج؟ الممثل من الإنتاج أم من الاستهلاك؟ تحدّث هو وضرب مثالًا أظنّ عن "مايكل جوردن" أنّه في لحظة دعائية واحدة أخذ أكثر من (كذا شيء)، إذًا صار الرخاء -الذي هو الاستهلاك- مضخّمًا كثيرًا جدًا مقابل الإنتاج. ما الذي ملأ هذه الدائرة أن تصبح رخاء أكثر؟ وهي قضية انتهاء عصر الدينار الذهبي، لأنه لو هناك دينار ذهبي تنضبط الحياة، لكن الآن الدينار ليس مربوطًا بالذهب؛ فصار قادرًا -على طريقة الربوي- أن يصدر أوراقًا كثيرة: معه سبعة عشر مليون دينار أو دولار -سمّه ما شئت- ولكن لا يستطيع أن يشتري به ذهبًا مقابل ما كان يشتري به ذهبًا لو ارتبط حقيقة الدينار بالذهب.

فلمّا كثرت الأوراق النقدية توسعت دائرة الاستهلاك على دائرة الإنتاج فحصل التبخّر. الهزّات العالمية التي ترونها هي بسبب هذه المشكلة، وهي أن انتهاء ارتباط العملة بالذهب وسّع دائرة الرخاء والاستهلاك، من أين يأتون به؟ من أين يصير الواحد عنده ملايين؟ لا بد أن تكثر الأوراق، فكثرة الأوراق هذه مقابل عدم مقابلها بالدينار الذهبي هو الذي يصنع هذه الهزّات التي ترونها في العالم.

للذكر فإنّ إسرائيل عندها الشيكل، يشتغل العرب فتعطيهم الشيكل ثم ينزل سعره وفي لحظة من اللحظات يقولون الآن الألف شيكل يساوي شيكل واحد بإنتاج جديد، وهذه حدثت، وصدّام قال: أيّ دينار عراقي خارج الحدود العراقية لا قيمة له، يعني مثل ورق التواليت.

متى حدث أن سمّى الله الفتح لرسوله بالفتح المبين؟ لما جلست قريش مع النبي لتفاوضه رأسًا برأس، هناك أمم متحدة قريشية، هناك أمم متحدة محمدية، تعادل الميزان فسمّاه الله فتحًا مبينًا، تعادلت الموازنة. فلمّا تصل أمريكا إلى الحلق ستعلن في لحظة من اللحظات أنّ كلّ الدولارات خارج بلدنا ما لها قيمة، أدخلوها "التواليت" وافعلوا بها ما تريدون، أوراق!

فلمّا توسعت دائرة الاستهلاك على دائرة الإنتاج؛ حينئذ توسع الرخاء ودُمّر الإنتاج، المزارع يشتغل أربعة وعشرين ساعة طوال السنة لا يحصّل ما يحصّله مقدار لعبة لاعب كرة القدم، العالم تدمّر.

لكن هل تقدّم المال؟ اسأل أبوك في البيت. قل له: ي"ا أبي، كم ثمن الخروف قبل خمسين سنة؟"، حتى تعرفوا أنّ العالم بالنسبة لمعيارية الذهب والفضة واحد، والذي تغير هو الورق الذي يكذبون عليكم به. قل لجدّك: "كم ثمن الخروف قبل خمسين سنة؟"؛ يقول لك: "خمسة ليرات". خمسة ليرات كم تُحضر من الذهب؟ يقول كانت تأتي بأربعة أو خمسة جرامات. أربعة

جرامات الآن كم تساوي؟ أربع جرامات حقّ الخروف، إذًا الخروف بالذهب قبل خمسين سنة هو الخروف الآن بالسعر الحالي، زائد أو ناقص بحسب الميزان والطلب، العالم متوازن: ضروري وجود الكلاب لا تقتلوها.

الذي صار أن العالم تضخّم في قضية الاستهلاك في اللعب والمسخرة وكذا، والعالم فرحان والعالم يغرق بسبب نظام الجاهلية الربوي وبسبب سيطرة العالم عليه.

وبالتالي نأتي إلى النقطتين الأخيرتين:

النقطة الأولى: كيف تشنّع على هذه الجماعة المحترمة الّتي أصدرت نقد ذهب؟ وأنت تقول المشكلة في الذهب؟ هؤلاء كمن يريد أن يصنع دولة إسلامية في كل شيء في نظام عالمي أنت مربوط به في كلّ شؤون حياتك، لا يمكن. لماذا؟

الآن الدولة الإسلامية المفترضة العتيّة العظيمة التي لم ينشأ في التاريخ مثلُها عظمةً، والحمد لله أنّنا نعيش في ظلّها ونتنسّم أخبارها، أوّل شيء هي تصدر دينارًا مقابل ماذا؟ يعني الناس عندهم دولارات، عندهم جنيه إسترليني، عندهم يان، عندهم دنانير عراقية قديمة، ودنانير سورية وكذا، يريدون أن يتعاملوا بالذهب، يذهبون إلى بنك الدولة الإسلامي الذي جالس وراءه شيخ معمّم عظيم وفقيه من فقهاء الإسلام المعاصرين! فيذهب عنده ويقول له أنا معي خمسة آلاف أو خمسين ألف أو مائتين ألف أو مليون بعد سرقة العراقيين النفط مقابل الغذاء، وكل عراقي حامل شنطة معه أربعة أو خمسة مليون يريد أن يذهب إلى البنك الإسلامي العظيم يقول له: لو سمحت لأنّي مسلم وأكره الدولارات، والدولارات سبب فساد في العالم، فلو سمحت حولّها لي ذهبًا. كم تستطيع الدولة إملاء حاجة الناس ضمن نظام العالم الموجود بالذهب والفضة؟

فلذلك هي دعايات إعلانية، يعني كما تفعل الدول يوم: الذكريات، يخرجون دينارًا بسبب ذكرى تحرير القدس مثلًا، أليسوا يخرجون دنانير، مثل الطوابع أيضًا.

فجيّد أنك تخرج دنانير ذهبية في ذكرى الاحتفال بتنصيب الخليفة العظيم، أو يوم ولادة الخليفة العظيم، أو يوم خطبة الخليفة العظيم الخطبة العصماء العظيمة، فجيّد هذا. إذًا هي عملية تسويقية، وعملية إعلانية، أنّ هذه دولة الإسلام وعندنا ذهب وفضة، لأنّها لا تستطيع أن تستوعب حاجة الناس في هذا الواقع المختلّ.

فلا تستطيع الدولة أن تغطي الدين -ولا دولة في العالم الآن-، أمريكا لا تستطيع، وأكثر دولة في العالم عندها ذهب الآن أمريكا. طبعًا في الموجود، أظنّ كذلك في المخبوء -يعني المدخر في الأرض-، أظنّ أمريكا أيضا، ولكن بعضهم يقول دول

أخرى، ولكن أمريكا هي أكثر دولة في العالم عندها ذهب وما تستطيع أن تفي بسدّ ديون الدولار، كيف تسد ديون الإسترليني، كيف تسد الدينار العراقي، وهكذا. فهذه أكاذيب، ودجل.

هذا ليس إهانة للقاعدة بأن الذي يدمّر النظام العالمي هو الذهب والفضة؛ ولكن هذا لعب، هذا كمن يريد أن يقول إن العالم يتحرر بالإسلام ويظنّ الإسلام أن يقوم الليل فيتحرر العالم الإسلامي، هذا دجل.

وطبعًا تستطيعوا كاستطراد ذكر قضية لو الدولة استوردت بضاعة، فإمّا بالمقايضة يعني نفط مقابل طعام، وهذه مصيبة وطامة، وإما نفط مقابل مال، هم يعطوك يقولون ما عندنا إلا دولار، وأنت تقول ما عندي إلا ذهب، فتعطيه ذهب ويعطيك دولار! والعالم يضخ الورق وأنت تضخ لهم الذهب. هذه قضية كبيرة، يعني مهزلة بكل معنى الكلمة.

ماهو الحل الآن؟

أولًا يجب أن تدركوا إدراكًا تامًا وإن لم تفهموا هذه المسألة نبحث عن غيركم للعمل للإسلام، الناس يظنون ويزعمون أنهم يريدون العمل للإسلام بجهل وغباء، هذه نظرية باطلة، حرام عليهم، هم يدمرون أكثر. فإذا أردنا أن نعرف طريقنا لخدمة الإسلام؛ الواجب علينا أن نعرف عدوّنا، أنه شرس، دموي، قاتل، لا يرتاح إلا بمصّ دماء الشعوب.

أضرب لكم مثالًا: ما هي أكثر قارة في العالم فيها الإيدز؟ إفريقيا. تصور في جنوب إفريقيا فقط خمسة عشر مليون مصابون بالإيدز، جنوب إفريقيا فقط وليس كلّ إفريقيا. وشركات معالجة الإيدز الأمريكية ترفض أن تقوم مصانع في إفريقيا لإنتاج دواء الإيدز، لأنّهم في أمريكا عندهم حقوق الإنتاج، حقوق الاختراع، يتبرعون سنويًا بخمسة مليار، يسمحون لأنفسهم بأن يتبرعوا سنويًا بخمسة مليار دولار دواء إيدز لإفريقيا على أن يسمحوا لمصنع واحد بإنتاج دواء الإيدز لإفريقيا. لماذا؟ للفارق بين الأرباح في القضيتين، خمسة مليار لا شيء، هذه هدية. ما مقابلها؟ شيء لا يُطاق.

هذا لتعرفوا أن العالم يموت، وأنا أتكلم إنسانيًا، العالم يموت في إفريقيا من الإيدز، ولكن هذا لا يحرك شعرة رحمة في قلب هؤلاء المجرمين العتاة، بل يفرحون عندما تقوم الحروب!

أحد رؤساء الوزراء الأوربيين قال: "بعض الناس يظنّ أن الرئيس في أوربا رئيس الوزراء أو المنتخب السيء الحظ هو الذي تنشأ في زمنه الحروب مع دولة أخرى"، قال: "هذا خطأ، سعيد الحظ من رؤساء الوزراء في أوربا هو الذي تنشأ في زمنه الحروب؛ لأنّه يستطيع أن يثبت نفسه". والدليل تاتشر، تاتشر كادت أن تسقط، جاءت فوكلاند رحمة لها من السماء لتنقذها

من أجل أن تحقق النصر المبهدل، لو أمريكا أو الأرجنتنيين لكانوا رموهم في البحر. مثل جماعتنا يرمون اليهود في البحر، لكن أمريكا تدخلت.

القصد أنّ هذا عالم شرس، قذر، عالم المادّة، العالم الذي تراه، الجندي الذي يقتل مجرم، الذي يقتل برصاصة يقتل رجلا، بالقذيفة يقتل ألفا، يقتل ألفين، الشعوب تموت جوعًا والمئات والآلاف تموت جوعًا فقط بحركة مالية بسيطة في دولة، الناس يقتل بعضهم بعضًا، ينتحرون في الشوارع، يصابون بالجوع، الأراضي تصبح قفراء، لا مزارع يزرعونها.

من أجل أن تعرف أنّ العولمة الآن تدخل حتى في رغيف الخبز.

أنا أذكر وأنا صغير وعمري سبع سنوات كان محل الوالد يقابله محلات تبيع الحبوب، كيلو حبوب القمح الأمريكي بسبع قروش، كيلو حبوب القمح الأردني بخمسة عشر قرشًا، حتّى تعرف العولمة في رغيف الخبز. الدجاج الذي تأكله يأتيه الغذاء من الخارج، عولمة يعني. مسكين هذا المزارع، مسكين هذا الراعي، الآن لا يستطيع أن يأكل ولا أن يعيش، هذه على قاعدة الرجل: "الدنيا أمطرت الحمد لله"، هذه انتهت. إذا لم تمطر عليه صدقة من خارج دولته تعطيه الغذاء لحيواناته والسماد لزراعته لا يستطيع أن يتحرك، ولا يستطيع أن يعيش. هذه هي العولمة، هي سلب القرار.

للأسف الكتاب لم يتحدث عن عولمة الأخلاق وأنا وضعتها هنا.

المثال الثاني الّذي كنت أريد أن أضربه "مارلبورو"، تسمعون عن هذه الشركات وفضائحها؟ أكبر تعويض دُفع لأمريكا ودُفع للمستشفيات الأمريكية ووزارة الصحة الأمريكية في التاريخ دفعته شركة مارلبورو، شركات الدخان دفعتها من أجل علاج مرض السرطان الذي تنتجه شركة (مارلبورو) لأنهم اكتشفوا أنّ (مارلبورو) التي تُزرع في أمريكا –طبعًا الآن صاروا لا يزرعونها في أمريكا وصاروا يستأجرون في إفريقيا– يأتون إلى مناطق أكبر ممّا يُسمى بلاد الشام كلّها، فيُزرع فيها الدخان ويلقّحونها بالنيكوتين، لتصبح زائدة حتى يُصاب شارب الدخان بمزيد من الإدمان.

هم دمّروا الأرض في إفريقيا، دفعوا التعويض لمريض السرطان في أمريكا وما دفعوا لمريض السرطان في الأردن! انظروا إلى عالم الأموال ماذا يصنع! دمار عالمي.

الآن عرفتم أن الصراع صراع جيوش تفرض رأيها، لا توافق على كتابة العقد فتكون النتيجة بأن تُهدد بإزالتك.

رئيس (غواتيمالا) جاء إلى الأمم المتحدة وقال لهم أن شراب الكوكا وشجر الكوكا هو مصدر رزق لشعبي، وأتحداكم، أنتم تسمحون بالدخان، وتسمحون بالخمر، نأتي بكل أطباء العالم ويقولون لنا من أكثر فسادًا للإنسان البشري؛ هل هو الدخان الذي تسمحون به أو الخمر الذي تسمحون به أو شراب الكوكا وشجر الكوكا الذي تمنعونه وتجعلونه مخدرًا؟ قال: إذا ذهب ثلث من أطباء العالم إلى أنّ الكوكا أكثر إفسادًا سأمنعه من بلدي، يعني إذا ثلثي أطباء العالم يقولون أن الدخان أكثر إفسادًا من الكوكا، الذي هو أحد مصادر الدخل للإنسان في أمريكا الجنوبية. ومع ذلك بقرار سياسي شراب الكوكا (ليس المقصود البيبسي والكوكا وغيرها، الكوكا أي شجر الكوكا[٥])، بغض النظر أنا لا أتكلم هل هو مخدر أو غير مخدر في الإسلام، أنا أتكلم عمّا يفهم العالم الذي يسمح بالدخان المصيبة ويسمح بالخمر المصيبة الأعظم ويمنع هذا الشراب. والسبب أنه يريد أن يدمّر اقتصاد الدول المحيطة به ليبقى هو الثريّ الغني. هذه نظرية الذئب القاتل الذي يشتهي الدماء.

الآن الجانب الذي لم يهتمّ له الكاتب ويهتم له مشايخنا؛ وهو **عولمة الأخلاق**. يعني يستحق المرء حين يسمع كلامهم أن يضرب على رأسه: لقد ضاع الدين!

رأيتم أنّ العالم هو صراع مال، صراع إرادة، صراع جيوش، صراع قوانين في الأمم المتحدة، وصراع إعلام. ثمّ يأتي الشيخ يقولون: ربوا أولادكم، علموهم الدين، إيّاكم وعولمة الأخلاق، والنتيجة الشيخ عنده تلفزيون، وأنا عندي تلفزيون، وأنت عندك تلفزيون، والولد يذهب إلى المدرسة، والذي يضع المناهج هو العولمة، الذي يجبر المدرّس في التعامل مع التلميذ هو القانون الذي تفرضه العولمة، وقانون الأسرة الموجود. الآن العولمة تدخل معك، مع زوجتك، يعني لو صرخت على زوجتك وذهبت إلى الشرطة يتمّ سجنك، لأنّه ممنوع أن تصرخ على زوجتك.

هذا يقابله دعوة أخلاقية لتقف في وجه هذا "البلدوزر" العظيم بطريقة أخلاقية فقط ودعوية! منتهى الغباء! والنتيجة أنّنا نُهزم، النتيجة أنّ أبناءنا يخرجون من تحت سيطرتنا، أنّ بيوتًا تُهدم، أخلاقنا تتغيّر، الفساد يطغى على الأخلاق في كل مجالها وينتشر الفقر.

---

[٥] الكولة أو الكولا (الاسم العلمي: Cola) هو جنس من أشجار تقع في غابات أفريقيا الاستوائية المطيرة، تصنف تحت فصيلة الخبازية، من أسرة البوهنية. أحياناً يطلق على الأنواع من هذا الجنس اسم شجرة الكولا أو جوزة الكولا للفاكهة التي تحتوي على الكافيين التي تنتجها هذه الأشجار، وتستخدم في الغالب كمنكهات للمشروبات. يرتبط هذا الجنس بجنس الثيوبروما، أو الكاكاو في أمريكا الجنوبية. وهي أشجار دائمة الخضرة، يصل طولها إلى ٢٠ متراً (حوالي ٦٠ قدماً)، لها أوراق بيضاوية لامعة يصل طولها إلى ٣٠ سم وفاكهتها على شكل نجمة. [ويكيبيديا].

من أسباب الزنا، ماذا؟ الفقر، من أسباب السرقة التي انتشرت في بلاد المسلمين؟ الفقر، والحاجة، الرشوة التي تنتشر؛ فالجانب الأخلاقي مرسوم من خلال دولاب المادة، ودولاب الإعلام، ودولاب حركة المال، ونحن نريد أن نجابهه بخطبة يوم الجمعة! ويتبهدل المسكين الفقير.

أحد مشايخنا من إخواننا يتكلم عن بلاد الجزيرة يقول: لا أدري لماذا الشيخ يحمل على البنغالي والهندي. قال: تذهب لمدرّس في دروس الحرم في الحج، يقول: أنت يا بنغالي، لا تحمل في يدك وتقرأ، ولا تمشوا وتهللوا، لا يوجد عنده مسكين غير الفقير، خطابه ليل نهار للفقير، وأنا أقول خطاب القرآن كلّه للملأ، صراع مع الملأ.

صراع القرآن كله مع الملأ، ونحن كل صراعنا مع الفقير ومع المسكين: لا تشتري اللحم حتّى يرخص، ولا تشتري البندورة حتى ترخص. لا إله إلا الله، مسكين الرجل عوض أن يقول له اشتر بندورة حتّى المزارع يظلّ في أرضه واشتروا اللّحم وأكثروا من شراء اللحم البلدي حتّى المسكين قد يقوم يومًا ولا يجد لحمًا في البلد ويضطرّ إلى الاستيراد، ومع ذلك ليس هذا خطاب الصراع. ولكن لتروا العقل الذرّي الذي لا يخرج نطاق نظره عمّا يرى أمامه. هل هذا فقط هو نظر المرء تحت رجليه أم أقل من ذلك؟ أم أنه نظر النعامة؟ بل إنّنا أصبحنا أسوأ من النّعامة.

الآن بقيت النقطة الأخيرة:

لا يمكن إصلاح العالم إلا بضرب أسسه، أسس الجاهلية. وكما تقدم الكلام؛ لا بدّ من إخراج الشرّ من قمقمه ليظهر، وحينئذ يصبح الصراع على المفتوح. العالم كلّه يُظهر أوراقه ويكشف نفسه ويبدأ الألم في الخصم كما هو في داخلك، ويبدأ العالم يظهر كرهه للإسلام، وكرهه للأمم، وكرهه للشعوب. لا بدّ من الإظهار بطرق، هذا دور الحكماء إن كانوا حكماء، لا أن تكلّموا عن الأخلاق مقابل العولمة! صراع الأخلاق صراع مسكين.

تصور أنهم يوجّهون الخطاب للأب الذي يشتغل اثنتي عشرة ساعة حتّى يأتي بلقمة الخبز في تربية أبنائه ولا يقدرون أبدًا أن يوجهوا خطابهم إلى الملأ، لماذا يغيّرون المناهج استجابة لأمر طاغوت العولمة؟ هذا نموذج طبعًا، والباقي عندكم. المصيبة أعظم من هذا، ولكن أنا أمثّل لتعرفوا ما وراءه.

فلذلك الذي يريد أن يبني هذا الدين لا يمكن أن يُنشئ نظامًا إسلاميًا مع هذا الواقع الذي تسيطر عليه العولمة في كل جوانبه الاقتصادية والسياسية والمعلوماتية والإعلامية إلى آخره من دون أن يُنشئ إسلامًا عظيمًا يواجه قريش. هذه كلمة إن شاء الله تُشرح في دروس قادمة.

وبارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا. وأنا أعرف أن هذا البحث جديد على الطرح الإسلامي، وجديد على طرح إخواننا، وجديدٌ سماعه، وستنشأ منه الكثير من الأسئلة والحوارات. وأنا قلت فقط القواعد العامة لتكون مادة للحوار عند العقلاء والحكماء والمصلحين والدعاة والمجاهدين والعلماء إلى آخره، وعسى أن تكون كلماتي نافعة في هذا الباب. والله يغفر لي ولكم، مع الاعتذار على التطويل.

وبارك الله فيكم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

[١٢]

مناقشة كتاب (الحرب العالمية الرابعة) للكونت دي مارنشيز

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على سيد الخلق وإمام المتقين محمد بن عبدالله وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدىً وتقىً إلى يوم الدين، جعلنا الله وإياكم منهم آمين آمين.

هذا هو **الكتاب الثاني عشر** من كتب المختارة لمشروع "ألف كتاب قبل الممات"، وهو كتاب (**الحرب العالمية الرابعة**) **للكونت دي مارنشيز الفرنسي**، وهو كتاب يخضع -كما يقولون- يخضع إلى كتب المذكرات.

من الأمور التي نشأت في تاريخ العلوم **النمطيَّة**، ماذا نقصد بالنمطية؟ أنتم تعرفون أن الثقافة في أساسها إنما تكون بحسب الواقع، يعني حتى الأمر التصوُّري لا يمكن أن ينشأ إلا بسبب واقع. والشيخ الجرجاني –رحمه الله- في كتابه (دلائل الإعجاز) يقول: "بأن الإنسان تنشأ معارفه مادية ثم ترتقي إلى التجريب"، ويقول: "وهذا خلاف ما عليه نشأة آدم –عليه السلام-، فإن آدم عُلّم ثم عُرضت عليه الأشياء"، ولا أريد أن أناقش هل حقًا آدم عُلِّم الأسماء قبل أن يدرك الأشياء –عليه السلام-، أم أنه تعلم الأشياء ثم علم أسماءها؟ فالتقى التصور الذهني على اللفظ اللساني؛ لأنه كما يقول علماؤنا: **لكل شيء أربعة وجودات**؛ الوجود الأول هو الوجود الحقيقي، الوجود الثاني هو الوجود الذهني تصور، الوجود الثالث هو الوجود اللفظي، الوجود الرابع هو الوجود الكتابي.

كل واحد له وجود والأصل أن تتوافق، وبلا شك أن الأغلب فيها هو الوضع الإلهي، هذا الذي نعتقده أنها كلها فيها وضع إلهي. فهل وُجدت الأسماء في ذهن آدم ثم وُجدت الأشياء؟ أم وُجدت الأشياء تحت بصر آدم فحصل لها التصور الذهني الذي ارتبط مع {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} فصار لها وجود لفظي في لسانه؟ هذه قضية نتركها ونؤجل البحث فيها -إذا قدّر الله- إلى شرح سورة البقرة؛ لأن سورة البقرة تعلمنا هذا تعليمًا عظيمًا.

لكن الاتفاق على أن الإنسان **تبدأ معارفه بالنظر إلى الأشياء ثم ترتقي إلى الأسماء ثم ترتقي إلى التجريب ومنها التركيب**؛ يعني كيف الإنسان صنع الشاي؟ بالتركيب، لا بد أنه أخذ الشاي الذي هو الورقة ثم غلاها بالماء فركبها مع الماء والسكر ثم يمكن أن يضع النعناع وهكذا، لكنه أولًا وُجد الشيء أمامه ثم وُجد الاسم ثانيًا، والأسماء تبع للأشياء، ولذلك القاعدة اللغوية هي قاعدة الأعرابي؛ قيل له: ماذا تُسمُّون ماء الطعام عندكم؟ قال: "السَّخين"، قالوا: وإذا برد ماذا تسمونه؟ قال: "لا ندعه حتى يبرد"؛ فإذًا القاعدة أنه لا ضرورة لوجود لفظٍ اسمي دون وجود حقيقة له.

ومن هنا هذه المسألة هي التي تحل لنا إشكال إذا قال بعض العلماء من قدمائنا -وهم علماء لغة ولا شك- أن "الإستبرق" كلمة أعجمية، وأنا أصدق هذا ولكنها عُرِّبت، لماذا؟ لأن العرب لا يعرفون الإستبرق فلما جاء الإستبرق إليهم خرج اسمه، ومعنى عُرِّبت هو كما يُعرِّب الغرب أسمائنا بدل أن يقول: "عمر" يقول: "Omar"، تشرشل له كلمة يقول: "نحن يحق لنا أن ننطق الأسماء كما نحب"، هذا هو منطق الغالب.

القصد بأن الأشياء تبدأ بالوجود البسيط السهل ثم تبدأ بعد ذلك تُركّب، هذا في كل العلوم. والتجريد الذهني مهم جدًا، لأنه منطلق الصناعات، منطلق التركيب، يعني الذي به يتم الصناعة والاستنتاج والبحث وإدراك حقائق الأشياء ولو اجتمعت ماذا تصنع من التفاعلات، إلى غير ذلك.

فهذا العالم أصلًا هو عالم بسيط، لكنه بعد ذلك يرتقي إلى علوم متعددة، وأريد أن أقول: بأن الأصل هو أن تُجمع الأشياء كلها في سياق واحد ولذلك لو صح -وإن كان لعلمائنا رأي آخر- أن المرء يأكل ويشرب كما قال الله -عز وجل- في سورة طه -حينما جمع العريّ الداخلي بالعريّ الخارجي-: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} فالعلماء وقفوا: لماذا هذا الجمع؟ يمكن أن يُقال بأن القضايا هي بحسب الحاجة، والحاجة هي البساطة في الأمر، فيمكن أن يقال: لا ضرورة لهذا التركيب لأن الحياة هي ببساطتها وكل شيء يكون على جهة واحدة، ويمكن أن يُقال شيء آخر كما قال شاه ولي الله الدهلوي في كتابه (الفوز الكبير في أصول التفسير): "بقي القرآن حيًا في النفوس حتى شُقّت الشعرة شقّين عند المناطقة أهل الكلام فصنعوا تراكيب عقلية أبعدت عنه الوهج الفطري الأوّلي الذي تُحدثه الكلمة بهزتها في داخل النفس البشرية، عند العرب"؛ أقول هذا لأن العربي حينما كان يقول الشعر لم يكن يهمه بأن يجعلها قصيدة رثاء، ولم يكن يهمه أن يجعلها قصيدة فخر، بحيث نقول: هذه قصيدة فخر أو هذه قصيدة رثاء، وهذه قصيدة مدح، وهذه قصيدة ذكرى، وهذه قصيدة حب وغزل.

فالعربي لم يكن يهمه مثل هذا التبويب، متى تنشأ النمطية؟ بعد أن تكثر العلوم وتبدأ الدراسة للعلوم، أما في لحظة النشوء فهي على حالة واحدة من الاجتماع والانسياب. ولذلك نستعير هنا كلمة للشيخ محمود شاكر في كتابه (نمط صعب ونمط مخيف) لما يأتي إلى قصيدة ابن أخت تأبط شرًا -كما حقق هو وإلا فهي في كتاب (الحماسة) لأبي تمّام يضعها لتأبّط شرًا-، وفيها:

إنَّ بالشِّعْبِ الذي دُونَ سَلْعٍ ... لَقَتِيلًا دَمُهُ مَا يَطِلُّ

يقول: "المشكلة أن البعض أخطأ عندما وضعها ضمن النمطية"؛ والنمطية هي أن تحدد نوعية المقالة أو نوعية الوجود أو نوعية الفكرة، هذه نمطية. ومن هذا الكتب، وأنا ميشتُ معكم كل هذا لأقول: **إن كثيرًا من الكتب من الخطأ أن تضعها في نمط، لأنك إن**

وضعتها في نمط أفسدت جوهرها، كما أنك إذا جئت إلى قصيدة جاهلية تجد فيها الغزل وتجد فيها الرثاء، وتجد فيها التفجُّع، وتجد فيها الوقوف على أطلال الحنين، فأين تضع هذه القصيدة؟ هي خليط إنساني، تعبر عن الإنسان في أشواقه، في ذكرياته، في حنينه، إلى غير ذلك.

لذلك أنتم ستجدون هذا في داخل الكتب، أين تضع هذا الكتاب؟ يعني الآن أين نضع كتاب (الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلَّام، هل نضعه في كتب وزارة المالية؟ أم نضعه في كتب الفقه؟ أم نضعه في كتب السياسة والحكام والسلطة والأعمال السلطانية؟ أين نضعه؟ كتاب فيه كل هذا. وتلك طريقة القرآن وهي الطريقة التي تعالج الإنسان على اعتباره كله من غير هذا التبويب والنمطية.

متى تنشأ النمطية؟ تنشأ بعد استقرار العلوم من أجل دراستها ومن أجل تسهيل العلوم. لكننا يجب أن نعلم ونتعلم أن النمطية ليست دقيقة، نضطر إليها كما نضطر إلى القواعد الفقهية لأننا نريد أن نعرف ما هي ضوابط الشرع، ويبقى هناك ما يخرج عنها، ولكننا في النهاية نضطر إليها. ولكنك حين تحتاج إلى الدراسة لا بد أن تدرس الفرع ولا تخدعك القاعدة بحيث تُلغي ذاتية هذا الفرع، وما فيه من خصائص.

يعني عندما تقول: هذا كتاب ذكريات في فن القراءة، عندما تقول هذا كتاب ذكريات أو مذكرات عليك أن لا تلغي أنه كتاب يدخل في علم النفس أيضًا، عليك أن لا تلغي أن الرجل وهو في الذكريات يُقعِّد قواعد علمية في المسألة التي شغلت حياته وجعلته مختصًا فيها، هذا لا ينبغي أن يُعميك عن هذا. وهذا يعيدنا إلى نقطة -تقدَّم الكلام حولها- وهي: **أن النص ينتج نصوصًا**، وبالتالي هذا الكتاب أين تضعه؟ تضعه في المذكرات، تضعه كما وضعنا كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ ضمن الدراسة الاجتماعية لحالة المسلمين زمن الحروب الصليبية، وهو كتاب مذكرات -كتاب أسامة بن المنقذ-، لكننا وضعناه ضمن هذا الإطار، ويمكن أن يُنتج معارف أخرى؛ كطرق تربوية، ويمكن أن ينتج حالة نفسية، كيف يتعامل الناس مع الآخر، ما هي نظرة المسلمين إلى الآخر الصليبي.

بالتالي **إياك أن تقرأ النقد قبل أن تقرأ الكتاب**، وبالتالي إياك أن تنظر إلى العنوان العام قبل أن تقرأ الكتاب، اقرأ الكتاب كما هو، كما كتبه صاحبه على الأمر الذي كتبه. وصدقوني في الأغلب أن **القلم يغلب صاحبه**، -وهذه ضرورة في فن القراءة-، القلم يغلب صاحبه بأن ما يكتبه المرء تنفلت منه ما لا يحب، مثال ذلك: أنت تستطيع أن تدرك أن هذا الكاتب مغرور مع أنه يريد أن يتخفّى وراء التواضع، هو لا يريد أن يظهر غروره، لا يريد أن يظهر حقده، هو يريد أن يُظهر نفسه بمظهر العادل المنصف، والقلم يغلبه ويُفرز كلامًا تعرف منه دلالة الحقد ودلالة الغيظ، أو دلالة الحسد، أو دلالة محبة الذات والأنانية.

وهذا مما قالوه: "الناقد أحيانًا يكتشف نَفْسَ الكاتب أكثر من الكاتب نفسه"، وهم يمثلون قصة لهذا بقصة أبي النوّاس، يقال: أن رجلًا كان يجلس لنقد شعر أبي النوّاس محبًا له، فمرّ عليه أبو النوّاس ووقف عنده وهو يقرأ بيت شعر لأبي نوّاس ويتذوَّقه، وبيت الشعر يقول:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا إن أمكن الجهرُ

فقال الناقد: هذا كلام جميل من أبي النوّاس، أراد أن يجمع بين المُتَع كلها، وهي متعة النظر ومتعة الذوق ومتعة السماع، لما يشرب الإنسان كأس الخمر متعة السمع لا تحصل، قال: فأراد أن يجمع متعة السماع بقوله: هو الخمر، حتى يتلذذ باسمها، فهذا الناقد يفصّل كلام أبي النوّاس، فقال له أبو النواس: قبّحك الله، والله ما خطرت على بالي!.

فتستطيع أن تنفذ إلى ما يريد أن يخبئه الكاتب، الكلام يَبين، يفضح. ولذلك كلمة أبي العلاء المعرّي مهمة جدًا: "تكلم حتى أراك"، أنا ألج في نفسك وأدخل في غمراتها وفي لولبها وفي خفائها من خلال كلامك، والناس ربما لا يعرفون مقاماتهم، بل في الحقيقة الناس لا يعرفون الكثير من أنفسهم، ويأتي الآخر فيكشف له عمّا نفسه، يضعه أمام المرآة، وكيف يتم هذا؟ يتم من خلال كلامه. لذلك لا تذهب إلى الكتاب برؤية غيرك له، وإياك والتقييمات، اذهب إلى الكتاب وخذه، **وهذه نقطة مهمة**.

النقطة الثانية التي تهمّنا في هذا الكتاب، وهو إذا وضعنا الكتب ضمن نمطية فهناك كتب المذكرات، وهذه كتب مهمة لكنها حقل ألغام وأشواك، كتب الذكريات والمذكرات كتب مهمة، وعلماؤنا قالوا كلمة عظيمة، قالوا: لا تُصنع الحكمة إلا بأمرين، الأمر الأول: **هو الأخذ بمواعظ الكتاب والسنة**؛ عليك أن تقرأ الكتاب والسنة وأن تتشبّع وأن تتلقّى ما فيهما من مواعظ وهداية، الأمر الثاني: **لا بد من قراءة التاريخ وملاحظة صيرورة التاريخ**، هذا كلام الأقدمين. ومن هنا فإن القرآن اهتم كثيرًا بالقَصّ؛ لأن القَصَّ شيء عظيم في صناعة الإنسان، والكلام المجرّد يؤثر في الإنسان ولكن الصورة الذهنية التي تُصنع من خلال الذكريات تصنع أثرًا أعظم.

ومن هنا فلا بد من قراءة المذكرات وهي جزء من التاريخ، وبالرغم من أن التاريخ هو صناعة أمم متعددة، تعرفون أن أول كتاب في التاريخ هو كتاب هوميروس، وهو أول مؤرخ في التاريخ البشري، ولكن لا يُعرف عن أمة من الأمم البشرية اعتنت بتاريخها كما اعتنت هذه الأمة؛ حدّثونا عن كل صغيرة، وذلك من تربية القرآن.

القرآن هو الذي علَّم هذه الأمة علومها كلها، علمها كل العلوم، **ما من علم في هذه الأمة إلا وهو إنتاج قرآني بأصله وبوصفه،** ليس فقط في أصله أنه يقول لك: ابحث في كذا، بل يعطيك المنهج في قراءة هذا العلم، وفي كتابته وفي دراسته وفي التطلع إليه، وفي إنشائه وفي بنائه.

وبالتالي الاهتمام بالتاريخ هو صناعة هذه الأمة، وتكلمنا أن ميزة كتابة التاريخ في أمتنا أنهم لم يتدخلوا في كتابته، بل ينقلون كما يصل إليهم، وتركوا لك التحليل، قالوا: اذهب أنت حلّل وناقش، لكن هذا هو النص فحافظ عليه.

وبالتالي المذكرات شيء مهم جدًا، وحيث وجدت مذكرات فاقرأها، مهما بدت لك سخيفة. وأرجع لقضية قلتها سابقًا لأنها مهمة، وهي أن القراءة تصنع لك صورة العبودية؛ اللوحة العظيمة (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)، وأنا لم أجد بعد الكتاب والسنة أعظم تشكيلًا لهذه اللوحة من قراءة التاريخ، ومن التاريخ قراءة المذكرات، وإياك أن تتردّد في قراءة أي مذكرات فكلها نافعة، والشيء إذا وصل لهذه الدرجة من الانتفاع تكثر خطورته، وخاصة بسبب البيئات المعينة يختار الكاتب ما يُرضي القارئ، ولا يستطيع كاتب الذكريات أن يكتب عنه كل شيء، وإنما هو يختار الصور وأحيانًا يكذب، ومن هنا فأنت لقراءة حقبة تاريخية ما لا بد أن تقرأ المذكرات جميعها حتى تتكون لك الصورة كاملة.

فهو يقدِّم لك جزءًا، ويأتي الآخر الخصم يقدم لك جزءًا آخر، وهذا يفوّت، وهذا يقول عن هذا، في النهاية أنت تستطيع أن تفهم الصورة كاملة وشاملة من خلال القراءة المتعددة، فلا تُسرَق، ولا تعظِّم من لا يستحق التعظيم، ولا يُكذب عليك في الروايات، وخاصة بالنسبة للزمن المتأخر وهو وجود الكذب الكثير في داخل مؤرخي زماننا، لأن المؤرخين في زماننا إنما هم أبناء الدرهم والدينار، والعمالة والكذب لمن يدفع لهم، الطواغيت يصنعون حولهم السحرة، ليُسوِّقوا لهم أنهم عظماء، تجد مثلًا حاكمًا يعجز عن قراءة صفحة واحدة وحين تقرأ ترجمته يُقال: "وقد تلقّى العلم على يد كبار العلماء"!، أي علم كانوا يُعطونه وهو لا يستطيع القراءة؟ هذا موجود، ولذلك عليك أن تقرأ المذكرات فحينئذ تستطيع أن تعرف الصورة كاملة، والحق أن الغربي حين يكتب مذكراته في هذا الزمن المعاصر يكتب بصدق أكثر مما يكتبه الشرقي؛ لأن الشرقي محكوم ببيئته ويريد أن يبرّئ نفسه، وإن كانت هذه الخصلة موجودة كذلك في داخل الغرب، مثلًا لما كتب (ووليم كاسي) مذكراته -الذي ذكره (مارين شيز)- إنما كتبها لأنه كان متهمًا في قضية (Watergate)، لما تجسس الحزب الجمهوري بقيادة (نيكسون) على خصومه الديمقراطيين، في فترة الولاية الثانية وكشفها الصحفي المشهور (بوب وورد)، فأراد أن يقول أنه لا علاقة له، فكتب المذكرات، وفيها فوائد، وأنا أقول لكم هذا كتاب مهم.

وعالم الجاسوسية عالم مهم، ووليم كاسي هو رئيس ال(CIA) في أمريكا، مذكراته قليلة، وهو مطبوع وأظنه موجودًا في الأسواق، وهو مهم جدًا لأن فيه ما يريد أن يقوله في بعض جوانبه هذا الكونت الفرنسي أن أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية نشأت نشأة أمريكية، وأن الصناعات والصحافة وإلخ، مشروع (مارشال) تعرفونه بعد الحرب العالمية الثانية بعد دمار ألمانيا، مارشال كان وزير الخارجية الأمريكي وأنشأ مشروعًا لإعادة بناء ألمانيا، والحق أنهم بنوا ألمانيا وإيطاليا وأنتم تجدوه وهو ويعترف أن الصناعات الكبرى للسيارات والصحافة والمدارس والجامعات إنما أُنشئت بتمويل أمريكي، وضمن خطة استخباراتية لم تكن الحياة الاستخبارية بعيدة، وذلك ضمن ما يُسمى ب"الحرب الباردة" والصراع مع السوفييت.

هذا كتاب مهم أن يُقرأ كتاب (مذكرات ووليم كاسي) مهم جدًا، وفي عالم الجاسوسية أنصحكم بكتاب آخر مهم، ودعكم من الكتب التأملية والكذب مثل كتاب (أحجار على رقعة الشطرنج)، هذا كتاب يؤمن بالسياسة التنبؤية ليس لنا فيه، أو (لعبة الأمم) لمايلز كوبلاند، فهذه الكتب كلها صناعة لا قيمة لها، وهي كلام ليس معتمدًا قط على الوثائق، والوثائق مهمة حتى في عالم المخابرات، لا يوجد صحفي يتكلم -حتى في التاريخ- حتى يوثّق هذا من خلال الوثائق ويُرجعها، ثم يأتي بعد ذلك بالتحليل، لكن أن يأتي رجل يقول: صار كذا وصار كذا، دون أن يكون هو صاحب الشأن أو يخبرنا من هو، فهي قراءات لا قيمة لها.

الكتاب الثاني من الكتب الجاسوسية المهمة، وهو كتاب لم يؤلَّف لنا، بعض كتب تستطيع أن تعرف أنها سليمة من النوايا السيئة عندما تعرف أنها غير مكتوبة لنا، منها كتاب بيتر رايت (صائد الجواسيس)، هذا كتاب كان بيتر رايت يؤمن أن رئيس وزراء بريطانيا هو الشخصية الخامسة لمجموعة الخمسة جواسيس الروس في داخل حزب العمال.

وفي داخل الاستخبارات الذين منهم ابن محمد فلبي، هذا محمد فلبي الشخصية الجاسوسية الذي أرسلته بريطانيا إلى الجزيرة العربية وبعد ذلك ادعى الإسلام، فهذا حفيده اسمه ووليم فلبي وكان مقدمًا كبيرًا في المخابرات (MI٦) البريطانية، وبعد ذلك اكتشفوا مجموعة تسمى "مجموعة الخمسة" واكتشفوا أربعة على الحقيقة، بعضهم حوكم بعضهم هرب، فيلبي هرب إلى الاتحاد السوفييتي، وبقيت الشخصية الخامسة خفية من هي، وبيتر رايت هذا صاحب كتاب (صائد الجواسيس) يعتقد أن رئيس الوزراء البريطاني كان الشخصية الخامسة، وهو كتاب مهم جدًا يبين لك الصراعات الداخلية، وتُرجم إلى العربية ترجمات متعددة. فهذا من الكتب المهمة، وهل اهتمامنا بهذا الكتاب لأن عالم الجاسوسية مثل عالم السحر الخفي الذي تتشوّف النفس للاستطلاع حوله؟

يعني الناس لماذا يحبون كتب السحر؟ لماذا يحبون كتب الغرائب؟ يحبونها لأنها تكشف المخبوء عما يتطلعون إليه من خفاء لا يجدونه في عالم الواقع، واحد يتكلمون له عن الحمص، هو يعلم ما هو الحمص، لكن حين تتكلم له عن وجود الجن وما هو، تتشوّف نفسه إلى

هذا العالم الغيبي فيبحث فيه. وعالم الجاسوسية عالم تكمن ثقافة الإنسان فيه على بناء خفي، فيتطلع إلي معرفة ما الذي فيه، ومن هنا تدخل فيه الأساطير والأكاذيب، وهذا جزء من حذرنا من الكتب التي تتحدث عن الجاسوسية.

ولذلك الكتب التي تتكلم عن الجاسوسية في العالم العربي ضعها في الزبالة، ولا تُضيّع وقتك في أي كتاب ألفه عربي عن الجاسوسية وإن كان يتكلم عن الغرب، ألقه في الزبالة بلا تردد، وأنا أطمئنك أنك لن تندم على ضياع شيء مهم، كله كلام فقط إما لأشياء تجارية، وإما من أجل خدمة أفكار ما، وإما تأملات ذاتية وتصورات على طريقة أن الرجل عندما رمى السيجارة المقصود عمل جاسوسي، ولبس نظارات سوداء فهو جاسوس، وتعرفون هذه الطريقة في التحليل العظيم عند أمتنا في اكتشاف الجواسيس!

وهذا الكتاب أين تكمن أهميته؟ تكمن في قضية إدراك هذا الرجل في وقت مبكر جدًا لما يسمى بـ"الخطر الأخضر" يعني الإسلام، وهذه نقطة نريد أن نفصلها، وأين أهمية هذه النقطة بالنسبة إلينا، وما هي الأمارات التي يكتشف فيها الآخر أن هناك خصمًا ينمو في الخفاء يمكن أن يقفز إلى ساحة الصراع ويمكن أن يرثك؟

هناك كتاب –سيكون من الألف كتاب بإذن الله–، وهو كتاب نيكسون (نصر بلا حرب)، وهذا كتاب مهم جدًا؛ لأن هذا الرجل –نيكسون– رجل استراتيجي، ورجل له قيمته وله أهميته، وكتابه هذا مهم جدًا وعنوناه دال عليه؛ كيفية إمكانية النصر بلا حرب؟ كيف يمكن لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية أن يصنع نصرًا بلا حرب؟ وليس المقصود بلا حرب بلا قتال، بل المقصود شيء آخر الكتاب يشرحه.

والنقطة التي تهمنا هنا هي **إدراك قيمة العقائد في عالم الاستخبارات،** هذه ربما نحن لا نُقيم لها شأنًا في عالم المخابرات، نحن عندنا عالم المخابرات هو عالم أمني، للأسف في ثقافتنا العربية لضعف الثقافة في هذا الجانب، يغلب علينا قراءة الأفكار من خلال ما تقوله الصحف وما يقوله الإعلام، تغلب علينا الثقافة مما تقوله التمثيليات!، يعني كثير من الناس لا ينتبه إلى أن التمثيليات تنشئ ثقافة، وهذا ليس عندنا فقط هذا في العالم أجمع، فتُنشئ التمثيليات والمسلسلات والأفلام ثقافة، وبلا شك أن عالم الجاسوسية هو عالم له اتجاه، لكن عندنا عالم الجاسوسية لا ارتباط له بالفكر أبدًا، هو عالم رجل يأتي إلى هنا يصل إلى قيادة الجيش يصل إلى قيادة الدولة، يكون ضابط مخابرات، ينقل أخبار سريّة، يحرك قطاعات عسكرية خطأ من أجل الهزيمة، وتمشي الاستخبارات بهذا الاتجاه. لكن هل يمكن لعالم المخابرات أن يكون له دور عظيم في عالم الفكر؟ وأن يكون من المخابرات صحفي فهو ينشر فكرًا، أن يكون دكتور جامعة. فهذا جانب لا اهتمام عندنا فيه، أن الأفكار هي أعظم عملٍ من أعمال الجاسوسية في تاريخ البشرية؛ **لأن حركة الشعوب إنما تُنتجها العقائد،** هم يقولون **الأفكار** ونحن نقول **العقائد،** ولو قلنا الإيمان لصح.

لا يوجد حركة لأمة من الأمم إلا والعقائد هي إما أن تكون حاملة لحاجات لهذه الأمة، وإما أن تكون الدافعة لهذه الأمة؛ نحن نقول بأن الحروب الصليبية منشؤها ليس الدين، منشؤها الهمجية والسيطرة والطعام والأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا في داخل مخيال الإنسان الأوروبي، لكن ما الذي حمل هذه القضايا لأن تبعث الإنسان الأوروبي أن يأتي إلى الشرق؟ هو الدين، فالدين حامل لمحرّك الإنسان في صنع الغزو، فالدين هو حامل لأشواق الإنسان وحاجات الإنسان وشهوات الإنسان، والدين فاعل حقيقي وقد يكون هو السبب في حركة الشعوب.

إذًا لا يوجد حركة لأمة خارج نفسها نحو الآخر إلا بسبب العقائد، هذه قضية يجب أن نحسمها، **العقائد هي المحرّك الفعلي للشعوب خارج أرضها**، قد يقول قائل: الصليبيون لم يخرجوا من أجل الدين خرجوا من أجل الشهوة، نقول: الذي حمل الشهوة حملها لتنطلق هو الدين، الأفكار مهمة جدًا. إذًا أنت تستطيع أن ترصد هذا الكلام الذي يجب أن نفهمه وفهمه هذا الكونت وفهمه الكثيرون، بأن الإسلام قبل أن تنتج ١١ سبتمبر وقبل أن تنتج حركات مناهضة للغرب بالطريقة الصريحة القوية، هؤلاء اكتشفوا أن الإسلام هو الوحيد في عالم الشرق الأوسط، وإن كان هناك قوى صفراء من الصين ومن اليابان، ولكن في هذه المنطقة الإسلام هو الوحيد الذي يدفع صاحبه بسبب عقيدة الاستعلاء.

توينبي في كتابه (قصة الحضارة) وهو مهم جدًا، قال: لا توجد حضارات في أفريقيا، وتوينبي صحيح رجل مؤرخ لكنه في النهاية يلتقي لقاء مع الاستشراق مع الاستعمار، فهو يقول: لا يوجد حركة خارج الأرض إلا بسبب الدين، والإسلام هو الذي به ينطلق العربي خارج أرضه، ويقول: لم يخرج الإفريقي خارج أرضه ليصنع حضارة ولم يخرج الهندي خارج أرضه ليصنع حضارة، والسبب هو فقدان عقيدة الاستعلاء.

يعني الغربي عندما يأتي إلينا، لما يأتي إلى الأفارقة، لما يأتي إلى الصين، ما هو دافعه؟ شعور الاستعلاء لديه، أنه هو الذي يجب أن يحكم، نحن عندنا هذه العقيدة، وهي عقيدة العزة أن العزة لله، -هذه التي يرد أن يدمرها المشايخ-، لا تجد قضية أعظم نَصْبًا للهجوم عليها أعظم من الاستعلاء الإيماني، العزة الإيمانية، يريد المشايخ -قاعدة الاستخبارات صناعة الفكرة- جعل الإنسان المسلم شيئًا مع العالم، متساوقًا مع العالم، مع وجود نظام في العالم فيه الصغير وفيه الكبير، يعني يمكن قبول الدعوة إلى أن يكون المسلم واحدًا من العالم والعالم كله متساوٍ، لكن هذا الاستعلاء الذي يعيشه الغرب من خلال الأمم المتحدة، ومن خلال القوانين الخاصة بهم، ومن خلال القوانين التي يفرضونها على العالم، الاستعلاء موجود، فمن حق الآخر أن يفكر بالاستعلاء.

القصد أريد أن أقول بأنه لا يوجد دافع لأمة من الأمم بالانطلاق نحو الآخر للغلبة عليه إلا بوجود عقيدة الاستعلاء، من هنا العقيدة مهمة، هذه أخذناها باتجاه عكسي لرؤية الفكرة في المرآة؛ اعكس الصورة وانظر إلى الفكرة خارج المرآة تجد أن الغربي الذكي يدرك أن الإسلام هو العدو القادم إليهم قبل حضور الإسلام إلى المعركة، لأنه يعلم هذه القضية.

وهذا جزء مندراستهم وقولهم في قراءة التاريخ، لما تكلم (كولن ولسون) الفيلسوف البريطاني المعروف عن الإنسان اللامنتمي وضع (توينبي) من هؤلاء الذي كونوا الشخصية الغربية اللامنتمية من خلال تكوينه كإمام للعالم، فتوينبي ممن شكل عقدة الرفعة لدى الغربي على العالم التي جعلته يستعمر الآخر.

من أين أدرك هذا الكونت الفرنسي أن الإسلام قادم؟ هذا كتاب متقدم كتبه بعد ظهور ثورة الخميني، وسأذكر لكم قصة انتصار ريغان على كارتر، تعرفون أن كارتر رئيس ديمقراطي وهو من الرؤساء الديمقراطيين الكثير الذين لم ينجحوا، قلما رئيس جمهوري أمريكي إلا وتولى مرتين، والديمقراطيون كثير منهم لم يتولوا إلا مرة واحدة، منهم كارتر وانهزم أمام ريغان. هذا الكتاب كتبه بعد الثورة الإيرانية، وسنتكلم بالإنصاف عن هذا الأمر، وفقط للذكر لتعلموا عالم الجاسوسية وعالم الغرب ما الذي يحكمه، في أواخر عهد كارتر قبل أن يبدأ التصويت للولاية الثانية، نشأت مشكلة الرهائن الأمريكيين في السفارة الإيرانية، فيقول بسام أبو شريف: اتصل ريغان بعرفات، أرسل له مرسالًا، وطلب منه رجاءً خاصًا لأنه علم أن كارتر، سأل مستشاريه: من ممكن أن يحل لنا مشكلة الرهائن؟ قالوا له: ياسر عرفات، رجل قريب من الخميني، وطرد السفارة الإسرائيلية، وأحضر السفارة الفلسطينية، وجلس مع عرفات وأكل معه زيتون وزيت، فلما سمع ريغان بأن كارتر أرسل لعرفات لحل المشكلة ولو حُلّت المشكلة من قبل كارتر لكانت عاملًا مساعدًا لوصول كارتر للحكم مرة أخرى، خاصة أنه سقط الخيار العسكري لما سقطت الطائرات التي ذهبت لاستنقاذهم، ما يهمنا أن ريغان أرسل لعرفات يعده بالمال وبرفع درجة التمثيل والقربى مع المنظمة فقط إن توقفت مساعيه لئلا يطلق الرهائن، تصور الرئيس الأمريكي!

الأصل أن الرئيس الأمريكي يسعى لإطلاق الرهائن، سواء انتُخب أم لا، لكن هو سعى لعدم إطلاق الرهائن، حتى تعلموا أن هؤلاء لا يقف أمام شهواتهم شيء، حتى الشعوب التي يحكمونها.

نرجع لنقطة مهمة جدًا في هذا الباب، أن الغربي يُدرك الإسلام بطبيعته قبل الذي نراه من حضور المسلم لأرض الصراع، وما هي عوامل القوة فيه كما ذكرها الكونت وغيره، لكن السؤال الذي يجب أن نسأله لأنفسنا: كيف اكتشف الغربي عوامل القوة في هذه الأمة لأن تكون هي المصادمة لحضارة الغربي الحاضرة في التاريخ في هذه الأيام؟ هذا الذي يجب أن نسعى لنعرفه لأننا إن أدركنا هذا،

إن علمنا ما هو السبب علمنا ما الذي يقابله من صنع الجواسيس من اللحى والصحفيين وغيرهم، والقوانين التي تُبذل من أجل إماتة هذا العنصر الذي به يتم تشكيل رمح الحضارة الإسلامية المصادمة لحضور الحضارة الغربية.

القضية بسيطة رياضية وسهلة، علينا أن نعرف كيف اكتشف الغربي عوامل القوة في أمتنا، حتى نحضر للتاريخ، هذا العربي مُهان لا قيمة له، كيف شقَّت عين هذا الغربي ذكاءً، دراسة، ملاحظة لأن يدرك أن المعركة القادمة مع هؤلاء الهمج الأغبياء الذين ليس لهم قيمة، لكن هذا يمكن أن يشكل المعركة القادمة ضده، ما هي العوامل؟ علينا أن نكتشفها من كلامه، وحين ندرك هذا السبب ندرك أين توجهه في حرب هذه النقطة، هذه البذرة لئلا تقوى وتصعد.

ما هي عامل القوة في هذه الأمة؟

العامل الوحيد ليس هو الصلاة، كنا ونحن في التبليغ نعتقد أنهم يضعون لنا لحم خنزير في الأكل حتى إذا دعونا لا يُستجاب لنا؛ لأن عامل القوة لدينا هو إجابة الدعاء، تصوروا أن الغربي يدرك أن من عوامل القوة لدينا الدعاء! لا قيمة لهذا الكلام، هذا كلام نرضي به أنفسنا، مثل لما رابين قال: "أعدى أعدائنا السلفيين"، وكأن تحقيق الكتب سيصنع زوال إسرائيل!.

كلمة "السلفية" عند رابين يعني بها "الإسلام"، مقابل "الإسلام المعتدل"، تعرفون الإسلام المعتدل يعني إسلام المتعريّات وإسلام شرب الخمور ولعب القمار.. فالسلفية هي الإسلام، فالسلفية عنده هي حماس!، نحن هكذا نفهم الأمور لجهلنا، فعوامل القوة لدينا – كما يطرحها خبراء الغرب من زعماء أمنيين وزعماء سياسيين– أن عامل القوة في نبتة هذه الأمة لتقوى شجرة مصارعة لحضارتهم إنما **هي عقيدة العزة والاستعلاء على الغير**.

وهذه علمنا في وقت من الأوقات بالرصد بأنها أقوى قضية تُحارب، وأجلى قضية تقاتل في الغرب، ومن ذلك نشوء "الإسلام الوطني"، على الهامش، ماذا يعني "الإسلام الوطني"؟ يعني كما يوجد إسلام مغربي، يوجد إسلام مصري يوجد إسلام أمريكي، يوجد إسلام بريطاني، يوجد إسلام أسترالي، وهذه صراحة تقال! وذلك لتدجين الإسلام ضمن هيكل الجاهلية.

الآن كل الحرب تقوم على هذا: "إياك أن تشعر بالاستعلاء على غيرك"، **الاستعلاء هو مادة صناعة الحضارة**؛ لأن الحضارة تعني الحضور، وأنت ليس عندك مادة الظهور على الخصم، فأنت تجلس في مكانك، لكن وجود التطلُّع الذي يدفعك به دينك وإيمانك لأن تكون سيدًا على الكون هو الذي يصنع حضورك في العالم.

هذه يجب أن يُقضى عليها، والدولة القُطرية تمهّد، والمشايخ يقومون بالحرب عليها، والإسلام المعتدل والكلام الذي يُقال، كله حرب على هذه النبتة القوية التي كانت من أوائل ما غرسه الإسلام في المسلم الصحابي في مكة، والدليل قوله ﷺ: (كلمة تدين لكم بها العرب، وتُؤدِّي العجم إليهم الجزية)، من أول يوم يقول: (لا إله إلا الله) وعينه على أن تصبح حاكمة على العالم.

أعجبني مرة مدرب جزائري، أنا للذكر أسمع كل شيء وأقرأ كل شيء، لا تعيبوا علي، ولما الناس يمدحونني يقولون: ما شاء الله يقرأ كل شيء، لما يذمونني يقولون: ما شاء الله يقرأ الجريدة من الخلف ويقرأ الأخبار الرياضية قبل الأخبار السياسية! مدحًا وذمًا، ومن صور الهالة والتخلف أن يُمدح الشيخ بقول: "وبفضل الله كان لا يقرأ الجرائد" هذه أنا سمعتها عن شيخ، هذا يريد أن يغير العالم دون أن يقرأ الجرائد!

ولذلك تذكرون الصراع على فقه الواقع؟ مرة نشأت في إحدى المعارك في أمتنا، وتعجب أن هناك ثمة أمة من الأمم تؤمن بنشر دينها وبعزة إسلامها، وتبحث في قضية هل نفقه الواقع أو لا نفقهه!، إذا وصل النقاش إلى هذا المستوى دلّ على الانحدار.

المهم في لقاء تلفزيوني مدرب جزائري أحضروه يتلكم عن مشكلتنا، لا أذكر سبب هذا الحوار لكني أذكره تمامًا وأنا في السجن، يقول له: لماذا لا ينتج عندنا فريق دولي من اللاعبين الدوليين في العالم؟ فقال له: الطفل البرازيلي -هذا من الدراسات النفسية- وهو صغير قبل أن يعرف كيف يحرك الكرة يعلمونه أن البرازيليين هم أسياد الكرة في العالم، فهو منذ أن يكون صغيرًا يتعلم أنه سيد العالم في كرة القدم، بعد ذلك خذ الجانب الذي يمكن أن يصل إليه، أما أنت أمك تقول لك: "يا ابني احفظ راسك أنت بدك تحابه دول؟!، يا ابني العين بدها تجاري المخرز، يا ابني هاي قراية عالمية كبيرة ما الك فيها"، ويمسكك مسؤول الأمن يقول لك: أنت رويبضة، من أنت!؟

فبهذا تعرف كيف تنشأ النفوس؛ يقولون لك: أغلق باب بيتك ودعك مما خارجه!، وليتك إذ دخلت بيتك فرغت خصومة الخصم منك، بل هو يلاحقك في بيتك مع زوجتك وابنك وفي عقائدك وفي أفكارك وفي مالك الذي أجهدت نفسك في الحصول عليه، ليته تركك!

ما هو عنصر القوة في الأمم؟ نظرتها أنها لا بد أن تحضر نفسها هذا واحد.

النقطة التي تكشف لنا هذه النقطة، أن النصر حين يأتي رجل شيخ معمّم، قائد، صحفي، مفكر، يقول: "نريد أن نكون كالعالم من غير شعور الاستعلاء والعزة الإيمانية" فاعلم أنه جاسوس؛ لأنه يريد أن يُميت هذه النبتة العظيمة التي بناها الإسلام، ومن أول البناء القرآني للمسلم الصحابي رضي الله عنهم جميعًا.

النقطة التي في هذا الباب وهي مهمة جدًا عبارة صغيرة، وهي كلمة مهمة قالها لينين، أقرأها لكم بلفظها، وكما قال علماؤنا: "الحكمة ضالة المؤمن".

قال: "**العنف هو الدَّاية للتاريخ**"؛ الداية المرأة التي تقوم بعملية التوليد، العنف هو الداية الذي يكون التاريخ، التاريخ لا يصنعه الفلاسفة وإن كانت أفكارهم لا تُصنع إلا من خلال الآلة العسكرية، والدين لا يصنع الأمم إلا بوجود آلة عسكرية تخدم هذا الدين. فالتاريخ إنما الذي يستولد منه، إذا أردنا أن نصنع التاريخ وأن نولِّد منه الحقائق يجب أن يكون هناك ثمة عنف، والتاريخ شاهد على هذا؛ أمريكا -هذه العظيمة- لم تكن لتكن موحدة إلا بالعنف، أوروبا لم تصل لهذا النظام من العشرية الرابعة من القرن الماضي، - الأستاذ تقي الدين الهلالي -رحمه الله- يقول: "الأربعينيات والخمسينات هذه خطأ لغوي، وإنما الأصل أن تقول العشرية الرابعة العشرية الخامسة من القرن الخامس السادس العاشر"، وهو إمام لغة حجة-.

القصد من العشرية الرابعة من القرن الماضي وأوروبا تمشي ضمن سياق، ما الذي صنعها؟ الحرب. الآن العالم يريد أن يصنع وجوده بالعنف، بعد العنف ينادي بالسلام، دولة إسرائيل قامت بالعنف، بعد الاستقلال تدعو إلى السلام. السلام يكون بعد أن يستقر وضعك أنت، لكن وأنت مسحوق السلام مادة مُحبِطة لك في طلب الحقيقة أو طلب الحقائق أو طلب الحقوق، تُميتك تقول لك اجلس!

ولذلك لا بد من هذا الأمر، وهذا الكاتب يؤكد لنا هذه الحقيقة **بأن الأمم لا تُصنع ولا يمكن أن يكون لها حضور إلا من خلال الدبابة**، يسمونه ما يسمونه المهم من خلال القوة العسكرية الحاضرة.

النقطة المهمة في هذا الكتاب أن هذا الكونت الفرنسي عندما ذكر لنا قصته مع ريغان، ماذا اقترح له من أجل تدمير الجيش الأحمر الغازي في أفغانستان؟ الأناجيل والمخدرات والصحافة، ألا تجدون هذه المفارقة الغريبة؟ يريد أن يُشربهم المخدرات ويريد أن يعطيهم الأناجيل، وهذا لا يغني فيما يقوله هو من وجود المعركة الحقيقية الأمنية، يريد أن يعطيه الإنجيل أفكار من أجل أن ينشره مقابل الإلحاد الذي عليه الاتحاد السوفييتي، ويريد أن يعطيه المخدرات ليصنع منه عاهة لا قيمة لها، ويريد أن يغير فكره عن قادته ليصنع الثورة بعد

ذلك عن طريق الصحافة، ولكن هو ليس بريئًا في المعركة، يعطيه الإنجيل أي الإيمان كما يتصور هذا الكونت صاحب العائلة الارستقراطية ويعطيه كذلك المخدرات!

ولذلك تعجبون جدًا هؤلاء الشعب الأصلي في أستراليا عندما تذهب عندهم، تجدونهم ليل نهار في حالة تحشيش ومخدرات، السؤال من الذي نشرها عندهم؟ هذه تحتاج إلى رصد. ومن غرائب الأمور أن هناك عظيمة أقامتها بريطانيا ضد الصين، حرب معلنة وليست سرية، والإعلان العام لها هو إجبار الصين على فتح أسواقها من أجل الأفيون، وهي حرب تاريخية تسمى (حرب الأفيون)! الأساطيل البريطانية تغزو سواحل الصين من أجل فتح أسواقها من أجل نشر الأفيون والمخدرات!

هذا جانب يجب عليك أن تعلمه أن **المعركة ليست بريئة في شيء**، هذه الصورة الجميلة التي تراها أمامك في التلفزيون لرجل يلبس الجرافة وجيّد ويبتسم أو يقدم لك امرأة، لأنه عادة الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض يكون امرأة وزارة الخارجية امرأة والبنتاغون امرأة، والمتكلم باسم الجيش الإسرائيلي امرأة، والمتكلم باسم الشرطة الإسرائيلي امرأة!، وهم يقولون: هذا مهم جدًا لأن الرجل صورته العنف، لكن كيف تتحدث امرأة عن العنف!؟ لا يُتصوَّر منها إلا الرقة، فحتى الوسيلة التي تستخدم تعطي عبارة الرقة، لذلك يقولون: تكلم بلطف ولكن إذا ضربت اضرب بقوة، وفي الحقيقة هذه طريقة أصحاب الدعوة إلى الله -عز وجل-.

الأمر الآخر في هذا الكتاب **وهو قضية الحدائق الخلفية للدول الغربية وأمريكا**، وهذه كان يمكن أن تُشرح بمشقة شديدة جدًا قبل الحرب على الإرهاب، كان يمكن أن نبذل جهدًا كبيرًا في شرح ما معنى الحدائق الخلفية؟ الحدائق الخلفية هي كلمة مترجمة عن البريطانية، أنتم تعلمون أن بريطانيا إلى الآن بعض المناطق لا يوجد في البيوت القديمة بيت خلاء! لا تظنوا أنهم متطورون! كانوا يستعملون الآنية بدلًا من بيت الخلاء ثم يُلقون ما فيها في اليوم التالي في الحديقة الخلفية! هذا معنى الحدائق الخلفية.

فكلمة "الحديقة الخلفية" هذا المصطلح الذي يستخدمه الغرب، الغرب لا بد له دومًا من حديقة خلفية يمارس فيها ما لا يستطيع أن يمارسه على شعبه. قديمًا كانت موجودة ولها صورها الكثيرة والفنية الكبيرة، لكنها في هذا الوقت ضرورة من أجل القوانين التي فُرضت في تلك البلدان بعد الحرب العالمية الثانية، من أجل إيقاف الحروب بعد أن دمرهم هتلر، وأدركوا أن التمايز في داخل المجتمع الأوروبي سيصنع ثورات وهتلرًا جديدًا، ويحيي الثارات، فهم قالوا لا بد أن ننهي هذا الأمر، وسيطرت اليهود فدعوا إلى الحرية والمساواة والحقوق العامة، بدأوا يرتبون أوضاعهم الداخلية وكلها إنما صُنعت من أجل الداخل من أجل عيون اليهود.

ثم جاء المسلمون واستفادوا منها فبدأوا ينقلبون كآكلي آلهتهم، كالعربي الذي كان يأكل آلهته حين كان صنع صنمًا من تمر فإذا جاع أكله، فالغربي هو يصنع آلهته فإذا جاع أكل آلهته وانقلب عليها هذا سهل جدًا، لكن القوانين التي صُنعت لهم هي تحدُّهم من أن

يبسطوا أرجلهم القذرة في داخل مجتمعاتهم فلا بد من حدائق خلفية. مثال لذلك: (CIA) هذه ممنوع بالقانون أن تعمل داخل أمريكا، ولما أصدروا أمرًا بتكوين (CIA) –وهي وكالة المخابرات الأمريكية- كان بندًا واضحًا صريحًا صارمًا قويًا من قبل الكونجرس ومن الشيوخ: ممنوع أي ممارسة ولو قليلة في داخل الأراضي الأمريكية، لأن عالم الاستخبارات عالم قذر وهم يريدون حماية شعوبهم من هذه القذارة، فلذلك ممنوع أن تعمل في داخل الأراضي الأمريكية، هناك عندهم القوة الفيدرالية، ولما حدثت ما حدثت من أهوال، وجدوا أن الخصومة كبيرة بين الشرطة الفيدرالية، الشرطة الفيدرالية هي الشرطة العامة التي لها سلطة على كل أمريكا، فهناك كل ولاية لها سلطتها، وكانت صراعات بينهم في الداخل والخارج ويخبؤون فاكتشفوا خللًا فأوجدوا ما يسمى بـ(دائرة الأمن الوطني) من أجل التنسيق بينها، ولم يغيروا القانون، إلى الآن ممنوع (CIA) تتجسس داخل أمريكا، يعني لو واحد من (CIA) تجسس داخل أمريكا فهذا ممنوع ويُعاقب عقوبة شديدة، هذا معناه أنه لا بد من الحدائق الخلفية.

تعرفون أن أمريكا بالقانون ممنوع وجود وزارة الإعلام، بمعنى يُمنع أن تتبنى الحكومة الأمريكية أو أن تنتج صحيفة أو تلفزيونًا تابعًا للحكومة، حتى لو كان للدفاع عنها، ولذلك إلى الآن (قناة الحرة) التي تُبث للبقر للأميين –للجوييم- ممنوع أن تبث داخل التراب الأمريكي. ولذلك الحرة هذه أنشأوها ضد هتلر في الحرب العالمية الثانية، انشأوا قناة إذاعية ضد النازيين والفاشيين وسموها القناة الحرة، ولما البنتاغون قام بدور لعدم وجود وزارة إعلام يمكن أن تنتج قناة الحرة وصحيفة الحرة، وبالتالي يُنشئها البنتاغون فهي جزء من المعركة، فهذا لا بد له من وجود حديقة خلفية.

السجون السرية في الخارج، والاغتيالات في الخارج، حامل الإناء الوسخ يرميه في الحديقة الخلفية!

ولذلك هم يتعاملون مع العالم على هذا الأساس؛ أن الحلفاء هم حدائق خلفية لرمي القاذورات التي ينتجونها ضد خصومهم أو ضد الشعوب الأخرى، لو اكتشفوا أن صحفيًا واحدًا فقط في أمريكا يعمل مع الحكومة الأمريكية فهذا ممنوع، ولذلك هو لما أراد أن ينتج صحفيين ذهب إلى باكستان إحدى الحدائق الخلفية.

يجب أن تفهم هذا في الجاسوسية أنه لا بد من حدائق خلفية لهذه الممارسات، ومن هنا فإن دوائر الأمن بالنسبة لتلك الشعوب لا يُعرف عنها شيء، لا يعيشون معها، لا يعرف معنى (CIA)، ولا تظنوا أن لديهم تلك الثقافة العظيمة، فالإنسان الغربي إنسان جاهل إلا في شيء واحد كيف يأكل ويشرب وينام وما هو الرصيد، صدقوني سألت كثيرًا عن بعض الشخصيات التي صنعت بريطانيا، لا يعرفها البريطاني.

مرة أحد الصحفيين ذهب إلى أناس يقيمون حفلات في العراء، ويظلون يرقصون طوال الليل وينامون في أمكنتهم، لأنها تكون في العراء ومفتوحة والجو حار فبعد أن يسكروا ويحششوا والمخدرات، أغلبهم ينام مكانه في العراء، فذهب صحفي يسأل هؤلاء ما اسم رئيس وزراء بريطانيا؟ لا يعرفون من هو!

هناك نقطة مهمة، **ما الذي أحدث بعض الهزّات الغربية؟**

هذه للتاريخ ويجب أن ننتبه لها، وتحتاج إلى رصد دقيق. **لماذا خرجت هذه الكتب؟** بعد سقوط الاتحاد السوفييتي ما الذي جعلهم يتنبهوا؟ لأن الحرب العالمية الأولى معروفة، والحرب العالمية الثانية معروفة، الحرب العالمية الثالثة هي الباردة الصامتة، الحرب الرابعة هم يتصورونها ضد الإسلام، ما الذي علق الجرس؟ هو الثورة الإيرانية وثانيًا: حادثة جهيمان؛ فإن صعود الخميني باسم الإسلام جعل الغرب —وعلينا أن نعترف بهذا بغض النظر عن قولنا أنها إسلامية حقيقية أو غير ذلك، هذا موضوع آخر نناقشه عقائديًا، ولكن يجب حين قراءة الظاهرة أن نقرأها بتجرد– أن هناك شخصية "شيخ مربي لحية" صعد إلى سدة الحكم وأسقط الخط الأول في الدفاع عن أوروبا ضد روسيا؛ لأن الشاه كان يعتبر خط الدفاع الأول للغرب ضد روسيا، فسقوط الشاه وصعود واحد مربي لحية يدعي الإسلام، ما هو الإسلام؟ ولا شك أنه سواء كان شيعيًا أو كان خارجيًا أو كان سنيًا كلهم يؤمن بعزة الإسلام –إلا مشايخ الجاسوسية–، فلا يوجد مسلم لا يستشعر عزة الإسلام، أو من ينتسب إلى الإسلام حتى لو كان زنديقًا في عقيدته، لكن مجرد الانتماء للإسلام يعطيه شعور العزة، فظهور هذه الظاهرة أحدث ردة فعل كبيرة في داخل الغرب، بأن يرصد فعالية الإسلام في العالم.

وهنا نقول بمسألة ربما يُسأل عنها البعض؛ **لماذا نرى البعض ممن انتسب للجهاد** –بين قوسين مع التنبيه عليها بعلامات تعجب كثيرة وراء كلمة الجهاد– **ينقلبون إلى كونهم شيعة؟** يعني نحن نرى مثلًا جماعة الجهاد الإسلامي نجد أن كثيرًا منهم قد تشيع، وأن انضمامهم إلى إيران، ونجد أن كثيرًا ممن يؤمن بالجهاد باعتباره حركة ثورية لا باعتباره عقيدة إسلامية، ولا باعتباره عملًا تعبديًا نريد أن نبسط به الإسلام وأن نعيش به الإسلام وأن نحيي به الكلمة التي أمر الله –عز وجل– بإحيائها، لماذا ينقلبون في ظروف ما؟ السبب أن الكثير منهم أتى للحركات الجهادية من منطق الثورة لا من منطق التعبّد.

مثال ذلك أنتم تعرفون شخصية موجودة اسمه منير شفيق، هذا رجل كان نصرانيًا دخل مع عرفات فصار شيوعيًا، ثم صار مسلمًا، عندما تسأل مثله ما يسمى بكتيبة (الجرمق) التي عملت عمليات ضد اليهود واغتيل قادتها، فلماذا جاؤوا إلى الإسلام من أي منطق؟ من منطق كونه عامل قوة ومؤثرًا في إيجاد ثورة الإنسان ضد واقعه، لا من المنطق التعبد؛ ولذلك هم لا يعيشون الجهاد بمفهومه

الإسلامي الصافي، يعيشونه على ما تقدم من كونه الإسلام النافع، فكثير منهم جاء إلى الإسلام من هذا المنطلق، والكثير ممن رأى في الخميني عامل ثورة وهؤلاء عادة يسقطون في منتصف الطريق، فنحن رأينا من أيد حسن نصرالله باعتباره معارضًا لليهود وهذا السبب.

هذا يجب علينا أن نرصده وكذلك نهتم له؛ لأن الإسلام له قادة على صورة من والوضوح والدين والتعبد والإخبات لله، ومن هذا المنطلق ينطلقون في جهادهم ودعوتهم وأعمالهم وصراعهم وإحساسهم للناس وتغييرهم للواقع، ولكن لا يمكن أن ينزل الإسلام إلى عمق الشعوب حتى ترى هذه الشعوب أن الإسلام يحقق أشواقهم في حياة صحيحة. انتبهوا للفرق بينهما؛ **لأن على العلماء والقادة والذين يسيّرون حركة الإسلام في الدعوة والجهاد والإصلاح، يجب أن يكون المنطلق لهم التعبد لله رب العالمين،** نحن عبيد لله نمارس عبادة ونحتاج إلى عونه ودينه، حيث أمرنا نأتمر حيث نهانا ننتهي، هؤلاء يجب أن يكون الأمر لديهم واضحًا بهذا الاتجاه، **لكن لا يمكن لهذا الدين أن يُحدث أثره في عالم الجموع حتى تفهم هذه الجموع أن هذا الدين يحقق لهم أشواقهم ويحقق لهم مطالبهم في الحياة.**

ليس مطلوبًا أن يأتي إليك كل الناس من منطق التوحيد، وبالتالي تخلّيك عن قضايا الإسلام وقضايا الأمة هو تخليك عن الإسلام، لأنه سيملؤها غيرك، لأنه لو جاء للأمة من يملأ هذه الحاجات من غير الإسلام سينطلقون إليه حتى لو كان شيوعيًا، وأكبر دليل القضية الفلسطينية، الفلسطينيون صاروا شيوعيين وعلمانيين أغلبهم؛ لأن الحركات الإسلامية تخلّت عن القضية، فهو يريد أن يعود إلى أرضه ويريد أن يقاتل، لو حمله إسلامي لذهب معه وارتفع وخلال مسيرة الحركة أنت تسيّره إسلاميًا وترفع درجته، كما فعل الصحابة – رضوان الله عليهم– حين دخل الناس في دين الله أفواجًا؛ فإنهم ارتفعوا بإسلامهم خلال مسيرة الإسلام، ولم يقولوا لهم: لا تأتوا إلينا ونحن فقط من أجل الدعوة إلى الله ولا يهمنا أن نعيش أشواق هذه الشعوب ولا متطلباتها ولا حياتها!

وأكبر دليل يوسف –عليه السلام– فإنه دخل إلى قيادة مصر من خلال استجابته لحاجة الشعب المصري وهو الرؤيا وكيف يصلح الحال، فعلموا قدرته على الإصلاح فصار إمامًا، وقال الله –عز وجل–: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا} قال ابن كثير: "فإنهم أسلموا مع يوسف –عليه السلام– إسلامًا فيه ما فيه وذلك لأنه كان ملكًا عليهم".

هذه نقطة ننتبه لها فإن كثيرًا ممن جاؤوا إلى الإسلام، صاروا ما صاروا بعد ذلك ولكن جاءوا من خلال رؤيتهم لهذه الثورة، وللأسف نحن رأينا الناس كيف رموا أنفسهم في أحضانه، ما هو السبب؟ السبب أن هذا الخميني يتكلم عن القضية الفلسطينية، أن حسن نصر الله يتكلم عن القضية الفلسطينية، تذهب للشيخ ماذا يقول لك؟ يقول لك أول شيء يا ابني اذهب وأصلح نفسك، قم الليل ثم فكر في القضية الفلسطينية، وهذا صحيح ولكن هذه التقدمة والتأخير هذا باطل.

النقطة الثانية –وهو يشير إلى قضية الخميني– التي جعلت الغرب يهتم لقضية فاعلية الإسلام هي حركة جهيمان، وهذه تحتاج إلى دراسة وكلام، وربما نتكلم وأحد الكتب التي يجب نقرأها من الألف كتاب هو (رسائل جهيمان) المنشورة، ولكن هذه الثورة وهذه الحركة في داخل المسجد جعلت الغرب يقرع طبول الخطر بأن هناك قوى إسلامية يمكن أن تخرج إلى الصراع.

طبعًا هناك رصد لقضية الإخوان المسلمين في زمن جمال عبد الناصر موجودة، لكنها كنت على استحياء ولم تكن ظاهرة في قضية الصراع مع الغرب، ليس فقط الأفكار لكن رؤية الجماعات، من هنا نشأت فكرة "النبي المسلح".

النقطة التي ربما نختم بها، ما الذي يخوّف هذا الرجل؟ ما الذي ينقص هذه الجموع المسلمة؟ ما الذي يخوف هذا الكونت الفرنسي الارستقراطي الخبيث من هذه الأمة من أن تعود إلى فاعليتها؟ وجود القائد، وشرط هذا القائد هو الإبداع وهذا معنى كلامه.

أهل دراسات الحضارات الإنسانية يقولون: هناك تبادل، كما يقول الله –عز وجل–: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} تداول وهم يرصدون هذا، يقولون الأمة الآن تتداول، فسنة التداول قائمة، أهل دراسة الحضارات يقولون: هناك تداول حضاري بين دول الجنوب والشمال، فهم يعرفون أن التداول الحضاري سيقع.

فيقول باللفظ: "**إن الجنوب اليوم يقوم بصنع قائد يعوزه التفكير السليم، لسنا معتادين على التعامل معه**" [ص ٣٥].

إذًا الذي ينقص هذه الجموع؟ **هو قائد**، هذا القائد أنا أراه دائمًا في آية وأرجو أن تُفهم على حقيقتها، ماذا يقول المؤمن في دعائه في سورة الفرقان؟ هذا القائد في المفهوم القرآني، موجود ملامح عظيمة لكن هذه الآية أعظم وضوحًا في صناعة القائد القرآني؛ {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} متى يكون المرء إمامًا للمتقين؟ حين يكون هو إمامًا في التقوى؛ أن يبرز بتقوى الله، والتقوى بالمفهوم السني وليس بالمفهوم الصوفي، المفهوم السني الصحيح الكامل لشروط ما قاله القرآن عن الإنسان التقي.

فإذًا المطلوب من هذا الإمام أن يكون تقيًّا بل إمامًا في التقوى ليحصل به تغيير حركة التاريخ حول مركزية الإيمان ومركزية التقوى، حتى يكون الصراع عليها كما قال الله في سورة الحج: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ}؛ فلا بد أن يكون بجلاء التقوى التي يطرحها من أجل أن يصنع معركة الإيمان، معركة التقوى.

إذًا هو يقول: الأول أن يكون إمامًا، ويقول: "لسنا معتادين في التعامل معه"، يعني رجل مبدع، يطرح هذا الكونت أنهم يمتلكون قوى وبوارج وحرب وسلاح وجنود وتكنولوجيا إلخ، هذا فهمك؛ يجب أن تقرأ الكلمة باعتبار واقعها، ما هي عوامل القوة ما دام كل

هذا موجود عند الغرب؟ ما هي عوامل القوة التي يمكن أن تنشئ هذا القائد من أجل مكافأة هذه القوى التي لا يمكن في زمن قصير أن تبرز فيها؟

هو يؤمن أن طريقة الصراع هي العنف، ويؤمن بأن الجاسوسية هي كما يقول: "**ميادين القتال الخاصة بالعقل**"، هو يتكلم في كتابه عن ميادين القتال وهو قتال الخاصة بالعقل، إذًا هي حرب العقول، قتال ومعركة، وأنا أحتج دائمًا بقوله "حرب الدعاية"، يقول الله – عز وجل–: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا}، ما سبب نزول هذه الآية؟

هذه الآية نزلت في صراع المسلمين أمام دعاية قريش عندما قتل الصحابة رجلًا قرشيًا في الشهر الحرام، القرآن استخدم لفظ القتال، حرب قريش في الدعاية ضد النبي ﷺ في المدينة، لفظ القتال في معركة الدعاية ضدهم، وذلك بضربهم في شيء تقدسه العرب وهو الأشهر الحرم، أن هذا رجل يهين الأشهر الحرام فسماه القرآن: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ}؛ **لأنه في الحقيقة إذا خسرت معركة الدعاية خسرت معركة الحرب، وإذا ربحت معركة الدعاية ربحت معركة الحرب**، ولا يمكن أن تقوم بالحرب حتى تجيّش، ولا يمكن أن تصنع التجييش من غير دعاية ومن غير إعلام، فمعركة الإعلام معركة مهمة.

الآن نعود إلى السؤال الذي طرحته وهو مهم جدًا، ماذا يمكن لهذا القائد الفذ الذي ينتظره الجنوب؟ ماذا يُنتظر منه وهو يعيش معركة العقل –كما يسميها– التي بها سيفرض نفسه مقاتلًا في المعركة أمام قوى لا يمكن اللحاق بها في الغرب؟ هذه النقطة البحث عنها...[٦]

هذا ليس تحقيرًا للعقيدة الواسطية ولا التدمرية ولا الأصول الثلاثة، لكن هذه لا تصنع ما نريده من هذا الرجل، هذه الشخصية التي تستطيع أن تثوِّر قوى تفرض عالم الجنوب –المسلمين– في الصراع ضد الخصم لصنع درجة المكافأة في القتال بعوامل إبداعية تكافئ ما يملك الغرب من قوى وأدوات من الصعب جدًا أن نلحقه بها ما لو سرنا معه سيرًا معتدلًا.

هنا يأتي دورك، حتى يوجد هذا القائد، وقد وُجد من يقوم بذلك، ويمكن أن نعتبر بصراحة عسكريًا –لا مدحًا ولا ذمًا أنا فقط أرصد–، الحقيقة أن ضربة ١١ سبتمبر هي جزء من الإبداع، والغرب لم يتصور أبدًا ولا يوجد في ذهن أي عاقل مبدع أن يحول طائرة مدنية إلى قذيفة تدمّر برجًا. يعني الآن لو أردنا صاروخ بمفهوم الصواريخ الموجودة في روسيا أو أمريكا، ما هو الصاروخ الذي يمكن أن يدمر هذين البرجين؟ ماذا نحتاج؟ أنا لست خبيرًا في هذا البتة، لا أعرف في هذه العسكرية شيئًا، لو قيل لخبير عسكري يريد أن يسقط

---

[٦] انقطاع في التسجيل.

هذا بآر بي جي، فأن يأتي رجل ليبدع هذا الذي نحتاجه، فما يحتاجه العالم الإسلامي هو هذا الجانب من الصراع، هذا هو الإبداع الذي نحتاجه.

الأمة جاهزة، عملية التربية الداخلية؛ تنفي البدعة وتنشر السنة، وأنّ هذا زمن الدولة العثمانية ونعلّم الناس الدين ونردهم عن الشرك، هذا كله موجود في داخل حركة الأمة، لكن لصنع الأمة الوارثة هذا الذي نحتاجه وهذا الذي نريده فقط، هذا هو الإبداع، وهذه النقطة هي التي بها -إن فهمناها على صورتها وحقيقتها- نعرف أي نوع من الجيل الوارث القائد الذي يمكن أن ينطلق بالأمة، لأنه في الحقيقة لا يمكن أن يكون شخصًا واحدًا.

يعني من هو العالم الذي يعين هذا العالم؟ من هو العالم الذي يعيد هذا القائد؟ من تحتاج الفتوى لصناعة الأمة الوارثة؟ ماذا نحتاج من خطاب في دروسنا أي خطاب نتكلم فيه؟ أي عقل نصيغه؟ هناك شخصيات وراثة تكون هي القائد لهذه الأمة، بفرض نفسها لوراثة هذه الحضارة المتساقطة المتهالكة حتى في داخلها.

فيمكن أن نقول ممكن واحد هكذا يصنع هكذا صناعات، يبدع هكذا إبداعًا، ومن ذلك مثلًا العمليات الاستشهادية، لا نسميها عمليات انتحارية على طريقة الخصوم ولا استشهادية على طريقة الموافقين –لأننا راصدون لا دخل لنا في الموضوع–، نسميها "القنبلة البشرية"، هذا جزء من المعركة، من الإبداع الذي وُجِد وعاد للصراع.

نقطة على الزيادة، من فرضيات نيكسون في (نصر بلا حرب) هو نشوء المعركة في أرض الخصم، هذه لا يطرحها هذا الرجل لكنها جزء من الكلمة التي قلتها وهي "الحدائق الخلفية"، فيمكن أن توضع في هذا الإطار، ولكنها مهمة جدًا وهي جزء من إبداع القائد القادم لهذا الجنوب ليصنع الأمة الوارثة أي الحضارة الوارثة لهذه الأمة، وبهذا نختم إن شاء الله.

هذا الكتاب خاتمة يصلح كما قلنا في (نذر العولمة) أن هذا الكتاب فيها الأخبار والأحداث لقضية العولمة الاقتصادية الخادمة للحروب إلى غير ذلك. هذا الكتاب نموذج لأحداث متعددة يطرحها هذا الرجل، يمكن أن تشكّل هذه الرؤية العامة في صراعنا مع الآخر، يمكن أن نرصد نظرة الأوروبي والفرنسي أن عندهم شعور الافتخار والعزة، والاحتقار للأمريكي، كون الأمريكي لا عِرق له، ويمكن أن نرصد هذا الافتخار الفرنسي ضد الأمريكي، كيف يتعامل مع الأمريكان تعامل احتقار أنهم لا يقدرون، وخصوصية وكيفية التعامل مهمة جدًا؛ الغرب في تعامله معنا تعامل أوروبا غير عن تعامل أمريكا، أمريكا إلى الآن لا تشعر بالخطورة منا، يقولون لك اقطع الحبل الواصل للطائرات القادمة، ضع أرقامًا وأسماءً وتنتهي المشكلة، لكن نحن جيران للأوروبيين، يوجد خمس ملايين تركي في ألمانيا، أكثر من خمس ملايين جزائري في فرنسا، وأكثر من خمس ملايين أو أكثر أو عشر ملايين مسلم في بريطانيا، هذا بخلاف أمريكا فهي

بعيدة، فالغربي له حساسيته في هذا الموضوع ويحب أن يتعامل سرًّا، بخلاف المؤسسة الأمريكية فلها أساليبها ويمكن أن نستطلع هذا من خلال هذا الكتاب.

وبهذا أختم، وجزاكم الله خيرًا، وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

[١٣]
مناقشة كتاب (الحضارة) لحسين مؤنس

إنّ الحمد لله تعالى، نحمده سبحانه ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله وصفيّه وخليله، بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمّة وجاهد في الله حقّ جهاده حتّى أتاه اليقين، وتركنا رسول الله ﷺ على المحجّة البيضاء والطريق الواضح، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلّا هالك ولا ينكّبها إلا ضالّ.

أمّا بعد أيّها الإخوة الأحبّة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نعود بعد انقطاع دام من قبل رمضان إلى يومنا هذا، وهو انقطاع كلّفناكم فيه ببعض الأمور وبعض القراءات والكتب الّتي تحتاج إلى وقت طويل لقراءتها مثل كتاب الشيخ مصطفى صبري: موقف العقل والعلم والدين من ربّ العالمين، وهو كتاب مهم، وقراءة كتاب العواصم والقواصم لابن الوزير اليماني، فهذه كتب طويلة وتحتاج إلى قراءة مستوعبة، والقراءة المستوعبة تحتاج إلى وقت طويل، حتّى لا نفتتح هذا اليوم الّذي هو يوم تجربة للناس للحضور إلى البيت، ولعودتهم وإخبارهم عن طريق أدوات الاتصال الإلكترونية؛ فأردنا أن نفتتح هذا اليوم كتابا، صحيح هو صغير الحجم، لكن الموضوع الّذي يطرحه هو موضوع شاقّ ومتعب، وإذا وجدتم أيّ تقصير فهذا الّذي حضرّت نفسي له، وسيكون هناك تقصير شديد في عرض هذا الكتاب؛ لأنّ الموضوع عظيم، ليس لأنّ الكتاب شاقّ لكن؛ لأنّ الاستدلالات الّتي يطرحها الدكتور الأستاذ حسين مؤنس –رحمه الله– هي مواضيع شاقّة ومتعبة وأدلّتها تحتاج بنفسها إلى حديث.

موضوع الحضارة عندما يتحدّث عنه متحدِّث فإنه يستدلّ بأمم وأخبار وحوادث، والاستدلال بالحوادث والأخبار هي جزء من منظومة الدارس، كيف يدرس التاريخ؛ لأنّه كما سيتبيّن لنا أنّ الحضارة لا يمكن أن تُفهم وتدرس خارج سياق التاريخ، والتاريخ هو أحداث، زمن في داخله إنسان في داخله أحداث، وقائع في داخلها مكوّنات مادية، في داخلها مكوّنات معنوية، هذا الدارس لهذا التاريخ لابدّ أن يصبغ الحدث التاريخي بصبغته الفكرية، فإذا كان إسلاميًا سيدرس التاريخ قراءة دينية متعلّقة بالإيمان والوحي، متعلّقة بقيم الأنبياء، وإذا كان فيلسوفًا مثاليًا سيقرأها من خلال الإنسان باعتباره مؤثرًا، الفلسفة المثالية هي

الفلسفة الأعمّ والأغلب في القراءة التاريخية القديمة، بدءً بأرسطو إلى الفلاسفة المسلمين المشّائين إلى غير ذلك، حتّى ظهر هيجل وظهر ما يسمّى بالتفسير المادي للتاريخ، وأنّ الإنسان منفعل لا فاعل، يتأثّر من خلال حركة الاقتصاد، الزراعة، الصناعة، دولاب بالآلة هو الّذي يصنع القيم، فالّذي يدرس التاريخ ليس أمينًا، لا يسوق لك خبرًا لكنّه يحلّل لك حدثًا.

عندما نرى موضوع الحضارة وسنرى مكوّناتها هو موضوع شاقّ وهو يمرّ الأستاذ الدكتور حسين مؤنس، يمرّ على أخبار مئات وآلاف الأخبار من الأسماء والشخصيات والأمم والدول ويحتجّ بها، ولو أردت أن تناقشه في كلّ خبر فالكتاب يُنشئ آلاف الكتب، هل يصلح لهذه القضية أو لا يصلح، هذا الخبر الّذي يسوقه الدكتور نصرةً لقضيّته كما أن غيره يفعل ذلك هل هو كان أمينًا في النقل أم غير أمين، صائبًا في النقل أو غير صائب، أن نشرف على هذا الكتاب ليس سهلًا وسنجد أنّ ذلك شاق، وعلينا أن نصبر لما نبحث فيه ولما نعانيه من هذا الموضوع، وربّما يدخل موضوع هذا الكتاب في كتب أخرى سندرسها، مثل كتاب مشكلات الحضارة للأستاذ مالك بن نبيّ وهو أحد الكتب الّتي على اللائحة في قراءة ألف كتاب، ولا بدّ أن ندخله اليوم وليس فقط دخولًا جزئيًا بل دخولًا مهمًّا؛ لأنّ دارسي الحضارة في الواقع الإسلامي قلّة، ما هو السبب؟ السبب أنّ دراسة الحضارة هي دراسة الكليات، أنت لا تبحث في مشكلة عالم، أنت لا تبحث في مشكلة حاكم، عندما تدرس معاوية بن أبي سفيان فالدارسة التاريخية ربّما تقتضي أن تدرس شخصية معاوية لوحده، أن تدرس الدولة الأموية لوحدها، لكن هل هناك دراسة لصعود الأمم صعود أمّة من الأمم وهبوطها دراسة كلّية؟ هذه صعبة وشاقّة، فالطريقة الفقهية في أمّتنا هي المنتشرة، والطريقة الفقهية أن تقرأ الحدث كما هو وتعطيه الحكم، هو لا يتحدث عن موضوع عامّ، يعني أعطيكم مثالًا فقهيًا واضحًا.

عندما نشأت مسألة البنوك الإسلامية، كان الفقيه عندما تعرض عليه الحادثة والمسألة من المسائل فإنّما يدرسها لوحدها، هل هذه حلال أم حرام؟ فيذهب إلى الشرع ليكيّفها، لكن لا يسأل هذا الفقيه عن أثرها على المجتمع لا يبحث عن أثرها على الأمّة، ربّما هي صحيحة في ذاتها ولكنّها حينما تصبح ظاهرة عامّة يتغير حكمها، وهذا رأيناه في الموافقات، الحديث عن أنّ الحلال يصبح مستحبًا إذا انتقل من الجزئي إلى الكلّي، بمعنى أن الفعل بذاته مباح، لكنّه يكون واجبًا باعتبار الأمّة، ويكون مباحًا باعتبار الفرد لكنّه يكون مستحبًا باعتبار الجماعة، فإذًا هناك فقه يتحدّث عن الفرعيات، وهناك فقه ينبغي أن يُستحضر وهو قراءة الكلّيات، الّذي يقرأ القرآن يجد أنّ الطريقة الكلّية هي الطريقة الغالبة، ليس الطريقة فرعية، ويكفي أنّ الخطاب القرآني

هو خطاب جماعي وليس خطابا فرديّا، وحينما يتحدّث عن الهلاك في أغلبه وإن كان هناك حديث عن شخصيته كحديثه عن قارون كحديثه عن نمرود، ولكنّ الحديث الأعمّ في القرآن هو حديث عن أمم، كيف تجابه الأنبياء وكيف تواجه بالعقوبة الإلهية.

إذًا هو حديث عن كلّيات، عن مجتمع يقوم ومجتمع ينزل، عن مجتمع كيف يصعد وكيف يتطوّر وكيف يصل إلى القمة وكيف ينحدر الانحدار، هل صعوده كان سننيًا؟ ما هي أسباب صعوده؟ كيف تكوّن هذا المجتمع؟ كيف بدأ يهبط؟ هذه قضيّة كلّية ونظرة عامة ليست نظرة فردية لواحد من الناس، هذه نظرة لأمّة من الأمم وليس لدولة من الدول.

عندما نتحدّث الآن عن الحضارة الإسلامية هل نتحدّث فقط عن العصر الراشدي؟ العصر الراشدي له سماته خلافة راشد، هل نتحدّث عن الدولة الأموية فقط؟ يدخل العباسي والمماليك إلى أن نصل إلى العثمانيين وندخلهم في الحضارة الإسلامية، فالكلام عن الحضارة كلام شاقّ متعب وليس مألوفًا في داخل التراث الإسلامي، السياق التاريخي لصعود الأمم موجود، عندما تقرأ في الكتب التاريخية الّتي تسرد الأحداث تجد هذه السمّة لكنّها في أغلبها سياق فردي يتعلّق بدولة يتعلّق ببيئة يتعلّق بشخص يتعلّق بعالم، لكن الكلام عن الحضارة هذا كلام شاقّ.

من هنا مع أنّ هذا الكتاب صغير الحجم؛ لكنّه شاق ومتعب، وهو دراسة جديدة و يعترف الأستاذ حسين مؤنس بأنّ الكلام عن الحضارة باعتبارها شيئًا مميّزًا، ما هي؟ يقول: لم يكتب فيها الكثير، وهو أستاذ تاريخ مشهور ويتقن لغات عديدة، يتقن الفرنسية ودرس في ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وله دراسات متعددة، وقد اشتهر الأستاذ حسين مؤنس بقراءته للتاريخ الأندلسي، له قراءات كثيرة وذلك لأسباب هو قرأ تاريخ الأدب في قسم التاريخ، وقدر الله عز وجل له أن يذهب إلى إسبانيا وبوجوده في إسبانيا؛ اضطرّ لأن يتعامل مع قضيّة الإسلام في إسبانيا الّتي هي الأندلس، وأنشأ كتبا كثيرة ولكن أغلب الكتب الّتي تكلّم فيها عن إسبانيا هي كتب محاضرات، ألقاها على شكل محاضرات، وكانت تُسجّل له بالطرق القديمة وتفرّغ أو أنّها لأحد كان يتابع ما يكتب، ولذلك تجد فيها الكثير من التكرار في كتبه.

وله كتاب مهمّ جدًّا واسمه باشاوات وسوبر باشاوات وهو كتاب مهمّ؛ لأنّه يرصد ظاهرة النفاق السياسي واللصوصية للمجتمع الحاكم زمن عبد الناصر، ويقول بأنّ العصر قبل عبد الناصر كان فيه باشاوات ثمّ ألغيت بعد أن قامت الثورة، لكن يقول تكوّن ما بعد الثورة سوبر باشاوات؛ لأنّ هؤلاء العسكر الّذين قاموا بالانقلابات ورثوا كل أموال الباشاوات واستولوا عليها وأخذوا وأصبحوا لا باشاوات بل صاروا سوبر باشاوات، وهذا رصد حقيقي وأحضر الأدلّة إلخ.

هذا الكتاب في الكلام على الحضارة هو شاقّ من هذا النوع؛ لأنّ أدلته هي كثيرة جدًّا وكل دليل يحتاج إلى وقفة ووقفات في بيانه، ندخل في هذا الاتجاه ونرى ماذا فيه من قضايا.

أوّل بحث عادةً وهذا جديد ليس قديمًا والمفهوم نفسه، بمعنى كلمة حضارة كيف هي؟ من أيّ شيء؟ كلمة حضارة وُجدت قديمًا، يعني المتنبي يمدح بدوية يقول:

وحســـن الحضـــارة مجلـــوبٌ بتطريـــة   وأمّـــا البـــداوة فحســـن غـــير مجلـــوب

يريد أن يقول أنّ البنت المدنية تزيّن نفسها ببعض الدهون والزيوت، لكن البدوية حسنها غير مصنوع، وحسن الحضارة مجلوب أي المدينة وسمّيت المدن بالحواضر، فيقول: حسن الحضارة أي حسن المدنيات، مجلوب بتطرية بقليل من المكياج والتزيين، وأمّا البداوة فحسن غير مجلوب، يقول: أنّ البداوة ليس فيها شيء، يقول الباحثون بأنّ كلمة الحضارة لها وجود لكنّها لا تعني ما استقرّ عليه اللفظ، ابن خلدون استخدم لفظ الحضارة واستخدمها على المفهوم الذي عليه كلمة الشاعر المتنبي، وهو الحضارة بمعنى التمدّن الّتي تقابل البداوة والتعرُّب، وما ذكرته مرّة أنّ كلمة العرب عند ابن خلدون لا يعني بها جنسًا من الأجناس إنّما يعني بها طريقة حياة، يعني لما تقرأ مقدّمة ابن خلدون للأسف بعض الناس يظنّ أنّه لما يقول: العرب والعرب ويسبّ العرب هو لا يسبّ جنسًا ما اسمه العرب كما نفهم نحن، إنّما يتكلّم عن جنس حياة نوع حياة ما هو؟ التعرُّب وهو العيش في البادية بلا نظام حياة بلا نظام جامع إلخ.

والإسلام بلا شك ينهى عن التعرُّب، فكلام ابن خلدون عن الحضارة بما يقابل المدنية الّتي تقابل التعرُّب، هذا هو مفهومه، فكلمة الحضارة لا بدّ أن تُبحث والناس يبحثونها كيف تكوّنت هذه الكلمة في الغرب كيف تكوّنت في المجتمع الإسلامي، كيف تكوّنت في الثقافة الإسلامية، والأستاذ حسين مؤنس يدركها، وهنا ككتاب أرجو أن يكون هناك وقت لندرسه لشخص اسمه نصر عارف، يتحدّث عن نشوء المصطلحات وارتباطها بقيم الأمم الّتي تُنشئ هذه المصطلحات، كيف؟ هذا مهمّ جدًّا، يقول كلمة الحضارة وتعريفها شيء غائب، وفيها خلاف كثير إنّما على الجملة يقولون: هي القيم المادية والمعنوية الّتي تحضّرها أمّة من الأمم من أجل رفاهية شعوبها، هذا ملخص ما يقال فيها، أمّا ما مكوناتها فسنأتي على الخلاف فيها وسنأتي على ما عُلّق على كلام مالك بن نبيّ، وسنضطرّ إليه له حديث عن الحضارة اليوم، يقول نصر عارف: بأنّ الحضارة ارتباط الاشتقاق، فكلمة الثقافة هي أُخذت من تثقيف الرمح وتهذيبه، نحن الآن نتكلّم عن قضيّة العلوم والأدب والفنون كلّها ثقافة، عن الشعر ثقافة

المعلومات ثقافة القراءة ثقافة، العرب لماذا سمّوا هذه المعارف ثقافة؟ قال: لأنّها تثقّف —من يثقّف الرمح أي يدبّبه يصنعه يزيل عنه الشوائب والمشاكل ويجعله حادًّا قدارًا على أداء مهمّاته فثُقّف– فإذا الثقافة في أمتنا هي أثر قيميّ، أثر أخلاقي ليس مجرّد معلومة.

يعني البحث يجب أن يدور أنّ أمّة من الأمم حين تصنع مصطلحًا، فهذا المصطلح إنّما من خلاله ندرس ما هي القيم الّتي تحكم هذا المجتمع الذي أنشأ هذا المصطلح، يعني كلمة العقل هو عند الغرب Mind، وهو التذكّر Remind يتذكّر مأخوذة من التذكّر، لكن أنظر كلمة العقل عندنا ما هو أصلها؟ هو النظر إلى نشاط هذا الجزء من الإنسان أنّها للتذكّر، لكن حين تقرأ كلمة العقل في الثقافة الإسلامية تجدها مشتقّة من العقل، والعقل من عقل الدابة يعني ربطها، فأصل العقل هو الربط، إذًا ما معنى العقل؟ هو الذي يضبط السلوك الإنساني من أن يزلّ، حتّى النّاس اليوم عندما يرون إنسانًا خلوقًا يقولون: عاقل، ويقابله عندنا كلمة جاهل، رغم أنّ الجهل يتعلّق بالعلم والمعرفة وعدمها، لكن الناس طوّروا الجهل لأن يكون سلوكًا والعلم لأن يكون سلوكًا وليس مجرد حالة ذهنية، ولكنّها حالة سلوكية، انتبهوا كيف تدلّ اشتقاقات الاصطلاحات في أمّة من الأمم على مقدار وعيها ومقدار القيم الّتي تحكمها، من أعظم؟

من أعظم؟ أمّة ترى فقط في هذه الآلة الغريزة أنّها مجرّد تذكّر، أم أنّها تراها عقلًا وضبطًا لسلوكها وحياتها، من أكثر وعيًا؟ عندما يرون أنّ الحضارة أُخذت من Culture، وترى أنّ أساس كلمة Culture هي الزراعة، الثانية هي الحضارة Civilazation ونحن نرى الحضارة الّذين قالوا بالحضارة إنّما أُخذت بالحضور والشهود، الأمّة نحكم على قيمها من خلال اشتقاقاتها لمصطلحاتها، ما معنى الحضارة؟ أن تكون حاضرًا لا تغيب والحضور يعني الشهود وهذا كلّه واضح من مهمّة هذه الأمّة بين الأمم والوجود {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}، فإذًا الحضارة بالمفهوم الإسلامي هي الشهود على العالم، يجب أن تكون قيّما عليه وسيّدًا له، يجب أن تكون كلمتك هي النافذة فيه.

فالّذين جعلوا هذه الكلمة مشتقة من الحضور هم أعظم من الّذين جعلوها مجرّد مدنية مجرد مدينة من المدن، مجرّد شيء من الأشياء زراعة من الزراعات، أو نشاط إنساني ما يتعلّق بأكله وشربه ولبسه. فاشتقاق المصطلح دلّنا على قيمة هذه الأمّة الّتي اشتقت هذا المصطلح، قريبًا من هذا المعنى وأشار إليه بأنّ الحضارة لا بدّ لها من شروطها وهو الحضور إلى العالم، هذا إذًا مهمّ.

النقطة الثانية ما هي مكوّنات الحضارة، يعني حتى نحكم أنّه ثمّة حضارة، هذه قبل أن نخوض فيها علينا أن ندرك شيئًا ما، هل كلمة الحضارة وصف لعالم مادّي ولعالم قيمي، أم أنّها كلمة مدح في داخلها؟ يعني عندما تقول بيت أنت تقول بيت، هذه ليست كافية في المدح والذم، لكن عندما تقول قصر فهي دلالة على شيء زائد عن البيت، لما تقول فيلا باللغة الأجنبية تدلّ على شيء زائد شيء من المدح، مجرّد بيت مجرّد دار، فهل كلمة حضارة هي وصف لحالة مجتمع ما يكون هنا ويكون هنا ويكون هنا أم أنّها كلمة مدح يجب أن تقتصر إلّا على أناس ما، لهم صفات خاصّة تميّزهم عن الآخرين.

الآن عندنا بحسب ما يعرض الأستاذ مؤنس عندنا مدارس وليست مدرسة واحدة، الأستاذ حسين مؤنس في كتابه يقول بأنّ: الحضارة هي مجرّد الوجود الإنساني على أيّ شكل من الأشكال، ولا يتصوّر أنّ تجمعًا ما خال من قيم الحضارة، هذه نظرة عجيبة منه وخاصة له، يقول: مجرّد وجود الإنسان مجتمِع وفيه نوع قيم وفيه نوع أدوات تلائمه فقد تكوّنت الحضارة. وبالتالي وهذا التعريف الّذي قاله إنّما يُراد منه أن يسلب هذا اللفظ خصوصيته ودلالته على المدح، لماذا؟ لأنّ الأستاذ حسين مؤنس يرى أن الغرب بغروره وتبجّحه يرى أنّه هو الّذي يصنع الحضارات، لذلك لا يقول أنّ هناك حضارة الرجل الأبيض حضارة الأسود وأنّ هناك حضارة هندية وحضارة أفريقية يقول كلّ هذه حضارات، إذًا لماذا نرى حضارات متقدّمة وأخرى متأخرّة؟ يقول: هذه لها أسبابها وذلك للحاجة، فهم موجود عندهم التنعّم أم لا؟ هو يقول أنّ العرب قبل الإسلام كان عندهم الحضارة، حتّى مع خيمتهم ومع ناقتهم كان عندهم الحضارة، لماذا؟ يقول: لأنّ عندهم الأدوات الّتي تُبلّغهم مرادهم في الحياة وراضيين عنها وفرحين، وعندهم قيم تحكمهم وهم تجمّع إنساني فهم حضارة وانتهى الموضوع.

وينفي الدكتور أنّ التطور المادّي هو دلالة على وجود حضارة أو عدم وجود حضارة، يقول نعم متقدّمة بالماديات وهذه حضارة متأخرة ولها أسبابها، وهذه نقطة مهمّة عنده وهي ضرورة إسلامية وإنتاج إسلامي وليس لوجود جينات خاصة في هذا المجتمع دون هذا المجتمع، لماذا؟ لأنّ الغرب عنده نظرة استعلائية مبعثها جنس الأمّة، بمعنى أنّ الغرب يرى بما أنّك أبيض وعيناك زرقاوان أوروبي ففيك جينات خاصّة تجعلك مميزًا عن باقي البشر، ونظرية الاستعلاء هي الّتي تصنع الغزو، نظرية الاستعلاء هي أساس حركة الإنسان نحو الآخر، وهذا في كلمة الحضارة مهمّ جدًا، أنّ الحضارة لا تكون إلا بحضورك على العالم شهودك على العالم لكن ما مبعثه؟ هل مبعثه لأنّك أبيض عندك جينات خاصة أم أنّك تملك قيم عظيمة تريد أن تجعل العالم يدخل فيها لا أن تحكمه باستعلائك عليه.

والبعض يثير قضية أن الاستعلاء مبدأ موجود عند كل الأمم حتّى عند المسلمين تشعرون أنّكم خير من البشر، نحن نقول خير من البشر ما داموا خارج هذه القيم، فإذا دخلوا انتهت هذه النظرة الاستعلائية.

بخلاف الآخر، اليهودي الآن يرى نفسه –وهو صاحب دين–، يرى نفسه مميّزًا عن بقيّة البشر ومن شعب الله المختار، باعتباره نسلًا لا باعتبارهم قيمة دينية، باعتبارهم نسلًا لإبراهيم –عليه السلام– وإسحاق ويعقوب، باعتبارهم نسلًا لاثنتي عشرة أسباطًا هم نسل لهؤلاء لا باعتبارهم قيمة دينية ينشرونها في العالم، ولذلك اليهودية ليست دينًا دعويًا، لم يحدث قطّ في التاريخ أنّ أمّة غزت أمّة من الأمم الأخرى فدخلت الأمّة المغلوبة في دين الغالب، فصارت الأمّة المغلوبة قيّمة على الأمة الغالبة إلّا في الإسلام.

لما جاء المأمون وجاء العباسيون واستقدموا الترك وجعلوهم جنودًا، بعد ذلك انتهى عصر سيطرة العرب على الخلافة الإسلامية، دخلت الخلافة الإسلامية تحت سيطرة الأتراك، المماليك، العثمانيين، ولذلك العرب كانوا يرفضون أن يقولوا نحن ترك نحن عثمانيون، إذًا هو يريد أن يقول هنا في كتابه بأنّه لا يوجد أمّة مجتمعة إلّا وفيها حضارة تستحق أن تسمّى حضارة، نعم هو يعترف بعد ذلك تأثّرًا من دراسات أخرى أنّ هناك ستّ حضارات كبيرة عظيمة ذكرها وهي جامعة لمجموعات كبيرة و لكنّها في الجملة الحضارة هي شيء ملازم للوجود الإنساني بغضّ النظر عمّا معه من أدوات مادّية، هذه نظرته.

هناك خصومة بين سيّد قطب ومالك بن نبي وذكرها سيّد إشارة في كتاب معالم في الطريق، ذكرها في الهامش، سيّد قطب يرى ومعه بعض من تأثّر به أنّ الحضارة كلمة مدحية، تدلّ على قيم صحيحة وأخلاق صحيحة وتشريعات راقية، وأمّة فيها ثقافة الوعي على حياتها على قيمها وعلى الغيب وعلى عبوديتها لله، فيقول: لا يجوز أن تُطلق هذه اللفظة إلّا على المسلمين، ولذلك لا يوجد حضارة أخرى غير ما أنتجه الإسلام، على اعتبار أنّ كلمة الحضارة كلمة مدحية، هذا كلام سيّد.

كلام مالك بن نبيّ أنّ الحضارة كلمة تستحق أن تُطلق على أيّ تجمع قريبًا ممّا يقول حسين مؤنس ولكن بقضيّة أوسع، وهو أنّه لا بدّ من وجود ارتقاء وليس وجود فقط، لا بدّ من ارتقاء بالحالة المادية والمعنوية، ويرى أنّ مكوّنات الحضارة ثلاث وعلى ضوء ذلك انتقده من انتقده، قال: **تراب**، وقت ومن هنا يأتي دور التاريخ الذي سنتحدث عنه، **والتاريخ والإنسان**، هذه مكوّنات الحضارة، فانتُقد مالك بن نبيّ على هذا التعريف وقال: **أنت أغفلت الرابط بينها وهو القيم**، وهذا انتقاد خطأ فانتقدوا من انتقد مالك قال أنت لم تنتبه لهؤلاء، أنتم لم تنتبهوا إلى المكوّنات الجامعة لهذه الأركان الثلاثة وهي القيم، وهذا فرق

بين ما طرحه مالك بن نبيّ وحسين بن مؤنس وهو ما سنذكره، هل الإنسان ينظر إليه باعتبار نشاطه العضوي أو قيمه التي تحكم هذا النشاط.

الأستاذ حسين مؤنس يقول بأنّ الإنسان محكوم، هو يذكر مكوّنات الحضارة، يأتي ويقول الإنسان باعتبار مكوناته العضوية، ولذلك من قرأ كتاب الحضارة يجد أنّه يهتمّ بنوع فصيلته الإنسانية الّتي تميّزه عن بقية الحيوانات، يعني ما هو الإنسان؟ هل نقرأه من خلال قيمه أو من خلال عضويته يعني كونه إنسان عاقل كبير، يملك غريزة التفكير، غريزة الجمع، لم نر في يوم من الأيام حيوانًا مهما بلغت درجة ذكائه يطبخ! لا يحضر مادتين يخلطهما معًا ثم يطبخ أكلا الجميل، لا يفعل هذا، لم نر حيوانًا من أجل أن يبني بيتًا يستخدم أربعة مواد ويخلطها لأجل أن يصنع مادة لبيته، هذه من الّذي تخصص فيها؟ وهو التعامل مع الماديات وتطويرها والتفكير هذا حصل فقط مع الإنسان.

المهمّ أنّ الأستاذ حسين مؤنس يهتمّ بالإنسان باعتبار تركيبه العضوي في كونه مكوّنًا لمفهوم الحضارة لأمّة من الأمم، الّذي عليه الآخرون ليس باعتبار الإنسان على هذا المعنى، ولكن باعتبار معاني أخرى وهو النظر للإنسان باعتباره قيمًا إلخ.

الأستاذ في كتابه ولا شكّ أنّه من دارسي التاريخ المحترمين والمقدّمين في أمّتنا، وهنا لا بدّ أن أقف عند نقطة، الاهتمام بالتاريخ قضيّة قرآنية، {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ}، {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}، فقراءة التاريخ قضيّة قرآنية، لكن لماذا بدأ الاهتمام المعاصر عند العرب بقراءة التاريخ، السبب بأنّ الفكر القومي الّذي تأثر بالمدرسة الألمانية يرى أنّ التاريخ مكوّن من مكوّنات الأمة، بمعنى أنّ الأمّة لا يمكن أن تسمّى أمّة مجتمعة إلّا بشرط اجتماعها في مسيرة تاريخ متّحدة، ما مكوّنات الأمّة عند القوميين ساطع الحصري ومن معه؟ اللغة، الأمّة لغة واحدة والألمان كانوا يصرّون عليها وهم تأثّروا بهم، وسيرورة التاريخ الأمّة تعيش ضمن ماذا؟ تاريخ واحد في حروبها في سلمها وإنتاجها وتجمّعها، تعيش سيرة تاريخية، إذًا علينا أن نحتجّ بالتاريخ من أجل أن نبيّن أنّه يوجد أمّة مميّزة في سلوكها في منعها في عطائها في قيامها في حروبها في سلمها تميّزت في شيء واحد، فالقوميون اهتمّوا بالتاريخ بهذا الاتجاه.

اهتمّوا به كثيرًا وبدأت دراسات التاريخ على هذا المعنى، كلّهم درسوا التاريخ على هذا المعنى، والاهتمام نشأ؛ لأنّ هؤلاء القوميين رأوا أنّه لا يمكن أن ننتج إنتاجًا قوميًا خارج الإطار الإسلامي، على اعتبار أنّ الأمّة المسلمة هي طور من أطوار تدرّج

الأمّة العربية، لماذا الإسلام عند القوميين، ميشال عفلق، جورج حبش؟ مهمّ جدًا أو غير مهمّ؟ مهمّ جدّا؛ لأنّه إحدى حقوب تطوّر الأمة العربية، وطور من أطوار وجودها على هذه الخليقة، لكنّهم لا ينظرون إلى الدّين مكوّنًا رئيسيًا للأمة، فمن هنا نشأت دراسة التاريخ، ولذلك أغلب دارسي التاريخ المعاصرين من غير المسلمين، من القوميين، فأن ينتج دارس تاريخ إسلامي، وأن يقرأ التاريخ قراءة إسلامية، الأستاذ حسين مؤنس من هؤلاء، لكن في الحقيقة لم يتخلّص من القراءات الجاهلية للتاريخ، ولم يتخلّص من القراءات الجاهلية للحضارة، بقيت عنده الشوائب، ولم يخلص كما خلص غيره.

لكن من تواضعه أنّه يقول: أنا لا أستطيع أن أجيب على كل الأسئلة، أنا فقط أفتح آفاق لبحث هذا الموضوع وهذا شيء جيّد وكافي منه، هنا نقطة مهمة يصرّح هو في بداية الكلام وبقوّة على أنّه لا يؤمن بشيء اسمه فلسفة التاريخ، ماهي فلسفة التاريخ؟ ليس بمفهومها الاصطلاحي المفهوم، ولكن أن يُقرأ التاريخ باعتبار آلياته، هل هناك سنن لصعود الأمم وهبوطها؟ هل هناك سنن نستطيع أن نضبطها كما نضبط حركة الماديات؟ بمعنى لو وضعنا زئبق مع يورانيوم ينشأ معنا تحوّل لا يمكن أن يخطئ، الماء لا بدّ من ذرتين هيدروجين مع ذرة أكسجين ضمن ظرف معين لا بدّ أن يكوّن الماء، فهل الأمم صعودها وهبوطها على هذا المعنى من الحدّ الذي لا يمكن أن يخطئ؟

هل هناك سنن لصعود الأمم وهبوطها، هل هناك ظرف من الظروف علينا أن نجزم أنّ هذه الأمّة ستسقط أو تصعد، من خلال قراءتنا لوجودها، لقيمها الحاكمة لها، هو ينفي هذا، الأستاذ حسين مؤنس ينفي فلسفة التاريخ ويقول كلّ محاولات ضبط وجود الأمم وصعودها وهبوطها هي محاولات فاشلة لم تؤدي إلى شيء، علماء الاجتماع يعترفون أنّ أوّل من تكلّم عن قانون الاجتماع قانون العمران كما سمّاه هو ابن خلدون، قانون العمران كيف تصعد الأمم وكيف تهبط، ماهي مقوّمات صعودها وماهي مقوّمات هبوطها، فهو يرى أنّ الأمم لها قانون ويتحدّث عن حتمية أنّه لابدّ للأمم أن يكون فيها في بدايتها شيء من البداوة تكون بعيدة عن الترف، لا وجود لأمّة تصنع نفسها من خلال الترف، لا بدّ أن يكون فيها شيء من البداوة وعندها صلابة وقوّة في الاندفاع نحو خصمها، وتقاتل ولا تلتفت للدنيا وبعد ذلك يأتي الجيل الوسيط، يبدأ بالميل للدّعة وللرغد وللترف، وفي نهاية الأمر ينتشر الترف والملأ في الأمّة ويبدأ هبوطها وزوالها، هذا ما يبحثه ابن خلدون في قضيّة قانون العمران، هنا المسألة أعتقد أنّه لابدّ من الفصل في أنّه هل الأمم لها قانون صعود؟ بلا شكّ القرآن يطرح قانون صعود الأمم وهبوطها مثل قضيّة (ولقد أخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرّعون) وجود الابتلاء بالمحنة والعطاء والمنع، وجود الترف، وجود الطغيان، كما

قال تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}، هذه مقوّمات الإهلاك، لما يقول النبيّ ﷺ: (من أحب أن يُنسأ له) هذا الحديث هل يتحدث عن قانون فردي أم قانون جماعي؟

(من أحب أن ينسأ له في أثره ويبسط له في رزقه فليصل رحمه) هل هذا قانون لإنسان؟ أم قانون كلّي؟ الحديث يتحدّث عن الرحمة (فليصل رحمه) وجود الرحمة في داخل المجتمع يعني وجود الحب إدامة المودة، الناس لا يهلكون؛ لأنّ الظلم مهلك ومؤذن بهلاك، فالقول بعدم وجود قوانين ضابطة لصعود الأمم وهبوطها قول فيه مجازفة لكن أين يأتي الموضوع؟ أين يأتي الكلام الذي يجب أن نحذر منه؟

الإنسان ليس رقما ثابتا، هذه أكرّرها كثيرًا، حتّى أنّنا نحتاجها في نظرتنا لأمّة من الأمم، يعني عندما نمرّ على مجتمع من المجتمعات أو نتحدّث عن قضيّة هل هذا المجتمع يمكن أن يقوم بثورة، هل هذا المجتمع يمكن أن يكون تقيًّا هل هذا المجتمع ممكن أن يتحرّك؟ نحن نرى إطلاقات غريبة من الناس اليوم، يقول: هذا مجتمع فاسد لا يمكن أن يقوم فيه خير، وهناك مدح لمجتمع يقول لك: ما شاء الله هؤلاء رجال لا يقبلون الضيم، هؤلاء أبطال ونطلق العبارات المطلقة على مجتمع أو على بلد أو عشيرة إلخ، ونجعل هذه القيم ثابتة، الإنسان ليس رقمًا ثابتًا وصعود الأمم وهبوطها متعلّق بقيمها، نعم المادّة لها دور وسنتكلّم عن القضيّة المادّية في صعود الأمم؛ لأنّ هناك أحاديث عن قابلية الاستعمار، لما جاء الغرب إلينا وهزمنا ودخل نابليون ودخلت خيوله الأزهر، هل كان العامل القيمي هو الّذي حقق الانتصار لنابليون علينا؟ هذا غير صحيح، من هنا يأتي النقد الموجّه لمالك بن نبيّ، قابلية الاستعمار، هو اعتبر أنّ الأمّة فيها قابلية الاستعمار؛ لأنّها قبلته، ولم ينظر إلى النواحي المادية، في الحقيقة البارود هو الذي حسم المعركة وإلّا فقيم أوروبا ليست بأفضل من قيم الأمّة حتى في أوان هبوطها، ولكن لماذا لم تنتصر؟ لأسباب.

ليس فقط قابلية الاستعمار كان في الأمّة عوامل عظيمة للانتصار على الاستعمار، ولكن يوجد أسباب يجب أن ندرسها، ليس منها أنّ الأمّة لم تقاوم بل الأمّة قاومت، هذه المقاومة كافية؟ نرجع إلى قضية العوامل الأخرى كافية أو غير كافية؟ ومنها العوامل المادّية كون البارود وكون الآلة المتقدمة الجهنميّة الّتي هي، الآن لما سقطت العراق بيد أمريكا لماذا سقطت؟ كلاهما قيمهما فاسدة، المجتمع الأمريكي ما قيمه؟ لكن بماذا سقطت؟ بماذا سقطت أفغانستان؟ سقطت بالآلة، فالأمم صعودها

وهبوطها ليس متعلّقا فقط بقيمها، له تعلق بها ولكن له تعلّق كذلك فوق القيم له تعلّق بالمادة، يعني يمكن لأمّة من الأمم أن تُجتاح وتهلك لعدم وجود قوّة، ما ذكره القرءان عن أهل الأخدود، بم هلك أهل الأخدود؟ هل بقلّة إيمانهم؟ بقلّة تقواهم؟

إذًا علينا أن نحذّر من قضية حتمية التاريخ، بمعنى أنّ الأمّة تسير بهذا السير لابدّ من صعودها من هذه الناحية إلى هذه الناحية إلى هذه الناحية وتمرّ في هذه الفترات؛ حتّى يؤدي إلى هلكتها، نقول هذه دراسة عاجزة؛ لأنّها حديث عن الإنسان كأنّه يتحدّث عن عالم المادّة الثابت، والإنسان غير ذلك، يعني السحرة ماذا كانوا في الصباح؟ كفرة فجرة، ماذا صاروا في المساء؟ شهداء بررة، يعني يمكن أن يتّم التحول والصعود لمجرد تغيّر الإنسان في لحظة من اللحظات.

الآن نحن جلوس وبيننا الحبّ، ممكن الآن في لحظة غضب يسير أن يتحوّل الحضور المحبّ إلى جريمة، كم من جلسات كان فيها سمر وفيها حبّ ثمّ انتهت إلى جريمة وعداوة لماذا؟ هل هو لتطوّر سنني حتمي أم هو لدخول عامل الإنسان الّذي لا تدري كيف تتغيّر قيمه في لحظة من اللحظات وكيف يتغير مزاجه وكيف تتغيّر أحواله.

والدليل: العرب، العرب لما كانوا من أذلّ الأمم، وأمام الأمم الأخرى لا قيمة لهم، وفي لحظة من اللحظات جاءتهم النبوة، وخلال ٢٣ سنة تركهم النبيّ ﷺ وقد تكوّنت آلتهم العظيمة الّتي صنعت التاريخ، ووصلوا في زمنهم هم زمن الجيل الأوّل، وصلوا إلى الصين، ما الّذي حوّلهم؟ دخول عامل جديد غيّر الحالة ولم يحتج الناس إلى صعود مادي، لم يحتج الناس زمن النبي ﷺ وزمن الصحابة إلى أيّ تطوّر مادّي في الآلة، يعني الذي يريد أن يجعل الحالة هي حالة المادّة يجب أن تتوافق، هذا غير موجود، وجدنا أن العامل الوحيد –هذا الّذي نريد أن نصل إليه– أنّ العامل الأول بل يكاد يكون الوحيد في صعود الأمم هو الإيمان، الإيمان وصدقه ومطابقته للحقائق أو مخالفته للحقائق الأسطورة، هذا إذا قام يغيّر حتّى لو كان هذا الإيمان باطلًا فهو قادر على الإزالة، هنا بعد ذلك مقدار القيم هي في البناء، إزالة الخصم وحضورك عنده يحتاج إلى قيمة الاستعلاء، أنّك أعزّ منه ويجب أن تأخذه وأنا أفضل منه، لكن بعد أخذه تحتاج إلى قيم البناء.

مثل التتار دخلوا فاجتاحوا من وسط آسيا وأزالوا الدولة الخوارزمية وأزالوا دولة الخلافة الإسلامية في بغداد ووصلوا إلى بلاد الشام في لحظات سريعة جدًّا، لكن بعد ذلك ما الّذي انتهى إليه هذا الحدث؟ إلى أن دخلوا في دين المغلوبين، تلاشوا لم ينشؤوا حضارة ولا أمّة، بخلاف الأمّة المسلمة، الآن لو أنت رأيت الغرب لما ذهب هؤلاء الغربيون إلى أمريكا، لما بدأ عصر الاستكشاف وذهبوا إلى أمريكا، ما الّذي أحدثوه؟ هذا الذي ذهبوا إليه أبادوه، أكثر من مئة وخمسين مليون إنسان قتل

الغربيون فقط في أمريكا، هذا ليس مئة وخمسين ألف، مئة وخمسين مليون إنسان قُتل، ومع ذلك هم عاشوا وجدوا هذه المادّة وبدأوا ينشؤوا قيمهم فيها وحضارتهم فيها، إذا المقصود أنّ قيم الإيمان هي التي تنشئ الحضارات، إذًا هنا نقطة هل هناك فلسفة للتاريخ؟ هل هناك نظم تبقي الأمم وأمم وقيم تزيل الأمم؟ الجواب نعم الظلم يؤدي إلى الهبوط، ولكن أن نرى أنّ هذا الظلم هو من حالة إلى حالة إلى حالة حتمية لتصل النهاية هذا غير صحيح؛ لأنّ الإنسان عنصر غير ثابت في حركة صعود الأمم وهبوطها، الإنسان ليس رقمًا ثابتًا في صعود الحضارات وهبوطها، يتغيّر الإنسان.

قلنا أركان الحضارة عند الأستاذ مالك بن نبيّ: التراب الوقت الإنسان مع القيم الجامعة الّتي تربط هذه المكوّنات الثلاثة، هذا لابدّ منه، هو يقول لا يوجد أمّة حضارية وأمّة متوحّشة، مجرّد وجود القيم والتجمع هو يطلق عليها حضارة، هو يرى أنّ الزمن وهو التاريخ زائد العقل والتفكير زائد الإنسان بتركيبه العضوي، وقلنا بتركيبه العضوي هو يهتمّ بهذا، هذه مكوّنات الحضارة عند الأستاذ.

أعظم ما في الكتاب لو أنه لو دُرّس لغير المسلمين وهي نقطة ذكرناها مهمّة جدًا، أنّه لا يوجد إنسان متفوّق بطبعه، لا يوجد إنسان عاقل بطبعه وأذكى بطبعه وجيّد بطبعه، إنّما الإنسان كلّه مصدره واحد وهو {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى}، كلّكم سواسية هذه قيمة وإن كانت مفهومة في أذهاننا لكنها للأسف ميّتة في تطبيقاتنا، الغرب لا يعترف بها أساسًا ويكذب بها ويجترّها دون أن يطبقها، فهذا حاله، الغرب يؤمن بالتفوّق يؤمن بالإنسان الغربيّ المتفوّق، لكن للأسف نحن المسلمون في هذا الزمان نردّد هذه الكلمات لكنّا نمارسها منها، يعني حتى في داخل المسجد في داخل البيت في الزواج، في التعامل مع الآخرين نتعامل مع إنسان أنّه من عشيرة فلانية من بلد كذا، ما زلنا نتعامل معها ونتعامل مع هذه الطريقة الّتي رأيناها أنّ الإنسان رقم ثابت لا يتغيّر، وهذا نراه في الشيوخ في الحديث، يعني لما كان بعض المشايخ يتحدّث عن الأفغان يتكلّم عن أنّهم أصحاب القيم الخاصّة هو لا يراقب التحوّلات الاجتماعية؛ بسبب الفقر بسبب الغربة بسبب الذلّة التي يعيشها، لم يلاحظ التغيرات الاجتماعية فيه، كذلك لما نقول هذا مجتمع منحط سافل، علينا أن لا نتعامل مع هذه المقولة تعاملًا ثابتًا وإلّا فما قيمة الأنبياء وما قيمة الدعوة الذين جاؤوا إلى أسفل الناس وأسوأ الناس ودعوهم إلى الله وإلى تغيير قيمهم وأخلاقهم.

هنا فقط لدينا بعض الانتقادات **والأمور التي ينبغي أن تقال عند قراءة هذا الكتاب**، الّذي يراه المرء عند قراءته لكتاب الأستاذ حسين مؤنس شيء غريب، يرى أنّه يهتمّ بالتركيب العضوي للإنسان، ويهتمّ بمنجزات الإنسان بعد ذلك، لكنّه لم

يتحدث قطّ عن القيم الفطرية في الإنسان، لما تحدّث خاصّة عن الشقّ الأوّل وهو شقّ الإنسان كما يدرسه تركيبًا عضويًا وكيف ينتج معارفه وكيف ينتج آلاته وكيف ينتج أدواته والرفاهية المادية، نراه لا يتعرض أبدًا لفضل الفطرة.

وهو عندما ناقش ابن حزم؛ لأنّ ابن حزم يرى أنّ ما أدركه الإنسان من سبل حياته في قضيّة الكشف عن النار وأدواتها، ما الذي يُحرق والذي لا يُحرق، صناعة المواعين واللباس وصناعته، دبغ الجلد في الحيوانات، ابن حزم يرى أنّ هذه أمور فطرية وأوحاها الله عزّ وجلّ للإنسان، فلمّا ردّ عليه قال: لا هذا غير صحيح، واحتجّ ابن حزم بما احتجّ به على أنّ اللغات أيضًا وضعية ليس للإنسان فيها جهد، لابدّ أن نزل بها الإنسان ونزلت معه كالزراعة يعرف أنّ القمح يُزرع، يعرف أنّ هذا يؤكل أو لا يؤكل؛ لأنّه هكذا رُكّب الإنسان في فطرته، خلال ردّه لهذه المقولة الحزمية الأندلسية ليذهب بعيدًا وينسى الحديث عن القيم الإنسانية الفطرية، الإنسان أين هو بفطرته، هذه لا يتحدّث عنها ويذهب بعيدًا عنها ويجادل وكأنّها غير موجودة، كأنّ الإنسان يخرج من بطن أمه بلا قيم ولا فطرة وبعد ذلك تُتلقى فطرته.

النقطة الثانية: لم يتحدّث عن دور الأنبياء، عند الكلام عن نشوء الحضارات ينبغي النظر إلى من ينشئ الحضارات في الحقيقة، قلنا الّذي ينشئ الحضارات هي القيم هي الإيمان، فمن بثّ هذه القيم؟ من الداعي؟ الغرب يهتم كثيرًا بهذا، يعني عندما يرى كيف نشأت الحضارة الغربية المعاصرة، يهتمّ بفيلسوف قام بدراسات مادية، يهتمّ بفيلسوف قال بقضيّة قيم الاجتماع مونتيسكيو إلخ، بقضيّة العقد الاجتماعي يتكلّمون عن فلاسفة، فأين الحديث عن الأنبياء يتحدث عن هذا الأمر، لكن أين الحديث عن الأنبياء الذين أنشؤوا أعظم الحضارات، هذا لا نجده للأسف في هذا البحث، وهو جزء من التأثر بالدراسات الغربية؛ لأنّ القرآن في قراءته للأمم وفي عرضه للأمم إنما يعلّق أعظم الشروط أهمية في سقوط الأمّة ودمارها هو مدى الاستجابة لدعوة الأنبياء، ويتحدّث عن طغيانهم المادي ويتحدث عن {وَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ}، يتحدّث عن بناء البيوت العظيمة، يتحدّث عن عظم أجسامهم، يتحدّث القرآن عن هذا لكنّه لا يجعله سببًا للسقوط والدمار، إنّما يجعله القيم الّتي تحكم هذا المجتمع.

هنا نقطة مرّ عليها سريعًا وكان ينبغي أن يقف عندها، وهو الحديث عن الترف ويقول بأنّ الأمم تسعى للترف والترف هو مطلب إنساني، وبالتالي الترف ليس سببًا للسقوط، القرآن في الحقيقة يخالفه، يرى {أَوَمَن يَنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}، النشوء في الحلية، الإنسان الذي عاش في الترف والنعيم {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا}، المترفون هم

علّة رفض دعوة الأنبياء في داخل الأمم؛ لأنّهم يرون دعوة أنّ الأنبياء تقلب ترفهم لا يريدون أن يتغيّر ذلك، يعيشون الدّعة ولا ينظرون إلّا إلى لحظتهم الّتي يعيشونها، لا ينظرون إلى ما هو آتٍ، والإنسان أعظم جريمة يمارسها هو عدم النظر للعواقب، الّذي يذهب ليأخذ حشيش هو ينظر المتعة اللحظية لا ينظر للعاقبة حتّى في بدنه حتّى في عائلته حتّى في أهله، ولذلك عدم النظر للعواقب، فهذه النقطة في آخر الكتاب للأسف لا يفصّل فيها التفصيل المطلوب.

الآن نختم الكلام في قضيّة، هو نبّه على أنّ دارسي الحضارات لم يهتمّوا بأفول الحضارة، وفقط الّذي تكلّم عن أفول الحضارات هو ابن خلدون، كيف تموت الحضارات، ولم يفصّل هل الحضارات تفنى بالعوامل الخارجية والعوامل الداخلية، أمّة من الأمم تزول من خلال دابّة الأرض تأكل منسأته من الداخل؟ يتم تفريغها حتى يكون سقوطها ذاتيًا، أم لا بدّ من وجود عامل خارجي مؤثر؟ هذه لم يبحثها، وفي الحقيقة هذه النقطة لوحدها تستحقّ دراسة قرآنية، وخلاصة القضيّة أنّ العامل الداخلي مهمّ، هو أهمّ عامل لزوال الأمم لكن لا بد من وجود عامل خارجي، العامل الخارجي هو بلاء إلهي وعقوبة إلهية يرسلها على الأمم الأخرى، من أجل أن يعاقب بها أمّة فسدت داخليًا، لكن هل كلّ هجوم خارجي على الأمة هو عقوبة؟ أم مرّات لا، يعني الآن لما جاء الأحزاب وهاجموا المدينة وحاصروها، هل هذا الهجوم عقوبة إلهية أم هو امتحان إلهي؟ هو امتحان إلهي وليس عقوبة، فليس كل هجوم خارجي يعدّ عقوبة لكنه كثيرًا إذا حصّل مقصوده وأهلك أمّة فهذا دليل على أنّه عقوبة إلهية يستحقها، هذه الحياة لا يستقيم بها إلّا ما سنختم به.

يقول ماركس: العنف هو داية الحضارات، وهذه لم يعرّج عليها الأستاذ حسين مؤنس قطّ، العنف يعني الصراع، الأمّة الّتي لا تنشئ قوّة؛ مصيرها الهلاك مهما بلغت حضارتها، وأشار إشارة في بداية الكتاب لقضيّة سبب غلبة الأوروبيين على الأفارقة، لمن قرأ الكتاب، ليته أبرزها كعنوان يُبحث في قضيّة سقوط الحضارة وأهمّية وجود القوة المادية، يقول الإنسان الإفريقي بسبب وضعه الماديّ مال إلى الخمول، كثرة الطعام والشراب، الحرارة الشديدة، البيئة الرغدة، فعاش للخمول، هو يعيدها لأسباب تطوّرت لديه النظرة للإله والمعالجة لكثرة الأمراض إلى أن يعالج عن طريق السحر والخرافة فانتشرت عبادة غير الآلهة؛ حتّى جاء الإسلام فدخلوا في الدين، فارتقى هذا الإنسان الأفريقي، وارتقى رقيًّا عظيمًا؛ حتّى صار لدرجة السذاجة والطيبة، وأنشأ حضارة على هذا المعنى، الحضارة الساكنة، فلمّا جاء الأوروبي أخذه على طريقة الاستغفال من طيبته، وإذا قرأتم التاريخ الإسلامي في وسط أفريقيا تجدونه إسلامًا ساكنًا، الحروب والجهاد فيه قليل، ولذلك لما جاء الأوروبي استقبلوه، رجل ضيف عليهم، هذا كما نجده

في المسلمين في إفريقيا، وجدناه عند الهنود الحمر في أمريكا، لما جاء المستكشف إليهم استقبلوه أحسن استقبال، وأضافوه أحسن قرى، لكن النتيجة أنّه ذبحهم وقتلهم، فدلّ هذا على أنّ المجتمعات لا تستقيم أحوالها ولا يبقى وجودها إلّا بوجود القوّة، يجب أن نفهم الحياة أنّها صراع، وليست الحياة مجرّد عطاء كلمات طيبة ولا طيبة نفوس.

يجب أن تُفهم الحضارات أنّها قوّة وأنّها حضور، والحقيقة نبّه على هذا توينبي، توينبي قال بأنّه: لا يوجد حضارة لم يحصل لها الغزو، شرط الحضارة أن تخرج وتغزو، وهو يقول توينبي بأنّ الأماكن الّتي لم يخرج منها غزو الحضارات ليست بشيء، يعني أفريقيا لم يخرج منها حضارات لم يخرج منها غزو، الهنود لم يخرج منها حضارات؛ لأنّه لم يخرج منها غزو، طبعًا هو ينبّه وهذا نفس كلام كولن ويلسون في كتابه سقوط الحضارة، قال توينبي: حتّى لم يعدوه فيلسوف تاريخ وإنّما عدّوه شاعرًا، وهذا حتّى كلام البريطاني كولن ويلسون في كتابه سقوط الحضارة يعدّ توينبي شاعرًا ليس قارئ تاريخ، ومع ذلك يقول في دراسته وهو أكبر كتاب عن الحضارة يقول: بأنّ الحضارات لا يمكن أن تتشكلّ إلّا من خلال القتال والغزو، وهذا مفهوم الشهود عندنا، أن تشهد على الأمم، والشهود على الأمم لا بدّ من الحضور عندهم لا بّد من دعوتهم إلخ.

ومن هنا يأتي دور العامل الديني بمفهومه الصحيح لبقائك أو فنائك، من غير قوّة أنت ستفنى مثل أهل الأخدود حتّى لو كنت مؤمنًا، حتّى لو كنت مثل سحرة فرعون بدون قوّة الّذين أسلموا فقتلوا، فلا بدّ من حضور القوة لتحصل الحضارة وهذا ما نراه الآن.

أسأل الله عز وجل أن أكون قد وُفقت لعرض هذا الكتاب، وأنا قلت في الابتداء هذا كتاب شاقّ وموضوع متشعّب الحديث فيه، كل وقفة فيه تحتاج إلى وقفات لكن يكفي أن يمرّ عليها المرء مرورًا وجزاكم الله خيرًا وبارك فيكم، الكتاب القادم لإخواننا، هذا الكتاب هو أول كتاب المعرفة أي الحضارة هو أول إصدار لعالم المعرفة، ثمّ طبعوه طبعة ثانية، أمّا أوّل كتاب صدر هو هذا الكتاب لهم، الكتاب الثاني أيّها الإخوة الأحبة وهو مهمّ جدًا المرايا المحدبة لعبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، مهمّ جدّا وخاصة النصف الأوّل، يعني لمن ضاق وقته فلا يهتمّ بالجزء الثاني كثيرًا، الاهتمام منصبّ على الجزء الأوّل؛ لأهمّيته ولمعرفتنا بخصومنا الّذين زعموا الثقافة وزعموا يومًا أنّهم يساريون وأنّهم يحمون الأمّة وثورتها، ولما قامت الثورات فإذا هم خدم وأحذية للطواغيت، الّذين زعموا أنّهم مثقّفون وأنّهم يريدون إحياء الأمّة وثورتها وتغييرها، فلّما قامت الثورات وزالت

الطواغيت كانوا هم أحذية الطواغيت، ومن هؤلاء ما يسمّى بالمثقفين العلمانيين وغيرهم يفضحهم عبد العزيز حمودة في كتابه المرايا المحدبة.

جزاكم الله خيرًا وبارك فيكم.

الأسئلة

- **أخ يسأل: من يدرس التاريخ كثيرًا لا يستفيد منه مثال على معاوية بن أبي سفيان وذكر بعض الشخصيات أنّهم كانوا يقرؤون التاريخ لكنهم لم يستفيدوا من التاريخ ووقعوا في أخطاء، ويقول أنّهم كانوا أكثر دموية، فلماذا من يقرأ التاريخ يقع في الأخطاء؟**

الشيخ: أولًا: إذا مثّل بمعاوية فهذا تمثيل غير صحيح، الآن الحديث ليس عن الشرع الحديث عن القدر، أنا أعتقد أنّ معاوية رضي الله عنه– بالرغم أنّ رغبته أن يكون الخليفة من بعده من صلبه فهذا هو المقرّر، لكن السؤال ينبغي أن يُطرح من جهة أخرى، يعني معاوية رغبته البشرية وهو صحابي عظيم له فضائله وله إخفاقاته بشر، ونحن نعتبر إخفاقاته بصحبته ودينه وما فعل من الخير، على قاعدة الموازنة بين الحسنات والسيّئات، هو صحابي عظيم لكن له إخفاقاته، ومن إخفاقاته أنّه أراد برغبة الإنسان أن يولّي ابنه يزيد مع أنّ هناك من هو أولى منه، أنا أتكلّم أولى منه من جهة دينية أخلاقية معرفية، لكن لنبتعد عن هذا ونرى السياق التاريخي، هل معاوية في تعيينه ليزيد، علم أو لم يعلم كان يرى أنّ موازين السلطة في داخل المجتمع المسلم قد تغيّرت، بحيث أنّ الناس ليست قيمهم في تعيين الخليفة هي قيم تعيين أبي بكر –رضي الله عنه–؟

لما النبيّ ﷺ قال: عن إمامة أبو بكر، قال: (يأبى الله ورسوله والمؤمنون..) يعني الناس في ذلك الوقت قيمهم تدفعهم دفعًا إلى اختيار رجل وحيد لا يمكن أن ينازعه أحد هو من؟ هو أبو بكر، عمر –رضي الله عنه– رأى أنّ الشخصية الّتي توازي أبا بكر بعده غير موجودة، لكن مجتمع يختار خليفة يختار إمام، وتحتاج إمام بمقدار أشواق هذه الأمّة، فالأمّة عظيمة وهم الصحابة هذا بلا شك، وكذلك وجدوا شخصية تعادل هذه الأشواق وهي من؟ وجدوا أبا بكر –رضي الله عنه– فكان أبو بكر يعادل أشواق هذه الأمة، وأبوه ما زال أبو بكر فيه شيء لقضيّة من الأمير من الإمام، فلمّا قالوا: مات رسول الله فقال أبو قحافة: من بعده؟ قالوا: ابنك، قال: فأين بنو فلان وأين بنو فلان وأين بنو فلان؟ لأنّ بني تميم الّذين ينحدر منهم أبو بكر من أقلّ قبائل قريش، يعني كيف نفذ أن تركه بنو أمية؟ كيف نفذ أن تركه بنو فلان؟ كيف نفذ أن يكون ابني هو الخليفة، ولذلك عمر –رضي الله عنه– أدرك هذه النقطة في زمانه وقال: ومن تقطع له الأعناق كأبي بكر.

الذي قال: بيعة أبو بكر فلتة، قال: وقى الله شرّها، لماذا وقى الله شرّها؟ ما السبب القدري لأن يقي الله شرّها الأمّة؟ ماهو السبب القدريّ هي منزلة أبي بكر، إذا طُرح اسم أبي بكر سكت الناس، لا يستطيعوا أن يقدّموا غيره لدينهم ورأيهم، لكن يرون أنّه لا يستطيع أحد أن يجري مجراه، تصوّر أن رجلًا يركض يتسابق مع آخر وسبق بكيلومترين، والثاني خلفه بكيلومترين، هل هناك شكٌّ فيمن يكون البطل في هذه المسابقة؟ فأبو بكر لا تُقطع دونه الأعناق ولا تبلغ مبلغه، يعني يموت الناس قبل أن يصلوا ما هو عليه من المرتبة، الّذي حدث فلتة وقى الله شرها بأنّ شخصية أبا بكر هي الّتي عُيّنت، لكن لو غير أبي بكر لحدثت منازعة وقتال، إذًا كانت قيم المجتمع في تعيين خليفة لرسول الله ﷺ قيم صحيحة تتعلق بالإيمان فقط وموجود هذه الشخصيّة الّتي تبلغ هذه الأشواق، لما عيّن عمر –رضي الله عنه– ستّة ورائه ليكون فيهم الخلافة، حدث خلاف أم لا؟ حدث خلاف نُزع بالتقوى، يعني كل واحد تنازل عن نفسه وعيّن غيره حتّى وصلت إلى عثمان وعليّ ففيه نزاع، لماذا لم يحدث هذا في زمن أبي بكر؟ لأنّ الّذي خلف أبي بكر بأربعة كيلو لكن المعادلة بين علي وعثمان فرسي رهان، فذهب عبد الرحمن بن عوف ليسأل الناس من تقدّمون، وما سألوا في أبي بكر، والناس أجمعوا على أنّ عثمان هو خير من عليّ، وحُقّ لهم ذلك والواقع يشهد بذلك هذا ليس نصًا.

الواقع يشهد أنّ من رضي أن يموت ولا يُقتل أحد لأجل إمارته هو أفضل ممّن قاتل من أجل إمارته مع أنّ معه الحقّ، هل حدث تحوّلات في المجتمع المسلم بعد أن حدث قتال بين أهل العراق وأهل الشام؟ حدث تحوّلات، لما أراد عبد الملك بن مروان أن يتنازل عن الخلافة من أجل عبد الله بن الزبير من منعه؟ منعه أهل الشام، وإلّا أراد أن يتنازل، بايع له أهل الأرض من المسلمين ولم يبق ممتنع عن ولاية عبد الله بن الزبير إلّا أهل الشام ومصر، إذًا حتّى الخليفة نفسه لما أراد أن يتنازل عن الخلافة، يوجد سلطة وجيش وأهل الحل والعقد منعوه، إذًا في الحقيقة معاوية سواء أراد أم لم يرد هم مدرك للقيم الإجتماعية الجديدة، يعني لو ذهب الحسن بن علي من سيبايعه؟ بالرغم من أنّه كان قد مات، لو ذهب الحسين أو غيره من سيبايعه؟ فكان مدركا للقيم الجديدة أنّ هناك الناس يبايعون واحد من؟ يحبّون معاوية.

يعني حتّى عبد الله بن عمر كان يرى أنّ معاوية خير الناس يعني في عطائه وفي بجبحته للناس كان خيرًا من عمر، هذا كلام عبد الله بن عمر يتحدّث عن أبيه، فلما عيّنه نعم هي في الدين يجب أن يتركها للأمّة، لكن كذلك يدرك لو تركها للأمّة الناس

سيتقاتلون، هل قيم المجتمع كافية لانتخاب رجل مؤمن أحسن من ابنه، لو انتخبوه وليس له عصبة كما كان ليزيد عصبة بسبب أبيه، هذه تغيّرات مجتمع يجب أن نراعيها هذه نقطة.

النقطة الثانية: هل حقًّا أنّ معاوية أراق الدماء؟ هذا كذب، القتال الذي حدث بيه وبين عليّ فيه (وتقتلك الفئة الباغية) بلا شكّ، هذا قتال كان يرى نفسه محقًّا فيه ويطلب دم رجل قد قُتل ظلمًا وهو عثمان، هذا في نفسه نعتذر له بها، لكن بعد أن حدث عام الجماعة؟ لم يثبت عنه إلّا قتل حجر بن عدي، وهو الذي قتله صبرًا وعاتبته عائشة، قال: دعيني يا أمي أنا ألتقي معه يوم القيامة فيفصل الله بيننا، ومعروفة قصّة جماعة التوابين، الذين قاموا من أجل الانتصار لمقتل الحسين بن علي بعد ذلك، من قال بأنّ معاوية دموي!؟

الناس كانوا يحبّون معاوية حبًّا لا يعلمه إلا الله لإنفاقه عليهم ولكرمه ولعفوه عنهم. فهذا غير صحيح، هذه من القراءات الخاطئة للتاريخ والأخبار لكن منتشرة، للأسف معاوية ظُلم -رضي الله عنه- كما ظُلم عثمان -رضي الله عنه-.

- **أخ يسأل: الكلام عن دافعية كل من ضغط في الحرب العالمية الثانية، عندما حدثت حروب نتجت أشياء جديدة، نتكلم عن الدافعية والحافز.**

الشيخ: بلا شك في القانون الإلهي لا يوجد شيء بدون سبب، حتّى في الآخرة الأسباب تستمر، لكن كيف تقرأ التاريخ؟ على ماذا تعلق؟ القراءة الإيمانية تختلف.

- **أخ يسأل: كيف تنشئ قيم الإيمان الحضارة ونرى أن هناك حضارات نشأت من غير إيمان.**

الشيخ: هذا غير صحيح، لا توجد حضارات بغير إيمان، وأنا لم أقل إيمان بالله وبالرسول، إيمان بالقيم يعني بماذا تؤمن هذه الأمّة، لما قلت كلمة الإيمان ليس على معناها الإسلامي وإنّما على معناها الاصطلاحي في اللغة، أنّه لا بدّ لأمّة من الأمم لتقوم ولتبسط أن يكون عندها قيم، الغرب عنده قيم، الحضارة الغربية فيها قيم دينية وفيها قيم استعلائية وفيها قيم تاريخية موجودة هي الّتي تجعلهم يتصرّفون، عندما جاء بلير إلى العراق كان نصرانيًا، بوش كان متدينًا من التوراة الجديدة، من جماعة حزام التوراة، التي تسمى الإنجيليين الجدد، وهكذا فأنا تكلّمت عن الإيمان باعتبار المصطلح العام وليس المصطلح الخاص بأنّه الإيمان بالله ورسله، أي أنّه على معنى ما جاء به رسول ﷺ.

يكفي إلى هنا، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا وإن شاء الله الأسبوع القادم كتاب عبد العزيز حمودة وهو المرايا المحدبة وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا.

[١٤]

مناقشة كتاب (المرايا المحدَّبة) لعبد العزيز حمودة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين، وإمام المتقين حبيبنا، وإمامنا وقائدنا، وسيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرّ الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، جعلنا الله -عز وجل- وإياكم منهم، آمين.

هذا **الكتاب الذي بين أيدينا هو جزء وحلقة من سلسلة الصراع الثقافي**، بين التَّغريب والتراث العربي الإسلامي، وهذه معركة طويلة لا تنتهي إلا بانتهاء الصراع، وما دامت الأرض موجودة فهناك صراع، وما دام الإسلام موجودًا على هذه الأرض فإن هذه المعركة موجودة؛ لأن هذه المعركة معركة قرآنية، هي معركة الثقافة.

وأول كتاب في معركة الثقافة وهو كتاب (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) -وأرجو من الإخوة أن يعودوا لهذا الكتاب-، وهو كتاب صغير الحجم، قيّم، صاحبه رجلٌ عانى من رجال التغريب. والتغريب هو قَلَب الأمة من حالة دينة عربية إلى غربة، وإلى أن تُقتلع الأمة من دينها وثقافتها ولغتها إلى دين آخر، وهو قوله تعالى:{وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}.

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو حلقة في سلسلة الصراع.

وعندما نقول "ثقافة" فهي لا تعني فقط مجرَّد أفكار، الدين جزء من الثقافة، فالثقافة أوسع من قضية الدين، فالتاريخ من الثقافة، واللغة من الثقافة، والدين من الثقافة، والإنسان ينطلق من ثقافته وليس العكس، لا نقول: الدين مكوِّن للثقافة، لا نقول الثقافة مكوِّنة للدين وتابعه له، بل نقول: الدين هو جزء من ثقافة الأمة؛ لأن الثقافة هي الهوية، ومعنى الهوية: من أنت؟ ماذا تمثّل؟

فالذي يكوِّن ثقافتك هو الذي يكون هويتك، **الهوية تتكون عند أهل الإسلام من:**

أولًا: **الدين**، وهذه الأمة بُنيت على أساس الإسلام؛{إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}.

ثانيًا: **اللغة**، ومهم جدًا أن نَعِي أنَّ اللغة ليست وسيلة للتعارف وللتعبير، يعني أنا الآن استخدم وسيلة للاتصال بك التليفون، قد ينقلب هذا التليفون إلى شيء آخر، فهو وسيلة، أما اللغة فليست وسيلة يمكن استبدالها، اللغة هي جزء منك، هي حياتك، هي وسيلة تعاطف، هي وسيلة تفكير، وهي بالنسبة إلينا وعاء هذا الدين.

تصوَّر أن عندك وعاءً فيه مادة، فإذا انكسر الوعاء ذهبت المادة وتلاشت. وليس المقصود باللغة فقط الكلام؛ وإنما نسق الكلام، ثقافة الكلام، نهج الكلام، طريقة نقد الكلام، وهذا الكتاب يتحدَّث عن تغريب النقد.

ونحن أمام معركة للأسف هُزمنا فيها، وصلوا الآن إلى أن يُغيِّروا اللغة –الألفاظ –. هذا الكتاب يتحدث عن قضية أوسع وأعمق عند المثقفين، وهي قضية تغريب النقد الثقافي، كيف يُنقد الكلام.

فالقصد أن هوية الأمة أولًا من دينها، ثانيًا من لغتها، واللغة ليست وسيلة بل هي جزء منك، فهي حامية هذا الدين، فإذا انكسرت هذه اللغة انقطعت الصلة بينك بين خطاب الوحي، بينك وبين خطاب الله لك!

ثالثًا: **التاريخ**، فأن تفهم التاريخ أن تفهم الحياة، فأن تفهم تاريخ أمتك ومَن تُصارع هو فهم لواقعك، لا يمكن أن تفهم الواقع حتى تفهم التاريخ.

فإذًا مكونات الأمة هي هذه الأركان الثلاثة: الدين، اللغة، التاريخ.

فالصراع حول اللغة هو صراع حول الدين، وأنا أقولها للمرة الألف: الأستاذ مصطفى صادق الرافعي –رحمه الله– لما أقام صراعه ضد "التَّغريبين" الذين يسمونهم "التَّجديدين"، سمى معركته: (تحت راية القرآن).

لما جاء طه حسين، ومِن قبله ممن كان معه ومِن بعده، هؤلاء حملوا راية التجديد، ولم يقولوا: نريد أن نستبدل لغةً بلغة –رغم أن هناك من قالها–، لكن المسمَّون بالتجديدين لم يقولوا هذا، ولكن قالوا: "نريد أن نجدّد اللغة".

ما المقصود بـ"تجديد اللغة"؟ أي: تغييرها!. فهذه فكرة التجديد وهي فكرة التغربيين صارعها التراثيُّون، ونشأت معارك شديد وكثيرة بين هؤلاء وهؤلاء، كانت ذروتها بين الأستاذ مصطفى صادق الرافعي وطه حسين ومن معه، وهنا نأتي إلى أن الأدوات لم تكن بريئة أو نقية، لم تكن معارك بريئة وشفافة –كما يقولون–، بل كانت هذه المعارك خادعة وماكرة، فلم تكن المعركة متساوية الطرفين، بأسلحة بريئة ظاهرة بيِّنة، بل الكثير من هذه الأسلحة كان خفيًا؛ مثلًا هناك كتاب يجب أن يُقرأ وهو كتاب

(من يدفع أجرة العازف؟)، هو كتاب لكاتبة بريطانية كشفت فيه أن الصراع الثقافي ليس بعيدًا عن الصراع العسكري، كشفت بالأدلة والبراهين والوثائق الأمريكية كيف تتبنَّى أمريكا بأدواتها السيئة أجرة العازف، أي أُجرة المثقَّف، فكشفت عن أشياء غريبة مستورة، أن هناك من المجلات ومن المثقفين والأطباء والقُصّاص والشعراء من كانت مدفوعة الأجر من قبل الـ(CIA) والبنتاغون.

نحن هنا لا نتكلم عن وهم المؤامرة، للأسف هناك من يريد أن يصوِّر لنا أن الأمة تعيش معركة الذات ولا يوجد هناك معركة الخصم، وإذا طُرحت معركة الخصم الثقافية كانت تُجابه بأن هذه نظرية المؤامرة، فكأنها غير موجودة، فإذا قلنا: الغرب خطّط لنا، قالوا: "هذه نظرية المؤامرة تصدر بسبب الوهم والعجز"، ويستهزئ بها لأجل أن يُسقطها، فيقول أن المسلمين في هذا العصر لأنهم عاجزون وضعفاء وغير عقلاء فيُتصوَّرون أنهم مهمون وأن كل العالم يتآمر عليهم، وهذا غير صحيح.

والاستهزاء بنظرية المؤامرة هو جزء من هذه النظرية؛ لما بدأت معالم المؤامرة تُكتشف، أصدروا الدخان، ونظرية الدخان: إذا أرادت الجند أن تتقدَّم أو تتأخر يُلقى أمامها قنابل دخانية تستر تقدمهم أو انسحابهم، وهكذا هذا الاستهزاء ليمنع الرؤية.

والوثائق تقول أن البنتاجون كان يدعم التغريبيين منذ الوقت الأول، كالمجلة التي أنشأها طه حسين. وهذا كتاب (من يدفع أجرة العازف) لفرنسيس سوندرز وهي كاتبة إنجليزية، وهذا الكتاب تُرجم ولا يوجد بالعربية بهذا العنوان وإنما باسم (الحرب الثقافية الباردة)، وتعلمون أن مصطلح "الحرب الباردة" الذي أطلقه الإنجليزي جورج أورويل، والذي أثبتت هذه الكاتبة أنه كان عميلًا لـ(CIA) يقبض أموالًا، وأن قصَّته (مزرعة الحيوانات) مُثِّلت في فيلمين: فيلم للمثقف الإنسان البريطاني، وفيلم للإنسان الأمريكي، نسختان، والذي دفع أجرة هذه الأفلام هو البنتاجون، تصوَّر البنتاجون وزارة الدفاع مؤسسة عسكرية ما علاقتها بالثقافة؟!

فتُرجم هذا الكتاب إلى (الحرب الثقافية الباردة)؛ أي الحرب التي ليس فيها نار أو حماوة فهي باردة. تقول الكاتبة أن طه حسين شخصيًا أُعطي شيكًا مفتوحًا على بياض، ليُنشئ مجلة اسمها (الكاتب)، كان يرأس تحريرها طه حسين، قصة وشعر ونقد وأدب وأمور ثقافية ما دخل أمريكا فيها؟!

تكشف هذه الكاتبة البريطانية في كتابها أن مجلة (الشعر) التي أنشأها يوسف الخال وكان من عُمدها ومن رؤساء تحريرها (أدونيس)، صاحب كتاب (الثابت والمتحول)، وكل سنة يقولون أنه سيأخذ جائزة نوبل، وأصوله إسماعيلية، وهو الذي أطلق

عبارة: "سَنُفَجِّر اللغة العربية". مجلة (شعر) أصدرت أعدادًا إذا قرأتها ما وجدت فيها إلا شعرًا ممجوجًا، لكنه الذي يسمى الشعر الحر أو شعر النثر، واعترف البنتاجون أنه كان يدعم هذه المجلة، ويشتري منها ١٥٠٠ نسخة من كل عدد ويوزعها مجانا، عدا عن الدعم. فما علاقة البنتاجون بهذا؟! هذه معركة غير شريفة!

وهناك مجلة مصرية في لبنان اسمها (الحوار)، اعترف البنتاجون كذلك أنه كان يشتري ١٥٠٠ نسخة، ويقوم برعاية رؤساء التحرير ويدفع لهم الشيكات!.

إذًا معركة الثقافة معركة غير نظيفة، فيها أسلحة تُضرب من تحت.

الآن هذه الشخصية، عبدالعزيز حمودة صاحب كتاب (المرايا المحدبة) -حتى لا نبتعد كثيرًا-، النقطة الأولى أريد أن أثبتها: أن هذا الكتاب حلقة في سلسلة الصراع الثقافي، والغريب أن هذا الشخص لم يدرس الثقافة العربية والإسلامية، وكان ضعيفًا فيها، وبعضهم يقول أنه في آخر حياته صار له اهتمام بالثقافة العربية، بل هذا الشخص دراسته كلها تتعلق بالثقافة الأمريكية، وله كتاب اسمه (الحُلم الأمريكي) ويؤمن به، يعني رجل أمريكي!

ودرس وأخذ الماجستير والدكتوراة من أمريكا، وقوَّته تكمن أنه دخل "المطبخ"، وعرف كيف تُصنع هذه القضايا، هو رجل أراد أن يكون صادقًا، واستلم عمادة الأدب في كلية الآداب في جامعة القاهرة، وهو لم يتكلم لإنشاء ثقافة عربية أو نقد عربي في هذا الكتاب، وإن كان قد حاول في كتابه التالي، فهو له ثلاثية، فكتابه الأول هو كتاب (المرايا المحدَّبة) وهو أهمها، والثاني (المرايا المقعَّرة)، والثالث (الخروج من التيه) أو ما شبه ذلك، وهذه الثلاثية صنعت ضجة كبيرة، فهبَّ أزلام الثقافة الغربية وحاربوه حربًا شديدة، كما حورب كل من حاول أن يتعلق بهذه الثقافة.

هذه المعركة كما قلنا أن أدواتها ثقافية، ولكن هناك معارك داخلية، من أهمها أن الذين يتقيَّدون بالثقافة العربية مهملون، لا نسمع عنهم، أين الذين يتكلمون عن الثقافة العربية والذين يريدون أن يهتموا بالشعر؟!

أنت لا تسمع اليوم إلا أسماءً مزورة، غير المشهورين الذين يتكلمون عن الشعر الحر، أين مثلًا من يتكلم عن الشعر الخليلي -أي العمودي-؟ أين الكتاب الأدباء الإسلاميون؟ غير موجودين؛ لأن مراكز دعم الثقافة كلها يسيطر عليها الحداثيُّون، يُدعمون كما رأينا في المجلات، تُعطى لهم الرواتب، تُفتح لهم الجامعات، وكذلك تفتح لهم الجوائز الثقافية في العالم العربي.

وهذه الشخصية السجالية ضد عبد العزيز حمودة التي كشفها في الكتاب، إذ سلط الضوء على شخصية خطيرة جدًا، اسمها (جابر عصفور)، وهذا سيء الذكر، لأنكم ربما ذكرتموه لما كوّن مبارك في أيامه الأخيرة وزارة جديدة عيّنه وزيرًا للثقافة، أزال فاروق حسني وزير الثقافة المصري السابق، وكان شاذًا –لوطيا– وهو صاحب عبارة: "لقد استطعت أن أُدخل كل المثقفين المصريين في الحظيرة"، أتى بهم كلهم خدمًا لمبارك!، فجابر عصفور هذا مشهور أنه صاحب نقد، وما من مؤسسة ثقافية إلا وهو عضو فيها أو رئيسها، وتقريبًا كل المراكز التي تعطي الجوائز هو سيدها، الغريب جدًا أن هذا الكتاب –الذي بين أيدينا– طُبع في عالم المعرفة الكويتية، والقيّم عليها جابر عصفور!، وهذا يدل على أن الرجل استطاع اختراقهم، واستطاع أن يؤثر فيهم ويضربهم ضربات قوية جدًا.

فإذًا هذه معركة خطيرة جدًا، ليست سهلة، تحتاج إلى انتباه، لأن إسقاط التاريخ، وإسقاط الكتب، والنقد العربي، والشعر العربي وإسقاط لغة، هو إسقاط للقرآن، وهم يعرفون ذلك ويريدونه، ولا نريد أن نعود لمقصد طه حسين في نفي الشعر الجاهلي؛ لأنه يريد أن ينفي القرآن، لأن الذي يُفسر القرآن هو الشعر، وهم يفهمون ذلك.

فهذا الكتاب –أيها الأخوة الأحبة– حلقة من سلسلة الصراع الثقافي، وصنع هذا الكتاب ضجة كبيرة، قد يعتلي شيخ المنبر ويتكلم ضد هؤلاء التغريبين ولا يسمع له أحد، لكن لماذا هذا صنع الكتاب ضجة كبيرة؟ لأن صاحبه من أبناء البيت، لم يقل تعالوا: نرجع للقرآن، مع أنه يؤمن بالثقافة العربية، لكنه رجل لا يستطيع هؤلاء أن يُزاودوا عليه في دراسته الثقافة، كونه أصلًا خريج أمريكا، وهو عميد الأدب في القاهرة، وأرسلته الحكومة المصرية مندوبًا ثقافيًا لسفارتها في واشنطن، ولذلك هذا الرجل من بيتهم، من داخلهم.

هذا الكتاب ماذا اكتشف فيه؟ أول صدمة اكتشفها، وهي قضية مهمه جدًا، حيث أورد قضيتين، وقد اعترف أ. عبد العزيز حمودة أنه سيصنع مشكلة؛ لأنه سهّل ما هو صعب.

ونحن نتكلم لغير المتخصصين، وهذا الكتاب خطابه للمتخصصين، فنحن نحاول في هذه الكتب التخصصية أن ننزل بها إلى مستوى عموم الأمة؛ لتُدرك جوانب المعركة، فعندما نعرف من يدفع أجرة العازف، نعرف من يختار الأغنية!

ونحن لا نتكلم عن العازف الموسيقي، نتكلم عن المثقف، عن الشاعر، عمّن يكتب الأغنية، عمن يفتح القنوات التلفزيونية، عمن يكتب برامج الأطفال، كيف تُصاغ وما الأفكار فيها. البنتاجون أصدر وثيقة قرأتها بنفسي وأظنها انتشرت، أن قنوات

(MBC) تخدم الثقافة الأمريكية أكثر من قناة (الحرة)، وقناة الحرة هي قناة تابعة للبنتاجون؛ لأنهم لا يملكون وزارة ثقافة أو إعلام، فيتبنَّى قناة الحرة البنتاجون ويدعمها ويقوم بتوجيهها.

فلن أكلم اخواني عن الكتاب كالمتخصصين، فعنوانه (المرايا المحدبة من البُنيوية إلى التفكيك)، فلن أتكلم عن البنيوية ولا التفكيك، نحن فقط نريد أن ندرك جوانب هذه المعركة واتساع جوانبها وأهميتها، نتحدث عن الكتب التي تصدر، عن القنوات التلفزيونية التي تسمع.

فالصورة الآن تكذب! الـ (CNN) لما أرادت أن تحارب صدام، ودخلت في منظومة التهويل ضد صدام، عندما دخل الكويت، فنشرت صورة لطائر مغموس في داخل زيت النفط على البحر، وقالت: هذه صورة أخذنها من الخليج العربي، وصل إجرام صدام أنه أهلك الثروة السمكية للخليج، وثروة الطيور وهذه النتيجة، وهذا جزء من التحريض عليه، ومقصدهم أنه يجب أن نتخلص منه. وبعد الحرب ظهر أن هذه الصورة مأخوذة من خليج المكسيك! وعرفوا تاريخها، ومصورّها، فاعتذروا لكن بعد أن أخذت مداها وانتشرت.

فالصورة تكذب وتُصنع، فالأفلام التي تسوق الشباب، كل شيء الآن هو صناعة من أجل صناعتك أنت، لذلك أحسن من سمى الإعلام "قصف العقول"، فكما أن بيتك يُقصف فيعريك، فالإعلام يقصف عقلك لأجل أن يجعلك ترتد، لذلك {لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا}، وهذه نزلت في الصد عن دعاية قريش أن محمد ﷺ لا يحترم الأشهر الحرم، فأرادوا الصد عنه، فهذ معركة.

فما الذي يعطي أهمية لهذا الكتاب؟

أولًا: أنه رجل من مدرستهم، من بيئتهم، فلن يقولوا أنه متعصب، فأول كلمة إذا تحدث الشيخ ضدهم سيقولون: "متخلف، سلفي!"، وكلمة "سلفي" في الثقافة غير كلمة سلفي في المحيط الإسلامي، مرةً قال رابين: "أخطَرُ ناس عليَّ السلفيين"، فالسلفيين ابتهجوا وقالوا نحن أخطر ناس على إسرائيل، وهو يقصد المنهج الديني المتعبِّد، وهو يرى كل المناهج المتعبدة التي تؤمن بإزالة إسرائيل سلفيين، فيقصدون به ارتدادي أي: يعود للثقافة والتاريخ والتراث، فليس المقصود به جماعة موجودة، كإخوان أو تحرير.

فهذه المؤسسات الحاكمة في الجامعات، في وزارات الثقافة، في مراكز الأدب، في مؤسسات الجوائز، كل هؤلاء يسيطرون وينتشرون وأيديهم قوية، كل من يظهر يقاتلونه ويحاربونه ويسقطونه، ولو مجرد اعتراض، فإذا تكلم شيخ يقال: هذا تراثي، هذا سلفي. أما أن واحدًا يخرج من بينهم، أصلًا هو تحدث عن الحلم الأمريكي ويؤمن به، ويقول أن ما تقولونه مجرَّد خداع وأكاذيب لا قيمة لها، فلن يستطيعوا ردَّه.

ثانيًا: أنه قد سهَّل الصعب، من قرأ الكتاب قد يصاب بمشقة -كما قال لي بعض الإخوة-، هو كتاب أراد أن يقول لك الصعب أصلًا كذب! كأنه أراد أن يقول لك: هم يصعِّبونه لأنهم كاذبون، فليس فيه شيء، كأن أحدهم وضع قطعة حجر من أي أرض ووضع عليها ألف قفل، فماذا تتصور أنت؟ تظن أن الألف قفل بداخلها جوهرة عجيبة جدًا، ولا يمكن أن تتخيل أن داخلها حجر، فيقول: هم وضعوا الأقفال على حجر! بل يقول أنه لا يوجد شيء حتى، وليس حجرًا حتى!

كما قالت سلمى الخضراء الجيوسي: "جلست اثني عشر عامًا لأفهم ما الشعر الحداثي، ثم فهمته" وهي لم تفهم في الحقيقة، فليس هناك شيء!

فهو يقول: أربع سنوات تعبت وأنا أحاول أن أفهم، مثل الجميع يقولون أنه صعب! كلنا مررنا بهذه الفترة، ما هذه الخطورة؟ وما هذا العمق في داخل هذا الكلام؟ فكل إنسان عندما يجد دخانًا ويرى بواسطة مرايا محدبة -التي تُكبِّر- وبعد مدة يظن نفسه هكذا كبيرًا، وهو صغير.

فيقول أن هؤلاء خدعوا أنفسهم، وضعوا أنفسهم أمام مرايا محدبة لتعظمهم، وهم مجرد أقزام لا قيمة لهم، فهم زعموا أنهم أهل اطلاع واسع على طرق النقد للأدب الغربي، واستطاعوا أن يأخذوه ويحولوه إلى ثقافتنا العربية، فهو يقول: أنتم أصلًا لم تفهموا ما هي طرق النقد الغربي، ثم تزعمون أنكم نقلتموها للعربية فهذا أكذب الكذب، وهذا غير موجود.

إذًا أول نقطة أنه يُعرّي هؤلاء، فإذا ذهبت إلى كتب هؤلاء من أجل أن تقرأ لا تجد فيها شيئًا، ترى مجموعة من الأقفال، فمن تتهم الصندوق أو نفسك؟! تجد أن الكل يتكلم عنه ويمدحونه، فتتهم نفسك أنك لم تفهمه.

وتعرفون قصة ثياب الملك، وقصة الملك الذي طلب من شعبه أن يملؤوا مكانًا ما بالحليب، فقال أحدهم كل الناس ستأتي بالحليب، وآتي أنا بالماء فلن يؤثر، في النهاية كلهم فكروا نفس التفكير، في الصباح التالي كل المكان كان مملوءًا ماءً!، وهكذا، هو يقول كل الناس تفهم، لكن لم أفهم. فهو يقول لا يوجد شيء، فسهّل ما هو صعب.

هذه أكبر خطيئة هو عملها، يقول أنا الآن سأعاني لأني سهَّلت ما هو صعب، اكتشفت أنه ليس من العلم في شيء، وليس لها دلالة ثقافية في شيء، وهو استنساخ لطرق الآخرين في هذا الباب، فلم يصنعوا شيئًا كما يزعمون.

فهذا من أهمية هذا الكتاب، وكل من قرأ الكتاب فرح وخجل، أننا كلنا مخدوعون ولم نفهم شيئًا؛ مثل الذي يشتري شيئًا فيظن أنه قد خُدع، والكل قد خُدع لكن يُخفي أمره مخافة أن يُتَّهم بالجهل.

فهذا الكتاب حركة من المعركة، وقد حدثت معركة، فهل سكت عليه دهاقنة الثقافة التغريبية؟! ما رجموه، وأعظم من كشفه الكتاب هو جابر عصفور، فعرَّى كتبه، وبيَّن أنه لا يوجد فيها من النقد في شيء.

فقضية القراءة التي لا تُفهم، هو يقول: قضيت أربع سنوات، ولم أفهم. وهذه الكلمة قالها الكثيرون -أيها الإخوة-، مثلًا: هاشم صالح، وهو نصيري ترجم كتب محمد أركون، ومحمد أركون هو عالم اجتماع جزائري، زعم أنه يريد أن يجدد الدين بنسخه، يقول هذا في إحدى مقدمات ترجمة كتب محمد أركون: مكثت سنين طويلة -لا أذكر قال سبعة أو ثمانية- وأنا لا أفهم ما هي! أحتاج أن أفهم ما يريد، ولمّا ترجمها في النهاية ترجم شيئًا لا قيمة له.

القصد في النهاية أن أقول: إياك أن يُضحك عليك! إياك أن يكذب عليك الكاتب! إياك أن يستهزئ بك الكاتب بحيث يسوقك إلى مراده ثم لا تجد شيئًا.

إذا كنت صاحب فن، يجب عليك أن تفهم ماذا يقال، فإذا لم تدرك فاعلم أنها معركة خداع وتزوير، مثل دخول فيلم السينما، يقول بعض النقاد أن السينما عقد بيننا وبين المشاهد أن نكذب عليه! وكثيرٌ من الناس يحبون هذا.

وعندما أخرج الكتاب صنعوا ضجة، وكذبوا وادعوا عليه أنه لا يفقه شيئًا، لكنه في الحقيقة جَلِد، هذا الكتاب في ١٩٩٨م أخرجه، وهو يتكلم عن أن النقاد الحداثيين العرب ليس عندهم من الأصالة شيء، والنقد هو أن تُبيّن معالم القوة ومعالم الضعف في النص، أن تبيّن الجماليات فيه والنقص.

والنقد فن قديم، فالخنساء كانت تجلس في أسواق العرب كذي المجاز وذي المجنة، والشعراء يحتكمون إليها، وتحكم بقواعد علمية غير مكتوبة كامنة في النفوس، مثل اللغة العربية كامنة في النفوس، فليست بحاجة للكتابة. فالنقد كان موجودًا عند العرب، وصارت هناك خصومات كبيرة في التاريخ هل الأهم هو المعنى أم اللفظ؟

فذهب هؤلاء الحداثيون المصنوعون بالمادة، الذين يوصفون بالعمالة والكذب، وقد ذكرنا رئيسهم وهو طه حسين، أما لويس عوض، فكشفه الأستاذ شاكر في (أباطيل وأسمار)، وبيَّن من الذي يدفع له، ومن الذي يستأجره، من أجل أن يُميتوا ذوق الإنسان العربي للعربية.

للأسف الآن اذهب إلى المدارس، لو أراد أحدهم أن يقرأ شعرًا عربيًا على الناس، كم من الناس يتذوقه؟!

إذا صعد شيخ على المنبر وتكلم بالعامية، وشيخ آخر تكلم بالفصحى، أين يذهب الإنسان العادي؟!

ماتت ذائقتنا العربية؛ لأن هناك معركة لصرفك عن اللغة العربية، فالآن أشق شيء على الطالب في المدرسة هو اللغة العربية، كأنه جبل! كأنه يتكلم الإنجليزية، وهذا جزء من صرفك عن دينك، لماذا لا نتذوق القرآن؟ لأننا لا نتذوق العربية.

فهذا الكتاب يكشف هذا الخداع، أن هؤلاء النقاد العرب الذين نسمع أسماءهم، ليسوا من العلم في شيء.

ثالثًا: نقطة مهمة جدًا، **أن هذا الكتاب يكشف أكذوبة عالمية الثقافة**، من أهم ما يُقيمه هذا الكتاب من قضايا أنه يقول: لا يوجد شيء اسمه "ثقافة عالمية". الآن أنت إذا ذهبت للسوق تجد: قصصًا عالمية، وموسيقى عالمية، وفي النهاية تجد الموسيقى قُطرية وطنية خاصة، من يحكم ميزان الثقافة العالمية؟ هو الغالب.

يقول ابن حزم: أن اللغة تكمن قوتها بقوة جيوشها، ولذلك كانت اللغة العربية مطلوبة عند الغرب لأن أهلها وشعبها أقوياء، وهم يُصدرون الثقافة، وهم يكتبون. الآن صارت اللغة الإنجليزية هي المطلوبة، لأن لهم الغلبة والقوة.

فيقول: لا يجوز لك أن تقتلع لغة من بيئتها، بزعم أنك تريد أن تعمم لغة أو نظرية على العالم، هذا كذب.

مثلا بيتهوفن يعتبرون موسيقاه عالمية، وهو ألماني وموسيقاه مشتقة من الثقافة الألمانية، بعض المخرجين قالوا: لا يوجد شيء اسمه سينما عالمية. السينما العالمية هي السينما الأمريكية باعتبارها هي الأقوى، فنحن مثلا لا نعرف الأفلام الإنجليزية والفرنسية، فكل ما نعرفه هو الأفلام الأمريكية بسبب القوة، وليس لأنها ثقافة عالمية. ولكن أين ثقافة الأمم الوطنية الخاصة بها؟ هذه تذوب.

ومن هنا نشأت العولمة، وهي: إزالة الحواجز المانعة من أن تسيطر ثقافة المتغلِّب على ثقافة المغلوب. والعولمة ممكن أن نأخذها بالبعد الاقتصادي -وهذه شرحناها في كتاب (نذر العولمة)-، و قلنا أن المقصود بها هو دخول الأموال على البلاد وسرقتها، بحجة أنك فتحت البلد كسوق عالمي، فتُدمَّر تحت باب عولمة الاقتصاد.

والأخطر من ذلك عولمة الثقافة، فلا يصبح هناك فرق بين مسلم وكافر، بين عربي وأجنبي، بين صالح وفاسد، بين غالب ومتغلب، نحن أمة إنسانية واحدة، وبالتالي ينبغي أن يكون لنا ثقافة إنسانية واحدة!، والحاجز الأكبر لهذه العولمة هو الدين؛ الولاء والبراء، ولذلك تجدون اليوم أكبر المعارك تقام ضد الدين، وخاصةً قضية الولاء والبراء، وسمعنا الاستهزاء بالآيات التي تبيّن مصير الكافرين، يقول تعالى: {إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ} فأساس التعامل مع الآخر هو الهَجْر، {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ} الآخرين هذا هو مجالهم، مجالهم أن تدعوهم، وأن تغزوهم، الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه.

هل مقصود العولمة إنشاء ثقافة مستقاة من كل الأمم؟ هل هي إيجاد قاسم مشترك بين الثقافات البشرة؟ هل هذا موجود؟

بل هي سيطرة ثقافة الغالب على المغلوب، وإزالة الحواجز المانعة من ذلك، وهذه لها جنودها الجاهزين، في كل جوانب الحياة، إذًا عولمة الثقافة لا وجود لها. وهو يثبت أن هذه القضية لا وجود، لا يمكن تطبيق قوانين اللغة الإنجليزية على اللغة العربية، لا يمكن أن تأتي بقوانين التاريخ الغربي وتطبقه على التاريخ الإسلامي.

الآن يأتي ويقول لك: الحكم الثيوقراطي، متى كان في تاريخنا الحكم الثيوقراطي؟ الحكم الثيوقراطي هو الحكم الديني؛ أن يأتي حاكم يقول أن الله وضعني، إلا المجانين العُبيديون، لكن التاريخ الإسلامي السني كله براء، الشيعة يرون أن الإمام معصوم وأن الله وضعه، أما السنة فتثبت إمامة الرجل إما بالتغلُّب أو بالشورى والرضا، لكن لم يدَّعِ أحد أن الإله وضعه، فكيف يُقرأ التاريخ الإسلامي بقوانين التاريخ الغربي؟!

جورجي زيدان لما بدأ يكتب التاريخ الإسلامي، جعل كل عمليات الانطلاق للفتح سببها النساء والمال! ويفسر التاريخ بما يعلمه من الغرب، فمعظم حروب الغرب قامت لهذه الأسباب. أما الفتوحات الإسلامية لم قامت؟ لنشر الدعوة، قل أنه دين استعلائي، أنه يجعل عند المسلم عُقدة إنكار الآخر، نعم لا مشكلة، لكن أن تقول أن الرجال خرجوا للجهاد لأجل النساء أو المال! هذا كذب، إنما هي فتوحات لأجل الإسلام.

إذًا هذا الكتاب أهم ما يطرحه كذلك هو: نفي عولمة الثقافة، كل بلد وكل مجموعة وكل طائفة من الناس لهم ثقافة وتاريخ ولغة خاصة بهم، وهؤلاء لهم ميزانهم في إدراك جماليات كلامهم والحكم على تاريخهم والحكم على لغتهم، إلى آخره.

هناك باب مهم جدًا وهو قضية **خطورة الثقافة**، هل الثقافة بالفعل مهمة؟ قد يأتي قائل ويقول: الناس في فلسطين يحاربون ويقتّلون، وهو جهاد عظيم ولا ينبغي أن يُقلل منه في شيء. نحن الآن في قضية صراعنا مع اليهود لو أسقطنا قضية اختصاصنا بديننا وتاريخنا ولغتنا، ماذا بقي من حاجز لنا حتى نصبح يهودًا؟!

هناك كاتب علماني حاقد علماني عدو، يقول الحل لأن نحل المشكلة بيننا وبين اليهود أن نصبح يهودًا!، فإذا صار الفلسطينيون يهودًا حُلَّت المشكلة، وأجبروهم على التعامل معهم بالمساواة، هذه قضية {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}.

أساس الصراع، وجودك بمعنى هويتك، **فالثقافة هي التي تصنع الصراع، والمعارك الوجودية الكبرى أساسها ثقافية، وقضية الإيمان هي التي تُحرك التاريخ**، فالكشف عن هذا الجانب في حياة الأمم مهم، بعد ذلك المعارك العسكرية في حياة الأمم قد تكون يومًا، يومين، أربعة، شهرًا، فهي لا تدوم، إنما التي تبقى هي معركة العقل، معركة الفكر، المنهج، الدين، الثقافة، لأنهم يريدون إدخال اليهود إلى بيتك، يريدون إدخال الصليب إلى بيتك، يريدون إدخال منهجهم في طريقة التعامل في بيتك إلى أهلك.

قبل أن تظهر قضية الخلع مثلا، لم يكن الناس يعرفونه، لو سألت أجدادك لن يعرفوه، أنت الآن إذا دخلت على زوجتك وأقفلت الباب، وتقاتلت معها، سيدخل قانون الخُلع إلى بيتك. فهذه المعركة دخلت بيتك، الآن ابنك يأتي ويفتح التلفاز ويشاهد، ولا تقول لي: أستطيع أن أحجبه عنها، لا تستطيع أن تعيش خارج الزمن. الآن الكتاب ضعُفت أهميته، وصارت السيطرة للصورة، وخطورة هذه المعركة أنها تدخل إلى بيتك، إلى ابنتك، إلى زوجتك، يفرضون قوانينهم وثقافتهم عن طريق المال والسلاح والقوة.

يا إخوة، شنَّت بريطانيا حربًا ضد الصين اسمها (حرب الأفيون)، تعرفون كم امتدت؟ مائة سنة!، لتُجبر الصينين على شراء الأفيون، اليوم لا يُقدمون عليها، لكن بالتهديدات، يشترون طيارات تنك، يشترون منظومة دفاعات لا قيمة لها. لكن الآن هم

يُجبرونك عن طريق المال والقوة على تغيير مناهج الدراسة في بلدك؛ الآيات التي تحض على كره الكافرين، الحديث عن اليهود، كل ذلك يجب أن يُزال، فأنت الآن تُصاغ رغم أنفك.

فمعركة الثقافة هي معركة الوجود، من أجل أن تنسلخ من وجودك، فتصبح لا شيء ولا قيمة لك، مثل الأمم البائدة، مثلًا الهنود الحمر، سنة ١٩٧٢م فقط سُمح للهندي أن يتملَّك. إذا ذهبت للمكسيك، تجد تسعة أعشار الشعب أسباني أو برتغالي، فهناك شعوب أُبيدت وانسلخت.

من الدلالة على نصرة الله، أنه ما من طائفة كفر أو طائفة بدعة إلا وكان الرادُّ عليها المُسقط لها من أهلها، تستطيع أن تقرأ التاريخ لتكتشف هذه السنة الكونية، وهذا تقرير واقعي لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}.

عندما تذهب لبريطانيا، تجد الصينيين والجامايكيين اندمجوا معهم، لكن قال كاميرون قبل مدة: "لقد فشلنا في الدمج الثقافي"، هذه متى قالها؟ عندما حاولوا دمج المسلمين، لم يقلها وهم يضعون السود لأنهم أصبحوا مثلهم، يعيشون حياتهم الاجتماعية تمامًا، أخذوهم فصنعوا منهم إنسانًا يعيش الحلم الإنجليزي، وجاءوا بالصينيين فانسلخوا من ثقافتهم وأصبحوا جزءًا من تركيبة المجتمع، جاؤوا من كل البلاد، وجاءووا بالبولنديين وصاروا من ثقافة المجتمع، أما المسلمين وجدوهم حجرًا لا يذوب، يذوب البعض لكن الأغلب لا يذوب.

فهذه هي المشكلة، أحيانا يدخلون البيت يجد الأب ذائبًا، لكن الابن ثابت على دينه متشدد، ومُربى على أن هؤلاء كفار وأنجاس، وأن الإسلام سينتصر، ولا تجد معركة إلا نفر إليها هؤلاء المسلمين ونصروها، لذلك هم الآن يرفضون ما يسمى الهجرة الإسلامية.

أنا لا أريد فقط أن أبيّن الصورة القاتمة، وجود هذا الكتاب هو صورة مضيئة لتستيقظ الأمة، فهذا الرجل من وسط الثقافة الغربية، ووجد أنها يجب أن لا تُستنبت أبدًا في الوسط الإسلامي والعربي، لا يجوز، نحن لا ثقافتنا يجب أن نعود لها، لها تاريخها وظروفها ومنهجها وذوقها ولها شعارها نعيش فيه، لا يسبّ ثقافتهم، لكن يفرّق بين ثقافتهم وثقافتنا.

الصورة المشرقة أنه بفضل الله لا يقل عن ألف وخمسمائة دراسة جامعية وماجستير ودراسات كبيرة تمجّد دِهقانهم الأكبر طه حسين، يعني نفخ، والصور المحدبة تعمل على تضخيم، والآن كأن صورة هذا الرجل بدأت تزول.

من كان يسمع قبل خمس وعشرين سنة عن الأستاذ محمود شاكر؟! هناك أستاذ اسمه محمد عباس، له مقالات في النت جيدة، كان يكتب في جريدة الشعب المصري، الذي يتبع حزب العمل، الذي كان يساريًا ثم تقارب وصار أبناؤه مسلمين، وأبناء أحمد حسين وهكذا، وهو رجل عجوز كبير ولي صلة معه، يقول في مقال له: "أنا ابن هذه الثقافة، أنا قارئ، وأمرٌ عجيب ألا أسمع عن محمود شاكر!!"، انظر إلى مقدار تغييب صورة المثقف الملتزم ابن هذه البيئة.

لكن الحمد لله الصورة الآن تنقلب، الأستاذ محمود شاكر الكل يتغنَّى به وبكتبه، ويُحضر ندوات له، وطه حسين صار خرقة بالية لا قيمة ولا اهتمام لها. هذا يدل أن الله إذا أراد نصرة هذا الدين، نصر معه ثقافته، بفضل الله هذا الإقبال على الدين، والإقبال على الشهادة، والإقبال على التضحية، وما نراه إنما هو من عودة هؤلاء الذين غُيّبوا وقوتلوا وحُرموا من كل شيء، حرموا من الدعم، من المال، من المؤسسات، من التوظيف، وكانت المعركة ضدهم كبيرة.

تجد واحدًا كان يكتب قصة يسبّ فيها الله، يسبّ فيها الرسول، يدافع عنه أهل المشرق والمغرب، ويوجد كثير، ويُقال أنها حرية فكر، وهذا إبداع وهذا أدب، وإذا قام رجل يدعو للأخلاق والدين، صاروا يعدّونه واعظًا، وصارت هذه تهمة، ويقولون: "نحن لسنا في خطبة جمعة"!، كل هذا من المحاربة، ولكن بفضل الله أنا أعتقد أن هذا الكتاب وأمثاله هو ضمن إعادة الثقة في ثقافة هذه الأمة وآدابها وتاريخها.

الأستاذ توفي سنة ٢٠٠٦م -رحمه الله-، أسأل الله أن يكون مات على الإسلام والخير، يقول: اتصل بي أحدهم، وهو الأستاذ عبد العزيز فقال:" أنت بكتابك هذا المرايا المحدبة، استطعت أن تفتح نافذة صغيرة، لتدمير ما نعيشة من حداثة كاذبة غربية في الأدب، لكن أجزم لك أن كتابك هذا فتح لنا نافذة لنقد الحداثة -ليس فقط اللغوية- بل حداثة الدساتير والقوانين والتشريع."

لأن الحديث عن عولمة الثقافة، هو حديث عن عولمة القانون، هم يريدون قانونًا للعالم لذلك وضعوا الأمم المتحدة، لتحوّلَ كل الدساتير لتقترب من بعضها البعض، الكل يتحدث عن الديموقراطية على أنها منهج حياة، الكل يتحدث عن العلمانية على أنها منهج حياة، يريدون عولمة وإزالة كل الديانات والتشريعات الخاصة بالشعوب. تصور أن الذين يتكلمون عن الدستور والتشريع بهذه الجهالة من الدين، وهذا الرجل بدأ يتلمَّس أن هناك نقدًا عربيا، لم يصل لدرجة أن يضع نظرية في النقد العربي، هو فقط فتح نافذة الصغيرة.

مثل د"ائرة اليزيدي"، فاليزيديون عندهم اعتقاد، وكثير من الناس يعيشون فيه، لكن ليس بهذه الصورة الساذجة ولكن المتطورة، وهي أنه إذا جاء رجل وصنع دائرة حوله فليس له أن يتجاوزها، فعنده اعتقاد أنه لا يجوز أن يتجاوزها، إلا أن يأتي الذي لفها حوله ويزيلها، هذه دائرة وهم!، ما الذي يمنعك أن تمشي؟!

فكثيرٌ من الناس يعيشون في دائرة الوهم، يقول: هذا لا أقدر عليه، وهذا صعب، وهو على مبدأ دائرة اليزيدي، وهم فقط.

وأنا أذكر عبد الرزاق السنهوري وهو دهقان واضعي القوانين والدساتير العربية، وهو فرنسي؛ لأجل ذلك الدساتير العربية كلها منهجها فرنسي؛ فهو أستاذهم، وهو الذي وضع هذه الدساتير أصَّل لها، وكان مرة يخاطبه أحد تلامذته في الجامعة يقول:" أستاذ لكن هذه في الإسلام كذا"، فقال له: "ومن متى يوجد في الإسلام نظرية سياسية؟"، تصور أن أستاذًا بهذا الحجم لا يعلم بأن في الإسلام نظرية سياسية، بغض النظر أن الكلمة خطأ، لكن لا يعلم أن الإسلام يحمل منهجًا!.

بفضل الله هذا الأمر بدأ ينقشع، ودائرة اليزيدي بدأت تزول، والوهم بدأ يُكشف على أناس كذابين عملاء يسمَّون "مثقفين"، والثورات العربية كشفتهم، والدليل أن الناس كانت تظن أن المثقفين والفنانين والشعراء سيقفون مع شعوبهم، فوجدنا أن هؤلاء يقفون مع الطغاة، مع أعدائهم المجرمين، فدّل على أنهم مجموعة من الكذابين لا قيمة لهم، يضحكون على الناس.

والأمة بدأت تعود -بفضل الله- إلى رجالها، وتعود إلى تاريخها، إلى الذين حاربوا "قابلية الاستعمار" كما سماها مالك بن نبي، حطمها هؤلاء الشباب، وصارت العودة إلى كتب الثقافة، وهذا قهرهم القهر الشديد، مثلًا معرض الكتاب في القاهرة أو الرياض من أعجب ما يكون أن الكتاب الإسلامي هو رقم واحد، فقد علم الشباب حقيقة كتبهم وأنهم دجالون أصحاب كلام فارغ لا قيمة له، وهذا بفضل الله -عز وجل-.

وأختم بهذا، وأسأل الله –عز وجل- أن يوفقنا لما يحب ويرضى، لمن لم يقرأ الكتاب، ووجد الصفحات الأولى شاقة عليه، فليأتِ إلى ما بعده، هو يريد أن يقول لكم أن هذه المشقة ليس تحتها شيء، بعض الفلاسفة قديمًا قال كلمة: "سأتكلم كلامًا لا أفهمه أنا، ولا تفهمه أنت ليُقال عالم!".

أنا مررت عليها مرور سريعًا، وهو تغريب النقد، والمقصود به أن كل كلام لا بد أن تُدرس قوته وضعفه من خلال مزاج الأمة، قيل لابن المقفع: لم لا تكتب الشعر وأنت تنقده؟ فقال:" أنا كالمِسَّن –ما يُسَّن به السكين- أشحذ ولا أقطع"، أي هو الذي يصنع السكين الجيد لكنه لا يقطع مثله. فالقصد أن النقد إلى الآن مختلف فيه، هل يوجد في تاريخنا أمانة نقد؟ هل يوجد

في تارخنا منهج نقدي للغة؟ للأسف لأنهم يريدون شيئًا جاهزًا بغير تعب، فزعموا أنه لا يوجد في الأمة تاريخ نقدي، فاضطروا لأخذه من الغربيين.

فتغريب النقد ما المقصود به؟

هو أن نقرأ لغتنا وتراثنا بعيون غيرنا، يقول أحدهم مثلًا: من علامة تخلف العربية وثقافتها عدم وجود مسرح!، تصور أنه يحكم على تاريخ الأمة وثقافتها وأدبها وإنتاجها العلمي، انظر إلى إنتاجها للتاريخ، لا يوجد أمة أنتجت للتاريخ مثل هذه الأمة، لا يوجد أمة رعت لغتها كما رعت هذه الأمة، ولا يوجد أمة رعت ثقافتها كما رعت هذه الأمة شعرها، إلى آخره. ثم يأتي هذا ويقول أن هذه الأمة فاشلة لأنه ليس لديها مسرح، بالرغم من أن المسرح هو إنتاج وثني، فهولاء قالوا: يجب أن نقرأ ثقاتنا بعيون غيرنا وبمنهجهم في التذوق!

وهو يثبت في فصله الأخير من هذا الكتاب، أن النظرية النقدية في الغرب نتجت بسبب اضطراب نفسي، أي البنوية والتفكيك سببها أمراض نفسية بهم، وهي كلمة خطيرة لم ينتبه لها من هم ضده من النقاد، لأنها لا تعنيهم، هم انتبهوا للسبّ عليهم، عندما ذكر جابر عصفور، جمال أبو ديب وهكذا.

فردّ عليه الحداثيون في هذا الباب، أما هؤلاء الجهلة لم يهتموا بها، ولكن هذا تخصصه، وأعتقد أن الباب الأول مهم جدا، والثاني أهمُّ منه للمتخصص، عندما قال أن النقد الغربي منشؤه ليس لإدراك جمالية النصوص وإنما لأسباب نفسية، هي جزء من أمراض الناقدين، والدليل غريب جدًا، أن معظمهم يتعاطون الحشيش، وبعضهم انتحر، وبعضهم له خصال مريبة!.

ذكرت في كتاب (فن القراءة)، جان دي نيه وهو فرنسي، وتحبه الجماعات الفلسطينية اليسارية الكفرة، لأنه كان يقاتل معهم في لبنان، هذا الناقد الفرنسي مات، وكتب عنه اليساريون العرب، والذين كان يقال قديمًا عنهم باستهزاء: "إذا أمطرت في موسكو حمل اليساريون العرب المظلات!".

فكان جان دي هذا "مثقفًا" فرنسيًا كبيرًا، لكنه شاذ –لوطي–، وكان صديقًا لليساريين، فكان يذهب ليعيش أحيانًا في معسكرات الفلسطينين، خاصة الجبهة الشعبية لجورج حبش وجبهة نايف عوّاد، فلما مات كتبت "مثقفة" عُمانية قالت: "إن شذوذه الجنسي هو الذي ألهمه عمق النقد!".

الأسئلة

- **السائل: يا شيخ بالنسبة لفيلم الرسالة؟**

الشيخ: هذا الأمر أهرب منه كثيرًا، وهو قضية القصة والفيلم، سواء الفيلم الممثَّل أو الفيلم الكرتوني، وأنا لم أره، ربما مر أمامي دقيقة أو دقيقتين، مثلًا مسلسل عمر بن الخطاب، وأنا عتقد أن الذين صنعوه قد أجرموا في حق الدين. مصطفى العقاد هذا واحد غير إسلامي، ماذا يقول؟ وهذه قضية مهمة، وأنا أقدِّم مقدمات حتى أُفهم على الوجه الصحيح، يقول هذا المخرج الذي أخرج فيلم الرسالة: بأن صورة النبي ﷺ في ذهن كل مسلم لها هالة، وهي تملأ وجدانه، وكذلك شخصيات الصحابة – رضوان الله عليهم–، فإذا جُسِّدت ذهبت هذه الهالة، وهذا من الناحية الفنية وليس الدينية، لكنها موافِقة للدين في الحقيقة.

وعندما رأيت لدقيقتين لم أتحمل، وإلى الآن نادم على رؤية هاتين الدقيقتين، هذا عمر بن الخطاب!، كذب على صورته الموجودة في الكتب، وليس حتى التي في ذهني، وزعموا أنهم خدموا الدين، المشكلة أن من قام عليه جماعة من الخِيَار والمتدينيين!، فهذا خطأ، يجب إبعاد هذه الصورة تمامًا.

هل الفيلم يصنع ثقافة؟

نعم بلا شك، الآن الغرب لا يعرف ثقافة بلاده ولا ثقافة البلاد الأخرى إلا بالفيلم، ولذلك عامة الأفلام التي تُصنع الآن معظمها تاريخية. وأنا أحمد من قام على الأفلام الكارتونية، وأُجيزها، ولي دراسة فيها، الأفلام الكارتونية للأطفال مثل: محمد الفاتح، رحلة السلام، أعتقد أن الناس يعرفونها، وأرى أنها نموذج للثقافة.

تبقى قضية القصة، في حظر واحد لا أريد أن أدخل فيه. نحن كنا نتكلم عن كتاب (من يدفع أجرة العازف)، وتكشف الكاتبة أن جورج أورويل كان يقبض أموالًا من الـ(CIA)، وبرانتد راسل، كل هؤلاء كانوا يقبضون من أجل القصص.

هل القصة تخدم الفكرة؟

وجدنا أن هناك مذاهب لم تنتشر إلا بالقصة، مثل المذهب الوجودي.

فهذا عالم موجود، رغم أنفك يدخل بيتك، فنترك الناس ليشتغلوا فيه، لكن لا نتابع غيرنا. يعني مثلًا ما هو الدافع لمسلسل عمر؟ هو للأسف الرد على الشيعة، لكنهم ذهبوا بعيدًا. الآن الشيعة مثلوا فيلمًا عن النبي ﷺ، ومن قبله عن يوسف –عليه

السلام-، وعن مريم، وهذا في الحقيقة من الضلال والكذب، ولا يجوز أبدًا الاقتراب منها، هناك جوانب تاريخية مسموح فيها هذه الحركة، وهناك من أجازها، الشيخ عبد الرحمن السعدي مثلًا رأى تمثيلية ساذجة في أحد المدارس، يمثلون الصالح والطالح وهكذا، فوجد أنها من طرق الدعوة وتثبيت الخير. مثلًا لو سألتني متى عرفت محمد الفاتح؟ أقول لك في الجامعة، الآن تعال لأي شاب صغير عمره اثني عشر عامًا واسأله، تجده يعرف أكثر مني! من أين؟ عن طريق الفيلم.

فهذه صارت ثقافة للأسف، صار الكتاب ضعيف التأثير، نحن نريد أن نعيده لأن يكون فاعلًا وقويًا، لكن كذلك علينا أن نملأ جوانب التربية الأخرى، فنترك هؤلاء ونمدحهم، لكن يجب علينا الحذر من إسقاط قيمة الاتباع والقداسة، والصورة العظيمة للأنبياء والصحابة التي في الأذهان.

تصور الآن أن أحدهم شاهد فيلم سيدنا يوسف، ثم وهو يقرأ سورة يوسف، من الذي يقع في ذهنه؟!، للأسف ما أعلم أحدًا إلا وشاهد فيلم الرسالة، لو ذُكر حمزة فورًا يقفز لذهنك الممثل، وهذا الخطأ!.

أنا لا أذكر آثاره، فله آثار كبيرة، في السجن الذي كنا فيه، كان هناك قناة داخلية للأفلام، مسموح لأي سجين يأتي بفيلم، لكن يكون رسميًا وليس مسروقًا، وتأخذه لإدارة السجن فيضعونه، فأخ ليبي اسمه فرج -رحمه الله- جاء بالفيلمين، الرسالة، وعمر المختار، فوضعوهما في السجن لمدة أسبوع، فاحتج النصارى وأرسلوا كتابًا للسجن، ومنعوها بعد ذلك لأن فيه دعوة للإسلام!.

فالقصد أنه قد أثر في الناس خاصة السود، حيث يعيشون حالة من الإنكار رهيبة، خاصة منظر صعود بلال على الكعبة، وأنا شاهد عليها من داخل السجن، حينما يأتي هذا المنظر كنت أسمع صراخًا داخل السجن، تعبيرًا عن الفرح. مُنع في المغرب، وإلى الآنلم يُعرض في مصر، لأن الأزهر وإن وافق على النص لكن رفض عرض الفيلم، وهذا الصواب، لكن هذا الجانب يجب أن يُملأ.

وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

[١٥]
مناقشة كتاب (هكذا ظهر جيل صلاح الدين) لماجد الكيلاني

إنّ الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرّ الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإياكم منهم، آمين.

أمّا بعد؛

في هذا اللقاء كما أعلنّا في الأسبوع الفائت، ستكون مناقشة كتاب الدكتور ماجد عرسان الكيلاني (**هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**). ومن عجائب القدر، أن نؤجل هذا الكتاب وأن نؤجل مناقشته ليلتقي في اليوم الذي توفي فيه هذا الرجل. اليوم أُعلن في الصباح أنّ الدكتور ماجد الكيلاني قد توفي في شمال الأردن، في قريته (الشجرة) وهي من قرى مدينة (الرمثا) رحمه الله -عزَّ وجلَّ-. وأسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يغفر لنا وله.

ولا أدري ماذا يُسمّى هذا؟ وماذا يمكن أن يستخلص منه؟ أو أنّه لا يفيد أيّ شيء. لكن بالنسبة لي تردّدت أن أتابع مناقشة هذا الكتاب في هذا اليوم؛ لأنّني شديد على هذا الكتاب، ولي فيه رأي شديد، ولا أريد أن يشترك في هذا اليوم في ذكر هذا الرجل الطيب وانتشار وفاته ونعيه، مع هذا النقد الذي سيوّجه إلى الكتاب الذي صار بين الناس، وصار له الانتشار وطبع طبعات متعددة، وتبنّته بعض مراكز الفكر، وطبعته طبعات مدعومة.

فهذا الكتاب منتشر، والدكتور تخصّصه التربية لا التاريخ؛ لذلك وقع في أخطاء عليه رحمة الله في تبنّيه لطريقة فيها إعادة نموذج الملك الناصر صلاح الدين في إعادة القدس، مع أنّه يقول في آخر كتابه عن قواعد السنن التاريخية وقواعد الحياة بأنّه: "لا يؤمن بمسمّى العبرة في التاريخ". العبارة كما ترون قاسية، أنّ الرجل لا يؤمن بالعبرة بالتاريخ، وليس المقصود هذا المعنى الظاهر، مقصوده لما تُدقّق في كلامه ومفهوم كلامه، تجد أنّه يتحدّث عن شيء آخر، هو لا يؤمن باستنساخ التاريخ. وهناك فرق بين العبرة، أن تأخذ العبرة من التاريخ وبين استنساخ التاريخ، فالعبرة من التاريخ هي أن تدرك سننه وتعرف أنّ هذه السنن، إذا

سلكت طريق الحقّ توصلك إلى النجاة، وإذا سلكت طريق السنن القدرية التي خلقها الله في الوجود فستصل إلى مرادك، وإذا خالفت هذه السنن وخالفت القيم الإلهية الحقّة؛ فإنّ النهاية هي الهلكة والدمار. هذه هي القضيّة التي أراد أن يثبتها وأثبتها، ولكن هو قال: "أنا لا أؤمن بالعبرة" وإنّما العبرة التي أرادها هي أن نستحضر حالة من التاريخ ونطبقها تطبيقًا حرفيًا في زماننا، هو يقول هذا لا يجوز. وهذه كلمة حقّ.

ونحن نعلم جميعًا بأنّ هناك من حاول أن يستنسخ أحداث التاريخ وأن يستجلبها لواقعه ففشل. وأكبر دليل قصة الحَرّة: لما جاء مسلم بن عقبة من قبل يزيد، وجاء جيش الشام لحصار المدينة وقد ثارت عليه وخرجت عن بيعة يزيد بن معاوية، فعبد الله بن حنظلة الغسّيل كان رجلًا صالحًا، وكان يرفض القبول لأيّ كلمة تُقال في حقّ يزيد، حتّى إذا زاره في الشام ورأى منه ما رأى؛ رجع المدينة وحرّض أهل المدينة على الثورة وخلع بيعة يزيد. فلمّا خلعوه، أرسل يزيد لهم جيشًا بقيادة رجل يُسمّى مسلم بن عقبة، وسمّاه أهل الإسلام مسرف بن عقبة؛ لما أسرف من الدماء ولما صنع.

ما يهمّنا في هذا الشاهد هو أنّ عبد الله بن حنظلة الغسّيل بعقله غير السنيّ، هو متعبّد ولكنّه غير سنني. والإمام مالك –رحمه الله– علّمنا قاعدة عظيمة (**أنّ التقوى تتجزأ وأنّه يمكن للمرء أن يكون تقيًّا في شيء وجاهلًا في شيء**)، وقال: "لقد طفت على كذا وكذا –ألف من المحدثين– في هذه الأساطين –يعني هذه الأعمدة– في المسجد أتقرّب إلى الله بدعائهم ولا أقبل حديثهم". يتقرب إلى الله بدعائهم ولا يقبل حديثهم. هذه قاعدة يجب أن تطّرد الحياة، هناك عابد وهناك عاقل وعالم. والعبادة بمعناها النسكي وإلا فالعبادة بمعناها القرآني يجب أن تكون شاملة لإعمال العقل لأولي الألباب ولقوم يعقلون. لكن يمكن للعقل المسلم أو للإنسان أن يتجزأ، أن يكون صالحًا في شيء ضعيفًا في شيء آخر، كلًّا في شيء عدلًا في شيء آخر، وهكذا.

فمسلم بن عقبة لما جاء، قام عبد الله بن حنظلة الغسّيل وأراد أن يصنع صنيع النبي ﷺ في المدينة لما جاءت إليه الأحزاب في غزوة الأحزاب. هذا نموذج أنا أكرّره كثيرًا لأنّه نموذج حاضر في داخل الشخصية المسلمة غير الواعية. فما الحلّ؟ قال احفروا الخندق كما حفر الصحابة الخندق؛ فنصرهم الله.

النتيجة حفروا الخندق، ولم يصنع خندقهم ما صنع الخندق في زمن النبي ﷺ، واجتاحه مسلم بن عقبة ودخل المدينة وأهلك الحرث والنسل وصنع ما ذكرته كتب التاريخ وفيها الكذب وفيها الصحيح. لكن موقعة الحَرّة بقيت عارًا وشنارًا في جبين تاريخ أهل الإسلام لما وقع فيها.

فهذه صورة من صور استنساخ التاريخ، أن تجلب حادثة وتضعها دون مراعاة ظروفها، ودون مراعاة موضوعيتها، يجب أن ترى، اليد هي جزء من الإنسان لكن عليك أن تراعي نوع الدم، عليك أن تراعي الشكل، عليك أن تراعي ملائمة هذه اليد لمكانها، يمكن أن يضعها المرء في رأسه ويقول أليست اليد جزءًا من البدن فها أنا قد وضعتها في البدن، وهو قد وضعها في مكان الرجل، فهذا لا ينفع. فاستنساخ التاريخ لا يجوز. هو يؤمن بهذا.

ولذلك مبعث هذا الكتاب، هو يقول دون أن يصرح ولكن قراءة الكتاب تدل على مراده. ماذا يقصد الدكتور بهذا الكتاب؟ يقول في النتائج المستخلصة من قراءته لقضيّة التاريخ الإسلامي والإنساني بأنّنا يجب علينا حين نعجز عن الوصول بوسيلة ما أن نغيّر ونبدل.

من هنا المنطلق من أجل أن نأخذ فكرته لنهدمها من داخلها للأسف!

هو يقول في القوانين الكونية التي تحكم التاريخ، في القانون الثاني، خلاصة ما يضع من شروح، يقول: "أنّ الفشل يوجب المراجعة". بمعنى أنّك إذا سلكت هذا الطريق ففشلت فيه فيجب عليك أن تبحث عن طريق آخر. يقول لكم بأنّكم: "سلكتم طرقًا متعددة لإعادة فلسطين ولتحرير القدس من اليهود، فلماذا لا تبحثون عن طرق أخرى؟" ذهب هذا الدكتور إلى التاريخ واستدعى صورة مماثلة لسقوط القدس بيد الصليبيين وقرأها –كما يقول هو– قراءة تربوية واستخلص بأنّنا: "لا بدّ أن نعد جيلًا تخرجه المدارس التربوية من أجل أن يحدث به التغيير، ومن أجل أن يحدث بهذا الجيل الانقلاب من الهزيمة إلى النصر." هذا ما يقوله الدكتور.

هذا منطلق من أجل أن نفهم السنن. هو يقول أنّ الفشل يوجب المراجعة. بمعنى أنّكم مثلًا سلكتم طرقًا ما في تحرير فلسطين ففشلتم فابحثوا عن طريق آخر. ما هي الطريق يا دكتور؟ الطريق هي التربية، أن يقوم مربّون في الواقع الإسلامي ويُنشئوا أربطة تعليمية ومراكز تعليمية، ليس مهمًّا الآن الأسماء، هو في التاريخ الإسلامي سمّاها المدارس وسمّاها الزوايا والتكايا، لأنّه لم يستشهد وهذه جريمة –أنا أعتبرها– الّتي مارسها في قضّية من الّذي صنع، إن صُنع جيل صلاح الدين؟ أنّ الذي صنعه هي الأربطة الصوفية.

وسنقرأ بعض من ذكر، هل هؤلاء يستحقّون أن يدخلوا في صناعة تاريخ جيل التغيير؟ هل يستحقّون هذا أم لا يستحقّون؟ هذه مشكلة. كيف نناقش الدكتور في هذه القضيّة، وهي قضيّة ما يدعوننا إليه: أنّ التجارب الفاشلة توجب التغيّير، يعني يجب أن نغيّرها، ونبحث عن طرق أخرى. الدكتور أخطأ في هذا خطئًا جسيمًا.

والسبب هو أنّ الطريقة للتغيير هي طريقة سننية واحدة ولكن قد تفشل؛ لا لخطأ المنهج ولكن لضعف موضوعيته. نحن نرى النبيّ ﷺ وعندنا تجربة وتجارب، -وهذه دائمًا أحتجّ بها واحتجّ به سلفنا- جاءه الرجل وشكا له استطلاق بطن أخيه، هنا معضلة ومشكلة، هنا مرض، قال: "اسقه عسلًا". رجع قال له: "سقيته فازداد استطلاق بطن أخي"، ما قال له غيّر، دعاه أن يعالج موضوعية هذا التغيّير وهو الكمّية، جزء البحث: الكمّية، قال له: "اسقه". لأنّ مجرد وجود العسل لا يحقّق الشفاء، **لا بدّ من وجود كمّية مقدّرة سننيًا للتغير**.

يعني عندما تقول لرجل: "اشرب كأس ماء من أجل أن تروي عطشك"، فيذهب فيشرب ماءًا مطلقًا، يعني أخذ له مثلًا قطرة ماء وشربها هل يُدفع عنه العطش؟ هل الخطأ في السنّة أم الخطأ في موضوعية التعامل مع هذه السنّة؟ اشرب هذا القرص، هذه المجموعة من الدواء يجب أن تشربها كلّها ليحصل الشفاء.

السؤال يا دكتور ما هي المناهج التي مارسها أهل الإسلام فثبت خطؤها حتى نذهب إلى طريقة أخرى في معالجة حلّ هذه المعضلة التي نزلت بأهل الإسلام -وهي سقوط فلسطين وذهاب بيت المقدس إلى اليهود-؟ ما هي الطرق؟ هذا سؤال، هو يطرحه بعد ذلك وسنتركه نحن يجيب على هذا السؤال. وهذه هي المشكلة، وهي عقدة العقد بيننا وبين الدكتور، عقدة العقد بيننا وبين طريقة التغيّير التي يطرحها العقل غير السنني.

إذًا قضيّة أنّ الفشل يوجب التغيير هذه ليست مطلقة. نضرب مثالًا: عندما يستدعي الدكتور الحروب الصليبيّة، أين الخطأ الذي مارسته أمة الإسلام، وثبت خطؤها في معالجة الصليبيين، وبعد ذلك اكتشفوا الطريق الصحيحة التي أنت تدعو إليه؟ هو يطرح هذه القضيّة، على الرغم أنّ ما يطرحه الدكتور من نماذج للتغيّير هي في الحقيقة من أسباب هلاك الأمة، فجعل الداء هو الدواء. وأنا قلت كنت أتمنّى ألا يناقش هذا الكتاب في يوم وفاة الدكتور -رحمه الله-.

يقول الدكتور هذه خلاصة الكتاب: "في القانون السابع من قوانين التغيّير -التي استفادها من تجربة تحرير القدس من الصليبيين- أنّه لا بدّ من ضرورة التدرج والتخصّص وتوزيع الأدوار". كلّ كلمة من هذه الكلمات يمكن لأيّ أحد أن

يستخدمها، يعني يمكن يستخدمها رجل يقول لا ينبغي لك إذا آمن أحد بفكرة الجهاد لديك أن تقذفه إلى الجهاد فلا بدّ من التدرج، هذه ينطبق عليها قانون التدرج. لو أنّ رجلًا قال من التدرج يا شيخ هو أن تأتي بالشخص الواحد والشخص الواحد يأتي بشخصين وثلاث حتى يصبح عندك كمّية كافية، ثمّ يطرح فكرته في قضية الجهاد مثلًا، فهذا شخص آمن بالجهاد وآمن أنّ للوصول لجهاد التمكين لا بدّ من التدرج. ومن التدرج كذلك الذي يريده الدكتور وهو الذي صرّح به: "أنّنا لا ينبغي أن نصل إلى الجهاد حتى نمّر بوسائل أخرى من الإعلان" سمّاها هكذا. يعني هذه الكلمات التربوية والاجتماعية لا يجوز لك أن تفسرها تفسيرًا مطلقًا، ليس لها تفسير مطلق، كل أحد يفسرها بحسبه. مثلما ضربنا مثلًا بكلمة التدرج، رأيناها على جهة، ورآها على جهة مناقضة حين يقول الدكتور: "بأنّنا يجب علينا أن نسلك من أجل عملية التحرير ثلاثة سبل أو ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى هي مرحلة الجهاد التربوي. أولًا علينا أن نربّي مرحلة الجهاد -سمّاه جهادً تربويًا-.

ثم المرحلة الثانية الجهاد التنظيمي الإداري.

وثالثًا مرحلة الجهاد العسكري".

إذًا هو يصرّح أنّ الطريقة التي ينبغي أن تسلكها الأمة من أجل التغيّير ومن أجل إعادة جيل التغيير وجيل التحرير؛ يجب علينا أن نسلك هذه الطريقة. وهو يطرح هذه القضية كمراحل؛ مرحلة، مرحلتين، ثلاث.

هذه كما ترون هي عملية خادعة وإن كانت جميلة. يعني عامّة الجماعات الإسلامية الآن تقبل هذه الفكرة حتّى إنّها تُطرح عندما نرى في سبل التغيّير بعض المعوقات التربوية.

يعني عندنا جماعة من الجماعات، لنفترض أنّها جماعة التبليغ -كونها ضعيفة ويحصل بها المثل وما يصير مشاكل إذا ضربنا لمثل فيها، أمّا مع جماعات أخرى ممكن يصير مشاكل-. إذا صار مشكلة بين اثنين وتخاصما وتسابّا، فورًا ما هي أول كلمة تبرز منهما؟ أنت بحاجة إلى تربية. قبل أن نخرج لندعوا، أنت بحاجة لتربية، نأتي إلى الجهاديين، في الجهاد لو صارت مشكلة بين اثنين وسبّوا بعض ماذا يقول؟ أنت بحاجة إلى تربية.

ولما الشيخ ناصر كما يروون عنه -وبعضهم يثبتها وهم الأكثر وبعضهم ينفيها لأنّها فيها اتهام- وهو يدعو إلى التصفية والتربية، تصفية الكتب والعقائد والتربية إلى آخره. وبعد أن استهلك عمره وقارب الوفاة قال: "أنا صفيّت وما ربيّت" لأنّه رأى جموعًا من الأتباع ليس فيهم تربية. فدائمًا نحن نرجع إلى هذه القضية وهي قضية التربية.

السؤال الذي يُطرح: هل ما يقوله الدكتور صحيح أم خطأ؟ بمعنى هل التربية هي مرحلة تسبق الفعل أم أنّها موافقة للفعل؟ بمعنى هل أنت تربّي ابنك قبل أن تذهب به إلى المدرسة أم تربّيه خلال نموه وذهابه إلى المدرسة؟ هل أنت تمنع ابنك من الذهاب إلى الحياة والانطلاق إلى الأصدقاء والناس والحياة والزواج حتى تربّيه أم أنّه يُربّى خلالها؟ في كل مرحلة يحتاج إلى تربية وفي كل مرحلة فيها موعظة جديدة وتذكير جديد، وكذلك التربية ليست مرحلة انتهائية.

أكبر جريمة من جرائم الفقه الصوفي، هي وجود طبقة اسمها طبقة الأولياء. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، هناك طبقة، طبقات الصوفية! ماذا يعني هذا؟ يعني أنّك أنت تسلك الصف الأول، الثاني، الثالث، الرابع ثمّ تتخرّج من الجامعة فيصير عندنا خريجي البكالريوس، خريجي الليسانس، تصبح أنت صاحب طبقة ثابت فيها. ليس من الممكن إذا كان الواحد ختم توجيهي أو أخذ البكالريوس أن تقول له ارجع إلى الصف الأول، لأنّه قد انتهت طبقاته المرحلية الأولى فنفذ إلى المستقرّ، لا يوجد في التاريخ الإسلامي هذه الصورة.

لا يوجد عندنا في الإسلام رجل يسلك تربويًا ثم يصل إلى طبقة يستقرّ عليها. هذا مناقض لأكبر عقيدة عندنا وهي أنّ الإيمان يزيد وينقص. النبي ﷺ بعد طول تربية يقول لأبي ذر: (إنّك امرؤ فيك جاهلية). هل يقول له أوقف الآن كل نشاطاتك يا أبا ذر واذهب وتربّ حتى تزيل هذه النكتة من قلبك؟!

لما دخل الناس في دين الله أفواجًا، وعدّه الله نصرًا وبه تحقق نصر الإسلام، هل أراد أن يعيدهم إلى الفترة المكية لأنّهم ما تربوها وما مرّوا فيها؟ إذًا ما معنى هذه المرحلة؟ ما الذي يريد الناس وهؤلاء المربّون أن يقولوه في هذه المسألة؟ هل علينا أن نتربّى، حتّى بعد ذلك، بعد أن تنتهي المرحلة التربوية نقول هيّا بعد أن تربينا وأنشأنا المدارس التربوية وغيرها؟ قلنا ما شاء الله متى هذا؟ أعطني مرحلة.

عندما يضع المرء قاعدة ينبغي أن يضع لها أرجلًا تمشي عليها. فقل لنا ما هي المرحلة التي يصل إليها هذا المرَبّى حتّى ينتهي، ثمّ نقول نبدأ الآن؟

سمعت خطبة لأحد المشايخ قبل أسبوعين لما بدأ ضرب السكاكين ضدّ اليهود، تحدّث عن طريقة تحرير فلسطين، ونموذج ما طرحه هذا الخطيب هو نموذج ما طرحه الدكتور في هذا الكتاب. بل صنع أخبارًا من أجل صناعة هذه الفكرة، وهي فكرة جميلة لكن غير واقعية، وغير سننية، ولا وجود لها في التاريخ. قال بأنّ صلاح الدين لما جاء قال له العلماء: "لا تجاهد لأنّنا غير

جاهزين". وهذا لا وجود له في التاريخ! من قرأ ولو لمة قليلة من تاريخ الحروب الصليبية لن يجد أن الأمّة توقفت عن الجهاد في لحظة من اللحظات.

منذ أن نزل الصليبيون بلادنا وأقاموا لهم مملكة (الرها) و(أنطاكية)، ثمّ بعد ذلك دخلوا إلى (بيت المقدس) وأوجدوا مملكة بيت المقدس، والأمّة تحارب وتجاهد، وكانت تحقّق انتصارات تعادل انتصارات حطّين، وبعد انتصارات حطّين هُزمت هزائم كما هُزمت في معركة دخول بيت المقدس.

لم يكن هناك العصر الذي نشأ فيه الجيل الذي لا يتحقّق معه إلّا الإنتصارات لما سبقه من جيل لا تتحقّق به إلا الهزائم، هذا غير موجود. في الوقت الذي كان الصليبيون يتقدّمون إلى انتصارات كان أهل الإسلام يتقدّمون إلى انتصارات. وفي الوقت الذي نشأ فيه صلاح الدين ليتقدّم إلى انتصارات كانت تتحقّق منه إخفاقات. فيزعمون أنّ العلماء طلبوا منه التوقف عن الجهاد. من هم هؤلاء العلماء؟! لا وجود لهم إلّا في الذهن، علماء نصحوا صلاح الدين قالوا له: لا تجاهد لأنّ الأمّة غير مستعدّة، ثمّ ربوْها، وأين صناعة التربية؟ لا ندري! ثمّ سألهم الآن نجاهد قالوا: لا ليس بعد الأمور لم تجهز. ثم جاهد فانتصر، كأنّ حطّين هي خروج من الغيب إلى عالم الشهادة في لحظة، كما هو شأن الحلم!

لماذا الحلم جميل؟ الحلم جميل لأنّه اقتطاع فقرة من الحياة بلا مقدمات ولا مآلات. يعني أنت الآن ترى نفسك في الحلم مثلًا أنّك تأكل، فتفرح أنّك أكلت، لكن هذه لا تعيشها أنت في الواقع؛ لأنّ قبل الأكل هناك ألم الطبخ وبعد الأكل هناك ألم الشبع! وأنت صحيح تمتّعت ولكن الحياة ليست كذلك، كل شيء له مقدّمات وله مآلات، والحياة بانتصاراتها فيها مآلات شاقة و بهزائمها فيها مآلات شاقة. والعكس كذلك، بالانتصارات هناك مآلات جميلة وبالهزائم كذلك هناك مآلات جديدة.

فتصوّر وجود مرحلة ثمّ مرحلة، هذه فكرة منتشرة في داخل الصف الإسلامي، وهي فكرة جميلة كما رأينا وكما نقول وكما يبيّن المشايخ في الخطب والدروس والكتب أنّها فكرة جميلة. وهي كذلك تلقي عن كواهلنا عبء المجاهدة الحقيقية. يعني عندما تذهب إلى الجمعة فيأتي الخطيب يقول لك : "أنت عليك الآن أن تجاهد والجهاد في حقّك الآن هو فرض عين، وعدم جهادك الآن هذا فسق وفجور إلّا أن تكون أنت مستضعفًا إلى آخره، لكن عليك أن تجاهد". أنت حملت أمانة، بخلاف ما لو ذهبت إلى خطبة الجمعة وقال لك الشيخ: "إنّ الجهاد لم يحن بعد ولا بدّ له من مرحلة تسبقه وهو أن نتربّى." والكلام غائب طبعًا، كيف نتربّى كلام غائب؛ لأنّها مسألة مختلف فيها.

ولذلك ما يطرحه الدكتور في قضيّة هذه المراحل أنّ هناك مرحلة تربية. نريد أن نسأل تربية لماذا؟ وسنأتي الآن على النماذج التربوية الّتي طرحها الدكتور، وهي نماذج تربوية عجيبة جدًا. يعني الذي يقرأ هذا الكتاب ويعرف التاريخ ويعرف مشكلات الضعف الإسلامي وأسباب الضعف الإسلامي، يتعّجب أنّه يطرح النماذج المعوّقة والنماذج المَرَضِيَةَ، يطرحها نماذج علمية وتربوية وإصلاحية. وهذا من أكبر الأخطار التي يواجهها من يسقط مفاهيمه على التاريخ.

فهذا الكتاب -مع الاعتذار وأرجو ألّا أضطرّ إلى الاعتذار أكثر من هذا- هو نموذج لهذه الأفكار الّتي هي إسقاطية على التاريخ. التاريخ ليس كذلك. وأنا الآن سأضرب لكم أمثلة كثيرة تبيّن أنّ التاريخ لم يكن بهذه الصيغة، وأنّ الأمّة لما جاها الصليبيون لم تكن بأحسن أو بأسوأ حال ممّا لما خرجوا من عندها، كان فيها وفيها. لم يكن الجيل الذي حرّر القدس أحسن حالًا بالمفهوم التربوي، ولكن بلا شكّ أنّ القائد صنع أشياءً كثيرة حتّى حقّق النصر، لكن ليس بالمفهوم الذي يطرح من قبله -وهو التربوي- أنّ الأمة كانت في حال تحريرها القدس أحسن حالًا ممّا لما ذهبت القدس منها.

هذا من الأمثلة.

وسنرى أنّ هذا الجيل الذي نريد أن نذهب به إلى الصحراء، أو نذهب به إلى التكايا، أو نذهب به إلى الزوايا من أجل أن نصنعه هذا لا يمكن أن يكون، لماذا؟ لأنّ الحياة أعقد من أن تُغيّر من خلال هذه المدارس، ولصناعة جيل يحقّق النصر لا بدّ أن يُصنع هذا الجيل من خلال محنته ما يحتاجه البلاء. يعني عندما تريد أن تصنع شركة ما، فماهي الطريقة لإحيائها وصناعة جيل؟ من خلال صناعتك لهذه الشركة وأنت تعيش فيها، لا أن تبتعد عنها من أجل أن تخرج من الغيب ومن الظلمة من أجل أن تحقّق هذه الشركة. هذا لا وجود له، التاريخ يبرأ من هذه الأفكار والنظريات براءة عجيبة جدًا.

هذه النقطة التي ننبّه عليها هي عماد الجماعات في انسحابها من الواقع، وهي حجّة الأفراد والعلماء عندما ييأسون من إصلاح الأمة. يقول كلّ الذي عملنا كان خطئًا، بعد ثلاثين سنة وما زال إنّك امرؤ فيك جاهلية! بعد عشرين سنة وما زال يقول: "إنّك امرؤ فيك جاهلية". هوﷺ قال له: "إنّك امرؤ فيك جاهلية" ونبّهه إلى الغلط ولم يوقفه، وقد يبقى مقيمًا على الخطأ لكن امش في سبيل حياتك. لأنّ الإيمان يزيد وينقص، لا يوجد عندنا طبقة أولياء، لا يوجد عندنا طبقة صالحين لا يخطؤون. إنّما نحن نخطئ ونصيب والأمّة تخطئ وتصيب، ولكنّ وجود البلاء؛ لأنّها تخطئ في إصابة السنّة التي بها يتم التغيّير، وليس البحث عن وسائل أخرى!

يعني عندما يقول النبي ﷺ: (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم). ما المقصود بدينكم هنا؟ هو الجهاد، وهو تفسير لقوله تعالى: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}، هذه حياة. فحين يأتي قوم من الكفار علينا أن نقاتلهم والطريقة هي أن نقاتلهم. اليوم فشلنا وهزمونا أين نذهب؟ مرّة ثانية للقتال، ونحرّض الأمة مرّة ثانية. فشلنا، نعود مرّة ثالثة، مرّة رابعة، مرّة خامسة، وسادسة حتى يتحقّق النصر. فلماذا لم يتحقق النصر من الجهاد أوّل مرة؟ لعدم وجود ظرفه الموضوعي الملائم له.

وليس من ظرفه الموضوعي أنّك تأخذهم إلى الجبال وتدخلهم في أطوار تعليمية هي باطلة ليس لها دور في الجهاد إلّا كعامل مساعد.

أنت ماذا تحتاج الآن في الجهاد؟ تحتاج إلى مقاتل، عامل مساعد وأن يكون صبورًا، عامل مساعد وأن يكون فقيهًا. ولذلك يقول الله -عزَّ وجلَّ-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ}، ما الذي يعالج زحف الكفار؟ ألا نولّي الأدبار وأن نصبر ونقاتلهم.

لنذهب الآن إلى الصورة التي طرحها والنماذج التربوية التي فرضها علينا. قبل أن نذهب إليها سنعطيكم بعض القضايا التاريخية التي تشكّل معالم قراءتك للحروب الصليبية. الحروب الصليبية تقريبًا خمس حملات صليبية جاءت علينا.

وللذكر فإن آخر حملتين صليبيتين إنّما دُمّرتا من الداخل، يعني الحملة الصليبية الخامسة بادت وانتهت قبل أن تصل إلينا. الحملة الصليبية الرابعة التي جاء فيها ريتشارد قلب الأسد، وهي من أشدّ المراحل، وبعد أن دخل صلاح الدين القدس وبعد أن حرّرها كانت من أشد الحالات بلاءً على أهل الإسلام، ويعترف المؤرخون ومنهم ابن الأثير، أنّه لولا وجود الخصومات والمشاكل بين هذه الحملة لكان الدمار على أهل الإسلام.

يقول ابن الأثير في كتابه الكامل، حتّى تعرفوا الأقدار عندما تجتمع ليكون هناك بداية الصعود وبداية الهبوط. يقول ابن الأثير في الحملة التي أعقبت تحرير القدس وهي سنة ٥٨٦ من الهجرة، وهي حملة قادها إمبراطور ألماني اسمه "فريدريك بارباروسا"، ولم يظهر الجيل الذي يفتح، يعني مفهوم الجيل الّذي صار مرعب ومستويًا على سوقه وبداية الفتح. الآن سنرى عجائب، وقراءة التاريخ بهذه الصورة قراءة خادعة، وكأنّنا أمام جيل صار جديدًا لا يحقّق إلّا الانتصارات وجيل تربوي فريد، والتاريخ لا يثبت هذا، ليته موجود! لكنّ التاريخ يأباه.

كيف انتهت الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٨٦ بقيادة الإمبراطور "فريدريك باربروسا"؟ انتهت أنّ فريدريك باربروسا ذهب ليسبح فسقط في النهر فمات فاختلفوا ورجعوا، تقاتلوا فيما بينهم ورجعوا. يقول ابن الأثير: "لولا لطف الله بالمسلمين، وتخليصهم من ملك الألمان في الوقت الذي كان يريد فيه اختراق أراضي سوريا، لكان قيل اليوم كانت سوريا ومصر من ممتلكات المسلمين."

الصليبيون دخلوا القدس سنة ٤٩٢هـ، أوّل ممالك صليبية أنُشأت في بلادنا في الرها في الشمال وفي أنطاكيا. حطّين كانت سنة ٥٨٣هـ، يعني ٩١ سنة تقريبًا. بلاد الشام كانت محكومة من السلاجقة، جاء الفاطميون أخذوها، أنا أتكلم عن القدس وإلا فالحروب بينهم دائمة والمناطق تتساقط مثل لعبة الدومينو، يعني أنت لا تعرف أين يستقرّ ملك أي أحد منهم.

فبعد ذلك لما جاء الصليبيون ودخلوا بيت المقدس، لم تؤخذ من السلاجقة بل أُخذت من العبيديين؛ لأنّهم كانوا يحكمون مصر وكانت الخلافة العبيدية مستقرّة فيها.

الآن ما هي الأحداث لنرى أنّ الأحداث متضاربة، الأحداث بعد فتح بيت المقدس على ما ذكرنا، ٥٨٣ فُتحت بيت المقدس على يد صلاح الدين، سنة ٥٨٦ جاءت حملة جديدة، وواقع الأمر من كلام ابن الأثير يدلّ على أنّ الأمّة ليس عندها قدرة على دفعهم. **أنا أريد أن أسقط صنم الجيل بالمفهوم المطروح**، يعني لو كان مفهوم الجيل الّذي طرحه موجود، فسنوات بعد استرداد القدس ماذا سيقول؟ أهلًا وسهلًا بهم بل سنلاقيهم، ولكن هو يقول: "لولا لطف الله –عزَّ وجلَّ– بالمسلمين وغرق هذا الخبيث الإمبراطور الألماني؛ لكانت النتيجة أن صارت مصر وسوريا من تركات المسلمين."

هذه واحدة.

قلنا ٥٨٣ دخل بيت المقدس، بعد سنتين خسر المسلمون خسارة عظيمة جدًا وهي سقوط عكّا. وعكّا لم تسقط في التاريخ قط إلّا مرّتين بيد المسلمين عندما دخلوا بلاد الشام، والمرّة الثانية، هذه بيد الصليبيين. واضطرّ صلاح الدين أن يرحل عنها، حاصرها الصليبيون من البحر ومن البر حصارًا شديدًا وفي النهاية لم يجد صلاح الدين إلّا أن ينسحب ولم يستطع أن يدافع عنها، ودخل الصليبيون عكّا بعد سنتين من دخول القدس، أين الجيل؟! الحياة دول وليس الجيل يظهر ليغيّر.

وسنرى أكثر من هذا، بعض الملوك عرض أن يعطي الصليبيين القدس مقابل بعض الممالك. سنرى هذا!

سنة ٥٨٨ هاجم الصليبيون مرة أخرى بيت المقدس من قبل ريتشارد قلب الأسد. هنا حدثت مشكلة، سنة ٥٨٨ جاء ريتشارد الذي يسمّيه المسلمون ريتشارد "قلب الأسد" وهو من بريطانيا، هو فرنسي ولكن كان يحكم بريطانيا كذلك. وإلى وقت قريب كان القصر الملكي البريطاني الإنجليزي لا يتكلّم أبناؤه –ولا واحد فيهم– الإنجليزية وإنّما يتكلمون الفرنسية.

جاء ريتشارد "قلب الأسد" وجاء بحملته وحاصرهم ليستعيد القدس. تعرفون ما الذي حصل في الداخل مع المسلمين؟ جلس معهم صلاح الدين وقال لهم ماذا نفعل؟ فاختلفوا، شجّعهم، قالوا ندافع عنها حتّى الموت واتفقوا على ذلك، ثم أتاه جماعة قالوا له: "من أولى القدس أم الرجال"؟ جاء إليه مجموعة من القادة العسكريين. هذا هو الجيل!

شيخ الإسلام اضطرّ مرّة في منهاج السنة النبوية أن يظهر ما يُنقد على عليّ –رضي الله عنه–، ليقول للشيعة إذا نقدتم أبا بكر –رضي الله عنه– بهذه فعليّ –رضي الله عنه– أولى بالنقد. هو أراد أن يسقط نقدهم.

فأرجو أن تفهموها ليس باعتبار سبّ المسلمين، هم مجاهدون عظماء، ولكن هذه هي الأمّة، هذا هو الجيل الذي يحقّق النصر، وهو الجيل الذي يحقّق هزائم، وجيل آخر يتحقّق به نصر وتمضي الأمة، وحينئذ يتمّ التوازن. الانتصار يدفع الانتصار. الانتصار النهائي هو مجموعة انتصارات نهائية، وهذا الذي حدث في الحروب الصليبية.

فيمكن أن يأتي الخصم بقوة الثور فينطح ويُهلك، ماذا أنت فاعل؟ تبني وتقاتله وتضربه. ثور هائج وجموع قاتلة كبيرة جدّا، ماذا تفعل؟ تضربه مثل ما يفعلون في مصارعة الثيران حتى تُستنزف قوته فيَهلك. وعلينا أن نفهم أنّ آخر قلعة خرج منها الصليبيون في عكّا خرجوا منها من غير قتال. قالوا ما عندنا قدرة نبقى؛ لأنّ –وهذه قاعدة من القواعد كنت أتمنى للدكتور أن يذكرها– الصليبيين جسم غريب يجب في يوم من الأيام أن يخرج من داخل الجسد، ويفنى الجسم الغريب هذا. **هذه هي القاعدة الأهمّ، القاعدة الأهمّ التي ينبغي أن تُفهم في الحروب الصليبية أنّ الجسم الغريب سيزول وإسرائيل ستزول لأنها جسم غريب، لكن ما هو الشرط؟ هو بقاء ووجود المقاومة في داخل الجسم حتّى يموت هذا الجسم الغريب.**

وأيّ إيقاف للحظة من لحظات مقاومة الجسد لهذا الجسم الغريب هو موت لهذا الجسم، هو إعطاء الخصم فرصة للتمكين. إذا سكنت عنه وتركته، أنت تعطيه فرصة للتجذّر، وبجيل واحد تنتهي الأمم وبجيل واحد تزول. أنت تتحدّث عن تشكيل جيل وإيجاد جيل، معنى ذلك أنّك تركت هذا الخصم يتحرك بحريّة خلال هذا الجيل، ويصنع القلاع ويصنع الرجال ويأتي بالأذناب

واللصوص حتى تصبح هذه المملكة له خاصّة. الطريقة السننية تفرض أنّ الجسم الغريب يجب أن يزول ولكن بشرط وجود المقاومة في هذا الجسم الذي غُرس فيه.

نكمل حتى نرى النماذج البطولية. وأنا مضطرّ أن أذكر النماذج الأخرى حتى لا يُفهم من كلامه أنّ هناك جيلًا غيّر الأمّة الإسلامية. قلنا أنّه لما اختلفوا ثاني يوم، جاءت الجموع لصلاح الدين قالوا له: "من أولى القدس أم البشر"؟ فعلينا أن ننسحب، فجعل يرقّقهم. الغريب في هذا الأمر أنّ ريتشارد قلب الأسد انسحب قبل أن يصلوا إلى جواب؛ لأنّه كان عنده مشاكل داخلية، فانسحب. ولو هاجم القدس في مثل هذه الظروف من الاختلافات لعادت القدس بعد سنتين فقط إلى الصليبيين.

سنة ٥٨٨ ذهب صلاح الدين ودخل يافا، وهذا جيل نصر وهو بلا شكّ حقّق انتصارات عظيمة وأخذ صلاح الدين من الصليبيين بلادًا كثيرة –وصار عليها التفاوض من قبل أحد أبنائه على فكرة، وسنرى هذه المشاكل–، الدكتور يقول: "أنّ الوجود بشر وأفكار وأشياء –مثلما طرحنا في قضيّة الحضارة–. فإذا غلبت صورة الشخص تمّت الهلكة. والأمّة التي تحيا هي التي تعيش أمام نماذج فكرية." الدكتور للأسف غرّر –مع الاعتذار–، يقول بأنّ: "أول مصائب حدثت في الأمّة في قضيّة –هكذا يقدّر وهو تقدير خطأ مائة بالمائة– ظهور الشخصانية مقابل الفكرة وأوّل حالة لهذا الظهور هو نموذج معاوية –رضي الله عنه–". وهي كلمة مرفوضة منه، لا أريد أن أناقشها ولكن مرفوضة تمامًا، وأنا تكلّمت عليها مرّة.

لأنّه في الحقيقة حالة العصبة هي التي تهدم، العصبة وليس الشخص، هي عصبة بمعنى أهل الشام فيهم عصبة يريدون وليس لها شخص معاوية ولا شخص ابنه، وإنّما هي العصبة التي احتاجتها الأمّة بعد أن أصبح هناك طوائف في داخل المجتمع الإسلامي.

القصد أنّه يقول بأنّ أوّل ضربة تحققت لظهور الشخص أمام الفكرة هو نموذج معاوية لتوليته يزيد.

كم ولد أنجب صلاح الدين؟ سبعة عشر ولدًا! كل مملكته تقاسمها أبناؤه. لم يترك وراءه فكرة، أين الجيل هذا؟! يعني السنة ما زالت جارية ما رأيناها تخلّفت. مات صلاح الدين وقد خلّف سبعة عشر ولدًا –أظنّ تسعة أو ثمانية ذكور والبقية إناث– فقُسّمت مملكته على أبنائه. ولا يوم من الأيام واحد منهم قال: تعالوا نعطي هذه الأرض للفكرة وليس للشخص! أبناؤه تنازعوها على طريقة السلاجقة.

قلنا أنّ صلاح الدين دخل يافا سنة ٥٨٩، وجاءه ريتشارد ولاحقه ولم يقع قتال ولكن وقع الصلح على أن يترك صلاح الدين يافا ويخرج منها، صالحه؛ لأنّه لم يجد عنده القدرة الكافية لقتال ريتشارد قلب الأسد. وللأسف عندما نقرأ هذه الشخصية ريتشارد قلب الأسد في كتبنا وفي كتب النصارى، نجد رعبًا عجيبًا جدًا يعتري المسلمين من هذه الشخصية. حتى إنّهم يذكرونه في كتب العرب الذين يروون هذه الحروب الإفرنجية –نحن ليس عندنا كلمة الصليبيين، كلمة الصليبين لم تظهر في كتب العرب أبدًا هذه من كتب النصارى والأوربيين، يسمّيها المؤرخون بحروب الفرنجة–. يقولون: "كان بسيفه يقدّ الجندي أمامه ويقدّ درعه!" إذا ضربه يقسمه نصفين ما يقسم جسمه فقط بل يقسم الدرع الذي عليه! فكان الرعب شديدًا منه هذا ريتشارد قلب الأسد. فهنا إخفاق.

الآن بعد أن مات صلاح الدين، الوقت طويل طبعا لكن في النهاية ما زال الجيل قائمًا. في سنة ٦١٦، أحد أبناء صلاح الدين كان قد أخذ مصر، وأُرسلت الحملة الصليبية الخامسة الشهيرة ودخلوا الإسكندرية ومشى الجيش إلى دمياط من أجل أن يدخلوا القاهرة –وحدثت معهم مهلكة عجيبة جدًا–، قبل الدخول، –و هذه الحملة كانت عظيمة وكبيرة جدًا– كانوا يقولون في ذلك الوقت –وأرجو أن تكون هي نبوءة لما في هذا الزمان–: "مفاتيح القدس بيد مصر"، هذه كلمة كانت تُشاع بينهم. فلمّا دخلت الحملة الصليبية الإسكندرية أَهلكوا فيها وبقي الجيش. نصحوهم أن يتوقفوا قليلًا فأبوا، فدخلوا حتى وصلوا إلى دمياط، وفي دمياط، قبل الذي سيحدث أرسل ابن صلاح الدين –تربية الجيل! أرسل لقادة الصليبيين هذا العرض، اسمعوا ما هو هذا العرض.

طبعًا دخلوا دمياط أخذوها واستحلّوها، وحينئذ أرسل لهم ابن صلاح الدين هذا العرض: يقول ابن الأثير: "إنّ المسلمين عرضوا على الإفرنج تسليمهم القدس وعسقلان –وعسقلان من أوائل المدن التي دخلها صلاح الدين، لكن الآن سنذكر مسألة مهمة في العسكرية– وطبرية وصيدة واللّاذقية –ومدينة أخرى نسيتها– وجميع ما افتتحه صلاح الدين في سوريا من مدن ما عدا الكرت وذلك مقابل إعادة دمياط للمسلمين." السبب لم يقولوه.

جاء ابن صلاح الدين –أحد الملوك من أبناء صلاح الدين– إلى عسقلان وهدم أسوارها فانتهت قيمة عسقلان عسكريًا، وجاء إلى القدس وهدم أسوارها، أوّل فعل فعله صلاح الدين لما دخل بيت المقدس منّع أسوارها. لما جاء ابنه قال: "تغالبونا

على بيت المقدس اهدموا الأسوار!"، هدموا الأسوار فصار كلا الجيشين لا يطمع في دخولها؛ لأنّها لا تشكل أيّ منعة عسكرية لهم.

أنا لا أستطيع أن أحكم عليه في الوقت، لكن واضح أنه ستنتهي حجة الصليبيين فيها. هذا التحريض الّذي يقوم في أوروبا لإنقاذ قبر المسيح وإخراجه من بين يدي الوثنيين سينتهي. تفضلوا خذوه وينتهي الأمر.

فلمّا سقطت قيمة هذه المدن عسكريًا، وقال لهم هذه المدن مقابل دمياط رفض الصليبيون هذا العرض. وكانت النتيجة أنّ الله -عزَّ وجلَّ- أهلكهم لما دخلوا في بعض المناطق السبخة هناك، فأطلق عليهم أهل البلد المياه فأهلكوهم. يعني ذهب العرض وذهب الطمع وهلك منهم عشرات الآلاف، وحينئذ تداعوا للصلح، فصالحهم على أن يعيدوا له دمياط مقابل أن يطعم وألّا يقتل بقايا الناجين من هذه المهلكة التي وقعت فيها.

لما نقرأ تاريخ الحروب الصليبية نجد أنّ صلاح الدين لا يوجد عنده هذه الفكرة أصلًا، يعني هو بلا شكّ، الّذي نراه أنّ الرجل ربّما يكون عاديًا، ذكيٌ لكنّه عاديٌ قبل الملك، والملك يفتح له الآفاق، هذه قضيّة موجودة في التاريخ. يعني رجل يكون عاديًا لكن تُفتح له روزنة وطاقة من الملك والسلطان، ويكون ذكيًا فيدخل فيها ويلجها، وحينئذ تكبر آلامه وتكبر أحلامه وتكبر آماله بالسيطرة، ومن هؤلاء صلاح الدين.

القارئ لشخصية صلاح الدين، يرى أنّه لم يكن لديه أيّ حلم ولا أمل بأن يكون سلطانًا أو ملكًا أو أن يكون قائدًا. كيف بدأ صلاح الدين وعاش ضمن الظرف الموضوعي الذي هو فيه؟ كان هناك عماد الدين من السلاجقة، بعد أن مات "بركياروق" ولم يخلّف أولادًا فظهرت شخصية عظيم وهو عماد الدين زنكي، عماد الدين زنكي جاهد الصليبيين مجاهدة شديدة وعظيمة، وهو مشهور بالتقوى والصلاح، ومات شهيدًا ويسمّونه عماد الدين زنكي الشهيد؛ لأنّه قُتل من قبل عبيده، دخلوا عليه وقتلوه نائمًا قرب صلاة الفجر. فعُيّن ابنه محمود نور الدين، لأنّه لما مات كان له ولدان أحدهما نور الدين محمود زنكي. وهذا بلا شكّ شخصية عظيمة ورثها من أبيه وبدأ كذلك عملية الجهاد ضدّ الصليبيين.

حتّى نعرف كيف ظهرت شخصية صلاح الدين، يعني ليس عندنا هذا الحلم الذي يُغذّى من قبل بعض الناس، أنّ هناك شخصية كانت تخطّط منذ الأوّل: كيف تصنع النصر وكيف تصل للقيادة؟ هذا لا وجود له. لأنّ هناك من يريد أن يوهمنا بأنّ صلاح الدين، كان يحلم أن يحقّق هذا الملك والسلطان ويجمع الأمّة منذ طفولته، وواقع الأمر ليس كذلك. والدليل كالتالي:

كانت مصر محكومة من العبيدين، والعبيديون كان لهم وزير خبيث اسمه شاور، يتّفق مرّات مع الصليبيين ويحالفهم فيقاتل المسلمين –وهو عبيدي–، ومرّات الصليبيون يطمعون به فيريدون أخذه.

حدث أن استنجد بنور الدين، قال له: "يا نور الدين قد جاء الصليبيون يريدون أخذ مصر"، فأرسل له جيشًا بقيادة قائد عسكري عظيم اسمه أسد الدين شيركوه وهو عمّ صلاح الدين شقيق والده. وكان أسد الدين قائدًا عسكريا، والظاهر أنّ والد صلاح الدين لم يكن بمثل الخبرة العسكرية، لكن كان حكيمًا؛ لأنّه من القادة المعتبرين عندهم ولكن ليس كقائد عسكري. الظاهر هذا.

فأرسله وأرسل معه أخاه وأرسل معه ابن أخيه، أرسل معه نجم الدين والد صلاح الدين وأرسل معه صلاح الدين وكان شابًا، وبالفعل حدثت معركة عظيمة بين المسلمين وبين الصليبيين انتهت بالصلح. انتصر فيها أسد الدين لكن في النهاية لم تُحسم المعركة، وتمّ الرجوع واصطلحوا ورجعوا ورجع الجيش؛ لأنّه قال له: "أنا طلبتك من أجل مهمة دفع الصليبيين" فخوفًا منهم أرجعه إلى الشام. وصلاح الدين كان شخصا واحدًا داخل الجيش.

ثمّ حدثت غزوة أخرى من قبل الصليبيين فطلب من نور الدين أن أرسل لي الجيش، فأرسله حتى إذا اقترب سمع الصليبيون بقدومهم إلى مصر فتولّوا ولم يحدث قتال، فرجع أسد الدين إلى الشام عند قائده نور الدين.

ثم بعد ذلك اختصم شاور هذا الوزير مع الصليبيين، فهددوا بدخول القاهرة، فأرسل لنور الدين: أرسل لي جيشًا، فأرسل له أسد الدين مرّة ثالثة؛ لأنّه صارت عنده خبرة، وأرسل معه والد صلاح الدين وأمّا صلاح الدين فرفض أن يذهب، ليس عنده خطة. الّذين يزعمون أنّه كان مخططًا وذهب إلى مصر وكان هناك تخطيط، لا، بل ولم يكن لديه هذا الحلم أن يكون ملكًا ليصنع شيئًا. هو جزء من منظومة المجتمع الذي يعيش فيه، بصلاحهم وتقواهم وإخفاقاتهم وأخطائهم فرفض أن يذهب، فأجبره عمّه على الذهاب معه، فذهب إلى مصر مجبرًا. سيق إلى قدره العظيم رغم أنفه. المهمّ ذهبوا وبعد أن انتصروا على الصليبيين بقوا هناك ومات عمّه.

وحدثت خصومة قبل وفاة عمّه، وشاور كان خبيثًا ويتآمر عليهم، حتّى أنّه فكر في قتل أسد الدين شيركوه –شيركوه معناها أسد الجبال–، فبعضهم اتصل بأسد الدين قالوا: يخطط لك شاور بالقتل. ومع ذلك رفض أسد الدين أن يقتله، فخرج يومًا

للصيد أسد الدين، ولما رجع قال له صلاح الدين بأنّ لديه هدية رائعة، قال: "ما هي؟"، فأتى بالأواني معبأ فيها رأس شاور ومن معه من جنوده قال له: تفضل. غضب عليه أسد الدين، ولكنّه قال: خيرًا حصل.

وبعد ذلك مات أسد الدين موتًا طبيعيًا، وصلاح الدين واضح أنّه كان بلا شك ككلّ الأكراد والمقاتلين في تلك المرحلة من اختيار هؤلاء، وظهر كقائد وحينئذ اختير فعُيِّن وزيرًا بدل شاور عند الملك العبيدي. وأرسل له الخليفة المسترشد يقول له بقطع الخطبة عن الخلفاء العبيدين -وهذه مظاهر فقط- وإحيائها للخلافة العباسية، رفض في الابتداء، وبعد ذلك أعلن وأرسل شارة بإسقاط العبيديين وإعلان الخلافة الإسلامية.

ولأنّه في الحقيقة يريد كذلك الشرعية، صلاح الدين يبحث عن الشرعية، وانتشر صيته وصارت له قوّة وصار له اسم حتى غار منه نور الدين. وحدثت بينهم مناوشات لا أريد أن أمرّ عليها، ولكن لأدلّكم على أنّ المعركة لم تكن بذلك الصفاء. هي معارك بشر وفيها أخطاء، وفيها إنسانية، وهم عظماء بلا شكّ. وما أذكر هذا إلّا من أجل إخراج فكرة الجيل النقيّ الذي يطلبه هؤلاء لتحرير القدس أو لتغيير مزاج التاريخ. وبعد ذلك صلاح الدين بزغ نجمه، ونور الدين أرسل له رسائل، وهو كان يرضيه ببعض المال والهدايا وطلب منه بعض الطلبات، ينفذ بعضها والبعض لا ينفذه حتّى مات نور الدين.

فجاء واقتطع كالعادة المملكة أبناء نور الدين. فجاء صلاح الدين وبدأت اتفاقات مع هذا ضد هذا، أخ ضدّ أخيه وهكذا حتّى انتظم له الأمر، وأخذ دمشق وصارت له ثمّ حدث ما حدث. والقتال المتتالي لم يتوقف حتّى تحررت القدس.

القدس سقطت مرّة أخرى كما قلنا لكم بعد صلاح الدين. كيف سقطت؟ حتّى نواصل هذه القضيّة، قضيّة القدس كأنّها معضلة، انتهت كمعضلة عسكرية. في سنة ٦٢٧، دخل الصليبيون القدس وأخذوها بماذا؟ سلّم الملك الكامل ابن صلاح الدين بيت المقدس للإمبراطور الألماني فريدريك الثاني سِلمًا. قال له: "خذها من غير شيء ومن غير قتال على شرط فقط ألا تجدد أسوارها". يعني انتهت، ولذلك الصليبيون خرجوا منها بعد أن لم تشكل لديهم قوّة. خرجوا منها بإرادتهم بعد ذلك؛ لأنّها لم تعد تشكل لديهم مركزَ ثقلٍ. هم عسكر وهم جنود، الذين كانوا يأتون من الغرب إلى بلادنا جنود معهم عائلاتهم، نعم! وأرادوا الاستيطان. ومن دلائل الاستيطان، أنّ حملة من الحملات الصليبية الكبيرة جدًا، جاءت من أجل أن تدخل مصر فمرّت على القسطنطينية -والقسطنطينية الروم وهؤلاء صليبيون أتوا من ألمانيا ومن فرنسا-، فوجدوا أنّ بلاد القسطنطينية أجمل ممّا حلموا به في مصر فتركوا أمل الذهاب في مصر، واستقرّوا في القسطنطينية وقاتلوا أهلها حتى أُبيدوا.

يعني قضية الدين وبيت المقدس وكذا هي مقاصد معلنة فقط، يستخدمها الدهاقنة وبطرس النّاسك وبطرس الأعرج وغيره؛ من أجل تهييج الناس، وإلّا فالمقصد غير ذلك كما هو بيّن.

نمرّ على بعض الأمور المهمّة في الكتاب -بعضهم طلب الاختصار اليوم لكن ضروري هذا-. الشيخ الدكتور للأسف، وهذه خطيئة كبرى في الكتاب، يعرض نماذج المدارس الإصلاحية بنماذج مَرَضِيَةٍ. يأخذ المدرسة القادرية باعتبارها مركزًا للثقل والتغيّير -باعتبار الشيخ المربّي عبد القادر الجيلاني-، وباعتبارها مركزًا للتغيير؛ لأنّها كانت في بغداد وهي أوسع، ثم يعرض نماذج لمشايخ آخرين فرعيين تمّ بهم الإصلاح.

وللأسف ابتداءً نشدّد على التنبيه على خطيئة كبرى، أنّه لم يذكر لنا عالما في مدرسة الإصلاح الّتي زعم وجودها ليظهر جيل صلاح الدين، وكلّ النماذج الّتي ذكرها هي نماذج صوفية. أبرز دور الشيخ أبي حامد الغزالي ولنا معه وقفات، وأبرز دور عبد القادر الجيلاني ولنا معه وقفات، وأبرز أدوار مشايخ هم من أسباب هلكة الأمّة، وجعل لهم أدوارً ولم يأت للعظماء. يعني المقادسة، سواء الشيخ الموفّق أو أبناء عمّه، هؤلاء عظماء في تلك الفترة، ولهم جهود عظيمة في نشر العلم وتحقيق المسائل والدعوة للتوحيد ومقارعة الباطنية إلى آخره، والشيخ لم يأت عليهم قط.

وأبرز مدرسة أبي حامد الغزالي على ما فيها من كلام، لا أريد أن أفتح الباب ولكن إذا قُدّر لنا يمكن في الدرس القادم نقف عندها وقفات. أبرز مدرسة عبد القادر وفي الحقيقة عليه من الكلام ما عليه، وليس هو مدرسة إصلاحية، عبد القادر جزء من الإرث الذي كان فيه من أسباب الفساد.

من النماذج الفرعية يكفي أن أضرب لكم بنموذج من النماذج، الشيخ عديّ بن مسافر، المدرسة البطائحية أحمد الرفاعي، المدد والغوث! هذه نماذج في الحقيقة، لما ترجع إلى كتب الرجال لتبحث عن شخصيتها تجدها نماذج فيها مرض، لم يكن لها أيّ دور لا في الجهاد ولا في العلم ولا في تنقية عقائد الأمة ولا يوجد لهم أيّ وجود.

نحن نرى أبا حامد الغزالي قبل أن يتصوف يعيش بين الناس. يعني كان رجلا أشعريا فقيها شافعيا، وهو مرجع، له ثلاثة كتب هي مرجع من مذهب الشافعية: الوجيز، والوسيط، والبسيط، هذه مراجع. وكان الناس يأتون إليه، عامّة من تعرفون من ابن العربي المالكي وغيره حتّى المهدي بن تومرت. وفي الحقيقة الدكتور واضح أنّه حتّى المفهوم التربوي ضعيف عنده، يعني عندما يجعل المهدي بن تومرت وهو زعيم دولة الموحدين نموذجا إصلاحيا، هذه طامّة! علمت أنّ قراءته للتاريخ وإلى الرجال تحتاج إلى

مراجعة. وكنت أتمنّى ألّا أقول هذا الكلام، ولكن هو من باب الأمانة العلمية ولا بدّ منه؛ لأنّ هذا الكتاب الآن مات صاحبه وبقي الكتاب بين الناس، ويشكل فرحًا ورغبة ومحبة أن يُدرس بين الناس.

انظر إلى كلامه، له كلام خطير جدًا في أبي حامد. يقول أنّ أبا حامد الغزالي كان قبل التصوّف في مدرسة الأشعرية الشافعية فلم يجن منها إلا أن يكون آخذًا لبعض ثروات السلاطين بأن عُيّن مدرسًا في النظامية. وكأنّ النظامية وزارة أوقاف، النظامية هي مدرسة أنشاها "نظام الملك"، ولها جهودها العظيمة في الردّ على الخوارج وعلى الباطنية. الذي دمّر القرامطة هي المدارس النظامية الّتي أنشأها نظام الملك السنّي. فكون دخول أبي حامد الغزالي في هذه منقبة له، وليست نتاج الفقه الذي جعله يجني دنيا من الملوك، ثمّ لما تصوّف خرج من هذا المستنقع.

ممّا ينبغي أن ننبّه عليه، أنّك إذا قارنت بين عبد القادر الجيلاني وبين الغزالي، فتصوّف الغزالي تصوّف كلامي. هذا حتّى من جهة علمية بعيدة عما نحن فيه، الغزالي لم ينشئ بعد أن تصوف مدرسة تربوية أو رباط صوفي أو تكيّة صوفية أو زاوية صوفية كما أنشأها مثلًا عبد القادر. عبد القادر الجيلاني كان له زاوية في بغداد، حتّى إنّ المقادسة لما جاؤوا من دمشق وذهبوا إلى بغداد باتوا عنده، وبقوا عنده خمسة شهور حتّى مات.

وابن الجوزي ذهب إليها وكان سبط ابن الجوزي كما ذكر في (مرآة الجنان) ذهب وعاش فيها. فكان هناك حضور للشيخ – سواء صح أو خطأ هذا موضوع ثاني–، لكن كان يعيش تربية. الغزالي من كبار المتصوّفة الذين لم يعيشوا بين الناس في تصوّفهم. يعني تصوفه كان كلاميًا، كتابة.

لكن هل أنشأ كما يشرح هذا الطول هل كان الغزالي يخرج الأمّة من واقع سيء إلى واقع جيّد؟ هو ترك مواقع الحروب، ترك الحروب مع الباطنية والضلالات إلى الانعزال، ذهب ثلاث سنوات يذكر اسم الله المفرد في داخل منارة المسجد الأقصى، ثلاث سنوات يقول الله الله فقط. حتّى فتح عليه وتركه وذهب فألّف كتاب (إحياء علوم الدين). ولما ألّفه كفّره العلماء وهذا ليس كلامي بل كلامه هو. أنا لا أنفي سبب الخوض هذا صح أم خطأ، لكن هو لم يقم بعملية الإحياء بل كفّره العلماء لعقيدته فيه، واضطرّ أن يؤلف كتاب الإملاء على كتاب الإحياء، وهو ردّ على من كفّره لما أخرج الكتاب. وهو كان يعيش لوحده لم يعش مع الأمة في جهادها ولا في حسبتها ولا في تربيتها، هذا واقعه. نحن نتكلّم عن الواقع.

وإنّما عاش لوحده يريد أن يصفي نفسه، وألّف كتابه ونشره في الناس، والكتب لا تصنع هذا الصنيع في التربية. نحن نتحدث عن رجل يعيش بينهم. ولما وصل كتابه في حياته إلى المغرب، حرقه أهل المغرب. حرقوه ودعا عليهم، وبعد ذلك، المهدي بن تومرت تلميذه ذهب إلى المغرب وأنشأ دولة الموحدين، وأراد أن يذهب عنده. لأنّه بعد أن كان متصوّفًا، يعني أنّه كان منهم، ولكن مات المهدي بن تومرت قبل أن يذهب إليه.

فهذا الآن نموذج ليس هو النموذج الذي أنت تريده لصناعة أمّة جديدة.

نموذج عبد القادر الجيلاني، اقرؤوا ترجمته في سير أعلام النبلاء، له ما يُقال. نعم هو يحتج لأنّ شيخ الإسلام يقول –طبعًا هي ليست لشيخ الإسلام هي مأخوذة من كلام للعز عبد السلام: إنّ كرامات عبد القادر الجيلاني منقولة إلينا بالتواتر–. نحن لا نتحدث عن شخصيته وعلاقته مع الله، نتكلّم كم أحيا في الأمّة وماذا تكلّم فيها؟ ما مقدار العلم الذي يملكه؟ هو لما سُلّم مدارس ليعلّم قال: وقام فيها مقام الوعظ، هكذا يضبطونها، يعني ليس مقام التعليم ولا التغيّير ولا التبديل بل مقام الوعظ. والوعظ مسألة عند علمائنا من القصص التي لا تحدث التغيّير. لما يتحدث العلماء يجدّد لها دينها، أيكون التجديد بالوعظ؟

الشخصية الثالثة التي بين أيدينا نمرّ عليها عديّ بن المسافر. عدي بن المسافر تعرفون هو إمام من؟ هو إمام اليزيديين. نعم شيخ الإسلام يمدحه، وأنا أعتقد، وهذا من زمان أقوله قبل هذا الكتاب، لأنّي عجبت من هذا المدح الشديد من شيخ الإسلام لعدي بن المسافر، فوقع في قلبي وأنا أقرأ رسالته إلى أتباع عديّ بن المسافر في زمانه؛ أنّه يريد أن يستخدم صلاحهم في ردّهم عن ضلالهم. يعني يقول لك أبوك كان جيدًا وصالحًا، وإلّا فعدي بن المسافر رجل ذهب إلى الجبال وعاش فيها، ولم يخرج منها حتّى تسعين سنة، ولا يُعرف عنه كتب ولا يُعرف عنه وعظ، له كلمات حتّى قلقة.

وللأسف الدكتور وهذا من أخطائه يحتج بكتاب (قلائد الجواهر) للتادفي، وهذا أصله صوفي، مثل كتاب طبقات الأولياء ومثل كتاب جامع كرامات الأولياء للنبهاني، يعني فيه طامّات ومصائب. فحين يأتي على كرامات عدي بن المسافر نأتي إلى كرامات الصوفية المخزية. يعني هناك من الكرامات ما تُذكر من الصوفية معيبة وهذا منها. فالنماذج التربوية التي تُطرح من أجل إحياء الأمة هذه نماذج تحتاج إلى مراجعة.

ويكفي إلى هنا.

الكتاب القادم هو ما وعدناكم به قديمًا، وهو كتاب (موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين) للشيخ مصطفى صبري شيخ الدولة الإسلامية الدولة العثمانية، آخر شيخ من الإسلام فيها. نعم كتاب كبير لكن أخذتم وقتًا للقراءة أرجو أن نوفّق في عرضه في الدرس القادم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا، وأسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن ينفعنا وإياكم، والحمد لله رب العالمين.

[١٦]

مناقشة كتاب (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) لمصطفى صبري

الحمد لله حمدًا طيّبًا كثيرًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على سيّد الخلق والمرسلين وإمام المتّقين حبيبنا محمد، وعلى آله الطيّبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدىً إلى يوم الدين، أهلًا وسهلًا بكم في لقاء أو عرض كتاب شيخ الإسلام للدولة العثمانية، وهو آخر شيخ إسلام للدولة العثمانية مصطفى صبري، وهو آخر كتاب له.

طُبع سنة ١٩٥٠ والكتاب الشهير الكبير موقف العقل والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، هنا ربّما يكون الحديث عن شخصية الشيخ موازيا للحديث عن الكتاب، والسبب؛ أنّني أقول ابتداءً أنّ هذا الكتاب لا يُرجى منه أن تذهب إليه من أجل أن تستخلص مسألة علمية خاصّة، فالكتاب لا يصلح لهذا في هذه الأيّام، فلو أراد أحد طلبة العلم أن يفهم مسألة علمية ما في هذا الكتاب، سواء كانت تتعلّق بالمسائل العقدية التصوريّة أو المسائل الفقهية، فإنه لا يقدّم شيئًا كثيرًا، ولكن فائدة هذا الكتاب تعود إلى رصد ظاهرة وإلى تاريخها، فهذا الكتاب يعدّ حلقة من الحلقات المهمّة في الصراع الإسلامي في داخله، ويُقصد بصراع الإسلام في داخله أنّ هذا الكتاب لا يصارع أعداء الإسلام في خارج دائرة الإسلام، يعني هو لا يناظر النصارى لا يناظر اليهود لا يناظر العلمانيين أصالةً خارج دائرة الإسلام، فقطعًا صاحبه لم يضعه لهذا المقصد و لكن في النهاية هذا الذي آل إليه هذا الكتاب.

هو وضعه من أجل أن يبيّن مسائل علمية يريد أن يناقش هذه المسائل ويردّ عليها، يُظهر ما تبنّاه من عقائد ومسائل، ويردّ على بيئة موجودة سنتكلّم عنها في هذه الحلقة. ولكن لا أنصح أن يُذهب لهذا الكتاب من أجل الاستدلال بمسألة علمية، فالكتاب لا يصلح لهذا من أوّله لآخره، من أراد أن يعرف الظرف التاريخي الّذي عاشه أهل الإسلام عندما انهزم المسلمون في معركة ما يسمّى الاستعمار أو الاستخراب أو الخراب أو الاستحمار كما يسيمها علي شريعتي، كان هناك توافق بين هذا الانهيار العسكري وبين الانهيار العلمي، تمثّل هذا الانهيار العلمي في أكبر مؤسّسة دينية في ذلك الوقت وهي الأزهر، فهذا الكتاب يرصد هذه الأحوال، ويرصد الرموز الّتي قامت في هذه المعركة، وكيف أخفقت وكيف نجحت وكيف تمالأت مع التيار الفكري التغريبي الّذي قدم إلينا مع جحافل العساكر إلى بلادنا.

فلذلك أقول وأعيد وأكرر هذا الكتاب لا تذهب إليه من أجل أن تعرف مسألة علمية، إنّما تذهب إلى هذا الكتاب من أجل أن تقرأ حقبة تاريخية ما، ماذا حدث فيها؟ من هم رموزها؟ هؤلاء الرموز ماذا يقولون ماذا يتكلّمون؟ النقطة الأولى أنّ شخصية هذا العالم شخصية عظيمة نحن بحاجة إليها، ربّما نستغني عنها في ظرف تاريخي قادم لكن لا يمكن أن نستغني عنها باعتبارها نموذجًا للعالم الّذي يعيش عصره وواقعه، ويحارب فيه ويصبر على لأواء ومحن وابتلاءات ومغامرات الزمن الّذي يعيش فيه، فلذلك أنا أدعو طلبة العلم أن يُبرزوا هذه الشخصية باعتبارها حلقة مجاهدة، الشيخ مصطفى صبري حلقة مجاهدة من حلقات أهل العلم الّذين عاشوا لدينهم مع استطاعتهم أن يعيشوا لدنياهم؛ لأنّ مصطفى صبري –رحمه الله– كان باستطاعته أن يعيش منعّمًا وأن يعيش كما يعيش بقيّة المشايخ، كما يعيشون الآن أي يمالؤون السلطة، يعيشون في داخلها، تبتلعهم الأنظمة الجديدة فيدخلون في داخلها ويزعمون أنّهم يحسنون صنعًا، ويزعمون أنّه ليس بالإمكان أبدع ممّا كان –مع أنّ هذه العبارة غزالية ليس بالإمكان أبدع ممّا كان: يناقشها في دعواه على قضيّة قدرة الله–، ولكن الآن صارت هذه عبارة أشمل من هذا المفهوم، أنّه ليس بالإمكان أبدع مما كان، بمعنى أنّنا لا نستطيع أن نعمل أكثر مما عملنا، فهذه الشخصية هي شخصية مجاهدة، فيها إخفاقات عصرها وهي وارثة لإخفاقات منهج المتكلّمين الّذي تبنته المدرسة الإسلامية الرسمية سواء في الدولة العثمانية أو المدارس الدينية الموجودة في ذلك الوقت كما سنبيّن هذا قريبًا حينما نمرّ عليه.

فهذا رجل أبوه من أهل الإسلام وهو كذلك عالم، لكن عالم كما يقولون على مستوى معيّن، فدفعه والده لطلب العلم وأرسله إلى الأناضول، وهناك نشط لطلب العلم وبرز هذا الرجل، وفي العشرين من عمره قُدّم ليدرّس في مسجد إسطنبول، وهذا منصب كبير جدًّا، وبعد ذلك اختير مدرّس للحضرة السلطانية، وهذا منصب كبير له، وترقّى هذا الرجل مع صراعه لتلك الفترة، هذه الفترة الزمانية الّتي عاشها الإسلام في زمن هذا الشيخ هي فترة عصيبة، الدولة العثمانية برمّتها الإسلام بمنهجه حورب، والدولة العثمانية كانت محاربة، وهذا الرجل من أعجب ما قرأت له إدراكه العجيب لمفهوم الأمّة وأوّل كتاب ألّفه: النكير على منكري النعمة في الدين والأمّة، والعجيب أنّ هذا الرجل أدرك أنّ قوّة أيّ حكومة أو قوّة أيّ دولة يكمن في داخل الأمّة وليس في قوة العسكريين، وهذه عجيبة أن يدركها هذا الرجل بهذا الإدراك الواعي.

المنتشر للأسف بيننا أنّه كلّما كان الجيش قويًا كان النظام قوّيًا، والشيخ يرى أنّه كلّما كان الجيش قويًا كلّما كان النظام متهاويًا وألعوبةً بيد هؤلاء العسكر، والتاريخ بعد ذلك أثبت هذه النظرية، ويقول بأنّ سبب فساد وانهيار الدولة العثمانية

وسقوط قيمة الخلفاء هو تغوّل العسكر، حيث صار القادة العسكريين كمدحت باشا وغيره صاروا يتلعّبون بالخلفاء يرسلونهم ويذهبونهم والأمّة مغيّبة، ونحن رأينا بعد ذلك وإلى الآن نرى أنّ العسكر هم سبب الشقاء، كما رأينا في آخر تجربة، تجربة مرسي أنّ العسكر هم سبب الشقاء وأنّ تدخل العسكر وتدخل قوّة هذا الأمن الّذين يعدّون للحفاظ على هذه الأمّة، دخولهم في الصراع مع الأمّة وفي اختبارات الأمّة وأن يصبحوا هم أهل الحل والعقد هذا فساد ودمار، والأحزاب العلمانية أخذت هذا المفهوم وخاصّة البعثية والقومية والناصرية –إذا كان هناك شيء اسمه الناصرية– فإنّها أخذت أهمّية هذا الجيش، المهمّ أن تسيطر على هذا الجيش ويصبح بيدها بعد ذلك أنت تلغي كلّ شيء، تلغي الأمّة وتلغي العلماء وتلغي أهل الحل والعقد، المهم أن تكون القوى الأمنية طبعًا الجيش وما يفرزه من قوى أمنية سواء كان من أمن عام أو مخابرات، ولكن الجيش هو العصبة الأولى في هذا الباب.

فالشيخ عاش في داخل معمعة الإسلام، وكان قريبًا من السلاطين، السلطان عبد الحميد كان قريبًا منه، السلطان رشاد كان قريبًا منه، وفي الدولة العثمانية كان هناك صراع كبير ما بين الاتحاديين الّذي تبنوا الأفكار الغربية وجماعة الاتحاد والترقي من أجل أن يدمّروا الدولة العثمانية، وكان الخليفة مجرّد صورة، والاتحاديون يعبثون في مصادر صنع القرار ومنها مجلس المبعوث الّذي هو كمجلس النواب، فكان ممّا صار عليه الجميع، نحن عندما نلقي نظرة في التاريخ، نجد أنّ المطالبة بتكوين مجلس نوّاب نجد أنّه مطلب لإصلاحيين حقيقيين فيهم نزعة التأثر بالغرب ولكنّهم على الجملة أهل إخلاص، وكذلك نرى هذا المطلب من أعداء الإسلام، فمثلًا لو رأينا الكواكبي في داخله هو يتحدّث من منطلق الإسلام، وهو يرى أن الإسلام هو المرجع ولكنّه يتكلّم عن الاستبداد، وكان يطالب بمجلس مبعوثيان وكان الاتحاد والترقي الّذين هم أعداء الإسلام يطالبون بوجود مجلس مبعوثيان بمعنى مجلس نواب في المفهوم ولكن في داخل دولة إسلامية، قد كان موجودًا ولذلك كان يدخل فيه العلماء، ونبّه الشيخ في كتابه النكير على منكري النعمة على أنّ العلماء الّذين يتخلّون عن مقام المقارعة والمصارعة في هذه الأبواب السياسية أي في تقويم الأبواب السياسية، شأنهم شأن الخلفاء الّذين يتخلّون عن سلطاتهم في إصلاح الأمّة وقيادتها نحو الحقّ.

يعني يضع العلماء الّذين يتخلّون عن المعارك السياسية بإزاء السلاطين الذين يتخلوّن عن مقام إصلاح الأمّة وقيادتها، ولذلك عاش هذا الرجل مطاردًا، وحارب الكماليين، وبعد ذلك اكتشف الناس الاتحاد والترقي، اكتشفوها ليس لقلّة دينها للأسف، يعني عندما نقرأ مقالات الّذين يحاربون الاتحاديين أغلب محاربة الخصوم لهم هو محاربة لأجل اضطهادهم وعلوّهم

واستكبارهم ما يسمى بين قوسين الشوفينية يعني المتعصّب للعرق التركي ضد الأعراق الأخرى، يحارب الاتحاديون غيرهم من منطلق القومية، ولذلك قام آخرون للأسف وبدل أن يصلحوا الحالة من داخل الإسلام قاموا عليهم بنفس السلاح، يعني تحلّوا بالقومية مثل القومية العربية.

وفي الحقيقة أنّ الّذي أنشأ فكرة القومية هم الطورانيون، أي تأثرًا لما أتوا به خاصة من الألمان، والألمان عندهم مشكلة القومية فذهب الطورانيون والمقصود بالطورانيين الأتراك الّذين نبذوا الإسلام، وهؤلاء علمانيون فسقة فجرة وأصولهم يثبت الشيخ في بعض المقالات يقول في كتابه أنّ هؤلاء عمدة أصدقائهم وأقربائهم اليهود، وبعضهم يثبت هذا أنّ أصلهم من يهود الدونما.

ولما أراد بعد ذلك الشيخ مصطفى صبري أن يثبت فساد الكماليين جعلهم كالاتحاديين؛ لأنّ الكماليين نسبة إلى مصطفى كمال أتاتورك أبو الأتراك لما قام للأسف صفّق له الكثير، حتّى الشعراء: يا خالد الترك جمّد خالد العرب، قالها أحمد شوقي، والعلماء صفّقوا له؛ لأنّه يريد أن يجعل الدولة مدنية، وألغي منصب الخلافة على صورة الخلافة بالمفهوم الغربي: الدولة الثيوقراطية الدولة الدينية، فصفّق له الكثيرون.

كان هذا الشيخ قد عايش هؤلاء في داخل تركيا، وفي داخل مجلس النواب مبعوثيان، وكان من أشدّ الناس مقارعة له ومحاربة له، فهو يعرف أخلاقهم لأنّهم من أسوأ خلق الله خلقًا، ويقول: هؤلاء عادوا كل البشر حتّى عادوا الأتراك هؤلاء الكماليون، ولم يعادوا فريقًا واحدًا هم اليهود، ويقول في هذا الكتاب: هؤلاء الكماليون عادوا كل الجنسيات إلّا اليهود، عادوا كل الديانات إلّا اليهود، يقصد بمن؟ ليس الاتحاد والترقي انتهينا من هؤلاء الآن جاء صنف جديد، وهم الكماليون الّذين كانوا يصفّقون لكمال أتاتورك، هو عاش معهم وحارب الأوائل حتّى إنّه هرب منهم هدّدوهم بالقتل، وهرب إلى اليونان في زمن الدولة العثمانية، ثمّ عاد وعُيّن شيخ الإسلام مرّتين، المرّة الأولى ثمّ استقال، ثم عُيّن مرّة أخرى؛ حتّى قام كمال أتاتورك بإعلان المدنية وألغى الخلافة، وهو يعيب عليهم في كتابه هذا موقف العقل على الّذين بكوا على الخلافة وكانوا يصفّقون لكمال أتاتورك، يقول: الآن جئتم تبكون عليها! فلماذا صفّقتهم لكمال أتاتورك وحذرّناكم منه، والآن تبكون على الخلافة!

وهذه نقطة أنبّه على أهمّيتها؛ لأنّ هذا العالم يعيش محنة كل عالم في زمانه، أوّلًا: أنه يكتشف الداء قبل غيره، وهو يقول باللفظ يقول: ليس دور العالم أن يصفّق للغوغاء ولا أن يعطي الدهماء ما يحبّون ولكن دور العالم أن يبيّن الحقائق للناس، وهذا الدور العظيم الّذي قام به هذا الشيخ باكتشافه للكماليين ومحاربته قبل ذلك للطورانيين الاتحاديين، لما ذهب إلى مصر هاربًا اتُّهم

أنّ عداءه لمصطفى كمال أتاتورك شخصي! وكتبوا عليه في الصحف والمجلات وقامت المجلّات والجرائد العلمانية بسبّه بأنّ عداءه شخصي، إمّا لأنّه طُرد من مشيخة الإسلام وإمّا لأنّ أتاتورك أسقط الخلافة الّتي كان يقتات منها إلى غير ذلك ممّا كان يُتّهم به كل عالم إبعادًا لقضيّة النقاش، يعني شخصنة القضيّة هو طرد للمسألة العلمية الّتي يُدار حولها، طرد للقضيّة الّتي يتمّ حولها الخلاف، فهذا نموذج لهذا الرجل، ولما ذهب إلى مصر طبعًا هناك مرّة ذهب إلى اليونان وقاموا عليه وذلك من أعظم ما قام به أنه اشتغل الصحافة، وكذلك كوّن حزبًا في بداية الأمر وهو حزب للوقوف أمام الاتحاديين في مجلس النواب، وكان نائبًا للرئيس وكان ناطقًا باسم هذا الحزب، من أجل أن يردّ على الطورانيين والكماليين في مجلس مبعوثيان أي مجلس النواب بما يسمّى هذه الأيام.

طبعًا لا يحاول أحد أن يقول بأنّ هذا مجلس النواب الّذي تشنّعون عليه اليوم، لا! هذه دولة إسلامية المقصود هو إرسال مبعوثين يمثّلون بلادهم في داخل هذا المجلس؛ من أجل نقاش إداري تنظيمي لا علاقة له بالتشريع بمعنى التشريع، إنّما له علاقة بالتنظيم والإدارة. وهذا الشيخ بعد ذلك ذهب إلى مصر واستقرّ فيها، وقبل ذلك أنشأ مجلّتين تقريبًا ثمّ ذهب إلى مصر ومن أعجب الأمور أنّ هذا الرجل –رحمه الله– لما ذهب إلى مصر با ع أثاث بيته لفقره، ودخل السفينة في الدرجة الثالثة، وكان لا يجد هو وأهله قوت يومهم لجوعهم وفقرهم، ودخل مصر هناك ولم يسكت مع هذا المقام الضعيف والإهانة الّتي هرب بها من بلده وأقام في مصر، وهناك بدأت معاركه الّتي أنشأ فيها كتبه العظيمة الّتي خُتمت بهذا الكتاب.

وجزء من شخصية الرجل علينا أن ندرسها وهو أنّه رجل محارب، وأنّه كان على كل الصعد السياسية والأدبية والقلمية والفكرية وكذلك التشريعية، يعني أن يدخل المجلس من أجل أن يحاربهم في داخل محلس مبعوثيان، يعني هذا كذلك جزء من حربه وقتاله وصموده وواضح من خلال شخصية هذا الشيخ مصطفى صبري الّذي لم يحظى بكثير من الاهتمام، مع أنّه توفي سنة ١٩٥٤ فهو شخصية معاصرة، وله كلمات في كلّ الشخصيات الّذين حوله من هذا العصر، تكلّم في كل الشخصيات الّتي تدور حولها المعارك الفكرية والأدبية والعقدية ومع ذلك يكاد الرجل لا يُذكر، يعني من الّذي يعرف هذه الشخصية غير المتخصّص؟ هذا الكتاب طُبع سنة ١٩٥٧ الطبعة الأولى، الطبعة الثانية في الثمانين، تصوّر يعني الكتاب لم يُعتنى به، ولم يجد أحدًا، هناك أسباب وللأسف أسباب فساد الحياة الفكرية كما يصفها الشيخ شاكر كما تقدّم هذا في قراءتنا لكتاب مقدمة في الطريق إلى ثقافتنا.

وكذلك ممّا يُعاب أنّ هذا رجل من مدرسة -هو الآن يتكلّم عن داخل الإسلام-، أنّ هذه شخصية من مدرسة فكرية لم تعد غالبة ولا مالكة للمال، مع أنّ هذه المدرسة عليها ما عليها، والكتاب فيه من النقاط ما تُثار سلبيًا على المؤلف، لكن لو قارنا بين كتاب الشيخ مصطفى صبري هنا موقف العقل والعلم والعالم وبين كتاب التنكيل للشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني، لرأينا هنا اهتمامًا شديدًا بكتاب التنكيل وهو يستحقّ هذا الاهتمام بلا شكّ -وهو أحد الكتب الذي سنقرؤها إن شاء الله كتاب التنكيل للإمام المعلمي للشيخ عبدالرحمن-، ولكن نتكلّم على قضيّة كيف برز هذا الكتاب وإن كان هذا الكتاب لا يعرفه إلّا القلائل مع أنّ المعركة الّتي يخوضها الشيخ مصطفى صبري هي أقوى من المعركة التي يخوضها الشيخ عبدالرحمن المعلمي العتمي اليماني.

يعني كتاب التنكيل هو ضدّ منهج متعصّب مقلّد مغلق في داخل الصف الإسلامي، وهو أنّه يقاتل ضدّ زاهد الكوثري ومدرسته في التأويل والتلعّب إلخ، مع ما سنبيّن في وقته إن شاء الله إذا جاء الكتاب، لكن هذا الكتاب وهو كتاب مصطفى صبري يحارب عن حوزة الإسلام، وإذا كان كتاب عبدالرحمن المعلمي عليه رحمة الله يعلّمك منهج الردّ في داخل الصفّ الإسلامي بين المنصف وبين المقلّد فإنّ هذا الكتاب يعرّفك هذه الحقبة وما كان فيها من معركة شرسة بين الإسلام وبين خصومه، وبين الإسلام وبين الّذين أرادوا في داخل الصفّ الإسلامي أن يطوّروا الإسلام من خلال الفكرة الغربية.

إذًا من الذي أشد خطرًا مع تقييمنا أنّ الشخصيتين، شخصية عبد الرحمن اليماني المعلّمي وشخصية مصطفى صبري بينهما تباين شديد في الاهتمامات والمنهج، ولكن النظر إلى واقع الأمر أنّ كتاب شيخ الإسلام مصطفى صبري يعاين ويرصد معركة أشدّ وأقسى من المعركة الّتي خاضها عبد الرحمن المعلمي مع زاهد الكوثري، فهذا الكتاب مع هذه الأهمّية إلّا أنّنا لا نجد الاهتمام اللائق به ولا الدراسات اللائقة به، ولا الاهتمام في تحقيقه بطريقة تقرّبه إلى طلبة العلم، يعني هناك مثلًا المجلّد الثالث، أنا أستطيع أن أقول لا تقرؤوا المجلد الثالث البتّة لا تلفتوا إليه، ولن تقلّ الأهمّية الّتي يجمعها الكتاب بإزالة هذا المجلّد، مع أنّ طالب العلم لا يرضى هذا الكلام ولا يطيق هذه العبارة بلا شكّ، ولا بدّ لطالب العلم أن يقرأها؛ لأنّه يتحدّث مثلًا عن قضيّة وحدة الوجود، ويتحدّث عن موقف العالم عن ربّ العالمين، فمسألة وحدة الوجود مسألة فلسفية وموجودة في داخل الصفّ الإسلامي عند الصوفية وعند المتكلّمين، وهو يخوضها خوضًا رائعًا ومهمًّا وينحاز فيها إلى طريقة الفقهاء وطريقة العلماء ويشدّد النكير على من ولو بشيء تأوّل قضيّة وحدة الوجود، ويرى أنّها مصيبة وطامّة ويسّب على كبار العلماء الّذين إذا ذكرت

أسماءهم في هذا الباب ارتجف المخالف، كالغزالي وبدر الدين الشيرازي والعامل صاحب كتاب الكشكول أو كتاب آخر في هذا الباب وهكذا.

أسماء إذا ذُكرت في زمانه ارتجف لها الإنسان، ومع ذلك هو يخوضها بشراسة ويبيّن انحراف وضلال القائلين بوحدة الوجود، وله اختيار ما في القول بوحدة الوجود، ربّما نمرّ عليه لأنّ النّاس ربّما يتساءلون ما هي وحدة الوجود، القصد لماذا لا بوجد الاهتمام؟ السبب أنّ مدرسة هذا الرجل لا تملك مالًا، يعني هذه المدرسة الكلامية فقدت سلطتها وفقدت قوّتها ولذلك لا يوجد اهتمام، ولذلك ما أدعو إليه هو أن يقوم بعض طلبة العلم إمّا بتقريب هذا الكتاب؛ لأنّه يحتاج إلى تقريب، وأهمّ ما يحقّق تقريبه ليس الاختصار بل أهمّ ما يحقّق تقريبه هو أن نعرف أهميّته بالنسبة إلينا وأن نقدّمه؛ من أجل أن نبيّن أهمية معرفة هذا الكتاب في دراستنا لما نحن عليه اليوم.

أيّ شيء فيه هذا الكتاب؟ أيّ شيء يمكن أن يستفاد منه هذا الّذي نتحدث عنه، نعود إلى نقطة مهمّة بلا شك أنّه حنفي وعلى طريقة المتكلّمين ونقاشه كلّه على طريقة المتكلّمين وهو ضعيف في الحديث، ولما قدمت لكتاب كسر الصنم للبرقعي وقلت أنّ في حربه لكتاب الكافي للكليني كان يحمل فقط القرآن ويحمل العقل، وكان فاقدًا لسلاح مهمّ جدًّا وهو سلاح الحديث، إذًا من يتذكر المقدّمة الّتي كتبتها في كتاب كسر الصنم، وهذا الرجل في الحقيقة اهتمامه بالرغم من أنّه جلس يومًا مجلسًا وعيّن مدرّسا للتفسير، لكن اهتمامه في مناقشاته في الداخل الإسلامي مثل وحدة الوجود ومناقشاته في قضايا كلامية فلسفية لا أريد التكلّم عنها؛ لأنّها ستشغل الذهن ولا أحب القضايا الكلامية عند الكلاميين، يُشغل وهو لا يهتم بالكتاب ولا بالسنة، وهي طريقة المتكلمين العقلية وهي طريقة المنطق.

ولذلك أقول وأكرّر لا تذهب إليه لتعرف ماذا في هذه المسألة من المسائل العلمية لتردّ عليه، ولكن ترصد الظاهرة، هذا الرجل كتب كتبًا يعرّفك ما هي محاور المعركة الّتي عاشها أهل الإسلام في عصره، ما من قضيّة في عصره شكّلت معركة بين أهل الإسلام وبين خصوم الإسلام، أو بين الإسلام وبين الّذين أرادوا أن يزيلوا الحواجز بين الإسلام وبين التغريب إلّا وللشيخ فيها مقالة، مثلًا ما ذكرنا أنّ أوّل كتاب ألّفه النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة ومسائله، كلّها يتكلّم في هذا الباب في الردّ على الّذين زعموا أنّ الخلافة ليست من الدين.

وهذه الفكرة في ذلك الوقت كانت مقبولة؛ حتّى ألّف فيها بعضهم كتابًا ينكر فيها وجود دولة إسلامية، فردّ عليهم أنّ الخلافة منصب إسلامي وأنّ وجود الدولة هو من مقاصد الشريعة، هذا من إحدى المعارك التي خاضها، ذكرنا ما يُهتمّ به من هذا الباب، والكلام بين العسكر والأمّة إلى غير ذلك ولذلك وفي كتاب النكير على منكري النعمة، العجيب كذلك من فوائده أن يقوله: أنّ أعداء الأمة –وهم الإنجليز في ذلك الوقت– كانوا يهتمّون بالعسكريين؛ لأنّهم علموا أنّ الأمّة أُلغيت فبقيت القوة للعسكر، الغرب أنهى دور العسكر فلا وجود فاعل في قيادتها، بقي للسياسيين للإقطاعيين إلى ما هنالك، لكن ما الّذي أحيا وجود العسكر؟ القوّة، للأسف طريقة التربية العسكرية في داخل الخلافة الإسلامية ويقول هو: ومن هنا اهتمّ الإنجليز بالعسكر وكانوا يلتقون بهم إلخ.

وهذه الصورة الّتي يتكلم عنها ما زالت موجودة إلى الآن، لو تصورنا أنّ حاكمًا ما أراد أن يصلح من الّذي يتصدى له؟ العسكر وأكبر تجربة هي تجربة مصر، في كلّ دولة وفي كلّ حالة الاختيار الغربي حاضر وسهل جدًّا أن يخرج من القمقم، الجنّي جاهز موجود يُدرّب ويُعلّم لكن متى يُستخرج؟ عند الحاجة وعند الضرورة.

ومن المسائل المهمّة الّتي ثارت في عصره وللأسف قام بعض النّاس اليوم يتكلّمون عنها دون معرفة واقعها، وهي قضيّة ترجمة قرآن، تعرفون أنّ مصطفى كمال أتاتورك من معاركه بعد إزالة الخلافة وهي قضيّة محاربة اللغة العربية، ولذلك غيّر الأذان، أتاتورك لما ألغى الخلافة وأراد أن يمسح أيّ صلة بين الأمّة وبين الإسلام لم يصلح أن يقول لهم لا تصلوا، فغيّر الأذان من العربي للتركية، وبدأ الكلام يثور حول قراءة القرآن بالتركية، وأن يُقرأ القرآن بلغة أجنبية، يترجم ويقرأ في الصلاة بالترجمة كما هو شأن الكتب الأخرى، كما هو شأن الإنجيل والتوراة، يقرأ بلغتهم وفي الصلوات، وللأسف شيخ الأزهر في ذلك الوقت مصطفى المراغي أجاز ذلك، لتروا أنّ المؤسسة الدينية الرسمية سقطت قيمتها، لم تعد المدرسة الدينية هي الّتي تتولّى الحرب والمعركة ضدّ أعداء الإسلام بل هي غُزيت، ومصطفى المراغي ألّف كاتبًا في جواز ذلك فردّ عليه في كتاب تحريم في ذلك الوقت مثله وردّ عليه الشيخ شاكر صاحب الباعث الحثيث، يرون عدم جواز ترجمة معاني القرآن وليس ترجمة القرآن لقراءته، كانوا يرون عدم جواز ترجمة معاني القرآن، طبعًا بعد ذلك استقرّ على ترجمة معانيه، وأنّه صورة من صور التفسير، الآن الترجمة تُعد من صور التفسير، كما يُفسّر بالعربية يُفسّر بالإنجليزية يُفسّر بالفرنسية، ولكن في ذلك الوقت كانت المعركة شديدة، فكان من محاربة هذه البدعة الكبيرة والعظيمة أنّهم حرّموا الترجمة، وألف في ذلك بحثًا سمّاه بحث في ترجمة القرآن وأحكامها.

كذلك له كتاب موقف البشر تحت سلطان القدر، وفي ذلك الكتاب كثير من مسائله نقل صفحات كاملة من كتابه هذا موقف البشر من سلطان القدر، كذلك في مصر من أواخر كتبه قبل هذا الكتاب، عرض بعض العلمانيين تغيير أحكام الأحوال الشخصية، ممّا وصل الناس إليه اليوم، مثل تقييد الزواج من أربعة، تقييد الطلاق والإرث، والناس وصلوا إليها اليوم، لكن في ذلك الوقت كانت المعركة شديدة فألّف كتاب وحارب على هذا الأمر، وهو في هذا الكتاب رصد أنّ قاسم أمين كما كشف قاسم نفسه في ترجمته؛ لأنّ قاسم كتب في ترجمته بأنّ الذي أوحى إليّ هذا الكتاب والّذي كان يشجعني على إصداره هو محمد عبده، من هو محمّد عبده؟ مفتي الديار المصرية وكانت هذه الشخصية هي ركن عند الذين يريدون أن يشتهوا كوّة في داخل الإسلام؛ من أجل ولوج التغريب وتفسير الإسلام تفسيرًا عصرانيًا بعيدًا عن حقائقه وتأويلًا له وحرفًا له عن حقائقه، تبقى شخصية محمّد عبده حاضرة وشخصية قويّة في هذا الباب.

ثمّ هذا الكتاب الّذي بين أيدينا وسنتحدّث عنه إن شاء الله بما يليق به، **أهمّية هذا الكتاب هو أن ترصد حقبة زمنية عاشها الإسلام**، وعاشها محنة ليست محنة العسكر وليست محنة الاحتلال وهو يقول هذا، هذا شيء عظيم ولكن هذه الفترة الّتي يتحدث عنها يقول توافق فيها الاحتلال العسكري لبلادنا وكان في وقتها الإنجليز يحكمون مصر، يسيرون مع العسكر في تدمير الأمّة كان يعيش معها في ظرفها، يعيش أقوام من المسلمين ليمهّدوا لحرف الإسلام ليتلاءم مع التغريب، ونحن نعرف أنّ معركة التغريب أيّها الإخوة هي من أشدّ المعارك التي عاشها الإسلام في الفترة المتأخرة، وهذه قاعدة يجب علينا أن نكمّلها، في قواعد الجرح والتعديل في العلماء يجب علينا أن لا نتكلّم عن شخصية حتى نضعها ضمن السياق التاريخي لمعركة الإسلام الّتي يعيشها الإسلام في عصره.

لأنّه من الخطأ الكبير هو أن تذهب لهذا الكتاب من أجل أن يُراجع منهج مصطفى صبري أهو سنيّ؟ أم على طريقة المحدثين أم على طريقة الأشاعرة أم هو ماتوريدي أو هكذا، هذا ظلم لأيّ عالم من العلماء، العدل والإنصاف يقتضيان شيئًا واحدًا ما هو؟ هو أن تقرأ العالم من خلال معركة عصره، أين هو؟ إذا علمت العالم في معركة عصره استطعت أن تحكم عليه بعدل وإنصاف وخاصّة أنّ كثيرًا من العلماء إن لم يكن لهم اختيار في المسائل العلمية إنّما هم إنتاج عصرهم ومدارسهم ولا يوجد غيرها، وإذا وُجدت المدارس الأخرى وُجدت بطريقة فيها شيء من الخصومة التي يقع فيها الظلم.

مثال ذلك: عندما يأتي أحدهم الآن ليرى من هو سيد قطب، سأستغل هذا المجلس للدفاع عن هذه الشخصية وهذه القامة العظيمة، لما يأتي واحد ويقرأ سيّد بعيدًا عن معركة عصره، بمعنى أن يذهب ليقول ماذا يقول سيد قطب عن معاوية، بلا شكّ أنّ ما قاله في العدالة الاجتماعية خطأ، وردّ عليه محمود شاكر في مقالات له منشورة حُفظت في جمهرة مقالات الأستاذ شاكر، يأتي أحدهم ويكتب عن سيّد قطب أنّه ينفي حديث الآحاد في العقائد، هذا إنتاج زمانه وإنتاج المدرسة الدينية هو لا يعرف غيرها، وهكذا يجمعون له قال هنا وكلمة قالها هنا، وهذه ليست معارك عصره، حركة عصر هذا الرجل أنّه كان هناك أكبر معركة في عصره وأعظم معركة هي قضيّة تحكيم الشريعة، معركة الإسلام ضدّ الخصوم هي معركة تحكيم الشريعة، أنظر إليه هل خاض هذه المعركة إسلاميًا أم أنّه صار من أعداء الإسلام فانقلب إليهم؟

هذا الآن مثلًا لما يتحدث عن قضيّة إثبات وجود الله، إثبات وجود الله في المدرسة الّتي تلقّاها المدرسة الكلامية إثبات الحوادث والحوادث تدلّ على كذا والجوهر والعرض إلى غير ذلك من الألفاظ في زمانه، حتّى المدرسة يسمّونها بالسلفية والأثرية لم تخلوا من هذا، عندما نذهب إلى كتاب دلائل التوحيد لجمال الدين القاسمي، وهو شخصية متّفق عليها أنّها شخصية أثرية وحورب وسُجن وطُلب للمحاكمة؛ لأنّه كان بين قوسين كان لا مذهبيا، وهذه قضيّة في أواخر الدولة العثمانية كان يشترك فيها الهوى والظلم السياسي وعدم الفهم الفقهي، الخصومة بين العثمانيين والوهابيين أفرزت ارتدادا في أنّ كلّ من دعى وكلّ من اقترب إلى دعوتهم في عدم المذهبية بأنّه متّهم وأنّه يُحاكم، هذا رجل من دعاة الاستقلاب من دعاة السلفيين كما يقولون، كيف أثبت قضيّة التوحيد؟ عندما ترجع إليه هذا الرجل لا يستخدم في قضيّة إثبات الله إلّا طريقة المتكلمين؛ لأنّ هذه المدرسة الغالبة هذه المدرسة الموجودة، إذًا لا يجوز لك حين تدرس شخصية أن تخرجها من سياق معركة الإسلام.

أين هو؟ هل عاش معركة الإسلام أم غيرها؟ يوجد أناس ولا شكّ يهتمّون بالعلم والإنصاف بتنقية هؤلاء من أخطائهم، مثال ذلك معركة الإسلام في زمن الباقلّاني كانت هي معركة الزندقة، وأعظم قضيّة هي دلائل النبوة والإعجاز القرآني، في زمان الباقلّاني كانت أكبر معركة خاضها الإسلام معركة الزنادقة العبيديين، والحشاشون الإسماعيلية النزارية كانوا يحكمون ويقتلون، والأمّة تعاني الزندقة، فالإمام الباقلّاني كانت هذه معركته، في زمن الباقلّاني كان هناك الإمام الدارقطني المحدّث، معركته في داخل الصف الإسلامي هو إثبات العقائد بطريقة سنيّة، وكان يخوضها لكنّه لفقهه ولعلمه ولإنصافه لم يقلب هؤلاء الّذين كانوا

يعيشون معركة الإسلام ضدّ الخصوم لم يقلبهم أعداء للإسلام؛ بحيث يجعل الحرب معهم ويشغلهم عن معركتهم ضدّ خصوم الإسلام.

بل كان الإمام الدارقطني إذا مرّ بالإمام الباقلّاني قبّل يده، الباقلّاني هو الذي أرسى المذهب الأشعري، وبعض المحقّقين وقد أصابوا وهذه ذكرتها في الردّ على الجوهرة، أصابوا بأنّ الذي أسّس المذهب الأشعري الكلامي هو البلاقلّاني وليس الأشعري، ومع ذلك كان الإمام الدارقطني يقبّل يده؛ لأنّ الإمام الباقلاني يعيش معركة الإسلام ضدّ خصومه، فالّذي يأتي لهذا الكتاب من أجل أن يناقشه أهو سلفي أهو أثري؟ فقد ظلم هذا الرجل ظلمًا كثيرًا، ولذلك سيقع الإقصاء لهذا الكتاب وعدم الاهتمام به وحينئذ حلقة من حلقات معركة الإسلام في مركز الأمّة، -الآن لا يوجد مركزية في زمن النت فكلّ أمّة تعيش لوحدها-، لكن في وقت من الأوقات كانت مصر هي المركز، هي الّتي تطبع الكتب وهي التي تنشرها وإذا أراد حتّى المغني والممثّل إذا أراد الشهرة يذهب إلى مصر، مصر كانت مركز الثقافة ومركز التأثير في العالم الإسلامي، الآن ضعف هذا بسبب الحياة الجديدة ولكن مثلًا لما أراد رشيد رضا أن ينشر علمه ذهب لمصر، حتّى النصارى من الذي أنشأ جريدة الأهرام؟ النصارى من الشام ذهبوا هناك؛ لأنّها هي المركز.

لما ننظر إلى هذا الرجل كان يحارب في مركز الثقل في قضيّة تغريب الإسلام، ما هي معركة الإسلام في عصره؟ لنرصد هذه القضيّة المهمّة؛ لأنّها اليوم ضعفت لكن في وقت من الأوقات كانت قضيّة مهمّة، أعلن مجموعة من الفلاسفة الغربيين وتلقّفها بعض الإسلاميين بصراحة وبعضهم بضعف، نيتشه أعلن موت الإله وانتهاء الدين والآن هو عصر العلم، باعتبار أنّ الدين لا عقلانية فيه لا علم فيه لا حقّ فيه، هو إنتاج شعوري، الإنسان يشعر به ويفرح وإنتاج نفسي، يعني الّذين يقولون بأنّنا نريد الدين، ما أرادوا الدين لأنّه هو الحقّ نحن نتكلم عن الفلاسفة الجدد.

الّذين قالوا بأنّنا نحتاج إلى الدين لماذا قالوا نريد الدين؟ لأنّ الدين يحقّق لهم الاطمئنان النفسي، وبدون الدين يشعرون بالقلق، وهذه قضيّة لا علاقة لها بأنّ الدين حقّ أو باطل، يعني علينا أنّ لا نناقش الدين أنّه حق أو باطل، علينا أن نناقش أنّه نافع أو غير نافع فقط، والفلسفة المادّية التي أرسى قواعدها هيغل ثمّ تلقّاها بأجلى صورها ماركس الّذي قال بأنّ: مافي إله والحياة مادّة إلى غير ذلك، قبلها ناس بدؤوا يفسّرون التاريخ تفسيرًا مادّيًا وليس تفسيرًا مثاليًا كما يقولون، هذه الفكرة الغربية حقّقت نتائجها، لما جاء الغربيون وحكموا بلادنا وسيطروا عليها وُجد الانهيار في داخل الصفّ المسلم نحو هذه الأفكار، فأناس

كفروا وألحدوا، هناك شخصيات ألحدت وهو يرصدها ويرصد بعضها مثل جميل صدقي الزهاوي، هذه شخصية عراقية ادّعت موت الإله و الآن إذا ذهبتم إلى الكتب المعاصرة تجدونها تمجّده وتعظّمه باعتباره شاعرًا وفيلسوفًا عظيمًا وهو ملحد لا يؤمن بوجود الله قط، ومن فضائل الشيخ أنّه يرصد هذه الفواحش وفي أوّل كتابه يقول: أنا لا يهمّني الاسم الكبير أو الصغير، يعني سأذكر كل واحد بما فيه وأنا ذكري للقضيّة بأنّ فيها كبيرا ليس دعمًا له وليس دعمًا للفكرة وذكري للقضيّة بأنّه صغير هذا ليس تصغيرًا له، القضيّة موجودة فهذا من فوائد الكتاب، فيذكر هذه الشخصيات بأنّها ألحدت وخرجت من الدين.

وهناك طبعًا من النصارى من وافقهم مثل فرح انطون، وهذه شخصية مهمّة في هذا الكتاب؛ لأنّ فرح أنطون نصراني ملحد لا يؤمن بالأديان، كتب محمد عبده مرّة مقالًا وله كتاب اسمه دلائل التوحيد ونشره مقالات، فلمّا كتب تناظر محمد عبده وفرح أنطون حول قضيّة الدين وأنا قبل أن أقرأ هذا الكتاب كنت قرأت للعلمانيين مثل كتاب العلمانيين من منظور مختلف لعزيز عظمة، وهو كتاب قديم ويُقرأ هذا الكتاب ولا أريد أن أذكره؛ لأنّه ليس له قيمة، لكن لما قرأت هذا الكتاب هو يعتبر أنّ فرح أنطون في مناظرته مع محمّد عبده انتصر على محمد عبده، والمناظرة بينهما بين رجل يقول بأنّ الدين ضروري وأنّ الأديان لا بدّ منها، وبين رجل يقول بأنّ الأديان هي سبب المصائب وأنّ الخروج من هذه المصائب هو بالعودة للعقلانية وللعلم، لما قرأت كتاب عزيز عظمة في رصده لهذه المناظرة يرى أنّ فرح أنطون قد انتصر، ولكن لو اعتبرت في ذلك الوقت بأنّ هذا من قبيل مناصرة الأستاذ أو المذهب على اعتبار أنّ العلمانية تعتمد على هذا الأساس، أساس العلمانية يعتمد على رفع حق الله من الوجود التشريعي والأمر والنهي والتحسين والتقبيح وينبغي أن يعود هذا للإنسان، لكن لما قرأت هذا الكتاب وإذا القضيّة مختلفة، وإذا هو نفسه مصطفى صبري يقول: حقًّا إنّ طريقة محمد عبده في مناظرته لفرح أنطون هي مؤيدة لأفكاره ولكن للأسف تبدو بمظهر المحتاج للدين وليس مظهر حقّ الدين أنّه حقّ.

ويعترف صاحب الكتاب بأنّ هذه المناظرة معلما من معالم انحراف القارئين والمثقفين وتغيّر دينهم وانقلابهم، بل يعالج مصطفى صبري هذه المناظرة طوال الكتاب من أوّله إلى آخره، ويبحث عن نماذج الّتي أسقطت هذه المناظرة في أفكارها وجعلتها جزءًا من تفكيرها.

محمّد عبده ما زال له قيمة في مصر، ما زال عند العلمانيين عماد وركن في قضيّة محاربة الدين باسم الدين، إلى يومنا هذا، فرح أنطون صلب جلد كما ذكرنا من عزيز العظمة، إنّما هناك شخصية ضعيفة غير موجودة لكن في ذلك الوقت كانت مسؤولة

عن مجلّة الأزهر، يعني هي الناطقة باسم الأزهر من هي هذه الشخصية؟ هي فريد وجدي، محمد فريد وجدي قائم على أكبر مجلّة دينية في ذلك الوقت، مجلّة الأزهر هو رئيس تحريرها هو الّذي يكتب فيها وللأسف أنّ هذا الرجل بحسب تقييم شيخ الإسلام مصطفى صبري عندما تبحث في مباحث يتهمّه بها، تجد أنّ محمد فريد وجدي أراد أن يلغي الدين من أصله وأنّه لا قيمة له، وهو يتكلّم باسم الأزهر الناطق الرسمي وفي ذلك الوقت شيخ الأزهر المراغي يدعمه ويؤيده، أنظروا إلى هذه الخطورة.

هو يعتبر أنّ هذا السقوط في هذا المستوى إنّما هو نتيجة لمناظرة فرح أنطون مع محمد عبده، هذه المناظرة الّتي طُبعت وانتشرت والآن لا يذكرونها كثيرًا، أُخذت مناظرات محمّد عبده وأُلّف فيها كتاب سُمّي دلائل التوحيد، وهو يذكر قصّة عجيبة خاصّة في هذه المسألة، يقول: لما جاء محمد عبده ليشرح رسالة عضد الدين الإيجي وهي مسألة في علم الكلام، علم الكلام يُقسم إلى ثلاث أقسام، إلهيات ونبوّات والسمعيات، فقال: الإلهيات تبدأ بقضية إثبات الأوّل وإثبات الله ووجوب النظر، قال لما وصل إلى قضيّة التوحيد قال محمّد عبده لتلاميذه: نحن دخلنا في موضوع التوحيد وهذه كذا وكذا جنيه أو خمسين جنيه أو مئة جنيه وأَعلن: أنا أتحدّى أيّ أحد منكم أن يستطيع أن يثبت وحدانية الله عزّ وجلّ بطرقكم الّتي تعرفونها في الأزهر!

طبعًا الشيخ هنا يشدّ النكير على هذه الطريقة بأنّها غرور وكأنّ طريقة علماء الأزهر جاهلة إلى غير ذلك، ويبدأ بذكر التداعيات لمثل هذا الكلام في الصحف، ومن كبار المثقفين والمتكلّمين بأنّ طريقة العلماء في إثبات ربّنا طريقة بالية وينبغي أن نعتمد على طرق أخرى وهي طريقتنا المقصود بها الإله الجديد أو الدين الجيد وهو العلم أو العقل.

إذًا عندنا الطائفة الأولى الّتي نشأت وهم أهل الإلحاد، الطائفة الثانية الّتي يمثّلها محمد عبده، وسأذكر أسماء كثيرة يرصد انحرافها ويرصد موقفها من الدين وكل واحدة كيف تكلّم عنها، كل شخصية أيّ نقطة نقدها وتكلّم عنها يقول: هؤلاء أرادوا أن يجعلوا الكفر باسم الدين، وبعبارتنا المعاصرة الّتي نرقّقها نقول أرادوا نشر التغريب باسم الدين.

وكما قال محمّد عبده عن صديقه ماكسيم رودنسون قال: لا يمكن هدم الدين إلّا من داخله، وهو يعتبر أنّ هؤلاء قد أفسدوا الدين، والتقى الشيخ مصطفى صبري في قضيّة المفاهيم الدينية مع محمود شاكر في القضايا العلمية البلاغية، يقول بأنّ محمّد عبده دمّر المفاهيم الدينية سواء من العقائد، وهنا أقول الكلمات الّتي تسمعونها اليوم، حتّى المشايخ يقولونها وللأسف الآن طلاب كلية الشريعة يسمعونها من الدكاترة، يقولون: الفقه الّذي كتبه علمائنا هو فقه كتب في أزمنة متقدّمة تاريخية ويجب أن

يكتب الفقه اليوم بطريقة عصرية، وهنا دخل المذهب التاريخاني بأنّ تفسير القرآن الفقه الإسلامي الأحكام السلطانية كلها نتجت إنتاجًا تاريخيًا لا إنتاجًا إسلاميًا، هذه أوّل من قالها محمّد عبده.

يعني أنت عندما تذهب للمغني تذهب للمحلى هذا ليس إنتاجا إسلاميا خالصا، ليس من الكتاب والسنّة هذا إنتاج أفرزه التاريخ وألقى التاريخ والوضع السياسي والوضع الاجتماعي بظلاله على الفقه وبالتالي المطلوب منّا اليوم التحديث، الآن هذه الكلمة الكلّ يقولها، الآن نتحدث عن الأسلوب لا نتحدّث عن طريقة العرض.

عندما يقول ابن القيّم: الفتوى تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان، هو يتحدّث عن الفقه أم الفتوى؟ عبارته في الفتوى وفرق بين الفتوى والفقه، فالفقه تذهب فيقول لك المياه كذا مجرّدة، لكن عندما تقع المسألة حينئذ تتغيّر الفتوى، أنت تقول هل يجوز لي أن أشرب الماء النجس؟ وهو مكتوب في كتب الفقه مجرّدة من غير موضوعها، مكتوب أنّ الماء النجس لا يجوز شربه، الآن جئنا للفتوى موجود عندك ماء نجس وماء طاهر يجوز لك أن تشرب الماء النجس؟ لا يجوز لوجود الماء الطاهر، لكن لو جاءك سؤال أنا رجل في صحراء لا أجد إلّا الماء النجس وإلّا متّ تغيّرت الفتوى أم لم تتغيّر؟ فرق بين أن تتغّير الفتوى ويتغيّر الفقه.

الحديث ليس عن تغيّر الفتوى الحديث عن تغيّر الفقه، يجب أن يُغيّر الفقه، يقول: أوّل من طعن في المسائل الدينية هو يحضر عبارات خطيرة في مناظرة محمّد عبده لفرح أنطون، عبارات خطيرة جدًّا ينبغي العودة إليها وقراءتها جيّدًا، وأنا وجدت بعض الباحثين المعاصرين يقول: أنا لا أستطيع أن أحكم على هذه الشخصية بهذا الكتاب، وكأنّه يقول لو حكمت على هذه الشخصيّة من خلال هذا الكتاب لكان الحكم قاسيًا شديدًا، يعني يخاف يتهيّب أن يتلقى هذا الكتاب تلقي التسليم والتصديق؛ لأنّه يؤدّي إلى خطورة.

هنا يقول صاحب الكتاب أنّ أوّل من طعن في الفقه وأوّل من طعن في مباحث التوحيد هو محمّد عبده، ويرصد عبارات وينقل نقلًا من كتب وأشخاص سمعوا بعد ذلك، هذا الكلام الّذي قاله مصطفى صبري هو الّذي قاله محمود شاكر في مقدمة دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، يقول الأستاذ محمّد محمّد أبو موسى أستاذ البلاغة في الأزهر –هذا له كتب رائعة وله محاضرات أروع من الكتب–، وأنا ذكرته في كتاب فنّ القراءة ولم أكن أعرفه، وإنّما كتابه في البلاغة عندما رصد البلاغة القرآنية وكلام العلماء فيها إلى غير ذلك كلام عجيب لما قرأت الكتاب علمت قيمة هذا الرجل، وقرأت الكتاب وقرأت نقده. يقول محمد محمّد أبو موسى: أنا قابلت محمود شاكر، قال: أخّر نشر مقدمة دلائل الإعجاز عشرين سنة، للذكر فقط حتّى تعرفوا أنّ

العلماء يبذلون، قال: لما جاء لمسألة وحدة الوجود هو يبحثها في المجلّد الثالث ولا تقرؤوه -طالب العلم لا ينفعه هذا الكلام ولكن بإذن الله المتخصّص ليست مهمة-، وهو يبحث في مسألة وحدة الوجود بحثا خاصّا به وتُقرأ لطالب العلم، لا بدّ أن يفهمها ويعرف وجهة نظر الكاتب منها، يقول: بعض النّاس شكى إليّ أنّ هذا المبحث قرأه واستغرق معه عشرة أيام ليقرأه، قال له: أنا كتبته في خمس سنوات.

المهمّ يقول محمّد محمّد أبو موسى: قابلت الشيخ محمود شاكر فقال لي: أنا حبست مقدّمة دلائل الإعجاز عشرين سنة مخافة هذا الاتهام الّذي اكتشفته، أنّ أوّل من طعن في كتب السلف وأسقط قيمتها وأهمّيتها وأنزل مستواها وأبعد طلبة العلم عنها هو محمّد عبده، يقول: كان يتكلّم ويعلم ما يقول، وللذكر لما قالها محمد محمد أبو موسى هذه الكلمة نقلًا عن أستاذه محمود شاكر نقلها وهو يرتجف، ارجعوا إلى كلامه، نقلها وهو يرتجف ويعتذر إلى الشيخ شاكر ويقول: هذا حقّ العلم، وكأنّ الكلام عن محمّد عبده خطيئة كبرى لا ينبغي أن يجازف فيها أحد، ويقول: هذا حقّ العلم وهو يعظّم محمّد عبده، فالرجل اكتشف شيئًا وعليه أن يظهره ولا ينبغي أن يستره، يعني هو يعتذر لشدّة الكلام.

فهذا الرصد لمثل هذه الشخصية مهمّ جدًّا لمثل هذا الكتاب، أمرّ الآن على الشخصيات الّتي تكلّم عنها لتعرفوا مقدار موسوعية هذا الكتاب في رصده لرجال تلك المرحلة فيما تكلّمنا عنه، وهو محاولة هدم الإسلام من داخله خلافًا لمن أنكر الإسلام وخرج منه، تكلّمنا عن فرح أنطون، نتكلّم عن شبلي شميل، تكلّمنا عن محمد فريد وجدي، ما هي المواضيع والمباحث الّتي يشدّ النكير فيها على محمّد فريد وجدي هو وشخصية أخرى وهذا الكتاب من أوائل الكتب الّتي قرأتها في السيرة، وهو حياة محمد حسين هيكل، ولا تخلطوا يوجد محمد حسنين هيكل الصحفي المعروف الّذي كان يلقّب قديمًا بسوط سيده، يعني كلب عبد الناصر!

فمحمّد حسين هيكل كان علمانيًا وكان ضدّ التوجه الديني، فورًا الرجل انقلب وكتب كتابه حياة محمّد، وهو كتاب ضخم موجود هنا، وأحدث ضجّة كبيرة على اعتبار أنّ الرجل انقلب من اللادينية إلى الدين، ولكنه حين انقلب من اللادينية إلى الدين حمل معه اللادينية لتفسير الدين، هو كان لا يؤمن بالأديان وكان علمانيًا من الأحزاب العلمانية، وفجأة خرج لنا كتاب حياة محمّد معظّمًا سيرة النبيّ ﷺ معظّمًا الإسلام ولكن ينظر إلى محمّد ﷺ وإلى سيرته بمنظور لاديني، أي المنظور العقلي، ولذلك قدّم مقدّمات فيها نفي المعجزات النبوية، ونظر إلى النبيّ ﷺ باعتباره بشرًا خاليًا من خصوصيات النبوة، وللأسف هذا

الكلام الّذي قدّم فيه حياة محمّد قدّم به محمود شيت خطاب في كتابه الرسول القائد، نفس المقدمة الّتي قالها محمد حسين هيكل في حياة محمّد قالها في الرسول القائد، ولذلك هو دارسته صحيح عسكرية جميلة، تفسيره للفتوحات تفسير عسكري جيّد، لكنّه لا يرى المعجزة ولا يرى الكرامة ولا يرى دلائل النبوّة في خرق العادة كما يقولون.

محمد فريد وجدي ومحمد حسين هيكل، أين حرب مصطفى صبري ضدّهم في موضوع قراءة الدين بأيّ وجهة؟ هل هي وجهة علماء السلف علمائنا؟ أم وجهة العلم الجديد الّذي ينكر الغيبيات؟ وأساس القضيّة الغيب والآخرة، فإذا حكمنا على محمد فريد وجدي فهو كالتالي: منكر للبعث، منكر للجنة والنار، منكر للغيبيات، هذا الّذي نتحدّث عنه من هو؟ الّذي كان يتكلّم باسم الأزهر، محمد حسين هيكل ذكرنا مناقشة الكتاب فيه، محمّد عبده ذكرنا ما قاله الكتاب عنه، يناقش كتاب وهذا الكتاب لأنّه قلنا آخر كتاب ألّفه، إذًا هو رأى نماذج كثيرة مرّت، فيناقش العقّاد في عقائده وهو ينصفه، يقول: إنّني كتبت عن العقّاد وتكلّمت عليه قبل أن أقرأ كتابه، وهو عبقرية محمّد، إذًا واضح أنّه ضمن السياق في حمّى إنكار النبوة وإنكار الغيب، فلمّا خرج الكتاب كتاب عبقرية العقّاد فقرأته فوجدته ليس كذلك ولكن فيه هذه اللوثة، لكن يحضر بعض العبارات يقول: عبارات قلقة لكنّني وجدت الكتاب ليس فيه إنكار للنبوّة، وليس فيه إنكار للمعجزات، لكن يقول على ما يتهمّ به طه حسين، يقول بأن العقّاد يريد أن يقول: ابتعدوا عن هذا النقاش فيكفي أنّه عبقري في إنسانيته، ولكن للإنصاف يقول: كنت واضعًا إيّاه على طريقة الآخرين في إنكار الغيب وغير ذلك، لكن لما قرأت الكتاب وجدته أقلّ ضررًا ممّا ظننته فيه.

يتكلّم عن محمد رشيد رضا وهذا مهمّ جدًّا؛ لأنّه يعتبر أن محمد رشيد رضا هو فرخ محمّد عبده، فكما يقول محمّد عبده عن محمّد رشيد رضا في تفسيره لسورة الفيل كما تعلمون طير أبابيل هم الجراثيم! وغير ذلك في تفسير المنار موجود، فهو لا يتكلّم عليه كثيرًا كما تعلمون، جميل صدقي الزهاوي ذكره باعتباره ملحدًا. واهتم الأدباء به ولما مات مدحوه. وذكره إسماعيل أدهم باعتباره ملحدًا.

عندنا شخصية عجيبة ذكرها وهو توفيق الحكيم، ولما أخرج توفيق الحكيم مختصر تفسير القرطبي في آخر عمره، توفيق الحكيم اختصر تفسير القرطبي، وهذه نقطة مهمة في الكلام عن طه حسين وتعيدنا للحديث عن محمد رشيد رضا كذلك سأجملهم معا، رأيت كلامًا وكأنّ الراصد العلمي المنصف يلتقي مع أخيه إذا سلك نفس السبيل، ما يقوله عن توفيق الحكيم من عبارات هي نفس عبارات الشيخ شاكر فيه، يقول: هذا الضُّباع –وهو صوت الأفاعي– هذا الّذي أحسّه الآن وأظهره في قضيّة مختصر

تفسير القرطبي كنت أحسّه من أوّل كلمة قرأتها له، ولذلك ذكرت لكم في كتاب فنّ القراءة كيف انتقل كتاب حياة محمّد، ألم يكتب توفيق الحكيم مسرحية اسمها حياة محمّد؟ وجعل حياة النبيّ ﷺ مسرحية! فالّذين أرادوا تعظيمه قالوا: هذا إبداع جديد حوّل السيرة إلى مسرحية، فنّ جديد؛ حتّى تقرأها وإنّما هو أراد أن يجرّد النبي من نبوّته! نفس المنهج! هو أراد أن يجرّد النبيّ من نبوّته ومن معجزاته ومن عالم الغيب زمن صلة الملائكة، طبعًا الكلام الّذي أقوله الآن مختصر بل مختصر المختصر، وإلّا في الحقيقة عندما تعود إلى الكتاب وإلى المراجع الّتي اعتمد عليها في مناقشة هذه القضايا تراها أهم من ذلك بكثير، في تعريف من هو النبيّ مثلًا ويناقشها مناقشة.

نختم في شخصية طه حسين، طه حسين ذكره تقريبًا في موطنين، الموطن الأوّل في المجلّد الأول، الموطن الثاني في المجلّد الرابع، ذكر طه حسين في الموطن الأوّل باعتباره تغريبيًا في تربويته، ويتكلّم عن قضيّة الفقه وعن قضيّة الفساد الاجتماعي، ويرصد لطه حسين في عبارة له نشرها ذامًّا مدير التربية في منطقة من المناطق منع فيها الأولاد من الرقص في المدارس الخاصّة. وقد استلم طه حسين وزارة المعارف لكن هذا الكلام قبل وزارة المعارف، مدير منطقة تربوية أصدر أمرًا بعدم جواز الرقص في داخل المدارس الخاصّة فانبرى له طه حسين يؤنبه، طبعًا يحضر نصًّا نسبه بعضهم للطهطاوي وهو ليس له، بأنّ أوّل ما علينا أن نعلّمه لهذه الشعوب الغجرية المتخلفة هو رقص الرجال مع النساء! حتّى تنتهي نظرة الرجل الشهوانية للمرأة وتصبح نظرة إنسانية، ولهذا هم لديهم نظرة إنسانية للمرأة فتجاوزوها للقرود والكلاب والأطفال!

هذا الموطن الأوّل، والموطن الثاني: أرسل له طه حسين وقد أهداه كتابه في فصل المقال بين منكري الغيب والمؤمنين به وهو كتاب موجود الجزء الرابع، يعني وضع فيه كتابا كان قد أصدره وأهداه، فيقول أنا أهديته لطه حسين كعادة النّاس في الإهداء، فأرسل له طه حسين يقول له: أنا أعجب -وهو ينتقل لهذا الباب؛ لأنّه يرى أن إثبات المعجزة لا يخالف العقل وهو الحقّ-، طه حسين يرسل له رسالة ليقول له: أنا أعجب لهؤلاء الّذين ينكرون ما يخالف العقل ويعقلون الضعيف، الفرق بينهما أنّ طه حسين يريد أن يقول: العقل ضعيف فلا يستطيع أن يثبت المعجزة، هو يقول له: غلط العقل الصحيح يثبت المعجزة ما يهمّنا أنّ طه حسين أراد أن يتقرب له.

إذا كانت مسألة وحدة الوجود استهلكت معه خمس سنوات، فتصوّروا الكتاب كم استغرق للتأليف؟ إذًا بين مقاله في الرقص المتقدّم وبين مقاله بعد أن قال: وهو صاحب كتاب على هامش السيرة، إذًا هذا الكلام قاله طه حسين بعد أن ألّف على

هامش السيرة، متى ألّف طه حسين هامش السيرة؟ بعد وفاة الرافعي، وفي الأوّل كان الرافعي كعادة الّذين يظنّون أنّ المعركة كان فيها شيء من القسوة من المشايخ، وبعضهم يظنّون أنّ الرافعي قسى على خصومه، وفي الحقيقة هؤلاء خصومه، هم سيّئون لكن بعد أن مات الرافعي صاروا يتكلّمون عن الإسلام!

مثل العقّاد متى ألّف عبقرية محمّد؟ بعد موت الرافعي، متى ألّف طه حسين على هامش السيرة؟ بعد موت الرافعي، فإذًا اللاعب الأوّل على مسرح الدفاع الإسلامي مات، البقيّة قالوا ما دام الرافعي كان يأخذ هذا المنصب، فكما جمعنا الكلام عن العلمانية وعن التغريب فلنجمع الكلام عن الإسلام ونأخذ مكانه، فبدأ التأليف.

ومن هنا نعتبر أنّ رسالة طه حسين للشيخ لمصطفى صبري هي من باب النفاق، كما أنّ كتابه على هامش السيرة من باب النفاق وهو أخذ المواقع.

يكفي إلى هنا والكتاب أربع مجلّدات، كنت أحبّ أن أتكلّم عن فهمه لقضيّة وحدة الوجود، عن كلامه في القدر ولكن أقول وأختم بهذه الكلمة: لا تذهب إلى الكتاب من أجل أن تأخذ المسائل العلمية فهو لا يصلح لهذا، ولكن تستطيع أن تذهب إليه لترصد هذه المرحلة الّتي عاشها الإسلام ضدّ التغريب، وحين تقيّم رجال تلك المرحلة عليك أن تقيّمهم بوقوفهم بهذه المعركة، والشيخ بلا شكّ بريء من التغريب وهناك من تنشّق منها أخذًا قليلًا، والخصومة الوحيدة بعد هداية سيّد قطب وتحوله من العلمانية إلى الإسلام المعتدل كما في العدالة الاجتماعية إلى الإسلام الّذي فهمه بعدها في ظلال القرآن، المعركة الوحيدة التي خاضها سيّد هي مع مالك بن نبيّ فقط، وارجعوا إلى كتاب معالم في الطريق، في الهامش معركة مع الحضارة، واعتبر سيد أنّ مجرد إطلاق حضارة على أي إنتاج غير إسلامي هو من الانهيار في عزّة المسلم نحو دينه، إذًا هناك أناس صمدوا مثل هذه الشخصية، ورفضوا أيّ شيء من الغرب، لا تشريعات لا قوانين نحن نملك وعجيب هذا الشخص يرصد ظاهرة بعض الّذين يريدون أن يجمعوا الإسلام والمعاصرة الإسلام والغرب، أحضر صورة نشرتها بعض الأحزاب، المسجد والكنيسة، والكنيسة تمدّ المسجد بالإسلام!

في نقاشه لكلام عبده في قضيّة الدين والنصرانية، يرصد ظاهرة الانهيار وظاهرة الضعف، وعدم القوة في الرد على فرح أنطون إلى غير ذلك، القصد أن أقول بأنّ الشيخ مصطفى صبري كان في معركته ضدّ التغريب صافية صفاءً تامًّا ولم يرض بأن يتأثر

بشيء من عندهم، ربّما استخدم بعض الألفاظ في مقدّمة الكتاب، سمّى الديمقراطية الإسلامية ولكن ليست قطعًا بهذا المفهوم المطروح المعاصر اليوم، إنّما هو المفهوم الشرعي الذي يراه، فهذه ليست تأثرًا بالغرب ولا أخذا بمبادئهم ومناهجهم.

أسأل الله عز وجل أن يجزيه عنا خير الجزاء وأنتم جزاكم الله خيرًا وبارك فيكم والحمد لله رب العالمين.

[١٧]

مناقشة كتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض

بالاشتراك مع الشيخ أبي محمد المقدسي

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإياكم منهم، آمين.

أهلًا وسهلًا بكم أيها الإخوة الأحبة في حلقة جديدة ومع كتاب جديد في مشروع "الألف كتاب قبل الممات". واليوم هو لمناقشة كتاب عظيم لإمام عظيم وهو كتاب (الشفا في التعريف بحقوق المصطفى) للإمام المالكي المراكشي السبتي الأندلسي القاضي عياض -رحمه الله-.

وفي الابتداء يشرفنا أن الشيخ أبو محمد قد حضر معنا هذه الحلقة وسيكون له إن شاء الله الحظ الأوفر في التعليق عليه لأن له خبرة بالكتاب في بعض جوانبه التي سنمر عليها بسرعة.

في هذا الوقت الذي نعيشه لا شك أننا بحاجة إلى إعادة قراءة مناقب وخصائص وتشريفات ربنا -عزَّ وجلَّ- لرسوله ﷺ؛ لأنه أولًا وقبل كل شيء في هذا الوقت كما ترون انتشر السفاه كثيرًا بالتعريض بحبيبنا ﷺ من قبل أعداء الإسلام ومن قبل الزنادقة في داخل الإسلام. أنتم ترون السب المقذع الذي يقترفه المجرمون في حق نبينا محمد ﷺ.

والدفاع عنه موجود ولا شك وهو دفاع عظيم ولكنه بلا شك يقصر عن مقام النبي ﷺ، وإن كانت -وهذا ما أتخوف منه- الأمور التاريخية المعاصرة تدل على أن الأمة في بداية أمرها تقوم بالشدة والنكير على بدايات الأمور العظيمة والجليلة ولكن بعد ذلك تخفت وتتسلل الجريمة بعد ذلك تسللًا بطيئًا حتى تحكم.

يعني عندما انتشر العري مثلًا كأن تكشف المرأة شعرها قام الخطباء والمشايخ وتحدثوا وأنكروا وحذّروا إلى آخره، وبعد ذلك تسللت هذه الصفة الخبيثة إلى أمة محمد ﷺ وإلى نسائها وإلى بيوتها حتى صار كشف الشعر اليوم في كثير من البيئات الإسلامية وكثير من البيوت الإسلامية شيئًا مقررًا مقبولًا لا ترفضه النفوس كما كانت ترفضه في الابتداء.

وهم لا يكلّون في هذه الطريقة، فإنهم حين يرون النفرة والقتال والصد لما يقولون لا يكلّون ولا يتعبون ولا يتراجعون، بل يعيدون الكرة تلو الكرة حتى يترسخ الأمر، فبعاملي التكرار والزمن تترسخ المبادئ والأفكار مهما بدا للناظر أنها غريبة، فبهذين العاملين يأتلف الناس مع أعظم ما كانوا ينكرونه وهذا ما يساوم عليه المجرمون ويساوم عليه أعداء المجرمين وهم الأنبياء كذلك، فالأنبياء يساومون على أن تكرار الحق وعدم توقف الدعوة مع عامل الزمن الطويل يرسخ وجود الحق.

وأعداء الدين بالتكرار والزمن وأزّ الشياطين يرجون ترسيخ المبادئ الكفرية والتصورات الذهنية الباطلة والممارسات الجاهلية في داخل المجتمع. فالذي يتخوّف منه أن الناس حينما يسمعون سبّ النبي ﷺ تستنكر قلوبهم لكن الخوف أن يصبح هذا مألوفًا بعد مدة وبعد ترديد متكرر على أسماع الناس.

الشيخ أبو محمد المقدسي –حفظه الله–: كثرة الإمساس يورث قلة الإحساس.

الشيخ أبو قتادة: نعم بلا شك كما يقول الشيخ، الآن للأسف إن سبّ النبي ﷺ وسب الإسلام وسبّ الذات الإلهية صار منتشرًا بين الناس، والكثير من المشايخ لا يتكلمون عنها، حتى وجدنا علية القوم يستهزؤون بآية من كتاب الله ولا يعرفون أنها آية أو أنهم يعرفون ولكن لا يعرفون قيمة معنى آية من كتاب الله، وهذا نجده في الناس؛ نجدهم يتكلمون عن النبي ﷺ بطريقة نهى عنها الشارع {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا}.

لا يجوز لنا أن نقول عنه محمد، لا يجوز أن نقولها هكذا، لا بد أن نقدم لها من مقدمات التعظيم التي تليق به ﷺ وأن نناديه ونذكره باسمه الأجل وهو أنه رسول الله ﷺ.

ولذلك العودة لهذا الكتاب كتاب (الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى) ضرورة تتلاءم مع هذا الزمان، وكذلك أول شيء ضرورة من أجل معرفة قيمته وشرفه عند الله –عزَّ وجلَّ– وعلينا كذلك أن نعرف الأحكام المتعلقة به، وهذا ما أراده هذا الكتاب العظيم.

ما أراده هذا الكتاب ابتداءً أن يعرف المسلمين بعظمة هذا النبي وهذا هو القسم الأول؛ قسّم القاضي عياض كتابه أربعة أقسام بدأه بمعرفة مصدر هذه العظمة، من أين جاءته العظمة؛ فبيّن أن الذي أعطاه هذه العظمة هو الله. هذا هو القسم الأول، القسم الأول له تعلق كما سنقرأ إن شاء الله بما شرّف الله به رسوله ﷺ من التشريفات ومن المناقب والخصال وما أعطاه وأسبغ عليه من النعم الخاصة التي امتاز بها عن بقية البشر.

فهذا ترتيب عظيم وموفق من القاضي؛ لأن القرآن دائمًا يبيّن بما يحصل الفضل. يعني عندما الله -عزَّ وجلَّ- رفع الرجال على النساء وجعل للرجال عليهن درجة وجعل الرجال قوامين على النساء فقال {بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} ذكر العلة بما يحصل الفضل. ولما ذكر تقدمة الناس قال {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}؛ فالسبق بين البشر لا بد أن نعرف مصدره من أين حصل.

بعض الناس يظن السبق ممكن بانتسابه لأبيه أو جده وهذه نزعها القرآن، وقال ربنا -سبحانه وتعالى- {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ} فجرّد قريش من نسبة العظمة المزعومة من خلال نسبتهم لإبراهيم. فمن أين جاء النبي ﷺ بهذه المقامات التي نحن نعتقدها في نبيّنا؟ جاءت من قبل الله وهو مصدر الحق.

والغرب عنده مشكلة في هذه النقطة أنا أنوّه بها لأهميتها مع أنها خارج السياق: أن العالم يختلف في القيم بسبب اختلافهم في مصدر القيم.

الآن في الغرب لا تستطيع أن تقول للطفل عيب، لا يوجد عيب، كلمة العيب هذه قيمة اجتماعية، المجتمع يفرزها، لا وجود لها في ذهن الطفل عندما يُربى في الغرب. لماذا؟ لأن المجتمع عندهم ليس له الحق في أن يفرز القيم حتى بأثره الرجعي. يعني نحن نقول أبوك علّمك، أمك علّمتك، من أين جاءت كلمة العيب؟ من أبيك، من أمك، من جدتك، من البيئة المحيطة بك. هذه لا وجود لها في الغرب.

الآن أنت تقول لا تشرب الخمر لأخيك لأن الخمر حرام؛ إذًا أنت عللت هذا الحق بحرمة الخمر بالمصدر وهو أنه من الله، الغرب لا وجود عنده لهذا، فحينئذ تختل الموازين، عندهم شيء واحد فقط القانون يقول. يعني عندما يأتي رجل شاب يطرق بيت صديقته ليخرج معها، فتكون البنت مثلًا أقل من السن القانوني للأسف في المعصية أن يصبح لها "بوي فريند". فماذا يقول الأب له؟ لا يوجد له أي كلمة يقولها إلا كلمة واحدة: إذا خالفت القانون أسجنك.

يعني أنت تستطيع أن تخرج معها، تستطيع أن تمارس أي عملية سوى الزنا لأنها مخالفة للقانون فقط. الأب لا يستطيع أن يقول له ولا لابنته إلا هذا، القانون فقط كما يفرزه مجلس العموم وكما هو مسجل في مدونة القوانين عندهم، فقط هذا الذي يحكم به الغرب.

نحن المسألة عندنا محسومة أن مصدر القيم والتحسين والتقبيح هو الله، الذي يقول عن الشيء حسنًا فينزع عنه صفة القبح هو الله، والذي يعطي صفة القبح لشيء وينزع عنه صفة الحسن هو الله.

فلذلك الشيخ يبدأ بهذا ولا شك أنه حاضر في ذهنه.

ثم يأتي إلى قسم آخر وهي المقامات التي أعطاها الله لرسوله بعد أن يذكر علة هذه المقامات كما سيذكر هنا، ويقسّم كتابه كما قلنا أربعة أقسام؛ القسم الأول في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي قولًا وفعلًا، ثم قسّم هذا القسم إلى أربعة أقسام وكل قسم قسّمه فصولًا نمر عليها بسرعة. القسم الثاني فيما يجب على الأنام من حقوقه.

الآن لما أعطاه الله -عزَّ وجلَّ- هذه المقامات الشريفة وأسبغ عليه هذه النعم والخصائص المتميزة والتي تميز بها فإن له حقًا على بقية الخلق، حينئذ هذا يفرز حقًا ربانيًا على بقية الخلق تجاه هذا النبي. في القسم الثاني، هذا الكتاب يتكلم عن حقوق النبي ﷺ على الخلق جميعًا عمومًا وعلى أمته خصوصًا. مثلًا من الواجبات العامة على كل البشرية هي أن تؤمن به، فمن تخلّف عن هذه الصفة فهو محجوج وعليه الإثم والعقوبة، يُعاقب، فالمسألة ليست اختيارية، واجب رباني عليك لأنك عبد له أن تقدر هذا النبي.

هنا نأتي لقضية مهمة جدًا في النقطة الثانية: هناك دينان؛ دين وثني يتعلق بالشخص والوثن، وهناك دين فلسفي يتعلق بالذهن دون العلاقة بالمادة. الإسلام لا يقبل هذه الطريقة ولا هذه الطريقة. لا يقبل أن تعبد حجرًا بأن تتعلق به على معنى أن الحجر يملك قيمة ذاتية أعطته حق التأله على غيره، هذه ديانة وثنية الإسلام يرفضها.

الديانة الثانية هي الديانة التي تجرد الأديان عن الأعمال المادية وتبقي العبادة على معاني ذهنية، تقرّ العبادات لله -عزَّ وجلَّ- ولكنها تجعلها على معنى ذهني، وهذه يتمثلها العوام بقولهم "الدين في القلب"، يتمثلها العوام بقولهم بأن الطاعة هي حالة ذهنية فقط، أنا أعبد الله بقلبي، أنا أتفكر في العبادة، ولا يقوم لا بزيارة كعبة ولا بصيام رمضان ولا بزكاة مال ولا بذهاب إلى مسجد ولا بتوجه إلى القبلة إلى غير ذلك.

فالدين الحق يجمع بين الأمرين. هذه لماذا أقولها؟ لأن قضية الإنسان الذي يمثل الحق جزء من الحق. المنهج (الإسلام) الذي يحمله شخص ما هذا الشخص يصبح جزءً منه. ولما جاء الأنبياء بالدين فالأنبياء صاروا جزءً من الدين. ولما حمل الصحابة هذا الدين صاروا جزءً منه.

فلذلك لا يُسمح لأحد أن يقول أنا لا يهمني الأشخاص. ولذلك قال الله تعالى: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ} فجعل إيمانهم معيارًا للإيمان الحق. ولذلك قال سليمان {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ} كان وجود سليمان نبيًّا ووجوده ملكًا سلطانًا للحق يوجب على بقية البشر أن يدخلوا في سلطانه، والدخول في السلطان هو دين، فإن أبوا الدخول في سلطانه كأنهم خرجوا من جزء هذا الدين ولو آمنوا بالحق في كماله الذهني.

لو أن رجلًا قال أنا أتبع الحق ولا أتبع رسول الله والرسول ﷺ شخص ولا قيمة له إلا أنه شخص عابد لله وأنا آخذ الدين كما هو من غير تعلق وقيمة لهذا الشخص، فهذا هدم لهذا الدين. وهذه قضية أصولية يجب علينا أن نهتم بها وأنا شرحتها في مواطن كثيرة ولكن أنبه عليها بأن الشخص حين يحمل الحق يصبح جزءً منه. وهذا حدث ليس فقط في زمن النبي ﷺ بالنسبة للنبي.

فالصحابة كان شرط إيمانهم أن يؤمنوا بالنبي، وشرط التابعين في إيمانهم بالإسلام أن يقرّوا بعدالة الصحابة وأنهم خير الخلق بعد الأنبياء وأنهم حملوا هذا الدين كما جاء به الرسول ﷺ وأن أفهامهم بما تلقوا من العلم والفهم من الرسول ﷺ هو الفهم الصحيح للإسلام.

بعد أن ذهب الصحابة جاء التابعون، صار تابعوا التابعين بالنسبة لهذا الدين مع التابعين –مع أقل درجة، بلا شك فالحق يبقى في النص– ولكن يصبح التابعون هم الذين يمثلون هذا الدين؛ فلو نزع أحدهم التابعين نزعًا تامًا من هذا الدين لسقط هذا الدين. ولذلك من إدراك علمائنا في قضية حادثة الإفك أن الكلام عن زوجة النبي ﷺ هو كلام عن النبي ﷺ والكلام عن النبي هو إسقاط للدين.

ولذلك في كل قرن كما قال النبي ﷺ كما روى أبو نعيم في الحلية بسند حسن (فِي كُلِّ قَرْنٍ مِنْ أمتي سابقونَ). وكانوا يقولون لا يجتمع حب علي وعثمان إلا في قلب فحول الرجال، فصار حبهم هو معيار العدل في الفهم والسلامة والبراءة من البدع والضلال.

وفي وقت من الأوقات كان أحمد يمثل السنة، فمعاداة أحمد معاداة للسنة. ليس على معنى أنه إذا عاداه في شيء من الخلاف أو خالفه في شيء من المسائل، لكن الله يرفع الرجل حتى يصبح جزءً من المنهج، وهذه قضية مهمة.

فما أوجبه الله على قيمة النبي ﷺ بخصوصه توزع في الأمة، ولذلك العلماء يحتجون بقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} في عدم جواز التقديم بين يدي العالم فيما يعلم، أنت لا تفهم هذه المسألة لا تسارع إلى مقاطعة العالم إذا تحدث بالعلم الذي تعلمه وأنت لم تسمعه به إلا الآن. لا تقدم قولًا قبل أن تسمع قول الله من العالم الواسطة. فالعلم وإن كان في الكتب ولكنه صار إلى صدور الرجال، أو كان في صدور الرجال فصار إلى الكتب وبقيت الكتب مغلقة ومفاتيحها مع صدور العلماء كما قال الشاطبي -رحمه الله-، هذه قضية أنا شرحتها وهي مهمة في الأصول لماذا الإمام أحمد جعل الحديث الضعيف أحبّ إليه من الرأي في مسألة ذكرناها سابقًا!

وهذا القسم فيه أبواب والباب فيه فصول.

ثم القسم الثالث وهو ما يستحيل في حقه ﷺ وما يجوز عليه وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن تضاف إليه، الآن هذا النبي ﷺ يجوز فيه أمور أنه بشر ويمتنع عليه أمور، ويستحيل عليه أمور، وهذه أمور أغلبها عقلي، وهذه التي يقول عنها العلماء العصمة، والعصمة حين ترجع إلى كتب المتكلمين لا تجد دليلًا نصيًا، لكنها تتعلق بالنبوة وصدقها.

لأنه إذا ثبت الكذب عليه في باب من أبواب الحياة فجاز الكذب عليه في كل أبواب الدين التي جاء بها من عند الله؛ فإذن هذه مسألة عقلية. وهكذا يتحدث عما يجوز في حقه وما لا يجوز في حقه.

وهناك خصائص للنبي ﷺ، وهذه الخصائص الله اختصه بها على جهة متعددة، فمثلًا من ضمن خصائص النبي ﷺ وآل بيته عدم قبول الزكاة، هذه من خصائصه وتطهيرًا له وأنه يقبل الهدية. من خصائصه جواز الزواج بأكثر من أربعة على بقية البشر.

وانتبهوا لهذه النقطة وهذه ليست في الباب ولكنها مهمة: لا يوجد في ديننا خصيصة تعنى الرفعة إلا ويقابلها ضمانًا وبلاءً. هذه يجب علينا أن نفهمها. الصحابة -رضي الله عنهم- ما بلغوا هذه الدرجة من التقدمة إلا بسبب ما أعطي لهم من الأوامر التي فيها البلاء، والدليل أننا لو أتينا في زماننا هذا بعشر ما أتى به الصحابة لنجونا، فكان المكلف من التكليف على الصحابة أشد مما كلفنا نحن به، فاختلفت الدرجة باختلاف التكليف.

وهذا كذلك القسم الثالث فيه أبواب وفيه فصول.

القسم الرابع وهذا الشيخ أبو محمد يتكلم عنه أكثر من غيره وهو في تصريف وجوه الأحكام على من تنقّصه أو سبّه ﷺ وهذا الذي علينا أن ننشره في هذه الأيام إسكاتًا لهؤلاء الذين يخرجون من دين الله أفواجًا بسبهم للنبي ﷺ، وقد أتى الشيخ بأبواب عظيمة في الإيمان وفي سب النبي وفي الردة، وكأن هذا القسم هو كتاب مستقل لوحده. ولو أخذه طالب علم واستلّه من هذا الكتاب وأخرجه وشرحه ونشره يكون في ذلك إحسانًا.

هذا ما يتعلق بالكتاب.

هناك أمر أريد أن أنبّه عليها بالنسبة لهذا الكتاب. هذا الكتاب مُدح مدحًا شديدًا من قبل العلماء. حتى الذين تكلموا على بعض هناته ذكروا أن هذا الكتاب لم يبلغ شأنه كتاب آخر. منذ أن ألّف القاضي عياض كتابًا في هذا الباب لم يبلغ مثل هذا الكتاب عظمة وجمالًا وتنسيقًا وأحكامًا وتصنيفًا كما أتى هذا الكتاب من هذه الأبواب العظيمة.

ومع هذا التبجيل والتعظيم والاهتمام خاصة من المغاربة في شرحه، وإلى الآن تُنصب المجالس العلمية في شرح كتاب الشفا للقاضي عياض، وأشهر شرح هو شرح علي القاري مع وجود شروح كثيرة له، إلا أن العلماء انتقدوا عليه أمورًا نمر عليها فنرد على بعضها ونعالج بعضها ونقبل بعضها:

أول مؤاخذة عندما جاء الإمام الذهبي –رحمه الله– إلى ترجمة القاضي عياض وأفاض فيها تعظيمًا لشأنه لأنه من المهم أن نعرف أنّ القاضي عياض إمام في عدة فنون، وأعظم فن عنده هو فن البلاغة والبيان واللغة، له مشارق الأنوار وهو على طريقة غريب الحديث، وأول من كتب في غريب الحديث كما تعلمون أبو عبيد القاسم ابن سلام –رحمه الله– ولما عرضه على الإمام أحمد جمع أبنائه وقرأه عليهم وأمرهم بحفظه.

فله مشارق الأنوار وشرحه لحديث أم زرع، وكلاهما مطبوع، وكذلك شرحه على صحيح مسلم، فله شرح على صحيح مسلم واسمه المفهم؛ فالإمام عظيم الشأن في قضية اللغة واهتمامها. وكذلك له اهتمام بالأنساب والرجال، وله كتاب في هذا وهو ترتيب المدارك وهو في ذكر طبقات علماء المالكية وهو كتاب رائع مطبوع ومهتم به ومنشور.

كذلك هذا الإمام يُعرف عنه الفقه وهو من المقدمين في فقه الأئمة المالكية.

الإمام الذهبي عندما جاء إلى ترجمته عظّمه العظمة اللائقة به لكنه لما جاء إلى كتاب الشفا وذكر كلمته التالية أنقل لكم كلامه بتصرف يسير يقول الذهبي عن الإمام القاضي عياض: تواليفه نفيسة، وأجلها وأشرفها كتاب الشفا.

أنا لا أريد أن أقف على موافقة العنوان للواقع؛ لأن اليوم للأسف الذين يكتبون في العناوين يبحثون عن السجع. فيضع كلمة مسجوعة في العنوان من أجل يقلّد الأقدمين فقط، وهذا غير صحيح. الحقيقة لو بحثنا عن معنا الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى لوجدنا أنه شفاء. هذا الكتاب فيه شفاء حقيقة وليس من قبيل الادعاء ولا من تسفيط الكلام كما يقولون.

يقول الإمام الذهبي: وأجلها وأشرفها كتاب الشفا لولا ما قد حشاه بالأحاديث المفتعلة.

المفتعلة يعني فيه أحاديث موضوعة وفيه أحاديث لا أصل لها، وهذا صحيح، الكتاب فيه أحاديث موضوعة. ما معنى موضوعة؟ أي مكذوبة على رسولنا ﷺ أو مكذوبة تاريخيًا لم تثبت قط والعلماء نفوها، هنا الإمام الذهبي علّل غلطه في إيراد هذه الأحاديث الموضوعة بقوله هذه الأحاديث الموضوعة "عمل إمام لا نقد له في فن الحديث ولا ذوقه".

وكأن الإمام هنا يشير إلى ضعف الإمام في علم الصناعة الحديثية مع أن الإمام القاضي عياض له كتاب الإلماع في أصول السماع، وهو كتاب حين يقرأه القارئ للصناعة الحديثية أي طرق التصحيح والتضعيف والحكم على الأحاديث وعلم العلل فإن هذا الكتاب يُعد حلقة من حلقات هذا العلم، وكتاب مهم جدًا في هذا الباب. لكن الإمام الذهبي يحكم أن الإمام حين اختار هذا إنما مردّ هذا ضعفه في باب الصناعة الحديثية.

ثم يقول: "وكذا في التأويلات البعيدة". هذه كلمته نأتي إليها.

لكن هل حقًا أن سبب إيراد الأحاديث الموضوعة من قبل القاضي عياض هو ضعفه في فن الصناعة الحديثية؟

هذا الباب الذي أكثر فيه القاضي عياض سوق الأحاديث الموضوعة سببها هو فن يوازي ما كتبه علمائنا في دلائل النبوة. يعني من أجزاء هذا الكتاب جزء هو دلائل النبوة. أي ما هي الأحوال النبوية والكرامات الإلهية للنبي التي تدل على أنه نبي من عند الله، وهو يقسمها إلى قسمين: قسم صرف الله الخلق عن إتيان ما تحداهم به، قال افعلوه إن شئتم فلم يفعلوه فدلّ على أن الله عز وجل صرفهم. وقسم قال لهم افعلوه فلم يستطيعوا لعجزهم أن يبلغوا شأنه، هذا هو الإعجاز، هذه هي دلائل النبوة.

وللأمانة عندما نراجع كتاب الإمام القاضي عياض وكنيته ولقبه أبو الفضل، ولم يذكر في ترجمته ولد له اسمه الفضل، له ولد واحد فقط اسمه محمد، وابنه ترجم له، فعامة ما ردّ العلماء بعضهم على بعض في ترجمة أو كلمة نُسبت له أو موقف نُسب له انتصروا فيه لما قاله ابنه لأنه يتحدث عن أهل البيت. يعني مثلًا ذكروا عنه أنه قُتل بطريقة بشعة يرددها بعض الجهلة اليوم وأحد

الزنادقة يرددها ويأتي بأخبار ملفقة، وابنه يبيّن كيف مات، صحيح أنه مات مقهورًا لكن لم يمت مقتولًا بالسهام كما وصفه ولا أريد أن أذكر اسمه، نبرئ الجلسة عن ذكر اسمه.

كذلك البعض يقول إنه قُتل مسمومًا وابنه ينفي هذا، الرجل مات مقهورا لأحوال أصابته ومات في مراكش، فابنه يترجم له ولا يُعرف في ترجمته إلا هذا الابن محمد فالظاهر أن أبا الفضل هو لقب وليس كنية له والله تعالى أعلم.

القصد حين نراجع كتب دلائل النبوة أعظم كتاب في دلائل النبوة هو كتاب أبي بكر البيهقي "دلائل النبوة". وهناك دلائل النبوة لصاحب الحلية لأبي نعيم كذلك ولكنه مجلد صغير في حجمه، ولكن أعظم كتاب حوى الأحاديث التي فيها دلائل النبوة هو كتاب البيهقي وهو مطبوع وكبير، ونحن نجد في هذا الكتاب ما نجده في كتاب القاضي عياض. يعني ما يُنقم على القاضي عياض من أحاديث أوردها موضوعة ولا أريد أن أمر على أحاديث منها يستطيع طالب العلم أن يجد الكلام عليها مبثوثًا.

وقد قام السيوطي بتخريج أحاديث الشفا وسمى كتابه (الصفا في تخريج أحاديث كتاب الشفا). والسيوطي مع اطلاعه يعني من يعرف ترجمته يعرف أنه موسوعة أو كما يسميها الشيخ شاكر جمهرة قلّما يفوته حديث إلا أنه قال هذه أحاديث لم أجدها ولم أعرفها. كما أن الإمام أبو عمر ابن عبد البر لما شرح الموطأ في التمهيد وجاء إلى بلاغات مالك مرّ على بعض البلاغات (ثلاث بلاغات) قال هذه لا أعرف لها سندًا.

وكذلك السيوطي مع استقصائه وموسوعيته إلا أن هناك أحاديث في الشفا قال لا أعرف لها إسنادًا ولا أتى بها من أي كتاب، ولكن الكثير من الأحاديث التي عوتب عليها القاضي عياض مذكورة في كتب الدلائل، وهذا اعتذار فلا بد أن نعتذر لعلمائنا، نقول لا بد أن الإمام ترك هذه الأحاديث على طريقة العلماء في التسامح في ذكر الأحاديث الضعيفة وما في معناها في الفضائل أو في هذا الباب.

بالرغم أن الكل مجمع على عدم جواز رواية الأحاديث الموضوعة إلا بالتنبيه، إلا بشروطها يعني لا يجوز للأحاديث الموضوعة أن ترويها دون أن تنبه السامع أنها مكذوبة فكان ينبغي التنبيه عليها، ومع ذلك يبدو هذا الاعتذار ضعيف ولكنه يبقى مهمًا.

هذا أول عيْب عِيب به الكتاب.

العيب الثاني حين مراجعة كلام ابن تيمية على القاضي عياض وجدته يذكره في مواطن متعددة من كتبه لكني وجدته نقض إجماعًا ذكره القاضي عياض. وذلك في بيان مقام النبي ﷺ ومرتبته التي ذكرها فيما شرفه الله به. وذكر القاضي عياض أن

العلماء مجمعون على أن تربة قبر النبي خير من الكعبة، وابن تيمية يقول الإجماع على خلافها. وهذا الكلام موجود في مجموع الفتاوى.

وهنا لا بد أن أذكر بأن كثيرًا من هذا الكتاب قد أخذه شيخ الإسلام في الصارم المسلول؛ لأن مباحثه تتعلق بحكم الساب على النبي ﷺ ومسائلها. فهذا إجماع ردّه ابن تيمية بإجماع آخر.

النقطة الثالثة التي عيبت على القاضي عياض وهي أشعريته، وخاصة في مسألة الإيمان؛ لأن الإيمان عنده وهو يصرح بهذا هو قول اللسان واعتقاد القلب ولا يذكر العمل. وحين يأتي إلى الأعمال المكفرة فيجعلها دليلًا على الكفر وليست بذاتها كفر، وهذا باب مشتهر فهو أشعري في هذا الباب وتكلم بما يعلم فيه، وهو معذور على ما جرى عليه أهل زمانه فهو توفي عليه رحمة الله ٥٤٤هـ، وهذا وقت انتشرت فيه الزندقة، هذا الوقت هو وقت الغزالي، وهو عاشر المهدي ابن تومرت وهو باني قواعد دولة الموحدين التي أنشأها عبد المؤمن، وعبد المؤمن كان يخاف من القاضي عياض ويحتقره، عبد المؤمن الذي أنشأ دولة الموحدين وهي دولة يعتبرها علمائنا دولة بدعية قامت على أصول اعتزالية وكفرت الناس وقتلت منهم من قتلت إلى آخره. فهذا وقت انتشر فيه هذا الأمر، ولعل هذا الكتاب فيه بيان لقضية حق المصطفى ﷺ في زمن انتشرت فيه الزندقة. ومن تلك الزندقة هو عدم معرفة مقام النبي ﷺ أو التعامل معه كما يريد تعامل المعاصرون أنه مصلح كما تكلمنا في الدرس الفائت.

يتعاملون مع النبي على أنه عبقري، وأنه مصلح اجتماعي، وأنه ذكي، وأن ما أتى به هو من قبيل إنسانيته الفذة وليس من قبيل النبوة التي أُكرم بها -عليه الصلاة والسلام-.

بقيت المسألة الرابعة التي عيبت عليه وهذه وجدتها في لوامع الأنوار البهية للسفاريني وهي دعواه أن القاضي عياض يميل في مسألة إعجاز القرآن إلى القول بالصِرفة وهذا غلط، الكتاب بين أيدينا وهو ليس على هذا في شيء، ولا أريد أن أخوض فيها كثيرًا.

ما معنى الصِرفة؟ يعني أن القرآن يستطيع البشر أن يأتوا بمثله لو أزيلت حواجز المنع الإلهي، وإن الله -عزَّ وجلَّ- منع البشر أن يأتوا بمثله ولو لم يحصل المنع القدري لحصل الفعل لوجود القدرة. هذه منسوبة إلى النظّام، وبعض المعاصرين ينسبها للجاحظ وهذا غير صحيح، والجاحظ له كتاب في الرد على شيخه النظّام.

وزعم القاضي عياض وهذا يدل على أن خبرته في المذاهب كانت على طريقة معاصره ابن حزم، وابن حزم في كتابه الفصل وهذا يحتاج إلى مصنف في بيان ما أخطأ فيه المصنفون في الفصل وأفضل كتاب في نسبة المذاهب هو كتاب مقالات الإسلاميين فإن كثيرًا مما نُسب للعلماء نُسب من قبيل السماع، هكذا قيل.

وابن حزم لأنه مغربي الأشعرية عنده لم تكن واصلة إلا عن طريق من يؤمن بها، يعني لم يقرأ كتبها فنسب إليهم أشياء كثيرة، حتى أنه تكلم عن الباقلاني كلامًا سيئًا وليس له، بل إنه مال إلى أن الباقلاني كافر بهذه المقالة، والباقلاني بريء من هذه الكلمة ولم يقلها.

والقصد أن معرفة القاضي بالمذهب الأشعري كمعرفة أهل بلده كابن حزم حين نسب إلى الأشعرية أقوالًا لم يقل بها الأشعري؛ فنسب القاضي عياض في كتابه أن أبا الحسن الأشعري يقول بالصِرفة وأبو الحسن بريء منها.

وإن أحببتم فقط أمر على كلمته التي فهمها السفاريني فهمًا غير سليم، يقول: "وكون القرآن من قبل النبي ﷺ وأنه أتى به معلوم ضرورة. وكونه ﷺ متحديًا به معلوم ضرورة، وعجز العرب..." -فرق أن يُقال إنهم يستطيعون بقدرتهم ولكنهم منعوا قدرًا من الإتيان بذلك، فرق بين هذه الصرفة وبين ما يقوله الشيخ.

يقول: "وعجز العرب عن الإتيان به معلوم ضرورة، وكونه في فصاحته..."-وهذا هو الذي قاله العلماء في الإعجاز يومه. "وكونه في فصاحته خارقًا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة وسبيل من ليس من أهلها، علم ذلك بعجز المنكرين. "

ثم يقول: "فأكثرهم يقول إنه مما جمع في قوة جزالته ونصاعة ألفاظه وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصح أن يكون في مقدور البشر، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن أقدار الخلق عليها، كإحياء الموتى وقلب العصا وتسبيح الحصى وذهب الشيخ أبو الحسن أي الأشعري إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم الله عليه ولكنه لم يكن هذا ولا يكون فمنعهم الله هذا وعجزّهم عنه وقال به جماعة من أصحابه وعلى الطريقين... "-هذه ربما التي جعلت السفاريني وهو من الحنابلة له كتاب لوامع الأنوار البهية على طريقة الأوائل في العقائد إلا أنه له عبارات المتكلمين، والكتاب مشتهر ومطبوع، ربّما هذه ما جعلته ينسب القول بالصرفة للقاضي عياض.

قال:" فعجز العرب عنه ثابت وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون في مقدور البشر وتحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع وهو أبلغ في التعجيز وأحرى في التقريع والاحتجاج..." إلى آخر ما قال.

نقف هنا حتى يتكلم لنا الشيخ مما عنده في هذا الباب:

الشيخ أبو محمد المقدسي –حفظه الله–: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. قبل أن أتكلم، عندي تعليق وليس استدراك، سؤال: ألا يمكن أن تكون هذه المؤاخذات من بعض هؤلاء العلماء على القاضي انتصارًا لمذاهبهم؛ لأن القاضي له كلام على الشافعي وأبي حنيفة في أنهم ضعفاء في الحديث وذكر هذا في ترتيب المدارك، وأيضًا له كلام على الإمام أحمد إذ قلّل من قيمة فقهه، فربما تكون المؤاخذات من باب الانتصار.

الشيخ أبو قتادة: ربّما، إنما هو مالكي صرف ومتبع لمذهب مالك ومعظّم له. وللذكر إن ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية – هذه لا بأس أن نعرّض بها لنعرف مصادر العلماء، وأنا كنت أتمنى أن أستقصي في مصادر الإمام القاضي عياض في كتابه الشفا، يعني من أين أتى بالأحاديث، وجدت أنه ينسب للترمذي مثلًا، مع أن معاصره أو من قبله ابن حزم بقليل لما ذُكر أبو عيسى الترمذي قال مجهول، فكنت أحب أن أستقصي مصادر القاضي، وهذا جزء من معرفتنا لثقافة الرجل، ولسعة اطلاعه وعلومه، وهو يذكر كثيرًا من العلماء والمشايخ والمذاهب فهذا يحتاج إلى دراسة والوقت يقصر عنها.

النقطة الثانية التي أريد أن أنبه عليها، وهي أنه رغم أنّ العلماء المتأخرين سواء ابن القيم أو ابن تيمية كانوا عظماء وأتوا بأشياء جديدة، لكنني وجدت بشيء من الاستقصاء أن كثيرًا مما قالوه من العلوم والأصول إنما أُخذت ممن قبلهم. يعني نحن نعرف في بدايتنا كيف عرفنا بعض المسائل؛ عرفناها من المتأخرين، ثم بدأنا نرتقي، ونرتقي، حتى وصلنا إلى مرتبة، ثم وصلنا إلى ابن القيم وابن تيمية فظننا أن هذه العلوم قد أتت من قِبلهم ومن ذواتهم، ثم بعد ذلك لما الإنسان ارتفع وجدنا أن هؤلاء العلماء أخذوا هذه العلوم ممن قبلهم.

أنا أنبه على هذه النقطة وهي خارج السياق مما سأله الشيخ حفظه الله، لما قرأت كلام ابن تيمية في مذهب أهل المدينة، وكلامه عجيب، وقرّر قواعد في مذهب أهل المدينة من أغرب ما يكون. ولما قرأت ترتيب المدارك وهذا من سنين، وقد قرأت ترتيب المدارك بفضل الله –عزَّ وجلَّ– وما زلت أذكر سنة قراءته، سنة ٩٣، فعجبت أن ما قاله ابن تيمية بحروفه مأخوذ من مقدمة ترتيب المدارك في معنى مذهب أهل المدينة.

فالعلماء يأخذ بعضهم من بعض، ولكن لا شك أن القاضي عياض مالكي وينتصر لمذهبه، وأما تأثر العلماء بمذاهبهم فشيء معروف. وهذا لا نستطيع أن نلغيه ولا نستطيع أن نتجاوزه، والعلماء لهم طرق. وإنما للأمانة الذهبي ليس منهم، وإن زعم تلميذه السبكي الابن، فهناك السبكي الأب والسبكي الابن، والسبكي الأب هو الفقيه، والابن فقيه وله أبناء فقهاء كبهاء الدين اللغوي له كتاب في الإعجاز وله كتاب في البلاغة وابنه تاج الدين صاحب كتاب طبقات الشافعية يتهم أستاذه وشيخه الذهبي بأنه متعصب ضد الشافعية مناصرةً للحنابلة، وهذا غير صحيح في الحقيقة، وله كتاب في هذا، واستلّها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله من طبقات الشافعية لأنها رسالة موجودة في داخل كتاب طبقات الشافعية وأفردها بالتصنيف وأخرجها مع التعليق.

فهو اتهم الذهبي أنه يماري الحنابلة ويعادي الأشاعرة، والحق أن الذهبي كان ذهبيًا، يقيس بالذهب، والذهبي شافعي، ولكن على قاعدة زاهد الكوثري –رحمه الله– بأنه من ضحايا ابن تيمية، يعني الذهبي وابن كثير وابن القيم والبرزالي ويوسف بن عبد الهادي هؤلاء يسميهم الكوثري ضحايا ابن تيمية، يعني ممن أفسدهم ابن تيمية. فأظن الذي رآه الشيخ ممكنا، فالمذاهب لها دور في الآراء ولا شك.

الشيخ أبو محمد المقدسي –حفظه الله–: لا شك أن كثيرا من العلماء أثنوا على القاضي عياض ثناءً كبيرًا مثلما ذكرت، حتى أن هناك مقولة مشهورة تقول:" إنما لفت علماء المشرق إلى المغرب القاضي عياض"، كأنه قبل القاضي عياض لم يكن هناك نظر إلى المغرب، وهو الذي أبرز شأن المغرب بنبوغه وبكتاباته.

ولهذا الكتاب شأن عظيم جدًا لا شك، ومثلما ذكر الشيخ في مطلع حديثه أننا بحاجة إلى إبراز حقوق المصطفى وتعظيم شأنه؛ لأنه كما قيل كثرة الإمساس تورث قلة الإحساس، وهم يريدون، أي أعداء المصطفى وأعداء الدين، يريدون أن يكرروا ويمنهجوا إسماع الأمة شتم النبي ﷺ والنقيصة منه والوقيعة فيه حتى تعتاد الأسماع ولا تعد تستنكر ويصبح السب شيئًا عاديًا، مثلما نرى الآن المذابح في الأمة،من كثرتها ما عادت الأخبار تحرك الدموع أو توجع القلوب، فكذلك الإكثار من الاستهزاء بالنبي ﷺ والطعن به، ربما هم يظنون أن ذلك يصبح شيئًا عاديًا عند أمة محمد ﷺ.

فواجب علينا نحن وعلى عموم هذه الأمة تعظيم النبي ﷺ في مقابل هذه الهجمة وإبراز أمثال هذه الكتب الطيبة التي خُصصت بتعظيم المصطفى وتعظيم جنابه. ولذلك مهما قيل في كتاب الشفا من انتقادات، فعذر القاضي عياض هذه المسألة،

وهي تعظيم جناب النبي ﷺ، حتى ذكره للأحاديث التي انتُقضت عليه من باب دلائل النبوة وغيرها كله يصّف في هذا الباب، أنه أراد تعظيم شأن النبي ﷺ.

وربما الشيخ يريدني أن أتكلم في هذا الباب وهو القسم الأخير الذي هو قسم حكم من سبّ النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء والرسل، فقد أبدع فيه الإمام وتكلم فيه كلامًا نفيسًا يستحق التدبر. وأنا حقيقة قرأت الكتاب أكثر من مرة، قرأته وحدي وقرأته مع إخوة، ولا غنى لمن يتكلم في مسائل وأحكام التكفير عن مطالعة هذا الكتاب، لا بد أن يطالع هذا الكتاب من يريد أن يتكلم في أحكام التكفير، خصوصًا الجانب القضائي فيه.

وهذا الأمر يُرد به على من شكك بنفع الكتاب كون صاحبه أشعري. يعني يقول الأشعرية مرجئة فكيف تمتدحون هذا الجانب، لكن هم مرجئة أنهم في تعليلهم للكفر يشيرون إلى معنى باطني، لكن في أحكامهم الظاهرة يوافقون أهل السنة أنه إذا جاء نص سمّى عملا أو فعلا كفرا فهم يسمونه كفرًا، يوافقون أهل السنة في ذلك. ولكنهم في تأويل أو في تفسير هذا الكفر يرجعونه إلى معنى الباطن فيقولون مع اعتقاد الكفر. هذا هو الجزء الذي ننتقده على المرجئة والأشاعرة. يهمنا القسم الأول أنهم يوافقون أهل السنة بالأحكام، وهذا هو الجانب القضائي الذي ركّز عليه هذا الإمام وهذا القاضي وهو الذي يهمنا في كتابه.

وأيضًا توسع في إعذار المتأولين، وهذا باب مهم، وتكلم كثيرًا في أبواب مهمة جدًا يحتاجها المرء وأنا استفدت منها في كتاب الثلاثينية في قضية التكفير بالمحتملات والإعذار، وضرب حوادث كثيرة من القضاة المالكية، جاء بحوادث أعيان وقضايا وكيف حُكم فيها تارة بتبرئة المتهم الذي يُتهم بسب النبي أو الاستنقاص منه لأجل احتفاف قرائن أحوال تبرئه وتارة يجرمه، وهكذا فهذه الناحية العملية القضائية في الكتاب مهمة، وفي غاية الأهمية أن يكمل الطالب دراسته لمسائل الإيمان والكفر بدراسة الناحية القضائية العملية هذه.

هذا الذي أردت الإشارة إليه، وهو الذي استفدته حقيقة من قراءتي لهذا الكتاب، والجانب العظيم الذي صُنف من أجله الكتاب أصلًا وهو تعظيم حقوق المصطفى وهو مهم جدًا، ولذلك بعض الناس ينسب إلى القاضي أنه غلا في هذا الجانب من شدة إيراده للأحاديث الموضوعة والضعيفة، ولكن نرجع ونقول إن سبب ذلك كما ذكر الشيخ أنه ربما لانتشار الزندقة في زمنه أراد أن يعظم من شأن النبي ﷺ، وهذا التعظيم نحن بحاجة إليه أيضًا في زماننا. حتى إنه قيل أنه نُسب إلى الموحدين أنهم هم الذين قتلوه والله أعلم.

فتعظيم شأن النبي ﷺ مهم نحتاجه في زماننا، وهو العذر الذي يعتذر به للشيخ في إيراده للأحاديث الضعيفة والموضوعة وغير ذلك من الاختيارات، حتى إنه نسب لشيخ الإسلام أنه قال عنه كلمة "قد غلا هذا المغيربي"، نُسب إليه تصغيره، وهذه حقيقة إذا بحثت عنها في كتب الشيخ لا تجدها، نُسبت إلى بعض الناس وتكلموا فيها، وربما سبب ذلك المسألة التي ذكرها الشيخ كقضية التربة وتفضيله لتربة النبي ﷺ على الكعبة.

هذا ملخص ما أردت أن أقول، وبارك الله فيكم.

الشيخ أبو قتادة: هذا الكتاب مهم لنا في جانب آخر وهو جانب مهم علينا أن نقرأه وهو كتاب ليت طلبة العلم في بلادنا كما يفعل المغاربة يقيمون مجالس تعليم له وتدريس وشرح وهو كتاب مهم ونفيس وفيه الأحاديث وفيه الفقه وفيه الأصول وفيه التاريخ وفيه الأخبار وفيه الأحكام وفيه الجانب القضائي الذي شرحه الشيخ.

هذا كتاب بحق مهم جدًا وهو كتاب سهل، لا يوجد فيه صعوبة، ولا يوجد فيه عبارات شديدة الفهم، هو كتاب أُلّف لعصره من غير مشقة، يستطيع كل أحد أن يقرأه.

ربما هناك بعض الألفاظ التي يشق على المرء أن يفهمها وفي الأحاديث وفي الأخبار فيمكن أن يستعين بشرح الشيخ محمود علي القاري له وهو مطبوع عدة طبعات جديدة وقديمة يمكن الاستعانة بها.

والشيخ بلاغي عظيم وأديب وأنا أحب أن أقرأ لكم مقدمته في حمد الله -عزَّ وجلَّ- وبيان فضل النبي ﷺ.

قال الفقيه القاضي والإمام استلم القضاء ثلاث مرات، استلم القضاء وعُزل، والموحدون كما قلنا -الموحدون على طريقة المعتزلة، المعتزلة يُسمون بأهل العدل والتوحيد! للأسف كما يُسمى الدروز بالموحدين، هذه أسماء ليست على حقائقها كما تعلمون- فالموحدون أهانوه.

أحضروه من سبتة التي كان فيها قاضيًا، وسبتة مدينة عظيمة في ذلك الوقت، أحضره عبد المؤمن وكان خائفًا منه وأهانه بأن عيّنه قاضيًا في قرية بعيدة نائية لا يوجد فيها إلا القليل من الناس، وهو كان يشعر بالوحدة هناك والألم والتفجع.

وللذكر فالإمام المقرّي له كتاب (زهر الرياض في أخبار القاضي عياض) مطبوع في ثلاثة مجلدات، ولابنه ترجمة له، وهي خير التراجم، ترجمة ابنه، وترجمة المقرّين والمقرّي تلميذه وترجم له في مناقبه، وإذا أردتم فإنّ له ترجمة في سير أعلام النبلاء، وله ترجمة في تذكرة الحفاظ، يعني الرجل ليس بالخفي لتكتم أخباره.

قال الفقيه القاضي الإمام الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي -اليحصبي نسبة ليحصب، ويحصب هي قبيلة يمنية حميرية، فهو يلتقي مع الإمام مالك ومالك يحصوبي، ومما حصل من المشاكل بين الإمام مالك وبين محمد بن إسحاق، أنّ محمد ابن اسحاق نفى نسبة مالك صلابة ليحصب، وردّ عليه مالك كما يحدث بين الأقران.

يقول رحمة الله عليه: الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى -وهذا بيان بأن الله -سبحانه وتعالى- سُمي باسم لم يُسم به غيره {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}. يعني "الله" لم يتسم به أحد إلا الله -عزَّ وجلَّ-. لم يجرؤ أحد أن يتسمى بهذا الاسم سواه جل في علاه، فهو اسمه الأسمى. المنفرد يعني المختص، انفرد يعني اختص به. "المختص بالعز الأحمى": العز الأحمى أي الذي حمي فلا يستطيع أحد الاقتراب منه. لما يكون الشيء حاميًا هل يضع يده عليه؟ فقوله الأحمى أي الذي حمي، فالحمى هو الذي لا يدخله أحد إلا بإذن صاحبه. فهو له العز الأحمى الذي لا يستطيع أن يقترب منه أحد.

يقول:"الذي ليس دونه منتهى، ولا ورائه مرمى، الظاهر لا تخيلًا ولا وهمًا، الباطن تقدسًا لا عدما، وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأسبغ على أوليائه نعمًا عُمّا، وبعث فيهم رسولًا من أنفسهم أنفسهم عربًا وعجمى. -وهذا من بيان ما يُسمى بقوة الاستهلال أو براعة الاستهلال، يعني أن تبدأ كلامك بما هو خير وما هو أفضل. يعني هو بدأ بذكر المحامد العظمى في بيان صفاته العظيمة ثم بدأ بحمده، ثم ثنّى بحمده، بعد أن حمده على ما فيه من خصال جل في علاه، ثم حمده على ما أسبغ من نعم، ثم اختصّ هذه النعم بذكر نعمة النبي، فالعلماء لا يمرون الكلام هكذا كما نفعل نحن، هم يرتبون الكلام ترتيبًا علميًا.

فهو حمد الله على ما فيه من خصال الحق التي تليق بجلاله، ثم حمده على نعمائه، ثم ذكر أخص النعم وهو رسول الله ﷺ.

الشيخ أبو محمد المقدسي -حفظه الله-: لفتة: قال أنفُسِهم ثم قال أنفَسِهم، هذه إشارة.

الشيخ أبو قتادة: هذه قراءة أخرى، رسولًا من "أنفسِهم" ومن "أنفسَهم". يعني أنفسهم منهم، ونفس الشيء ذات المرء، وأنفَسَهم يعني أعلاهم درجة.

"وأزكاهم محتدًا ومنًا وأرجحهم عقلًا وحلمًا وأوفرهم علمًا وفهمًا وأقواهم يقينًا وعزمًا وأشدهم بهم رأفة ورحمًا، زكّاه روحًا وجسمًا وحاشاه عيبًا وصمًا، وآتاه حكمة وعلمًا، وفتح به أعينًا عميًا وقلوبًا غلفًا وآذانًا صمًّا فآمن به وعزّره ونصره من جعل الله له في مغنم السعادة قسمًا، وكذب به وصدف عن آياته من كتب الله عليه الشقاء حتمًا، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى، صلى الله عليه صلاة تنمو وتُنمى. -تنمو بذاتها لما فيها من خير وبركة وقوة ذاتية، وتُنمى لما يُعطى لها من البركات الإلهية منه جل في علاه. "وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا-.

ومن الأمور المهمة في قراءة الكتب أن تعرف سبب التأليف، لماذا يألفون الكتاب، يعني نحن نعرف أن الصارم المسلول ألّفه شيخ الإسلام ابن تيمية في شبابه لأن هناك نصراني سبّ النبي ﷺ فأراد شيخ الإسلام قتله وكان هذا الأمر متقدمًا وسعى لقتله فهرب إلى الأعراب، وهناك زعم أنه أسلم، فلاحقه بهذه الفتوى أنك حتى لو أسلمت سنقتلك. فالقصد أنّ معرفة سبب تأليف الكتب مهم يكشف لك أمر المؤلف.

ومرات يلغّز العالم في سبب التأليف، لأن هناك سبب ما فيذكره ذكرًا تلميحيًا وعليك أن تتقصى في تاريخ هذا العالم لماذا ألّف هذا الكتاب. يعني مثال على ذلك في شيخ الإسلام ابن تيمية عندما ألّف رسالته في تكفير العالم الذي يوافق الحاكم في كل ما يريده من هواه، وقال هذا مرتد، فإذا وافق العالمُ الحاكمَ في كل ما فعل وأفتى فهو مرتد. هذه قالها ردًا على نفسه عندما مُنع من الطلاق الثلاثي وامتنع، قال له لا تفتي بهذه الفتوى فامتنع استجابة لهم، ثم رأى أن موافقتهم ضلال وانحراف وأن هذا من العلم الذي يجب أن يُنشر، فعاد وأفتى بها فُسجن.

فهذا باب ينبغي أن يهتم به وهو أن تعرف سبب تأليف الكتاب، وما من كتاب أُلّف إلا وله سبب. وأنا استطعت أن أقول سواء أصبت أو أخطأت وهذا في فن القراءة لمن قرأه أن سبب تأليف علمائنا للكتب إما أن يعود لسبب حادث وإما لسبب عام. والسبب العام هو دخول العالم في زمرة العلماء. يعني هناك كتب من الفقه ألفها أصحابها ليدخلوا في زمرة العلماء، ليس معنى أن يدخل ليأخذ شهادة وليُمدح وليُذكر، لا، بل من أجل أن يدخل في بركة الذين دعا لهم رسول الله ﷺ (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي..) إلى آخره.

فالدخول في زمرة العلماء هذه فضيلة ربانية، ولا تُحمل على معنى الذم كما فهم البعض مني هذه الكلمة فعاب وظن أنني أقول يريد أن يدخل في زمرة العلماء على معنى سلبي، على معنى التهمة والرياء، هذا لا نقوله. الدخول في زمرة العلماء من قبل العالم الذي يكتب علمًا إنما هو من قبيل التعرض لرحمات الله.

الشيخ الإمام القاضي يقول: فاعلم أكرمك الله أنك حملتني من ذلك أمرًا إمرًا. -الإمر هو الأمر الشديد- وأرهقتني فيما ندبتني إليه عسرًا، وأرقيتني بما كلفتني مرتقًا صعبًا.

القاضي محمود علي القاري يرد على أحد شراح هذا أن أرقيتني يعني رفعتني فوق مقامي، وهو يرد عليه يقول يعني أنت وضعتني في مقام فيه صعوبة أن أمشي فيه وأن أتحرك فيه وأن أصعد إليه.

"ملأ قلبي رعبًا، فإن الكلام في ذلك يستدعي تقدير أصول". طبعًا هذا العالم يقوله مع علمه، واليوم أحدهم يُقال له ألّف فيذهب إلى المكتبة الشاملة ويأخذ من ههنا ويضعه ههنا ويقول ألّفته أنا! ومن نظر فيه يقول هذا لا يعرف شيئًا ولا يعرف مناهج العلماء ولا أهمية ما يكتبون.

قال: "فإن الكلام في ذلك يستدعي تقدير أصول وتحرير فصول والكشف عن غوامض ودقائق من علم الحقائق". طبعًا هنا كلمة علم الحقائق ليست على طريقة الصوفية. وهذا مما كنت أريد أن أنبه عليه، فله مواطن عديدة في داخل الكتاب يكفر العقائد الصوفية الغالية؛ يكفر من زعم أن النبوة تأتي عن طريق العبادة، وهذه يقولها بعض الصوفية، يكفر من قال بسقوط التكليف للوصول لدرجة التقوى {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}، وهكذا له شدة، وهو فقيه، وليس على طريقة الصوفية غير الفقهاء.

قال: "من علم الحقائق مما يجب للنبي ويُضاف إليه أو يمتنع أو يجوز عليه ومعرفة النبي والرسول والرسالة والنبوة". لوجود الخلاف {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ} كما في سورة الحج، فوجود الواو يدل على الاختلاف. الواو تدل على الاختلاف إجماعًا. "والمحبة والخلة" إلى آخر ما يقول عليه رحمة الله.

أسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن ينفعنا بهذا الكتاب.

وأنا لا أستطيع أن أقول أننا قدمنا حتى المقدمة الكافية في الكتاب. هذه الجلسة لم تقدم المقدمة، يعني لو أردنا أن نشرح هذا الكتاب فنجعل للشرح مقدمة لاستغرقت منا أكثر من ذلك، ولاحتاج الأمر إلى أكثر مما تقدم، لكنها على الطريقة إشارات سريعة من أجل أن نعرف قيمة هذا الكتاب، وأن نذهب إليه، وأن نطلع على ما فيه، وأن نجعله كذلك أنيسًا لنا.

وأنا أعيد وأكرر ليت بعض طلبة العلم يجلسون في المساجد أو في بيوتهم فيدرسون هذا الكتاب للناس لأهميته.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا.

الكتاب القادم هو كتاب (مداواة النفوس) لابن حزم. وهو كتاب يسير حتى نهوّن عليكم من الكتب الكبيرة قليلًا هكذا وهكذا. وهو كتاب (مداواة النفوس) لابن حزم، وهو مطبوع منفرد، ومطبوع ضمن رسائل ابن حزم التي حققها الدكتور إحسان عباس. ورسائل ابن حزم جمعها إحسان عباس في مجلدات، وله أسماء أخرى فقد طُبع بأسماء متعددة، ولكن ابن حزم وضعه بهذا العنوان، واحترامًا لابن حزم نضعه بعنوانه الذي وضعه فيه.

والحمد لله رب العالمين.

[١٨]

مناقشة كتاب (الأخلاق والسير في مداواة النفوس) لابن حزم

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين، حبيبنا وإمامنا وهادينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرّ الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدىً وتقىً إلى يوم الدين، جعلنا الله -عز وجل- وإياكم منهم، آمين.

أهلًا وسهلًا بكم مع كتاب جديد من مشروع "ألف كتاب قبل الممات". واليوم مع كتاب الإمام الفحل العظيم **أبي محمد علي ابن حزم الظاهري الأندلسي** -عليه رحمة الله-. هذا الكتاب هو المسمى بـ**(مداواة النفوس)** أو **(الأخلاق والسير)**.

هذا الكتاب له أثر شخصي عليّ، وقد تأثرت مبكّرًا بهذا الكتاب، وهو من الكتب التي في بعض مواطنه -مع صغر حجمه- قد أثّر عليّ طيلة حياتي. وكثيرًا ما أُصاب بحالات لا يكون العلاج لها إلا بهذا الكتاب وبما قاله.

فمن الأمانة أن أذكر أن ابن حزم هو إحدى الشخصيات التي صاغتني وربَّتني، ولي خبرة شديدة معه وعشت مع كتبه مُنقّبًا ومحبًّا ومعجبًا به. وليس من العدل الآن أن أفتح النار عليه فيما أخالفه فيه، ولكن ابن حزم لا بد أنه يُشغف به طالب العلم المبتدئ الشادي للعلم.

أنا لا أظن أن طالب علم مبتدئ في عصرنا ممّن نبذ التقليد ابتداءً تحت دعوى (السلفية) إلا وكان له وجهة لقراءة كتب ابن حزم. وابن حزم شخصية آسرة مثل الثقوب السوداء؛ تجذب من دخل إليها وتأسره. وكما قال ابن عربي المالكي عن شيخه الغزالي أنه دخل في جوف الفلاسفة ولم يستطع الخروج، وكذلك قارئ ابن حزم يدخل جوف ابن حزم ولا يستطيع الخروج. يحتاج إلى علم خاص حتى يستطيع أن يخرج من جوف ابن حزم.

ولما كتبت في (فن القراءة) بعض مزالق القراءة ومنها أن يكون بينك وبين الكتاب حجاب حاجز لئلا يبتلعك، كان ابن حزم حاضرًا في ذهني، مع شخصية أخرى في هذا الباب لا أُعرّج عليها الآن، لكن كنت أقصد هذا الإمام الفحل، أنك عليك حين تقرأ لابن حزم أن تجعل بينك وبينه ستارً لئلا يبتلعك.

ابن حزم شخصية قوية، حتى إنه سُمّي بمنجنيق المغرب أو منجنيق الأندلس؛ لشدة قصفه وتأثيره في قارئه وفي واقعه. وما زال ابن حزم يُعمل هذا الأثر. وكثيرٌ من أهل العلم الذين قرأوا له تأثروا به. العز بن عبدالسلام قال: "ما طابت لي الفتوى حتى قرأت (المحلّى) لابن حزم و(المغني) لابن قدامة". ابن القيم نراه متأثرًا من ابن حزم حتى وهو ينتقده، ولكن نرى التأثر واضحًا بابن حزم. ابن تيمية من المتأثرين بابن حزم حتى مع انتقاده،

ابن تيمية انتقد ابن حزم في بعض المواطن؛ في مسائل الأسماء والصفات، ومسائل التعبير لأفعال الله ولشرعه، ويرى أنه تأثر ببعض مناهج المتكلمين، إلا أننا نستطيع أن نقول بأنه معجب بابن حزم في بعض اختياراته الفقهية، وتجد هذا النَّفَس في بعض ما اختصّ به ابن تيمية من المسائل التي انفرد بها عن مذهبه، أو عن مذاهب الأئمة الأربعة المشهورة.

فابن حزم شخصية قوية آسرة، ومن يدخل فيها لا بد أن يتأثر بها. ولذلك أنا في الابتداء أدعو كل طالب علم أن يحذر من هذه القوة الآسرة فيه، وأن يقرأه مع وجود فجوة ومساحة من عدم الذوبان فيه بالكلية.

وسبب سطوة ابن حزم اللغة القوية. وأنا أنبه هنا على نقطة مهمة جدًا: كلما كان صاحب الدعوة قويًّا في دعواه؛ كلما كان تأثّر المقابل به قويًا. وكلما كان الرجل متميّعًا في قضيته كلما كان هناك تردد في قبول كلامه.

عندما يرتفع صوت العلم ويرتفع صوت المنطق في الكلام وتجمع الأدلة بقوة وتبدأ في تحطيم الآخر؛ الناس يستمعون لك. ولو قارنّا هذه القضية بدعوة الأنبياء لوجدناها مهمة؛ فإن قوة الأنبياء في قولهم إن الحق الوحيد هو معنا. ربما هذه اللغة لا تنفع في مسائل الفقه، لكنها أحيانًا ضرورية؛ فإن مجرَّد وجود "أن هناك ثمة خلاف في المسألة وهذا خلاف مُعتبر"، يُسقط قيمة كلامك عند الناظر. أنا لا أتكلم هنا عن ما هو الحق وما هو الباطل، أتكلم عن طبيعة الخطاب، متى يكون مؤثرًا ومتى لا يكون مؤثرًا.

وابن حزم لا يطرح المسألة من مسائل الفقه ويجعل للمخالف فيها مجالًا أنه يملك بعض الحق، ابن حزم لا يعرف هذا.

وهذه طريقة في الفقه غير سديدة بلا شك، العلماء لا يجزمون في كل مسألة بأن الحق معهم، وإنما نجدهم قد يقولون: هكذا وصلني وأترك الآخر ليبحث. هذه اللغة نجدها في كلام الشافعي في (الأم)، في كثير من المسائل يتوقَّف، في كثير من المسائل يُعطيك عدم اطمئنان لما يقوله بعبارة ما. علاوة على الآخرين، يعني لو تأتون إلى كتاب الغزالي (المستصفى) تجدونه شكّاكًا،

بعد أن ينتهي يقول لك: "لا أدري ماذا أقول!"، إذًا ما قيمة ما قرأته؟ يصدمك بعد رحلة عشرين صفحة من القراءة ثم ينتهي بك ويقول: "ولعله، ولعله!".

فكيف إذا جئت إلى كتاب الرازي (المحصول)؟ ينتهي إلى شك أعظم.

فلذلك ميزة ابن حزم أنه يقذف كلماته مُفعمةً بالثقة بحيث لا يترك للقول الآخر مجالًا للقبول ولا يترك لك مجالًا للاختيار، هنا تكمن قوة ابن حزم. ولذلك من يردُّ على ابن حزم يحتاج إلى علم خاص في علم الحديث، وطريقة ابن حزم تلائم المعاصرين في علم الحديث. طريقة المعاصرين في علم الحديث تتلاءم مع ظاهرية ابن حزم في الحديث؛ أنه يضعّف ويعلّل بالأمور الظاهرة، ولا يخوض في العِلل كما يخوض أصحاب الصنعة الحديثية، وأساطين العلم القدماء. والمعاصرون يتلاءمون مع هذا.

يخوض في الفقه بوجهه الظاهر لا يتعمّق فيه، ويكفي أن يقول لك: "الآخرون قالوا بالقياس والقياس باطل وهذا هو النص" وانتهى الموضوع، ويتركك عاريًا من أي درع تقاتل به وترد عليه؛ ولذلك الرد على ابن حزم يحتاج إلى علم خاص. نحن لا نريد أن نشجع الشباب على أن يردوا على ابن حزم! هذه ليست كذلك من الأدب. نحن نريد أن نصنع عقلية فقهية. هناك جزء من الحق عند ابن حزم ولكن علينا أن نحذر من طريقته.

الكتاب الذي اخترناه لا علاقة له في هذا الباب من فقه ابن حزم وطريقته، ذهبنا لابن حزم الإنسان.

وأنا تأملت كتبه فوجدت أن كتبه كلها تدخل في عبارة له وهي: أن كتبه قد ألّفها جميعًا في الرد على المخالفين. يعني هذا أن كتبه قد كُتبت بعد الحروب بينه وبين الخصوم. لا يوجد كتاب من كتبه ألّفه في زمن طلبه، لا يوجد كتاب ألّفه إلا وقد استوى على سوقه. ولما قرأت مثلًا هذا الكتاب لأعرف متى كتبه، فعلمت من خلال كلامه أنه كتبه في وقت متأخر، فعجبت لهدوئه!

يعني الأصل أنه مُحارَب ومات مسكينًا طريدًا، وقد أُحرقت كتبه، وعاش طريدًا في الصحراء بعيدًا عن الناس مع كبر سن، وغياب الترف الذي عاش فيه، فكان ينبغي أن يكتب كلامًا على طريقة (مثالب الوزيرين)، يعني يذكر مثالب الخصوم، لكنه هادئ! حتى لما جئت لـ(طوق الحمامة)، لما قرأته وأردت أن أعرف متى كتبه، وجدته قد كتبه متأخرًا، وقد أصابته البلاوى، ومع ذلك كتب كلامًا في الحب والعشق وغير ذلك مما يترتب على الحب والعشق الإنساني، أي عشق الإنسان الذكر للأنثى والأنثى للذكر.

فهذه شخصية غريبة!

حقيقة شخصية تكتب بهذا الهدوء بعد هذا الصراع شخصية غريبة. وواضح أن ابن حزم يستطيع أن يتحكم في نفسه، وأن كل كلمة قالها في هذا الكتاب هي صادقة.

ابن حزم له ميزات كثيرة، لكن من ميزاته أنه صادق مع نفسه. يُعرّي نفسه في كتبه؛ لأنه لا يعتبر أي تعرية هي مجال سلاح للخصوم. يعني عندما يقاتلك خصومك بكل أنواع القتال وتنتهي أسلحتهم، فأنت أي سلاح تعطيهم إياه لا يعُد له قيمة، ولذلك هو يعرّي نفسه يقول خذوا، تريدون أسلحة؟ تريدون أن تسبوا علي؟ خذوا ما شئتم لا أبالي. لماذا؟ لأنه يريد أن يَصْدُق قارئه.

هذه ميزة لعلمائنا جليلة عظيمة، ولابن حزم هي أجلى في هذا الجلاء وفي هذه العظمة.

مثلًا عندما يأتي على الزهد يقول: أنا لا أؤمن بالزهد الهندي، هذا الزهد الذي يتحدثون عنه هذا لا وجود له وأنا لا أؤمن به، الزهد هو أن آكل مباحًا ولا أطمع فيما هو مفقود، ولكني أتنعّم بما هو موجود كثيرًا أو قليلًا لا أتركه ولا أزهد فيه.

ويقول: ليس الفاسق عندي من إذا عُرضت عليه المعاصي وقع فيها، لأنه يعترف وهو يقول: بأنني أتحدى أي إنسان تُعرض عليه المعاصي كم يصمد؟ بعضهم يصمد من أول جولة، بعضهم ثاني جولة، بعضهم ثالث جولة، ولكن في النهاية إذا بقيت المعاصي تُعرض عليه سيسقط، وليس هذا عندي بالفاسق. الفاسق من حُبست عنه المعاصي فأتى إليها وبحث عنها!

يعني لا يريد أن يقول: أنا ذلك العابد الذي إذا جاءت إليّ المعاصي أنا فحل وجبل ولا تنفذ إليّ البتة. لا يريد أن يقول: أنا العابد الذي يقوم طيلة الليل. يقول" هذا نسك هندي أنا لا أؤمن به!.

ربما هذا الكلام في زماننا هذا يشجع على مزيد من ترك العبادات؛ لأنه ليس عندنا نحن نسك هندي! الناس عندنا سيأتون على صلاة الفجر جماعة. يعني تكاد تجد المسجد يخلو من المتديّنين، أو ممن يُحبّون ابن حزم، لا يأتون لصلاة الجماعة. فإذا سمعوا ظنوا أن ابن حزم يقصدهم؛ أننا نحن صالحون حتى لو فقدنا صلاة الفجر جماعة.

قطعًا هذا لا يقوله ابن حزم. هو يعبد الله بما صح في السنة، وما صح في السنة أن يقوم في الليل، أن يذهب إلى المسجد، أن يعمر بيوت الله، على ما يقوله من فقه.

فلذلك ابن حزم حين نجرّده من مشاكله الفقهية، طبعًا هو جرّد نفسه من المسائل السياسية؛ حارب كثيرًا وحُورب كثيرًا، مرة ينتصر مع من أيده من الملوك الأندلسيين، ومرة يحصل انقلاب فيُطارد ويُسجن إلى غير ذلك، ثم هجر السياسة. ترك تأييد من غَلب ومن غُلب، لكنه بقي محاربًا في مجال الفقه.

حين يأتي إلى هذه الكتب يستريح ابن حزم، فيُظهر نفسه الإنسانية بما فيها، وينصح أمته نُصح الرفيق ونُصح الصادق ونصح الأمين. وهذا الكتاب هو من هذا النوع.

الكلام عن شخصية ابن حزم بعيدًا عن فقهه وبعيدًا عن اختياراته الفقهية واختياراته العَقَدية كذلك واختياراته الأصولية واختياراته الحديثية، هذا باب واسع كل جانب فيه يحتاج إلى مؤلَّف ومصنَّف وجَلَسات. ولكن نحن نتحدث الآن عن ابن حزم باعتباره مجرِّبًا للحياة، وباعتباره خائضًا لسبلها في كل أنواعها، فقد كان مُنعَّمًا ثم أصبح بعد ذلك في السجن، كان منعّمًا ثم أصبح بعد ذلك طريدًا في الصحراء، له الأعداء وله كذلك المحبِّون.

يعني شخصية عاشت التناقضات في حياتها فلا بد أن نستمع لما يقول، وعلينا ألا نقف مع كلماته ككلمات تُلقى هكذا، يجب أن ندقّق فيها.

وأنا أقول لكم أني ممن تأثَّر بهذا الكتاب مبكّرًا. ومن عاشرني يعرف متى أحتاج لبعض الكلمات، مثل ذلك استفادته من أعدائه، هذه دائمًا أنا أستشهد بها من هذا الكتاب.

كم استفاد ابن حزم من أعدائه وخصومه، يقول: إن عامة ما كتبه من العلوم إنما هو بسبب وجود الخصوم، فوجود الخصوم نعمة إلهية!. يقول عليك ألا تُظهر دهاءك وألا تُظهر ذكاءك لأنك ستُحسد وستُقاتل. يقول اجعل نفسك كأنك لا تفهم، هذا التغابي. هذه مواطن له يجب علينا أن نراعيها، وعلينا أن نهتم بها.

ولذلك في الكلام عن هذا الباب ممكن أن نتحدث عن **كيفية قراءة هذه الكلمات؟**

ابتداءً أقول إن هذه الكلمات لا يجوز لأحد أن يقرأها قراءة جريدة ثم بعد ذلك يرمي الجريدة! هذا كتاب يجب أن يكون كتاب الجَيْب. وكلما رأيت حالة فراغ وتعب وكنت غير قادر على قراءة الكتب العلمية الثقيلة أخرج هذا الكتاب فهو ككتب الراحة بدل أن تضيع وقتك أخرجه واقرأ. ستجد الراحة فيه، ستجد المعونة فيه، ستجد الكلمات السهلة فيه، والتي تحتاجها في مشاكلك وفي حياتك.

فهذا كتاب ينبغي أن يكون لطالب العلم، والداعي إلى الله، وللمجاهد، وللإنسان في حياته وفي بيئته لمعرفة أصدقائه من أعدائه، لمعرفة كيف يُطلب العلم، لمعرفة الخصوم من الأحباب. فهذا كتاب الجيب.

النقطة الثانية: هذا الكتاب عندما ينظر فيه الناظر يعجب، يجد أن بداية الكتاب هو لمحات، يقذف بالعبارات القصيرة، وعندما يأتي إلى المنتصف يبدأ بالتطويل والشرح وكأن الموضوع يختلف لديه، العبارات الأولى تكفي فيها عبارة قصيرة، ويقول لك: افهمها فهي مليئة. الثانية كأنه يعجز عن الاختصار، هل هو تغير للحال؟ هل هو ذاهب للكتاب مع أحوال متعددة؟ أنا أجزم أن هذا الكتاب لم يكتبه في جلسة، لأن سياقه مختلف، وربما كتبه على ظروف متعددة، ليس على طريقة (صيد الخاطر)، مع أننا نستطيع أن نضع هذا الكتاب في نموذج (صيد الخاطر) لابن الجوزي، فهو تطرأ على باله الفكرة لحظة استجمام، أو تكون حالة معينة تستدعي فكرة معينة فيذهب ويسجل هذه الكلمات في كتابه، ويقول هذه لحظات استجمام ولحظات راحة.

وبعضهم ألّف (هكذا علمتني الحياة) مثل الأستاذ مصطفى السباعي، شذرات من عملي مجموعة سميتها: (شذرات من الفكر والحياة) على هذه الطريقة، لكن هذا الكتاب من الصعب أن نضعه هكذا، لأن الكتاب ليس انتقاءً للأوقات، يعني لما تذهب للكتاب تجد ترابطًا فيه، وليس مثل كتاب (صيد الخاطر) تجد أن الفكرة الأولى تختلف عن الثانية، الأولى تتحدث عن الفقر والغنى، الثانية تتحدث عن الصداقة، فابن حزم رتَّب كتابه ترتيبًا مبوَّبًا؛ تحدث عن الحب تحدث عن الصداقة تحدث عن العلم تحدث عن أدواء الأخلاق عن كيفية معالجة، فكأنه ألّف كتابًا، وإن كان كنموذج من هذا الباب وهو ما استفاده ابن حزم من حياته، ما أراد أن يقدّمه للأمة من ثمرات الحياة المتناقضة والصعبة، كأنه أراد هذا لكن طريقة التأليف تختلف.

الفرق بين أن يكون للرجل "كُنّاشة" كما يسميها علماؤنا قديمًا، وهذه كلمة ما بقيت إلا عند المغاربة، كُنّاشة يعني يكون للرجل كتابٌ أو دفتر فيه ورقات كلما خطرت له خاطرة كتبها، كلما سمع مسألة علمية سريعة كتبها، فيجمعه بعد ذلك ويكون عنده كمية، وهذه أنصح بها طلبة العلم، لأنك كثيرًا ما تحتاج العبارة فلا تجدها، فإذا كتبتها قيّدت صيدك، ورجعت لها فوجدتها محفوظة في هذا الكتاب، أنا أنصح بهذا المبتدئين، سيجد عنده بعد ذلك عنده كمية، وإذا رجع إليها بعد ذلك وجد عنده منفعة وفرِح بها. وهذه للأسف مما فقدنا النصح له ابتداءً وسلوكه، ففاتنا خير كثير من الأمور التي مضت، وربما كتب المرء بعض الشذرات فلما رجع إليها فرح بها، كأنها مكتوبة مِن قِبَل غيره.

فهذا الكتاب ألّفه ابن حزم وهو ذاهب إلى كتاب، كما أنه ذهب إلى (طوق الحمامة) وهو في ذهنه كتاب. بخلاف (صيد الخاطر)، (شذرات من الحياة)، (هكذا علمتني الحياة)، كلما خطرت له فكرة أو حدثت قضية ذهب وكتب فيها المنفعة.

النقطة الثالثة في هذا الكتاب: هذا الكتاب يحتاج إلى شرح، وليت بعض طلبة العلم يتفرّغ لشرحه، الشرح من أجل أن يبيّن ما فيه من معاني، والحق أقول لكم: لا ينفع لشرحه شاب، ليس امتهانًا للشباب، ولكن هذا كتاب تجربة وليس كتاب ألفاظ، يمكن لطالب العلم المبتدئ أن يشرح ألفاظه، يقول هذه العبارة المقصود بها كذا وكذا، يبيّن جماليَّة العبارة، يبين معناها وإذا كان فيها تلغيز، إذا كان فيها عدم إبانة يشرحها. لكن هذا الكتاب ليس كذلك؛ هذا الكتاب يحتاج شرحًا من رجل مجرّب مُعانٍ، يقف أمام تلاميذه ويبيّن لهم ماذا تعني هذه الكلمات، كيف صدرت منه، كيف تكوّنت، كيف يمكن للمُجرِّب أن يُقدّمها لغير المجرِّب وينتفع بها عند نزول الحوادث؛ لأن كثيرًا مما تقرأ لا يغوص إلى نفسك، يبقى على القشرة يا شيخ!، بمعنى أنه عند ضرورة وجوده لا تجده لأنه على السطح.

الآن هل كل أحد يذكر آيات الصبر عند وجود الجزع وعند وجود المصيبة؟ من يذكرها؟ من كانت الآيات غائرة غائصة في نفسه، قد ملكت روحه وتشبّعت بها نفسه وقلبه، حينئذ لو وقعت مصيبة فورًا تحضره آيات الصبر وأحاديث الصبر ويبدأ هو يصبّر نفسه بها، لكن القراءة العادية والتي لم يُعاينها فإن الكلمات تبقى على السطح، عند حضور ضرورتها تطير وتتبخر، ويخرج ما في النفس من حقائق، وهذه لم تكن من حقائق النفس لأنها لم تغص، ليست غائرة.

ولذلك أنا أنصح أن يُشرح هذا الكتاب من مُعانٍ، من رجل عاش هذه التجارب. وسنرى بعض الكلمات الرائعة وسنقرأ هذه الجلسة، لا نريد أن نتحدث عن ابن حزم أكثر، وحتى لا يقول أحد: أحس بأنك معجب بابن حزم، كان عندنا لقاء – ومسجل موجود في النت– في رمضان كل يوم في رمضان أختار عالمًا فأتحدث عنه، مثلًا اخترت البخاري، اخترت أبا الحسن الندوي، واخترت ابن حزم، فواحد جاء إلي وقال: "كانت كلماتك اليوم كلمات محبّ لم تستطع أن تستر حبك لابن حزم!"، ولا شك أنني أحبه، ولكنني لست –إلى هذه اللحظة– ممن في جوف ابن حزم، يعني أقرأ لابن حزم وأنا أنتقده وأُراجع ما يقول وخاصة في أبواب الفقه والأصول.

وفي كتابي أرجو أن أُعيد الابتداء به وهو (حوار مع الكبار)، ناقشت مسائل لابن حزم ورددت عليه فيها، كقوله: "من السنة كذا"، نفى أن تكون المرفوع وهي في الصحيح من كلام الصحابة.

النقطة الرابعة في هذا الكتاب: أنا أحب كذلك من يملك صوتًا جميلًا على طريقة نونية القحطاني أن يقوم بقراءة هذا الكتاب، أن يقرأه ويكون أشرطة، أن يُتلى، لأن الحقيقة معانيه حين تُلقى هي أشبه بمعاني الناصح التي يُلقيها لتلاميذه، هذه النصائح تحتاج إلى أن تُلقى، ونصائح السماع أطرب من القراءة، وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: (إني أحب أن أسمعه من غيري)، فأنا أنصح من كان صاحب صوت جميل جيد فليقم بقراءة هذا الكتاب وهو صغير، أصغر من نونية القحطاني لو قرأه القارئ ويقف عنده بالطريقة المجوّدة إن شاء الله سينتفع به.

نأتي إلى الكتاب وما فيه، سأقسِّم الحديث عن الفوائد الجانبية التي تعلِّم طالب العلم المبتدئ كيفية القراءة، مثال: يمكن أن قرأ هذا الكتاب من جوانب متعددة؛ من هذه الجوانب: متى توفي ابن حزم؟ ٤٥٦هـ –وهذه بالعربية لا تُقرأ من اليسار، نحن متأثرون بالغرب نقرأ: أربعمائة وستة وخمسين، هذه قراءة غربية الصواب أن نقول ستة وخمسين بعد الأربعمائة، احفظوها حتى إذا سُئلت متى توفي ابن حزم تقول: أربعة خمسة ستة–. وكما قال الشيخ أبو زهرة: "إن أغلب أهل العلم عُرف يوم وفاتهم لأنهم ماتوا وهم مشهورون، فلما ماتوا عرف الناس يوم وفاتهم"، لكن أغلبهم قد وُلد مغمورًا لم يُعرف مولده إلا ابن حزم، ابن حزم ابن أمراء فلذلك حدّد اليوم والساعة وفي الليل أو النهار وفي الشتاء وُلد ابن حزم وكان موته غريبًا، فلما وُلد كان أشهر لمن سجَّل من يوم وفاته.

ومما استغربته في هذا الكتاب، وهذه فائدة لمن يؤرّخ يوجد خيال الظل، خيال الظل هو السينما، أنا قرأت لمن أرّخ لها لكنّ كل الذين أرّخوا لها جعلوا دخول خيال الظل على المسلمين هو في زمن المماليك، وهو في القرن الخامس الهجري، وهذا زمن مبكر، تعرف ما هو خيال الظل؟ هو وصفه في الكتاب، يقول: كيفية إدارة خيال الظل؛ وهو كان قديمًا نفس فكرة السينما اليوم، يضعون شاشة ويغلقون في ظلمة، ويضعون الضوء يشعلونه فيُظهرون الظلال، فالناس يرون الظل فيُجرون الحركات التي يريدونها، إما أشخاص حقيقيين والأغلب ليسوا حقيقين إنما ألعاب مصنوعة مثل الأراجوز لكن بطريقة الظل، هذه فكرة السينما، وهذا ابن حزم يقول عن خيال الظل!، فهذه يمكن الاستفادة منها، يقول: "**أشبه ما رأيت في الدنيا خيال الظل**"، ثم يشرح ما هو خيال الظل، يقول: "**هو شيء يشبه طاحونة توضع على الطاحونة وتتحرك..**" إلخ.

من الطرق التي يمكن أن نقرأ بها الكتاب مع أنه في الأخلاق والسير ومداواة النفوس، إلا أنه جعل فصلًا في الكتاب يتعلّق بمعاني الكلمات وما هو وجودها في الخارج، مثل: حُسن، مَلاحَة، قِوَام، ما دخل هذا في الأخلاق؟ لكن واضح أنه قد شدَّته هذه المسائل فلا بد أن يتكلم فيها ليأتي إليها.

نقطة خارج الموضوع قبل أن نبدأ بشرح بعض عباراته أو اختيار بعض عباراته المهمة وإن كان الكتاب كله مهمًا، وهو أنه لم ينسَ أنه ظاهريّ حتى جاء إلى القياس، مع أنه حتى في (طوق الحمامة) يأتي إلى مسألة من مسائل الحب ويقول: هذا القياس صحيح، لا أحد يحتج عليهم فساد القياس، هنا القياس ضروري. مع أنه في الحقيقة أنا جمعت له -ولم أفرغ له فراغًا تامًّا-، جمعت له في قراءتي الأخيرة (للمحلَّى) وأنا في السجن أقواله في القياس في (المحلى)، يعني وقع فيما ينهى عنه ويأتي إلى المسائل ويقول بالقياس، وينفيه كليًّا، قياس علّة أو قياس نص لا يأخذ به.

فهنا لا ينسَ أنه ظاهري، فمثلًا يأتي إلى آخر فصل في الكتاب ويقول: "**القياس في أحوال الناس قد يكذب في أكثر الأمر ويبطل في الأغلب، واستعمال ما هذه صفته في الدين لا يجوز**"، هذه العبارة رائعة والحق أن كل عاقل ينبغي أن يؤيده في نفي القياس في هذا الباب، وهي تنفي بعض الدراسات الباطلة الغربية في كيفية اكتشاف الشخصية من خلال السِّمة، بمعنى أن بعض الناس يقول: "والله هذا وجهه لم يعجبني، هذا وجهه وجه سرّاق"، يدخل عليك شخص مرتب وحلو ولابس جرافة: "ما شاء الله هذا مبين عليه مكنّز أموال، معه أموال ومحترم"، وهو في الحقيقة لص!، ولذلك القياس لا ينفع في هذا، يعني إذا واحد سرق منك شيئًا وأنفه طويل فكلما رأيت واحدًا أنفه طويل تقول أنه سرّاق. لا ينبغي إذا واحد في يوم نصب عليك بلباس معين وهيئة معينة أنك تقيس كل لباس على هذا لتحكم عليه على أنه لص أو نصّاب. هذا قياس غير صحيح في الكلام، وللأسف الناس كثيرًا ما يخطؤون به، واللصوص والنصابون والفاسدون يعرفون هذا، فيتلاعبون بالشكل للهروب من هذا.

فقراءة ابن حزم حتى في هذا الباب، يعني كيفية عدم القياس في أحوال الناس لأن القياس في هذا يكذب.

نقطة مهمة جدًا في هذا الباب، أراد بعض محققي الكتاب أن يجعل هذا الكتاب -أي كتاب ابن حزم- ضمن مشروع أهل السنة في موضوع الأدب ضد الغزو الفكري لمفهوم الأدب والثقافة عند البعض. بعضهم ذكر هذا في مقدمة تحقيقه للكتاب وهذا خطأ تمامًا، لكننا سنستفيد في جانب آخر.

لما غزت الثقافة الهندية والفارسية واليونانية عالم الإسلام من الترجمة وبدأت الترجمة، بغض النظر عن غزوها بجانب العقائد وفي جانب التصورات وجانب المنطق، لكن كذلك دخل جانب الأدب، فبدأ البعض يؤلف كتبًا في الأدب ويجعل الأقوال التي قالها الهنود وقالها الفرس وقالها اليونان بموازاة ما في الحديث، يعني إذا ذهبت لكتاب (الأدب الكبير) لابن المقفّع لا تجد فيه أحاديث نبوية، ربما تجد فيه حديثًا أو حديثين لكن تجد الكتاب مليئًا بما قاله اليونان وما قاله الهنود وما قاله الفرس، لو ذهبت إلى المسكويه في (الأخلاق) لوجدته كذلك، فبعض الدراسين وقد أصابوا في ذلك، وهذه قد نبّهتُ عليها قديمًا؛ لأنني وجدتها أن أهل الحديث بدأوا في الرد عليهم في تأليف كتب في الأخلاق النبوية ليقولوا بأن مصدر التلقي في الأخلاق ليس ما تقولونه عندنا ما يكفينا؛ فألّف الإمام البخاري كتاب (الأدب المفرد)، والإمام ابن داود أوسع كتاب في كتابه (السُّنن): الأدب، فبدأوا يؤلفون في الأدب ردًّا على ما بُدِءِ بتصنيفه من قِبل البعض تأثُّرًا بما قاله الآخرون، وهذا من قبيل وحدة المصدر.

فبعض المحققين لهذا الكتاب جعل هذا الكتاب على هذه الطريقة، وهذا غير صحيح، ابن حزم لا يتكلم عن الأدب، لا يتكلم عن الأخلاق، يتكلم عن الإنسان؛ عن إخفاقاته، عن نجاحاته، عما ينبغي أن يحذره عما ينبغي أن يراعيه إلخ، ويتكلم عن تجربته الشخصية. ولما رجعنا إلى الكتاب لنجد هل قاله من جهة التجربة أم من جهة النصوص؟ وجدنا أن الكتاب أن قاله من جهة التجربة، احذر كذا افعل كذا إلخ، يتحدث عن تجربته، ولا يدخل في هذا مع أن أصل القضية صحيح، لكن وضع هذا الكتاب ضمن المشروع الذي هو رد أهل السنة على المتأثرين بالثقافة القادمة الوافدة هذا كلام غير صحيح.

من المهم الانتباه أن ابن حزم في دعواه لهذه القضايا كان حريصًا -لا حرص الـمُرضي لغيره بل حرص العابد لربه- أن يبيّن أن القيم لا تكون عظيمة إلا بنسبتها لهذا الدين، وأن ختام ما يمكن أن يبلغه صاحب الأخلاق وفاهم البشر وعالم النفس البشرية هو باتباع سنة النبي ﷺ، وأقول هذه الكلمة ردًّا على محمد عابد الجابري؛ في تقسيمه لعقل المسلم التقسيمات الثلاثة؛ العقل البياني وهم الفقهاء، العقل الغنوصي وهم الصوفية، والعقل الذكي أو العقل القياسي أو العقل المفكر وهم المتكلمون والمعتزلة وغيرهم. ويقول محمد عابد الجابري أن الثقافة الإسلامية والبيئة الإسلامية أنتجت ثلاثة عقول، هناك العقل البياني وهو الفقهي والذي بناه الشافعي ومشى عليه الفقهاء وكذا وهذا عقل غلط، حتى أنه يدخل في مفهوم العربية فهمًا باطلًا ويسب على العربية، وحاول البعض أن يرقّق مراده والحقيقة أنه يسبّ على العربية، وجعل أن مجرّد التفكير من خلال اللغة هو مفسدة، هذا واحد. العقل الثاني هو العقل الغنوصي وهو الصوفي وجعل له رجاله إلخ. العقل الثالث هو العقل المعتزلي أو العقل المفكّر أو العقل العقلي إن جاز التعبير، ومن هنا اتُّهم محمد عابد الجابري بأنه مغربي ونسب ابن حزم لهذا العقل، مع أنه لو أردنا أن

نتابع عابد الجابري في هذه الدعوة لوجدناه بيانيًا، لأنه يرفض القياس أصلًا، ويرى النص وإذا خلا النص نرجع إلى العبارة الأصلية هذا هو الدليل وانتهى الموضوع عنده.

فالاتهام الذي وُجّه إليه أنك أنت مغربي، فبالنهاية تريد أن تجعل ابن رشد وابن حزم باعتبارهم عقولًا متنوّرة آمنت بالعقل أكثر من إيمانها بالنص أو إيمانها بالغنوص.

لماذا قلت هذه الكلمة؟ لأن هذا الكتاب حتى لو لم نعرف منهج ابن حزم هل هو بياني أم غنوصي أم متكلم؟ حتى لو لم نعرف فإن هذا الكتاب بنصوصه ردٌّ عليه، لأنه ما هو العقل؟ انظروا هذه العبارة الجليلة من ابن حزم لنعرف ما هو العقل الذي يمدحه المعاصرون وما هو العقل الذي يعرفه علماؤنا، علمائنا ماذا يعرّفون العقل؟ لو ذهبت لابن مسكويه في كتابه (الأخلاق) —وقد ذكرناه باعتباره متأثرًا بالثقافة— ما هو العقل عنده؟ العقل يأخذونه من لفظه، العقل من الربط، عقلت الدابة ربطتها، أُخذ منه العِقال لأنه به يُربط، فالعقل لأنه يربط الإنسان عن السفاهات والسفالات والقبائح. سُمّي العقل عقلًا لأنه مقيّد لسلوك المرء الأخلاق السيئة، وليس فقط مقيِّدًا لاختيارات المرء في المسائل العقلية الذهنية، بل يجعلونه أعظم من ذلك؛ وهو أن دور العقل جانب تربوي وليس جانبًا ذهنيًا فقط. هذا هو تعريفهم.

التعريف الثاني الذي هو يستطيع أن يفكر ويوازن ويقرر ويربط المقدمات بالنتائج.. إلى غير ذلك.

فما هو حد العقل عند ابن حزم؟ انتبهوا حتى نجرّد هؤلاء من دعواهم الكاذبة أن ابن حزم خارج إطار الفقه الإسلامي والبيان النبوي أو البيان القرآني. سأقرأ نصين على هذا المعنى.

المعنى الأول يقول: "**وحدُّ العقل استعمال الطاعات والفضائل**"، هذا حد العقل أي تعريف العقل، إذًا بن حزم يرى أن العقل ليس بمفهومه الذي يطرحه هؤلاء، إنما يرى العقل بالمفهوم الشرعي وهو {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} يعني يُقيِّدون سلوكهم عن سلوك الفاسدين الضالين إلى غير ذلك. وهو يمشي على مِنوالهم ويرى أن العقل في جانبه الأعظم وهو الجانب التربوي والجانب الاجتماعي والجانب الأخلاقي والجانب السلوكي وليس فقط الجانب الذهني.

يقول: "**من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا**.."، انتبه أن ابن حزم هو إنتاج إسلامي، إحدى صراعاتنا مع خصومنا أنهم يريدون عظماءنا إنتاجًا غير إسلامي، هم يريدون هذا بحيث مثلًا عندما يدرسون الشافعي يقولون هو إنتاج يوناني وعندما ألف (الرسالة) هو منطق يوناني، من أين منطق يوناني؟ العربية هي التي أنشأته. وعندما يأتون إلى ابن رشد يجعلون إنتاجه يونانيًا.

فالقصد أن هؤلاء يريدون سلب كبارنا من الإنتاج الإسلامي لهم، يعني ابن خلدون كأنه خارج الإطار الإسلامي، وابن حزم إنتاج غير إسلامي، فانظر ماذا يقول: "**من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا**"، إذًا هذه واضحة، لا مجال للقول فيها أن ابن حزم يتلقَّى معارفه من الآخر، فإذا أخرجوا لنا كتاب (تقريب حد المنطق)، وهذا يحتاج إلى درس لأن ابن حزم ممن قال بأن المنطق يعصم العقل من الخطأ، كما أن العربية تعصم اللسان من اللحن، وهذا يحتاج إلى بيان ما هو المنطق الذي يؤمن به ابن حزم، لكن نحن نقف على الكتاب الآن لضيق الوقت.

"**من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة واحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتدي بمحمد ﷺ، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه.**"

ما أبقى للعقل مجالًا أن يذهب لغير هذا المورد العظيم، ما أبقى للحكمة مكانًا أن يدخل إليها آخرون فيجلسوا على كرسيها ولو للحظة، ملأ كل ما يحتاجه المسلم أو الإنسان لكماله بشخص النبي ﷺ، أخلاق النبي ﷺ، ملأها بسيرته، ملأها بملامحه.

هذه من القراءات السريعة لما يمكن أن نفهم هذا الرجل العظيم.

تعرفون أن الذي يكون في الذهن يشغل اللسان دومًا، فلو سأل سائل: أي شيء رأيت في ابن حزم لا يكاد يفارق كلامه؟ يعني تجده مبثوثًا في الكتاب بطرق مختلفة؟ يضعه هنا ويضعه هنا وهنا ولكن بأشكال مختلفة؟ الكلام على دور الخصوم؛ وكأن الرجل يشعر بأن الخصومة قَدَرُه أولًا وقَدَرُ كل طالب علم، قدر كل متربي، قدر كل حكيم، قدر كل عامل، قدر كل مقاتل، وجود الخصوم قدرٌ لازم للإنسان. وأجمل عبارة له في هذا الباب أقرأها لكم، طبعًا العبارات كثيرة لكن أجمل عبارة انتبهوا لها، والله هذه عبارة من لم يحفظها أو من لم يعرفها فإنه فاته خيرٌ كثير!، انظر إليه ماذا يقول:

"**لا تفرح بموت عدو لك فإن موته يُنتج كثرة الأعداء**"، بعض الناس يقول: "الحمد لله ما ظل عندي أعداء، مات عدوي"، نقول: لا تفرح هو كان يملأ هذا الباب فالآن بعد ذهابه سيتنافس على هذا الباب الكثيرون، فإذا مات عدو لك جاء لك أعداء، فهذه من أجمل عباراته.

انظر إليه يقول: "**مُقرِّب أعدائه قاتل نفسه**".

يقول وكل الحديث عن الأعداء يريد أن يُجنِّبك إياهم: "**احرص على أن توصف بسلامة الجانب، وتحفّظ من أن توصف بالدهاء، فيكثر الـمُتحفِّظون منك، حتى ربما أضرَّ ذلك بك وربما قتلك**"، هذه من الكلمات التي أحياها، وعشتُ معها طول عمري هذه الكلمات.

محمد علي باكثير كتب قصة جميلة في هذا الباب، عن رجل مجذوب، وتعرفون أن الناس يُسمُّون المجانين مجاذيب، ويعتقدون فيهم الصلاح -في القرى قديمًا بسبب الجهل-، وأنه ينطق بالغيب، والنساء يُدخلنه ليسألوه ويعطوه المال والطعام ويعتقدون أنه كما يقول البعض (اللاوي) يعني رجل مفتوح إلخ اعتقادات الجهلة.

فيضرب قصة عن قرية مصرية فيها مجذوب، فيقول: هذا رجل مجذوب ودائمًا أوضاعه سيئة والناس يطعمونه لأنه مجذوب، والمجذوب على طريقة الصوفية مجذوب إلى الحضرة الإلهية عندهم، -والصوفية هم من أفسد اللغة، لأن كلمة (بُهلول) معناها الرجل الكريم الشجاع ونحن الآن صار معناها عندنا مجنون، لأن الصوفية يطلقون على مجانينهم بهلول-، فهذا المجذوب لطيبته وظنوه مسكينًا مجذوبًا، فكان الناس جميعًا يُلقون إليه بأسرارهم، فكل من لديه هم يأخذه ويأخذ معه بعض الطعام ويذهب به عند المقبرة ويجلس معه ويُحدّثه، والمجذوب يهز رأسه، المهم كل القرية أسرارها عند المجذوب على أساس أنه مجنون لا يفهم، في النهاية اكتشفوا أنه ذكي فقتلوه، لأنهم كلهم أصحاب أسرار عنده.

على الأعداء كلام كثير، مثلًا يقول: "**اطرح المبالاة بكلام الناس**"، نفس كلمة الشافعي: "ما يضرك كلام الناس".

يقول: "**إياك أن تمتنع عن العمل مخافة الرياء**".

ويقول: "**من قَدَّر** -يعني من ظنّ- **أنه يسلم من طعن الناس فهو مجنون**"، هنا يأتي هل يمكن أن يكون ذم الناس أفضل من مدحهم؟ يقول: نعم ذم الناس أفضل من مدحهم، لأن المدح يدعو العُجب ويدعو إلى السكون، لذلك قال: الذم أفضل؛ لأن الذم ينقلب عليك، فإما أن يكون الذم صحيحًا فتُصلح نفسك، وإما أن يكون غلطًا فتصبر وترد فتنتج المعارف. ذم الناس يقول ليس هذا من جهة ملاءمته للنفس، هو يعترف لا أحد يقول: أنا ذم الناس عندي ومدحهم سواء لا أحزن لذمهم، بل أحزن لكن كيف أتحرك؟ ما هو رد الفعل الصحيح على ذم الناس؟ الأنبياء كانوا يغضبون ويتعبون مما يُقال عنهم من كذب.

آتي لكلمة ينبغي الوقوف عندها، لما جاء لقواعد العلم وهذا الفصل مع قِصره مهم جدًّا، وهو (قواعد في العلم) تحدث عن العلم وما هو، تحدث عن ما هو أجلُّ العلوم، تحدث عن قضيتين في العلوم مهمتان جدًا، وقد يبدو بينهما التعارض وليس

كذلك. يقول: "**ابدأ بأَجَلِّ العلوم وأهمها، لا تنشغل بما هو أدنى، انشغل بما هو أعلى**"، وبعد فقرة أو فقرتين يأتي إلى كلمة غريبة يبدو فيها التعارض، يقول: "**إذا طاب علم من العلوم في لنفسك فأقبل عليه، انشغل فيه لا تنشغل في غيره**"، هو البداية يقول: عليك بأجل العلوم، ابدأ بالعلوم الجليلة، ابدأ بالقرآن، ابدأ بالسنة هذه أجل العلوم. بعد ذلك بعد فقرة أو فقرتين يأتي إلى كلمة ويقول: "**إذا طاب بعض العلوم إلى نفسك وإن كان أدنى فانشغل به، لأنك إذا اشتغلت بغير ما تحب ستُبغض نفسك ولا تسفيد، وعليك بما طابت نفسك من العلوم فاشتغل به**"، هل هناك تعارض؟ الجواب: لا.

يعني على المرء في الابتداء أن يتعلم العلوم الواجبة، ثم إذا صار التخصص يصير إلى ما ترغب نفسه، فيمكن رد التعارض.

له كلمة غريبة جدًا في العلوم وهذه لا أستطيع أن أشرحها الآن، لكني أضعها بين أيديكم لتبحثوا عن معانيها وتسألوا عنها لأنها جليلة، فاسمعوا هذه الكلمة الجليلة لهذا العالم العظيم، استمعوا لها وهذه مهمة، يقول: "**العلوم الغامضة كالدواء القوي، يُصلح الأجساد القوية ويُهلك الأجساد الضعيفة، وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقل القوي جودًا وتصفيةً من كل آفة، وتُهلك ذا العقل الضعيف**"، أتركها لأن الوقت يضيق.

وهذه كلمة عظيمة تدخل فيها علوم كثيرة تُعاب على الناس، أذكر لكم أمثلة سريعة، علم الفلسفة مثلًا علم غامض، يقول: قليل من الفلسفة يؤدي إلى الإلحاد، لكن لو تبحَّرت فيها تكون قد قويت نفسك فكل ما يُقال فيها يكون زيادة ليقينك في دينك، لكن لو كنت ضعيفًا وأخذت منها فما النتيجة؟ فهي من العلوم الغامضة. فالمسائل دقيقة كلما خضت فيها وكنت صاحب علم في الخوض فيها، كانت هذه المسائل زيادة ليقينك، لكنها عند الضعيف يدخل فيها فيتوه، في النهاية لا يصل إلى مُستقَرِّه فيهلك.

انظروا إلى هذه الكلمة الرائعة، يقول: "**لا تجرّب عقلك بعرض الآراء الفاسدة**"، هذه في الحقيقة لا تُقال مطلقًا هكذا وإنما تُقال للمبتدئ، وإنما من العلم أن تُطرح الشُّبه على المتمكن للتدريب للتقوية، أو تُطرح على العالم من أجل الرد عليها، أما المبتدئ لو طُرحت عليه قتلته وأفسدته، لكن على الشيخ والمعلّم أن يطرحها ليُدرّب حتى في مسائل الشُّبه عليه أن يطرحها على طلبة العلم من أجل أن تقوى لديهم مَلَكة الرَّد، والناس يطرحون الشُّبه على العالِم من أجل أن يردّ عليها لأنه أهلٌ لها، لكن أنت لا تجرّب عقلك بعرض الآراء الفاسدة.

هذه تذكرني بكلمة لابن القيم في نسبتها لابن تيمية في (مدارج السالكين)، يقول: "سألت شيخي ابن تيمية عن قضية ما هو الأفضل أبقى ماشيًا في الطريق أم أبحث في نفسي عن أمراضها لأعالجها؟ قال له: لو كنت أنت ماشيًا في طريق وحولها الأوساخ مغطّاة، لو انشغلت أنت بكشف الأوساخ لتردمها بعد ذلك لما وصلت للنهاية، فالمطلوب أن تتركها وراءك وتمشي".

ويتكلم عن الدُّخلاء على العلوم وأرجو أن تُرجع إليه.

لكن هنا له كلمة، ولا أريد أن أطيل وأظهر العضلات في الرد عليه، لكن هي كلمة ليست مقبولة من ابن حزم، ويذكر أصل المسألة من فقهه -رحمه الله-، لكن أن يُمَثِّل لها فقد يخالف وقد تخالفه، وهي قضية: هل هناك من العلم ما لا يمكن أن تبلغ فيه قرارًا وتبقى في قضية العماء فيه؟ الجواب: نعم، وهو يُمَثِّل لهذا، يقول: هناك بعض العلوم العلم بها كالجهل بها، ليس من قبيل عدم اهتمامها، ولكن العلم هو الجهل، لأنه لا ينتهي إلى قرار ويمثّل بالتالي، يقول: "**وقف العلم عند الجهل بصفات الباري -عز وجل-**."، يمكن أن تُحمل على التكييف، يعني ما هو علمك بكيفية هذه الصفة؟ هو الجهل، ويمكن أن تُحمل على طريقته لأن ابن حزم من المؤوِّلة للصفات، فهي عبارة تحتاج إلى التقييد ممن يريد أن يشرح هذا الكتاب.

من فوائد هذا الكتاب الاهتمام بالإخوان والصداقة، وهذا باب مهم، أساس الارتكاز فيه على أنه يجب عليك إن أردت أن تكون عاقلًا أن تعرف قيمة الشيء وهو في يدك، من غرائب الأمور التي تقع، أن المرء حين يكون غائب عنك يكون عظيمًا، فإذا حضر سقطت عظمته وفقد قلبك قيمته، لا لقلة قيمته بل لقلة اعتنائك بما عنده. الرجل يرى كل النساء غير زوجته جميلات، إلا زوجته مسكينة ليست جميلة، حتى إذا تزوج الثانية اكتشف أنها مثل زوجته، كما قال النبي ﷺ: (فإن معها الذي معها)، فإذا تزوج الثالثة كان كذلك، فهي جميلة ما دامت بعيدة أجنبية لا يقدر عليها حتى إذا قدر عليها فقدها، وهكذا الأمر في الصداقة، بل هذا الأمر حتى في الثياب، أنظر للثياب ما شاء الله ما أجملها عليه، حتى إذا ملكتها انتهى أمرها في قلبي.

امتلاك الشيء للأسف عند الضعاف وعند الصغار مُذهب لقيمته، كثير ما كنت أسمع: أتمنى أن أجلس معك يا شيخ، فإذا جئت لم يتهم لك، فهو يضع هذه القاعدة، وهذه لا يفهمها إلا العظماء، فنحن لما نقول: ليتني في زمن النبي ﷺ، وفي زمن النبي ﷺ كان هناك منافقون، والنبي ﷺ عندهم {وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} اثنا عشر رجل بقي، فهذه نزعة بشرية لا يفهمها إلا الكبار؛ أن يرى الجمال وهو بين يديه وهو يملكه وهو يتملكه، وليس من قبيل خداع النفس يقول لنفسه: هو جميل، لا هو يكون مدركًا للجمال وهو يراه والجمال تحت يده. هذه كيف تنفع في الصداقة؟ انظر لكلمة ابن حزم.

يقول -رحمه الله-: "**لا تزهد فيمن يرغب فيك**"، عادةً أنت تذهب تبحث عن الهارب منك، أما الجالس عندك ترغب عنه، هو جاي خلاص لكن إذا هارب هو الذي له قيمة.

ومن هنا نفقد صداقتنا لمن نحب ولا نستطيع أن نحضر العدو، العدو لا نكسبه بهذا والصديق نفقده، فنخسر على الجهتين، لذلك عليك أن تعرف قيمة من عندك، هؤلاء العظماء دائمًا تحافظ عليهم، وهذه طريقة النبي ﷺ كيف يعظّم أصحابه كيف يراهم عظماءً، كيف عمر يرى أن الصحابة عظماء، كيف يرى أبو بكر أن من حوله عظماء. فاحتقار الناس حين تملكهم وحين يكونوا إخوانك من أكثر مُفسِدات الحياة.

يتكلم عن قيمة الأعداء، يقول: "**ولقد انتفعت بمحكّ أهل الجهل منفعة عظيمة، فكان ذلك سببًا في تواليف عظيمة المنفعة ولولا إثارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف**".

نتكلم عن مفهوم المحنة وهي رغبة في المحبوب، وما دام ليس هناك رغبة فلا يمكن أن تنشأ المحنة.

الحسد، الحسود إذا أحضرت علمًا جديدًا لم يعرفه ولم يقرأه قال: "ما هذا العلم الجديد؟ ما البدعة التي أتيت بها؟"، فإن أحضرت له أصلها من كتب أهل العلم جعل يقول: "ماذا زاد؟ وهل جاء إلا بالقديم؟"، على الجهتين لن يرضى عنك الحسود!.

حقيقة هذه مهمة جدًا، يقول: "**كثرة الريب تُعلّم صاحبها الكذب**"؛ كثرة الريب الشك في الناس والحديث عنهم، لعل فلان كذا ولعله كذايتكلم عن كثرة الاتهامات؛ يتهم يتهم يتهم وأنت تدافع، فإذا ثبت الكذب قال: تُعلم صاحبها الكذب، طبعًا هو يتحدث عن زمان، اليوم يكذب فإذا أحضرته من أجل مناقشته لا يأتيك يهرب، قديمًا كانوا ممكن أن يحضروهم، فكثرة الريب تعلم صاحبها الكذب؛ لأنه يضطر أن يعتذر بالكذب، أنا ما قلت هذا، أنا أشرت لكذا، فيضطر للكذب للاعتذار عمّا اتهم به الناس فيقع في الكذب حتى يصلح له جِبِلّة ويستسهله.

من أعجب ما قال في باب من أبواب عظيمة، يقول: عندما يسبك الخصم بما ليس فيك فإنما هي فيه، عادة إذا سبك الخصم فيما ليس فيك فارتاح لأنها فيه لكن هو يريد أن يُعمّمها حتى تسقط قيمة هذه التهمة، هذه فائدة مهمة جدًا.

يقول وهذه كذلك من حكمة العلم، زعموا أن ابن حزم ليس عنده حكمة العلم، انظروا إليه!، يقول: "**الفاسق يتصور أن الناس مثله، والحكيم لا تنفعه حكمته عند خبيث الطبع، بل يظنه مثله**".

هذه في الحقيقة وجدت بعض الناس يتهم العلماء أنهم قصروا في بيان الحق مثلًا في طائفة أو في جماعة لأنهم لم يهتدوا، فيظن أن عدم اهتداء الخصم سببه عدم وجود الحكمة وعدم وجود البلاغ في الكلمة، فهل هناك حكمة أعظم من كلام الأنبياء؟ هل هناك بلاغ أعظم من كلمات الأنبياء؟ ومع ذلك أغلب الناس لم يستمعوا لهم، فهل عدم الاستماع سببه نقس في الكلام حكمةً وبلاغًا؟ لا.

يقول: "**الحكيم لا تنفعه حكمته عند خبيث الطبع، بل يظنه مثله**"؛ مثلًا لو افترضنا أن خبيثًا ما جاء لينصح رجلًا، وهو خبيث لماذا ينصحه؟ إما ينصحه من أجل أن يُثبت عليه قضية ليست فيه، تصوّر لو أن خبيثًا جاء لرجل داعية أو رجل عامل أو رجل مجاهد لينصحه، يقول: "يا أخي لا تسيء للناس"، هو لا يسيء، لكن لماذا يقول له هذه الكلمة؟ من أجل أن يُثبت أن هذا الرجل يسيء للناس، لكنه يأتي بهذه التهمة على جهة النصيحة، "وليتكم تفلعون كذا، وأنتم تفعلون كذا.." هذه وجدناها في أشخاص كثيرين في الحقيقة، هو يبدأ بالنصيحة لك وهو يعلم أنك لا تحتاجها لأن ليس ما يُناقضها فيك، لكن هو يريد أن يقول للناس أنها فيك، إذًا هو لما نصح بالحق ماذا أراد؟ أراد الخُبث.

فالخبيث يفهم هذا هو خبير به وهو صانعه، فإذا جئت أنت الحكيم لتنصحه أن لا يكذب مثلًا فماذا يفهمها؟ يفهم أنك أنت أتيت لتمارس لعبته، يفهم هذا الخبيث أنك جئت لتنصحه بعدم الكذب لتمارس لعبته بأن تُثبت عليه الكذب، يعني لأنك أنت خبيث النفس مثله، تمارس عليه النصيحة لتثبت عليه الفعل، كما يفعل هو مع خصومه ليُثبت عليهم الفعل من خلال النصيحة، فهل ينتفع بهذا؟

قال: "**الحكيم لا تنفعه حكمته عند خبيث الطبع بل يظنه مثله**".

في الحقيقة وهذا من صدق ابن حزم، يقول: هل في إنسان يحب الذم؟ يقول: لا يحب الذم ولكنه نافع، ويذكرني بكلمة ابن تيمية –رحمه الله–: "لو جاز لي أن أمدح خصمًا لي لمدحت خصومي بما نفعني الله –عز وجل– منهم".

من أجمل ما فيه ويحتاجها العلماء وأختم بها لأهميتها، يقول: "من أكثر الناس احتقارًا لشاهد الزور؟ ومن أكثر الناس احتقارًا للزانية؟ قال: "**أكثر الناس احتقارًا لشاهد الزور هو الذي استخدمه، وأكثر الناس احتقارًا للزانية هو من استأجرها**"، وليت

العلماء يعرفون أكثر الناس احتقارًا لهم، لما تخرج أنت على المنبر وتقول عن فلان العظيم، هو يعرف أنه قذر، ويعرف نفسه أنه بائع لدينه، وتقوم وتمدحه فهو ماذا سيقول؟ أين عين هذا الشيخ؟ أين عين هذا العالم؟ عينه على القروش، مثل ما قال عمرو بن العاص: "والله إنك لتعلم أني أعلم أنك كذاب"، فهكذا يقول هذا الرجل لمن يُمدح بالكذب رجاء المال، وهو يتكلم عن هذه القضية، يتكلم عن قضية مهمة جدًا يرددها كثيرًا وهي قضية مدح الرجل بالوجه وذمه بالخلف، يتكلم عنها في مواطن مهمة في كتابه، يُرجع إليها. وهنا ننتبه بأن أكثر الناس احتقارًا لهؤلاء المشايخ هو من استأجرهم لأنهم يعرفون كذبهم.

وخذوا هذه الكلمة وتأملوها يقول الشيخ الإمام ابن حزم: "**إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها**"، إذا كثرت الهموم تتدافع كلها وتسقط، وهذه من مكرمات هذا الإمام العظيم.

أسأل الله أن ينفعنا به وجزاكم الله خير الجزاء، والحمد لله رب العالمين.

[١٩]

مناقشة كتاب (الدِّيَارت) للشَّابُشتي

الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتّقين، حبيبنا وإمامنا وسيّدنا وهادينا محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدىً وتقىً إلى يوم الدين، جعلنا الله وإياكم منهم آمين.

هذا لقاء جديد أيها الإخوة الأحبة ضمن مشروع "ألف كتاب قبل الممات" وهو مع كتاب (**الدِّيارات**) **للشَّابُشتي**. واختياري لهذا الكتاب يعود إلى مسائل متعددة، هناك مقصد رئيسي لهذا الكتاب سأؤخر الحديث عنه لأنه هو الذي سيكون الحديث حوله والإفاضة فيه، ولكن هناك مقاصد أخرى غير المقصد الرئيسي للموضوع سنتحدث عنها أولًا، يعني لماذا هذا الكتاب؟ هناك سبب رئيسي وهناك أسباب تابعة لهذا السبب سنتحدث عنها.

ابتداءً البعض يظن أنه يمكن أن يُلحق هذا الباب -وهو الحديث عن كيفية قراءة كتب الأقدمين- في فن القراءة، الحقيقة البعض يظن أن كتب الأقدمين هي كتب سهلة، وأن مقاصدها مفضوحة، هكذا يظن البعض، أن مقاصد الكتب بيّنة يمكن أن تدركها، وخاصة أن الكتب الأولى هي كتب رواية في عامتها، يعني أخبار وروايات، فيمكن للمرء أن يرى فيها السذاجة ويرى فيها السهولة، فهو يتحدث عن أخبار فأين مقصد صاحب الكتاب؟ لا يرى له مقصدًا إلا مجرد أن يجمع الأخبار في باب من الأبواب وفي مسألة من المسائل، هكذا يظن البعض.

والحقيقة أن **كتب الأقدمين فيها تلغيز شديد**، ومقاصد المصنف والمؤلف من الخفاء بمكان، وهذا لا يعرفه إلا من عانى القراءة في هذه الكتب، ومن ترفَّع عن رؤية الكتاب **بطريقة ذريّة؛** بمعنى أن يذهب إلى الكتاب فينظر في أخباره خبرًا خبرًا معزولًا عن المجموع والكل، فإذا نظر هذه النظرة الذريّة فسد عليه النظر الصحيح، وفسد عليه النظر إلى المقاصد. وهذا مدخل لنا لمقصد هذا الكتاب.

والشابشتي مأخوذة من (الشاه) معروفة في اللغة الفارسية الملك، و(بُشتي) التابع، كما يقول الناس اليوم: "فلان بُشت" هي من الفارسية بمعنى تابع، كما يقال (خَوَل)،ومعناها في اللغة العربية التابع، خَوَل الرجل تَبَعُه، والعوام يعيبون أن يكون الرجل

تابعًا. فشاه يعني الملك، وبشت تابع الملك الذي يمشي وراءه ويحمل له المظلّة ويقضي حاجته ويكتب ما يقول فهذا البشت، فهو شاه بشت.

وهذا المؤلف لا قيمة له إلا في نقطة واحدة هي التي سيكون عليها مدار الحديث، والشابشتي لا يُذكر في ترجمته في الكتب إلا القليل، ومصنفاته ولم يصل منها إلى الباحثين في التراث والمخطوطات إلّا هذا الكتاب وهو (الديارات). ما يهمنا في هذا الشخص هو أنه كان القائم على مكتبة العُبيديين، لما أحد "المتخلفين" كما يسميهم السيوطي -بدل أن يُسمَّوا بالخلفاء فيُسمَّوا بالمتخلفين لكفرهم وضلالهم-، فأنشأوا مكتبة -العبيديون- وكان عندهم اهتمام كبير بالكتب، فأنشأوا مكتبة كبيرة عامرة وملأوها بكل أصناف العلوم وكانوا يتفاخرون في هذا، وعيّنوا الشابشتي هذا عيّنه قيِّمًا على المكتبة، فلنحفظ هذه القضية فهي مهمة.

نعود إلى النقطة وهي **البحث عن مقاصد الأقدمين في كتبهم**، هذه قضية إلى الآن الحديث عنها قليل، وممن أدركها المستشرقون فاعتنوا بنشر هذه الكتب التي تُخفي تحتها هذه المقاصد. يعني لماذا اهتم المستشرقون كثيرًا بالكتب المتعلقة بالأدب في العصر الفاطمي؟ -الفاطمي تجوّزًا الأصل العبيديون-، هذا المقصد الذي توجّه إليه المستشرقون هو المقصد الذي وُضعت من أجله الكتب، هذه قضية يجب أن نفهمها.

الأسبوع القادم سيكون (كتاب الأذكار) للإمام النووي، ومقصد عظيم أن تقرأ كتاب الأذكار من أجل أن تعلّم سنن الحبيب المصطفى المختار لتعلم عبادته عند الأحداث وعند الأعمال اليومية هذا شيء عظيم، لكن للنووي مقصد، مقصد كلّي من أجله يُنشئ هذا الكتاب. مثلًا لماذا ألّف (رياض الصالحين)؟ هو مقصد يعالج فيه مسألة.

عندما عرضنا كتاب (مداواة النفوس) لابن حزم وفي معرض الكلام ذكرنا كتب الأدب التي ألَّفها أهل السنة، فلماذا ألف البخاري (الأدب المفرد)؟ ألفه لمقصد اجتماعي.

وهذه خذوها لكنها تحتاج لشرح طويل؛ **كل علمائنا وكل علوم علمائنا إنتاج اجتماعي**، هذه مسألة يجب أن تُفهم، ولذلك لا يمكن أن يُنتَج عندنا العالم ولا الإبداع ولا التغيير الحقيقي حتى يصبح هناك ثمّة قاعدة اجتماعية تُنتج هذا العالم وتُنتج

هذا العلم، فعلم الحديث علم اجتماعي، هو إفراز لهذه الأمة، أمة تفرز هذه العلوم، والعالم لا يستطيع أن يعيش في الصحراء بعيدًا عن إنتاج أمته.

الناس يتحدثون عن ابن تيمية، ابن تيمية إنتاج اجتماعي، لما تنظر البيئة المحيطة به تجد أنه نتج في بيئة علماء، ولا يوجد عالم عندنا كالفِطر يخرج هكذا من الصخرة، لا يوجد عندنا علم ينتج هكذا لوحده، لا بد أن توجد عنده القاعدة الاجتماعية التي تُنتج هذا العلم.

عندما تحدثنا عن (الأدب المفرد) قلنا أن هذا الكتاب إنتاج اجتماعي؛ لأن العلماء رأوا أن هناك اتجاه موجود فيه خرق قاعدة وحدة الثقافة ووحدة المصدر. علماء أهل السنة من الذكاء بمكان عندما رأوا كتبًا تؤلَّف في الأدب، وهذه الكتب تشرح الأدب عند أهل فارس، عند اليونان، عند الهنود، ففزعوا لهذا الاختراق وهذه معركة من معارك الوجود لاختراق وحدة المصدر.

فيقوم العالم ويؤلف كتابًا، لا يقول: "الرد على كذا وكذا"، ولكن الكتاب يُفهم في إطاره التاريخي أنه رد على هذا الاختراق، فقلنا أن هذه الكتب التي أُلفت مثل (الأدب المفرد) للإمام البخاري، كتاب الأدب الواسع في (سنن أبي داود)، وهكذا عند الإمام البخاري في الصحيح وكل مؤلَّف، لماذا يُفردون ويُنشئون كتب الأدب؟ هي رد، ولكن كيف نفهم هذا؟ هذا لا يكون اكتشافه كما تكتشفون الآن "العالم الفلاني ردَّ على العالم الفلاني أو على قضية كذا"، ليس مثل الآن: "العالم رد على المستشرقين"، العلماء لا يضعون هذا، يُلغِّزون الرد، يُنشؤون الكتاب، فأنت عليك أن تفهم هذا الكتاب خلال الحقبة الاجتماعية والتاريخية لعصره لترى هذا الكتاب ردًّا على ظاهرة ما أو قضية ما.

أقول هنا لا بد أن تفهم مقاصد الكتب، **ولا يمكن معرفة مقاصد الكتب حتى تذهب فتنظر إلى سياقها التاريخي**، سياقها التاريخي يقتضي قراءة الاجتماع في داخل هذا العصر، لماذا وضعه؟ سنكتشف أن كتاب (الأذكار) هو رد على قضية دينية موجودة، وكتاب (رياض الصالحين) هو رد على قضية، هو لم يُرِد فقط أن يضع كتابًا هكذا من أجل أن يكون، وإلا فكتب السنة موجودة.

لو ذهبنا إلى كتاب (الرسالة) لأبي زيد القيرواني وهو كتاب صغير تقرأه في جلسة واحدة، وتعجب لهذا الإمام العظيم، كيف يضع هذا الكتاب، لماذا وضعه؟ فتذهب وتبحث فتجد أنه قد وضعه في زمن غلبة العبيديين على المغرب، وألّفه للأطفال

الصغار حتى يُعلّموا الأطفال الصغار العقيدة، وهذا المتن الصغير للأطفال الصغار من أجل تحصين الطفل المسلم والفتى المسلم من أفكار ومذاهب العبيديين. هذا تلغيز، هذا شيء عظيم عليك أن تفهمه.

وهذه الطريقة لم يستخدمها فقط علماؤنا بل استخدمها خصومنا كذلك، عندما يأتي العُبيدي –العُبيدي هذا ينتسب لفاطمة ليُعطي نفسه الشرعية–، عندما يريد هذا العُبيدي الحاكم والمؤرخ الذي يؤرخ وراءه والذكي الذي يُدير المعركة الخفية؛ معركة الثقافة، معركة الدين، معركة الأدب، معركة الشرعية، عندما يريد أن يُدير هذه المعركة ضد خصومة، فإنه يجد أن أعظم طريقة لإعطاء الشرعية للعُبيدي هو قذف تاريخ هذه الأمة الذي يوازيه ويعاديه.

فعندما يريد المؤرخ الذكي المواكب لحركة العسكر وحركة القوة –التي هي مرجعية وشرعية القوة–، بسط نفوذ العُبيدي على بلاد المسلمين، فهو يريد أن يكون عنده الجيش ويكون عنده السلطان والقوة من أجل أن يفرض خلافته على البلد المسلم، وعلى الواقع المسلم، وعلى جغرافية البلاد المسلمة، فهذا لا يكفي، لا بد من حركة موازية هي حركة ثقافية علمية، تنزع الشرعية عن المقابل وتثبت الشرعية له. ما هي الطريقة لإسقاط شرعية المقابل الذي هو السُّني؟ العودة للتاريخ، وصناعة الأخبار أو تقمُّم الأخبار، بهاتين الطريقتين؛ صناعة الأخبار التي تُسقط شرعية المقابل، الشرعية التي يمتلكها المسلم بالنسبة لقضية التقوى، بم يكون الإمام إمامًا عندنا؟ بالتقوى، بالعلم، بالجهاد، بالعبادة، فهذه يجب أن يستبدلها، فيذهب ويجمع الأخبار من هنا ومن هنا ومن هنا، ويضعها أمام القارئ في حالة واحدة، يقول انظر هذا هو حال مَنْ تأتمُّ به وتعتبره إمامك. فيجمع أولًا ويتقمّم الأخبار التي تصدم المسلم، يقول كان هؤلاء كذلك، معاوية كان كذلك، المعتز كان كذلك؟ المتوكل كان كذلك في فجوره وشرب خمر، يقضي نهاره في القصف واللهو إلخ..

فهذا إسقاط له من أجل أن يعطي الشرعية للآخر. انظر لهذا المقصد الكلي، ولا يكتب هو في العنوان "بيان فساد الأمويين والعباسيين والصحابة"، لا يكتب ذلك، لكن هو يجمع هذه الأخبار ويقول انظر!، ويبدأ بعد ذلك بصناعة الأخبار، هناك أخبار صحيحة لكنها ليست هي كل الحياة.

الإمام ابن الجوزي عظيم، لما جاء لنقد كتاب (الأغاني) وله كلام شديد –وهو ضمن هذا السياق–، قال أن أعظم ما يصنع هذا الكتاب هو إفساد القارئ؛ لأنه حين يقرأ القارئ هذا الكتاب لا يرى في تاريخ الأمة إلا فسادًا؛ شرب الخمر، إتيان الذُّكران، النساء والصراع حولهن، والبذخ و.. إلخ، وكأن هارون الرشيد انتهى ولم يبقَ منه إلا غِمَّة قبيحة، وكأن المتوكل لما يبقَ

منه إلا هذا، وكأن معاوية لم يبقَ منه إلا هذا، هي الصورة الوحيدة المعروضة أمامه. فهذا تجميع، ثم بعد تجميع هذه الأخبار يضعها أمامك كأن تاريخ الأمة هو تاريخ فساد.

أين العلماء؟ أين المحدِّثون؟ أين الفقهاء؟ أين العُبَّاد؟ أين الجهاد؟ أين المساجد؟ أين الحجيج؟ هذا مستور مخفي، مع أن الصورة الأكبر في تاريخنا هي هذه، وهذه التي تُذكر هي أخبار فرعية، هي أخبار موجودة في داخل المجتمع، لا يمكن أن يخلو منها مجتمع من المجتمعات، لكن حين تجمعها فكأنها تُغلق أمامك الصورة كاملة، بأن صورة تاريخ فاسد. وهذا ليس كلامي بل معنى كلام ابن الجوزي في حكمه على كتاب (الأغاني).

هذا الكتاب ما مقصد صاحبه؟ هو هذا، حين تقرأ هذا الكتاب تخرج بصورة قبيحة سيئة للمجتمع الإسلامي في زمن العباسيين والأمويين والصحابة وإلخ، فيها أخبار قذرة وأشعار.

وأنا لا أؤمن **بالقراءة الطُّهرية**، -وهذا ذكرته في (فن القراءة)-؛أي الذين يدعون إلى تنقية كتب التراث من هذه الأخبار الفاسدة هذه دعوة باطلة، أَبقِها كما هي فله دور، يعني أنت الآن لو أَخْليتَ هذا الكتاب و(الدّيارات) من القصص الفاسدة لذهب مقصد الكتاب، وفاتك خير عظيم.

خلاصة الكلام؛ **أن مقصده هو تدمير التاريخ السني من أجل إعطاء الشرعية للعُبيديين**، هذا هو الذي أراده، مقصد صاحبه هي هذه المسألة، وهي أن يقول: انظروا إلى تاريخكم، وهو لا يقول هذا ولكن أنت تعرف بمجموع الكتب وبما استدل به المستشرقون بعد ذلك، وبما قام به الزنادقة بعد ذلك من تسويد وتقبيح تاريخنا، وعندما تبحث لماذا وُضعت هذا الكتب؟ وتبدأ تُحقِّق، بعضها تجميع صحيح وبعضها صناعة، كذب غير صحيح.

ولذلك لما جاءوا لابن السائب الكلبي سبوه، مع أنه إمام الأئمة في الأنساب، ومع أنه مرجعية لكل علماء التاريخ الإسلامي في الأنساب، إلا أنهم سبوه، لأنه كان يَثلِب الأنساب؛ بمعنى يُشكِّك أن هذا ابن كذا وهذا ابن جارية وهذا أبوه كذا، فرأوا أنه يطعن في أنساب الأمة وأنساب علمائها وأنساب قوّادها في استغلاله لعلم النسب، واستغلال التاريخ لتدمير الشرعية.

هنا نعود إلى النقطة التي بدأتها أن هذا فن كبار الأذكياء. الآن الفيلم السينمائي لما أراد هؤلاء أن يسيئوا إلى التاريخ قدموا فيلمًا، هو يقول لك هذا فيلم، وتخرج وأنت قد اصطبغت بفكرة أن التاريخ تاريخ قذارة، الغرب لا يعرف من تاريخ أمتنا إلا

"ألف ليلة وليلة"!، عندما يريد الغرب أن يتكلم عن قضية العبودية الرِّق، انظر إليه كيف يقدم نفسه في الأفلام، والفيلم مثل الكتابة، وكذلك في الشِّعر نفس القضية، في الشعر في الكتاب في المسرح هي قضية واحدة؛ هي لصبغ ذهنيتك بما يريد، سرقتك وإعطاء الشرعية لحالته.

كل من يقرأ كتب الأدب التي نتكلم عنها والتاريخ التي كُتبت بهذه الصبغة لا يمكن له أن يحترم أُمَّته!، لذلك هذه كتب ذكية، والمقصد فيها مُلغَّز مخفي في داخلها يجب علينا أن نفهمه. والمستشرقون جاؤوا لهذه الكتب وبدأوا نشرها في وقت تَرَافَق مع هذا الغزو في إسناد مرجعية الفساد إلى صناعة السينما ودعم المدارس الفاسدة، صنعوا السينما ليقولوا: ما الشيء الجديد في هذا الفساد الموجود اليوم؟ الفساد الموجود اليوم هو فساد موجود في تاريخك، علماؤك الذين تتكلم عنهم انظر كيف كان العالم الفلاني كذا والعالم الفلاني كذا، ويذكر لك قصصًا سيئة قبيحة في علماء ثقات فتسقط هيبتهم وتسقط مرجعيتهم، من أجل أن تُهدم الأسوار المانعة لدخول الفساد الذي يريده بعد ذلك، ويكون الجيش الآخر موافقًا له وموازيًا، جيش الهدم في تاريخك مع جيش الغزو لصناعة واقعك وحضارتك التي تعيشها، يجب علينا أن نفهم هذا.

قد يقول قائل: إذا كان الأمر كذلك، **فلماذا لا تتوافق أنت مع قضية هجر هذه الكتب؟**

هذه الكتب مهمة، ولكن يجب أن نفهمها في سياقها وأن نضعها ونقلب الداء إلى دواء، وهذا نموذج هذا الكتاب داء مرض، وانظر الكتاب، حقَّقه تركس عوّاد، كوستاس الرمل هو الذي دعاه إليه وهو (أب) لهم، والذي دعاه ونبّهه إليه هو شيخو المستشرق الألماني، يعني هو كتاب بسلسلة من النصارى، وهو أراد هذا، انظر التقاء المقصد الطائفي والمقصد العُبيدي مع النصارى، {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} هذه العلاقة موجودة.

فهذا الكاتب أراد مقصده، لكن أنت **كيف تقلب هذا السلاح التي يُتّخذ ضدك إلى سلاح أنت تنتفع به على الحقيقة؟**

وأنت لا تكذب، **العلم لا يجوز فيه الكذب**، إذا أجاز هذا العُبيدي أن يلتقط أخبارًا مكذوبة ويضع فيها الأسماء التي يريد، ويأخذ الأخبار المكذوبة من أجل أن تصنع له ما يريد، فهذه القضية له وهي منهجه. لكن في العلم الذي به يُبتغى فيه وجه الله ويُبتغى فيه النصر -لأن العلم معركة- فلا يجوز لك أن تكذب فيه، العلم هو قضية صناعة العقل، والعقل أي كذب فيه هو كلابس ثوبي زور يدمر صاحبه ويدمر من يسمع له، (المُتشبّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور)، إياك والكذب مع العلم، لا مع

إخوانك ولا مع الآخرين ولا مع العالم، العلم يجب أن يكون نقيًا، والصحيح صحيح والخطأ خطأ وهكذا، هذا هو الذي يدعو إليه القرآن، الصدق في الأخبار والصدق في الأحكام {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} الله يأمرنا بالصدق والعدل؛ الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام.

الآن إذا كان هذا مقصد الواضع، ما مقصد المترجم؟ والمحقق؟ نشأت فكرة بثّها المستشرقون، أن الحضارة الإسلامية ليست صناعة مصدر وحيد، إنما شاركت مراجع أخرى في صناعة هذه الحضارة، كيف؟ نحن نعتقد أنه حيث كان الحق في هذه الأمة كان مصدره واحدًا؛ الكتاب والسنة، الحضارة الإسلامية بمفهومها السليم البريء من أي دخن، والذي تحققت به انتصارات، وتحققت به سلامة الحياة وتحققت به عزة المسلم في الوجود إنما صُنع الكتاب والسنة فقط، لكن الوجود الإنساني ليس نقيًا لهذه الدرجة، حتى لو كان تاريخنا الإسلامي ليس نقيًا، إنما إذا كان نقيًا صنع العجائب كما الصحابة، أين عظمة الصحابة؟ في أنهم تلقّوا من مصدر واحد هو القرآن والسنة فقط.

الأمويون في وقت مبكّر قاموا بالترجمة، جاء اليونان، جاءت ترجمة الهند، (كليلة ودمنة) والأدب والتراث الفارسي، وبدأت تغزو وتدخل هذه الثقافات، وكلما قويت شوكة هؤلاء كلما ضعف تميُّز الأمة وضعفت قوتها، وهذه كلمة لمصطفى صادق الرافعي –رحمه الله– في (وحي القلم)، قال: "**ما يُعتبر عند الآخرين في قراءتهم لتاريخ الأمة مصدر قوة هو مصدر ضعف**"، ما معنى الكلام؟ عندما نأتي إلى الحضارة الأندلسية فنرى فيها البذخ والبناء الجميل والأزهار، هذه يعتبروها الغرب مصدرًا حضاريًا، مصدر مدح، وفي الحقيقة حيث كان الترف كان الهدم. فما يُعتبر مصادر قوة دخلت في الأمة ويعتبره البعض من عدالة ثقافة الأمة أن تتلقّى ثقافة الغير، ويعتبرون هذا شيئًا جميلًا وشيئًا جيدًا وهو في الحقيقة دمار.

فحيث دخلت الثقافة اليونانية والثقافة الهندية والثقافة الفارسية، بدأت الأمة تضعف، وكلما قويت كلما ضعفت الأمة وهزلت، والدليل لما حكم العبيديون جاء الصليبيون، وما سقطت بلادنا إلا وهي محكومة للعبيديين. فوحدة المصدر مهمة لتقوية هذه الأمة.

فماذا يريد هؤلاء؟ هذه قضية فقط على الهامش، لكن لنصل إلى ما يريده المحقق –انتهينا مما يريده المؤلف–، أرادوا أن يقولوا وهناك دراسات بدأت بتعظيم دور الثقافات الأخرى التي طرأت على الأمة، ومن ذلك بيان دور ما يسمى بـ"الثقافة" –إن جاز وإلا فهو في الحقيقة كذب لا وجود له، لكن لنذهب معه–، يقولون بأن مكونات الحضارة الإسلامية العظيمة التي أمدّت هذه

الحضارة بالرّقي الإنساني هو تلقيها من مصادر أخرى، هو مصدر النصرانية، وأُلّفت في ذلك كتب، والذي دعاني أن ألجأ إلى هذا الكتاب هو قراءتي لتلك، في كتاب اسمه: (أثر الحضارة النصرانية على الحضارة الإسلامية)، هو كتاب رسالة دكتوراة وأشرف عليه الدكتور محمد أحمد خلف الله -المشهور-، ويتحدث عن الأديرة، قلنا نذهب لنرى الأديرة من مصادرها، فذهبت إلى الأديرة ما شاء الله عنها!، هذا الكتاب يكشف لنا ما نريده نحن الآن.

ما هو مقصد المحقق؟ ما هي صورة الحضارة الإسلامية بنفس هذا النصراني كوكس عواد وكوستاس الرملي ولويس شيخو؟ حضارة عربان قادمين من الصحراء ليست لهم قيمة ولا ثقافة، لكن لما جاءوا إلى الشمال وخاصة ما بثه جورجي زيدان في كتبه وتاريخه، وهذا جزء من التلغيز، جزء من الفن، أعداؤنا استفادوا منها، لما تذهب لقصص جورجي زيدان -والأصل جورج لكن جورجي أكثر تسهيلًا ليصبح مقبولًا-، فلما تقرأ كتبه، وبالفعل لما ترجع إلى قصته (فتاة غسان)، وتبحث تقرأ القصة بعيدًا عن سرقتك، واحد يحب وحدة ثم بتزوجها ومن هذا الكلام، فتبحث ماذا يريد الرجل هذا؟

وإذا به يريد أن يقول لك أن الغساسنة كانوا من أعظم الناس حضارة، في الثقافة، في البناء، في الحضارة في الترتيب، وجاء هؤلاء العربان البجم القادمون من مكة والمدينة بقوة، وبعد ذلك صُنعت الحضارة من خلال وعاء الثقافة المسيحية. هذا طبعًا ضد ما نقوله في ديننا، وكلما كنا نحن أكثر صلابة في رفض هذا الذي يسمونه كلما كنا أكثر عزة.

فهو أراد هذا، وقامت دراسات تدعو لهذا الأمر؛ وهو البحث عن مصادر تخبرنا بما أنتج النصارى في الثقافة الإسلامية. هذا الكتاب يريد هذا المقصد، يريد أن يقول: انظر الوجود الإسلامي كان موجودًا في الأديرة، هي التي فيها الإنسانية، سوف نكتشف هذه الإنسانية الجميلة الراقية، والأبنية العظيمة والترتيبات. هناك كتاب أرجو أن يُقرأ لحبيب الزيّات عن الأديرة النصرانية في الإسلام، فهو يقوم على هذا المقصد؛ أن الدير كان له وجود حضاري وجود ثقافي.

فإذًا مقاصدهم هو فيما ذكروه وبيّنوه، وهو التقاط الكتب التي تُبيّن أثر الثقافة النصرانية في بناء الحضارة الإسلامية.

وهذا اضطر نجيب البهبيتي مثلًا أن يدافع عن أبي تمّام، وكتّاب التراجم يبحثون أحيانًا عن الغرائب والعجائب للتميز، مثلًا أبو تمّام أبوه اسمه أوس، وأبو تمّام طائي، وطَيْء في الشمال، فلغتها غير محتج بها لأنها في الشمال وقد قاربت العجم ودخل فيها العُجمة إلى غير ذلك، وطيء منها حاتم الطائي ومنها مين الصحابي الجليل عدي بن حاتم، وكان نصرانيًا على مذهب الرَّكُوسية

فلقربها من الشمال تنصروا، فهم عرب تنصروا. ولكن انظر إلى هذا الخبث وهذا الدّس الخطير، وذُكر في بعض تراجمه قالوا: يُقال أن والده اسمه (تَدْرُس) كان نصرانيًا، هذه الجملة الصغيرة يبنون عليها في النهاية أن أبا تمّام هذا الإمام العظيم في اللغة وهو من الشعراء العلماء، وذوّاقة في الشعر، وهو الذي يقال عنه أنه كسر عمود الشعر، لكنهم يريدون أن يقولوا بأن أبا تمّام هو إنتاج نصراني، لمجرد أن والده كان نصرانيًا، فما دخل النصرانية في العرب؟ هكذا نفهم كيفية التدسيس لهذا الموضوع.

كيف نستفيد من هذه الكتب؟ نأتي الآن لماذا نريد هذا الكتاب إذًا؟ بعد هذا الشرح قد يأتي شيخ ويقول -كما يفعل البعض-: امسك هذه الكتب وارمها في البحر وأرحنا منها، لما فيها من أخبار قذرة ومكذوبة، لما فيها من الصورة التي ذكرناها من تعميم صور الفساد على المجتمع الإسلامي، هذه الكتب نريدها لأنها مهمة لدينا، ومن أجل هذا المقصد اخترت هذا الكتاب، كتاب (الديارات) للشاه بشتي.

لماذا هذا الكتاب؟ هذا الكتاب يكشف لنا حقيقة الدَّيْر، فإذا أردت أن تعرف ما هو الدير في التاريخ الإسلامي فاذهب إلى هذا الكتاب.

وعلماء الأدب واللغة اهتموا بالأديرة ليس على أساس علمي ولا ثقافي، إنما اهتموا بها بجوانب متعددة، الذين ألفوا بالديارات كثر، والذي أعرفه أنه لم يصل إلا كتاب (الديارات) للشابشتي ومحققه يقول هناك (الديارات) لأبي الفرج الأصفهاني، وهو كتاب مطبوع وجدته ولكن ليس عندي، وموجود في الإنترنت، وهناك كتب أخرى في بعض كتب الأدب تجد مثل كتب الأماكن التي تختص بالجغرافية والبلدان والمدن، فتجد حديثًا طويلًا عن الأديرة؛ لأن الأديرة أنتجت أدبًا.

قلنا الشابشتي يريد مقصدًا آخر، يريد ضرب التاريخ، يتخذ عنوان الأديرة من أجل مقصده، أنت لو دخلت كتاب (الديارات) تَعْجَب؛ الفقرة الأولى يتحدث عن الدير فقرة فقط من سبعة أسطر، أين يوجد الدير، ما فيه من مكتبة، ما فيه من راهبات جميلات جدًا، ولأي شيء كان يُتَّخذ، ستة أو سبعة أسطر، وبعد ذلك يأخذ لك شخصية إما خليفة وإما شاعر وإما مغني وإما قائد عسكري وتُصبح أربع أو خمس صفحات كلها في حديث عن شعر هذا الشاعر، وذِكر هذا الخليفة أو ذكر هذا المغني، وينتهي كأن الحديث ليس عن الأديرة وإنما هو حديث عن الشخصيات. إذًا هذا يكشف لنا ما هو مقصد صاحب الكتاب، هو ليس فقط حديثًا عن الأديرة، الدير له أسطر معدودة وبعد ذلك يفيض الحديث عن الشعر وكذا إلخ.

لكن لماذا إذًا الأديرة تُذكر في الكتب؟

إما أن تُذكر في كتب الأماكن لأنها أماكن تجمُّع، وإما أن تذكر من أجل الأدب فيها، يعني هناك أشعار قيلت في هذه الأديرة، فيجمعونها، وهناك أخبار أدبية قيلت في الأديرة وكان مناسبتها الأديرة فيذكرون هذه الأديرة، فمن هنا نشأ "أدب الدير" —إن صح التعبير هذا مني–، الدير له أدب كما أن لأماكن أخرى آداب، كما أن للأعياد آداب، يعني قصص تاريخية بين الأدباء وأشعار وقصص للترفيه، الكتب الموجودة، فيذكرون هذه الأمور ذكرًا مطوّلًا.

إذًا ما هو الدير في ثقافتنا؟ في ثقافتنا الإسلامية هو ما يبسطه أصحابه، واعتنوا به. ما هو شأن الدير في التاريخ والثقافة الإسلامية؟ هذا الذي من أجله اخترنا هذا الكتاب، ونحن نستفيد فهذا جزء من تاريخنا، هذا جزء من أمتنا، حتى لو كان هذا الجزء من التاريخ هو بمقدار المرحاض في البيت اليوم.

ولكن من أكبر في البيت المرحاض أم غرفة النوم؟ أم غرفة المعيشة؟ فهم يُصوِّرون أن تاريخ الأمة وجلوسها دائمًا في المرحاض، يعني حتى لما نذهب إلى الديارات فنجد متى يذهب إليها الناس؟ هل طيلة الوقت جالسون في الدير وهناك الثقافة وأماكن العلم؟! طيب نحن عندنا المسجد يذهب له المصلون خمس مرات في اليوم، احسبها كم النسبة الزمنية، يتوضأ ويمشي للمسجد ويجلس، وقد يكون هناك حديث وقد يكون خطبة الجمعة، فكم يأخذ من المسجد من يومك؟ **إذًا ثقافة المسجد هي الثقافة الحقيقية في الأمة،** والدير هو بيت الخلاء.

لكن هم يريدون أن يجعلوا الدير هو المكان الثقافي. والله يا إخوتي قرأت هذا الكتاب باحثًا عن هذه الصورة التي يريد أن يقدمها النصراني لحقيقة الدير فلم أجد، بمعنى أن هناك طلبًا من هؤلاء النصارى بوضع الدير كمركز ثقافي، مركز ثقافي يعني أن يذهب فيتناظر الناس فيه في مناظرة علمية، يذهب للدير لسماع محاضرة، يذهب للدير لما يُصنع في الأسواق التجارية التي صارت أدبية، مثل ذي المجاز وذي المجنّة وعكاظ، هذه أسواق تجارية على هامشها أُوجدت أسواق ثقافية ونوادٍ ثقافية، يتناشدون الشعر.

بحثت في هذا الكتاب كونه هو المرجع، وحتى قرأت شيئًا قليلًا ليس كثيرًا من كتاب (الديارات) لأبي الفرج الأصفهاني فلم أجد هذا، يقولون شعرًا وهم في القصف –يعني في اللهو والسُّكر والعربدة– يقولون الشعر الساقط، وللذكر فهذا الكتاب ما فيه

من أشعار –وهو مليء بالأشعار– ولكنها أشعار لا قيمة لها في الأدب، ضعيفة جدًا ومُهلهلة، وهي مجرد حديث فقط بين أناس يتكلمون ويصنعونه شعرًا، حتى الشعر ليس عليه رونق الشعر ولا قيمته ولا أهميته.

ولو أرادوا أن يجلعوا من الدير مكانًا للأدب مكانًا للثقافة كان ينبغي أن يذكروا أن أنه كان مكانًا للمطارحات الأدبية وللمناقشات الأدبية، حتى لو كانت على الصيغة التي تُذكر في أي مكان آخر، وليس المقصود أن يذهبوا إليه ليتناقشوا في أحكام الوضوء، لا نطالب من الدير أن يكون كذلك، لكن أن يكون فيه مطارحات أدبية كما نسمع وكما نقرأ في أخبار الأسواق، الآن عندما نذهب إلى أخبار الأسواق الثقافية الموازية للأسواق التجارية، نجد أدبًا، نجد هناك حديثًا راقيًا، مناظرات، نجد هناك تحكيمًا شعريًا، نجد هناك كلامًا علميًا، لكن في الأديرة نفقد هذا كليًا.

إذًا ما الذي يمكن أن نستفيده من هذا الكتاب؟

علينا أن نعرف هذا المكان يُلحق في المجتمعات رغم أنوفها، لأن المجتمعات واحدة، لا يمكن أن تكون المجتمعات كلها فيها الولاية والقدّيسية، لا بد تنشأ على هامش المجتمعات قاذورات –كالمزبلة–، الآن هل يوجد مدينة من المدن لا يوجد فيها مزبلة؟ فهي مزبلة، فهي هامش، والدليل أن الدير كان في الهامش حتى على الجهة الجغرافية، يعني لا يوجد دير ذكره المصنف هنا ويوجد في وسط المدينة، الدير ينشأ خارج المدينة. قد يُقال أن الأديرة أصلًا نشأت من أجل الرهبانية، لك هذه الرهبانية مفقودة هنا في داخل الدير هذا الذي يُذكر في الإنتاج الإسلامي رهبانية مفقودة، وحلَّ مكانها شيء آخر، الرهبانية من أجل التعبُّد، الإخبات، التفرد، الفكر، الخلوة إلى غير ذلك، لكن هنا نحن نفقدها لا نجدها.

وبلا شك أن الدير اليوم يجب أن يُدرس غير هذه الدراسة، يعني أنا رأيت عدة برامج ثقافية عن الأديرة في مصر، وإذا اطلعت عليها أيها المسلم تذهل من هذه الأديرة، وأنت تسمع كذلك أخبارًا عن الأديرة المعاصرة وخاصة مصر، إذا اطَّلعت على طبيعة الدير في الثقافة النصرانية في مصر مثلًا، تجد الأديرة أشبه بقلاع صليبية تعيش في داخل الوسط المسلم، ولها ثقافتها ولها قوانينها ولها إدارتها، وهي أشبه بالدول داخل الدول، علاوة على أنها قلاع عسكرية، والدولة لا تستطيع الدخول إليها؛ لأن الدولة متواطئة مع الدير، ولأن الدولة منذ أن جاءنا في تاريخنا ما جاء في البعثات الدبلوماسية في زمن الدولة العثمانية والدير يجب أن تُعطى له الصلاحية، وإلا الغرب قام بالدفاع عنه!، الأديرة والكنائس في الشرق هنا محميّة، وهي بالنسبة للغرب خط أحمر لا يجوز الاقتراب منه.

فإذا ذهبت إلى الدير المصري مثلًا وجدته قلاعًا، الوصول إليه يحتاج إلى مدة، ولو أرادت الجيوش أن تغزوه عليها أن تغزو بالطائرات، وإذا كان في داخله سلاح سيكون صعبًا بسبب عمقها وضربها في داخل الجبل ومتانتها وصلابتها، فهي أشبه بالقلاع التي أنشأها الصليبيون في زمن الحروب لصليبية. وأنا أنصح لمن يريد –ولا أدري إن كانت هذه البرامج موجودة على اليوتيوب فيمكن الرجوع إليها– فأنت سترى وستُذهل، أنا أتوقع أن أي مسلم يرى هذه البرامج في كشف جغرافية الدير؛ أين هو؟ في الصحراء، كيف يُبنى؟ وبناؤه في داخل القلاع، كيفية التحصين، ماذا فيه من أطعمة تكفي لشهور يعيشون فيها، استقلاله في عملية القضاء، يعني أموره الداخلية لا يتدخل فيها القضاء العام للبلد.

وهذا ينبغي أن يكون حاضرًا، أن ندرس الدير دراسة جديدة بالنسبة للمجتمعات التي فيها الأديرة، مثل لبنان ومصر إلى غير ذلك.

نأتي إلى قضية مهمة جدًا، أن الدير ظهرت ثقافته واسمه في حالات إسلام بعض النصارى، لعلكم سمعتم بعض الأخوات المسلمات اللواتي كن نصرانيات فأسلمن، ثم سُلِّمن بقضاء للطاغوت في القضاء المصري، سُلمت هؤلاء الأخوات إلى الدير وبعد ذلك فُقدن، مثل وفاء قسطنطين، هذه إلى الآن لا يعرفون أين هي، والعالم تحدوهم أنكم قتلتموها، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يخرجوها في مجرد صورة أين هي، ماتت قتلت، تذهب إلى الدير، وكاميليا وغيرها.

فثقافة الدير اليوم صار لها صورة جديدة؛ أنها مجرد قوة عسكرية وقوة ثقافية وقوة قانونية موجودة داخل المجتمعات المسلمة التي يغلب فيها النصارى، فيجب أن ندرس الأديرة دراسة جديدة تتوافق مع ما نحن فيه.

انتهينا من قراءته المنهجية، والآن أقرأ لكم عجائب أديرة الشابشتي، هناك نقاط تجدها في كل الكتاب، يعني أولًا كما قلت وأكرر، لا يوجد دير تقدم ذكره في هذا الكتاب إلا وجعل مقدمة التعريف فيه أن مكان –بين قوسين– "انبساط"؛ من يريد أن يسكر يذهب إلى الدير، من يريد –أجلكم الله– نساءً يذهب للراهبات هناك جيدات، وحتى أنه يصف الراهبات في النهار مجوس وفي الليل نصرانيات، ما معنى مجوس؟ يعني لا دين لهم. الذي يريد أن يهرب من بيئته ودينه ويذهب هناك، بل الشعراء يجعلون أن الدير هو محارب المسجد، إما أن تذهب للمسجد أو للدير. فهذا هو الدير، فلا يوجد في هذا الكتاب وصف لدير من الأديرة إلا وفيه هذا الوصف، وهو أن الدير مكان لما ذكرنا.

والدير مكان الكفر، حتى لو أراد رجل أن يكفر يذهب إلى الدير، إذا أراد أن يكفر كفر الهوى والشهوة وليس كفر الاقتناع والفكر، إذا أراد أن يا يخرج من دينه بالكلية، يفسد حتى يخرج من دينه فليذهب إلى الدير، نقرأ هذا النص، يقول:

"دير الجاثليق"، الجاثليق معناه في اللغة اليونانية: البعيد، ولكن إذا سمعتموها صارت في التاريخ الإسلامي موجودة حتى في وقت مبكر في زمن الصحابة موجودة، استخدموا هذا اللفظ هو يوناني ومعنى جاثليق: كبير القسيسين، فهو دير الجاثليق يعني كبير القسيسين، لكن معناها البعيد.

يقول: "**وهذا الدير يقرب من باب الحديد، وهو دير كبير حسن، نزق، تحدق به البساتين والأشجار والرياحين، وهو يوازي دير الثعالب في النزهة والطيب وعمارة الموقع؛ لأنهما في بقعة واحدة، وهو مقصود مطروق، لا يخلو من المتنزهين فيه والقاصدين له، وفيه رهبانه وفتيانه ومن يألفه من أهل الخلاعة والبطالة..**"، كل الأديرة فيها هذا الوصف، ماذا فيه؟ الرهبان والفتيان من أهل الخلاعة والبطالة والقصف والسُّكر والعربدة إلخ.

"**وقالت الشعراء فيه ووصفته، ولمحمد بن أبي أمية الكاتب فيه، وفيه لحن خفيف الرمل:**

لهفـــي علـــى قمـــر في الـــدير مســـجونِ	**في صـــورة الإنـــس، في مكـــر الشـــياطينِ**
والله مـــــا أبصـــــرت عيـــــني محاســـــنه	**إلا خرجـــتُ لـــه طوعًـــا مـــن الـــدينِ!"**

فهو يذكر راهبة مسجونة في الدير، وكيف رآها؟ هذه عندكم! ويصفها أنها في صورة الإنس جميلة وفي مكر الشياطين. يعني يؤدي به مثلًا بعض الصور أنه لما تخرج عنده حتى تعطيه ما يريد أن يكفر.

نص آخر في الكفر، يقول هنا: "**دير قوطاء، وهذا الدير بالبَرَدان من قرى بغداد على سبعة فراسخ منها على شاطئ دجلة، وبين البردان وبغداد بساتين متصلة ومتنزهات متتابعة، منها إلى بلشكر ثم إلى المحمدية ثم إلى الطولوني الصغير ثم إلى الطولوني الكبير ثم إلى البردان، كل ذلك بساتين وكروم وشجر ونخل. والبردان من المواضع الحسنة والبقاع النزهة والأماكن الموصوفة وهي كثيرة الطُّرّاق والمتنزهين.**

وهذا الدير بها وهو يجمع أحوالًا كثيرة، منها عمارة البلد وكثرة فواكهه، ووجود جميع ما يحتاج إليه فيه، ومنها أن الشراب هناك مبذول"، يعني بالمجان، ولماذا نقول هذه الكلمة هنا؟ وهذه رد على من يقول أن الدير فيه رهبان وفيه عبّاد وفيه صلوات وفيه كنائس، وفيه كذا وكذا، ولكن جاء الفسّاق والفجّار من المسلمين وصنعوا كذا وكذا، وجعلوه مكانًا للفسق والفجور.

فالخمر مبذول، وهذه رد عليه، واللفظة تدل على أن القائمين على الدير هم يحبون هذا الأمر أن يأتيه الفساق والفجار، والدليل أنهم يبذلونه لما تفيد هذه اللفظة، يجب عليك أن تقرأ كل لفظة وأنا تفهمها في سياقها.

قال: "**ومنها أن الشراب هناك مبذول، والحانات كثيرة، ومنها أن في هذا الموضع ما يطلبه أهل البطالة والخلاعة من الوجوه الحسان، والبقاع الطيبة...، قال: ولعبدالله بن عباس بن الفضل بن الربيع قصيدة، قال:**

أقمت بالدير حتى صار لي وطنًا من أجله ... ولبست المُسْحَ والصُّلَبا"

ماذا يفعل هذا الرجل؟ كفر، في الحقيقة يوجد نشاط تبشيري بلا شك، ولكن كما ذُكر في كتاب (دمروا الإسلام وأبيدوا أهله)، أن هؤلاء ليس لهم شرف الدخول في الدين، هم في الحقيقة لو قدروا لأدخلوهم في الدين، يعني هؤلاء العرب وهؤلاء المسلمون ليس لهم الشرف في الدخول في النصرانية، لكن أخرجوهم من الدين بحيث لا دين لهم، وفي التاريخ إن حدث أن يتنصَّر الناس يتنصَّرون لأجل الأموال، الآن للأسف بعض قبائل البربر يتنصّرون لماذا؟ بُغضًا بالعرب وبغضًا بالإسلام ومن أجل الأموال، أما أن يتنصَّر أحدٌ على الحقيقة ويفهم الدين النصراني ثم يتنصَّر هذه كلها أكاذيب، في التاريخ الإسلامي لا تستطيع أن تعد خمسة آلاف واحد تنصّروا -في التاريخ الإسلامي كله من مشرقه إلى مغربه-. لكن هنا لماذا يلبس مُساح الرهبان والصلبان؟ من أجل الشهوة.

قال:

"أقمت بالدير حتى صار لي وطنًا ... من أجله ولبست المُسْحَ والصُّلَب

وصار شمّاسه لي صاحبًا وأخا ... وصار قسّيسه لي والدًا وأبا"

الشَّماس: هو مرتبة دنيا في داخل الدير، الدير يعني أو النظام النصراني هو نظام طبقات، وسموها عندنا الآن "سماحة وفضيلة"، وأنا ما عرفت أن سماحة أعلى من فضيلة حتى غلطت مرة أدام واحد، قلت له: فضيلة الشيخ الفلاني، قال لي: "إيش؟ أنا سماحة!"، ولم أعرف أن السماحة أعلى من الفضيلة غير ذاك اليوم. والقصد حتى الكنيسة النصرانية هي كنيسة فيها جاهلية في تركيبها الاجتماعي؛ في الغرب في كنيسة للسود وكنيسة للبيض، كنيسة لكذا وكنيسة لكذا، يوجد عندهم، حتى الكراسي يجلس الناس عندهم حسب مرتبتهم الاجتماعية، وعندنا صارت! يعني الصف الأول يجب أن يجلس ناس معينين إذا جاؤوا إلى الصلاة، خربطوا وغيّروا ديننا!

ولكن النظام هناك يحمي هذا، هنا لا يوجد نظام هنا يوجد ضلال، هناك النظام يحمي هذه المظاهر ويؤصل لهذا الفساد.

فالشماس ليس هو القسيس، وليس هو الذي يصلي بالناس، إنما يقوم بحمل الشموع، وإما يقوم بخدمة القسيس فهو مرتبة دنيا، هذا هو الشماس.

نرى الجمع بين "الدير والحان"، يجب أن تعرف معنى كلمة "حان"، ولماذا يذهب الناس للخمَّارة؟ وثانيًا إذا ذهبوا كيف يكون الحال؟ كيف يكون الحال في داخل الحان؟

يقول: "**وهو دير مديان، وهو دير حسن نزه حوله بساتين وعمارة ويُقصد للتنزّه والشرب، ولا يخلو من قاصد وطارق، وهو من البقاع الحسنة النَّزِهة... إلخ..**

حُـــثَّ المــدام فـــإن الكـــأس مترعـــة ... ممـــا يهـــيج دواعـــي الشـــوق أحيـــانا

إني طربـــــــت برهبـــــــان مجاوبـــــــة ... بالقـــدس بعـــد هـــدوء الليـــل رهبـــانا"

المقصود بالقدس المذبح، القدس في داخل الكنيسة هو مكان الذبح.

يقول: "**كان أبو علي ابن الرشيد يلازم هذا الدير ويشرب فيه، وكان له قيان يحملهن إليه ويقيم به الأيام، لا يفتر عزفًا وقصفًا** –القصف هو الغناء والمقصود– **وكان شديد التهتّك**"، يعني شديد التعري، يتعرّى وتصبح جلسات عري كاملة، فيتعرى فيه من فيه، الرجال والنساء!

وانظر لهذه الكلمة التي سنقولها تبين لك النظرة الاجتماعية للدير، نظرة المجتمعات المسلمة للدير، يعني الآن لو في بلد وقالوا: فلان يذهب لمكان كذا؛ إما أنه مكان عظيم فيُعظّم، كما يقول الناس ذاهب للحج فيقولون هذا إنسان عابد، وإما أن يذهب إلى الجامعة فيقولون هذا إنسان متعلم، وإما أن يذهب إلى مكان من أماكن العهر والفجور فهذا ساقط اجتماعيًا، حتى نعرف ما معنى الدير لمن تردّد عليه، هل هو إنسان محترم؟ انظر إليه.

وهنا هو ينسب القصة أن أحد أبناء الخلافة ذهب للدير، فالوالي ماذا فعل معه؟ قال: جاء وضربه لأنه من أبناء الخلفاء، أو من عائلة الخلفاء، وبغض النظر عن القصة تصح أو لا تصح لكن ما يهمنا هو الجانب الذي أراده، قال –هذا الوالي يقول–: "**إن أمير المؤمنين لم يولّني خلافته حتى أضيّع الأمور وأهملها، ولا حتى أدعك وغيرك من أهله تُعرّونه وتفضحونه**"، انتبه من الذي كان يذهب إلى الأديرة؟ أشراف الناس؟ العلماء الكبار؟ من يذهب إلى الأديرة؟ قال: "**وتخرجون إلى ما خرجت إليه من التبذّل والشهرة وهتك الحرمة وإخراجهن إلى الديارات والحانات**"؛ يعني الذهاب للحان يعادل الذهاب إلى الدير، أو الذهاب إلى الدير يعادل الذهاب إلى الحان، هذا حتى نعرف معنى الدير في الحالة الاجتماعية.

وهذا ممكن يفيد دارسي علم الاجتماع؛ لماذا نشأت الأعياد الشركية في الإسلام؟ هذه مسألة مهمة، خاصة أول عيد شركي ظهر في الإسلام هو عيد النيروز، النيروز معناه الربيع، وهو اسم فارسي، فإذا جاء الربيع خرجوا. فلماذا نشأ هذا العيد؟ أنشأه الناس من أجل التهتُّك!.

الأصل في العيد أنه مسألة تعبّدية، العيد في الإسلام مسألة تعبديّة، ويقوم فيها الناس من العبادات العظيمة من الصلاة والتكبير والنحر إلى غير ذلك، فهو عمل تعبّدي، مع ما في ذلك من أكل وشرب وذكر لله، (أيام منى أيام أكل وشرب وذكر لله) ففيه ذكر لله وفيه تعبّد. الناس يريدون الانفلات من الطاعات، ولا يستطيعون في عيد الأضحى وعيد الفطر، فماذا يفعلون؟ أحضروا عيدًا آخر، ما العيد الذي يلائم هذا؟ عيد النيروز، فيريدون أماكن ليذهبوا إليها، فوجدوا الدير أعظم مكان لعيد النيروز!

إذًا لماذا نشأت الأعياد الشركية؟ من أجل التهتّك ومن أجل الخروج عن الشريعة والفساد، لكن أين وجدوا ضالتهم في هذه الأعياد؟ في داخل الأديرة.

وكثير من الأديرة تُذكر في هذا الكتاب أنها مكان للاحتفال بعيد النيروز، نقرأ لكم نصًا يخدم هذه القضية، قال: "**قال أبو عبد الله بن حمدون: كنا عند المتوكل في يوم النيروز والهدايا تُعرض عليه وفيه تماثيل من عنبر وكان شفيع الخادم واقفًا.. إلخ، فذهبوا به هذا اليوم إلى الدير**".

لنرى حال الدير في أعياد النصارى، النصارى الهم أعياد، نقرأ نصوص بعض الأخبار عن هذا.

يقول: "**دير أشموني**"، لماذا سمي بهذا الاسم؟ يقول: "**وأشموني امرأة بُني الدير على اسمها ودُفنت فيه، وهو بقطربل، غربي دجلة وعيده اليوم من الثالث من تشرين الأول، وهو من الأيام العظيمة في بغداد، يجتمع أهلها إليه، كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم** -يعني من المسلمين-، **ولا يبقى أحد من أهل التطرّب واللعب إلا خرج إليه، فمنهم في الطيارات** -الطيارات يعني السفن-، **ومنهم في الزبازب والسميريات، كل إنسان بحسب قدرته. ويتنافسون فيما يظهرونه هناك من زيهم، ويباهون بما يعدونه لقصفهم، ويعمرون شطه وأكنافه وديره وحاناته، ويُضرب لذوي البسط منهم الخيم والفساطيط، وتعزف عليهم القيان فيظل كل إنسان منهم مشغولًا بأمه، ومكبًّا على لهوه، فهو أعجب منظر وأطيب مشهد**"، فهذا حكمه أنه أطيب مشهد!.

وهذا دير أشموني ما زلنا معه، انظر كيف يصير لبعض المعاصي طقوس، كما للقراءة طقوس، وللعبادات طقوس وظروف، متى يصير عندهم طقوس لشرب الخمر في الأديرة؟ يقول:

"**وللشرواني فيه: اشرب على قرع النواقيسِ في دير أشموني بتغليسِ**"

متى توقيت الشرب؟ لما تُضرب النواقيس يصير متوافقًا شرب الخمر مع ضرب النواقيس!

هنا نص جيد، يقول عن "دير العذارى": "**دير العذارى كن ديرًا للرواهب السريانيات في بغداد، هي قطيعة النصارى حيث كانت بيعة مالتوا للسريان،** -البيعة يعني مكان التعبد-، **وذكره العلامة ابن العبري في أحداث سنة ١٢٠٠ ميلادي، وسماه دير الأخوات، وقال: إن قومًا..**" وهذا جيد أن نذكره، لأن بعض الأديرة وبعض بِيَع اليهود في تاريخنا الإسلامي المتأخر كانت مكانًا سيئًا يذهب إليه بعض الناس للتطبُّب وللرقية الشركية، يعني اليهود السامرة -مشهورون في فلسطين قديمًا قبل قيام دولة يهود-، كان الناس العوام يذهبون إليهم للرقية، يرقونهم الرقيات الشركية من أجل الأولاد ومن أجل كذا وكذا، يُذهب إليه

من أجل بعض الأعمال، هذه للأسف دخلت على عالم الإسلام هذه الفئة. وكذلك الأديرة كانوا يذهبون إليها للتطّبب، وعند العوام قصص كثيرة، لا نريد أن نعرّج عليها، ماذا يفعلون بالنساء المسلمات هناك اللواتي يذهبن للتطّبب والرقية، يعني قصص معروفة عند العوام، لو واحد عنده جدّ ممكن يسأله فيُعرّفه عن آبائنا، وهذه من الاعتقادات التي سرت في المسلمين.

قال: "**وسماه دير الأخوات فإن قومًا من السوقة** –يعني اللصوص والفاسدين– **حاولوا نهبه، ثم ولوا عنه هاربين لنبأ أتاهم أن خلقًا من الأوباش هلكوا في حريق نشب في البيعة المذكورة بفعلهم**"، لهم كرامات! وهذه من الاعتقادات الباطلة التي صارت عند المسلمين بسبب هذه الأماكن. والكلام عن نساء الدير كثير.

الكتاب هنا تستطيع أن تجد تعظيمه إذا وضع قصصًا تعظّم علي توازي قصصًا في سب معاوية، في نفس الوقت مباشرة مما يخدم قضية هذا العبيدي. وطبعًا تجدون في هذا الكتاب كذلك احتقار الخلفاء والعلماء والفقهاء، يعني إذا ذكر العلماء يُلغِّز بهم ويعطيهم الأوصاف كما تعطيهم التمثيليات القديمة، الآن صورة العالم والإرهابي والمتدين في داخل الثقافة المرئية والسينما كيف تُقدَّم؟ تستطيعون أن تجدوا هذا في الكتاب.

هذا الذي قلنا عنه "دير المجوس"، يقول: "**هو دير الماسرجيس، هذا الدير بعانة، وعانة مدينة على الفرات عامرة، وبها هذا الدير وهو كبير حسن كثير الرهبان، والناس يقصدونه من هيت وغيرها للتنزّه فيه، وهناك كروم وبساتين وشجر، والموضع في نهاية الحُسن، جامع لما يحتاج إليه أهل التطرُّب والتفرُّج...**"

يقول: "**ولابن أبي طالب المكفوف الواسطي شعر، قال فيه:**

وغـــــــــــزال مكحّـــــــــــل ذي دلال   ســـــاحر الطّـــــرف ســـــامريّ عــــــروس"

سامري معناه ليّن، هذا إذا أخذناه بمعنى الجمال، لأن ثوب سامري، يعني ثوب ليّن طري شفاف. وممكن تُطلق على شيء آخر على المعاني الخُلُقية.

قال:

"**دينـــــه الــــــمُعلَن ديـــــن النصـــــارى   وإذا مـــــا خـــــلا فـــــدين المجـــــوس**

قـــــــد خلـــــــون بظبيـــــــة تجتليـــــــه   يــــــوم الســـــبت إلى صـــــباح الخمـــــيس"

وهناك دير اسمه "**دير الشياطين**"، أين هذا الدير؟

"**وهذا الدير غربي دجلة من أعمال البلد بين جبلين في فم الوادي، له منبر حسن وموقع جليل، هواؤه رقيق لطيف، وقلايليه كثيرة عامرة الأشجار، وأرضه كثيرة الرياض وله سور على سطح هيكله يشرفه على دجلة والجبل، والناس يطرقونه للشرب فيه، وهو من مطارح أهل البطالة ومواطن أهل الخلاعة.**.".

يكفي إلى هنا.

وأسأل الله -عز وجل- أن يجنبنا أماكن الفسق والفجور، وأن يرزقنا فهمًا عن دينه وفهمًا عن واقع أمتنا.

ونسأل الله -عز وجل- أن يجنبنا شرور هذه الأماكن الفاسدة.

وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

[٢٠]

مناقشة كتاب (الأذكار) للنووي

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإياكم منهم، آمين.

هذه حلقة جديدة ولقاء جديد مع كتاب جديد في مشروع الألف كتاب قبل الممات، وهذا الكتاب كتاب جليل مع إمام عظيم. مبحثه معروف لدى العامة قبل الخاصة، لأنّه يبحث في الأذكار. وعليه ستكون لنا قراءة لهذا الكتاب وللكاتب بوجهة أخرى إن شاء الله في المنفعة.

وليس هذا من الإغراب، وليس هو من باب ما يُقال فيه: أبعد النجعة. والنجعة هي النبعة، وهي المكان الذي يقضي فيه المرء حوائجه فيشرب الماء ويطلب الكلأ. فالمرء قد يكون بجانب بيته الماء، ولكن يترك هذا الماء الذي بجانب بيته ويشق على نفسه ويذهب بعيدًا، فهذا أبعد النجعة. يعني طلب شيئًا يمكن أن يتحصّله بالقرب فذهب به أو شقّ في طلبه، فهذا من الغلط.

ولكن بلا شك أن هذه محاولة لقراءة هذا الكتاب ضمن سياق أهل العلم في مباحثهم. وقبل أن نخوض في هذا الكتاب علينا أن نعرّج بالخصوص على ما ينفعنا من الكتاب والكاتب في موضوع فن القراءة.

وهذا أشرت إليه بعض الإشارة في كتاب فنّ القراءة، ولكني هنا أفصّل في هذه النقطة لأهميتها. منفذ هذا الموضوع هو معرفتنا لمصنف هذا الكتاب وهو الإمام النووي -رحمه الله-. هذا الإمام النووي -رحمه الله- شخصية عظيمة عجيبة، وعليها كثير من الظلال التي ربما تحتاج إلى إزالة من أجل النفاذ إلى داخلها على الحقيقة.

بمعنى أن الصورة عندنا للإمام النووي هي صورة الإنسان الهادئ الدمث، وهي صورة حقيقية وهو هادئ حقيقة، وليس له قرع الكتائب كما يُقال في بعض أهل العلم الذين شهد عصرهم وشهدت حياتهم معارك ضد الخصوم. فلذلك لو سألت أي

سائل طالب علم أو شاديا للعلم فسألته كيف تنظر للإمام النووي يقول لك هذا الإمام العابد الذي كما قيل لم يبق إلا خصلة النبوّة ليبلغ الكمال، ذلك أنه عالم، زاهد، آمر بالمعروف وناه عن المنكر، فاجتمعت فيه خصال الخير جميعها، وحياته شهدت بهذا، ووقوفه أمام مماليك البحرية في بعض المسائل الفقهية والفتاوى التي عرضت عليه فصدّها، وخاصة قضية أخذ المكوس من الناس من أجل تجهيز الجيوش ضد التتار.

وهذه فتوى شهيرة له وقف فيها وحيدًا ضد فتاوى العلماء الآخرين بإجازة جبي الأموال من العامة، وقال لقطز أجيز لك أن تجمع المال من الأمة على شرط أن تنفق الأموال التي في القصور، هناك أموال تُحلى بها نساء وجواري القصور عندكم، وهناك أموال عند القادة والعسكريين، وهناك أموال عند أصحاب الحظوة، هذه أموال الأمة أُخذت، فعليك أن تستنفذ هذه الأموال وتأخذها إلى بيت المال فإن لم تكف ذهبت إلى العامة لتأخذ الأموال. هذه فتوى تدل على بصيرته وليس على عزلته، وتدل على أنه يعرف الحياة وليس خاليًا عنها؛ لأن معنى الزهد كأنّه يعطي شيئا من طبيعة الانفصال عن الواقع. وهذه فتوى رجل تدل على أنه يعيش الواقع.

هذه الشخصية الغريبة تلقي بظلال علينا أن نزيل قشرتها لعلنا نصل إلى بعض المعاني مما يفيدنا في القراءة، وهي قضية مهمة جدًا. أنا أكرر أنّ معرفتنا بحياة وبطريقة الإمام النووي في الكتابة وفي التصنيف ومعرفتنا بألفاظه وكيفية كتابته تلقي لنا بمعاني مهمة جدًا في التربية.

مما يستغرب أن هذا الإمام عاش ستة وأربعين عامًا أو قريبًا منه، فعاش عمرًا قصيرًا. فيتصور الناس أنه طلب العلم مبكرًا إذ مات مبكرًا وكتب هذه المؤلفات الكبيرة الجليلة، ابن العطار تلميذه علاء الدمشقي ألّف كتابًا سماه (روضة الطالبين في ترجمة محيي الدين) وهو تلميذه وأخص الناس به، والإمام السخاوي يقول بأن كل ما تلقّاه عن محيي الدين النووي أخذه من طريق تلميذه ابن العطار، وألّف ترجمة له.

فما يُعرف عن النووي إنما يُعرف عن طريق هذا التلميذ، حتى سُمي هذا التلميذ بمختصر النووي. ونسبة العلماء إلى العلماء موجودة، ونسبتهم إلى الكتب. فبعض العلماء يُنسب للكتب، أو يُنسب للشيخ حتى يلتصق به، وهذا كذلك من هذا الصنف إذ سُمي بمختصر النووي لكثرة التصاقه بهذا الإمام. وألّف فيه مصنفًا في ترجمته وأحواله وفي أخباره.

فيقول إنّ الإمام طلب العلم وعمره تسعة عشر عامًا. وهذا في الأزمنة المتقدمة يُعتبر تأخرًا في طلب العلم؛ لأنّ العلماء الذين يُعرف عنهم كثرة التصنيف يُذكر عنهم أنهم طلبوا العلم وجلسوا في مجالس العلم وهم في الصغر. والإمام النووي يقول إن والده أحضره إلى دمشق ووضعه في المدرسة وعمره تسعة عشر عامًا. وهو من نوى، إحدى قرى حوران.

فإذن انتبهوا إلى العجب، بدأ طلب العلم وهو ابن تسعة عشر عامًا، وتُوفي وعنده ستة وأربعون سنة، إذن كم سنة طلب العلم؟ ستة وعشرين سنة فقط. يعني بذل من عمره ستة وعشرين عامًا؛ في الطلب، والتأليف، والتعليم، إلى غير ذلك. فما الذي أعطى الإمام النووي هذه الخصلة في التصنيف ومتى بدأ يصنف؟

كان أوّل كتاب صنّفه بعد ستة أعوام من الطلب. وهذا شيء لا يُقبل عند (أهل العلم)، يعني لا بدّ للرجل أن يشيب – حتى تعرفوا مناهج الناس المعاصرين في التصنيف والكتابة إذ يضعون قواعد ذهنية خاصة بهم من أجل إسقاط الخصم! بعد ستة سنوات فقط من الطلب صنّف الإمام. طبعًا يمكن للصوفي أن يفسر المسألة بطريقة عرفانية بأن هذا فتح إلهي.

لا، العلماء لا ينظرون إلى مثل هذه التحوّلات العجيبة في الشخصية وفي الحدث بدون قراءة سننية، لا ينظرون بهذه الطريقة، ولا يقبلونها، ولا يقفزون على السنن من أجل تفسيرها تفسيرًا غيبيًا.

ونحن قلنا أكثر من مرة أن البركة والعطاء الإلهي لا بد لها من وجود الأصل. وهذه القاعدة رددناها أكثر من مرة، يعني لما النبي ﷺ نبع الماء من بين أصابعه أمن فراغ أم وضع يده في الإناء الذي فيه الماء؟ فالأصل موجود، لا بد من الأصل. لما حصلت البركة في الطعام مع النبي ﷺ هل هكذا نزلت المائدة من السماء أم قال اجمعوا لي ما بقي لكم فجمعوا. فالأصل لا بد أن يكون موجودًا حتى تحصل البركة.

إذن هذا هو عالم السنن مع هذه الأمة، لا بد من وجود القاعدة من أجل أن تحصل البركة أو يحصل العطاء الإلهي بعد ذلك. إذًا ما الذي جعل هذه الخاصية في هذا الإمام ليؤلّف؟ ستة وعشرون سنة في الطلب وبدأ التصنيف بعد ست سنوات وهذه غير مقبولة عند (أهل العلم) لا بد أن يشيب عارضاه قبل أن يكتب كتابه! طبعًا هذا كلام غير صحيح؛ لأن الإمام البخاري بدأ تصنيف أعظم كتاب في الرجال وعمره أربع عشرة سنة. كتاب (التاريخ الكبير) للإمام البخاري بدأ تصنيفه وعمره أربعة عشر عامًا. لم يبلغ الشيء الكثير لكن هذا لتعرفوا بأن الذي يريد أن يضع حدودًا وقواعد للعلم يخطئ.

العلم هو الأصل، الحواشي حوله إنما هي أحوال يتقلّب بها المرء وتزيد وتنقص وتذهب وتأتي ولكن المقصود هو العلم.

عندما يأتي أحدهم ليقول لا بد من هذه الطريق من أجل أن تكون عالمًا! ما الذي فرضها؟! تستطيع أن تذهب إلى التاريخ فتحضر كمية هائلة من علمائنا لا يوافقونك ولم يمشوا في هذه الطريقة.

فليس هناك طريقة محددة يفرضها المرء على طلبة العلم ليسمي هذا عالم وهذا غير عالم بسبب الوسيلة أو بسبب الحواشي، إنما العبرة بوجود العلم. هذه قضية مهمة جدًا في حياتنا. اليوم نحن نرى إسقاطات بسبب المزيّنات والنياشين. يمكن للرجل أن يكون من أجهل الناس لكن لأنه قابل شيخًا فسلّم عليه وقبّل عارضيه وقبّل يده وحذائه صار شيخًا، وهكذا يصبح الصراع على من هو الوارث للشيخ. يقول كيف تؤلف وعمرك كذا وكذا! كيف جاز لك أن تكتب! اعرض كلامه على أهل العلم، ربما هذا الكلام أفضل من كلام من شاخ.

هذه نقطة انتهينا منها.

النقطة الثانية في الشخصية هي كيف صنّف هذا الإمام؟

يقول الأسْنَوي في شرحه لطريقة النووي في التصنيف أن التحصيل عند النووي هو التصنيف، وأن التصنيف الذي أحدثه إنما مرده أنه كان يحصّل العلم بما صنّف. كيف؟ هذه إحدى طرق فن القراءة، وهي من أعظم طرق فن القراءة، وهو أنك لا تقرأ فقط ولكن تصنّف فيحصل لك العلم.

فقط البارحة قابلت رجلًا معه عشرة قراءات، قال والله ما تعلمت القراءات إلا لما بدأت أعلّمها. قال عندي ستة شيوخ في القراءات لم يتركز شيء عندي من القراءات، ولكن الذي جعلني أتقن القراءات هو أنني بدأت أعلمها. هذا منفذ لما فعله النووي، وهو أنه كان يحصّل العلم بالتصنيف. لكنه في بيئة تحترم العلماء، فإذا كتب يخشى أن يكتب الغلط فيذهب فيحقق في كل مسألة يصنّف فيها، يذهب فيتعلم، كيف يتعلم؟ يذهب ليحقق في المسألة.

يريد أن يعرف ماذا يقول أهل العلم في المسح على الخفين -لنبقى في مسألة الفقه التي برّز فيها الإمام النووي- فيذهب إلى هذه المسألة لا يكفي أن يسمعها ولا يكفي أن يقرأها بل يذهب ليصنّف فيها، فيبدأ في جمع أقوال العلماء، ويبدأ في جمع أدلتهم، وترجيحاتهم، وماذا قالوا في كل مسألة، وكيف ردوا على بعضهم البعض، والرد على الرد، فيصنّف، هو صنّف بشيء موجود أم أنه أوجد شيئًا مفقودًا عنده في التصنيف!؟ فحصّل العلم بالتصنيف.

وقد مارسها علمائنا. مثلا كتاب (المستدرك) للإمام الحاكم، دائمًا يقولون واختصره الذهبي، لماذا اختصره؟ هو اعترف أنه اختصره ليتمرّن. هو درس علم الحديث، ودرس مصطلح الحديث فأراد أن يطبّق قراءة هذا المصطلح على نص، فذهب إلى (المستدرك) وبدأ يدرس، وله تخريج كبير، والذي جاء فقط المختصر، فهو له تخريج كبير للمستدرك لكنه جاء إليه وعلّق عليه، فانتهينا إلى أن نجد وافقه الذهبي، صحيح أو كذا، فقد اشتغل شغلًا كبيرًا من أجل أن يحصّل. فبم بلغ العلم؟ بالتصنيف.

وصار هذا الكتاب مصنفًا يقرأه طلبة العلم وينظرون إليه. ويقع في هذه الطريقة عند الابتداء شيء من الطرب وشيء من العجب، وهذا الذي دعا الأسْنوي أن يقف عند النووي كيف هو مرات يتكلم فيطرب، ومرات يأتي بالعجائب.

نذكر نص الأسْنوي حتى تتضح المسألة فهذه من أفضل طرق تحصيل العلم، قال الأسْنوي في شرحه على الروضة والرافعي: "وقوع هذا للشيخ محيي الدين النووي أكثر وذلك أنه لما تأهّل للنظر والتحصيل رأى من المسارعة إلى الخيرات أن جعل ما يحصله ويقف عليه تصنيفًا. العالم يقول المسألة الفلانية وفيها كذا وكذا وهو يذهب إلى الكتب فيرجع إليها وعلى ضوء ذلك يصنّف، فكثرت تصانيفه.

فإذن تصانيفه هي علومه التي حصّلها فترافق التحصيل مع التصنيف.

الآن أنا أشعر أني لما رأيت هذا أنه بالفعل أول قشرة قد زالت – أن صورة النووي عندنا رجل زاهد عابد يعني "على البركة" وأظن أنها صورة عند كثير من الناس– لكن من الواضح أنه رجل عظيم ذكي وصاحب فهم ويعرف كيف يعمل، فهذا يدل على أنه أتقن وسيلة في أن يبلغ درجة العلماء في التصنيف عن طريق التحصيل. الأمر كبير، تسع عشرة سنة لا بد أن يلحق غيره من العلماء، هذا يدل على أن الإمام النووي ذكي يدرك حاله ووضعه الخاص.

طبعًا في عمر تسع عشرة سنة يجب أن يعرف المرء أنه فاته عصر الحفظ. عليك أن تدرك أن وقت الحفظ قد فاته، ست سنوات ماذا يستطيع أن يحفظ فيها؟! تبقى له بعض المحفوظات التي اهتم بها مثل المهذّب للشيرازي، فقد ذُكرت له، لكن عصر الحفظ الأول قد ذهب، فكان اهتمامه بالمعاني فأنتج هذه الكتب العظيمة وهو يصنف ويكتب. ولذلك كان في وقت واحد يشتغل في مشاريع كثيرة، ولأن عمره قصير لم يتمها.

فشرحه على مسلم لم يتمه، والمجموع لم يتمه، وشرحه على البخاري لم يتمه. لكن من الواضح أنه كان يريد أن يكون في هذا الباب وهذا الباب ويحصّل في كل مسألة، كان يذهب إلى الحديث لا من أجل أن يقول ما عنده ولكن ليكتشف ما عند

النصّ ويستنطقه ليستفيد وهذه الاستفادة يكتبها، فتصبح كتابًا من عنده، فيُمدح هذا الكتاب، وهذه القضية عجيبة من الشيخ.

النووي له كلمة اعترف بهذا في مقدمته على المجموع، يتحدث عن كيفية تصنيف المجموع، والمجموع هو شرح للمهذب، وقد قال أنّ شرحه ليس شرح المهذّب بل شرح للمذهب. هو قال أنّ ما أعظم من شرح المهذّب هو شرح المذهب، يعني مذهب الإمام الشافعي، وما أتم تصنيفه، انظر كيف يكشف سرّ نفسه العظيمة.

يقول النووي: "وينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهّل له"، التصنيف الذي يفهمه الناس على أنه إظهار ما عندك، ولكن انظر إلى ما يقول: "فبه يطّلع على حقائق العلم ودقائقه لأنه يضطره إلى كثرة التفتيش والمطالعة، والتحقيق والمراجعة".

وبعد ذلك في ختام الكلام قال: "وبذلك يصبح الرجل مجتهدًا". يعني بعد التصنيف يصير مجتهدًا. وفي نهاية الكلام يقول "وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد".

والناس عندهم المجتهد هو الذي يكتب، وهو يقول لا، إذا كتبت على ضوء هذه المعاني من التفتيش والتحقيق والمراجعة والبحث حينئذ تصبح مجتهدًا.

فهذا تفسير لكلمة قلتها وأكررها: الكتابة ليست وضعًا لما هو موجود ولكنها حفر للذات. إذا كانت كتابة ذاتية فهي حفر للذات، وإذا كانت للتحقيق فهي حفر للكتب. الكتابة عملية حفر واستنباط. كما أن الناس يستنبطون بالسماع، يجلسون عند العلماء للسماع ثم الاستفادة، كذلك عليهم أن يذهبوا لأنفسهم فيحفرون فيها، ومن ذلك حفرهم في الكتب.

وإذا كتب المرء بهذه الطريقة استقرّت عنده العلوم، بخلاف من يسمع فقط. لو ذهبت إلى مسألة أنت حققتها تجد نفسك تحفظ رجالها وتحفظ مسائلها لأنك درستها وحققتها، أكثر منه لو أنك سمعتها، وهذا أمر مقرر.

الإمام ابن حزم توفي سنة ٤٥٦هـ، والإمام النووي توفي سنة ٦٧٦هـ، والغزالي توفي سنة ٥٠٥هـ. ومعرفة الطبقات مهمة في معرفة وفاة الرجل.

هذه نقطة مهمة في فن القراءة في أن من أعظم طرق القراءة في مسائل العلم والفقه ومسائل الخلاف وهو أن تقرأ وتبحث وتقارن وتفتش وتكتب، ولا بأس أن تكتب. وحينئذ أنت ترتقي، فيمكن أن تخطئ، والعلم مثل قضية التربية، تخطئ وتصيب، ويراجعك الناس، وأنت تقول القول وترجع عنه غدًا، وهذا هو طريق العلم.

فمن أجل هذا كثرت كتب النووي. إذن هو ست وعشرين سنة يحصّل ويصنّف، فجعل التصنيف طريقًا للتحصيل، أو جعل التحصيل سبيله في التصنيف.

النقطة الثانية في الموضوع وهي أننا ندرك بعد هذا الأمر أن النووي رجل عابد، وللذكر نحن في الأسبوع الماضي كنا نتكلم عن (الديارات)، أنا كنت أريد أن أختار الأسبوع القادم (الدارس في تاريخ المدارس)، لأن الذي يقابل الديارات فيما تكلمنا عنه المدارس الإسلامية التي أنشأها علمائنا وأنشأها ملوكنا المسلمون وماذا كان فيها من العلوم، وماذا كان فيها المكتبات، وما كان فيها من مفاخر، لكن نؤجل هذا الكتاب والكتاب القادم سيكون كتاب المنقذ من الضلال للغزالي.

نرجع للنووي، النقطة المهمة جدًا في الباب وهي أن هذا الإمام بلا شك فيه نفحة إلهية، بمعنى أن الله -سبحانه وتعالى- بارك لكتبه، ووضع لها القبول، ولذلك انتشرت هذه الكتب. وهذه الكتب ليست فريدة في تصنيفها، ولكن وُضع لها الانتشار. يعني الآن من يجهل كتاب (رياض الصالحين)؟ هو كتاب منتشر، ولا بد لكل أحد في بيته أن يرجع إليه.

كتاب الأذكار الذي بين أيدينا، (التبيان في آداب حملة القرآن)، كتبه مشهورة ومعروفة، وله كتب في الرجال، وله كتب في مصطلح الحديث، وله مصنفات كثيرة. يعني هذا إمام عظيم، فلا بد أن نعترف كما يقول علمائنا عندما يأتون للورقات للجويني ويحسبون أكثر من ستين شرحا لها، حتى أنّ بعضهم نظمها شعرًا، هذا لا بد فيه شيء. يعني لم يكن هناك صراع على العقول في زمانهم، يعني لم يكن هنالك المؤسسة الفلانية التي إذا رعت الشيخ صار مقدمًا، وإذا أماتته مات - مثل المغنيين اليوم - إذا تبنّته مؤسسة يصير مشهورًا، وإذا أماتته المؤسسة مات واندثر.

إنما علمائنا على طريقة عبد الرزاق الصنعاني لما حجَّ -وذُكر هذا في ترجمته- فحجّ من صنعاء لمكة، فانتظر أول يوم أن يأتيه التلاميذ ليسمعوا منه الحديث، فما جاء أحد. وثاني يوم انتظر أن يأتيه طلبة الحديث، وطلاب الحديث، وعلماء الحديث فلم يأتوه؛ فوقف إلى الكعبة فقال يا رب أ كذّاب أنا حتى لا يأتيني أحد.

ففي ثالث اليوم ما وجد أحد متسع لمكان على باب بيته وعلى مجالسه، فهذا وضع إلهي ولا شك. لأن الرجل يقول ما قدر أحد أن يكذب على رسول الله ﷺ في السحر إلا أصبح الناس يقولون فلان كذاب، فهو قال كلمته والله -عزَّ وجلَّ- ردّ عليه بأن قذف القلوب إليه، سبحانه جلّ في علاه.

فمن هذا الدين أن يضع الله -سبحانه وتعالى- القبول لكلامه في قلوب الناس، وأن يصبح كلامه منتشرًا، وله فضل وذكر، ويسيرا بين الناس، هذا ليس بفعل مؤسسة، وليس بفعل كذب ودجل وإعلام ومال يُنفق حوله، إنما هذا بوضع إلهي. هذا الدين لا يقوم إلا على الإخلاص.

ومن هنا فإن الإمام النووي -رحمه الله- لا بد أن نعترف أن انتشار كتبه كان لشيء إلهي فيه، يعني أنّ الله أراد أن يبارك فيها، والناس يحبونه ويحترمونه، ولو انتقدوه لا يستطيعون أن يذهبوا بعيدًا. يعني إذا الناس ردّوا عليه فقالوا أنّ فيه بعض أشعرية، لكنهم لا يستطيعون أن يحرقوا كتبه لهيبته وعظمته، الإمام النووي إنسان عظيم، لو ردّوا عليه في بعض المسائل يردون عليه بالعلم وبالاحترام وبالتقدير، فهي شخصية كسبت القلوب. فحتى لو أراد خصم أن يضربه فإنه يراعي العوام والعلماء الذين يحترمونه.

يعني لو جئنا لشخصية أخرى مثلًا كالسبكي، السبكي عالم من علماء الأمة العظام، لكن ربما تجد مثلًا لخصومته مع شيخ الإسلام ابن تيمية يجرؤ بعض الناس على زيادة العيار ضده، لكن هو نفس الشيء، ما عند السبكي هو عند النووي، والأشعرية التي عند السبكي هي الأشعرية عند النووي، والشافعية عند السبكي هي الشافعية عند النووي. لكن بلا شك أنهم لا يقدرون على النووي كما يقدرون على السبكي، كون السبكي حاربه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-.

هذا مهم جدًا وهو أنه من أراد أن ينتشر أمره بين الناس فلا ينتشر إلا بالحق، ومن الحق ألا يطلب الظهور، بل هو يكتب لله، ونفعًا للأمة، ومن أجل أن يتقرب إلى الله بما يكتب. يخلص لله ويتقرّب إليه بهذه الكتابة، وألا يهتم للناس مدحوه أو ذموه أو قبلوه أو رفضوه، فمن الإخلاص أن يكون في قلبه كذلك، كما قال ابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم فله كلمة بأن الشيء لا ينبت حتى يُدفن.

هل الشيء ينبت قبل أن يُدفن؟ لا بد أن يُدفن هذا الشيء حتى ينبت، فأول شيء لا بد أن تدفن نفسك.

حتى لا بد أن تهلك نفسك بمجاهدتها بأن تذهب عنها كلمة "الأنا". كلمة "الأنا" صنم ووثن، يجب أن تجاهد نفسك كما تجاهد عدوك، وهذه "الأنا" تدفنها، فإذا دفنّتها على الحقيقة وليس الكذب والدجل كما يضع بعضهم على الكتب "أحقر من ترى وأفقر من في الورى" ولو لم يسلم عليه أحدهم لضربه بالنار. فعليه أن يدفن نفسه من أجل أن تنبت.

النقطة الثالثة في موضوع القراءة هنا وهي أننا أمام قراءة تعبّدية لا بد أن يكون لها طقوسها. يمكن أن يكون هناك تقصير في كتاب فنّ القراءة في القراءة التعبدية، هذا الكتاب "الأذكار" هو من حكمة القرآن. يعني النص النبوي هو من حكمة القرآن، وفرع من القرآن. والقرآن هو أعظم الكلام، وبالتالي قراءته أعظم القراءة. ولننظر إلى هذا المعنى في قراءة القرآن:

أول معنى في المعاني الجليلة عندما يكون الكلام عظيمًا وأعظم كلام هو كلام الله، نطبق هذا المعيار وننزل به على كلام الناس بكثرة العظمة أو قلتها، فعلينا أن نطبّق هذا الكلام، كيف؟ الآن نحن علمنا أن الكلام العظيم يعطيك بمقدار إقبالك عليه، الكلام الضعيف والهزيل تأتيه وقد نوّر فتخرج عنه وقد ذهب. وأنا وصفت لكم إياه مثل العلكة. الكلام الضعيف الذي ليس له قيمة مثل العلكة، تأكلها أولًا تجدها حلوة، ثم بعد ذلك تصير كالجلدة فترميها.

فالكلام العظيم كلما أتيته أعطاك، وأعظم الكلام هو كلام الله، لا يخلق من كثرة الترديد، كلما أتيت إليه وجدته أعطاك من العلوم. وبالتالي الكلام العظيم ميزانه هو الذي يبقى متجددًا في العطاء، وهذا يوجب علينا قراءة ما.

ما دام أن معنى الكلام العظيم هو ما يقدم إليك الغذاء كلما أتيته هذا يوجب عليك القراءة. هذه قاعدة من قواعد القراءة، لا يجوز لك أن تقول هذا كتاب قرأته وفرغت منه. إلا إذا كان كتابًا من كتب العلكة، يعني كالقصة أو الرواية من الكتب الجديدة أو خبر جريدة، يعني يمسكها بعض القراء وبعد ذلك يرمونها ويضعونها للأكل وللشرب، وإن كان هذا لا يجوز لأن اللغة شريفة والأساس أنها وضع إلهي وتوقيفي لا يجوز إهانتها، حتى اللغات الأخرى لا يجوز الأكل عليها ولا إهانتها، لكن الناس يفعلون.

فإذا كان الكلام بهذه القيمة انتهينا منه وهو كلام قديم فحينئذ يصح ألا ترجع إليه، لكن إذا كان كلاما لأهل العلم فعليك أن تعود إليه مرة بعد مرة، لا يجوز لك أبدًا أن تقول هذا كتاب انتهيت منه وتضعه ولا تعود إليه. وكلما كان الكتاب ضروريًا ومهمًا عظيمًا عليك أن تكثر العودة إليه. وهذا أول ما يُطبق على القرآن، عليك أن تعود إليه في كل يوم. ويكفي أن من ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب.

هؤلاء الذين يزعمون أنهم ينتجون علومًا وينتجون معارف وينتجون حكمة من بيوتهم الخربة ولا قرآن فيها هؤلاء كذابون، ينتجون كلامًا هدر كما يسميه الجزائريون، كلام شوارع، كلام مساطب كما يقول المصريون، لا قيمة له. الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب. فعليه أن يعود إلى القرآن مرة بعد مرة.

هذه القاعدة نطبقها على أول درجة بعد القرآن وهي الحديث. من هنا قراءة التعبد للنص النبوي توجب إليك أن تعود إليه مرة بعد مرة. هذا كتاب (الأذكار) هو كما وصف الإمام أحمد إمامه الشافعي لما قال عبد الله لأبيه أحمد: يا أبتي مالي أراك تكثر الدعاء للشافعي؟ يدعو له كل يوم. فقال: يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، فهل عنهما غناء؟

هذه كلمة ليس لعظمتها، ولكن لأن الناس العظماء يعرفون بعضهم البعض. أحمد لا ينظر للشافعي أنه منافس، ولا أن إسقاطه يدعو له وقال له هذا كالشمس للدنيا، هل يمكن للدنيا أن تستغني عن الشمس؟ وكالعافية للبدن، هل البدن بغير عافية يستطيع أن يتحرك ويمشي ويقوم بواجباته وأعماله؟ فهذا الشافعي هو هكذا. هذه الكلمة يقولها هذا الإمام عن هذا الإمام العظيم، وفي الحقيقة أحق الناس بهذا الوصف هو الحديث النبوي. الشمس كل يوم تشرق أم لا؟ والعافية البدن كل يوم تأخذ لها طعام أم لا؟ وكل يوم تذهب إلى الخلاء حتى تنقي البدن من الأوساخ والقاذورات والأمراض.

فلذلك القراءة الدينية القراءة التي فيها معاني التعبد لا بد أن تعود إليها مرة بعد مرة، ولذلك هذه ضرورة الأفكار. لأن مسألة العلم في القرآن مربوطة بمسألة الإيمان. ولذلك لا بد أن نقرن العلم بالإيمان، العلم بما يقوله النبي ﷺ مقرون بالإيمان، والإيمان هو قول وعمل. فلا بد من العلم من القول، لا بد أن تبقى مكررًا دائمًا للنص النبوي. كلما أشرقت الشمس، كلما أفقت من نومك، كلما أردت أن تنام، كلما أردت أن تأكل، فأنت تعيش حال التعبد. هذه هي قراءة التعبد، القراءة التي تشعرك دائمًا بعبوديتك لله في كل يوم.

وربط الله -عزَّ وجلَّ- لكل كلمة تقال معنيان؛ المعنى القدري المتحقق بها، والمعنى العلمي الذي هو يلزمنا الآن في باب فن القراءة. الآن لما تخرج من بيتك وتقول بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يتنحى عنك الشيطان ويقول كيف لكم برجل قد كُفي وعُفي، فهذا أمر قدري تحقق به، غير الأجر الأخروي، لكن تحقق بهذا الذكر أمر قدري.

ولذلك العلماء لما جاؤوا إلى قوله (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) كما شرح ذلك ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية قال هذه الكلمات الكونية. يعني الله -عزَّ وجلَّ- يجعل بكلماته التي تقولها الشرعية يجعل كلمات كونية حفاظًا،

تقوم، وتعطيك، وتمدك، وتقوي بدنك. أحدهم يسأل كيف أنا أقوم الليل فيقوى بدني؟ هذا عالم من الغيب، هناك ملائكة وغيرهم.

لما الشيطان يحول عنك وأنت تبقى بينك وبين الشيطان لأن الشيطان جزء من تدميرك، هو جاء من أجل أن يدمرك. وأعظم شيء في الشيطان هو أن يمنعك أولًا من الانطلاق، فإذا أبيت الانطلاق جعل انطلاقك للشر، وهذا شرحته في سورة الإسراء. قال الله تعالى: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}. الشرك والمعصية أول طريق للشيطان أن يجعلك تقعد، لا تنطلق، ولا تتحرك.

ولكن بعدها قال {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ} أولها لمنعك من العمل الصالح، والثانية {فَتُلْقَى} لأن الشرك لا يدفعك إلا للعمل الفاسد.

هذه قراءة تنير لك الحياة، وهذه قراءة تدمر القراءة الفاسدة، والشرك بالله قراءة فاسدة وهو حكم على الوجود بغير ما فيه. ما هو الجهل وما هو العلم؟ خلاصة العلم وإن كان نهايتهم كما قال الرازي هو شيء في النفس مفهوم لا يحتاج إلى تعريف، لكن أغلبهم يقول إن العلم هو اعتقاد الشيء على ما هو عليه. الآن الشرك هو ماذا؟ اعتقاد الشيء على غير ما هو عليه. إذًا ما هو الجهل؟ ألا تعرف الشيء. لكن الجهل المركب هو أن تعرف الشيء على غير ما هو عليه. فالجهل هو ألا تعرف الشيء، لكن الشرك أن تعرف الشيء على غير ما هو عليه فهذا جهل مركب.

ومقصود القراءة هو تحصيل المعرفة، المعرفة يعني العلم؛ أن تعرف الشيء على ما هو عليه. فأول شيء في موضوع الذكر كونها أولًا قراءة تخرجك إلى العمل، لأنها تمنعك من قضية {فَتَقْعُدَ} فالشرك يثبّط إرادة العمل التي فيها صلاح الوجود. وصلاح الوجود لا تبنيه الكلمات، الكلمات لا تبني عمارات، الكلمات لا تقدر على المشركين، الكلمات لا تهدم الأصنام، الكلمات تبني العقائد من أجل أن تدفع الإرادات للعمل.

الكلمات تنشئ العقائد، والعقائد تصنع الوجود، تقيمه وتحركه. {فَتَقْعُدَ} فإن القعود مقصد من مقاصد الشيطان في الشرك.

إذًا المقصد الأول هو تحقيق الأمر القدري، انتهينا منه. نحن قلنا لمقصدين: القراءة الدينية التعبدية. المقصد الثاني في الباب وهو تحقيق العلم.

أولًا تحقق لك الجانب القدري الذي تحدثنا عنه، الجانب الثاني كلما مارست القراءة كلما ازددت علمًا. وهذا الناس يعرفونه فيما شرحناه، قلنا إن قول القائل بأني قرأت الكتاب فانتهيت منه خطأ. كلما ذهبت إلى القرآن وقرأته تفتّح لك، كلما جئت للحديث وقرأته تفتّحت لك معانيه، كلما قمت بالعلم وذهبت إلى الكتاب كلما فُتح لك. لأنه طيب، وقلنا هذا ميزة الكلام العظيم، فميزة الكلام العظيم أن له أثواب متعددة.

كم عدد الأثواب؟ بعدد مرات ذهابك إليه. كم أثواب القرآن؟ بعدد قراءة القارئين له منذ أن أُنزل إلى يوم القيامة، كلما ذهب إليه القارئ حصل له معاني. والدليل الناس يبكون ما زالوا، حتى العامي يقرأ فيبكي. فلذلك القراءة الدينية لا تحقق فقط العصمة والأجر لكنها تحقق العلم، وهذا العلم هو العلم النافع.

من أجل هذا أيها الإخوة الأحبة هذا الذي ذكرناه عن القرآن فيما ذكرناه وهذه القواعد في القراءة يجب أن تُطبق في كتاب الأذكار. هذه لا ينفع معها أن تقرأ الكتاب فتعرف ما فيه، هذه يجب عليك أن تفهم أنها أن تذهب إليها مرة بعد مرة كالعافية للبدن، كل يوم تأكل، كل يوم تذهب إلى بيت الخلاء، كل يوم، لا أحد يقول مللت من هذا. الشمس هل تقول اليوم أنا اليوم لا أريد أن أشرق؟

وذلك لأن الإنسان بحاجة إلى هذه المعاني كالعافية. الشافعي علم، ولكن هذا العلم لا بد مرة بعد مرة، وهذه هي القراءة الدينية التي نحتاجها.

يكفي هذا في موضوع كتاب الأذكار، وهذا الكتاب إنما جعله الإمام للتعبد.

هناك قضية أحب أن أعرّج عليها وهي مهمة: وأنا أقرأ في رياض الصالحين ولي خبرة بـ (إحياء علوم الدين) كونه من الكتب التي في وقت من الأوقات المرء أحبها حبًا عجيبًا، وفي وقت من الأوقات رماها رميًا تامًا، والحق أن المسألة ليست لها إعجاب لدرجة الانصهار والذوبان، ولا رمي لدرجة الإنكار والرفض. ولذلك فكتاب (إحياء علوم الدين) من الكتب التي تُقرأ مرة بعد مرة، لأسباب متعددة كثيرة؛ لفاعلية هذا الكتاب إيجابًا وسلبًا في تاريخ الأمة.

والحق أني وجدت أن الإمام النووي متأثر بالإحياء، وباختصار ولا أريد أن أشدد عليها ولكن إن شاء الله يوافقني طلبة العلم إذا قرؤوه أن كتاب (رياض الصالحين) وكتاب (الأذكار) إنما مستخلص من كتاب (إحياء علوم الدين) حتى بترتيبه. وذلك أن

الإمام الغزالي في الإحياء قسّم كتابه إلى أربعة أقسام: أولًا العبادات، ثانيًا العادات، ثالثًا المنجيات، رابعًا المهلكات. تجد أن رياض الصالحين شامل للمنجيات والمهلكات، وبالترتيب.

يعني أول باب في المنجيات هو الإخلاص، ثانيًا الصبر، ثالثًا الشكر. هذا أين؟ في الإحياء، وهذا نفس الشيء حتى في ترتيب الفصول في رياض الصالحين. فليس متأثرًا فقط به ولكن حتى أنه جعل رياض الصالحين في هذا الباب على وفق هذه المعاني.

وكتاب الأذكار للإمام النووي هو كتاب العبادات. الآن لو ذهبت إلى كتاب الأذكار، وفتحت المجلد الأول سواء كان بالتقسيم الخماسي مثل النسخة الموجودة عندي، فلو ذهبت إلى المجلد الأول والذي فيه العبادات وجدت أن الأذكار التي يشرحها والعبادات التي يشرحها الغزالي موجودة في كتاب الأذكار. بل ترتيب الأذكار في كتاب (الأذكار) للنوي مرتبة على ما رتّبها الغزالي؛ كيف تبتدأ وكيف تنتهي حتى تنتهي بالاستغفار، وإن كان الإمام النووي يفسّرها لماذا هو فعل ذلك، يقول أردت أن أختم بكتاب الاستغفار من أجل أن تكون هي الخاتمة أن يغفر الله لي، لكن الترتيب موجود.

ماذا يفيد هذا؟ هذه النقطة عندي تفيد نقطتين: النقطة الأولى وهي مهمة جدًا ويجب أن تربطها في طريقة تصنيف الإمام النووي وهي أن الإمام النووي لما ألّف كتبه لم يصل لدرجة النضوج التام لينشأ فنونًا جديدة. يعني لو جئت للإمام الشافعي هل سبقه أحد في تصنيفه هذه المادة؟ هو ابن بكارتها (يقصد الأصول)، سواء من جهة العلم أو من جهة التصنيف. التصنيف يعني أن يضع الأبواب وكذا. فهو ابن بكارتها وهو إمامها، وبالتالي لا يمكن أن يؤلف هذه الكتاب على القاعدة التي ذكرناها وهي "التحصيل عن طريق التصنيف" لا يمكن أن تقع.

لأن هذا الباب من التصنيف لا يمكن أن يقع إلا بعد أن يستوفي الرجل مطالب العلوم، وأن تنضج عنده بحيث ينشئ علومًا جديدة. وحينما نرى كتب النووي -رحمه الله- فهي ليست على هذا الباب، بل نرى كتابًا هكذا هو كتاب أوجده أو كتاب وضعه على وفق آخر إنما هو يمشي على نسق الأولين. (الأربعين النووية) على نسق ما ألّفه العلماء، يشرح (المجموع) على طريقة شرح الفقهاء، ويشرح (مسلم) على هذه الطريقة، وهكذا يشرح لكنه لا ينشئ كتبًا هي في تصنيفها وفي علومها مادة جديدة.

ولا شك أنه في عصر متأخر صعب أن نطالبه بهذا المطلب، فالعصر المتأخر العلوم فيه قد وضعت قواعدها، واستقرّت معانيها، إلى غير ذلك. ولكنها تبقى حالة يجب أن ننظر إلى الإمام النووي فيها.

هذه ليست تهمة للإمام النووي، فلا يأتي أحدهم ليقول أنت صغّرت منه، لا، هذا ليس تصغيرًا للإمام النووي، ولكنها حكم على طريقته، وعلى كتبه، وعلى تصنيفه.

فهذه ماذا تفيدنا؟ تفيدنا هذه النقطة أيها الإخوة الأحبة وهذه النقطة قالها الشاطبي في الموافقات، وعاب على الذين يزعمون ويفتخرون أنهم حين يؤلّفون لا يرجعون إلا إلى صدورهم، يقول هذا عيب، لماذا لا يرجعون إلى الكتب الأخرى. يقول لا بد للعالم أن يرجع إلى الكتب، ما دام قادرًا على ذلك فعليه أن يرجع إلى الكتب ويعترف أنه استفاد وأخذ، بل لا يمكن للعالم في أصول ما أن ينشئ علمًا إلا إذا ارتكز على القواعد الأولى، ولكنه يزيد هنا وينقص هنا ويفعل هنا بحسب ما يريد أن ينفع به الأمة.

والإمام النووي لا يقول أنا ابن بكارة هذه العلوم، بل حين جاء إلى الأذكار اعترف قال أخذتها من كتاب النسائي. وهم يقسمون كتب الحديث إلى قسمين؛ كتب أصول، وكتب فروع، وهذا شرحناه من قبل.

كتب الأصول هي التي تذكر الحديث بسنده كالبخاري يذكر حديثًا منه إلى قائليه إلى النبي ﷺ أو إلى الصحابي، وهكذا مسلم، وهكذا أبو داود.

لكن هناك كتب الفروع وهي على طريقة (رياض الصالحين) يجرّد الأسانيد وينسبها، ويزيد عليها كما يقول أنا أخذت هذه وصنعت فيها صنيعًا أني حكمت على الأحاديث. ليس هنا مجال الكلام على الخطأ أو الصواب، هذا فعله العلماء من قبل، وحقّقوا هذا الكتاب، وخرّجوا أحاديثه. يعني هناك الإمام ابن حجر العسقلاني -رحمه الله- خرّج أحاديث (الأذكار) وحكم عليها بقواعد أهل العلم؛ الصحيح والضعيف إلى غير ذلك.

لكن هذا يفيدنا بأن الرجل لا يقل فضله لو أنه استفاد ممن سبقه. وهكذا هو النووي استفاد ممن سبقه، وأنشأ على غرارهم، ومع ذلك صار الفرع أكثر انتشارًا ومعرفة من الأصل. يعني الناس الآن العابدون الذين يريدون الأذكار هل يذهبون إلى الإحياء أم يذهبون إلى أذكار النووي؟ إلى الأذكار.

فهذه نقطة لا تُعاب على الرجل، وعلينا أن نفهم أن المصنفين بعد القرون الأولى من التصنيف هم يبني بعضهم على بعض، وهذا ليس عيبًا. وهذا مهم في القراءة، عليك ألا تحتقر، لأن هناك من يحتقر يقول هذه أخذها من فلان، وهذه أخذها من فلان، نعم لا بأس، لكن هل صنعها صناعة جديدة؟ هل قدّم لها؟ هل مهّد لها؟ هل زاد عليها؟ إلى آخره، فلا يُعاب هذا الباب ولكن من بركة العلم أن يُنسب العلم لصاحبه.

يعني ينبغي على طالب العلم أن ينسب هذا العلم لصاحبه، أن يقول هذه أخذتها من فلان إلى غير ذلك، ولا يظهر للناس أنه هو الذي أتى بما لم يأت به الأوائل. وقلت سابقًا بأن كتاب العلم في الإحياء قد أخذه كاملًا صاحب الجامع في طلب العلم الشريف، والناس مساكين هو أخذه بكل هيكله التام ووضع فيه كلام الغزالي ووضع فيه كلام ابن تيمية ووضع من هنا ومن هنا وملأ الحواشي في هيكل كتاب الإحياء بزيادات، والناس ظنوا أنه هو الذي أتى بما لم يأت به الأوائل، وهو مأخوذ بأصوله من كتاب الإحياء.

فينبغي على المعاصرين أن يظهروا هذا، لا أن يسبوا الغزالي ثم إذا بهم عالة عليه! لأن الغزالي في الحقيقة يعترف حتى أكابر خصومه أنه من عقلاء التاريخ، وهذا لا شك فيه.

النقطة الثانية في هذا الباب وهي لماذا الإمام النووي أراد إفراد الأحاديث في كتاب الأذكار وأوردها في كتاب رياض الصالحين بتجريدها فقط بالنص، وطريقة الغزالي ليست كذلك. الغزالي يتكلم على الأحاديث، يعني هو له إنتاج ذاتي بخلاف النووي. النووي يقدم الأذكار كما هي مع زيادات في مسائل الفقه وسنأتي إلى شخصية النووي العجيبة هنا، في الأذكار فيه شخصية غريبة النووي يظهرها، سنأتي إليها.

فهو في رياض الصالحين يجرّد الأحاديث ويأتي بمسائل فقهية قليلة جدًا. لكن طريقة الغزالي تختلف، الغزالي يأتي أولًا بالموضوع ويشرحه على منواله وطريقته في الطريقة التي قال عنها علمائنا أن الغزالي أوّل من مزج الفقه بالتصوّف. ولذلك لما يأتي ابن تيمية مثلًا لبعض المسائل ويقول وهذه أجمع عليها العلماء وإن كان بعض أهل التصوّف ممن تكلموا في الفقه قالوا غير ذلك.

مثال كراهية قصّ الأظافر قبل غسل الجنابة، فالغزالي مثلًا قال من الأفضل للمسائل التي خرجت فيها التصوف عن حد الفقه أنه ليس حسنًا أن تقص أظافرك وأنت جنب لأنك تقلع الأظافر وهي جنب، فاغسلها أولًا ثم قصّها. وهذا مخالف

للإجماع، يعني يجوز للرجل أن يقص أظافره وهو جنب، ويجوز أن يحلق شعره وهو جنب، لا نقول الشعر الذي سقط منك عليه جنابة يجب تغسله! فهذا خلاف الإجماع فهو مزج الفقه والتصوف بهذا المعنى.

فهل نستطيع بعد هذا الكلام نستطيع أن نقول إن النووي (وهو معظم للغزالي) وفي كتابه روضة الطالبين في فقه الشافعية أخذ كثيرًا من كتب الغزالي الثلاثة، والغزالي وضع ثلاثة كتب في فقه الشافعية هي مرجع مذهب الشافعية، هي البسيط، والوسيط، والوجيز. البسيط يعني الوسيع ليس معنى البسيط أنه سهل، البسيط من البسط وهو الكثرة. فأعلاها هو البسيط، وأصغرها الوسيط، وأقلّها هو الوجيز.

ففي روضة الطالبين لما تقرأ لا تجد مسألة إلا وقد أخذ من الغزالي من كتبه، فهو معظم للغزالي. لكن هل صحيح أن الإمام النووي أراد بهذه الكتب أن يضع كتبًا سنية مقابل الفقه الصوفي؟ يمكن، وأنا أميل لهذا، وإن كانت قراءتي للنووي في طريقة تصنيفه ربما تمنع هذا المعنى فيما ذكرنا كيف يصنّف. ولكن مما ذُكر عنه ولا ينبغي أن تُذكر إلا لأنها ابتداء، في أنه لبس الخرقة من بعض مشايخ الصوفية.

يعني يُذكر في ترجمة النووي أنه أخذ البيعة الصوفية، يعني على الأذكار وغيرها. وهذا لا يُستبعد في بداية أمره، ولكنه الفقيه لا بد أنه قطعًا خرج من ذلك كله. فإذا قيل ذُكر في ترجمته أنه كان يزور شيخه فلا بأس بهذا، ليس فيه مشكلة. لا ينسى زيارة الشيخ الكبير الذي جاء إليه وهو صغير فبايعه على التصوف ومسح على رأسه وتنبّأ له بالمستقبل الباهر أن يعود إليه مرة ثانية فيزوره، ولكن بلا شك أن الفقه الذي عليه إمام كالنووي لا يمكن أن يلتقي مع التصوف.

وهنا يمكن أن نقول انتهينا في نظرتنا لهذا الكاتب أو المصنف والكتاب.

أنا أريد أن أقرأ نصًا لأحد الإخوة وهو يسأل عن تعزية الكافر. الغريب أن الإمام النووي وأنا كنت أظن أنه إجماع لكن وجدت بعض أهل العلم يرى الكراهة وليس الحرمة، كراهة تعزيته. ولكن الذي كنت أعلمه أنه لا أحد يخالف، ثم وجدت بعض أهل الفقه. فهو لما يأتي إلى تعزية الكافر في كتاب الأذكار لا يذكر خلافًا فيها، وإنما يذكر صيغة التعزية فأقرأها سريعًا فقط لمنفعتها في الباب وإن كانت مسألة فقهية لها مجال آخر لكن هي فرصة، ثم نأتي إلى شخصية غريبة، شخصية مقارعة في الإمام النووي، ليس كما تتصورنه ساذجًا أو سهلًا أو لينًا، بل له عبارات قاسية يقرع فيها خصومه.

في التعزية يقول: "**فصل، وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه.** -يعني يريد أن يقول بأن ألفاظ التعزية ليست توقيفية، تقول ما تحب على ألا تخالف الشرع-. **فبأيّ لفظ عزَّاه حصلت**. -وهذا من الفقه الذي ينبغي أن يُقرأ كتاب الأذكار ليس فقط من العامي ولكن على العالم أن يقرأه- **واستحبَّ أصحابنا** -المقصود به الشافعية- **أن يقول في تعزية المسلم بالمسلم: "أَعْظَمَ اللَّهُ أجْرَكَ، وأحْسَنَ عَزَاءَكَ، وَغَفَرَ لِمَيِّتِكَ"، وفي تعزية المسلم بالكافر**- يعني المسلم يعزّي مسلمًا فيمن مات من أقربائه من الكفار. يعني واحد مسلم أبوه كافر فمات، والمسلم يريد أن يعزي هذا المسلم بالكافر ماذا يقول؟ **وفي تعزية المسلم بالكافر: أعظم الله أجرَك. وأحسن عزاءَك**". -لأنه مسلم فله الأجر. وفي تعزية الكافر بالمسلم؟ واحد كافر وابنه مسلم ومات ويريد يعزي الكافر بالمسلم: " أَحسن الله عزاءك، وغفر لميّتك". وفي تعزية الكافر بالكافر؟ "أخلف الله عليك".

وهناك باب نقرأ الكثير منه إن شاء الله وهو ربما بعض الناس صنّف على منواله، قال: "**باب في ألفاظ حُكي عن جماعة من العلماء كراهتها وليست مكروهة**". هذا باب من أبواب المناهي اللفظية والألفاظ التي نُهي عنها وهي صحيحة. وأريد من الإخوة عند قراءة هذا الكلام أن يقرؤوا هذه الكلمات بوجهين: طريقة النووي في الرد عليها وشدتها. وثانيًا إما أن هؤلاء العلماء لم يصلهم النص أو وصلهم ولم يفهموه فأتوا بالمسألة على طريقة الرأي، فهموا الكلمات على معاني. وهذه نجدها اليوم عند البعض، يأتون إلى ألفاظ يقولون غير صحيحة.

قال: "**اعلم أن هذا البابَ مما تدعو الحاجةُ إليه لئلا يغترّ بقولٍ باطلٍ ويعوّل عليه. واعلم** -انتبه إلى هذه المقدمة المهمة- **أن أحكامَ الشرعِ الخمسة، وهي: الإيجابُ، والندبُ، والتحريمُ، والكراهةُ، والإباحةُ؛ لا يثبتُ شيءٌ منها إلا بدليلٍ**." يعني لما يأتي بعض أهل العلم يقول أستحب كذا، أكره كذا، لا بد من دليل، فليست على مزاجه.

" وأدلة الشرع معروفةٌ -يعني المقصود الكتاب والسنة والإجماع والقياس إلى آخره- فما لا دليلَ عليه لا يلتفتُ إليه، ولا يحتاجُ إلى جوابٍ؛ لأنه ليس بحجةٍ." انتبهوا إلى هذه الكلمة، النص لا يحتاج للجواب، المعنى أنّه إذا ورد على هذا النص اعتراض من قول أو شبهة أو قياس، فيقول بأنّ هذا لا يحتاج للجواب عليه، يقول فلو كان كذا أو افرض أنه كان كذا تقول له هذا النص، وهذه عظيمة، هذه طرق مهمة جدًا.

طبعًا كما ترون كلام أهل العلم وامتلائه بالمعاني شيء غريب جدًا. قال: " **ولا يحتاجُ إلى جوابٍ؛ لأنه ليس بحجةٍ، ولا يُشتغل بجوابِهِ؛ ومع هذا فقد تبرعَ العلماءُ رحمهمُ الله، في مثل هذا بذكرٍ دليلٍ على إبطالهِ**". إذًا ذكر الدليل على إبطاله قال: تبرع.

" **ومقصودي بهذه المقدمةِ أنّ ما ذكرتُ أن قائلاً كرههُ، ثم قلتُ: ليس مكروهاً، أو هذا باطلٌ** -يعني كلام القائل باطل-، **أو نحو ذلك، فلا حاجةَ إلى دليل على إبطاله، وإن ذكرتهُ كنتُ متبرّعاً به**". انظروا هذا هو النووي، تلاحظون هذه شخصيته في المناظرة وشخصية القراءة موجودة في داخل هذا الإمام.

" **وإنما عقدتُ هذا الباب لأُبيّن الخطأَ فيه من الصواب، لئلا يُغترّ بجلالةِ مَن يضافُ إليه هذا القولُ الباطل**". يعني كون العالم جليل وقال هذا القول لا تغتر فيه فهو قول باطل.

" **واعلم أني لا أُسَمّي القائلين بكراهةِ هذه الألفاظ**". هذه طريقة الإمام الشافعي؛ وقال لي المخالف، وناظرت أحدهم، والذي ناظره العلماء، ولكن كما قال عبد الرحمن المعلّمي لا يذكر أسماء من يناظرهم من باب التواضع. حتى لا يقول أنا نظرت فلان، من باب التواضع وأن يستر عليهم. النووي يقول حتى لا أشهّر بهم. " **واعلم أني لا أُسَمّي القائلين بكراهةِ هذه الألفاظ لئلا تسقطَ جلالتُهم ويساءُ الظنّ بهم، وليس الغرض القدح فيهم، وإنما المطلوب التحذير من أقوال باطلةٍ نُقلت عنهم، سواءٌ أصحّتْ عنهم، أم لم تصحّ، فإن صحَّتْ لم تقدحْ في جلالتهم كما عرف، وقد أضيفُ بعضُها لغرضٍ صحيحٍ: بأن يكونَ ما قالهُ مُحتملاً، فينظر غيري فيه**".

يعني ممكن يبيّن بعد ذلك أن هذه المسألة انظر إلى غيري، " **فلعلّ نظرهُ يخالفُ نظري، فيعتضدهُ نظرهُ بقولِ هذا الإمامِ السابقِ إلى هذا الحكمِ، وبالله التوفيقُ**". انظروا إلى ألفاظه في الرد.

" **فمن ذلك ما حكاهُ الإمامُ أبو جعفرٍ النحاسُ في كتابِهِ: "شرح أسماء الله الحسنى" عن بعض العلماءِ أنه كره أن يُقال: تصدّق الله عليكَ، قال: لأن المتصدّقَ يرجُو الثواب**". يعني هو يقول إن بعض أهل العلم نقل عنه النحاس في كتابه شرح أسماء الله الحسنى يقول لا يجوز تصدق الله عليك، لأن المتصدق عادة يرجو الثواب وهذا لا يجوز في حق الله. " قلتُ: هذا الحكم خطأ صريحٌ، وجهلٌ قبيحٌ، والاستدلال أشدُ فسادًا".

" وقد ثبت في "صحيح مسلم" عن رسول الله ﷺ، أنه قال في قصرِ الصلاةِ: (صدقةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فاقْبَلُوا صدقتهُ).

" وَمَنْ ذلك ما حكاهُ النحاسُ أيضاً، عن هذا القائل المتقدم ذكرهُ، أنه كره أن يُقال: اللَّهمّ أعتقني منَ النَّارِ، قال: لأنه لا يعتقُ إلا مَن يطلب الثواب". نفس المعنى.

" قلتُ: وهذه الدعوى والاستدلال من أقبح الخطأ، وأرذل الجهالة بأحكام الشرع، ولو ذهبتُ أتتبعُ الأحاديثَ الصحيحة المصرِّحة بإعتاق الله تعالى مَن شاءَ من خلقهِ لطال الكتابُ طولاً مُمِلًّا.

وذلك كحديث: (مَنْ أعْتَقَ رَقَبَةً أعتقَ اللَّهُ تَعالى بكُل عضوٍ منها عضوًا مِنَ النَّارِ).

وحديث: (ما مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرُ أنْ يُعْتِقَ اللَّهُ تَعالى فِيهِ عَبْداً مِنَ النّارِ مِنْ يومِ عَرَفة).

ومن ذلك قولُ بعضهم: يكرهُ أن يقولَ: افعلْ كذا على اسم الله؛ لأن اسمهُ سبحانه على كلِّ شيءٍ. قال القاضي عياضُ –رحمهُ الله– وغيرهُ: هذا القول غلط.

فقد ثبتت الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ قال لأصحابه في الأضحية: (اذْبَحُوا على اسْمِ الله) أي: قائلين: باسم الله.

ومن ذلك ما رواهُ النحاسُ، عن أبي بكرٍ محمدِ بن يحيى –قال: وكان من الفقهاء الأدباء العُلماء، قال: لا تقُل –وهذه منتشرة هذه الأيام من بعضهم–: جمعَ اللهُ بيننا في مستقرِّ رحمتهِ –على أساس الرحمة صفة للذات، ومستقرها في ذات الله–، فرحمةُ اللهِ أوسعُ من أن يكونَ لها قرارٌ، قال: ولا تقُل: ارحمنا برحمتك.

قُلتُ: لا نعلمُ لما قالهُ في اللفظين حجة، ولا دليلَ له فيما ذكرهُ، فإن مرادَ القائل بـ "مستقر الرحمةِ": الجنةُ". يقول أحدهم اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك، الجنة هي رحمة الله. هل يجوز أن تطلق الأثر على الصفة؟ {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} هذا إطلاق للصفة على أثرها، فأثرها تجري بأعيننا برعايتنا، أثر العين هي الرعاية.

" ومعناهُ: جمعَ الله بيننا في الجنة التي هي دارُ القرار، ودارُ المقامةِ، ومحل الاستقرارِ، وإنما يدخلها الداخلون برحمة اللَّهَ تَعالى، ثُمَّ من دخلَها استقرَّ فيها أبداً، وأمِنَ الحوادث والأكدار، وإنما حصل له ذلك برحمةِ الله تعالى، فكأنه يقولُ: اجمع بيننا في مستقرٍّ ننالُهُ برحمتك". اللغة العربية تتحملها، هذا هو الذي جعل العربية بليغة.

"**روى النحاسُ عن أبي بكرِ المتقدمِ، أنه قال: لا يقُل: اللهمَّ أجِرْنا من النارِ، ولا يقُل: اللهمْ ارزقنا شفاعةَ النبي ﷺ، فإنما يشفعُ لمنِ استوجبَ النار**". -لقوله شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي-. قال لا تطلب الشفاعة، والشفاعة أكثر من عشر أنواع، منها أن ترتفع درجة المرء تكون درجته في الجنة في مكان فيشفع له النبي فيكون في درجة أعلى، وهكذا فالشفاعة درجات.

وألفاظ أخرى من هذا الباب، وقضية سورة كذا إلى آخره، وذكر فيها بيان الجواز.

" **ومن ذلك ما جاء عن مطرفٍ -رحمهُ الله، أنه كره أن يقول: إنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ في كتابهِ؛ قال، وإنما يقالُ: إن الله تعالى قال. كأنه كره ذلك لكونه لفظاً مضارعاً، ومقتضاهُ الحالُ، أو الاستقبالُ، وقول الله تعالى هُو كلامهُ، وهُو قديمٌ**".

ولا نريد أن نتناقش "قديم" فهو غير صحيح، وكلامه حصل حيث أراد جل في علاه من الزمن.

الحقيقة أعجب لطالب علم، أعجب لعابد، أعجب لمن يعمل في دين الله وألا يكون هذا الكتاب أنيسه، وجليسه، ومؤدّبه، وعاملًا به في كل وقت.

أسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يجعلنا من الذاكرين كثيرًا والذاكرات، آمين.

والله تعالى أعلم، وبارك الله فيكم.

وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

[٢١]

مناقشة كتاب (المنقذ من الضلال) لأبي حامد الغزالي

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا وسيدنا وقائدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإياكم منهم، آمين.

أيها الإخوة الأحبة، هذا لقاء جديد مع كتاب جديد في مشروع "ألف كتاب قبل الممات". وكتابنا اليوم هو كتاب الإمام الغزالي -رحمه الله- كتاب (المنقذ من الضلال).

وفي الحقيقة عندما يكون الرجل بوزن الإمام الغزالي، هذا الوزن الذي اكتسبه بسبب تشابك شخصيته، وزنٌ عظيم وسبب هذا الثقل أنّ الغزالي شخصية متشابكة لا يمكن رصدها في اتجاه واحد.

يمكن أن نرصد الرجل فقيهًا، أصوليًا، محدثًا، فيلسوفًا، متكلمًا، عالمًا في فن من الفنون أو في فنين أو ثلاثة إلى غير ذلك، ولكننا نرى أن الغزالي شخصية من شخصيات الجمهرة.

ويُقصد بشخصيات الجمهرة -وهذه رضيها الشيخ الأستاذ محمود شاكر بدلًا عن كلمة موسوعي- فكلمة جمهرة يُستعاض بها عن كلمة موسوعي.

والغزالي شخصية جامعة لفنون العلوم الإسلامية وغير الإسلامية، وكتابه هذا الذي بين أيدينا وهو المنقذ من الضلال يبيّن هذا التشابك، ويبيّن هذه الجمهرة العظيمة في شخصية هذا الرجل. فإن طرقت الغزالي فقيهًا فهو مرجع من مراجع الفقه الشافعي، وكتبه من أوسع مصادر كتب الإمام الشافعي وما فيها من أقوال وما فيها من فتاوى.

وقد كتب في الفقه كتبًا ثلاثة: البسيط، والوسيط، والوجيز.

وإن جئته أصوليًا فهو كذلك، وكتابه في الأصول سواء كان المستصفى وهو الأشهر أو المنخول فهو كذلك ركن من أركان الأصول على طريقة المتكلمين كما يعدها ذلك ابن خلدون سواء وافقناه أو خالفناه، لكن لا شك أن كتاب المستصفى أثّر فيمن بعده تأثيرًا كثيرًا سواء في التصنيف أو في المباحث أو في المواضيع.

وكذلك إذا ذهبنا إليه عالمًا اجتماعيًا أو خبيرًا نفسيًا ذهبنا إلى (إحياء علوم الدين)؛ فهو منجم كبير لقضية التربية. وأخذت نظرياته في التربية إلى أوسع مدى من المخالف والموافق، حتى مع كراهة المدرسة الحنبلية السلفية لما يقوله الغزالي إلا أنها اضطرت أن تذهب إلى كتاب الإحياء فتختصره، كما اختصره ابن قدامة في منهاج القاصدين؛ وذلك لقوة هذا الكتاب وأسره.

وكما قلنا في دروس الموافقات لكن لا بأس أن نكررها هنا حتى يكون الكلام منتشرًا من عدة مصادر، أنّ ابن قدامة تأثر من مقدمة الغزالي في المستصفى ووضعها في كتابه الأصولي الحنبلي الشهير. والغزالي مبدع في كتبه، لا يمشي على منوال الآخرين، أمّا قول ابن تيمية –رحمه الله– أنّ كتاب الإحياء مأخوذ من قوت القلوب أو مأخوذ من الرعاية للمحاسبي فهذا من جهة استدلالاته ومن جهة نقولاته، وأما من جهة صياغة الكتب وما فيها من أبحاث فلا شك أن كتب الغزالي جديدة كل الجدة، وهي فن مما يمكن أن يطلق عليه أنها نسيج وحدها.

فلو ذهبت إلى الغزالي مربيًا عالمًا اجتماعيًا لوجدته في هذا سيد من السادات في هذا الباب. ولو ذهبت إليه مصنفًا مبدعًا في الكتب فيكفي أن كتاب المنقذ من الضلال قلّما نشأ كتاب إسلامي على منواله لأن البعض وقد صدقوا في جانب كبير مما قالوه وأصابوا بأن كتاب المنقذ من الضلال يُعد من السيرة الذاتية والعلماء لا يكتبون سيرهم الذاتية.

لا يوجد في تاريخنا كتابة السيرة الذاتية، وهو فن قليل جدًا في تاريخ الثقافة الإسلامية وفي تاريخ المصنفات الإسلامية. وإنما تُستقى السيرة الذاتية للعلماء لنُتَفٍ تُقال هنا وهناك، أمّا أن يكتب الرجل عن نفسه فهذا قليل، لكن يمكن أن تؤخذ سيرهم من خلال بعض النصوص في كتبهم. تُجمَّع حتى تجتمع بعض الصورة لهذا العالم أو ذاك، لكن المنقذ من الضلال على منوال السيرة الذاتية.

ولو جئت للغزالي كذلك فيلسوفًا فهو فيلسوف، وكتابه تهافت الفلاسفة يدل على أنه دخل في أجوافهم كما وصفه تلميذه ابن العربي المالكي. وكتابه تهافت الفلاسفة صار مرجعًا عند الفقهاء في الحكم على الفلاسفة وأقوالهم، وما هي مرتبتهم في دين الله –عزَّ وجلَّ–.

وإذا جئنا إليه متكلمًا فهو على مذهب الأشاعرة في اختياراته الكلامية، وكتبه فيها الكثير من هذا. ولو جئنا إليه شخصية متناقضة فأنت تعجب من هذا الرجل الفقيه كيف يقول كلامًا في الإحياء على غير منوال الفقه؛ ولذلك عُدّ كتابه الإحياء

مزجًا غريبًا وجديدًا لم يُعهد من قبل بين الفقه والتصوف. يعني أول من مزج الفقه بالتصوّف هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ.

فهذا الإمام الغزالي شخصية جامعة وعاشت حياتها كما عاشت هذه الأفكار المتعددة والدليل هذا الكتاب المنقذ من الضلال يكشف فيها الغزالي أنه عاش هذه الكتب في حياته، وتقلّب فيها وأراد أن يستبصر الحق من خلال هذه المسيرة، سواء كانت العقدية أو السلوكية.

وإذا جئته عالمًا بالباطنية فإنه يقول أنّه مر على هذا الطريق وكان مقتنعًا به أو أنه عاشه لمدة شهرين تقريبًا من الزمن، وألّف بعد ذلك كتابه الشهير (فضائح الباطنية). وكتابه فضائح الباطنية كذلك مرجع عند الفقهاء والعلماء في معرفة أصول الباطنية.

فهذه الشخصية إذًا جامعة، وهو ككل علمائنا ابن بيئته في الردود، ويعني أنّه لم يستجلب حروبًا خارجية، وهذه نقطة مهمة جدًا، فهو لم يستجلب حروبًا ومعارك من خارج زمنه، بل كل ما تكلمنا عنه كان موجودًا في زمانه؛ كان هناك الباطنية الحاكمة، الإسماعيلية المتمثلة في العبيدين، وكان هناك مدرسة الفقهاء، والمدارس النظّامية المتعددة في بلاد المسلمين التي أنشأها نظام الملك من أجل إيقاف المد الباطني والقضاء على القرامطة وهذه منقبة لهذا الرجل.

وكانت كذلك تتبنى عقيدة الأشاعرة للرد على الباطنية لأن هذا هو الموجود للرد على الباطنية والزنادقة. وكان الغزالي مدرسًا في نيسابور في المدارس النظامية في أول حياته وقبل رحلته المتقلبة فيما ذكر عن نفسه، وبعد أن استقر به المقام متصوفًا سائرًا على طريقة الصوفية، فمن دمشق إلى بيت المقدس إلى مكة والمدينة ثم عاد مدرسًا إلى نيسابور مرة أخرى. وخلال هذه المدة ألّف كتابه المنقذ من الضلال.

فلذلك الحديث عن الغزالي ليس سهلًا ويعجبني العقاد حينما قال إن العقل المسلم هو عقل الغزالي. العقاد هذا القارئ الشهير سواء خالفناه –ونخالفه كثيرًا– أو وافقناه ولكننا نقر بأنه مطلع وأنه من القارئين النهمين في الوقت المعاصر، وأحكامه في قراءاته تقترب من الصواب ما لم تكن حديثًا عن الإسلام ومنهج المسلمين، لكنه قال بأن العقل المسلم هو عقل الغزالي، وكأن الغزالي جمع كل ما ينتسب إلى الإسلام من عقول متفرقة.

وأما الزعم بأنّ عقل الغزالي هو عقل بياني كما يقول علي الجابري فهذه طريقة غير جيدة في الحكم على الأشخاص، بل نجد أن الشخص يمكن أن يجتمع فيه البيان والعقل ونجد فيه كذلك الغنوص كما في الغزالي.

فالحديث عن الغزالي ليس سهلًا، هذه يجب أن نقررها. فمن هو الغزالي ينبغي أن نبتعد عنها. يعني سيكون من الصعب الإجابة من هو الغزالي، ولكن يمكن أن نسهل الأمر بأن نقول ما هو الإحياء؟ ما هو تهافت الفلاسفة؟ ما هو الوجيز أو البسيط أو الوسيط؟ ما هو فضائح الباطنية؟ ما هو المنقذ من الضلال؟

يمكن أن نرصد حكمًا قريبًا من الحق حينما نقرأ الكتب فنحكم على الكتاب وأما الحكم على الغزالي من هو فهذا صعب، حتى لو جئنا إلى خاتمة كتبه، فآخر الكتب التي ألّفها هو المنقذ من الضلال، لأنه اعترف في بداية الكلام أنه ألّفه بعد الخمسين. يعني قبل أن يموت بخمس سنين فقط، لأنه يقول وقد تجاوزت أو نفت على الخمسين ومعروف أن الغزالي عاش خمسة وخمسين سنة. انظر إلى هذا الإنتاج في هذا العمر القصير!

وكتابه الإحياء ألّفه كذلك بعد رحلته (رحلة التصوف)، فلو حكمنا على الغزالي بنهاية إنتاجه لرأيناه صوفيًا، والإحياء مع ما فيه من خيرات ومع ما فيه من علوم ومع ما فيه من شطحات، فقهاء كثر كالمازري وغيره انتقدوه وكذلك ابن تيمية رحم الله الجميع. وأُحرق الإحياء لما دخل المغرب لحكم الفقهاء فيه وليس حكم المبتدعة فيه، أحرقوه لما فيه من بدع في نظرهم ورأوه انحرافًا فقهيًا. وكان هناك التشدد عند فقهاء المالكية في قضية رصد ظاهرة الزندقة في الأندلس والمغرب، وقد كان عندهم حساسية شديدة، مع وجود دولة الموحدين التي تنتسب إلى الكلام والفلسفة.

ولذلك المهدي ابن تومرت الذي أنشأ دولة الموحدين يعد نفسه تلميذًا للغزالي. ومما يُذكر في ترجمة الغزالي أنه أراد أن يرحل إلى المهدي ابن تومرت ولكن وصله خبر وفاته، فيُعد المهدي ابن تومرت تلميذًا للغزالي. والغريب أن كثيرًا من علم الكلام وعقائد الأشعرية انتشرت في المغرب من خلال تلمذتهم للغزالي. وهذا دليل على أن الإمام الغزالي شخصية آسرة، يمكن أن تُنتقد بعد الخروج عن دائرتها، ولكن في الابتداء تذوب الشخصية الناظرة إليه في داخل هذه الدائرة، فشخصيته قوية.

لكن لماذا سُمي بحجة الإسلام؟ يُذكر أشياء كثيرة أبعدها ما يُذكر في كتب الصوفية، وكتب الصوفية تكذب، يضعون القصص الخيالية في الكرامات وفي غيرها، يقولون بأن الغزالي رأى موسى عليه السلام في المنام فقال له موسى ما اسمك؟ قال محمد بن محمد بن محمد الغزالي، فقال له أما يكفي أن تقول محمد الغزالي وينتهي الأمر؟ قال وأنت ألم تقل: {هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى} أما كفاك أن تقول عصا وتسكت؟ قالوا فحجّه فسُمي حجة الإسلام.

لكن الأشهر في تسمية الغزالي بهذه التسمية أنه طُلب للمناظرة في وقت الحج من قبل بعضهم من المخالفين فقال {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} فغلبهم فسُمي بهذه التسمية حجة الإسلام. والأسماء لها أسبابها الحادثة ولكن بعد ذلك تشيع فتصبح علمًا على الرجل. وكلمة حجة الإسلام عادة لا تُطلق في البيئة السنية إلا على هذه الشخصية.

لو جئنا للغزالي في خاتمة أمره باعتبار انتهاء رحلته فيما تمثل من كتاب المنقذ من الضلال الذي اخترناه للنقاش، أو من خلال كتابه الإحياء فإن الحكم عليه سيكون شديدًا. وخاصة ما قاله في الإحياء في مبحث التوحيد فله كلام خطير لا يُمكن أن يُفسر إلا على وجه واحد وهو أن الغزالي يقول بوحدة الوجود. ولذلك لما انتُقد الكتاب والكتاب صار بين أيدي الناس وتحدث الناس عنه حديثًا شديدًا فردّ على حديثهم وانتقاداتهم بكتاب الإملاء، الذي ردّ فيه على الاعتراضات الناشئة على كتاب الإحياء.

وصرّح تصريحًا شديدًا أن التعدد في الكون هو مظهر لوحدة واحدة وهو الله. هذا كلام خطير، ولكن ابن تيمية –رحمه الله– يعتذر عنه أنه في آخر عمره انكبّ على صحيح البخاري ومات وصحيح البخاري على صدره. ويعزو ابن تيمية الانحراف والرحلة غير المهتدية للغزالي إلى غياب السنة والقرآن عن هذه الشخصية. وبلا شك أنا أقر بهذه النتيجة وخاصة أن البيئة التي يعيش فيها مختلطة وغريبة، وقد بيّنها في كتاب المنقذ من الضلال، فنرى أن السنة ليست بهذا الانتشار بين الفقهاء وبين المتكلمين وبين الأصوليين، السنة قليلة، هناك انتشار للقياس، انتشار للتخريجات الفقهية على كلام الأئمة، ولكن السنة ضعيفة.

ودليل ذلك أن والد شيخ حجة الإسلام الغزالي وهو أبو محمد الجويني والد أبي المعالي الجويني صاحب الغياث الشهير أراد أن يؤلف كتابًا في الفقه وأن يؤلفه على طريقة المحدثين، بمعنى أن يحضر النص مع الحديث ليس على طريقة الفقهاء والمتون– فأنت لو رجعت إلى كتب الغزالي، وأنا لم أرى إلا الوسيط والوجيز أما البسيط فلم أره، لا ترى حديثًا. يعني ترى أقوال المذهب فقط، بخلاف المجموع؛ ففيه يناظر ويناقش ويرجّح من خلال النصوص. ولكن كتبه الفقهية لا تذكر الأحاديث.

ومعرفة الغزالي بالحديث كما هو بيّن في كتاب الإحياء معرفة ضعيفة؛ فهو يأتي إلى الأحاديث التي لا أصل لها وينسبها إلى النبي ﷺ ولا يعرّج على الحكم عليها، ولذلك اضطرّ الإمام العراقي أن يخرّج أحاديثه فيما هو مشهور. واختصره بعد ذلك وألّف كتابًا كبيرًا في تخريج الإحياء.

وللذكر هنا فائدة -وإن كانت خارج السياق لكن الناس يحبون الخروج مرات عن السياق- كان الإمام العراقي يخرّج أحاديث كتاب الإحياء وكان الإمام الزيلعي الحنفي يخرّج أحاديث كتاب الهداية الكتاب الذي انتشر بعد ذلك بنصب الراية، وفي نفس الوقت مع صداقتهما هذا شافعي وهذا حنفي وكلاهما إمام في الحديث وكان كل واحد يحضر للآخر نتيجة ما يصل إليه فيتعاونان بينهما، هذا يفيد هذا وهذا يفيد هذا.

وكتاب نصب الراية للزيلعي قلّما يوجد كتاب مثله في تخريج أحاديث الكتب الفقهية، وهو مرجع عظيم ومهم جدًا. والزيلعي أظهر إمامة عظيمة وبراعة في هذا الأمر. اختُصر هذا التخريج فيما هو معلق في المطبوع عليه، وهذا المطبوع على تخريج الأحاديث في كتاب الإحياء هو المختصر وليس هو الكتاب الأصلي.

القصد أن الغزالي في الحديث ضعيف. وأنا قلت ذات مرة إذا كنتم تذكرون في مقدمة كسر الصنم للشيخ البرقعي الذي خرج من التشيع إلى القرآنية تقريبًا، وإن لم يكن منكرًا للحديث، ولكن القرآنية بمعنى أنه لم يصبح سنيًا بمفهوم التصنيف الناشئ بين سني وشيعي، وقلت بأن مناظرة البرقعي لكتاب الكافي في الأصول -من كتب الرافضة الشيعية المشهورة وهو من عمدة كتبهم الأربعة- أنه كان فاقدًا للسنة. في المناظرة كان مدركًا للقرآن بطريقة لغوية، ومدركًا للعقل الذي تمكن منه خلال مسيره، ولكنه كان فاقدًا للسنة في المناظرة.

وإذا كان المرء فاقدًا لأسلحة مهمة في المناظرة فربما بل على الأغلب تكثر سقطاته. كذلك كتاب الإحياء لأنه فاقد للسنة بل بضاعته في الحديث مزجاة، فبضاعة الغزالي مع كثرة ما استشهد به من أحاديث مزجاة؛ فإنه كثيرًا ما يأتي بالأحاديث التي حكم عليها العراقي بقوله لا أصل لها.

هناك باحث شهير اسمه الأستاذ محمود أبو القاسم له نظرية لا بد أن نعرج عليها، وهي عند علماء الحديث مرفوضة، ولا تصلح لإنشاء قاعدة علمية للارتكاز عليها. يقول بأن هذه الأحاديث التي لا أصل لها وكثيرة في الإحياء منشأها الكشف.

ومقصود كلمة الكشف كما سنتبين في قراءتنا للمنقذ أن يحضر النبي، فالكشف هو الغنوص وهو البحث عن المعرفة عن طريق الذوق. وهو أحد وسائل العلوم المخالفة للكتاب والسنة، وهذا سنبيّنه إن شاء الله لأنه مهم. يقول والكشف بالمفهوم الإسلامي هو أن يرى المرء الحقائق عيانًا، فيُكشف له الحجاب، فيسأل من يريد ويستحضر من يريد، ويحضر إليه من عالم الغيب ورجال الغيب من يريد فيتعلم منهم مباشرة ويأخذ منهم العلوم مباشرة.

ومن هنا نشأت لفظة "حدثني قلبي عن ربي". ومن هنا أنتم تأخذون علومكم ميت عن ميت وأنا آخذ علمي حدثني قلبي عن ربي. فيقول الأستاذ محمود أبو القاسم بأنّ هذه الأحاديث جاءته عن طريق الكشف، الذي لا أصل له، بمعنى أنه أخذها من النبي مباشرة على الوهم الصوفي المشهور في الكشف. هذه نظريته، وهو يتوسع فيها توسعًا غير مقبول بلا شك.

لكن مما يرد على هذه النظرية أن كل الأحاديث التي ذكرها الغزالي موجودة، فكونها لا أصل لها لا يعني أنه أنشأها. هي موجودة في البيئة التي يعيش فيها، ولم ينشئها الغزالي، وإنما ضُعف علمه في علم الحديث هو الذي جعله يستشهد بها.

أرجع إلى قصتي التي شرعت فيها لتعرفوا البيئة التي كان يعيشها الفقهاء ويعيشها الأصوليون ويعيشها الناس في ذلك الوقت، لما أراد أن يؤلّف أبو محمد الجويني والد شيخِ الغزالي كتابًا في الفقه الشافعي شرع بكتاب المياه؛ لأن باب الصلاة لا يتم إلا بالوضوء، فلا بد من معرفة أحكام المياه على طريقة أغلب الفقهاء سوى المالكية، لأنّهم يبدؤون بكتاب الأذان كونه المعلم لدخول الوقت وشرط دخول الوقت هو الذي ينشئ وجوب الصلاة.

لما ألّف كتابه وبدأ بكتاب المياه استشهد بحديث ونسبه للصحيحين وهو حديث الماء المشمس. وهذا الحديث لا أصل له، فيه كراهة الماء المشمس والنهي عنه وأنه يورث البرص إلى آخره. فهذا حديث لا أصل له، لا وجود له في كتب السنة، ونسبه أبو محمد الجويني للصحيحين. من أين علمنا هذه القصة؟

علمنا هذه القصة من رسالة للبيهقي إلى أبي محمد الجويني.

أبو بكر البيهقي إمام الحديث في عصره، وهو الذي قيل فيه للشافعي يد على كل عالم حمل المحبرة إلا البيهقي فإن له يدا على الشافعي. علمنا هذه القصة من رسالة منشورة، وهناك كتب اهتمت برسائل العلماء كرسالة مالك إلى الليث رحمهما الله، ورسالة الليث إلى مالك. ومن الرسائل التي اهتم لها أهل الإسلام هي رسالة أبي بكر البيهقي إلى أبي محمد الجويني.

أبو محمد الجويني إمام شافعي عظيم سواء كان في علمه أو في تقواه، ومرجع زمانه في مذهب الشافعي، ومع ذلك يجعل هذا الحديث في البخاري ومسلم، يعني أن هذا الإمام لا يعرف البخاري ومسلم. ولذلك لا تتعجبوا أنّ الغزالي لا يعرف البخاري، أو أنه في آخر عمره يبحث عن البخاري من أجل أن يقرأه. هذا ليس عجيبًا والدليل أن هذا الإمام الفقيه الذي هو مرجع للمذهب الشافعي عليه رحمة الله أبو محمد الجويني يؤلّف كتابًا في الفقه وينسب فيه حديثًا للبخاري ومسلم وهو حديث لا أصل له.

والإمام البيهقي كما قلنا لا يوجد إمام من الأئمة بعد الأئمة الأربعة بهذا الاتساع الذي هو عليه في الحديث. يمكن أن نجعل معه مثلًا الدارقطني، وإن كان الدارقطني أكثر في العلل، ويمكن أن نجعل معه الإمام أبو جعفر الطحّاوي. ولكن لا شك أن البيهقي كما قال العلماء ما من أحد حمل القلم والمحبرة إلا وللشافعي عليه يد إلا أبو بكر البيهقي فإن له يدًا على الشافعي؛ لأن كتبه هي التي أثبت فيها أن الشافعي كما قيل عنه قلّما حديث فاته في الفقه.

هذه كلمة بعض الناس يجهلها، يظن أنها مبالغة، والحقيقة أنها ليست مبالغة. الشافعي لا يجهل الأحاديث التي بها يستند الفقيه. والدليل أنه لا يوجد فقيه في الدنيا يمكن في هذا اليوم أن يكون فقيهًا غير مقلد ويجهل كتاب السنن الكبرى للبيهقي. هذا كتاب السنن الكبرى للبيهقي لا يجوز للمرء أن يجتهد ولا أن يتكلم في الفقه حتى يكون بصيرًا بهذا الكتاب عالمِا بما فيه باحثًا بما يقول فيه الإمام. وليس فقط السنن الكبرى، عند الإمام السنن والآثار، وهذه كلها من أجل تدعيم مذهب الإمام الشافعي في الفقه.

القصد أن البيئة التي عاشها الغزالي، كان الصليبيون قد جاؤوا إلى بلاد الشام وغلبوا على بلاد الشام، وكان العبيديون الباطنية –العبيديون هم الباطينة، هم السبعية، العبيديون هم الإسماعيلية، وإذا قيل القرامطة أو السبعية أو الباطنية أو الإسماعيلية فهي كلها أسماء لشيء واحد. الإسماعيلية هم الأصل على أساس افتراق الجعفرية إلى قسمين، جعفر مات فكان له ابن اسمه إسماعيل الكبير، وأصل الولاية أن تكون في الابن الأكبر على طريقة التوراة. ولكن إسماعيل الكبير مات فسقطت النظرية الرافضية مرتين في قضية انتقال الإمامة إلى الأكبر منها هذه لما مات جعفر كان له ابن مات صغيرًا وهو إسماعيل.

فجعولها موسوية وهم الرافضة الموسوية الاثنا عشرية، فأول شيء جعفرية رافضة لكون الجعفرية خرجت عن الزيدية حين رفضوه، وموسوية واثنا عشرية على أساس الأئمة عندهم اثنا عشر؛ جعفرية، إسماعيلية، سبعية. فإذا قلنا إسماعيلية، أو سبعية، أو باطنية، أو قرامطة، أو زنادقة عندما يتكلم الفقهاء فهم يقصدون هذه الطائفة. هذه الطائفة مع غلوّها غلبت على أهل الإسلام، وكانت تحكم المغرب العربي كله، ومصر، واليمن، والحجاز، وبلاد الشام.

العقيدة الباطنية كانت منتشرة، والمتكلمون يملؤون كل واد ومكان. وفي زمن الغزالي كانت النزارية موجودة لأن الإسماعيلية انقسمت إلى قسمين؛ نزارية ومستعلية. النزارية هم العبيديون، والمستعلية هم الذين أنشؤوا دولة آل موت في خراسان. آل موت يعني عش العقاب، لأن الناس دائمًا يقرؤونها خطئًا قلعة الموت، هي قلعة آل موت، وسُميت عش العقاب لكبرها.

ابن تيمية – لتروا هذه الشخصية الخطيرة وهي شخصية الغزالي رحمه الله– اعتبر أن ابن عربي الطائي المكي الدمشقي صاحب فصوص الحكم والفتوحات المكية إنتاجًا للغزالي كما في بغية المرتاد. ابن تيمية كان يعيش في هذا الباب في عصره.

وكان هناك بلا شك القائلين بكثرة بوحدة الوجود، ومنهم بيبرس الجنكشيري الذي سجن ابن تيمية بعد أن خرج محمد بن ناصر قلوون إلى الحج وزعم أنه ذاهب للحج فنزل في قلعة الكرك واستقر بها فغلب بيبرس الجنكشيري وكان يعاقب ابن تيمية لتجريحه القائلين بوحدة الوجود. فقد كانت وحدة الوجود يُصرّح بها.

القصد بأن ابن تيمية يعتبر ابن عربي المشهور بالفتوحات المكية –وسُميت بالفتوحات المكية لأنه ألّفها في مكة– يعتبره إنتاجا للغزالي. وهذا مما يدلكم على من هو الغزالي في قوته وسطوته. وابن عربي هو بعد ذلك شيخ الجميع، هو شيخ ابن سبعين ومن ورائه، فابن سبعين تلميذ لابن عربي.

فإذًا أيها الإخوة الأحبة من هو الغزالي هذا شيء صعب. أنا بالنسبة لي لا أحب حين وفاة الرجل أن أتكلم عنه، قد أفضى إلى ربه. وأسأل الله –عزَّ وجلَّ– أن يكون مات على ما عليه الكتاب والسنة وعلى ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية أنه مات وعلى صدره صحيح البخاري.

كل من ينسب هذه القصة أن الغزالي مات وعلى صدره صحيح البخاري لا يجدون مصدرًا إلا كلام ابن تيمية وأنا حاولت أن أتقفّر هذه الكلمة أين توجد فيمن تكلم عن الغزالي غير ابن تيمية فلم أجدها. ولعله تلقّاها لأن العهد وإن كان بعيدًا قليلًا لكن يمكن أن تصله عن طريق المشافهة، خاصة أن الغزالي توفي سنة ٥٠٥هـ وابن تيمية توفي سنة ٧٢٨هـ كما هو معروف.

كثير من الإخوة يحبون أن أتحدث عن الغزالي أكثر مما أتحدث عن المنقذ من الضلال. لكنني اخترت المنقذ من الضلال لأنه يعبر عن شخصية الغزالي، فهو رحلة. المنقذ من الضلال رحلة من ثمانين صفحة تقريبًا يتحدث بها عن رحلته في التفكر والسلوك ومعاناة الأفكار.

وما تحدث به يكشف لنا عن واقع الأمة الإسلامية أين كان الناس، وما هي مذاهبهم، وما هي طرقهم. وأعود وأكرر كان الغزالي فاقدًا للسلاح. يعني من غرائب الأمور أنه لم يأت الغزالي على طريقة أهل الحديث، يعني في المنقذ من الضلال أول ما يجابه الباحث أنه لا يجد كلامًا للغزالي أن هناك طائفة اسمها المحدثون أو في العقائد على طريقة كذا وكذا فيتحدث عنهم، وإنما يتحدث عن كل شيء إلا هؤلاء.

والحالة الوحيدة التي لا يمكنه إخضاعها إلى المعالجات الفكرية كما عالج غيرها؛ لأن الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال - كما يزعم بعض الدارسين أنه هو أساس مذهب الغنوص والشك- فإذًا هو الحديث عن عقائد، هو يتحدث عن الباطنية، عن الفلاسفة، عن المتكلمين، عن الصوفية. وحين يأتي إلى الفقهاء يتحدث حديثًا ليس حديث العقل ما هي أسسهم الفقهية، بل يتحدث حديث السالك. وهذا بسطه في كتاب إحياء علوم الدين.

هناك رابط قوي وأنا أجزم أنه كتب المنقذ مع كتاب الإحياء. يعني كان في وقت سواء. وهو كشف هنا أنه كتبه بعد الرحلة المشهورة حتى عاد إلى نيسابور في آخر عمره، يعني بعد أن طوّفه في الخمسين وعاد إلى نيسابور واستقرّ في مدرستها هناك للتدريس. وكذلك الإحياء كتبه بعد رحلته الصوفية وبعد رحلته إلى دمشق ثم بيت المقدس ومن مكة إلى المدينة ثم رجع إلى هناك.

لماذا ألّف كتابه؟ تجدون النقد الذي يوجهه الغزالي في كتاب الإحياء هو النقد الذي يوجهه الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال للعلماء. فقد شرع في أول كتابه بنقد العلماء نقدًا سلوكيًا لا علاقة له بالمنهج. فلما نقد طريقة الفقهاء لم يأت إليها من جهة علمية، وإنما نقدها من جهة سلوكية. بخلاف نقده للطرق الأخرى؛ فإنه جاء إليها من جهة العقائد وجاء إليها من جهة السلوك.

مثلًا -وهذا الاستعجال في البحث ولكن لا بأس به- لما جاء إلى طريقة الفلاسفة فإنه انتقد مقالاتهم وما آلو إليه من أراء متبناة. ولكنه كذلك انتقد أن ابن سينا كان تاركًا للصلاة، وهذا مشهور عنه. فالفلاسفة يُعرف عنهم هذا الأمر وهو تهاونهم بالعبادات. ذُكر عن الآمدي في ترجمته والآمدي هو فيلسوف أصولي وهو معروف عند الفلاسفة أكثر، لكن عندنا نحن طلاب الشريعة ومسائل الفقه لا نعرف إلا كتاب الإحكام في أصول الأحكام، وبلا شك أنه كتاب عظيم في الأصول. ولكن يذكرون عن الآمدي أن تلاميذه شكوا أنه لا يصلي، فوضعوا حبرًا في أسفل رجله ليروا ثاني يوم هل غُسلت هذه بالوضوء أم لا، فوجدوا نقطة الحبر ما زالت على رجله.

القصد بأن الغزالي في نقده لطريقة الفقهاء لم يرها مقنعة لقلبه؛ فانتقد سلوكهم. وهذا بيّن في أول كتاب الإحياء فالكلام فيه عن العلم والعلماء، والذي جعله ينشئ هذا الكلام هو بيان فساد العلماء في عصره، وهذا حكمه عليهم في كتاب الإحياء وفي كتاب المنقذ من الضلال.

في كتاب المنقذ أنا لا أستطيع عندما يكون الأمر بهذا الاتساع في موضوع رجل بهذا التشابك لا يمكن إلا أن يكون الكلام قليلًا مهما توسعنا فيه.

لو أراد الناس انتقاد الغزالي فلينتقدوه في أصوله يدون انتقادات شديدة، حيث جعل المنطق أساس أصولي، كما أن النحو يعصم لسان المتكلم فكذلك المنطق يعصم عقل الأصولي. هذه قالها وصارت بعد ذلك وسرت بين الناس. يمكن أن يُنتقد بأنه في الأصول شكاك. يُمكن أن يُنتقد أنه ضعيف في الحديث. يُمكن أن يُنتقد بأنه صوفي قال بوحدة الوجود.

أنا أحاول – فلست في شرخ الشباب حتى أهاجم- وأتمنى أن يأتي أحد فيثبت أن ما قاله في الإحياء لا يؤدي إلى وحدة الوجود. مع أنه كتاب عظيم لكن في كلامه عن التوحيد للأسف يرى أن التوحيد هو الوحدة على طريقة الصوفية، بل رده في كتاب الإملاء يقول بهذا.

أرجو أن أكون مخطئًا وإذا ثبت خطئي فهذا أحب إليّ من الكثير.

هنا نقطة من الأمانة أن نذكرها: في بغية المرتاد الذي أنشأه ابن تيمية في الرد على الفلاسفة وخاصة الفلسفة الأفلاطونية، هو لا يذكر هذا، ولكنها الفلسفة الأفلاطونية لمن يعرف الفلسفة، والتي غزت العقل المسلم بأن العقل هو الله، يقول ابن تيمية إن مصيبة الغزالي أنه يأتي إلى العقائد الفلسفية فيطلقها بألفاظ إسلامية لتكون مقبولة، وهذا من اتهامات ابن تيمية له.

وإذا جئنا لما يقوله ابن تيمية ومراجع ما يقوله وجدنا هذه الكتب يُشكك في نسبتها. وابن تيمية في مواطن يقول منسوبة إليه، وأنا دقّقت في هذا. ولكنه يرى أن الغزالي مرّ في هذه المحنة، وفي المنقذ ربما مرّ في هذه المحن، فكتاب "المضنون به على غير أهله"، هذا كتاب نُسب للغزالي، وهذا الكتاب لشدة ما فيه من مصائب، الصوفية أنفسهم قالوا هذا مكذوب عليه.

ولما جاء الشعراني في مبحث كبير له في الطبقات الكبرى في الأقوال والكتب المنسوبة إلى الصوفية أو الأقوال التي تُسند في كتبهم، جعل هذه الكتب منسوبة للغزالي وليست له؛ لما فيها من ضلال، وهي تتحدث عن أثر النجوم على الكون والحياة.

من أين جئنا بالأفلاطونية؟ الأفلاطونية يرون أن كل شيء صدر من العقل الكلي، وهذا أساس الوحدة. وهي التي صيغت عليها أصل العقيدة النصرانية، وبعد ذلك الصوفية أخذوها وتنشقّوها. فهذا هو الأساس.

وأنا أرجو ألا يكون هذا اللقاء في مناقشة المنقذ هو بين ابن تيمية وبين الغزالي، ولكن لا شك أن أشد من تكلم عن الغزالي هو ابن تيمية، مع أن الذين تكلموا عليه من الفقهاء كثر، فقد أُحرقت نسخ الإحياء في المغرب من قبل علماء، والإمام الفقيه المازري المالكي الشهير له رد على الغزالي، ولكنها ردود الفقهاء. مثل قوله عن كيفية قص الأظافر بطريقة ما، يفسرها تفسيرًا فلسفيًا وقلبيًا عجيبا، مع أني لا زلت أفعلها، أخذتها من الغزالي من أكثر من ثلاثين سنة وما زلت أطبقها لأن العادة جرت بها وقد أخذتها منه قديمًا.

فلما يأتي ابن تيمية لكتاب المضنون ويرى قوله أن النجوم لها أثر والذي نهى النبي ﷺ عنه (مطرنا بنوء كذا)، فتجد الاضطراب، فهل هو صاحب أسرار الكلمات التي يقولها صاحب الفتوحات المكية؟

وللأسف تجدون هذا في النصف الأول من روح المعاني للألوسي.

للذكر هنا وأنا أنبه طلبة العلم لهذا أن كتاب روح المعاني للألوسي تستطيع أن تقول أنه كتبه عقلان لا عقل واحد. لماذا؟ لأن النصف الأول كان فيه صوفيًا بحتًا، ويتكلم عن أسرار الكلمات. وهذه طريقة معروفة عند أهل السحر، أن كل كلمة لها مفهوم ولها أثر ولا بد من هذه الكلمة إذا أخذناها على معنى معين أن تكون لها سلطة ما ولها رقم والرقم له سحر إلى غير ذلك من التأثيرات، والكلمات لها تأثير علوي كما يسمونه. ولكنّه في النصف الثاني تحول الألوسي إلى فقيه أكثر منه صوفيًا.

ولو رجعتم إلى كتاب الفتوحات المكية ونحن نقول الفتوحات المكية على قاعدة ابن تيمية أنّ ابن عربي هو نتاج كتب الغزالي المذكورة، يعني ليس نتاج الإحياء، وإنما نتاج هذه الكتب التي تتحدث عن السحر بطريقة فلسفية.

والمعروف بأن الغنوص يلتقي مع الفلسفة، وواضح أن الغزالي لم يمكث في قضية من القضايا إلا وألّف فيها كتبًا وكانت هذه الكتب مرجعًا لمن بعده في هذه المسائل؛ كان فقهيًا فألّف في الفقه وصارت كتبه مرجعًا، تكلم في الصوفية فصارت كتبه مرجعًا للصوفية، تكلم في الأصول فصارت كتبه مرجعًا للأصول، تكلم في أسرار الحروف على طريقة الفلاسفة فصار مرجعًا، وهذا يكشف أي شخصية كان عليها نسأل الله –عزَّ وجلَّ– أن يغفر لنا وله وأن يكون كما يرجو أهل الإسلام من أنفسهم بأنه مات على التوحيد والسنة وعلى اتباع القرآن الكريم والسنة.

نأتي إلى المنقذ من الضلال باختصار وقد طوّفنا الكثير مع الشخصية التي من خلالها يصبح الحديث عن الكتاب سهلًا. ما الذي يريده الغزالي من المنقذ من الضلال؟

هناك مناهج لمعرفة الحق في الوجود، هناك أسئلة وجودية شغلت البشرية. وهناك طرق مختلفة للوصول إلى هذه الأجوبة؛ هناك الطريق الحق أن الله خلقنا وجهلنا من نحن. ويبدأ جهلنا في تفسيرنا لحركاتنا. يعني أنا أقول دائمًا لولا وجود النص القرآني هل نحن مسيرون أو مخيرون لكان كل قول مائة بالمائة صحيح وبالتالي مائة بالمائة خطأ؛ لأنه إذا تعارض شيء بهذه القوة كلها صحيح وكلها خطأ. يعني الآن أنا أتكلم لو جاء رجل قال أنت لا تتكلم من جهة نفسك، هناك قوة أنت لا تشعر بها هي التي تتكلم عنك، وما أنت إلا مجرد آلة تسجيل. لماذا لا يُفسر هذا التفسير؟

لو جاء جبري مثلًا من الفلاسفة -لا أتكلم عن الجبرية الإسلامية- وقال بأن كل حركاتنا هي مجبرة من قوة أخرى هي تسيرنا لكن نحن لا نشعر بها ونتوهم أننا نفعلها من جهة أنفسنا. هل يمكن لهذا أن يُقال أم لا يُقال؟ ممكن. ولو جاء واحد آخر وقابله في المقال وعارضه مائة بالمائة وقال بأن الإنسان لا يتحرك إلا من جهة نفسه، لا يوجد أي تأثير عليه لا بعلم سابق ولا بقوة سائقة، لكان قوله يحتمل الصواب مائة بالمائة.

إذًا ما الذي يجيبنا على من نحن؟ لا بد أن يجيبنا من خلقنا.

فلما نأتي لقول أفلاطون ومنه أخذ أصحاب النظرية التي قلنا عنها التي أخذها الفلاسفة المشّاؤون بأن العلم تذكر والجهل نسيان. ما معنى هذه الكلمة؟ أن هناك عقل كلي، هذا العقل الكلي موجود في داخلنا قبل أن نُولد، فلما ولدنا بصدمة الحياة نسينا. وإلا فمعنى المعرفة في داخلنا موجود لكن لما صدمنا بالحياة عدنا إلى الجهل، فالجهل نسيان والعلم تذكر.

ونظرية الفيض الإلهي كما يسميها الصوفية هي هذه النظرية، يفيض عليه من العقل ويفيض عليه من المعرفة، لكن كما ذكر ابن تيمية يصبغون المعاني الفلسفية بألفاظ شرعية (فيض إلهي). فهم يقولون إنما العلم تذكر، أنت تذكرت ما كنت ناسيًا إياه. جاء القرآن ليقول لنا {أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا}. لا يوجد عندنا معنى علم ولا غيره، مجرد جهلة، وإنما نستفيد المعارف من خلال الخبر أو من خلال التجربة. وكل علم له مصادره، إما الخبر وإما التجربة.

إذًا هناك طريقة هي الحق، وهو أخذ المعارف وإجابة الأسئلة الوجودية عن طريق الوحي، أننا لا نعرف شيئًا. فجاء القرآن الكريم الذي جاء به النبي ﷺ من عند الله، جاء ليجيب على كل الأسئلة الوجودية ويعطي التفصيلات التامة لمن نحن وما هو الكون. وبدأت أول سورة في الحديث عن أصناف الناس أمام النص ثم بدأت في الحديث عن هذا الإنسان {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ} حدثتنا كيف نزلنا، وكيف السماء، حدثتنا عن أمور لا يعرفها الإنسان.

يعني من الذي يستطيع أن يقول لنا أن هناك ثمة أخبار لأبينا كانت في السماء قبل نزول الأرض. كل من يتحدث عن تاريخ البشرية يتحدث عنها إما بخبر وإما بتوهم، والخبر قد يكون صحيحًا وقد يكون خطئًا. ولكن القرآن يحدثنا أن هناك تاريخا بشريا عاشه الإنسان في السماء قبل النزول. من الذي يستطيع أن يجيب على أن ما يحدث في نفسك من واردات لا تكون كلها من جهة نفسك بل هناك دسيسة أخرى موجودة في قلبك ودمك وهو الشيطان. لو لم يوجد النص كيف نستطيع أن ندركه؟

فإذًا الطريقة المعرفية الأولى للإجابة على الأسئلة الوجودية هو الخبر الغيبي ممن خلق، وهذا الخالق عظيم، عليم، حكيم، إلى آخر ما جاءت من أوصاف قرآنية تليق به جلّ في علاه.

هناك طريقة ثانية لمعرفة الحقائق وهي التفكر. وأثبتت هذه الطريقة أنها لا يمكن أن تنشئ ظنًا وليس يقينًا؛ لأن المرء يقول القول ويرجع عنه غدًا. هذه هي الطريقة الفلسفية، فالطريقة الأولى هي طريقة الوحي والنبوة وهي ضرورة. الطريقة الثانية وهي طريقة الفكر والتفكر وهي طريقة الفلاسفة. العجيب أن هذه الطريقة لا يوجد فيها اطمئنان، بمعنى لم يقل أحد قولًا إلا جاء تلميذه ونقده في أسس مذاهبه؛ ما قاله أرسطو غير ما قاله فلان غير ما قاله فلان آخر وهكذا إلى يومنا هذا ما تأتي من أمة إلا ولعنت أختها وسبّت من قبلها {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا}.

لا يوجد قول لفيلسوف ولا لمنطقي في باب إلا وقد نُقض في بابه، وبالتالي الذين انتسبوا للإسلام بهذه الطريقة قرّروا أنهم في شك، حين ينظرون إليها يجدون أن القول يمكن أن ينشأ منه نقيضه، كما أن الحق ينشئ حقًا يدعمه كذلك الباطل ينشئ باطلًا ينقضه. فالطريقة مثل طريقة المتكلمين وتاريخهم، هو تاريخ صراع، وتاريخ سباب، وتاريخ نقد، ولم ينشأ عندهم شيء من اليقين الذي يطمئنون به. هذه نقطة.

النقطة الثانية فيهم أنهم كانوا أبعد الناس عن واقع الناس؛ لأنه لم يثبت في التاريخ أن أمة قامت على منهج فلسفي، يوجد هناك نشوق فلسفي ولكن لا بد من سلوك، وهذا السلوك لا ينشئ حضارة. يعني لا أرسطو أقام دولة، ولا سقراط أقام دولة، ولا فلاسفة الإسلام أقاموا دولة، بل طوال عمرهم على هامش الحياة، وخطابهم أعلى من أن يفهمه الناس زعمًا بأنهم أصحاب خصوصية.

هذا المنهج الفلسفي دخل في عالم المسلمين؛ فمنهم من أخذه على جهة القبول له تاركًا النص، وهؤلاء الفلاسفة سواء كان ابن سينا سواء كان الفارابي الذي يُسمى المعلم الثاني على أساس أن أرسطو هو المعلم الأول، فأخذوها وخرجوا من الشريعة وانخلعوا منها، وأتوا بأقوال حكم عليها أهل الإسلام بالكفر. وممن حكم عليها الغزالي نفسه في كتابه تهافت الفلاسفة.

هذه فرقة فلسفية، وخرجوا من الإسلام بالكلية، ورأوا أن القرآن الكريم فيه مصيبتان: المصيبة الأولى أنه كتاب عوام، بل مما ينقله عنهم ابن تيمية بنصوصهم من كلام ابن سينا بأنهم يعتبرون فيه الكذب. الفلاسفة يعتبرون أن في القرآن كذب، لماذا؟ قالوا لأن صاحبه اضطرّ أن يقول كلامًا غير صحيح من أجل أن تقريب المفهوم للعامة. ولو خاطبهم بأعلى من ذلك لما فهموا ولما كان هذا مقبولًا عند العوام، بالتالي خطابه خطابي إنشائي.

هؤلاء الفلاسفة خرجوا من الإسلام، المقصود بالفلاسفة الذين يُنسبون للإسلام، ولكن هذه الطبقة العليا من الفلاسفة التي خرجت من الإسلام لم تكن معزولة عن طبقات أخذت بعض المعاني الفلسفية. ما هي هذه المرتبة؟ هي محاولة الجمع بين الشريعة وبين الحقيقة الفلسفية.

إمامها في هذا هو ابن رشد مثلًا. ابن رشد ردّ على الغزالي في كتاب سماه تهافت التهافت. وألّف كتابًا يجمع بين الفلسفة والشريعة، قال ليس هناك تعارض. صحيح الفلاسفة الآخرون يقولون إن في القرآن كذب -والعياذ بالله- قال لا، الذي قاله القرآن حق، والذي قاله الفلاسفة حق، لكن هذا خطاب يصلح لآحاد وهذا خطاب يصلح لآحاد.

وهذه طريقة عامة من بقي محترمًا في داخل الشريعة يعني يدور حولها. وهذا الذي قاله ابن رشد في كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال.

إذًا الطريقة الأولى انتهينا منها وهي طريقة الوحي والنبوة. الطريقة الثانية طريقة الفلاسفة وهي إنتاج المعارف عن طريق التفكر، وبالتالي أنتجوا كل هذا الضلال وكل هذا الركام من الكتب التي لا يصل فيها المرء إلى حقيقة.

هنا أعرج تعريجًا يسيرًا على كتاب (قصة الإيمان) لنديم الجسر. قد يقول ما تقوله أن التناقض في داخل الفلسفة أنهم لم يقولوا قولًا إلا وقد نقضوه، فكيف أنت تنصح بكتاب قصة الإيمان لنديم الجسر، الذي مفاده أن كل الفلاسفة وصلوا لحقيقة واحدة وهو إثبات وجود الله. السؤال: ماذا بعد إثبات الوجود؟ كيفية إثبات هذا الرب؟ يعني من هو؟

فمثلًا سبينوزا وأنا ذكرته لأنه نديم الجسر ذكره، فهو يؤمن بوجود الرب، ولكن الرب عنده هو وحدة الوجود، فسبينوزا من القائلين بوحدة الوجود وهو فيلسوف يهودي. إذًا المقصود بأن الإثبات لوجود الرب ليس كافيًا، هو يقول كلهم يقولون بأن هناك حقيقة فوق الحقيقة المخلوقة لكن من هي هذه الحقيقة؟ فبعد إثبات الوجود ما هو الرب؟ يأتي الاختلاف، لأن النصارى يقولون بأن هناك إله، بل يقول شيخ الإسلام كلمة يقول: لا يوجد في تاريخ البشرية من نفى وجود الحقيقة الإلهية لكن الخلاف بعد ذلك ما هي الحقيقة الإلهية.

حتى يقول بأن الذين أثبتوا الإثنينية مثل المجوس المتمثلة في الظلمة والنور في النهاية يثبتون ربًا واحدًا وهي صراع الظلمة مع النور وانتصار النور، إذن النور هو الرب لانهزام الآخر فلو كان ربًا لما انهزم وهو الظلمة، فإذن تنتهي إلى إثبات واحد، لكن هذا الواحد هو الذي بعد ذلك الحديث عنه.

إذًا هذه الطريقة انتهينا منها.

هناك طريقة ثالثة في الوصول للمعارف وهي التي أعجبت الغزالي ووقف عندها وسحرته هذا السحر الكبير الذي به وما أحدثه فيه ألّف كتابه المنقذ وألّف كتابه الإحياء، وهو أن يصل إلى المعارف لا عن طريق العقل ولا عن طريق الكلام والتشقيقات التي يقولها الفقهاء كما يقول ولكن عن الطريق الكشف، وهو التذوق والعرفان، هذه كما شرحنا شيئًا من هم الإسماعيلية، وأنا أتكلم هنا ليس كمعارف إسلامية فقط، أتكلم هنا كمعارف موجودة، وتقسيمات موجودة في كل الأديان، وفي كل المذاهب، وفي كل تاريخ البشرية.

إذا جئت إلى كلمة الصوفية نتكلم عن حقيقة علمية هنا الآن لسنا نسب الصوفية ولا السلفية ولا نتكلم في داخل الصف الإسلامي، نتكلم عن موضوع علمي بحت. إذا جئت إلى كلمة الصوفية، أو كلمة العرفان، أو كلمة الإشراق، أو كلمة الغنوص كلها تدل على حقيقة واحدة. الصوفية هي العرفان، العرفان هو الإشراق، الإشراق هو الغنوص.

ماذا تعني هذه كلها؟ تعني الوصول إلى الحقائق عن طريق الذوق وأن يحسها المرء. نحن الآن نتكلم عن حقيقة، فلا يأت أحد يقول هذا منهج بغالي يقابل منهج سني، نحن نتحدث عن علم، هذا الذوق الذي تجدونه في كلام من تأثر بالتصوف، مثال: لو جئتم إلى أي كتاب صوفي سواء كان يتكلم عن الفقه أو يتكلم عن التفسير وخاصة في التفسير أو يتكلم عن اللغة، عن الشعر، أو يتكلم عن المعاني الإنسانية المجردة، تجدونهم يتحدثون عن وجوب الذوق لهذه الكلمات.

والذوق هو فوق المعنى. المعنى هذا شيء يشترك فيه الناس بحسب قدراتهم اللغوية، ولكنهم يتحدثون عن الذوق الذي به يتم كشف حقيقة اللفظ. هناك طوائف متعددة في كشف هذه الطرق، ولكن متصوفة المسلمين يرون كشف الحقائق عن طريق ما يُسمى الكشف وهو الذي يعبرون عنه بلفظ "من ذاق عرف".

وهذا الذوق هو أن يُكشف لك الحجاب، فلا ضرورة للحديث عن الملائكة، كلمة الملائكة هذه غير كافية، لا بد أن تذوق هذه الكلمة، الذوق بأن يُكشف لك حقيقة الملائكة وأن تراها. لا يُقال لك قال الرسول، هذا كلام، لكن ينبغي أن تراه. مع تصورات ذهنية ينتهي بها المرء إلى حقيقة واحدة وهي الجنون كما قال الإمام الشافعي -رحمه الله- كما نقل ابن الجوزي في اختصاره لحلية الأولياء أن الشافعي قال ما تصوف رجل أول النهار وانقضى عليه اليوم وهو كذلك إلا وهو مجنون.

إذن الطريقة الثالثة وهي طريقة ذوقية وفيها كثير من السحر.

والغزالي له كتب تربوية، أنا أنصح مثلًا بكتابه (أيها الولد المحب) ولكن لا يُقبل منه مثلًا أن يقول فيه أو في كتاب آخر لا أذكر الآن حينما يقول بأنه لا يُنصح للمريد المبتدئ أن يقرأ القرآن لأن القرآن يفرّق جِمعيته. كلمة جِمعيته هذه لها شرح عند الصوفية؛ لأن المقصود هو اتحاد الذهن لشيء معين، كي لا يتفرق ذهنك بأشياء متعددة، والقرآن يفرق ذهنك في الحديث عن الشرائع وعن الغيب وعن الوجود وعن كذا وكذا، فيفرق جِمعيتك، فينبغي أن تكون جِمعيتك متجهة إلى شيء واحد حتى تصل إليه، فبعد ذلك تنحل عندك بقية المسائل والمشاكل.

أقولها وأجري على الله أرجو ألا يُعتب عليّ: يقول الغزالي كيف لك أن تذوق المعاني وهل الألفاظ تقرب المعاني؟ قال هب أن رجلًا طُلب منه وصف الجماع، ماذا يقول؟ حلو؟ جميل؟ رائع؟ لذة؟ كلها لا توصل المراد، وأظنه يحاول أن يقرّب ما معنى ذوق الكلمات، فهذه الكلمات لا تفيد ولكن لا بد أن تذوقها، أن يُكشف لك الحجاب.

والكشف موجود في كل تاريخ البشرية يرافق المذاهب والأفكار، وبعضهم يقول به قولًا جزئيًا، وبعضهم يقول به قولًا كليًا. ولكن هذا المنهج (الصوفية، الغنوص، العرفان، الإشراق) كلهم يكشفون حقائق ما يعتقدون به، دلّ على أن الكشف باطل. يعني من قال بصورة من صور الربوبية فكُشف له، الكشف يؤيد ما يعتقده. فصحيح الكشف وسيلة واحدة، ولكن ما يُتلقى عنه مختلف. لكن الغريب أن الجميع منذ أن رُصدت ظاهرة التصوّف، أو الغنوص، أو الإشراق، أو العرفان، منذ أن كُشفت وأصحابها يقولون بوحدة الوجود.

وكأن الشيطان وهو أستاذهم الأوحد في هذا الباب بأن من يصل إلى المعرفة المزعومة، -وقلنا المعرفة في الطريقة الأولى تصل للمعرفة عن طريق الوحي والنبوة، الثانية عن طريق العقل والتفكر، الثالث عن طريق الكشف- ما هي نهايتها؟ الوصول إلى وحدة الوجود، وأن يذوق الكلمات.

أحدهم يقول: ولقد ذقت الألوان. صار يتذوق الألوان، لا يكفي أن يعرفها ويراها أخضر كما تراه أنت، ولكن هو يذوق هذه الألوان. ولكنها في موضوع الربوبية تصل إلى حقيقة واحدة وهو القول بأن الله هو عين هذا الكون، لا يوجد رب وإله إلى آخره.

ونجد أن أصحاب العرفان يصلون إلى هذه المقالة منهم من يصرّح بها، أن الله هو هذا الكون وأن الكون هو عينه الله، وهي نفس المذهب الشيوعي، القول بأن الله هو عين هذا الكون هو القول بأنه لا إله والحياة مادة. يعني بأن الله هو المادة وهو كل شيء، نفس النظرية ونفس الطريقة. فإذًا الذي يقوله هؤلاء حينئذ يصل إلى حقيقة واحدة وهو الوصول للمعرفة عن طريق الكشف.

هذه الطريقة غريبة، ولكنها كما ترون لذيذة. فحين يصبح المرء ذواقا للكلمات فهو يشعر بالبهجة والمتعة. ويكفي أننا نرى شخصية كالغزالي كبيرة في عقلها، قوية في أدواتها الصارمة العلمية المناظرة، لكنها تسقط فيها، بحيث يقول إنه لا يوجد أحد ممن عاشرتهم يعيش معاني ما يعتقد إلا الصوفية. هم يعيشون المعارف حقيقة. المتكلمون يعيشون ألفاظًا، ولهم كذا وكذا من السلوكيات، وكأن الغزالي بالفعل مفعمٌ بقضية السلوك، وهو رجل جدي.

هذه حقيقة يجب أن تُثبت لهذه الشخصية للغزالي أنه رجل جدي لا يأخذ الأمور بلعب ولا بلهو ولا بمتعة فكر، إنما هو يريد أن يحس المعاني، ولما يقرأ الفقه ينظر للفقهاء يعيشون غير الفقه الذي يتكلمون عنه. لما يأتي للفلاسفة يتكلم عنهم سلوكيًا وعقليًا إلى آخره.

الآن نأتي للباطنية، لأنه كان ينبغي أن نقدم قبل الكلام عن التصوف الذي انتهى إليه الكلام عن الباطنية؛ لأنها جزء من معارف عصره التي تكلم عنها في المنقذ من الضلال. لكن لما يأتي إلى الصوفية يقول هؤلاء يجاهدون حقيقة نفوسهم لأن تصل المعارف إلى قلوبهم وأحاسيسهم وبالتالي هم أهل الحق.

لا يهم الغزالي هنا ما هي الحقائق التي يصل إليها هؤلاء، إنما يهمه أنهم يعيشونها وهم صادقون، ويبذلون الجهود العظيمة الشاقة التي توصلهم لهذه الحقيقة، وهو مبهور بهذه المجاهدة. هذا السهر، هذا الجوع، هذه الخلوة، هذا المشي في الصحراء بغير ركوة من ماء ولا غذاء ولا طعام، هذا رجل يعيش سبعين عامًا على البقوليات في الصحراء، هذه بهرته مع أنه عقل صارم حديدي، إلا أن السلوك الصوفي لا يوجد في الإسلام فقط.

هذه السلوكيات كما تعرفون موجودة في غير الإسلام. يعني تذكيرًا بثاني كتاب قرأناه هو ماذا خسر العالم، عندما يأتي أبو الحسن الندوي عليه رحمة الله إلى الممارسات المسيحية في التصوف، أن هناك عابد صوفي، وعابد صوفي مسيحي. كما أنه يوجد عابد صوفي مسلم يوجد عابد صوفي مسيحي، وكل واحد يمارس العبادة تحت ظل دينه. مثلًا السهر ماذا يُسمى في ديننا؟ قيام الليل. الجوع؟ صيام. الخلوة موجودة وهي قضية العزلة.

لكن هذا الذي رآه صارمًا، ورآه مهمًا، ورآه يعالج ما يريد أن يكسر نفسه على قاعدة التصوف "أريد ألا أريد"، يريد أن يكسر شخصيته. مرات أفكر كأن حالة الغزالي أشبه بهذا الذي يعيش في الغرب وبلغ الزبى في تحصيله كل ما يريد، وبعد ذلك ماذا يريد. فماذا يفعل كثير منهم؟ ينتحر، لكن كثير منهم يذهب إلى مذاهب الغنوص. تجده يذهب إلى الهند ويأخذ أديانهم ويحبها ويتغير ويلبس لباسهم ويمارس طقوسهم لأنه يبحث عن شيء ما، وإلا يذهب إلى الحشيشة وإلى المخدرات، أو أن يتصوف.

والعجيب جدًا أيها الإخوة الأحبة أن كثيرًا من المفكرين انتهى أمرهم إلى التصوف، بعد أن ظنوا أنهم قد بلغوا الغاية من إدراك الحياة ومعانيها المادية الظاهرة، كحال الغزالي وهو يظن أنه قد بلغ الغاية في الفكر والنظر عن طريقة المتكلمين وعن طريقة الفقهاء وعن طريقة الفلاسفة وعن طريقة الباطنية فلم يجد شيئًا، وجد كلمات فقط تتردد وهو يريد أن يحس.

يعني مثلًا إذا سمعتم بمؤنس الرزاز وهو رجل غريب جدًا، هو رجل قومي أبوه منيف الرزاز الشهير القائل بالبعث صاحب كتاب التجربة المرة. وهو رجل لا يمت للدين بصلة ولكنه ملئ من الأفكار وكل يوم كان يكتب، وهو صاحب قص معروف، وكان له دائمًا عمود في إحدى الجرائد الأردنية، ففي النهاية أُصيب باكتئاب شديد، فدُلّ على بعض مشايخ التصوف. يريد أن يحس هذا، يعني كالذي ذهب إلى المخدرات. هذه حالة موجودة.

أحد التحريرين وكان تحريريًا جلدًا، ولكنه فوجئ لما أخذ إلى المخابرات أنّ كل التحريرين الذين أخذوا معه لم يصمد فيهم أحد، فأصيب بنكسة أن الكلام لا يصنع رجالًا، فانتكس وصار صوفيًا، وصارت عمدة كتبه هي كتب ابن عربي الطائي المكي الذي يُسمى تهوينًا لشأنه بالنكرة مقابل ابن العربي المالكي الشهير.

للذكر ابن عربي الطائي صاحب فصوص الحكم كان ظاهريًا في الفقه. يعني من العجائب.

القصد أن البعض يريد أن يهرب من الظواهر لأنه يرى أنها لم تشبع غايته. وبلا شك أن هذا من جنايات التصوف على العالم المسلم. حتى إن البعض يأخذ منها بعضها، يعني بعض الناس يظن أنه خارج نظام التصوف لكن التصوف مغري؛ لأنه يتحدث عن حقائق، وتمثل، وخروج من الإنسانية. الرجل يخرج من الإنسانية ويصبح شيئًا آخرًا يُسمى عند فقهاء التصوف الإسلامي بالولاية. ووصول طبقة الولاية شيء مغري ومحب.

وهذا نجده عند الناقدين لعالم الإسلام. يتحدثون عن التربية بالطريقة ذاتها، وهو أن يترقى المرء في التربية حتى يضبح وليًا، ووليًا يعني خارجًا من إنسانيته. وهذه طريقة باطلة يجب أن نحذر منها. الحديث عن التربية صحيح ولكن ليست هي التي تؤدي بالمرء لمرتبة الإيمان.

مرتبة الولاية أي مرتبة الوصول عند الصوفية، وهذا يرجعنا إلى طريقة تسمية الأشياء بغير أسمائها، يسمونها بأسماء إسلامية فيسمونها ولاية، والولاية هي الوصول. يعني خرج من إنسانيته، يعني لا يخطئ بعد ذلك، مع أن الإيمان يزيد وينقص، ويمكن أن يكون الإنسان في قمة الإيمان ويقع في المعصية، فيتوب منها ويخرج منها إلى قمة الإيمان التي كان عليها، هذا مفهوم إسلامي يقابل مفهوم الغنوص الموجود في خروج المرء من بشريته.

إذًا الغزالي تذوق، وهذا الذوق بعد أن مارس الطريقة الصوفية. الطريقة الصوفية في كل أديان البشرية حقيقة وطريقة. الطريقة تنشأ من خلال الدين الذي يقوله، وكلها تقوم على مجاهدة النفس بما يخالف الشرع، ويسبغون على ما يخالف الشرع أسماءً إسلامية كما قلنا.

وحين يعجز الإسلام لا بأس من الاجتهاد! مثلًا من الجمعية التي يريدها الصوفية ومنهم الغزالي في بعض كتبه، الجمعية هو ألا تشتت ذهنك. حتى كلمة سبحان الله تشتت لا بد أن تردد كلمة واحدة. فأنتجوا بدل أن تقول طاو في المذهب الطاوي تقول الله. وهناك من جاهد كثيرًا لإدخال التصوف في عالم الإسلام من هؤلاء سعيد حوى.

لأن سعيد حوى في كتابه (تربيتنا الروحية) خرج من جلده ليقول إن هناك تصوف إسلامي، وأن التصوف يمكن تنقيته من كل الشوائب، ويمكن أن ننتج تصوفًا إسلاميًا لأننا بحاجة إلى هذا التصوف من أجل إنشاء تربية إسلامية نفقدها في حلقات العلم، نفقدها في حلقات الجهاد. فكما أننا ننشئ فقهًا في حلقات الفقه، فلا بد أن ننشئ تربية في حلقات التربية. هذا جيد وإن كان عليه ما عليه، لكن لنوافق هذا.

عندما بذل هذه الجهود العنيفة في كتابه وصل إلى الذكر المفرد! خرج عن كل ما تقدم من الكلام وقال بأن الذكر المفرد مشروع ومحبوب، بل يردد كلامه أنه أفضل. يعني أن (الله الله الله) هي أفضل الذكر من بقية الأذكار الأخرى؛ لأن الأذكار الأخرى فيها تجزئة لمعاني التعظيم. لما تقول سبحان الله تنزهه لكن لا تعطي كل مراد التعظيم. أين التنزيه مثلًا من التكبير؟ فاحتجت إلى سبحان الله والله أكبر. واحتجت إلى الثناء على الله وحمده فقلت الحمد لله.

إذن كل كلمة مدحية لله من الذكر لا تغطي تعظيمك لله التعظيم التام الشامل إلا كلمة واحدة وهي أن تقول (الله) فقد عظّمته التعظيم الشامل والتام. يعني جعلها أفضل. هذا من؟ سعيد حوى!

القصد من هذا أيها الإخوة الأحبة أن الغزالي فتُن بهذه الطريقة وأحسّ أنه وصل وذاق وعرف وأنه تمثّل المعاني الفكرية التي يؤمن بها من خلال الذوق، وقال كلامًا خطيرًا جدًا في مقدمة مدحه في كتاب المنقذ من الضلال لهذه الطريقة أن الصوفية يرون الملائكة ويحدثونهم!

واضح أنه بدأ يعيش بهذا الدور وهو دور الخروج عن إنسانية الإنسان، الخروج عن الشرع، لكنه ممتع. بلا شك أن المرء بدلًا أن يأخذ واسطة من حديث من كتاب يجلس مع النبي ﷺ! وبدلًا من أن يأخذ من بشر يأخذ من الملائكة، وهكذا. هو بدأ يحس بهذه المعاني والتي أفرزها في كتابه (المنقذ من الضلال).

هذه طرق المعرفة في الوجود. أما الطريقة الباطنية سنعرج عليها، وقدر الله أن تكون الأخيرة بالرغم أنها ينبغي أن تكون قبل الطريقة الصوفية التي انتهى إليها خاتمة لرحلته في كتاب المنقذ من الضلال؛ فالإنقاذ من الضلال هو أن تكون صوفيًا وأن تعيش الحقائق العلمية، أن تعيشها كشفًا وذوقًا وممارسة.

والباطنة كانت منتشرة في عصره فعرّج عليها، وهذه الباطنية في الحقيقة هي معالجة لقضية النص الآخر، فالفلسفة هي إنتاج نص، لا تعتمد على الآخرين. الوحي هو تلقي نص، لا ينتج نصًا، يتلقى الناس النص فيفهمونه. الصوفية كما ترون هي أن يذوق النص، ولكن الباطنية هي تفسير النص، لكن لسطوتها في عصره فجعلها منهجًا مستقلًا.

ما هي الباطنية؟ عماد الباطنية بأن ظواهر الألفاظ غير مرادة، ولا يقدر أحد على تفسيرها إلا الإمام، إلا أناس خاصة، وأن كل لفظ له ظاهر وباطن، وأن الباطن قد يخالف الظاهر، ولا يمكن معرفة هذا الباطن إلا بأن يخبرك إمام به. فبلا شك أن الشيعة الروافض يجعلونه إمامهم، والسبعية الإسماعيلية يجعلونه إمامهم.

القصد أن هذا المذهب كان منتشرًا، لأن الإمام هو باب المعارف. ومن هنا نشأ حديث الضلال أنا مدينة العلم وعلي بابها، وهذا باطل. وهو على المعنى الظاهر بأن تأخذ العلم من طريق علي، لكن في الحقيقة معناه الذي حُمل عند واضعي هذا الحديث ومن مارسه بأنه لا يمكن أن تلج معاني هذه النصوص التي جاءتك من النبي إلا من خلال تفسير الإمام، وكل زمن له إمامه الذي يفسر، وبالتالي تنشأ الأهواء التي يُنتهى بها من أقوال هؤلاء.

يعني عندما يسبون عائشة يبحثون عن أي كلمة فيها سب في النص على شيء كقول الله تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً} قالوا المقصود عائشة. يمكن أن يقول لك هذا، ويمكن أن يفسر لك النص كما يحب، كالصلاة مثلًا يفسرها معرفة الإمام، الصوم هو هجران أعداء الإمام، هكذا يفسرونها تفسيرات باطنية باطلة كما تعلمون.

أرجو أيها الإخوة الأحبة وقد أطلت عليكم أن أكون قد أتيت إلى ما يمكن أن يكون كافيًا إن شاء الله تعالى، مع أن كل كتاب وأنا أعيد وأكرر لا يكفي أن تقرأه من كلامي، اقرأ الكتاب نفسه وعرّج على ما يقوله الآخرون، فإن شاء الله تصب المراد وبارك الله فيكم.

الكتاب القادم إن شاء الله تعالى هو كتاب رسائل إخوان الصفا.

[٢٢]

مناقشة كتاب (رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء)

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلله فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله، وصفيّه وخليله، بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، ونصح للأمة وجاهد في الله حقّ جهاده حتّى أتاه اليقين. وتركنا رسول الله ﷺ على المحجّة البيضاء والطريق الواضح، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلّا هالك ولا يتنكّبها إلّا ضال. أمّا بعد؛

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالًا بعيدًا.

أيّها الإخوة الأحبّة، أهلًا وسهلًا بكم في لقاء جديد مع كتاب جديد في مشروع "ألف كتاب قبل الممات". نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يعيننا على تقديمه كما ينبغي، وتقديم ما ينفع لهذه الأمّة.

هذا الكتاب اليوم أيّها الإخوة الأحبّة هو كتاب شهير في عنوانه لكنّ الباحثين في داخله وتاريخه وأثره قليل. يعني النّاس دائمًا والعوام حين يرون جمعًا على الصفا يقولون أنتم إخوان الصفا. وهذه الكلمة كأنّها صارت مثلًا على حسن التعامل واللقاء وحسن الصداقة. وأنتم تعرفون الشاعر العذريّ حين قال واصفًا عشقه بحبيبته عشقًا كما يصفونه بريئًا فقال:

فقُلْتُ لَهُ: إنَّ المَودَّةَ بَيْنَنا ... علَى غَيْرِ فُحْشٍ والصَّفاءُ قَدِيمُ

فهذا الكتاب لم يحدث أثرًا كبيرًا في تاريخ أمّتنا؛ وهذا سببه طبيعة هذا المنهج الّذي يبحثه هذا الكتاب. الخطورة في بعض المناهج هو أنّها تدخل في داخل الأمّة، وتسري في الفقهاء خاصّة. أمّا بقاء الأفكار في عالم الأذهان فقط هذا لا يحدث أثرًا. وخاصّة أنّ أصحاب هذا الكتاب حين برّروا سريّة هذا الكتاب ومباحثه ورسائله، قالوا: إنّنا لا نكتمه عن الناس بسبب الخوف من الطغاة ولا بسبب الخوف من الجماهير. هذا في المجلّد الرابع يقولون هذا الكلام.

يقولون السبب أنّ هذا العلم هو علم صاف، وعلم مقدسٍ، وعلم شريف جليل، ينبغي أن نُبرّأ هذا العلم من أن يلج في أذهان الدهماء، وهذا شيء جيّد، جيّد بالنسبة إلينا حين يقول المرء هذا الكلام؛ تعلم أنّ ما سيقوله هو علم خاصّة. فسيبقى حبيسًا في دائرة الخواص.

إنّ انحسار تأثير هذا الكتاب في النّاس وفي المجتمعات؛ بسبب مراد أصحابه. أصحابه قالوا هذا العلم الّذي نبثّه في هذا الكتاب هو علم خاصّ ولا يليق بالدهماء، ولذلك علينا أن نختار النّاس الّذين لهم استعداد لهذه العلوم. من هم هؤلاء النّاس؟ هم يصفونهم أنّهم أصحاب حكمة، وأنّهم أصحاب تربية أخلاقية، وأنّهم أصحاب تميّز عن بقية البشر. ويصفون أنفسهم بالأطباء، وهذا سنأتي إليه لأنّه مهم. فلذلك هذا الكتاب بقي تأثيره خاصًّا.

العجيب أنّ هذا المقصد انقلب إلى الضدّ، بمعنى أنّهم أرادوا لهذا الكتاب ولهذه المعاني -وسنبيّن من هؤلاء-، أنّهم أرادوا أن يكون هذا العلم علم خاصّة وأصحابه أهل تميز. العجيب أنّ الّذين انتشر فيهم هذا العلم هم أجهل الخلق، وهم أهل البداوة والجبال! ولم ينتشر في المدن وهي حواضر الإسلام الّتي ينتشر فيها العلماء. وهذا يذكّرني بالشيوعية فورًا، كيف؟ الشيوعية تزعم أنّها خلاصة الفكر الإنساني.

كانت الفلسفة قبل الشيوعية فلسفة مثالية، جاء هيجل وضعها على خطّ الفلسفة المادية ثمّ جاء ماركس أوجد لها حججًا تاريخية وزعم أنّ هذا خلاصة البشرية.

العجيب أنّ خطابهم لم يكن موجهًا إلى العقلاء والعلماء والأذكياء، كان موجهًا إلى الجهلة العمّال، وأين العلماء؟ في غياب. ولذلك الّذي يريد أن يتعالى على الخلق وأن يتعالى على النّاس في الخطاب؛ سينقلب الأمر إلى ضدّه.

والعجيب كذلك أنّهم جعلوا هذا الكتاب، حتّى لا نُغرّ بالعناوين والشعارات، الّذين جعلوا هذا الكتاب خاصًّا لأناس ارتقت أخلاقهم وصفت نفوسهم حتّى التقت بالعقل الكلّي في ممارساتها وسلوكها، لما يأتي خصمهم اللدود الحريري، كما وصفه أبو حيّان التوحيدي في خصومة هذا الرجل لإخوان الصفا ولأصحاب إخوان الصفا، يبيّن أنّهم من أفجر الخلق وأقلّ الناس التزامًا بالشريعة؛ فهم أهل زنا ودعارة، وهم أهل سرقة ولصوصية وهم يمشون مع كل ناعق ولا يتركون طاغية إلّا ويكونون أحذية له، ولم يحدثوا أيّ أثر أخلاقي في حياتهم ولا في حياة من ينتسب إليهم.

فانظر كيف انقلب الأمر في شقيّه إلى ضدّ ما أرادوا. أرادوا الفكرة أن تكون خاصّة لأهل الحكمة فكانت في أهل البداوة والجبال. من الّذين انتشرت فيهم القرمطة؟ -وسنبيّن أنّ هذا الكتاب كتاب قرمطة-، أهل البداوة والجبال. ولم ينتشر قطّ هذا الدين الإسماعيلي القرمطي السبعي الباطني بين أهل المدن، ودولهم قامت على الأطراف. يعني قلعت آل موت الّتي هي في

خراسان، هذه قلعة نائية معزولة ولم يستطع أن يصل إليها كبار الجيوش، وإنّما هُدمت عن طريق تيمورلنك، التتار جاؤوا وأحرقوها وأحضروا نارًا عظيمة فحرقوا القلعة بأكملها وذهبت في غياهب التاريخ.

قامت دولتهم المصلحية الإسماعيلية المستعلية، وهذا ما سأبينه في اليمن في الأطراف، وعامّة أتباعهم من الجهلة، قامت دولتهم الّتي غزت مصر وغلبتها في البربر وفي أهل الجبال، ولم تقم بين أهل العلم وأهل الحضارة والتمدّن والفهم.

الشيء الثاني في أثرها السلوكي، لم تثمر ما أرادوه أو زعموه، لم تقم على الرجال الّذين طلبوهم ولم تحدث أثرها في الناس الّذين تبنوها.

وأنا أنصح من أراد أن يعرف بيئة هؤلاء الّذين كتبوا هذه المقالات والرسائل، أو أراد أن يعرف أثرهم على تلاميذهم فليقرأ كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي. وأبو حيّان التوحيدي أمين في الحقيقة في المقابسات وفي الامتاع والمؤانسة، في المجالس الّتي أنشأها مع الوزير كان أمينًا، بخلاف مثالب الوزيرين فإنّه كان صاحب نفس غضبية؛ سبّ وشتم وجدّع وظلم وافترى، إلى آخر ما يُقال عنه من قبل الناقدين له.

إذًا أيّها الإخوة الأحبّة، هذا كتاب الخاصّة ووجدنا أنّه انقلب إلى ضدّه ولم يكن للخاصّة. ولذلك إذا كان هذا الكتاب كما نقول عديم التأثير، فلماذا نهتمّ به ونقرؤه؟ السبب مهمّ جدًا، السبب أنّ المناهج الّتي نحن نعيشها هي ظلّ للمناهج الّتي عاشها أهل الإسلام في تاريخهم. وهذه نقطة يجهلها الكثير. ليس فقط في أنّ الإسماعيلية لا زالت موجودة.

واسمحوا لي أن أبيّن –لأنّ هذا موطنها في البيان– من هم الإسماعيلية بنسبة إلى شجرة الرفض، لأنّهم من الرافضة. لا نقول بأنّ هذه المناهج الّتي تبنّها أصحاب إخوان الصفا والإسماعيلية، لا نقول فقط بأنّها موجودة لوجود المذهب الّذي ينتسبون إليه. يعني الإسماعيلية لا زالت موجودة؟ نعم موجودة، وعندما نُوقش أحمد سعيد أدونيس في رسالته الثابت والمتحوّل، وهو دعا إلى قضيّة تبني المذهب القرمطي في تفسير البيان في كتابه الّذي أخذ عليه رسالة الدكتوراة، الّذي يُسمّى بأدنويس.

المناقش قال له: شدّتك مذهبيتك –لأنّ أحمد سعيد من السلمية الإسماعيلية–. والسَّلَمية هي مركزهم، السَّلمية في سوريا هي مركز الإسماعيلية الأغخانية. فقال: شدّتك مذهبيتك. هو يريد أن يدمّر اللغة، أو كما عبّر عنها بتفجير اللغة على أساس الاعتماد على المذهب الباطني الّذي لا يرى علاقة بين ظاهر اللفظ وبين باطنه، وإنّما يُؤّول؛ ولذلك أنتم رأيتم كتاب القرآن

قراءة معاصرة لمحمد شحرور هو يعتمد على هذا. يعتمد على أنّ الألفاظ القرآنية لا تُفسّر بطريقة اللّغة الّتي جرت عليها العرب، وإنّما يعتمد على أسس أقرب إلى الباطنية منها إلى الظاهر.

فليست الخطورة في وجود هؤلاء، وإلّا لكان واجبًا علينا بأن نرى نسبة هؤلاء الباطنيين في عصرنا، وما هي نسبة قوّتهم في عالمنا الإسلامي حتّى نتكلّم عن الإسماعيلية. يعني عندما نحن نتكلّم عن الرافضة، الرافضة لا يشكّلون خطرًا فقهيًا. هم حالة وسط كالمخانيث (مخانيث الفكر) بين البياني وبين الباطنية. الرافضة الاثنا عشرية في موضوع تفسير النص يقفون في الوسط بين احترام النصّ وبين الباطنية. ولذلك هم يقولون القرآن والسنة ولكن بماذا؟ لا يقولون بأنّ الظاهر غير مراد، بل يقولون بأنّ النصّ المعصوم معصوم، ويقصدون بالمعصوم الأئمة.

الباطنية لا يقولون هذا، يقولون المعصوم موجود ولكن له الحقّ في تفسير النصّ حسب مراده حتّى لو خالف الظاهر من كل وجه.

فالقصد حينما نقرأ الرافضة لا نقرأهم لخطورتهم في تفسير النصّ، يعني لا يوجد لهم أيّ تأثير. الرافضة في تفسير القرآن والسنة لا وجود لتأثيرهم أبدًا في عالم الإسلام. من أيّ جهة نقرأ الرافضة؟ نقرأه من قيمة أثرهم الماديّ على الواقع في كونهم أكثرية في كونهم صار لهم دولة في كونهم لهم سلاح، لهم مال، خطورتهم خطورة مادية وليست فكرية. الفكر الباطني لا وجود له خطير، كتنظيمات. يعني الإسماعيلية كم عددهم في الوجود؟ قليل. والآن سأبيّن ما هي أقسامهم، وسأكرّر هذه الكلمة؛ حتّى أصل إليها من هم الباطنية.

ولكن أين الخطورة؟ الخطورة أنّ تفسير النصّ ما زال يتراوح بين طريقة النبيّ وأصحابه وبين التأويل. والقرآن الكريم معصوم من زيادة الحروف أو نقصها، لكن ليس معصومًا من التأويل. هذه قلتها عشرات المرات. القرآن ليس معصومًا من التأويل بمعنى هل يمكن أن يُؤّول القرآن تأويلًا باطنًا؟ يمكن، لوجود المتشابه فيه {يَتَبِّعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}، فإذًا يمكن أن يُؤوّل.

إلى أيّ درجة تأويل؟ فتح باب التأويل مجرّد فتح روزنة نافذة صغيرة إليه، حينئذ أنت سمحت بأن يُفتح الباب إلى اللّانهاية، وهذا الذي أشار إليه بن القيم –رحمه الله– في الردّ على المؤوّلة حين قال بأن فتح باب التأويل يعني تدمير الشريعة. وحين يقول واحد بكلمة أنّها تُؤوّل حينئذ لا تستطيع أن تضع قانونًا لضبطها ومنعها.

ومن هنا فأشهر تجربة في التاريخ الإسلامي لضبط قانون التأويل فشلت. وهي تجربة الغزالي في كتابه قانون التأويل. لم يستطع مع عقله الكبير ومع تجربته المتّسعة واحترامه الفقهي والبياني إلّا أنّه فشل ولم يستطع؛ لأنّ التأويل غلط، لأنّ التأويل غير صحيح. نقول التأويل بمفهومه البدعي وليس التأويل بمفهومه الفقهي أي الاجتهاد بل نفرق بينهما.

أين الخطورة هذه؟ الّذي قاله هؤلاء الإسماعيليون أو القرامطة أو السبعيون أو الباطنيون في رسائل إخوان الصفا ما زلنا نعيشه وما زالت الأمّة تعيشه. محاولة التوفيق بين الإسلام وبين غيره، هذا مشروع باطل لا يجوز. القرآن {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ} يقذفه، ويدمره. {يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}. في عالم القيم، وعالم المفاهيم لا التقاء. حتى لو التقت في الفروع فإنّ التكييف مختلف.

يعني أنا دائمًا أقول هذه الكلمة: حين يأتي البرلمان ويقرّ شريعة توافق الإسلام في ظاهرها، هذه ليست حكمًا شرعيًا ولو التقت مع الإسلام في الظاهر. فلو افترضنا أنّ البرلمان اجتمع وصوّت على حرمة الخمر، قال البرلمان الخمر حرام ويُعاقب عليها حتّى ولو اتّفقوا مع الشريعة في الأصل أي الحرمة وفي الوصف أي في العقوبة، فهذا لا يُسمّى حكمًا شرعيًا؛ لأنّ تكييفه لا يلتقي مع الإسلام. الأصل أنّ الحكم الشرعي هو خطاب الله تعالى.

هنا لم تأخذه لأنّه خطاب الله؛ ولذلك لا يلتقي. والإسلام في هذا الموضوع، في موضوع القيم وموضوع المفاهيم يجب أن يكون وحيدًا وهو الوحيد القادر أن يقدم منظومة كاملة كلّها تتلقّي من مصدر الحقّ وهو الله. هذا يغيظ المشركين والمبتدعة، في مرّات يقبلون بأنصاف الحلول، والقرآن قال هذا {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}، {يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ}، ممكن يحاوروك لأنّ الكفار عام ليس عنده مشكلة، لأنّه لمجرّد دخول عالم المساومة انتقض أصل الإسلام. مجرّد أن تقبل الآخر أن يكون له حقّ، أن يقول قولًا يلزمك به في منتصف الطريق لتلزمه بحقّ أنت تقول فيه، انتهى الإسلام وانتهت كلمة الإسلام؛ فالإسلام يعني التسليم لله. وأنت هنا ما سلّمت لله، أنت سلّمت لهم.

هذه النقطة صراع الجاهلية منذ محمّد ﷺ إلى يومنا هذا، كلّها تدور حول هذه النقطة.

هناك أناس زعموا العبقرية، كما أنّ هناك أناس في زماننا يزعمون العبقرية السياسية والعبقرية الفكرية والعبقرية الفلسفية يريدون أن يقولوا ما قاله القدماء، ولكن هذه الفتنة تتشكّل تشكّلًا مختلفًا في كل عصر تتلاءم معه.

ما الذي أراده هؤلاء إخوان الصفا؟ أرادوا أن يجعلوا كل ما يقولونه من معتقدات مصدره الكتاب والسنة. من أين أخذوه؟ هذا موضوع ثاني. ما هو مصدر إنشاء القيم والمفاهيم الّتي قال بها إخوان الصفا؟ هذه لا ينتهي أمرها. أخذوها من الهنود، أخذوها من اليونان، يعظمون ما عظّمه أفلاطون، وما قاله أرسطو، يعظمونها تعظيمًا أشدّ من تعظيمهم لكتاب الله.

ولذلك هم يقولون القرآن والنبيّ جاء للمرضى والفلسفة جاءت للأصحّاء! إذًا هذا المريض نعطيه من أجل أن نلحقه بدرجة الأصحّاء.

إذًا مقصد الكتاب عندهم ما هو؟ هو أن يصل إلى درجة ما تقدّمه الفلسفة. إذًا الّذي يقولونه هو دينهم لكن من أين يعتمدوه؟ اعتمادًا على الكتاب والسنة. هذا هو الذي أرادوه.

إذًا نحن نتعامل مع كتاب باطني أراد منه أصحابه أن يجعلوا ما يقولونه من مذاهب وصلت إلى السحر، يعني حتّى السحر. والحقيقة إخوان الصفا جماعة يتوافقون مع العصر الحديث تمامًا، يعني الآن ما هي قمّة ما يزعمه الغرب من ديمقراطية وحريّة، ما هو أعظم ما يقولونه؟ هو قضيّة حرية الشخصية. يعني عندما يسبوننا ويحتقروننا مثلًا لأنّنا نطلب البكارة. هذه يعتبرونها حقارة وقذارة، طلب البكارة هذا تخلف ووحشية، هذه كانت قضيّة كبيرة عندهم الآن قضيّة أكبر، يسبوننا ويحتقروننا؛ لأنّنا مثلًا نقتل من عمل بعمل قوم لوط، ويعترون أنّ قمّة المدنية هو حبّ الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة هذا قمّة الإنسانية، إخوان الصفا يجعلون هذا، يجعلون أنّ من أعظم ميزات المدنية خلاف الجماعة المتوحشين هو قضيّة إتيان المردان.

انظروا إلى الأخلاق الّتي يدعون إليها! لا تغرك كلمة الحضارة ولا تغرّك كلمة الفلسفة في أفقها الأعلى، ولا تغرّك كلمة الحكمة الّتي يزعمونها، كل هذه كلمات فقط رشّ سكر على العذرة أجلّكم الله. رشّ سكر على القذارات والعذرة وهو رشّ للطيب مع وجود القاذورات كما هي فقط؛ من أجل أن تخدع السذّج.

هذه المقدّمة مهمّة جدًّا. إذًا لماذا نقرأ هذا الكتاب؟ أنا أقول دائمًا لن تعرف واقعك حتّى تقرأ تاريخ الإسلام. هذه قضيّة مهمّة جدًا. ولن تعرف تاريخ الإسلام معرفة جيّدة في أحكامه وتضع كل إنسان في التاريخ في داخل مكانه حتى تكون قارئًا للقرآن. القرآن هو كتاب التاريخ. القرآن هو الّذي ينصب لك شواهد السور للبشرية جمعاء، كلّ البشرية.

إيّاك أن يغرّك قولهم أنّ القرآن كتاب عمومات! القرآن فقط يقول لك كفّار ومسلمين ومنافقين! هذا غير صحيح. القرآن ما من شخص في الوجود منذ آدم إلى يومنا هذا إلّا وله ذكر في حالته في القرآن، على أيّ حالة كان، كان مؤمنًا عظيمًا، كان

مؤمنًا عظيمًا طالبًا للاطمئنان، كان مؤمنًا عظيمًا متردّدًا ثمّ أقبل للشهادة. نحن ما زلنا في المؤمن العظيم. هذه شخصيات في القرآن. ثمّ يأتيك الكافر ما هو أنواعه، يأتيك الإنسان كيف يكون عاصيًا ثمّ يرتقي إلى درجة العظماء. كلّ ما أقول شيء أظنّكم تستحضرون صورة من القرآن أليس كذلك؟ كصورة السحرة وصورة إخوة يوسف.

حتّى الرجل الذي عنده طيبة ومربّى تربية إسلامية وتربية دينية، حتّى لو غلبت عليه شهوته وأخذه حقده البشري في أن يفعل {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا}، لكن إيش انتهت؟ قال لهم اتقوا الله وخافوا الله ولماذا نقتله، نضعه في الجبّ وانتهى الموضوع. هذه صورة.

لكن انظروا إلى قوم إبراهيم قالوا اقتلوه، بدأت بالأدنى ثم انتهت بـ{أَوْ حَرِّقُوهُ}، حتى تبيّن لك صورة الإنسان الطيّب إذا أقبل على المعصية، في الأوّل ربّما يكون مقبلًا عليها هو يريد أن يفعلها ثمّ تخف إلى درجة ثمّ تنتهي درجتهم إلى أن يكونوا كواكب {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا}، لما رموه في الجبّ أم لما سجدوا له؟ كانوا كواكب لما سجدوا له. تابوا إلى الله وصاروا كواكب.

هذه الصور قرآنية. القرآن يطرح كل صور الكفر بكل أنواعه. ما من شخص في الوجود إلّا وله صورة في القرآن. المطلوب هو أن ترفع هذه الصور القرآنية كمرايا في الوجود. كلّ إنسان يدخل في الصورة، تدخل كلّ إنسان وتدخل نفسك، وترى حالك على أيّ صورة، ربّما مشوّه في وجهك لكن سليم في يديك، ربّما مشوّه في رجليك لكن سليم في وجهك. القرآن يطرح كل هذه الصور؛ يطرح صورة المؤمن الّذي ينقلب لكافر، والكافر الذي ينقلب لمؤمن وهكذا.

القرآن يطرح التاريخ. هذه لماذا قلتها؟ من أجل أن ندخل صورة –وأنا سمّيتها في كتاب صبغة الله الصمد رفع المرايا–، يجب أن نرفع القرءان مرايا في الوجود؛ حتّى ندخل الناس كلّهم فيه.

هذه القضيّة تنصبغ على قيمك في تقييمك لتاريخ البشرية، وخاصّة لتاريخ الإسلام. أي الآن ارتقيت من القرآن إذا درست التاريخ، المقصود ليس فقط الذي مات. ولذلك أنا قلت لكم في مناقشة الغزالي أنّ الغزالي كشخص لا يهمّني، هو مات وأفضى إلى ما قدّم. أسأل الله –عزَّ وجلَّ– أن يكون في عليّين. أنا لا أناقش الغزالي كشخص ولا ينبغي أن نناقشه كشخص إلّا إذا اضطررنا إليه. يعني المحدّث يهتمّ بأن يعرف هذا الرجل كيف هو من أجل أن يقبل حديثه ويردّه. لكن نحن نقرأ الغزالي ككتب، هذا كتاب حسن وهذا كتاب سيّء وهكذا.

فنحن الآن نقرأ التاريخ من أجل أن نستفيد في دراسة واقعنا. ما معنى دراسة الواقع؟ هو أن ترى كلّ إنسان حولك، وكلّ إنسان يشاركك زمانك أنّه موجود في القرآن، وأنّ مثيله موجود في التاريخ.

وللذكر ابن القيم لما ناقش موضوع القياس مناقشة طويلة جدًّا ورائعة، ثمّ انتهى إلى أن سلّم قال هذه حروب عظيمة وانسحب منها، قال: أنا وصفت ولا أريد أن أقرّر ما الّذي أريده. ولذلك هو يطبّق في واقعه الفقهي القياس، لكن حينما ناقشه في إعلام الموقعين ناقش القياس عارضًا القولين عرضًا جميلًا رائعًا ممتعًا قويًّا، وصادم فيه الجيوش مصادمة في أعلى درجات الصراع، ثمّ انسحب، قال: في النهاية هذه حروب نتركها للآخرة. وانسحب منها، لكن ما يهمّني في هذا هو أنّه قال بأنّ الاستيعاب –وهذا ردّ على من قال بأنّ النصوص لا تستوعب الحوادث، وهذه قالها الجويني ومشايخه وردّدها تلاميذه وصارت كلمة تُردّد حتّى في يومنا هذا من قبل بعض الفقهاء–، أنّ النصوص لا تستوعب الحوادث ولذلك لا بدّ من القياس–، قال لهم: وهذا غير صحيح. النصوص بنفسها تستوعب الحوادث. ونترك هذه الكلمة يُرجع إليها من أجل مناقشة من قالها من أهل القياس.

ولكن هو أراد أن يقول أنّ الإنسان هو الإنسان. بمعنى ما استخدمه الشيطان من أجل إيقاع آدم عليه السلام هو عينه ما يستخدمه في كلّ بني آدم. وما حصل من الفساد الأول من قتل إحدى ولدي آدم لأخيه؛ سببه هو سبب القتل في البشرية؛ الحسد، كبر الشيطان وغروره والاستكبار على أمر الله. الأسباب واحدة.

لماذا أقول هذا؟ أقول بأنّ سبب انحراف الفرق في هذه الأمّة هو عين سبب انحراف النّاس في زماننا هذا. من أجل هذا الّذي يقرأ تاريخ الفرق ويستوعبها استيعابًا صحيحًا وليس استيعابًا ظاهرًا، ويتغلغل في عللها الباطنية يجد أنّ الزمان هو الزمان، كأنّه يعيش في الكوفة؛ الباطنية هي الباطنية والفقهاء أصحاب الرأي هم أصحاب الرأي والمحدّثون هم المحدّثون والحنابلة زعّار الحنابلة موجودون وهكذا. الحياة هي الحياة، فقط تتجدّد صورها، كان الإنسان مثلًا يلبس ثوبًا اليوم يلبس "كرافات" لكن الإنسان من داخله هو هو.

ولذلك أنت لما تقرأ مثل هذا الكتاب أو أمثاله من الكتب الباطنية أنت تجد لها وجود في حياتك. معرفتك بهذا التاريخ ومعرفتك بالقرآن يجعلك ذكيًا مبصرًا في إدراك واقعك. كلّ هذه المقدّمة حتّى لا يأتي واحد إلينا ويعيب علينا، العالم أين وأنت

أين؟ يعني العالم في الدنيا وأنت جالس على إخوان الصفا أين هم؟! بل إخوان الصفا موجودون، الباطنية موجودة، التأويل من أجل تذليل النصّ لموافقة ما يعتقده المرء ممّا يأخذه من الشرق والغرب موجود إلى يومنا هذا.

نحن لا نكفّر من قال مثلًا بمطلق الديمقراطية، لكن لماذا تأخذ بالديمقراطية؟! تعالوا لنعالجها، ليس معالجة فقهية تعالوا لنعالجها معالجة نفسية. أعجز الإسلام أن ينتج آلية لتطبيق شرعه، على أساس أنّكم اتفقتم أنّ الشرع لا ينبغي أن يؤخذ إلا من الكتاب والسنة ولكن اختلفتم في الآلية، أليس كذلك؟ أعجز الإسلام والنصّ القرآني والسنة النبوية وتاريخ الأمم وتاريخ هذه الأمّة وتاريخ علمائها أن ينتج آلية؟ إذًا لماذا؟! قولوا لي، لنرجع إلى النفس فقط، لنرجع إلى السبب النفسي.

وأنا تعلّمت من القرآن وينبغي على كل مسلم أن يتعلّم منه أن يذهب إلى بواطن النفوس ليكشف سبب حركة الظاهر. وهذا الّذي دفعني على أن أذهب إلى صبغة الله الصمد لأفسّر سيرة النبيّ بتفسير القرآن؛ لأنّ القرآن يكشف بواطن النفوس. يعني {لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ} هذه من يكشفها؟ {مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُمْ مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ}، والسبب نفسي. فلمّا أنت تعرف السبب النفسي لا يغرّك بعد ذلك ما يُقال من كلمات.

نعم تبقى المعالجة الفقهية مهمّة، لكن المسألة مسألة نفسية أهمّ شيء. البعد النفسي للأسف إلى الآن لا كلام حوله في تاريخ التربية الإسلامية المعاصر. كلنا استُغرقنا في قضيّة الفقه الظاهري. لكن ما السبب؟ لماذا هذا المسلم يستخدم كلمة الديمقراطية؟! السبب هو الهزيمة.

لا تفسر لي أنا أفهم. أنت تريد أن ترضي غيرك، أنت تريد أن تطمئن غيرك، أنت تريد أن تقول أنا متفتّح وليس كالظلامي فلان. هذا هو السبب. لماذا لا تقول امسك الديمقراطية وارمها كلّها في القمامة ماذا سيخسر الإسلام؟ آلية الإسلام ماذا ستخسر؟ لا شيء. بل سيكون خطابك إسلاميًا عظيمًا ذاهبًا إلى عمق النصّ؛ ليستنبط منه ما أراد الله منك من ابتلاء في تخبئة المراد في داخله؛ لأنّ الله ابتلانا بالعمل بالنصّ وابتلانا أيضًا كما يقول الشافعي -رحمه الله-: كما أنّ الله ابتلانا لأن نأخذ بالظاهر ابتلانا أن نجتهد حتّى نعلم تأويل الباطن.

واحد يقول ما فيه في القرآن نقول له بل موجود أنت ابحث فقط. واحد يقول في الإسلام لا يوجد آلية تطبيق الشريعة نقول كذّاب، موجود لكن الله ابتلاك أنّه لم يظهر لك هذه وابحث عنها. فحينئذ يأتي أمر ديني جديد عليك بالبحث والتنقيب

والاجتهاد، أما أنت ماذا؟ رضيت بالكسل والخمول وذهبت تتهم، القرآن ما فيه والقرآن عمومات، بدل أن تتهمّ أنت نفسك بالجهل اتهمّت القرآن، وثانيًا ذهبت لإرضاء غيرك. والمسلم أساس قيام توحيده مبني على عزّته بهذا الدين الّذي ينتسب إليه. إذا المسلم فقد شعور العزّة فقد حركة المسلم في الوجود.

ما هو سبب الغزوات (السبب النفسي)؟ لا يوجد غزو في التاريخ أمّة تغزو أمّة إلّا بسبب شعور هذه الأمّة بالعزّة على غيرها والرفعة على غيرها. يعني أمّة تحترم أمّة أو تشعر أنّها هي أعظم منها أو مساوية لها، لماذا تغزوها؟ هذا الخطاب العزيز الذي يقوله "إن الله ابتعثنا لنخرج.." هذا خطاب عزّة. فإذا فقد المسلم شعور العزّة لديه فقد فاعليته في الوجود وانتهى. صار مجرّد قعيد بيت، مجرد إنسان متسوّل لأفكار الآخرين.

وهذا الّذي نحن نمارسه من أخذنا –أتكلّم عن البعد النفسي– من غيرنا في عالم القيم وتطبيقاتها وسلوكها وفي عالم المفاهيم في تجزئتها حتّى بألفاظها؛ إنّما مبناه على شعور نفسي مهان وذليل بأنّنا أضعف وبحاجة إلى غيرنا. هذا لا ينتج أمّة مجاهدة، لا ينتج أمّة دعوة، لا ينتج أمّة تفتح البلاد كما أمرنا الله –عزَّ وجلَّ–.

نعود إلى هذا الكتاب، بعد هذا الأمر أنّنا نريد من قراءة هذا الكتاب، وربّما لا يحتاج المرء أن يقرأ الكتاب كلّه. يعني أنا أعتقد أنه لو قرأ المرء الجزء الرابع فقط يكفي، البقيّة ربّما يقوم البعض بدراسات، مثل ماذا يقول إخوان الصفا في النباتات، ماذا يقول في الحيوانات، ماذا يقول في النفس، ماذا يقول في النّار، ماذا يقولون في كذا. النّاس لهم المذاهب في هذا لكنّها في النهاية لا تشكلّ مفاهيم ذات قيمة ما.

إنّما في الجزء الرابع في الكتاب وخاصّة في الرسالة الجامعة الّتي طُبعت مفردة، واعُتبرت هذه الرسالة الجامعة خلاصة ما في هذه الرسائل. تستطيع أن تقول أنّها لخّصت مراد هذا الكتاب.

قبل أن نذهب إلى الكتاب حتّى نعرف دلالة الألفاظ، من هم الإسماعيلية؟

لو أنّنا ذهبنا إلى الشيعة فقسمّناها تقسيمًا ثلاثيًا، لو ذهبتم إلى كتب الفرق لتعبتم من الأسماء؛ لأنّه ما من واحد من أئمتهم مات إلّا وتفرقت الشيعة إلى فرق، ليس إلى فرقتين بل إلى فرق! عندما يموت واحد أو يختلف واحد، تنشأ فرق متعدّدة. فعندما تقول هؤلاء الشيعة، يعني الذين يعتقدون أنّ الإمامة في علي ينقسمون انقسامًا ثلاثيًا.

القسم الأول لا نريد أن نبحث فيه ولا قيمة له وقد باد وهم الذين يُسمّون بالكيسانية وهؤلاء انتهوا، هؤلاء يرون الإمامة في محمد بن حنفية، كون محمد بن حنفية هو ابن لعلي بن أبي طالب من زوجته الّتي أخذها من بني حنيفة، وهؤلاء يرون أنّ محمد بن حنفية حيّ ومقيم في جبل ربوة عنده عسل وماء وعيش هناك، ويرون الألوهية فيه. وهؤلاء انتهوا وبادوا ولم يبق لهم أثر، لكن وُجدوا في التاريخ، فهؤلاء نخرجهم.

الآن يبقى عندنا فرقتان، الفرقة الأولى وهم المسمّون بالزيدية والفرقة الثانية المسمّون بالرافضة أو الجعفرية. الزيدية يرون الإمامة في زيد بن علي، وهو المستحقّ لها؛ لأنّه الابن الأكبر وجاؤوا إليه وكان يرى الجهاد ضدّ الظلمة إلى غير ذلك، فجاؤوا إليه وسألوه عن أبي بكر وعمر فترضّى عنهما. وهو يلتقي مع عمر -رضي الله عنه- من جهة أمّه، وقال كلمته الشهيرة: رضي الله عنهما ولعن الله شاتمهما، فقالوا: رفضناك، فالزيدية هذا هو دينها.

ولذلك قائم مذهبها على تقدير الشيخين وعدم تكفير الصحابة وإن كانوا يرون أنّ عليّا أحقّ بالإمامة. يرون أنّ عليّا أحقّ بالإمامة من غيره لكن لا يكفرون الصحابة، أنا أتكلّم عن أصل مذهبهم. ثمّ دخل فيها الرفض في جماعة منهم تُسمّى البترية دخلت فيهم فصارت تلعن الشيخين، بالرغم أنّ أساس قيام الزيدية يقوم على ترك السبّ واللعن. هؤلاء الزيدية لا يكفّرون الصحابة، القرآن هو القرآن السنّة هي السنّة، مراجع أهل السنّة هي مراجعهم. نتكلّم عن أصول المذهب، أمّا العوامل التاريخية سنصل إليها.

هؤلاء الزيدية إذًا أصول مذهبهم تقوم على احترام الكتاب والسنّة، ولذلك فيهم المجتهدون وخرج منهم العلماء. وهم لقولهم بأنّه لا يجوز تقليد الميّت فلذلك يكثر فيهم الاجتهاد ويكثر فيهم القرب من أهل السنّة، وبعض أهل العلم يذكر مذاهبهم في المسائل الفقهية؛ لأنّ أصول الفقه عنده والاستنباط هي عينها أصول أهل السنّة والجماعة، لكن هؤلاء دخل فيهم الرفض. ويعترف قاضي من قضاة محمّد علي ناكوع يعترف بأنّ هؤلاء لا وجود لهم وانتهوا؛ لأنّ الرفض غلب فيهم وعليهم، يتكلّم عن الزيدية؛ لأنّهم هنا في اليمن قال: فقد دخل فيهم الرفض ولم يعد هناك زيدية. هو شعار زيدية ولكنّها رافضة على اعتبار أنّه دخل فيهم ما هو سبب لافتراقهم عن الرافضة، وهو سبّ الشيخين وعبادة القبور إلى غير ذلك ممّا عليه الرافضة.

اليوم طبعًا أغلبهم الّذين يسمّون بالحوثيين، وهؤلاء ذهب سيّدهم وبايع الخميني ودخلوا كما أنّ أجدادهم دخلوا في الرفض اعتقادًا، فهؤلاء دخلوا في الرفض سياسة ولم يخرجوا. فانتهينا من هؤلاء. وهؤلاء افترقوا فرقًا وقامت لهم بعض الدول والمناطق ولكن لم يحصل لها الدوام.

الآن حتّى نعرف الإسماعيلية أين موطن الإسماعيلية؟ الكيسانية انتهينا منها هذه هي أوّل قسم، القسم الثاني الزيدية. الآن نأتي على القسم الثالث وهم الرافضة. الرافضة عرفنا لماذا سُمّوا بهذا.

بعضهم يقول لرفضهم مثلًا إمامة أبي بكر وعمر. ما مشكلة هذه أسماء، ولكن الأغلب الّذي عليه أنّهم رفضوا إمامة زيد بن علي وهجروه فسُمّوا الرافضة وهذا اسمهم، وسُمّوا الجعفرية لأنّهم يرون أنّ الإمامة في جعفر بن محمد الباقي بن علي السجاد بن الحسين بن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–.إذًا هؤلاء الجعفرية رافضة.

جعفر كان له ولدان؛ ولد كبير وولد صغير. الكبير هو إسماعيل والصغير هو موسى الّذي يُسمّى عندهم بموسى الكاظم. التواريخ هنا تضطرب، ولكن الكثير منها يقول بأنّ إسماعيل مات صغيرًا. ودين الرافضة يلتقي مع دين اليهود في قضيّة وصول الإمامة للولد الكبير، ويقولون لماذا ذهبت من الحسن إلى الحسين قالوا {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ}. فسّروا الآية هذا مستقرّ وهذا مستودع لها فلذلك عادت إلى الحسين. هنا مرّة ثانية كما يُقال دُمّرت العقيدة بأنّ الإمامة يجب أن تكون في إسماعيل، لكنّه مات صغيرًا.

إذًا الإسماعيلية قالوا لا، نحن نحترم قانون الإمامة ويجب أن تكون في الكبير، طيّب أين إسماعيل؟ قالوا هذا، أبوه جعفر ربّاه تربية سريّة، وأرسله إلى قلعة آل موت هناك يدعو إلى مذهبه، فبقي هناك وهناك انتشر المذهب بدعوة إسماعيل. إذًا الجعفرية الرافضة انقسموا إلى قسمين: أوّلًا الإسماعيلية والثانية الموسوية. الإسماعيلية هذه تُسمّى السبعية لأنّهم يرون الإمامة تكون في سبعة. فالآن عندنا جعفرية إسماعيلية سبعية، والثانية جعفرية موسوية اثنا عشرية؛ لأنّهم يرون الأئمة اثنا عشر تنتهي في هذا نفس القضيّة في قضيّة إسماعيل، مات ولكن أُرسل، كذلك محمد بن حسن العسكري نزل في السرداب وما زالوا ينتظرونه تنتهي في اثنا عشر.

وكذلك السبعية الإسماعيلية الجعفرية تُسمّى كذلك بالقرامطة. لماذا؟ لأنّ أغلب من قاموا بالدعوة إلى الإسماعيلية في منطقة العراق والجزيرة هم القرامطة فانتشر اسمهم بها. ويُقال لهم كذلك الباطنية، هذه الأسماء كلّها إذا قرأتها دلّت على مسمّى واحد، لماذا يسمّون بالقرامطة؟ لحمدان القرمط الذي أنشا القرامطة وذهبوا إلى الحجر الأسود وخلعوه، إلى آخره.

ويُسمّون كذلك السبعية لما ذُكر، ويُسمّون الباطنية؛ لأنّهم يقولون النّص له ظاهر وباطن، والظاهر ليس مفروضًا أن يكون متوافقًا مع الباطن ولا الباطن متوافقًا مع الظاهر، فما الّذي يفسّر الباطن؟ الإمام. ومن هنا سمّوا بالباطنية؛ لأنّهم يرون للإمام حقّ تأويل النصوص الخبرية والإنشائية. الخبرية يعني الجنة، النار، الملائكة، الميزان، هذه الأخبار. والإنشائية يعني الأوامر في الصلاة، الزكاة، الحجّ، هذه للإمام الحقّ في تفسيرها على غير مراد العوام، فسمّوا بالباطنية.

الآن الاثنا عشرية هم الجعفرية ليس لنا دخل بهم انتهينا منهم. نحن ما زلنا في الإسماعيلية، إسماعيل هذا له ابن اسمه محمد، محمد له ابن اسمه عبد الله، عبد الله له ابن اسمه أحمد، يسمّيه الإسماعيلية أحمد الوافي، ترى الشيعة مغرمين بالألقاب هذه فلان وكذا وكذا، بقي عندهم علي الهادي ومحمد الباقر، مغرمون بهذه الأسماء. فأحمد الوافي هذا ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل، يقول الإسماعيلية المعاصرون أنّ الّذي ألّف رسائل إخوان الصفا هو أحمد الوافي هذا. فإذًا كتاب رسائل إخوان الصفا يجب على المرء أن يحسم أنّه يمثّل دعوة الإسماعيلية.

لا نريد الآن الرافضة والكلام عنهم، الآن نأتي على الإسماعيلية سُمّوا بالباطنية السبعية الّذين هم الجعفرية، انتهوا بالجعفرية الرافضة إلى آخره، والقرامطة ويُسمّون كذلك بالزنادقة كون الظاهر والنصّ ونفي الغيب والآخرة إلى آخره. وهؤلاء حتّى تعرفوا هل لهم وجود معاصر؟ نعم، انقسموا بعد صراع، لو تعرفون أنّ الإسماعيلية الّذين يُسمّون بالفاطميين؛ لأنّهم انتسبوا لفاطمة، ثمّ حكموا مصر فسموا بالعبيدين نسبة لأبي عبيد القداح، جاؤوا وغلبوا مصر، حصل خلاف في الإمام السابع لهم أن مات.

هو كان الابن الأكبر هو نزار، وله ابن أصغر اسمه المستعلي، لكن الخبيث الوزير كان حبّه للصغير فأراد أن يقتل نزار فهرب إلى قلعة آل موت. وعيّن إمامًا ابنه المستعلي فافترقت الإسماعيلية إلى قسمين: المستعلية والنزارية. النزارية هي اليوم الأغخانية. شيء مذهل يعني، الكلام عنها مخجل، وللأسف الغرب يظنّ أنّ هذا هو الإسلام لسيرتهم غير العطرة. وأنشؤوا هؤلاء النزارية الّذين هم الأغخانية هم الذين أنشؤوا قلعة آل موت. زعموا أنّ مارك بولو لما زار طريق الحرير وذهب إلى الصين هو من سمّاهم

بالحشاشين، ثمّ دخلت كلمة الاغتيال بمعنى Assasin يعني حشّاش. في الغرب الذي يغتال اسمه Assasin وهي مأخوذة من الحشّاش؛ لأنّ الحشّاشين كانوا يقومون بالاغتيال.

فهؤلاء النزارية أنشؤوا دولة هناك وذكرت لكم كيف انتهت. والمستعليّة بقيت في مصر حتّى أبادها صلاح الدين، وأنشؤوا دولة في اليمن كذلك تُسمّى بالدولة المصلحية أرسل صلاح الدين أخاه إليها فأبادها؛ فهربوا إلى الهند وهناك سُمّوا بلغة أهل الهند بالتجار الذين يُسمّون البهرة في اللغة الهندية.

فاليوم لما تسمع كلمة البهرة يعني المستعلية. والأغخانية هي النزارية تنتهي إلى ما ذكرنا.

أنا آسف لهذا التطويل لكن حتّى نعرف من الإسماعيلية في التاريخ. هؤلاء القرامطة أو العبيديون في الحقيقة، لأنّ القرامطة في الشرق والعبيديون في الغرب، هؤلاء العبيديون صار داخلهم صراع، أنشأه رجل في الحقيقة كان خبيثًا مع ذكاء شيطانيّ ويُسمى حمزة بن علي الزوزني. حمزة بن علي الزوزني هذا جاء إلى المتخلّف الحاكم بأمر الله الفاطمي وجعله هو الإله الّذي يتأنس، وقال بأنّ الإله يتأنس، نزل على محمد ونزل على عليّ فجعله إلهًا، فنشأ حمزة بن علي الزوزني ومحمد بن إسماعيل الدرزي، اللّذان دعوا إلى ألوهية الحاكمة الّتي أنشأت الدرزية. ولذلك الدرزية إنتاج من الإسماعيلية. وصار صراع.

والصراع هنا دعا الإسماعيلية (العبيديون) إلى تأليف الكتب في الردّ على المذهب الجديد الّذي يدعو إلى تأليه الحاكم بأمر بالله الفاطمي. ومن خلال هذه النصوص الّتي أنشأها الدعاة الإسماعيليون اكتشفنا صلة هذا الكتاب وهو رسائل إخوان الصفا بكتب الإسماعيلية في الردّ على الدروز.

لما قامت الدعوة إلى الدرزية نشط الدعاة الإسماعيليون من أجل ردّ هذا المذهب الجديد. هم زعموا أنّ هذا هو المذهب الإسماعيلي. حمزة بن علي الزوزني قام وبدأ يدعو وألف كتبًا في هذا، لما قام يؤلّف في أنّ هذا هو الدين الذي عليه أسيادنا ومشايخنا وآبائنا؛ قام الدعاة الإسماعيليون وعلى رأسهم أحمد الكرماني وهو من أشدّ الدعاة الذين ردّوا الدروز في تثبيت المذهب الإسماعيلي. لما قرأنا هذه الكتب الّتي ردّ فيها الإسماعيليون على الدروز وجدنا أن هذه الكتب كلّها مأخوذ من رسائل إخوان الصفا.

ومن هنا هذا أكبر دليل على أنّ رسائل إخوان الصفا هي إنتاج الإسماعيلية. وأعظم كتاب تستطيع أن تقرأه وتجده مفصّلًا بحذافير ما في إخوان الصفا فيه في الردّ على الدعاة الدرزية هو كتاب أحمد كرماني الداء الأكبر، الّذي يعتبرونه أعظم الدعاة

للإسماعيلية وأعظم الرادّين على المذهب الجديد وهو أحمد الكرماني في كتابه راحة العقل. هذا راحة العقل طُبع من قبل الإسماعيلين الجدد وهو مصطفى غالب الّذي قام عليه، وهذا من الشخصيات المشهورة مثل عارف تامر صاحب القصص، هؤلاء كلّهم إسماعيليون.

وهؤلاء لا يخجلون من هذا الدين كما يخجل السنّي للأسف من دينه! بل هم يهتمّون بهذه الكتب وينشرونها ويحقّقونها ويعملون لها الدعاية بأنّ الإسماعيلية هم إنتاج عبقري في داخل التاريخ الإسلامي. الآن عرفنا أين توصل العبقرية.

إذًا انتهينا من هذه النقطة بأنّه إذا سُئل المرء من ألّف رسائل إخوان الصفا فهم الإسماعيليون. بل إنّ هذا مصطفى غالب قلت هو يزعم بأنّ الّذي ألّف رسائل إخوان الصفا هو أحمد الوافي بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل إلى نهايته إلى جعفر إلى محمد الباقر إلى علي إلى السجاد إلى آخره، ويزعم أنّه هو الّذي كتبها وألّفها عندما أرسله -يصفونه أنّه كان عبقريًا، ذكيًا، حكيمًا-، إلى سلمية.

السُلمية فيها نكتة للذكر. لما مات إسماعيل آغا خان الكبير، هذا كان عائشًا في فرنسا ومليارديرا وآخر عمره عجوز فهجره الناس إلّا الخادمة له حاضنته. فمن كرامته أنّه مات في المرحاض وبقي في المرحاض ثلاثة أيّام لا يعرف أحد مصيره. والغريب أنّ ابنه مات في حياته فالذي ورثه هو ابن ابنه، وابن ابنه اسمه إسماعيل. فهذا درس في إكسفورد وذكيّ ومتنوّر، ورجل بلغتهم ليس له دخل في شيء. فلمّا مات جدّه قالوا له أنت الإله الخاصّ بنا! قال لهم أيّ إله! أنا إنسان عادي ومتعلّم.

فاجتمع الإسماعيليون في السُلمية الّتي تُسمّى بالجزيرة. -الجزيرة المقصود بها في لغة الكتب ليس جزيرة العرب المقصود بها بين الفرات ودجلة-. فاجتمعوا هناك وعملوا مظاهرة كبيرة إذا لم يقبل يصير إلهًا لنا سنبحث عن إله غيره. فقام نصحه من حوله أن اقبلها وماذا سوف يحصل. فقبل أن يكون إلهًا لهم وأمرهم أن يعبدوا ويصلوا ويفتحوا المساجد فما عندهم مساجد، وقال لهم اعبدوا الله على فقه الإمام الشافعي. ولهم أكبر مركز موجود في بريطانيا، إلى آخره. هذه فقط للسُّلمية.

طبعًا لهم قصص مخجلة في هذا الباب ولكن نعود إلى ما نحن فيه.

فإذًا هذه الرسائل من الّذي كتبها؟

وقلنا هناك من نسبه إلى أحمد الوافي لكن أغلب المحقّقين لا يقولون هذا. وأقدم من ذكر إخوان الصفا هو أبو حيّان التوحيدي. والفرق بين أبي حيّان الأندلسي المفسّر اللّغوي الشهير العظيم صاحب البحر المحيط وغيره من المؤلفات النافعة في

الأصول والتفسير واللّغة والبلاغة، وبين هذا الذي ينسبه ابن الجوزي يقول زنادقة الإسلام ثلاثة ويجعل رئيسهم وسيّدهم أبا حيّان التوحيدي، ولكن في الحقيقية لا يوجد به ما يدلّ على هذا لنقل في الكتب الّتي وصلتنا.

كتاب أبي حيّان التوحيدي الإمتاع والمؤانسة هذا كتاب رائع، ولا نريد أن نقدّم للكتاب الآن وهو من الكتب الجيّدة المهمّة جدًّا؛ لأنّ هذا لا يعرف الصراع حول ما يقوله الباطنية وما يقوله متكلّمو الإسلام وخاصّة اللغة حتّى تقرأ كتاب الإمتاع والمؤانسة. لا تستطيع أن تعرف تاريخ هذا الصراع والمناظرات العلمية الجليلة الّتي كانت تقوم بين اللّغوي السنّي وبين المنطقي والفيلسوف إلا من خلال هذا الكتاب. هذا الكتاب مهمّ جدًّا وهو إن شاء الله ضمن هذا المشروع وعليك أن تقرأه بعناية. وأعظم ما في هذا الكتاب هو تلك المناظرات الجليلة الّتي خاضها علماء الإسلام في اللغة والفقه وأهل الكلام –مع ما عليهم من ملاحظات– ضدّ الباطنية والزنادقة.

وأنت لما تقرأ رسائل إخوان الصفا، إذا أردت أن تدمّر ما فيها من أساس، فعليك بما يقوله علماء الإسلام الّذين جلسوا مع الوزير الّذي كان يجلس معه أبو حيّان التوحيدي ليناظروهم فيما يقوله الزنادقة. يعني ما هو أعظم طريق لإبطال هذا الدّين؟ أن تقرأ هذا الكتاب.

وللذكر رسائل إخوان الصفا يذكر أبو حيان أنّها خمسون رسالة ولكن الحقيقة الموجود اثنان وخمسون رسالة ثم تُعقد بالرسالة الجامعة، وهذه يقول أنا ما رأيتها يقول طُبعت بعد ذلك منفردة ويصرّون على هذا، فالقول قولهم.

في الليلة السابعة عشرة، من هو الإمام العظيم الّذي يقف أمام هؤلاء، متّى الفيلسوف النصراني الّذي ناظره أبو سعيد الصيرافي في من هو الأولى المنطق أم اللغة؟ وأنا لو تذكرون في درس الموافقات عندما قلت لكم بأنّ اللّغة ميزان عقلي وليس فقط ميزان لساني. هذا خطأ! ليس فقط اللغة تقيم اللسان وتبين عما في القلب، بل إنّها تعبّر عن ميزانك العقلي. لو واحد سأل كيف اللغة ميزان عقلي؟ الآن لما أنت تأخذ كلمة الحضارة من الحضور، وتأخذ الثقافة من المثاقفة على ماذا تدلّ؟ وعندما تذهب إلى كلمة الثقافة في اللغة الإنجليزية تجدها مأخوذة من الزراعة على ماذا يدلّ؟ عندما تؤخذ كلمة الثقافة من ثقف الرجل الرمح حدّه حتّى يؤدي مقصده وبين الثقافة عندما تؤخذ كلمة الثقافة من الزراعة، من أجلّ ذهنًا ومن أعظم نفسًا في اشتقاق الألفاظ والمصطلحات؟ هذا الّذي أخذ كلمة الثقافة من الزراعة أم الّذي أخذها من الرمح! لما أخذ الواحد الحضارة أخذها من

الذهن مجرّد حضور الذهن وعدم غيابه وعدم نسيانه، وبين من يأخذ الحضارة من الحضور؛ لأنّه لا يكون لك حضارة حتّى يكون لك حضور في الوجود. من أعظم ذهنًا؟ من أعظم نفسًا؟

عندما أنت تعلم بأنّ كلمة السيف لها مئات الأسماء على ماذا تدلّ؟ على تعظيم صاحب هذه اللّغة لهذه المادّة الّتي يستخدمونها. عندما يعظّم كلمة الفرس إذًا الاشتقاق يدلّ على ميزان عقل صاحبه المشتقّ.

أبو سعيد الصيرافي هو الّذي فتح هذه في مناظرته لمتّى، وقال له: أنت ترى المنطق هو عاصم للذهن من الغلط؟ قال له: نعم، قال له: أعطني واحد منطقي يوافق منطقيًا آخر في مذهبه الديني. هل يوجد منطقي مسلم؟ هل هناك منطقي يهودي؟ قال له: نعم، هل هناك منطقي نصراني؟ قال له: نعم. قال له كيف هذا المنطق الّذي تزعم أنّه يعصم العقل من الخطأ ثمّ يؤدي لكلّ هذه المتناقضات.

المهمّ الحقيقة الكتاب هذا ضروري. يقول أبو حيّان، وهذا أقدم نصّ بين أيدينا يعرفنا في كتاب رسائل إخوان الصفا. قال: شيخنا أبو سعيد الصيرافي الإمام نضّر الله وجهه يُسأل عن مسالة في اللغة نمشي عليها. هنا يأتي الباب. أبو سعيد يقول: حدّثني على شيء هو أهمّ من هذا لي. يسأله عن أسماء وعن اللغة. قال له هناك شيء دعنا نتكلّم فيه: قال وأخطر على بالي -يعني هو أهمّ- إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة. هذا زيد بن رفاعة ذكره هنا، وهنا ينسب في أقدم نصّ عندنا في نسبة إخوان الصفا ومن ألّفها هو هذا الكتاب. ويرى أنّ الّذي وضع كتاب رسائل إخوان الصفا هو زيد بن رفاعة. هذا أقدم نص. هو يعرّفنا أنّ الّذي وضع الكتاب هو زيد بن رفاعة معه جماعة لكن هو صاحبه، ولما ذهبت إلى هذا الشخص زيد بن رفاعة في كتب الرجال، وجدته في لسان الميزان المجلّد الثاني، وجدت له ذكرًا، يقولون -وهذا للذكر أنا أردت أشياء من هذا من قراءة النصّ من ميزان اللسان؛ حتّى لا يقول أحدهم هو أتى ليقرأ إمتاع المؤانسة أقول له لا تسبّ عليّ بل سبّ على ابن حجر! لأنّ من صاحب ميزان اللسان؟ ابن حجر -رحمه الله- زاد بطريقة تُقرأ في المقدمة على كتاب ميزان الاعتدال للإمام الذهبي فانظروا ماذا يقول عنه.

زيد بن رفاعة الهاشمي -إذًا هو منتسب لآل البيت- معروف بوضع الحديث على فلسفة فيه. أخذ عن الدريد لغة، ومن الأنباري لغة. قال الخطيب -لأنّه بغدادي-، قال الخطيب: كذّاب. وقال اللالكائي صاحب كتاب أصول أهل السنّة المشهور قال: رأيته بالريّ قلت له أربعون موضوعة سرقها منه ابن ودعان. هناك كتاب مطبوع اسمه الأربعين الودعانية على طريقة

الحديث الضعيف أنّه من حفظ عن أمّتي أربعين حديثًا إلى آخره، ولكن العلماء أخذوا به فجمعوا أربعينيات وأشهرها الأربعون النووية وهي الّتي شرحها ابن رجب في جامع العلوم والحكم وزاد عليها غيرها.

فهذا ابن ودعان جمع أربعين حديثًا كلها مكذوبة. فسُمّيت الأربعين الودعانية ولكنّها كذب.

قال: له أربعون موضوعة سرقها منه ابن ودعان. إذًا من وضعها؟ زيد بن رفاعة الهاشمي هو الّذي وضعها، وابن ودعان هو الّذي سرقها. قال المزّي -شيخنا الإمام العظيم صاحب كتاب تحفة الأشراف وصاحب كتاب تهذيب الكمال-، قال في جوابه عن حال الأربعين الودعانية: كان من أجهل خلق الله في الحديث وأقلّهم حياءً وأجرأهم على الكذب وقد وضع عامّتها على أسانيد صحاح مشهورة بين أهل الحديث يعرفها الخاصّ منهم والعامّ، فكان ذلك أبلغ في هتك ستره وبيان عواره.

هذه الحقيقة كان أبين تحتاج إلى شرح ولكن هذا في دروس الحديث وليس هذا وقتها.

الآن هذا كلام ابن حجر. وحقيقة هذا كتاب من أجلّ الكتب التي قرأتها في بيان مناظرات أهل السنة من أهل اللغة والعقل لخصومهم من الزنادقة، هذا في دعوة المؤانسة.

قال أبو حيّان التوحيدي في كتاب الإمتاع والمؤانسة، كان زيد بن رفاعة ذا ذكاء وذهن ويقظة واتساع في الفنون من النظم والنثر والكتابة والبراعة في الحساب والحفظ لأيّام الناس ومعرفة بالمقالات. -هذا كله كلام أبي حيّان-. وتبصر في الآراء وتصرّف في كل فن، لكنه لا يُنسب لمذهب.

كلمة لا يُنسب لمذهب؛ لأنّ مذهب إخوان الصفا ألّا مذهب. كلّ المذاهب في الوجود صحيحة. يقرّر واضع الكتاب إن كان هو أغلب الظنّ أنّه هو مع جماعته؛ لأنّ أبي حيان يتحدث عن معرفة شخصية بهم، يقول ما هو ديننا، ما هو مذهبنا، كلّ المذاهب صحيحة، كلّ الأديان صحيحة، كلّ القول في الوجود صحيح. هذا هو أساس المصوّبة كما يقولون.

قال: لكنه لا يُنسب لمذهب لجيشانه بالمقالات يعني يقول القول ويؤيّده وينصره، وتبصّر في الآراء وتصرّف في كل فنّ لجيشانه في كلّ شيء وغليانه في كل باب، كان قد صحب المقدسي والمهرجوني والريحاني وغيرهم، وهم الّذين كانوا وضعوا رسائل إخوان الصفا وراموا الجمع بين الفلسفة والشريعة.

راموا الجمع بين الفلسفة والشريعة باحترام الشريعة كما هي أم بتأويلها لتوافق ما تقوله الفلسفة؟ الضعيف عندهم الشريعة.

قال: وقصّتهم في ذلك مشهورة وساق أبو حيان قصّتهم بطولها. هذا الموجود عندنا، لكن أنا أقرأ لكم ماذا يقول أبو سعيد عليهم لا بدّ. هم يقولون -ونحن ذكرنا بأنّهم يقولون أنّ الأنبياء جاؤوا للمرضى، والفلاسفة جاؤوا للأصحاء-. يقول قال له الحريري: وأمّا قولك طبّ المرضى وطبّ الأصحاء. يعني عندنا دكاترة يعالجون المرضى انظر ماذا يقول لهم: قال وما نسّقت عليه كلامك، فمثل لا يعبر به غيرك ومن كان فيه مشكل. -يعني هذا خاصّ بك، كأنّه يقول هذا كلام مجانين لا يقوله أحد.-

لأنّ الطبيب عندنا الحاذق في طبّه هو الّذي يجمع بين الأمرين. أعني أنه يبرئ المريض من مرضه ويحفظ الصحيح على صحّته. فأمّا أن يكون ههنا طبيبان يعالج أحدهما الصحيح والآخر يعالج المريض فهذا ما لم نعهده نحن ولا أنت، وهو شيء خارج على العادة فمثلك مردود عليك وتشنيعك فاضح لك، وكلّ واحد يعلم أنّ التدبير في حفظ الصحة ودفع المرضى إن كان بينهما فرق واحد، فالطبّ يجمعهما والطبيب واحد يقول بهما وبشرطهما.

يأتي إلى قضيّة الفلسفة خاصّة والشريعة عامّة كلام جميل ينبغي أن يُقرأ.

ابن تيمية -رحمه الله- ذكر إخوان الصفا في موطنين من كتبه، في المجلّد الرابع من مجموع الفتاوى صفحة تسعة وسبعين يقول: "ومثل كتاب رسائل إخوان الصفا الّذي صنّفه جماعة في دولة بني بويه في بغداد". إذًا هو يرى أنّه أُلّف، وهذا يؤكد ما قاله أبو حيان التوحيدي أنّه ببغداد، وليس كما يقوله الإسماعيلية أنّه ألّفه أحمد الوافي. وكانوا من الصابئة المتفلسفة المتحنّفة. صابئة متفلسفة متحنّفة يعني أوّل شيء يجمعون هذه، يعني يقولون نحن مسلمون ويقولون نحن صابئة ممّن يعبدون النجوم وغيرها ويقولون نحن فلاسفة على طريقة اليونان.

جمعوا بزعمهم بين دين الصابئة المبدّلين وبين الحنيفية، وأتوا بكلام المتفلسفة وبأشياء من الشريعة وفيه من الكفر والجهل شيء كثير. ومع هذا فإنّ طائفة من الناس من بعض أكابر قضاة النواحي يزعم أنّه من كلام جعفر الصادق وهذا قول زنديق وتشنيع جاهل. في موطن ثاني يقول فيه ابن تيمية في تعارض العقل والنقل: "كما كان أصحاب رسائل إخوان الصفا من الموافقين لهم"، أي موافقين للإسماعيلية. وصُنّفت الرسائل على طريقتهم في الزمان الّذي بُنيت فيه القاهرة في أثناء المائة الرابعة. يقول في وقت كان فيه الاضطراب.

كذلك صاحب الفهرست يقول عنهم كلامًا يصف به من وضع هذه الكتب لأنّها كتب عجيبة وأنّها لم توضع بمن ألّفها ومن صنّفها. ونحن قلنا النصّ الّذي عندهم أنّها لم يُذكر فيها من صنّفها لماذا؟ لماذا لا يظهرونها وهي سريّة؟ لأنّها كتب الخاصّة!

هناك كلام كثير من ذكره من الإسماعيلية الداعي إبراهيم الحسن الحامدي سنة خمسة وخمسين وزعم أنّها منه، تأثّر بها كثير من فلاسفة الإسلام، يذكر البيهقي الّذي يؤرخ للفلاسفة -ليس البيهقي الإمام الفقيه الشافعي المشهور-، يقول بأنّ ابن سينا كان هو ووالده وعمره عشر سنوات يقرأ فيها؛ ولذلك تأثّر ابن سينا به كثيرًا. ويزعمون أنّ الغزالي، وأنا ما أحب أن أطرق هذا وربّما أؤيدهم بعض التأييد، بأنّ كثيرًا من العبارات الّتي يطلقها مثل النفس الناطقة والنفس الكذا، كلّها هذه مأخوذة من إخوان الصفا.

هنا فقط أريد أن أقرأ لكم، يقول من هؤلاء إخوان الصفا؟ كيف يصفهم هو في هذا الباب في المجلّد الرابع سفحة ١٦٥: -أنا أقول من أراد أن يعرف ما فيها مجملة فليقرأ المجلّد الرابع. الرسالة الجامعة الّتي يزعمون أنّها طُبعت أنا لم أطّلع عليها في الحقيقة-. طه حسين لأنّه حاقد لما تكلّم عن إخوان الصفا قال إنّها فنّ بديع وهذا غير صحيح، لكن في الحقيقة فيها أسلوب ذكيّ وهو أنّه يستخدم أسلوب القصص على طريقة ألف ليلة وليلة. يعني أنت عندما تقرأ تجد أنّه عندما يريد أن ينشر قضيّة ما فيستخدم القصّة، قال ملك لوزيره ووزيره قال له وهكذا وهي كلّها في الخيال والمقصود جعلها على طريقة ابن طفيل حيّ بن يقظان طريقة القصّة. وعلى فكرة لم يكتبها فقط ابن طفيل فقد كتبها ابن سينا كذلك، وحيّ بن يقظان يعني حياء واليقظة، هذا هو أساسها. وسمّاه باسال، ابن سينا سمّاه باسال وهو من أبسلوا و"أبسلوا" يعني جوزوا، يعني صاحب الجزاء.

فنعم هي فيها فنون في الدعوة، ولكن ليس فيها الّذي زُعم من لغة راقية وغير ذلك، بل هي في الحقيقة لغة سهلة، رسائل إخوان الصفا لغة سهلة تمامًا لكن فيها كثير من المصطلحات الفلسفية. يعني عندما مثلًا تمرّ على مدينة يقول اسمها صاغان. وهذه على طريقة المدينة الفاضلة الّتي قال بها أفلاطون. يعني نفس المذهب لكن يحوّلونها إلى أسماء جديدة.

يقول: "واعلم أيّها الأخ البار الرحيم أيّدك الله وإيّانا بروح منه أنّ لنا إخوانًا وأصدقاء من كرام الناس. هذه جماعتهم. وفضلائهم متفرّقون في البلاد".

هنا نقطة وهذه موجودة في داخل الرسائل، يزعم أصحاب رسائل إخوان الصفا أنّهم جماعة أصحاب فكر، وليس لهم في القتل والقتال والذبح والاغتيالات، ولكن هل هذا صحيح؟ هذا في الحقيقة من دعوى السلام الّتي تطلقها الدول الطاغية! يعني الاتحاد السوفيتي قتل الملايين وكان هو يدعو إلى السلام العالمي. والآن أمريكا تشجب الإرهاب! على نفس الطريقة. من أكبر

المغتالين والحشّاشين؟ هم الإسماعيلية. ومع ذلك هو يزعم أنّهم جماعة فكر. كما ذكرنا في المقدّمة دائمًا الدعاوى كاذبة سواء كان في أصل الفكرة أو في تطبيقها.

قال: "من كرام الناس وفضلائهم متفرّقين في البلاد، فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والعمّال والكتاب، ومنهم طائفة من أولاد الأشراف والدهاقين والتجار والتنّاء، ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحملة الدين، ومنهم طائفة من أولاد الصنّاع والمتصرفين وأمناء الناس، وقد ندبنا كل طائفة منها أحدًا من إخواننا الّذين ارتضيناه في بصيرته ومعارفه لينوب عنّا في خدمته بإلقاء النصيحة إلينا بالرفق والرحمة."

في الحقيقة أنا أعتقد أنّ كل هذا دجل! هو يريد أن يعظّم. مثل الآن كثير، وهذا يقع فيه للأسف المسلمون لما يتحدّثون عن الماسونية. أنا في الحقيقة أعتقد يوجد ماسونية ولكن لا توجد ضرورة للحديث عن للماسونية أنّها خطيرة ويأتي الزّعبي صاحب مؤلّفات الماسونية الشهير اللبناني، يؤلّف كيف نبايعه وكيف يدخل يضع السيف ويعمل أجواءً سينمائية كأنّ هناك خطورة! ليس هناك ضرورة لهذا كلّه. هم كفرة كفرة ليس هناك ضرورة لهذا التنظيم الآن ليظهروه أو ليبطنوه.

حتّى بعض التنظيمات الإسلامية يمارسون هذه اللعبة. كنّا نسأل مثلًا بعض التنظيمات نقول له الشيخ فلان الشهير هذا إيش علاقته يقولون هذا منّا. ثمّ تكتشف أنّه ليس منهم لكن من أجل سرقة الأضواء من خلال هذا الشيخ. تستخدم للتعظيم، يقولون عندنا أشياء وعندنا تنظيم وعندنا كذا فلمّا تأتي لا تجد شيئًا. وأنا أعتقد أنّ هذا من هذا الصنف؛ لأنّ ما يصفه أبو حيّان التوحيدي عن حالهم مجموعة جالسين يشربون الخمر وسخين هو يذكر هذا، أبو سعيد يقول أنا أعرف أخلاقهم وأعرف أنّهم ليس عندهم لا حكمة ولا دين.

فالحقيقة أنا لا أصدّق ما يقوله ولكن هذا من باب التعظيم.

يكفي إلى هنا أعتقد أننا استفرغنا أشياءً كثيرة. وأنا كنت أحب أن أقرأ كذلك ومن يريد أن يقرأ مراتب الإخوان كيف آخر مرتبة يصلها إخوان الصفا هي رؤية الأعيان. والحقيقة هي ليست رؤية الأعيان إنما هو نفي الإله لأنّ الأديان واحدة، نفي الأديان يعني نفي الرب. هذا نتيجة؛ فلمّا تقول كلّ الأديان حقّ، فما نهاية ذلك؟ أنّه لا يوجد إله! فرؤية الأعيان يعني هذا هو الله، وأنّ هذا الذي نعيشه هو الله ولا يوجد إله غيبيّ كما يقولون.

فقط أن أختم بفائدة ونحن ذكرنا كتاب الفهرست لابن نديم وهو كتاب مهمّ، يمكن أن نختاره إن شاء الله في يوم لمناقشته ولكن أريد أن أنبّه إلى أن كلمة التاء هنا أصلية. الناس يضعون الفهرس وهذه كلمة غير صحيحة.

يكفي هذا أطلت عليكم مع وجود أشياء كثيرة تحتاج إلى بحث.

والكتاب القادم، الإخوة طلبوا وعلى رأسهم شيخنا أبو محمّد أرسل لي بعض الإخوة، وأنا متعجب أن يُختار لكن لا بأس، وهو كتاب دخل علينا دخولًا مفاجئًا كتاب "الدولة المستحيلة" لوائل حلاق. الّذي يقول فيه بأنه يستحيل أن تقوم دولة إسلامية، وأنشأ الله واقعًا ستقوم.

تسمعون المثل الهندي قال بعد الموت هناك جنّة ونار وإن لم تصدق فمت وانظر!

فستقوم الدولة الإسلامية بإذن الله ولكن سنتكلم عن منهجه وطريقته في الدرس القادم.

جزاكم الله خيرًا، وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

[٢٣]
مناقشة كتاب (الدولة المستحيلة) لوائل حلاق

إن الحمد لله تعالى، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيُّه وخليله، بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، وتركنا رسول الله ﷺ على المحجة البيضاء والطريق الواضح، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ولا يتنكَّبها إلا ضال.

أما بعد؛

فأهلًا وسهلًا ومرحبًا بكم في لقاء جديد مع كتاب جديد ضمن مشروع "ألف كتاب قبل الممات". اليوم الكتاب الذي بين أيدينا للمناقشة هو كتاب **الدكتور البروفيسور وائل حلاق** الذي عنون له بكتاب (**الدولة المستحيلة، الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي**).

هذا الكتاب أيها الإخوة الأحبة من الكتب التي سنركز على مسألة من مسائل فن القراءة فيه. وهو أنني قلت في كتابي (فن القراءة) **إياك أن تقرأ كتابًا بعد أن تقرأ نقده**، بل عليك أولًا أن تقرأ الكتاب وتُقيّمه من جهة نفسك، وتراه بعيدًا عن ضغط غيرك عليك، ثم بعد أن تنتهي منه تذهب إلى النقد فترى نفسك بين هؤلاء الناقدين؛ من أنت؟ هل أصبت أم أخطأت؟ وُفِّقت أم حُرمت؟

وهذا الأمر مهم جدًا، في الحقيقة هذا الكتاب مع أن النقد والكلام عليه ليس كثيرًا جدًا ولكني وقعت في مصيدة الذين تكلموا عليه قبل أن آتي إلى الكتاب. وبالتالي أستطيع أن أقول بكل صراحة ووضوح أني ذهبت إلى هذا الكتاب وأنا متحامٍ؛ لأن عنوانه القصير وهو (الدولة المستحيلة) مُستفز، مستفز بمعنى الكلمة إذا أخذناه على ظاهره.

وكنت لم أطلع على الكتاب، ولم أطلع على عنوانه الكامل. لأن الكتاب يقول: (الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي)، وهذا العنوان هو العنوان الصحيح التام المعبِّر عن حقيقة هذا الكتاب. ولأكون صريحًا هذا البروفيسور لا يُحمِّل استحالة الدولة على الإسلام، وإذا حمَّلها فهو يُحمِّلها على طرفين:

الطرف الأول: يُحمِّلها على المسلمين، وهذا لا يُصرِّح فيه ولكنه يشير إليه.

والطرف الثاني: وهو مأزق الحداثة الأخلاقي؛ بناء الحداثة ورؤيتها للأخلاق هي المأزق والمشكلة، في كون الدولة الإسلامية كما يراها دولة ليس من معنى المستحيل أنها لن تكون ولكن من معنى أنها شاقة ومتعبة. والكاتب في فقرة خطيرة فيه يعترف بعدم الاستحالة، وكأنه أراد هذا العنوان استفزازًا للقارئ وتطمينًا للخصوم. كيف؟

العجيب أني رأيت هذا الكتاب لا يوجِّه خطابه قط للمسلمين، ودليل ذلك أنه حين يرى نفسه مستغرقًا في الخطاب يرى أن خصومه سيكونون أهل الحداثة، ويبدأ يبرر موقفه ليدافع عن رؤيته أنها ليست ماضوية وليست متشنِّجة وليست عدائية للحياة.

وبالتالي الذي يظن أن هذا الكتاب كما ظننت أنا؛ لأنه في الحقيقة أول عبارة أوحت للعنوان بأني ذهبت حتى في فهمي لموضوعه جملة في بعض العبارات وظننت أنه يذهب إلى الجانب القدري في موضوع الدولة. لأنكم تعلمون بأن موضوع الدولة من جهة شرعيته فشل؛ أي خصومة الدولة الإسلامية من جهة شرعيتها فشلت. والخطاب الموجود المناوئ لما يُسمى "الإسلام السياسي" بأن الإسلام عارٍ وغير كفؤ لإنتاج الدولة، وأن الإسلام ليس فيه دولة، أو أن الإسلام لا يُنتج دولة، كل هذه قد سقطت الآن ولم يعد أحد يقولها.

هناك التفات حولها كون الإسلام يمكن أن يخضع للدولة القومية، يمكن أن يخضع للحداثة، يمكن أن يخضع للدولة المدنية. هناك التفاف لكن لا يوجد الآن أحد يستطيع أن يُصرِّح فيُحترم بتصريحه بأن الدولة الإسلامية هي خرافة من جهة شرعية ومن جهة بيانية.

فأنا قلت أنه يمكن أمن هذا الرجل قد ذهب إلى الجانب القدري؛ وهو أن الدولة الإسلامية يستحيل أن تقوم من جهة قدرية. هذه رؤيتي الأولى للكتاب، بأنه يقول بأن الدولة الإسلامية ذات أفق أخلاقي عالٍ، وأن الواقع واقع دَنِس، وهذه عبارتي ولكن هذه الكلمة متغلغلة في كل الكتاب؛ لأن الحداثة هي حالة دنس تام، فارغة من الأخلاق، وفارغة من القيم، ويحكمها رأس المال، ويحكمها الاقتصاد.

وبالتالي يمكن أن يقول قائل بأن الكاتب أراد أن يقول لنا لا يمكن أن تنشأ الدولة على اعتبار بأن القدر أقوى منها، هذه جعلتني أشير إلى أنه يؤمن بنهاية التاريخ.

أعيد الكلام لأهميته، لأن هذا التطور له أهمية في النهاية كيف يصور الكتاب موضوع الدولة وما هي المشقة التي يجابهها المسلمون في إنشاء الدولة. وأنا أعيد هذا الكلام وربما يطول المجلس اليوم؛ لأن كل فقرة فيه اضطررت أن أكتب عليها مهمة، ما وجدت فقرة فيه من الحشو. وأي فقرة يلغيها القارئ لهذا الكتاب سيفوته خير كثير، ولن يستطيع أن يتصور الكتاب تصورًا صحيحًا. أنا أقول لكم هذا بصراحة.

أرجع فأقول لما فشلت الجهود الاستشراقية العلمانية الخبيثة بإفراغ الإسلام من الدولة من جهة شرعيتها قلت لعل هذا الكتاب جاء ليمنع وجود الدولة الإسلامية من جهة قدرية. لماذا؟ لأن العنوان هكذا (الدولة المستحيلة) أنها قدريًا لا يمكن أن توجد؛ لماذا؟ لأن الإسلام بأفقه الأخلاقي العالي وبتركيبة الدولة القائمة على قضيتين -كما يقول هو- على الشريعة وعلى التاريخ، وجود النموذج والمثال. والرجل مُعظِّم لتجربة الإسلام من جهة الدولة تعظيمًا شديدًا، وهو ناقد خطير لمفهوم الحداثة.

فأنا كنت أظن أنه يقول بأنه لما كانت الحداثة قد سيطرت بصورها الثلاثة كما سيأتي في كلامه عن الثلاثة قطاعات وكلها تعود إلى قطاع واحد وهو قطاع الاقتصاد، فسيطرت الحداثة. والحداثة بمعنى العلمانية في أفقها المتطور جدًا جدًا.

فلما سيطرت الحداثة بفراغها من عالم القيم، وارتباطها بعالم الاقتصاد، وفراغها من الجانب الأخلاقي تمامًا، مجرّدة من الأخلاق تمامًا، يُجابهها دولة إسلام قائمة على الأخلاق في أبعادها الكلية، إذًا لا يمكن أن تنشأ الدولة. هذه فورًا أنتجت لدي أن الرجل يؤمن بنهاية التاريخ بهذا التصور المطروح؛ لأنه حينئذ يقول قائل: لا يمكن أن ندمر الحداثة، وأن الحداثة هي قدرنا اللازم الذي تطورت فيه البشرية حتى وصلت إلى النموذج الأقوى فيما يمثله النظام الغربي الأمريكي والأوروبي، فهذا قدر لا يمكن الانفكاك منه، ليأتي الدعاة المسلمون لمصارعة هذه الحداثة فلن يستطيعوا التغلب عليها، إذًا ما معنى هذا الكلام؟ أنه يؤمن بنهاية التاريخ.

وهو حذّر في بداية الكتاب، فأنا ظننت أن هذا التحذير هو من قبيل ذرّ الرماد في العيون.

وهو لا يقول بهذا، لا يقول بأن الدولة المستحيلة -وهي الدولة الإسلامية- هي دولة لا يمكن أن تنشأ، لكن المعوقات داخليًا ليس من جهة قيم الإسلام في تحقيق دولة إسلامية قائمة على الأخلاق، لكنها من جهة قُدرة المسلمين على إنتاج ما بعد الحداثة. ماذا يعني هذا الكلام؟

يعني أنه يقول بأن المسلمين إذا أرادوا دولة إسلامية كما هي حقيقة مما تُفرزه الشريعة في قيمها العُليا، وكما تُفرزها تجربة الإسلام في إنشاء الدولة التاريخية العظيمة القائمة على الأخلاق لا بد أن يصلوا إلى قوة الأوربيين والأمريكان في إنتاج دولة الحداثة ضد الدولة التقليدية القديمة. هذا كلام من أروع ما يكون. وهذه حقيقة وهو يعترف بهذا، يقول: إذا أراد المسلمون إنتاج دولة فيجب أن يكون عندهم قدرة عظيمة هائلة تستطيع أن تُكنِّس الحداثة لتُنتج ما بعد الحداثة. هذه القدرة يشابهها تاريخيًا كما فعلت أوروبا وأمريكا في تكنيسها للنظام الكنسي والإقطاعي لتنتج دولة حداثية معاصرة. يعني يعتبر أن الإسلام هو خطوة عظيمة لما بعد الحداثة.

إذًا أي تصور يُنشئه هذا الكتاب أو عنوان هذا الكتاب خارج إطار قراءته كاملًا هو تصور خاطئ؛ هذا الكتاب مبني بناءً رياضيًا متكاملًا ولا يوجد فيه خرم. رجل ذكي، رجل قارئ جيد، رجل يضع الأمور في نِصابها، وكذلك صادق مع نفسه، وهو يطعن بقوة البيئة التي يعيش فيها.

الأسس التي أقام عليها الكتاب هي القضايا التالية:

القضية الأولى: **تصوره لدولة الإسلام تصورًا صحيحًا**، وفاق في ذلك من زعموا أنهم كتبوا عن الإسلام الحداثي.

هل هناك مسلمون أرادوا إسلامًا حداثيًا؟ الجواب: نعم. عندما نقرأ كتاب (الحريات العامة في الدولة الإسلامية) للأستاذ راشد الغنوشي، هو يريد إسلامًا حداثيًا، وبالتالي تيار الأستاذ راشد الغنوشي في موضوع إنشاء الدولة المسلمة هو تيار حداثي، لكنه ليس تطويرًا للحداثة بمقدار طيّ وليّ الإسلام ليتوافق مع الحداثة.

انظر الرجل هذا نصراني وخبير وهو يفهم دولة الإسلام في أبعادها الصحيحة أكثر مما يكتبه المسلمون!.

وكذلك لما نقرأ طريقة تفكير الأستاذ حسن الترابي –ولا بأس أن نستخدم كلمة أستاذ احترامًا على قاعدة "عظيم الروم"–، لما يأتي إلى مفهوم الدولة هو يريد أن يوصل الدولة المسلمة إلى طريقة الفهم الحداثي للدولة، ولا يبقى بالإسلام ليكون انقلابًا عن حداثة، لأنه يطرح الحداثة بمفهومها الصحيح.

إذًا أولًا هذا الكتاب يُقيِّم دولة الإسلام تقييمًا صحيحًا، يقول بأن **دولة الإسلام لا ترتكز فقط على الشريعة**. كأنه حين قال هذه الكلمة وهي كلمة صحيحة، وهو رجل ذكي، وهو قارئ لأصول الفقه قراءة جيدة، لأنه في الحقيقة استخدام لفظ

"الشريعة" أي الكتاب والسنة عند هؤلاء المؤوِّلين للإسلام هو شعار باطل. المقصود منه إلغاء تجربة الإسلام التاريخية، ولا يجعل هذه التجربة ضمن إنتاج الإسلام؛ ليبقى النص عاريًا من التجربة لتحقيق تطويعه.

من هنا السلفية التي فهمها الكثيرون، وفي الحقيقة قبل أن يدخل على السلفية النجديُّون كانت هي ثورة على النص. يعني بعض المغاربة والجزائريون والتونسيون يقولون بأنهم كانوا يرون أن إمام السلفية هو محمد عبده! فالدعوة للعودة للكتاب والسنة هي دعوة مشبوهة في بعض صورها إذا جرّدناها من التجربة التاريخية.

ما الذي يحدد لك مفهوم النص؟ الواقع. يعني عندما نقول: الصحابة، عندما نقول: سيرة النبي، عندما نقول: ما فعله الخلفاء الراشدون. نحن جعلنا التجربة العمليّة مرجعًا لنا من أجل أن نعصم النص من التطويع أو كما يسمونه التأويل. يمكن أن يُتلعَّب به، وكأنه يدرك هذا، بل يدركه ويُصرّح فيه في بعض عباراته وإن كان من جانب آخر.

إذًا هو يجعل مرجعية الدولة الإسلامية أولًا الشريعة (الأحكام الشرعية)، ثانيًا صيرورة التاريخ (تجربة التاريخ). يقول بأن الدولة المسلمة في حس الرجل المسلم ليجعلها إسلامية موجودة في تصوره بكونها كائنًا وليس مجرد نص. فهناك عندما المسلم يقول: "دولة" فورًا ماذا يقفز إلى ذهنك؟ عمر بن الخطاب، أبو بكر، عثمان، علي، معاوية. هو يقول بأن هذه التجربة هي أرقى ما أنتجته البشرية وإن كان فيها إخفاقات. وهذا صحيح.

إذًا المرتكز الأول لمنطق هذا الكتاب وبناء هذا الكتاب أنه يقدم لنا تصورًا للدولة الإسلامية. ويجعل المرجعية الأولى هي قضية التأليه، وهذه وإن لم يتكلم في قضية الدار الآخرة لكنها حاضرة؛ لأن الدولة الإسلامية تقوم على أساس تأليه الله -عزَّ وجلَّ-، والشريعة مرتبطة بهذه القضية. وبالتالي ما هو الضاغط عند المسلم في تطبيقه للشريعة في الدولة الإسلامية؟ كونه عبدًا لله. هذه قضية أخلاقية. هذه لما يأتي إليها خلال ثنايا الكتاب في أن الفلسفة بكل إنتاجها -وهذه روعة من روعات هذا الكاتب- أن الفلسفة كلها أعجز من أن تُنشئ قيمًا أخلاقية، سبب هذا هو عدم وجود الثِّقل الذي يجعل لهذه القيم قوة فاعلية لدى الإنسان.

وبالتالي هو يُخرج كل الفلاسفة الذين يمكن أن يتحدثوا عن عالم -وليس عن قيم أخلاقية ذاتية أو قيم ذهنية-، لما يتحدث عن جميع فلاسفة الوجود من أولهم إلى آخرهم، وكلامه ذكي وأنا أتكلم عما أدركته في هذا الكتاب. عندما أتى إلى الفلاسفة

رفع عنهم أي قيمة في إمكانية وجود حركة حياة تُسمى "الدولة" بمرتكز الأخلاق. بمعنى أنه يقول لا يمكن لأي فيلسوف وكما يقول: كلهم لا يمكن أن ينشؤوا دولة ذات بعد أخلاقي. لماذا؟ لأن أساس ذكر الفلسفة هو إنتاج الذات. ما هو الفكر؟ هو إنتاج الذات. والنص القرآني من أين؟ من الله. وإنتاج الذات لا يمكن أن يُنشئ هذه القوة الدافعة لتحمُّل الثقل الأخلاقي أمام الواقع.

ولذلك من يتصوّر أنه يمكن أن تُنشئ العلمانية –وبالمفهوم الثاني الحداثة– أي تصرف اقتصادي، سياسي، عسكري، ذا بعد أخلاقي، فهو مخطئ! وهذا بخلاف الدولة الإسلامية، لأنها مُنتَج إلهي، لأنها وضع إلهي باعتبارها شريعة منزلة من الله. و من هنا حصل الخلاف. الخلاف الشق الأكبر، انظر من يقول هذا الكلام من الذين يتكلمون عن الدولة الإسلامية؟ المتطرفون. من الذي يقول هذا الكلام الذي قلناه وأنا أتكلم في الجانب الإسلامي وليس في الجانب الآخر. من الذي يقول لا يمكن التقاء الحداثة مع الإسلام؟ من الذي يقول لا يمكن إنتاج الدولة الإسلامية ببعدها المدني الفلسفي الحداثي؟ الذين يُسمَّون بالمتطرفين، ما يقوله سيد قطب ومن هو على شاكلته. أما عامة من يتكلم عن الإسلام اليوم ببعده السياسي يريدون دمج الجاهلية مع الإسلام على شكل من الأشكال.

بل ويذهب أكثر من هذا –وهذا في الفصول الأخيرة–، وهذا الرجل بريء من تهمة التعصب، هو يتكلم من جهة دراسة علمية، يقول بأن "من ظن أن دولة الحداثة المعاصرة هي دولة محايدة يمكن أن تُملأ بأي فكر ما، هو واهم جاهل". الكثير من المسلمين الآن ماذا يفعلون؟ يعملون ضمن دائرة الدولة الحديثة الموجودة يريدون أن يجعلوا فيها الإسلام. يعني يذهبون إلى البرلمان يريدون الإسلام، يذهبون إلى الإصلاح يريدون الإسلام لكن ضمن دائرة الدولة الحديثة، يقول: إن هؤلاء جهلة.

لا أدري هو يتكلم هذا الكلام بعد تجربة مرسي في مصر وتجربة حزب النهضة في تونس وهذه التجارب أم لا، أما المترجِم فيترجم الكتاب ولا شك بعد سقوط هذه التجارب، ولكن هذا لا يهمنا، التجارب ليست ذات دلالة كبيرة في هذا الكتاب. هو يعود إلى قضية تصوره للإسلام باعتباره بُعدًا أخلاقيًا مربوطًا بكون الإنسان عبدًا لله، وكون الدولة المعاصرة هي دولة مُنْتَجة مِن قِبل الذَّات –الإنسان–، ولا يمكن لدولة إذا أنتجها الإنسان أن تكون ذات بعد أخلاقي. لماذا؟ لأن الأخلاق ثِقل، والأخلاق مشقة، لا يمكن أن يلتزمها أصحاب المصالح.

باختصار في هذه النقطة؛ ما الذي يجعل المسلم يندفع إلى قوله {فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ}؟ الله. وإلا لو خرج هذا النص عن كونك عبدًا لله فلا يمكن أن تطبقه، لماذا أنا أُنظره إلى ميسرة؟ لماذا {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}؟

إذًا هذا الرجل يفهم جوهر ما معنى الدولة الإسلامية، ثم ثانيًا يفهم جوهر الحداثة. هذان ركنان أوليان لترابط هذا الكاتب رياضيًا.

النقطة الثالثة التي يدور حولها كذلك وهو أنه رتب الكتاب ترتيبًا منطقيًا. مشى مع الكتاب حتى النهاية، وكانت بدايته صادمة ونهايته أكثر صدمة.

وتوحي الكلمة الأولى بأن الإسلام أعجز من أن يُغيّر، وهو لا يقول هذا. الإسلام أعجز من أن يملك دولة، ولا يقول هذا. بل يقول لأن المسلمين إذا أرادوا إنتاج دولة في هذا العصر يجب أن يكون عندهم قوة، أن تكون عندهم إمكانية الذات وقدرة الذات وإبداعات الذات -كما يطلقها-، يكون عندهم هذه القدرة الهائلة ليتجاوزوا هذه الحداثة.

والنقطة الثانية يقول ذلك لأن **الحداثة ليست حيادية وليست نظيفة**، بل هي شرسة مقاتلة تملك أدوات الصراع التي فيها الإبادة للخصم.

إذًا ما هي الطريقة عنده لإنتاج الدولة؟ يمكن أن تنتج الدولة وهو يعترف بهذا، هذا خلاصة ما يمكن أن يُبنى عليه هذا الكتاب، هذه التقييمات التي عنده، وبعد ذلك يمكن أن تمر على كل فقرة لتصل إلى هذه النقطة النهائية.

النقطة المهمة في بداية الكتاب، هناك نقاط مهمة يجب أن يقرأها المرء بوعي ولا يذهب إلى النهايات بسرعة ولا يقف عند البدايات فقط، بل يجب أن يتسلسل مع هذا الكتاب.

يشرح طويلًا -وربما ست أو سبع ورقات، وهي كافية بالنسبة لهذا الكتاب أن أسميها طويلة- بأن هناك في وجود شيء اسمه "**المركزية**" -ولو أنكم رجعتم إلى كلام لي سابق من ثلاثين سنة فأنا أُدندن حول هذا-، وهو يحضر كلامًا للفلاسفة بأنه لا يمكن أن تنتج فرعًا هجينًا عن نسق المركزية. كيف؟ يقول ما دام أن العالم محكوم بمركزية وصاحب نسق مُعيَّن في قضية الحداثة التي هي البعد عن الأخلاق والقيم بما ذكرنا، فإن تصور البعض بإنشاء الدولة المسلمة التي هي ما بعد الحداثة ضمن هذا النسق الكلي للكون هذا مستحيل.

وهذا كلام صحيح، ومن أكبر الأدلة عليه الربا؛ أعطني الآن دولة يمكن أن تُسمى مسلمة دون خضوعها للنظام المالي العالمي الخاضع للربا. وتكلمنا مرة عن أسطورة إنشاء دينار الذهب الإسلامي –ارجعوا إليها–.

واجمعوا هذا الكلام مع كتاب (الحرب العالمية الرابعة) لما قال صاحبه: ما نخافه من عالم الشرق هو وجود قائد خارج خطوط الطول التي يتعامل معها العالم وخطوط العرض. والحقيقة لا يمكن أن تُنتَج دولة إسلامية إلا بهذه الطريقة. لماذا؟ وهو هنا لا يربط ولكن يُقرِّر من كلام عامة الفلاسفة بأنه لا يمكن أن تُنتَج دولة مسلمة بهذا التصور الإسلامي الراقي العظيم في داخل هذا النَّسق المربوط، هو سماه "الحداثة" ولكن نحن نسميه "الجاهلية". وهذه يهتم بها ويشرحها شرحًا طويلًا ومهمًا، ويأتي إليه ويقرر بأن الانعتاق من النظام الدولي المرسوم بأبعاده الثلاثة برأسه الوحيد وهو الاقتصاد، كأنه تنين رأسه الأكبر والأعظم التهامًا وإحراقًا وتدميرًا وسوءًا وقذارة وهو الاقتصاد، لا يمكن أن تنشئ دولة هجينة. وهو بهذا يشرح هذه النقطة كأنه يشرح عبارة كتاب (نذر العولمة) لعبد الحي زلوم، أن العالم عالم قاسٍ لا يرحم، وهذا نفي للحيادية لأنه يسحق من أمامه، ولأنه لا يمكن أن تقوم الحداثة إلا على هذا البُعد.

أُعيد وأقول كلمة، الرجل ليس من باب اليأس الذي يؤدي للكفر، وأقول لكم بأن كل جملة من الكتاب مهمة لأنني لولا جملة واحدة لظننته يقول بهذا، لولا فِقرة يُصرّح بها لظننت أنه يريد أن يقول للمسلم أرِح بالك، العالم قاسٍ، والحداثة غير محايدة وهي مجرمة، وأنت ضعيف وصاحب بعد أخلاقي ولا يمكن أن تنتصر. وللأسف هذه يقولها بعض المسلمين، وهذه وجدناها حتى في بعض الذين يعملون في التيار الجهادي، ونراها تتكرر للأسف في كلمات بعض الناس، عندما يقولون: لماذا نجحت التجربة الفلانية وانتصر الخصوم؟ فيُعيدوها لقيمك الأخلاقية التي قيَّدت سلوكك في بلوغك إلى النصر، وقد انفلت منها خصمك غير الأخلاقي فوصل إلى المقصد.

تسمعون هذه كثيرًا صحيح؟ يأتي واحد يقول لماذا انتصرت الجماعة الفلانية؟ لأنها ذات أبعاد أخلاقية وقيمية، حتى تجدونها فيمن يعيش التجربة يقول: نحن ننتصر لأننا التزمنا بالأخلاق وغيرنا لم يلتزم بالأخلاق. لماذا لم تنجح؟ يقول لك: صاحبي رشى الناس وكذب عليهم واشترى الذمم واستخدم الكذب والخداع، وعاهَدَنا وفَجَر، إلى آخره. وأما نحن فالتزمنا بالقيم الأخلاقية، وبالنهاية القيم الأخلاقية قيّدت سلوكنا فكان هذا التقييد سببًا للفشل.!

لا أعلم كلمة مجرمة في هذا العصر مثل هذه الكلمة! وهي مناقضة لقوله تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}، ومناقضة لقوله: {فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}، القرآن يقول العاقبة للمتقين وأنت تقول بسبب التقوى وتقييدات التقوى امتنعتم من الوصول للهدف؟!

وبالتالي هذه أفرزت حسًا ما، بعضهم ذهب إلى اليأس، ما دام أن خصمي يستخدم الأساليب الملتوية والفاجرة والكاذبة والجاهلية، وأنا أستخدم الأسلوب الأخلاقي والأسلوب الأخلاقي يُقيّدني من السلوك والعمل وإذًا هو في النهاية سيصل، وفي كل معركة سأُهزم لأن المعركة غير متكافئة لما تقدَّم من أدوات. فهذه صنعت اليأس.

وهناك من الناس من قال نحن لن نربح، وذهبوا إلى انتظار الآية الإلهية الغيبية، مجيء الرجل المُخلِّص من أجل أن تكون معه آلات السماء لتسُد أدوات الأرض. هم يريدون الكرامات الإلهية وأدوات السماء الغيبية من أجل أن تسد العجز أمام فجور وخصومة وكذب وافتراء وتحايل ومكر الخصم، فجلسوا ينتظرون. هؤلاء قِسم.

يقابلهم قسم آخر صاروا مثل غيرهم، يعني الأصل أن هذا الدين بقيمه الأخلاقية له هدف أخلاقي، هذا الدين هدفه أخلاقي وله قيم أخلاقية. فلما رأوا أن القيم الأخلاقية لا توصِل إلى الهدف الأخلاقي أجازوا لأنفسهم سلوك غير الأفكار وتأويلها، فذهبوا يدرسون مناهج الخصوم لأخذها وتلبيسها لباس الإسلام؛ قال النبي كذا، فعل كذا، الحرب خدعة، ويمكن كذا، ويجوز كذا، فجعلوا يُلبسون الجاهلية لباس الإسلام تزويرًا، مع أن مصدر إنتاج أفكارهم وأعمالهم للوصول لأهداف الإسلام ليست إسلامية.

يقرأون التجارب الأخرى ويأخذونها إسلامية، من أجل هذا واجب علينا قراءة القرآن لنعلم أن الأنبياء وصلوا عن طريق الجانب الأخلاقي. واجب شرعي علينا يُعادل قراءة القرآن أن نقرأ سيرة النبي -ﷺ؛ لأن سيرة النبي ﷺ هي النموذج الحقيقي للوصول إلى الأهداف عبر قيم الإسلام. النبي ﷺ لم يستخدم أي أسلوب يُعاب عليه، لا من جهة عدو ولا من جهة صديق. بل إنما فعله النبي ﷺ بقيمه الأخلاقية وصل إلى النهاية ووصل إلى النتيجة.

إذًا حين يأتي كاتب ويقول بأن الإسلام مُنتَج أخلاقي عظيم، لا يمكن أن يصل إليه من خلال واقع الحداثة السيء، هذا يمكن أن يكون مُيئِّسًا وهي إحدى صور الامتناع القَدَري. والكتاب لا يقول هذا، أريد أن أُبرّئ الكتاب، يستطيع أن يقول

أحد أي كلام عنه، لكن الرجل يعترف بأن الدولة الإسلامية يمكن أن تُطبَّق، ولكن صراعها شرس مع خصومها. وهو لا يُيئِّس الناس في إيجادها، لأن العنوان لا يوحي بهذا، والدليل قوله (الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي)؛ المشكلة في مأزق الحداثة الأخلاقي.

لا توجد جملة أو فقرة في الكتاب إلا ولها أهمية.

وهو قارئ للأصول كما علمت أنه قارئ للأصول الإسلامية، ومدرس للدراسات الإسلامية، وقارئ أصولي جيد، وهذا بيِّن من كتابه، حتى إنه يمدح البناء الـمُحكَم لأصول الفقه، يمدحها مدحًا دالًا على المعرفة وليس مجرد إطلاق، وهذا يدل على احترامه.

والكتاب لم يُكتب لنا، والدليل أنه كُتب للإنجليزي كدراسة علمية خاصة به وليس المقصود به نحن.

أنا سآتي إلى بعض الفقرات في الكتاب، والكتاب أشبه بكتب أصول الفقه التي تحتاج كل فقرة فيها إلى شرح.

لأؤكِّد لكم ما أقوله نقرأ الفقرات. أنا سأقرأ الفقرة الأخطر التي منعت من أي فهم في موضوع عدم إمكانية قيام الدولة، وهو لا يقول بأن الدولة لا يمكن أن تقوم ولكن انظر إلى شرطه:

يقول: "**ومن هنا فإن البناء على تقنية الذات..**"، يقول أحد إخواننا بأنه شرح لمن سأله كلمة معنى تقنية الذات: التقوى، أنا في الحقيقة أقول ربما هو أراد أن يوصل فكرة سريعة لكن لا تحتاج إلى هذا التفسير لأنها مفسرة في داخل النص. الحقيقة كلمة التقوى ربما هي عندما يتكلم بالإنجليزية أراد بها معنى، ولكنها لو نُقلت حرفيًا إلى الحس الإسلامي لن تفي بالغرض لبناء هذه الجملة بناءً معرفيًا تامًا.

ربما في الغرب كلمة التقوى تُفهم مفهوم الصدق في العمل، على قاعدته ﷺ: (إن الله يُحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يُتقنه). ولكن إذا نُقلت التقوى وتُرجمت بكلمة التقوى حرفيًا فسيكون في العبارة خدش؛ لأن التقوى أقرب ما تكون في الحس الإسلامي على معنى النُّسُك. الحس الإسلامي كلمة التقوى فيه لا تأتي على معنى إتقان العمل، القليل من الناس يربط كلمة التقوى بإتقان العمل. مع أن إتقان العمل هو من التقوى، لكن في الحس الإسلامي كلمة تقوى مربوطة بالنسك؛ يعني عابد، مصلي، صائم، مزكي، حاج، إلى آخره.

يقول: "**ومن هنا فإن البناء على تقنيات الذات لا يتضمن بأي طريقة استعادة لمؤسسات الشريعة قبل** العصر الحديث.."، كنت أتمنى أن يكون الكتاب سيئًا لأسب عليه لكن الكاتب يفرض نفسه بإيقاعه الراقي، وأنا لما قرأته بكيت على من يكتبون عن الإسلام، بكيت عليهم هذه الأيام! أين سيد قطب، أين أبو الأعلى المودودي، أين مالك بن نبي؟ هؤلاء فقدناهم. أن يُكتب على الإسلام بهذه الروح وهذه القوة في داخل الخطاب وهذا الفهم الواعي لحقيقة الإسلام.

راشد الغنوشي في كتابه (الحريات العامة في الدولة الإسلامية) يؤنِّس الدولة. أنا أريد أن أسألكم عندما يأتي حسن الترابي يقول: وأنتم تعلمون حروب الردة لماذا قامت، هل هي لحق الحكومة النظام أم لحق الله؟ إذًا الجهاد هو حق الله، سواء كان جهاد كفار للدعوة إلى الله، أو قتال مرتدين لأنهم أرادوا الخروج من عبوديتهم لله. هذا مفهوم وكل مسلم يعرفه. فيأتي المفكر حسن الترابي ليقول بأن أبا بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- قام بحروب الردة من أجل المحافظة على "النظام الإسلامي" وعلى "الدولة"، هذه الدولة شرسة، الدولة ذات بُعد إلهي نقاتل من أجلها ونُميت الناس حتى لا يخرجوا عن الدولة، الدولة صارت مقصدًا وغولًا بنفسها وتنينًا يجب أن يُحترم؟! وواحد يقول: لا بل إن الدولة خادمة لحق الله في الأرض.

من أقرب إحساسًا بها؟ من يقول بأن الدولة المسلمة هي ذات بعد إنساني أم أن الدولة المسلمة على قاعدة {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} من هو أقرب إلى الحس الإسلامي؟ بلا شك أن من يقول إن الدولة الإسلامية هي منتج من منتجات الكتاب والسنة لتحقيق {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

من أقرب هذا الذي يقوله وائل حلاق أم يقوله هؤلاء الذين يريدون أن يجعلوا الدولة إنسانية الطابع، وبالتالي تكون مجردة من الشريعة، وإذا وضعنا الشريعة فهي لبُعدها فقط الأخلاقي الضيِّق وليس لبنائها الأصلي المرتكز على أساس العبودية لله.

والرجل عميق في فهمه للفروق العميقة بين الإسلام وغيره؛ مثلًا موضوع مفهوم العقل يأتي إليه في فقرة سريعة، لا يمكن أن يفهم هذا الكتاب وصاحبه دون أن يكون فاهمًا لمفهوم العقل عند الإغريق وعند المسلمين. يعني أريد أن أقول إن كاتب هذا الكتاب متمكِّن من مادته ولا يرفع شعارات البطولة عندما يأتي بفكرة جميلة. ممكن أن تمر على أفكار تظنها عادية ولكنها تدل على عمق هذا الرجل، أنا أمدح رجلًا نصرانيًا ليس مسلمًا وهو لا يؤمن بالحداثة، لا أدري كيف يسلك أو كيف حياته، لكن هو في الأصل معروف أنه نصراني من فلسطين.

وكما قلت لكم أنني حزين ألَّا يوجد منتج إسلامي بمثل هذا الإتقان وهذا البناء. هذا الرجل يفهم ولو أنه خطيب جمعة لقال الناس يأَّسَنا أو أنه يريد أن نكون أبطالًا. هو في الحقيقة يريد من المسلم أن يكون أسطورة ليُغيِّر، أسطورة على غرار الكبار الذين يغيرون التاريخ.

يقول: "**ومن هنا فإن البناء على تقنية الذات** -يعني الإنتاج الذاتي لقضية الإتقان- **لا يتضمن..**"، ما هو الإبداع؟ هو الإنتاج على غير مثال، "**ومن هنا فإن البناء على تقنيات الذات لا يتضمن بأي طريقة استعادة لمؤسسات الشريعة قبل العصر الحديث ولا لممارستها أو حتى نظامها التعليمي**"، لو تركتكم عند هذه العبارة لقلتم إن الرجل يريد مثل المشايخ اليوم، كثير من المشايخ نجلس معهم وبعض المفكرين وحتى من يُسمون بأنهم سلفية على طريقة حزب التحرير -حزب التحرير في بناء الدولة سلفي، لأنه لا يرى إلا الطريقة السلفية حتى في بناء الدولة عندهم هو سلفي-، تجلس معهم يقولون: "الفقه الإسلامي منتج تاريخي لا ينفعنا ولا يحل المشكلة!"، وتجده يقول: "ولقد كُتب الفقه الإسلامي في عصور ناسبت صياغته وناسبت منتجه، ونحن نحتاج إلى فقه جديد وإبداع جديد!"، فلو وقفت على هذه الكلمة لظننت أنه منهم، يريد أن يقول أن الإبداع من خلال تقنية الذات. فمنتجك يجب أن يكون ذاتيًا، إبداعًا ذاتيًا، جِدَّة جديدة ذاتية.

يقول: يجب ألا تتضمن ولا يُمكن أن تتضمن إعادة صورة دولة مسلمة أُنتجت قديمًا، حتى الآن الكلام يوافقهم، كأنه يقول بأن الدولة الإسلامية يجب أن تتطوَّر لأن الدولة الإسلامية في بعدها التاريخي هي إنتاج قديم.

لكن انظر إليه ماذا يقول، لصدق هذا الرجل في طرحه يقول: "**ومن هنا فإن البناء على تقنية الذات لا يتضمن بأي طريقة استعادة لمؤسسات الشريعة قبل العصر الحديث، ولا لممارستها أو حتى نظامها التعليمي، فهو مشروع أخلاقي من الطراز الأول**"؛ فهذه الدولة الإسلامية التي تتصورونها لما ستهدم به الحداثة وتُنتج دولة إسلامية هو مشروع أخلاقي من الطراز الأول، عليه أن يكون منتجًا جديدًا.

وهو لا ينسى التاريخ، ويهتم به، يقول: "**ومحاولة للبناء على الذات التاريخية من أجل التوجيه الأخلاقي، وهو مشروع للنقد الأخلاقي والتأني الأخلاقي والبديل الأخلاقي، ما يعني أنه مشروع يهدف إلى إيجاد فضاء أخلاقي للذات المسلمة في العالم الحديث وهي ذات** -أي الذات المسلمة اليوم- **لا تقل اغتربًا..**"، أنت يا مسلم تشعر بالغربة أم لا؟ ألا تشعر بالقلق

لما تشتري اللحم أنه ممكن يكون مذبوحًا على غير الطريقة الإسلامية؟ لما أنت تتعامل في أي عقد ألا تشعر باغتراب لما تُنشئ هذا العقد؟ لما تذهب لتتزوج ألا تخاف أن تكون زوجتك مبنية في داخلها بناءً علمانيًا وأنت لا تدري؟ ألا تعيش في اغتراب؟ ألا تعيش الاغتراب لما تذهب إلى عرس وأنت ملتزم إسلاميًا فتجد الاختلاط أو تجد الموسيقى تعيش غربة أم لا؟

قال عن هذه الذات المسلمة: "**وهي ذات لا تقل اغترابًا عن نظيرتها الغربية جرَّاء الحداثة**". هل الإنسان الغربي يعيش حالة اغتراب عندما صدمته الحداثة مما كان يعيشه في دولة تقليدية مبنية على الدين ومبنية على الكنيسة فجاءت الحداثة فدمرت هذا فعاش اغترابًا؟ يقول ما تعيشه أنت لما تريده من دولة إسلامية لما بعد الحداثة عاشاها قبلك من صُدم بالحداثة في عصره الكلاسيكي التقليدي.

"**وعلى هذا الأساس فإن استعادة المصادر الأخلاقية الإسلامية تمثِّل مشروعًا حداثيًا بقدر الحداثة نفسها**". الحداثة كانت ثورة على قيم الغرب، وبدّلت أصول الحياة كلها. هو يقول بأنه إذا أردت إسلامًا عليك أن تفعل ما فعلته الحداثة في الحياة، أي تدمير للأصول. وهي كمشروع حديث ما بعد حداثية أيضًا حتى النخاع. وبعبارة أوضح فإن ما بعد الحداثة تفترض الحداثة وتحاول أن تتجاوزها ولكنها تظل حداثة على الرغم من ذلك.

هذا النص وما بعده يفسره، لأن هذا الكلام أخاف كاتبه وذهب بعد ذلك يُدافع عن نفسه. يعني أنت الآن حتى تعيش في دولة إسلامية لا يوجد فيها ربا، ودولة إسلامية لا يوجد فيها دش يُدخل كل أوساخ الدنيا في بيتك، ودولة إسلامية تستطيع أن تعيش –كما قال– فضاءً إسلاميًا وفضاءً أخلاقيًا. ما دور الإسلامية عنده؟ أن تُوجِد فضاءً إسلاميًا للمسلم، إذًا عندها القدرة بأن تكون هي أقوى من سيطرة غيرها على العالم، يكون عندها قدرة على المجابهة. هذا هو الفهم الصحيح. وهو شَعَر بعد هذا النص بخوف، أنا متأكد!.

أنا مرات أضحك على المسلمين ومرات إخواننا من جماعة التبليغ كثيرًا ما يستخدمونها وبعض الخطباء على منوالهم، يقولون: وهؤلاء الكفرة وضعوا لنا شحم الخنزير في الأطعمة والبسكويت حتى يمنعوا قبول الدعاء من الله! هؤلاء صنعوا اللباس لنسائنا العاريات حتى يُمنع قبول دعاء وقبول الصلاة. والله لما صنعها المصنع ما كنت على باله، أنت لست في باله، هذا الموضوع لا يوجد إلا في ذهنك أنت.

هو يعترف أن الغرب في داخله -وهو يستبطِن هذا- يخاف الإسلام، وبالتالي كانت عنده المحاولة الأشد والأشق في أن يُدخل العالم الإسلامي في منظومته إدخالًا كليًا ليمنع إنتاج الإسلام في داخل بيئته. هو يعترف بهذا. ويعترف بأن الحالة الاستعمارية لم تُرِد فقط استغلالنا، ولكنها أرادت أن تُدخل العالم الإسلامي في منظومته ليمنع إنتاجًا أخلاقيًا كون الحداثة عدوًا للإنتاج الأخلاقي.

كتاب في هذه الصورة فاضح للاستشراق أيضًا، بحثت عن نَفَس استشراقي فيه فلم أجد، حتى أنني ظننت في أول وهلة أنه يستخدم عبارات استشراقية مثل فهمه للإسلام أنه قومية، ولكن وجدته بعد ذلك أنه أفرد فصلًا كاملًا في الكتاب يمنع إمكانية إقامة دولة إسلامية ضمن الظرف القومي، يقول: الإسلام عدو للقومية، بُعده الأخلاقي العالمي يمنع قضية أن يكون الإسلام قوميًا. وهذه من معوِّقات وجود الدولة. وهذا صحيح، من عدونا الآن نحن؟ ذهبت حتى القومية الآن عشائرية وعائلية!.

أنا ما رأيت رجلًا أكثر منه عداوة لما يُسمى الحداثة، مثله وجدت لكن أكثر منه لم أجد!

وهو يُفرِّق بين التنوير والحداثة؛ يقول: الحداثة عدوة للتنوير. قال: لو كانت الحداثة موافقة للتنوير لسمحت بوجود دولة إسلامية، الناس اختاروا الإسلام وقيمه تعجبهم فلماذا تريد أن تبلعهم؟

ما هو التنوير؟ الحرية والناس يختارون ما يريدون، فلو كانت الحداثة تلتقي مع التنوير أو في جوهرها تنويرية لسمحت للناس ان يختاروا ما يختارون ولكنها لا تسمح. الحداثة طاغوت لا يسمح إلا بتألُّه ذاته. ومن هنا يقابلها من آمن بتأليه الله.

الآن هو شعر أن الكلام صعب، وأن الكلام كأنه دعوة للثورة. إذا أردت أن تبني دولة إسلامية ماذا عليك؟ أن تهدم العالم كله، يجب أن تحارب مركزية العالم كله، سيُشكِّك في هذا المشروع كثير من المعلِّقين، خصوصًا من اعتاد منهم على التراث الليبرالي الغربي وقيمه.

من سيكون عدوًا للكتاب هذا؟ الذين يزعمون أنهم علمانيون وأنهم ليبراليون، ليبراليون أي الذين يؤمنون بحرية الإنسان، والليبرالية قسمان: ليبرالية صلبة لا تؤمن بوجود الله، وليبرالية تقول: الله أوجدنا لكن تخلى عنا وتركنا نعمل بمفردنا، بمعنى أنني حر أختار ما أريد، والعقل يُنتج ذاته ويُنتج ما يحب وما يكره، وبالتالي الشريعة ما يُنتجه هذا العقل.

"**سيشكك في هذا المشروع كثير من المعلقين خصوصًا من اعتاد منهم على التراث الليبرالي الغربي وقيمه، وسيتهمونه** – أي القائل– **على الأقل بخطيئة الماضوية. وأعتقد بأن الكثير قد قيل في الفقرات السابقة لدحض هذه النظرة.**"، –يعني هو يريد أن يقول بعبارة أخرى مُرضية لهم بأن إنتاج الإسلام هو إنتاج أخلاقي الأصل أن يسمح به التنوير. فأنا لا أؤمن بإنتاج الماضي، لكن نحن ينبغي أن نكون تنويرين وبالتالي يُسمح بإنتاج حياة على أُسس أخلاق إلهية التي جاءت بها الشرائع.

"**وأعتقد بأن الكثير قد قيل في الفقرات السابقة لدحض هذه النظرة، على الأقل بالنسبة إلى الذين يؤمنون بأن المشروع الليبرالي لا يحتكر الحقيقة. غير أنه لا تزال هناك جمهرة من المشككين وردهم المتوقع على المشروع الإسلامي للإحياء الأخلاقي هو أن هذا المشروع يظن ماضويًا ولا مكان له في العالم الحديث، وهو رد نجده حتى لدى أولئك الذين يناقشونه كموضوع علمي**"، هل الأصل ماضوي أم غير ماضوي هذا ليس له قيمة في البحث، لأنه شيء خارج عن نطاق البحث.

قال: "**ولذلك يتعين عليهم الآن التعامل مع هذه التهمة والكشف على المضامين الفكرية والمذهبية.**"، ويذهب إلى شرح هذا.

وكذلك مما يدل على رعبه من الحداثيين لأنه يعيش بينهم يقول مثلًا: "**يتم دائمًا رفض استدعاء قاعدة أخلاقية في تراث تاريخ معين تستطيع أن تعلمنا شيئًا لإعادة تقويم انهماك المشروع الحداثي في تدمير الطبيعة على اعتبار أن ذلك الاستدعاء يتَّسِم بالماضوية.**"؛ يعني يقول إن البعض يرفض استدعاء قاعدة أخلاقية ماضوية حتى لو كانت هذه القاعدة تحمي وجودنا، وحياتنا.

يقول: "**واعتبار أن ذلك الاستدعاء يتسم بالماضوية وحيث يُعتقد أن أدوات الحداثة التقدمية ممثَّلة في تطورها التقني تملك قدرات معالجة تلك الآثار المدمرة.**"؛ يقول إن هؤلاء الحداثيين يقولون لا ضرورة للماضي لأن الحداثة نفسها تملك مقومات تصحيح ذاتها.

هذا لأنه مشغول بهذا. لكن أنا أريد أن تنظروا إلى آخر جملة له في الكتاب لتعرفوا من هم أعداء هذا المشروع، "**لا شك في أن العيش معًا في سلام على الأرض هو عمل شاق. وقد يكون يوتوبيا..**"؛ يعني أسطورة، اليوتوبيا هي حالة ذهنية عقائدية

خالية من المنطق، يقول: "**وقد تكون يوتوبيا حديثة أخرى. بَيْدَ أن إخضاع الحداثة لنقد أخلاقي** -أي إسلامي على حسب تفسير الكتاب، فهو يعترف أن الإسلام مُرتَكَزُه هو الأخلاق- **يُعيد هيكلتها يبقى الحاجة الأساس لا لقيام حكم إسلامي فحسب بل لبقائنا المادي والروحي ليست الأزمة حكرًا على الحكم الإسلامي والمسلمين**"؛ يقول بأننا من أجل أن نُقيم دولة حداثية حقيقية قائمة على الأخلاق، لا يوجد إنتاج يقوم على الأخلاق كما يقوم الإسلام، الباقي هو إنتاج ذاتي، وخلال الكتاب كله يكشف أن الفكر الفلسفي لا يمكن أن ينتج بعدًا أخلاقيًا.

يقول كلمة تحت الفصل السابع وهي مهمة جدًا: "النطاق المركزي للأخلاق".

هو في الحقيقة هل هو من الحياء؟ هل لأنهم ليسوا بشيء؟ هو لا يتكلم أبدًا طوال الكتاب عن أي حزب إسلامي أو جماعة إسلامية أو شخصية إسلامية في قضية طرحها للبناء الإسلامي صحيح أم خطأ، ممكن تقول إما أنه لا يرانا لكنه ينتقد نقدًا خفيفًا لبعض المظاهر. لكن هو لا يأتي مثلًا لجماعة إسلامية يقول انظر ماذا يكذبون، انظر ماذا يقولون.

"**سنسلِّم هنا بأنه في حين تمثل هذه المشكلات تحديات مادية وعملية مهمة تستوجب التعامل معها بطرق تجريبية وعينية، فإنها تبقى كما طرح دوكاي في سياق مماثل أسئلة أخلاقية في الأساس؛ لأنها تنبع في النهاية من تشوُّه نظرتنا الأخلاقية إلى الطبيعة.**"، البناء العقدي للإنسان الغربي أساسه غلط فلا يمكن أن ينتج أخلاقًا. ولأنه لا يمكن حل تلك المشكلات بصورة مُرضية وحقيقية إلا من خلال تصحيح تلك النظرة.

كانوا دائمًا يسألون أطفال الغرب ما الفرق بين أخلاق الإسلام وبين الأخلاق الغربية؟ ودائمًا أُعلِّم أولادي وما زالت ابنتي تذكرها وتُذكِّرني بها وهي مرجعية الأخلاق، المسألة ليست قضية الصدق وعدم الصدق بل مرجعية الصدق؛ أنت تقول لأحد: الصدق ممنوع بأي مرجعية، في الغرب الصدق انتهت قيمة العُرف، العرف ضعيف جدًا ولا وجود له، العُرف أن الناس يعيبونه لأنه كذب أو ما شابه، عندنا الآن لو واحد كُشف أنه كاذب ماذا يفعل؟ يخجل من نفسه. لكن عندهم إذا كان واحد محترم بين ناس محترمين وكشفوا أنه كاذب هل يخجل أم لا يخجل؟ الغربي لا يخجل. ما هو السبب؟ الذي يخجل عندنا لأنه حس إسلامي.

الشيخ من قبل خمس دقائق تكلم عن الكذب أنه حرام ويُلقى في جهنم وعيب وكذا، لكن في الغرب لا وجود لها. فمرجعية الأخلاق مهمة جدًا، قبل أن نبحث في قضية الأخلاق.

قال: "**وهذه الحلول لها آثار مباشرة لا على إمكان الحكم الإسلامي في العالم الحديث فحسب، بل أيضًا وأساسًا على الدولة الحديثة والشرط الحديث الذي توجد فيه، وكما سنؤكد في هذه الصفحات الختامية فإن أكثر مشكلات الإسلام الحديث جوهرية ليست إسلامية بصورة حصرية** -المشكلة ليست في الإسلام- **بل هي في الواقع جزء أساس من المشروع الحديث نفسه في الشرق كما في الغرب.**"

هو هنا له عبارات مهمة لنا في نقده للخطاب الإسلامي، وهذا الكتاب كله قد أَجْمَلَه في عبارة في الأول، لكن هذه العبارة احتاجت إلى كل فقرة يقوم عليها ونحن اعترفنا له بالبناء المنطقي.

الحقيقة البعض يخجل من هذا الطرح ويترك البناء للنهاية حتى لا تنصرف عن الكتاب. لكن الرجل واثق من نفسه ولا يكتبه للتجارة. أطروحة هذا الكتاب بالغة البساطة؛ "**إن مفهوم الدولة الإسلامية مستحيل التحقق وينطوي على تناقض داخلي وذلك بحسب أي تعريف سائد لما تمثله الدولة الحديثة**"، لو وقفنا عند هذه العبارة يقول هناك تناقض داخلي بين الدولة وبين المجتمع، أي بين قيم الإسلام العظيمة وبين المجتمع.

بحثت عن عبارة فيها نقد للمشروعات الإسلامية المعاصرة فما وجدت مثل هذه العبارة، يقول: "**تفترض الخطابات الإسلامية الحديثة أن الدولة الحديثة أداة للحكم محايدة يمكن استخدامها في تنفيذ وظائف معينة طبقًا لخيارات** -أي العقائد- **قادتها وقراراتهم، كما تفترض أن بمقدور القادة أن يحولوا آلة حكم الدولة حين لا تُستخدم للقمع إلى ممثِّل لإرادة الشعب.**"؛ هو يشرح كلامًا رائعًا، يقول الدولة الحديثة هي دولة لا يمكن إلا أن تنطوي على بعد القمع وطمس الإسلام في الداخل؛ لأن الأخلاق تقوم على احترام الإنسان.

يعني المعنى الاقتصادي الذي تفرضه الدولة الحديثة هو لمصلحة الإنسان أم لسحق الإنسان؟ لسحق الإنسان. انظر إلى اثنين في المائة وهذا قبل ثلاثين أو أربعين سنة كان الاقتصاد بيد ٢% في العالم، و٩٨% عبيد لا قيمة لهم، فالأصل أن تُقلب الصوة أن تكون الحياة لخدمة الإنسان. ما الذي يمثل هذا؟ حين يكون عبدًا. حين يكون هناك مركز يعود إليه.

يُظن أن هذه الدولة هي مجرد أدوات يمكن أن تُستخدم لقمع الشعوب ويمكن أن تُستخدم لخير الشعوب. هو يقول لا الدولة الحديثة ليست كذلك، يقول: "..**محددين بذلك ما ستكون عليه الدولة ديمقراطية أو ليبرالية، نظام اشتراكي أو دولة إسلامية تطبق القيم والمثاليات المتأصِّلة في القرآن وتلك التي حققها الرسول في دولته الصغيرة في المدينة. هكذا تنظر الخطابات الإسلامية الحديثة إلى الدولة الحديثة.**"، انظر بالله عليك إلى هذا العمق العجيب!. أنا أجزم أن من قرأ هذا الكتاب ولا يعرف كل عبارة ما هي مدلولها وكم بذل من جهود في إبانتها ستكون قراءته واهية، هذا يدل على فهمه ووعيه، انظر إلى المثل الذي ضربه لتعرف كم يحتاج إلى شرح.

إذًا كيف نظر الإسلاميون للدولة الحديثة؟ أنها محايدة. يمكن أن تملأها قمعًا، ويمكن أن تملأها ديكتاتورية، يمكن أن تملأها ديمقراطية، ويمكن أن تملأها إسلامًا. ويمكن أن تُدخل الدولة الإسلامية النبوية في هذا النموذج الحداثي. يقول: هذا فهم ساذج!

انظر إلى المثال هذا ما أرقاه، يقول: "**هكذا تنظر الخطابات الإسلامية الحديثة إلى الدولة الحديثة كما نظر أرسطو والأرسطيُّون إلى المنطق أي كتقنية محايدة أو كأداة توجُّه التفكير السليم فيما يخص أي موضوع أو مشكلة في العالم.**"؛ ماذا قال الإسلاميون المناطقة؟ قالوا: "النحو يعصم اللسان من الخطأ واللحن، والمنطق يعصم العقل من الخطأ"، وبالتالي هذا المنطق هو إنتاج إنساني يجب أن يستخدمه كل أحد؛ البوذي والمسلم والنصراني والوثني. ووقع فيه المسلمون أم لم يقعوا؟ وصارت مقدمات أصول الفقه مقدمات منطقية أم لا؟ هو يُرجع المصدر هنا باللغة الإنجليزية إلى من؟ من تعتقدون أنه هو الذي هدم هذه النظرية وقال بأن المنطق الأرسطي ليس محايدًا وإنما هو خادم لعقيدة بل هو مُنتَج لمشكلة.

تذكرون كتاب (المرايا المحدبة)، لما قلنا أنه قال بأن النقد الغربي هو إنتاج أزمة نفسية غربية لا تتلاءم معنا. الإمام ابن تيمية يقول بأن المنطق الأرسطي هو حل لمشكلة زمنية تتعلق باليونان وهي السفسطائيين، يعني عندهم مشكلة السفسطائية وهي إثبات الشيء ونقيضه، جلس يقول تستطيع أنت أن تُثبت الشيء ونقيضه، وأن تثبته وأن تنفيه، فذهب أرسطو ووضع المنطق. هذا مُنتَج داخلي من خلال بيئة معينة وثقافة معينة، فذهب أرسطو وأنتج المنطق من أجل إيقاف هؤلاء. أخذه المسلمون باعتباره آلة محايدة تُستَخدم لردّ أي أحد. من بيّن هذا لنا؟ ابن تيمية. وقال بأن هذا منتج خاص بهم.

مثل قضية التصورات والتصديقات، يعني أرسطو قال: الأمور تُقسم إلى قسمين؛ تصديقات وتصورات. والتصورات لا تنشأ إلا بالحد والتصديقات الأخبار وما شابه ذلك إلى آخره. فلأجل هذا نشأ في الإسلام بأنه لا يمكن تصور شيء إلا من خلال

الحدّ -يعني التعريف-. وجاء ابن تيمية ينقضه، وقال بأن أفضل طريقة لتصور الشيء هو المثال وليس الحد. يعني أنت لو جئت قلت ما الساعة؟ أردت أن تضع لها حدود التعريف وأركان التعريف وهي كذا وكذا، من أفضل هذه الصورة التي يقدمها لك التعريف أم المثال حين يقول لك هذه هي الساعة؟

أرسطو لا يرى طريقة لتصور الغيبيات إلا بالحد، ونقض هذا ابن تيمية.

يقول مثال هذا: "**كما نظر أرسطو والأرسطيُّون إلى المنطق أي كتقنية محايدة أو أداة توجه التفكير السليم فيما يخص أي موضوع أو مشكلة في العالم، واستمر ذلك إلى أن أوضح المفكرون المسلمون أنفسهم بعد قرون من أرسطو أن منطقه الصوري ونظرية الكليات التي يقوم عليها متشبعة أصلًا بافتراضات ميتافيزيقية -يعني غيبية-، معيَّنة تحدد مسبقًا طبيعة مقدماتها وتحدد بالتالي طبيعة نتائجها، وأن مجرد استخدام هذا المنطق يعني تسليمًا قَبَلِيًا بنوع من الميتافيزيقيا سبق أن رفضه أغلب المفكرين المسلمين.**".

هذه كافية. أنا أردت أن أضرب لكم كيف ذهب إلى المثال ذهابًا. وهو يورد كلامًا كثيرًا أنا أختصر حتى لا أطيل عليكم.

انظر إلى شرح العولمة بعبارات شرحها سابقًا لكن يُجملها في هذه العبارات: "**ملاحظات ختامية في شأن المأزق**"؛ مأزق الحداثة. يقول: "**ما دمنا افترضنا قيام حكم إسلامي لا بد أن نفترض أيضًا أن ذلك الحكم سيخضع للتحديات التي يطرحها العالم المُعوْلَم**"؛ الآن العولمة هل هي إنتاج حتمي أم أنها مفروضة؟ مفروضة. يعني العالم لم يختارها باختياره وإنما الذي فرضها شركات عابرة للقارات. الشركات التي أنتجت التلفزيونات فجعلت الثقافة واحدة. الشركات التي أرادت أن تهدم القيم وتُمرِّر منتجاتها بكل أنواعها على داخل العوالم الأخرى التي لا يمكن أن تمر هذه المنتجات إلا من خلال تدمير القيم الخاصة لكل أمة.

عندما يريد الغربي أو شركة أن تسوِّق بضاعة ما، هذه البضاعة تختلف مع قيمك، لا بد أن تدمر قيمك حتى تمر البضاعة، إذًا ما الذي أنتج العولمة؟ هي الشركات العابرة للقارات.

"**وكنا قد حددنا ثلاثة تحديات على الأقل: الطبيعة العسكرية للدول الإمبراطورية القوية..**"، ما الذي يمنع من قيام حكم إسلامي؟ طبيعة الدولة المعاصرة الحداثية التي يسمونها حداثية وظنوها تنويرية، قال: "**الطبيعة العسكرية للدول الإمبراطورية القوية**"، لا أحد يستطيع الخروج عنها، وإذا أراد أن يخرج عنها يتدخل العسكر والبساطير.

"**ثانيًا التغوُّلات الثقافية الخارجية**"، اليوم ليس هناك إمكانية لإقفال الحدود، أنت تضع الدش فوق الدار فليس هناك إقفال لحدود الثقافة، "**والسوق العالمية الرأسمالية الليبرالية الهائلة**"؛ هذه لا يوجد فيها إقفال الحدود. هذه الثلاثة لا يمكن، هذه هذ العولمة، ولا يوجد حدود لا ذاتية في داخل المجتمعات ولا صناعية من خلال الحدود والسياسات وغير ذلك.

نقطة مهمة؛ هو يأتي إلى موضوع الجهاد ومعضلة بناء الدولة. تعرفون أن من أركان شرعية الحاكم والدولة عندنا أنها دولة جهاد، والعلماء افترضوا على الحاكم إذا لم يجاهد أن يُعزل لأن من شروط بناء الدولة الجهاد. تصور ماذا سيكون شكل الجهاد في دولة إسلامية في وسط هذه العولمة؟! ينبه عليها في صفحة (٤٦): "**لطالما سعى النموذج مثله مثل قواعده القانونية الخاصة والفنية إلى تحقيق تلك الغاية الأخلاقية، ففشل أحيانًا ونجح في أغلب الأحيان، وذلك بالتحديد هو ما جعله نظامًا نموذجيًا**"، هذه كلمة "نموذجي" كلمة رائعة وجميلة ومُغرية ومدحيَّة، لكن لو قال: "نموذجًا واقعيًا" لكانت أقرب. يعني وجود دولة إسلامية كنموذج موجودة في عالم الواقع يجعل الإسلام واقعيًا، وهي دولة إسلامية ونحن نعترف أنها دولة إسلامية.

وأنا عندما قرأت هذه العبارة قلت لو أنه ضرب مثالًا بكتب الأموال. ككتاب (الأموال) لأبي عُبيد لو ذهبت إليه ما مصادر الدولة الإسلامية؟ ثلاثة أرباعها متعلقة بالجهاد. حتى ما لم يكن جهادًا كالخراج ما الذي أفرزه؟ الجهاد؛ الفيء، الغنيمة. يعني لما يأتي عالم يُحرِّم المكوس، لماذا حرم المكوس؟ لأن هناك منافذ أخرى. لما جاء في القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} أغلق عليهم باب تجارة فكيف فتحها؟ {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}، ما الذي قاله بعدها؟ كيف جاء الحل بعد أن أغلق عليهم أبوابًا اقتصادية؟ قال: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ} فتح الباب.

"لطالما سعى النموذج مثله مثل القواعد القانونية الخاصة والفنية إلى تحقيق تلك الغاية الأخلاقية ففشل أحيانًا ونجح في أغلب الأحيان، وذلك بالتحديد هو ما جعله نظامًا نموذجيًا وقد ارتكز النظام في مُجْمَله على مفهوم الجهاد ذي السمعة السيئة اليوم نظرًا إلى تعريفه بصورة حصرية في الفترة الأخيرة بصورة خاصة على أساس فكرة كارل سميث الشائعة عن السياسي.."، إلى آخره. عبارات فلسفية تحتاج إلى شرح طويل.

لما قرأت الكتاب تذكرت البنوك الإسلامية، كما أن الدولة المستحيلة بالمفهوم الذي طرحه كذلك البنوك الإسلامية بالمفهوم الموجود ضمن هذا العالم الربوي يصير بنوكًا إسلامية!

أرجو أن يُقرأ الكتاب من قبل إخواننا. وهذا علَّمنا -أعيد وأكرر- ألا نقرأ الكتب بعيون غيرنا، وعلينا أن نقرأها بأنفسنا. وهذا يؤكد لنا أنه لا يمكن إنتاج دولة إسلامية عن طريق ما يسمى بالإصلاحيين. هذا كلام فارغ، وهي ضروب من الخيال، ولا يمكن إنتاج دولة إسلامية حتى يتم ضرب المركز وضعضعته، وهذا يمكن أن تقرأه في كلامي في كتاب (صِبغة الله الصَّمَد) عند قوله {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} وصلح الحديبية، كون (صبغة الله الصمد) يفسر مغازي النبي ﷺ في القرآن الكريم، وكيف فسَّرت أن صلح الحديبية هو فتح عظيم من الله؛ ذلك لارتقاء دولة الإسلام أمام دولة الجاهلية من خلال صراع كلي وليس من خلال صراع جزئي، حتى يتم التوازن ثم بعد ذلك تتم الغلبة، إلى آخره.

الآن هل تتصورون أن دولة إسرائيل تزول من غير سقوط مركزية أمريكا؟ لا نتكلم عن دولة إسلامية. بالرغم أنه لن تعود دولة فلسطين إلا بدولة إسلامية، لكن لو أتينا لمن يريد أن يختصر الطريق ويريد أن يذهب إلى إزالة دولة إسرائيل ليختار الفلسطينيون كما يختار السوريون حاكمهم بعد سقوط نظام بشار ويختار الفلسطينيون نظامهم الذي يريدون بعد زوال دولة إسرائيل. هل تتصورون أن دولة إسرائيل تزول من غير زوال مركز الجاهلية؟

هذا هو الجواب. ولذلك نسأل الله أن ينصر المجاهدين. ونسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يؤيدهم.

ونحن على ثقة أننا لن نصل إلى اللحظة الحرجة في إزالة طواغيت الأرض وإقامة دولة الإسلام حتى يتوافق هذا قدريًا مع زوال سلطة المركز. وهذه يشرحها هو، يتكلم عن المركز في الفقرات الأولى في الصفحات الأولى تقريبًا من (٤٠-٤٥) في هذه

الصفحات يتكلم فيها كلامًا شديدًا في قضية **عدم إمكانية تحرُّر الفرع استقلالًا فيه بالقيم بعيدًا عن سلطة المركز حتى يسقط هذا المركز**.

هذا الذي عندي وبالله التوفيق، وجزاكم الله خيرًا، وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

[٢٤]

مناقشة كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) لماثيو جولوفنسكي

الجلسة الأولى:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصّلاة والسّلام على أشرف الخلق وسيّد المرسلين وإمام المتّقين حبيبنا وسيّدنا وإمامنا محمّد، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإيّاكم منهم، آمين.

أهلًا وسهلًا بكم أيّها الإخوة الأحبّة في حلقة جديدة من كتاب جديد ضمن مشروع الألف كتاب قبل الممات. وهذا الكتاب اليوم هو الكتاب الشهير، كتاب (**بروتوكولات حكماء صهيون**).

هذا الكتاب أيّها الإخوة الأحبّة عليه كلام كثير، أبتدأ فقط في ضرورة فهمه وكيفيّة الدخول فيه، هذا ضمن موضوع فنّ القراءة الّذي عادة نستغلّ بعض الكتب نماذج من أجل هذا الفنّ العظيم، وهو فنّ عبادة القراءة. القراءة عبادة! فهذا يجب أن نفهمه.

فلتحقيق هذه العبادة لا بدّ أن يأتيها المرء على وجهها الصحيح، من خلال سنّتها الملائمة لها؛ لأنّ لكلّ عبادة ولكل عمل من الأعمال سنّة خاصة به، فإذا لم تأت هذا العمل من خلال سنّته الّتي قدّرها الله -عزَّ وجلَّ- لهذا العمل؛ فلن تصيب المراد الّذي أراده الله -عزَّ وجلَّ- من هذا العمل. وبالتّالي هذا الكتاب، هو كتاب يُعتبر من الكتب الشمولية، أي أنّ قراءته ينبغي أن تكون شمولية.

أوّلًا يجب أن تكون عالمًا بالتاريخ؛ فالتاريخ ضرورة لفهم هذا الكتاب أو للحكم عليه. **ثانيًا** لا بدّ من معرفة الأديان والفرق وباتسّاع، وخاصّة اليهودية من خلال كتبهم. التاريخ القديم والتاريخ المعاصر. **ثالثًا** لا بدّ من وجود هوامش حول هذا الكتاب من أمور متعددة وهي معرفة الواقع. يعني لا بدّ للحكم على هذا الكتاب أن تكون عالمًا بالواقع وليس فقط التاريخ.

الأمر المهمّ فيه وهو النّظر إلى أثره، هذا الكتاب ليس من أجل الذوق الذهني وإن كان الذوق الذهني ضرورة. بعض النّاس يحتقر الكلمة حين تتجرّد آثارها عن الفعل، وهذا خطأ. بمعنى أنّ بعض الناس يقول ما يهمّني من العلم إلّا ما أفاد العمل، أي

إذا قصد العمل بمفهوم السلف، وهو عمل القلب والنفس فهذا صحيح، وإن قصد بالعمل أي المقصود به كما يقصد به عوام اليوم الجوارح فهذا خطأ؛ فالقلب له أعمال، وهذه الأعمال هي أهمّ من أعمال الجوارح، وإذا لم تكن أعمال القلب سليمة تامّة، فأعمال الجوارح ستكون كذلك؛ لأنّ أعمال الجوارح هي الظلّ لأعمال القلوب.

وبالتالي هذا الكتاب له أثر في دراستك وفهمك للحياة، وعلى طرق تعلمك للخصوم. وهذا الكتاب قبل أن نشرع فيه هو ضمن القاعدة القرآنية: {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجْرِمِينَ}، فمعرفة سبيل المجرمين واجب شرعي كما يريد الله – سبحانه وتعالى–، وأنتم تعرفون الحديث الّذي في مسند أحمد بسند صحيح أنّه لما قدم عديّ بن حاتم على النبيّ ﷺ، وعديّ من طيّء، وطيّء قبيلة فيها اليهود وفيها النّصارى وفيها المشركون؛ لأنّها على تخوم الجزيرة مع بلاد الشام. ولذلك أهل اللغة لا يحتجّون بها؛ لأنّ لغتها دخل فيها العجمة، فلا يقبلونها ويعتبرون لها فرائد في اللغة.

فعديّ بن حاتم كان على مذهب نصراني منفرد، وهو دين في النصرانية يُسمى الرّكوسية. فالنبيّ ﷺ قال له: (يا عديّ، أو لم تكن تسيرُ في قومِك بالمرباعِ). قال: أو تعرف ديني؟ فقال له رسول الله ﷺ: (إنّي لأعلم بدينك منك).

فهذا هو النموذج. وهو نموذج نبويّ، وهو أن تكون عالما بمذهب الأقوام الآخرين، حتّى إنّك لتعرف مذهبهم أكثر منهم. وكما ذُكر هذا عن ابن تيميّة أنّه لما ناظرهم قال: "وأنا أعلم بمذاهبكم منكم". فمعرفة مذاهب الناس بالنسبة للعامل في دين الله أمرٌ ضروريّ؛ لأنّ مناهج النّاس ولأنّ حركات الناس هي ظلٌّ لعقائدهم.

يعني أنت لا يمكن أن تفهم الآخر كيف سيتصرّف التصرّف الآتي القادم من لحظته المعاصرة؛ حتّى تكون عالما بدينه، عالما لما هو فيه، ما هو اعتقاده؟ فإذا علمت اعتقاده فهمت تصرّفه، وإذا جهلت اعتقاده جهلت تصرّفه الّذي ذهب كيف تفسّره، والآتي كيف تتوقّعه. فإذا فقهت دينه وعلمته على الوجه الصحيح علمت تصرّفه كيف وقع، وتوقّعت تصرّفه كيف سيكون.

وبالتّالي، إنّ معرفة عقائد الناس ضرورة شرعية، وهي فوق ذلك ضرورة دينية، وفوق أنّها عقدية شرعية هي قدرية فهي ضرورة للحياة. وأنتم تعلمون أنّ الغرب قد استفرغ الوسع في هذا، فالغرب استفرغ وسعه في فهم ديننا. هذه القراءات الّتي تقدمت للمستشرقين لديننا، استوعبت تاريخ الأمة، واستوعبت فرقها، واستوعبت واقع العشائر والقبائل والمناطقة، واستوعبت الجغرافيا، ومن قرأ سير وأخبار وقصص الرحّالة الغربيين في بلادنا رأى العجب العجاب. أنا تفرّغت مرّة لهذا الأمر فوجدت الغرائب!

يعرفون العشائر والقبائل في بلادنا أكثر ممّا نعرفها نحن. ويعرفون الأديرة ويعرفون مسالك الطرق، ويعرفون ينابيع المياه، علاوة عمّا يعرفونه من ديننا. يعني كتاب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي صاحبه "فنسنك".

فهذا "فنسنك" فرّغ جماعة من البحّاثة يقرؤون الحديث النبوي. فرّغوا كل ألفاظ الكتب الستّة مع الموطأ وسنن الدارميّ إلّا ابن ماجة. وصار هذا الكتاب مرجعًا لأهل الحديث، يعني لولا وجود الكمبيوتر والفهرسة الكمبيوترية اليوم؛ لبقي عمدة الناس في قراءة كتب الحديث وألفاظها على هذا الكتاب. ونحن نقرأ كذلك هنري لاوست كيف قرأ ابن تيمية قراءة أبعد مما نقرأها نحن. يعني هنري لاوست هذا المستشرق الفرنسي قرأ ابن تيمية في جوانب نحن لا نهتم لها، كالجوانب الاجتماعية وقوانين الاجتماع عند ابن تيمية، وقوانين السياسة، نحن ما قرأناها إلّا حديثا احتجنا إليها.

لكن في عصره ما كان يُقرأ ابن تيمية إلّا في باب الأسماء والصفات والحروب العقدية، ولكن هو يتكلّم عن الجانب الاجتماعي بطريقة غريبة جدًا. لا سيما وأنّ ممّن معه من قام بقراءة كتب التصوف، قراءة المعتزلة، والمعتزلة في ذلك الوقت لما كان الغرب يقرأ لمعتزلة لا وجود لهم في واقعنا على طرق طوائف وفرق. فالغرب سبقونا في هذا.

وأنتم تعجبون اليوم مثلًا أن تقوم ثورة في بلد صغير مثل الفنجان، فتجد خبراء في الصحافة –دعكم فيما يكون في وراء الكواليس، في دوائر الاستخبارات والسياسة والقرار–، فقط أنت تفتح الـBBC فتجد مثلًا هذه البلد ما هو، ما تاريخه، ما عشائره، ما فرقه الدينية، ما هي تناقضات هذه البلد، ما هي التناقضات السياسية، المذهبية، الاقتصادية، وخبراء يتفرّغون. وقد يكون هذا الدارس لم يُحتج إليه إلّا هذه المرة! فقط ليتفرّغ لدراسة هذا البلد دراسة تامّة ويجلس ويُصرف عليه الأموال، جالس في مؤسسة بحثية تفرّغه لهذا الأمر فقط. وقد لا يحتاجونه حتّى يموت حتّى يأتي غيره، ولكن إذا احتاجوا شخصًا يحضرونه.

فهذا فقط في الصحابة، فكيف كما قلت فيما وراء الكواليس من الدوائر الأمنية والدوائر السياسية ودوائر صنع القرار؟ فلذلك نحن بحاجة لأن نقرأ ديانة الآخرين، ولا نقرأها قراءة الغفلة!

بمعنى اليوم أنتم تسمعون الصليب والهلال واحد! كذّابون، ما كان الصليب والهلال واحدا. نتكلّم تاريخًا نحن، عندما يُقال وحدة وطنية متى كان هناك وحدة وطنية؟! لا وجود لهذه الوحدة الوطنية أبدًا. لا وجود لوحدة وطنية في تاريخ الشعوب كلها، ليس فقط عندنا. أن يجتمع النّاس على مجرّد وجود أرض، أن يجتمعوا فيُحدّ لهم حدود ويُقال أنتم إخوة ضمن هذه الحدود! هذا أقبح ما يُقال في الفكر والنظر وقراءة التاريخ.

النّاس يتّحدون على الأديان، يتّحدون على اللّغة كما أراد الألمان؛ فالألمان هم الذين أخرجوا مفهوم القومية ولقائها على عمدتين: العمدة الأولى اللغة، ثانيًا صيرورة التاريخ الّتي أخذها القوميون العرب والطورانيون الأتراك ولكن الوحدة الوطنية لا وجود لها.

يعني لما جاء نابليون إلى مصر من الّذي عاونه؟ النّصارى. "المعلم يعقوب"، مشهور هذا الرجل، جدّ بطرس غالي الّذي حاول أن يصنع منه بطلًا مصريًا، هذا كان قذرًا ورجلًا عميلًا للإنجليز، وهو الّذي دلّ الإنجليز في حادثة دنشواي على قتل الثوّار والمعارضين للحكومة الإنجليزية في القرية الشهيرة. فهذا كذب، وهذا إعماء عن قضيّة ما هي الحقيقة. مثل مدح آل معروف الدروز هذا كذب وافتراء. يجب أن نقرأ الواقع كما هو دون تزوير.

نحن اليوم بسبب فعل وضغط السياسة نزوّر التاريخ! ويُراد منّا أن نقرأ التاريخ على غير حقيقته. يجب أن نقرأ التّاريخ على حقيقته. موضوع الثورة العربية الكبرى وما فيها، موضوع الأتراك. تزوير! مِن أعظم ما أنتجته الأمّة عملًا بهدي القرآن وهو أنّها كتبت التاريخ روايةً. ما دخّلوا أيديهم قط في الرواية. اقرأها كما تريد.

يعني أنت تذهب إلى كتاب تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، هو يأخذ الرواية ويضعها بين يديك. لا يوصلها كما يريد ولا كما يحب، يقول لك هكذا هي الرواية اقرأها كما تريد، وبعد ذلك تأتي الدراسة. أوّلًا يجب أن تثبت الرواية كما هي، كأنّك تنقل صورة تلفزيونية لا تزوير فيها، وليس فيها مونتاج! بل تنقلها كما هي. بعد ذلك أنت تقرأها كما تحبّ، لا مشكلة.

نحن اليوم على العكس من ذلك. التاريخ نفسه يُكتب الآن، لو طلبت من أحد: أعطني كتبًا تاريخية تؤرّخ من فترة الاستعمار وسقوط أمتنا ثمّ ظهور الدولة القومية، لا تجد إلّا الأكاذيب. كلّما دخلت أمّة لعنت أختها، وكتبوا التاريخ على مزاجهم. وإذا أراد أحدٌ أن يكتب التاريخ كما هو عُوقب وحورب، وقوتل وسُجن! يريدون منك أن تكتب التاريخ كما يحبّون لا كما هو.

هذه مقدّمة لا نريد أن نطيل أكثر.

فبالتّالي أن نقرأ اليهود هذه ضرورة. ومثلًا أنا أقدّم لكم شيئًا مهمًّا له علاقة ببروتوكولات حكماء صهيون، وهو قضية الفطير اليهودي. هناك قضيّتان في الغرب تُحاربان محاربة لا مثيل لها، افعل ما شئت إلّا أن تقترب من حمى هاتين القضيّتين. قل ما تشاء، تريد أن تسبّ الله سبّ كما تريد، تريد أن تسبّ تاريخ بلدك، يعني الـBBC نفسها تبثّ أفلامًا تسيء إلى التاريخ

البريطاني، فهي تسبّ التاريخ، تسبّ قيمهم القديمة البالية وإجرامهم وأفعالهم المشينة مع الأمم، ومثلًا تكتب عن علاقتهم بالإسكتلنديين، وتعجب أنّ هذا يُبث في قناة إنجليزية لسبّ الإنجليز كيف تعاملوا مع الإسكتلنديين.

فهم يسبّون تاريخهم، يسبّون أديانهم. هناك مسلسلات لسبّ النصارى، مسلسل أسبوعي لسبّ دينهم والاستهزاء بهم. فماذا تريد؟ في ماذا تريد أن تتكلّم؟ تريد أن تتكلّم عن تاريخ ملوكهم يعني أجدادهم " الستّ فيكتوريا"، افعل ما تشاء. يكتبون أكثر ممّا تظنّون. لكن هناك شيء لا يجوز الاقتراب منه، وإذا اقتربت منه -أنا أتكلّم عن المسائل التاريخية والأممية-، يعني مثلًا هناك قضيّة اللواط هذه قضيّة مقدسة عندهم. لا يجوز الاقتراب منها! لو أنّ أحدًا من النّاس تكلّم عن اللواط وذمّه لذهب وراء الشمس. يعني حورب بالقانون، يُرمى في السجون ويُعذّب ويُقام ضدّه شرّ قيام. ولكن أنا أتكلّم عن المسائل التاريخية.

هناك قضيّتان محرّمتان لا يجوز الاقتراب منهما: قضيّتان في معنى واحد وقضيّة فريدة.

- **القضّية الأولى** تتعلّق بالكلام عن بروتوكولات حكماء صهيون. **والقضيّة الثانية** من نفس المعنى: الفطير اليهودي.

- **القضية الثانية** الفريدة هي قضية الهولوكوست أي المحرقة.

كلّ سنة، حتّى نحن المساجين كل سنة -طبعًا في وقت من الأوقات ولكن بعد ذلك منعونا كلّيًا من الخروج من الوحدة-، لكن كنّا نعجب خلال الثلاث سنوات الأولى، كنّا مسجونين مع الجنائيين، فيخرجوننا تفضّلوا تفضّلوا. أين نذهب؟ أقاموا اجتماعًا كبيرًا لذكر الهولوكوست، وكلّ بريطانيا فيها ذكر الهولوكوست حتّ المساجين. الهولوكوست المحرقة الّتي زعموا أنّ هتلر قتل فيها في أفران الغاز ستّة مليون وهي أكذوبة. حتّى حرق اليهود لا وجود له. كان يحرق الموتى في داخل معسكرات اليهود، فكان يموت واحد أين يدفنه؟ يضعه في الفرن.

وزعموا أنّه قُتل من اليهود في المحرقة ستّة ملايين، وعدد اليهود في أوربا قبل الحرب ستّة ملايين! أكذوبة رائجة ويعظّمونها ويتجارون عليها. ولذلك ألّف صحفي يهودي كتابًا سمّاه (تجارة الهولوكوست)، اليهود يتجارون بها، صناعة صنعوها واستنزفوا العالم.

تعرفون، في طلب الجنسية البريطانية تُكتب مجموعة أسئلة: اختر الجواب الصحيح: عدد قتلى الهولوكوست: أربعة ملايين، خمسة ملايين، ستّة ملايين؟ يعني أنّ قضيّة الهولوكوست حقيقة هذه تجاوزناها، لكن هل هم أربعة ملايين؟ فتخطئ فلا تستحقّ الجنسية البريطانية. والكلام جدّ ليس مبالغة. يعني مكتوب هناك أسئلة حتّى تنجح للحصول على الجنسية البريطانية عدد قتلى

الهولوكوست أربعة ملايين أو خمسة ملايين أو ستّة ملايين ويجب أن تعرف أنّ الرقم ستّة ملايين وتعترف! ولو حاورت في العدد لكنت مجرمًا كبيرًا!

هذه انتهينا منها.

القضيّة الّتي نحن في صددها وهي بروتوكولات حكماء صهيون. يُستهزأ به إذا تكلّم المرء عن بروتوكولات حكماء صهيون أشدّ الاستهزاء، ويُعتَبر أنّه مجنون، يعني خرج من نطاق البشرية. وأغرب منها عندما يُتكلّم عن فطير الصهيون.

تعرفون فطير اليهود في العيد اليهودي؟ أنا أتكلّم لكم فقط عن الفطير أوّلًا حتّى ندخل إلى البروتوكولات وتاريخها وما يُقال فيها من النفي. هناك في التلمود نصّ، وهذا التلمود للذكر كما يقول الخبير في الشأن اليهودي والصهيوني والنّازي كذلك، وهو الأستاذ عبد الوهاب المسيري –وأنا ذكرت هذا في فنّ القراءة–، يقول: "يمكن لك أن تقرأ أيّ كتاب لكن لا يمكن أن يستغرق عمرك قراءة التلمود." التلمود هو الكتاب الذي لم يقرأه أحد. لماذا؟ لأنّ كل حبر من أحبار اليهود يستطيع أن يضع فيه كتابًا، فهو كتاب ضخم جدًّا جدًّا لا يمكن قراءته.

وهناك كاتب أمريكي تغلغل فيه فوجد حقيقة –لأنّها ليست في التوراة وإنّما في التلمود–، والتلمود هو نصوص الأحبار على التوراة، تفسيرات الأحبار على التوراة. ففيه أنّه ينبغي أن يُعمّد الفطير الّذي يأكله اليهود يوم العيد بدم رجل من الجوييم

هذه القضيّة حدثت ويُستهزأ بها، وهناك كتاب أرجو أن تقرؤوه اسمه: (الكنز المرصود في أحكام التلمود) وقدّم له أستاذنا وشيخنا مصطفى الزرقا، وقال في مقدّمته مستهزئًا، عن تاريخ ثبتت صحته. يعني قال: "لما كبرنا كنّا نضحك على أمهاتنا"، وهذه أنا أدركتها قليلًا، يعني كان بقايا وجود لها اسمه الكنز المرصود في أحكام التلمود. وكاتب أمريكي قرأ هذا النص وهو فطير الدّم. اليوم ما فيه ضرورة يقتلوا واحد من الجوييم؛ لأنّ بنوك الدّم موجودة. يذهب إلى بنك الدم ويأخذ من دم الجوييم {لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ}، الجوييم هم الشعب غير اليهودي فيأخذونه ويخلطونه ويأكلون هذا الدم!

بعض الناس ونحن صغار، كما يقول الأستاذ مصطفى الزرقا وهو حلبي رحمه الله يقول: "كان أمّهاتنا في الّليل يخفن علينا أن نُسرق من قبل اليهود فنُقتل، قالوا يمصّوا دمنا". وهذه أنا أدركتها، فهو يقول لما كبرنا قليلًا كنّا نستهزأ بأمهاتنا. ولكن هذه خرجت لها حقيقة وحصل في آواخر الدولة العثمانية، أن قامت مجموعة من اليهود بقتل طبيب فرنسي اسمه الطبيب تومارت في دمشق، والقصّة مشهورة. ربّما كان لهذا الطبيب الفرنسي نزعة إنسانية، يعني قدم إلى دمشق من أجل معالجة الناس الفقراء

والمساكين عن طريقة البعثات القديمة، يعني يشترك التبشير مع استغلال الحاجة، فهذا فُقد، فلمّا حقّقوا في وجوده فقالوا أنّ آخر من طلبه للاستشفاء عائلة فلان، وهي عائلة يهودية مشهورة في دمشق.

المهمّ ذهبوا وحقّقوا معهم بطرق التحقيق القديمة العثمانية ثمّ اعترفوا. ووجدوا جثّته مقطّعة ومرمية في المجاري، وأحضروا العائلة كلها وحقّقوا معهم فاعترفوا بأنّهم أحضروه ووضعوه وقتلوه وذبحوه وأخذوا الدم واشتغلوا به، وهي قصّة شهيرة. وأنا بالرغم من أنّها قصّة ولكن أساسها صحيح، وهو الأستاذ نجيب الكيلاني الكاتب القصصي الشهير والطبيب رحمه الله له كتاب اسمه: (دم لفطير صهيوني)، وهي قصّة حقيقة وليست من وحي الخيال. وحُقّق معهم وحُكم عليهم بالقتل. وأحد من اليهود أسلم وحسن إسلامه، كان حاخامًا يهوديًا وأسلم والبقيّة للأسف، كما تعرفون آواخر الدولة العثمانية كانت ضعيفة وكانت خاضعة لحكم القناصل -البعثات الدبلوماسية-، فاستطاعوا إخراجهم من المقصلة والقتل.

وهذه إذا ذكرتها في الغرب استُهزأ بك، أنّ واحد يأكل الدم! ولكنّها موجودة حقيقة ولها أساس في التلمود. وأمّا الوثائق التاريخية فتثبت أنّهم فعلوها وكانوا يفعلونها.

القضيّة الثانية التي يُستهزأ بها، وهنا لا بد أن نعرّج على ما يُسمى بموضوع المؤامرة، وهي قضية الاستهزاء ببروتوكولات حكماء صهيون. فقط أنا أفتح شعارً وعنوانًا يسيرًا وهو: **الاستهزاء بالمؤامرة هو من المؤامرة نفسها**. هذه يجب أن تُفهم. الاستهزاء بالمؤامرة هو من المؤامرة نفسها وهذا هم اعترفوا به، أنّ من إسقاط المؤامرة حتى تسقط المؤامرة الاستهزاء بمن يقول بها.

ولذلك لما يأتي شيخ يقول هؤلاء يخطّطون لنا، نظرية المؤامرة زهقنا منها وتعبنا منها فيبدأ الاستهزاء لتسقط. بلا شكّ أنّ المؤامرات أشدّ ممّا نكتشف. النّاس يعكسون القضيّة، يظنّون أنّنا ننسب للمؤامرة أكثر ممّا هي على الحقيقة، والصواب أنّ ما خُبّئ عنّا من المؤامرات أكثر ممّا نعلم. وأنت تستغرب بعد خمس وعشرين سنة من سماح الدوائر للأرشيف للسياسة أن تخرج، فتجد أنّ ما قلته أو ما قالته جدّتك قبل ثلاثين سنة وكنت تضحك عليها، الوثائق أثبتت صحتها!

أضرب لكم مثالًا، كان في بلد من البلاد يُسجن من قال بأنّ رئيس البلد التقى مع اليهود لمدّة ثلاث سنوات. وأذكر أنّ جدّتي تقول: "شافوا فلان في داخل القدس مع اليهود"، والرجل لما صالح اعترف أنّه في أربع عشرة مرة جلس معهم! يعني الآن يُستهزأ بقضيّة أنّ الدولة القومية هي صناعة استخباراتية، وقبل سنين أنا بعيني رأيت لما أخرجت الوثائق البريطانية، وإذا حبيب

الأمّة العربية تشرتشل راسم الدول العربية بقلم رصاص رخيص وهو سكران! بل ثبت أنّه رسم العلم، الأعلام الّتي يسمّون إيّاها خضر مراضعكم أسود وقائعكم حمر لا أدري ماذا ثبت أنه راسمها بقلم رصاص.

فمن الاستهزاء بنا تحقير المؤامرة. وجزء من المؤامرة أن تُحقّر!

واحد يقول لك ولكن الحمل على الغير يؤدي إلى إعفائنا، لا! لا يؤدي إلى إعفائنا، هو في الحقيقة مؤامرة الخصم ضدّك لا تنجح؛ حتّى تكون أنت من الضعف بمكان ومن الغباء بمكان. يعني هذه موجودة لكن أنت كيف تعالجها، هذا موضوع آخر وقضيّة أخرى.

فلا ينبغي تحقير المؤامرة. {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، مكر الليل والنهار! القرآن يقولها. {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا}.

فهذه قضيّة مسلّم بها. لا يجوز أن نبقى على غفلة بأنّ الخطأ منّا، الخطأ منّا حين أنت صدّقت الطاغية بأنّه مصلح، وأنّ الذي با ع البلاد أنّه محرّر وأنّ الّذي يريد أن يصلح البلاد هو مفسد. هذه القضيّة تعود إليك، فتوقّف عن الغباء! توقّف عن متابعة الشعارات الفارغة مع الوقائع الفاسدة! انتبه، أنت يُكاد لك! **وصناعة العقول أهم من صناعة الجيوش**. **أن تصبح عاقلًا خير من أن تكون مقاتلًا**.

لأنّك لو قاتلت من غير عقل قتلت نفسك وقتلت أخاك، ونصرت عدوّك وخصمك!

لماذا أفتح هذا الباب؟ لأنّ موضوع برتوكولات حكماء صهيون، بغضّ النظر عمّا يقوله الغرب فيه فساد، -وسأمر عليه قليلًا-. وجدت أنّ عامّة من يردّ عليها هم من أهل الطيبة، يقولون بأنّ اليهود صنعوها ونشروها من أجل أن يظهروا أنفسهم عظماء، وأنّهم يسيطرون على العالم. صحيح يسيطرون على العالم ما المشكلة؟ اليهود يسيطرون على العالم هذه حقيقة، اليهود يديرون دفّة اقتصاد العالم هذه حقيقة بالأرقام. هل يوجد أحد عاقل قرأ تاريخ الثورة البلشفية ولا يقول أنّها انتصرت باليهود وبدعمها بالمال اليهودي؟! هل يوجد أحد ينكر أنّ لينين يهودي؟! هل يوجد أحد عاقل يستطيع أن يقول أنّ هناك حزبًا شيوعيًا في العالم لم ينشئه اليهود؟!

العجيب أنّ البعض يريد أن يلغي الحقائق أمام التصوّرات والشعارات. وهذه قضيّة ينبغي ألّا تُقرأ في التاريخ. التاريخ يجب أن يُثبت كما هو. بعد ذلك تريد لماذا وقعت هذه الحادثة؟ وكيف استطاع الخصم أن يحقّق مراده فيك أنت؟ لغبائك؟ لضعفك؟ لجهلك؟ لوجود عدم الموانع فيك؟ هذه قضيّة أخرى.

أعطيكم مثال: أنا قرأت أكثر من عشرين كتاب في الردّ على كمال الصليبي. ومن الأمور الّتي اهتممت بها في وقت من الأوقات برعاية بعض إخواننا ومشايخنا وأساتذتنا، هو كتاب التوراة جاءت من جزيرة العرب، وأُلّفت في ذلك مصنّفات، وعُملت له محاضرات. ماذا يقول كمال الصليبي؟ كاتب نظيف، قد يكون نصرانيًا أو غير نصراني لا يهمّني، هو مؤرّخ لبناني ومات قبل سنتين تقريبًا، وله أبحاث نظيفة جدًا. يعني مثلًا من أبحاثه التي تُستفز وتَستفز قوله لا يوجد شيء في التاريخ اسمه لبنان. يتكلّم عن كيان سياسي اسمه لبنان. يعني كيان سياسي اسمه فلسطين لا وجود له. نحن لا نتكلّم عن الأرض، لا نتكلّم عن الشعب والأمّة، هذا كذب، هذا الّذي يريد أن يحوّل الكلام على المفهوم السياسي من أجل إلغاء الحقائق الجغرافية والتاريخ لأشخاص ولجماعات ولأمم موضوع ثاني. نحن نتكلّم عن الكيان السياسي لا وجود له.

طبعًا واحد يقول الشيخ لا يستطيع أن يحكي إلّا على الضعفاء. نعم أعترف لا نستطيع أن نتكلّم إلّا عن الضعفاء، ولكن نتكلّم عن الضعفاء حتّى تعرفوا المخفي والمستور!

فهذا كمال الصليبي ألّف كتابًا ينفي وجود لبنان السياسي. وطبعًا قام عليه اللبنانيون الذين هم انفصاليون، ويعتبرون أنّ من أعظم إنجازاتهم المعاصرة فصل لبنان عن سوريا الكبرى، وهو إنجاز فرنسي في الحقيقة! من الّذي حقّق الإنجاز في الفصل؟ فرنسا، فليس إنجازًا وطنيًا ولا إنجازًا بطوليًا بل فرنسا هي التي حقّقته.

فيقول كمال الصليبي في كتابه التوراة جاءت من جزيرة العرب بأنّ مكان التوراة ليس فلسطين، ويثبت هذا بالدليل الوحيد الذي يكون وهو الرُقُم، والرقم يعني الآثار التاريخية أسماء المدن وغيرها، يقول هناك أكاذيب في التوراة لا تُحتمل. يعني يقول مثلًا مشوا من القرية الفلانية إلى القرية الفلانية، قال: "لو مشوا إليها بالجيوش يقطع يومًا وهم مشوا إليها عشر أيام"، فالمنطقة إذًا غير صحيحة ولا تتلاءم. وقرأ هذه القراءة ويقول هو أنّه بصدفة ما في اطلاعه على أطلس الجزيرة العربية الذي أصدره حبر الجاسر، اكتشف أنّ التوراة تلتقي في جغرافيتها مع الجزيرة العربية ومنطقة الشمال جهة تبوك.

فيقول التوراة نزلت في تلك المنطقة واليهود كانوا في تلك المنطقة، أصاب أو أخطأ هذا موضوع ثاني.

الجماعة كيف ردّوا عليه؟ قالوا هذا الرجل عميل! قالوا نحن غير قادرين على اليهود وأخذوا فلسطين تريد تعطيهم الجزيرة العربية أيضًا! هذه طريقتنا وهي طريقة الجهل! مسألة علمية، أنت في قضيّة اليهود لا يتعلّق الأمر في أن تعطيه أو لا تعطيه هو لا يحتاج إلى إذنك، العالم كله يثبت أنّ قضيّة فلسطين وأنّ الإرث التاريخي لليهود لا وجود له وكذب. ولم يستطع اليهود بكل حفرياتهم أن يثبتوا أنّ مملكة لليهود قامت في تلك المنطقة. هم فرضوا وجودهم على فلسطين ليس بدليل التاريخ، بل بدليل القوة والسيطرة والتحالف مع الأقوياء وطرد الشعوب وسحق الأمم إلى غير ذلك، والتاريخ هي عملية بهارات قصيرة.

يعني في كتاب نتنياهو مكان تحت الشمس، لم يحتجّ قطّ بالتاريخ القديم واحتجّ بقضية الوعد الأوربي لليهود، أين ستكون دولتهم؟ فقط هذا هو العمق التاريخي لهم.

وهذه قراءة بعضهم، يأتي يقول البروتوكولات باطلة. لماذا باطلة؟ فيقول لك هذه تؤدي إلى تعظيم اليهود وعدم القدرة على الخروج من سلطانهم. هذا كلام لا قيمة له، في المسائل العلمية لا قيمة له. ينبغي أن تقرأ المسألة كما هي، بعد ذلك كيف تُستغل؟ كيف تُفسّر؟ والحقيقة أنّه لا يوجد حقيقة تاريخية يمكن أن تكون سبب فساد ذهني لأيّ عالم من العالم. الحقيقة التاريخية هي سنّة الله في الوجود، فيجب أن تكون ملائمة للحق. الحقيقة التاريخية إذا كانت على الوجه الصحيح وفهمتها؛ لا يمكن إلّا أن تُفسّر تفسيرًا قرآنيًا يخدم إيمانك، وأن تخدم صراعك ضد الخصوم؛ لأنّ الحقائق التاريخية لا تقع إلّا بسنن إلهية، والسنن الإلهية مبثوثة في الكتاب ولها نتائجها، ولها كذلك فوائدها.

الحقيقة التاريخية احترمها! وإيّاك أن تظن أنّ هذه حقيقة يجب أن نزوّرها، نعم لا تذكرها لسبب ما من الحكمة، لكن أن تزوّرها، لا بدّ أن يأتي يوم من الأيام يظهر هذا الفساد الذي أحدثته في الخبر التاريخي والحدث التاريخي، لا بدّ أن يرتدّ عليك وعلى أمّتك مرضًا شئت أم أبيت، الكذب لا يمكن أن يأتي بخير، الشرّ هو شرّ وأمّا الخير وهو سنة الله في الكون وهو التاريخ، لا بدّ أن يأتي بالخير فإنّ الخير لا يأتي بالشرّ كما في الحديث.

فهذه قضيّة ننتهي منها، يعني واحد يريد أن يثبت أو ينفي في هذه القضيّة فهذه ندعها ولا قيمة لها، فلنتركها ولنثبت الحقائق كما هي.

أول ما يصادف الباحث في هذا الكتاب وهو الضجّة الكبرى التي تقوم حوله. والضجّة ابتداءً في العالم الإسلامي دارت حول مقدار هذا الكلام الذي قلناه، وهو مقدار سطوة اليهود في تطبيق مقرّراتهم في مؤتمراتهم. يعني اليهود يسيطرون لهذه الدرجة؟

ولا شكّ أنّ عالمنا الإسلامي لم يكن يعرف حقيقة اليهود كما تعرفه أوربا، أوربا نشأت عندهم أسئلة فلسفية عميقة كلّها تدور حول المسألة اليهودية. ما من فيلسوف نشأ في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين، إلّا وقد تكلّم في المسألة اليهودية، أُلّفت فيها كتبٌ كثيرة تحت عنوان ما يُسمى المسألة اليهودية؛ لأنّ المجتمع في تلك البلاد يعاني من اليهود في قضيّتين:

- **القضيّة الأولى** وهي أنّه قد نشأ لدى البعض إحساس بالألم وإحساس بالتهمة تجاه ما يفعل الغرب ضدّ اليهود.

صار هناك إحساس بأنّنا نظلم اليهود وصارت حادثة شهيرة في التاريخ وهي حادثة دريفوس سنة ١٨٩٤، حادثة شهيرة وهي أنّ جنرالًا يهوديًا فرنسيًا اتُّهم بالعمالة وأُخذ وعُذّب، وأنا لست متابعًا لها متابعة جيّدة لأعرف هل هي حقيقة تهم أم لا؛ لأنّ الكلام يحتاج إلى تحقيق بلغتهم ولم تخرج خارج الإطار الفرنسي. وهذا الجنرال اليهودي اتُّهم، ولما اتُّهم عوقب معاقبة شديدة وطُرد من وظيفته وطُرد من فرنسا؛ فزعم البعض أنّ سبب الألم وسبب العقوبة الشديدة؛ هو كونه يهوديًا.

مثل هذه القضايا وغيرها، فقضايا كثيرة، كانت كلّ مصيبة اقتصادية تحلّ على مدينة، أوّل من يُنتقم منهم اليهود، يأتوا عليهم وعلى تجمّعاتهم فيقتلونهم ويسرقون أموالهم؛ فهذا أنشأ ردّ فعل في نفس كثير منهم، أنّنا نعاني ألما من هذا الحال الذي يعيشه اليهود.

هذه نقطة لو طُرحت هكذا كما يطرحها الغرب لكانت ظالمة، كما يطرحها بعض المتصهينين وبعض المتهوّدين من العرب؛ لأنّ هذه النقطة يقابلها نقطة أخرى لا بدّ أن تُذكر، وهي قضيّة -انظر إلى المعالجة كمرضين كلّما عالجت واحدًا قوي الآخر-، وهي أنّ اليهود أنفسهم لا يريدون هذا الاندماج في داخل الشعوب، ولا يريدون العيش معهم على قاعدة الحقوق والواجبات.

اليهود يُقتلون نعم، اليهود يُذبحون نعم، اليهود يُحقّرون -كما في تاجر البندقية شيرلوك لشكسبير- نعم، لكن كذلك اليهود لا يريدون حلّ هذه المشكلة. كيف؟ هؤلاء المرابون كلّ شركات المراباة فيهم، يأخذون الأموال، يمتصّون دماء الشعوب وذهبهم وثراءهم، وهم قلّة ولا يأخذون المال حتّى ينتفعوا به. يعني أنت الآن لما تأخذ مالًا وتريد أن تبني بيتًا من يستفيد منك؟ النّاس،

أنت تشتري الإسمنت، تشتري الأرض، تستأجر العمّال، تشتري أدوات البناء، وهكذا؛ فلمّا أنت تبني يستفيد منك الشعب. اليهودي إنسان قذر، هذه حقيقة، وفي الحديث في مسند أحمد: نظّفوا أفنيتكم ولا تشبّهوا باليهود. بخيل بخيل، قذر قذر، فيأخذ الأموال ولا تستفيد منه الشعوب، ويأخذ الأموال ويحوّلها ذهبًا ويكدّسها، يعني حتى لا ينتفع بها هو، فقط مجرد ذهب مكدّس عنده.

فكيف تُحلّ المشكلة؟ ما تفعله الشعوب ضدّ اليهود سببه اليهود أنفسهم، فكيف تُحل المشكلة؟! فكلّ مفكّر يأتي يريد أن يحلّ عقدة ما يُسمى المسألة اليهودية، هذه المسألة اليهودية لا وجود لها في عالمنا. لا يعاني اليهود عندنا هذه المشكلة.

قالوا اليهود في كلّ مكان أثرياء إلّا في دمشق -لا يغضبون علينا هم في بلاء شديد نسأل الله أن يرحم الأمّة-، وهناك نكتة عن شاه إيران، أراد أبوه أن يتخلّص من سيطرة اليهود علي البازار —السوق-، فقال: من يحلّ المشكلة لطردهم، فقيل له نأتي بتجّار شاميّين فقال: والله لا يقدر عليهم إلّا الله — اليهود أرحم-.

القصد أنّ هذه المسألة لا وجود لها في عالمنا. هذه يعاني منها الغرب وهي مشكلة عندهم، كيف تُحلّ هذه المشكلة؟ لا وجود لحلّها، اليهودي يأبى أن يتخلّى عن شعوره أنّه هو شعب الله المختار، وأنّ البشر بهائم، وأنّه يجب أن يُخدم من كل العالم وهو لا يريد أن يقدم شيئًا، وبالتالي الشعوب تنتقم.

البعض يتساءل، وهذه من إحدى نقاط الردّ على الزعم أنّ البروتوكولات مزعومة، يقولون بأنّ الّذي وضع البروتوكولات هو نيقولا الثاني. نيقولا الثاني آخر قياصرة روسيا، وهو حفيد بطرس السادس القيصر الكبير لروسيا وكان عدوًا لليهود، وكذلك نيقولا عدوّ لليهود. يقولون أنّ البروتوكولات وضعها هذا القيصر سبًّا لليهود، وضعها القيصر نيقولا الثاني من خلال رجل دين شهير اسمه سيرجي نيلوس وهو روسي كان أرثوذكسيا متدينًا، فهو وضعها ضدّ اليهود من أجل أن يبيّن إجرام اليهود، وفسادهم وتخطيطهم للقضاء على الشعوب، والسيطرة عليها، وإفساد الحكومات.

يعني وضعها واحد خصم لليهود من أجل أن يقول للشعوب انظروا إلى فساد اليهود. الآن اليهود حقيقة موجودة على القمر أم موجودة على الأرض؟ نحن نعرف أنّ شيرلوك في قصّة تاجر البندقية هي شخصية قصصية روائية مُتخيّلة، لكن هب أنّ شكسبير كتبها من الخيال ولا واقع لها، النّاس كيف سيتلقّونها؟ بالرفض.

لما بدأت مصر في تاريخ سيدهم مبارك تخرج أفلام الإرهاب والكباب، اكتشفوا بعد دراسات أنّ هذه الأفلام أحدثت أثرًا عكسيًا، والمصريون استهزؤوا بها؛ لأنّهم يتحدثون عن أشخاص يعيشون معهم. هم قدّموا الإرهابي أنّه رجل غبيّ لا يفهم شيئًا والقلم يحمله مقلوبًا، في الحقيقة لم أر هذه الأفلام، لكن الصورة المتقدّمة عن هذه الأفلام أنّها قدّمت الإرهابي على أنّه رجل غبيّ، هو رأى الإرهابي دكتور، رأى الإرهابي طبيب، رأى الإرهابي الذي يتكلّمون عنه ويسبّونه أرقى الناس، ويتكلّم في السياسة أفهم منهم، وهو ممنوع من أن يخرج. فلماذا لا تخرجوه للتلفزيون يتكلّم؛ لتكتشفوا غبائه، وتكتشفوا جهله؟! ولكن تخبؤونه لئلا يعرف الناس.

ففي الحقيقة أعطت أثرًا عكسيًا، هذا الإرهابي الذي تسبّونه على أنّه غبيّ، نحن نعرف أنّه أذكى الناس، وهذا الإرهابي الّذي تشتمونه على أنّه جاهل هو عالم، وأنّه عدوّ للشعب، فمن الذي يقوم على تطبيب الشعب المصري في داخل المساجد والجمعيات الخيرية؟ هذا الإرهابي! يعني المرأة لما تريد أن تعالج ابنها وما معها أموال أين تذهب به؟ تذهب به لهذا الإرهابي! فلمّا هي ترى هذا تقول أنت كذاب وليس هذا أبو فلان!

إذًا السؤال: لنفترض أنّ ما قاله شكسبير هو ما قاله سيرجي نيلوس في البروتوكولات، لو أنّ شكسبير قدّم صورة اليهودي شيرلوك بصورة مغايرة عمّا يُعلم؛ لاحتقره الناس. ومعروف أنّ شكسبير كان مخرجًا مسرحيًا، يعني لا يؤلّفها من أجل أن تُكتب وتُقرأ، شكسبير كان يؤلّفها من أجل أن تُمثّل وهو يقوم بإخراجها. فلو أنّ اليهود قُدّمت على المسرح بصورة تغاير ما يعرفون؛ كانوا رموه بالبيض الفاسد والبندورة وسبّوه وانتهى.

فلو أنّ سيرجيونيلوس القسيس الأرثوذكسي -تابع للكنيسة القيصرية-، لو أنّه كذب عليهم بهذه البروتوكولات لرموْا بها إلى الزبالة، ولقالوا اليهودي لا نعرفه إلّا محترما. فهب أنّ واضعها وضعها عليهم، هب أنّه لم يضعها اليهودي الذي إليه تنسب آشر روزنبرغ وهو سيد وايزمن، ووايزمن اعترف بتلمذته في مذكّراته، فلو أنّ نيلوس نسب هذه البروتوكولات لليهود على خلاف ما هم عليه اليهود لما كان لها الأهمية.

ولا تظنّوا أنّ من وضع الكتاب وضعه لأجل السيطرة على الدول العربية يعني العرب ما كانت لهم قيمة، فسواء كتبه آشر روزنبرغ اليهودي أو وضعه نيلوس فنحن لا يهمنا. يعني واحد من بعض الأحزاب الإسلامية مع الاحترام لها، قالوا هذا الكتاب وُضع من أجل أن نعظّم اليهود. الكلام ليس لك يا أستاذ! الكتاب لم يُنشر إلّا في وقت متأخر في الدول العربية، بعد أن طُبع

ثلاث طبعات في روسيا والطبعة الثالثة ما تمّت، قُتل الرجل وسُجن بعد قيام الثورة؛ لأنّه أراد أن يطبعه سنة ١٩١٧ وقامت الثورة الشهيرة البلشفية فأخذوه المسكين هذا نيلوس الّذي نشر هذه، ورموه في سيبريا ومات سنة ١٩٢٩، ثمّ لما أُخذت لبريطانيا وأخذها ماردسن الصحفي المشهور ونشرها في بريطانيا وترجمها، هذه ليس المقصود بها الدول العربية! وتُرجمت إلى العربية في وقت متأخر، فواحد يظنّ أنّها وُضعت من أجل أن يعظّم المسلمون اليهوَد، ويقفوا أمامهم مكتوفي الأيدي مستسلمين لهذا القدر الذي لا يُردّ، الّذي اسمه تخطيط اليهود ومكر اليهود، فهذا حلم متأخر لا ينسجم مع حقيقة هذه الكتب.

نرجع إلى النّقطة المهمّة جدّا وهي هب أنّ هذا الكتاب مكذوب، فإنّ واضعه حين كذبه عليهم، كذبه عليهم من جهة أنّه قال هم قالوه، لكنّه صدق عليهم حين قال هذا فعلوه. يعني ليس هناك إلّا كلام واحد، أن يقول أنا فعلت، فيكتب ما فعل أو واحد يأتي يقول هو فعل، فكلاهما حقيقة واحدة، من وضعه هنا القضيّة التي ندخل فيها، وهي أنّ اليهود يستميتون -أنا أتكلّم عن العالم الإسلامي؛ لأنّه للأسف الحديث عندنا سواء كلام عبد الوهاب المسيري أو كلام حزب التحرير مع الاعتذار والاحترام للجميع-، يزعمون أنّ هذا الكتاب إنما يُراد به تعظيم اليهود.

نقول هذا الكتاب لم يوضع على هذا المعنى وينبغي أن يُقرأ بحسب حقيقته. والسبب في هذا الموضوع هو أنّه حين -قاعدة، الله يقول: {إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ}، ما قال ردّوا كلامه لكونه فاسقًا، ولكن قال {فَتَبَيَّنُوا}-؛ فحين يعجز في خبر كهذا حين يعجز السند التاريخي أن يقيم نفسه فحينئذ ننظر إلى مصداقيته.

الآن الروايات على هذا الكتاب، كيف خرج؟ رواية أنّه كان صحفيا لصحيفة بريطانية اسمها Good Morning، فهذا اسمه مارتن الصحفي يُقال أنه سُجن بعد الثورة البلشفية، وبعد سجنه أُخذ من روسيا وطُرد إلى بلده. وهناك قام بطريقة متتابعة لسنين طويلة حتّى ترجمه من الروسية إلى الإنجليزية، ومن خلال اللغة الإنجليزية اشتهر، وبعضهم يقول لا بل هو موضوع باللغة الفرنسية على خلاف بينهم. فهذه الطريقة المشهورة.

الطريقة الثانية الأشهر والتي يدور حولها البحث والكلام، بأنّ اليهود كانوا قد اجتمعوا في مؤتمر لهم في روسيا وداهمتهم قوات الأمن الروسي كما يقول نيقولا الثاني وهو آخر قياصرة روسيا فوجدوا هذه الوثائق وأخذوها، وقام على تنقيحها هذا القسيس الذي ذكرناه لكم وهو الروسي المشهور.

فهذه الروايات التي تُقال عن هذا التاريخ وكلّها تدور حول هذا المجال.

بقيت قضيّة ثالثة في هذا الموضوع، وهي قضيّة قامت عليها جريدة التايمز، واعتمد عليها عبد الوهاب المسيري اعتمادًا كليًا في الحكم على أنّ هذه البروتوكولات مزوّرة. وهذا الكلام سنة ١٩٢١ أظنّ أو بعدها، وقارنت هذه الجريدةُ بعضُ باحثيها، بين البرتوكولات هذه وعددها أربعة وعشرين بروتوكولا، وبروتوكول يعني اتفاق. فقارنت هذه البروتوكولات مع بعض الكتب الّتي انتشرت أصلًا في كتاب شهير اسمه الرحلة إلى الجحيم. فقال: وجدوا أنّ هذه النصوص في البروتوكولات تشابه هذه الرحلة؛ فعلموا أنّ الّذي وضعها سرقها وألبسها لليهود.

أنا لو في زماني هذا ودفعوا لي قليلا من القروش وقالوا لي "طلّعها" مزوّرة، سأخرج نصف الكتاب مأخوذ من كتاب الأمير لميكافيلي والنصف الثاني مأخوذ من التوراة!

وقطعًا واحد يكتب هذا الكتاب استفاد من الثقافة المعاصرة الّتي عندهم. يعني أوّلا يمكن ثلاثة أو أربعة بروتوكولات تكاد تكون مسلوخة سلخًا من كتاب الأمير لميكافيلي. بل أنا وجدت شيئًا آخر ربّما غير معروف ولم يذكروه، وهذا من قراءتي الجديدة له، وجدت أنّ فهم كاتب البروتوكول للجماهير هو فهم غوستاف لوبون في كتابه سيكولوجية الجماهير، بالنصوص يأخذها! يعني وعي اليهود على طريقة سوق الشعوب مأخوذ من علم النفس الّذي كان في عصرهم في كيفية سوق الجماهير، أنّها لا تهتم بالأفكار، أنّهم بقر، أنّ الصورة تهمّهم، أنّ التسلية هي الذي تسوقهم وتشجّعهم. وهذا البرتوكول هل هو نبيّ؟ يعني واضع البروتوكول نبيّ حتّى يُوحى إليه ويأتي بالغيب، أم هو ابن ثقافة عصره في كيفيّة التعامل مع نبوءة دينه ونبوءة توراته. كيف يريد أن يطبّق النبوءة وهذه قضيّة مهمّة الآن المدار حولها، كيف تُطبق النبوءة اليهودية.

فإذًا الزعم بأنّ البروتوكولات أُخذت من كتب أخرى، هذه ليس زعمًا هذه حقيقة. يعني هذا الكاتب لا يستطيع أن يقول وأنا عندي مذهب جديد في كيفيّة السيطرة على الشعوب، هو يريد أن يستخدم الثقافة العلمية في عصره من أجل الوصول لهذا الهدف. فهذا من أفسد ما رأيت في قضيّة نسبة هذا الكتاب إلى التزوير؛ اعتمادًا على مقالتهم بأنّ هذا الكتاب اعتمد على كتب أخرى لها علاقة بهذا البحث.

يعني الآن لو شيخ قلنا له كيفيّة معالجة مسألة ما، فما الذي يصنع؟ هل يستطيع أن يأتي باستراتيجية جديدة، أم أنّه يذهب إلى ثقافة العصر والغالبة في ثقافتها، فيستخدم هذه الثقافة العلمية فيما يكتب، وبعد ذلك يطبّق هذه الثقافة على منهجه في إقامة ما يريد من نبوءة. فهذه ينبغي أن نفرغ منها.

أعود للكلمة التي أريد أن أصل إليها: أنا لا يهمّني الآن أن أثبتها سندًا؛ لأنّ هذا مستحيل. الكتاب بلا شّك خرج من الظلمات وهذه طبيعته.

نحن قلنا أنّ الكتاب أوّل طباعة له سنة ١٨٩٧، وقام عليها هذا سيرجي نيلوس. هذا الرجل لما قام بطباعة هذا الكتاب، من أين أخذه؟ هو يقول: أخذته من مداهمة الشرطة لاجتماع اليهود بعد مؤتمر بازل الشهير، اجتمعوا وقرّروا ووضعوا هذا. وفي سنة ١٩١٧ هذا الرجل أُخذ وعُوقب ورُمي في السجن، ومات في السجن سنة ١٩٢٩، وصار في حكم البلاشفة كلّ من يقتني هذا الكتاب يُعدم. انظر إلى التاريخ. فهل مثل هذا الكتاب يمكن أن تجد له سندًا بهذه الطريقة؟ يعني لو الشرطة تخرج وثائق اليوم ماذا سيقول عنهم الناس؟ كذّابين، فلا أحد يصدّق ما تقول الحكومات، وخاصّة في زمن فيه نيقولا الثاني، كانت الثورة في أوجّ قوّتها وسقط آخر قيصر، فلا يمكن أن يُصدّق ما يقوله الشرطة عنه ولا ما يقوله الأمن السياسي عنه.

فلذلك الشكوك حوله مائة بالمائة قائمة، ولكن هذه ليست طريقة في نفي هذا الكتاب. ولا بالطريقة الّتي دُرست موضوعاته، كيف دُرست الموضوعات فيه، ولا بالطريقة التي يُقال بأثره النفسي؛ لأنّ هذه هي العمد الّتي يقومون عليها، ولكن نبقى في نقطة مهمّة جدًّا وهو أنّ هذا الكتاب فيه وقائع حقيقية نراها على أرض الواقع. هذا ما يهمّنا الآن.

وبالتالي أنا أعتقد بأن هذه البروتوكولات حقيقية، وليس فيها تعظيم لليهود. وأنا الّذي أعتقده كما تعلمون أنّ اليهود في طور علوّهم الأول، والثاني سيأتي مع الدجال فهم في علوّ وهم يسيطرون على مال العالم واقتصاد العالم وقضاة العالم، ومن لم يعرف معنى كلمة يهودي حين تُذكر في القضاء وفي الصحافة وفي السياسة، من لا يعرف ثقل هذه الكلمة في الغرب فهو لا يعرف شيئًا! نحن عندنا هذه القضيّة لا أهمّية لها، يعني اليهود عندنا لا قيمة لهم في السيطرة. يعني الآن هل الاقتصاد العربي مربوط باليهود؟ الجواب: لا. مربوط بمن؟ بعبيد اليهود: بالغرب. لكن أين اليهود عندنا؟ ما فيه. ما عندنا هذا الشأن وهذا التعظيم.

لكن أعطيكم مثالًا يسيرًا على من هم اليهود في الغرب: هناك رئيس بلدية بلندن شهير وهو يساري، والحقيقة له بصمات على مدينة لندن وهو مناصر لقضايا العرب، فمرّة يتّصل به الصحفي في مسألة ما قال له رئيس البلدية: مالك تحقّق معي كأنّك قاضي نازي مع اليهود! فقال له الصحفي: ألا تعلم أنّي يهودي؟ قال له: ولو أنّك يهودي، ما في الكلام؟ يعني الكلام ليس فيه شيء، الكلام فيه تعاطف مع اليهود وضد النّازية. هذا أُخذ للمحكمة فحكم عليه القاضي عشر شهور ألّا يزاول مهنته؛ لأنّ في ذلك الكلام اتّهام لليهود!

وهكذا قصص كثيرة لا تكاد تحصى. كلمة يهودي لها ثقلها في الغرب. فاليهود يسيطرون على اقتصاد العالم. والآن في فرنسا، أيّ إنسان يتكلم بالقانون عن الهلوكوست أنّه ليس حقيقة، وأنّ عدد قتلى اليهود ليس ستّ ملايين يُسجن. يوجد قداسة لمثل هذه القضيّة، يُسجن في ألمانيا وفرنسا، أمّا في بريطانيا يُعاقب معاقبة أخرى، يتمنّى يسجن، من قبل الشعب والصحافة والدنيا والطرد من العمل عقوبة أشدّ وأغلظ.

فالقصد أنّنا لا ينبغي أن نهوّن من هذا الأمر الذي يريدون أن نتهاون فيه.

الآن هنا مسألة وهي تتعلّق بقضية إثبات أنّ البروتوكولات حقيقية، وهي كيفية تطبيق النبوءة.

نحن نعلم أنّ النبوءة إمّا أن تكون من الله فهي تكون صادقة، ومجرى وقوع هذه النّبوءة هو مجرى السنن، ما فيه نبوءة تقع فجأة هكذا. يعني النبيّ ﷺ لما جاء باعتباره نبوءة إلهية لـ {وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}، هذه نبوءة ربّانية بأنّ هناك نبيّ. هل هذه النبوءة جرت مجرى السنن أم أنّها قُذفت بغير ترتيب؟ جرت مثل السنن، والله رعاها ومشت على قدر سنّيّ وتُطبّق بطريقة سنّية.

فالنبوءة الإلهية النبوءة الحقّ لها رجالها، ولها سنّتها، ولها رعايتها من الله. والآن النبوءة الباطلة هذه نبوءة البروتوكولات، هي نبوءة بأنّهم سيسيطرون على العالم، سيسيطرون على السياسة، سيسطرون على الأحزاب، سيسيطرون على المال، سيسيطرون على الشعوب، على الجماهير، على أصحاب الأفكار إلى آخره، هذه نبوءة. السؤال: كيف تُطبّق هذه النبوءة؟

والنبوءة الباطلة لا تجري لا مجرى السنن ولا بمجرى الرعاية الإلهية ولا تجري بمجرى الحق، فالنبوءة كاذبة. فلا بدّ أن تجري هذه على خلاف ذلك، يعني من يكون رجال النبوءة الباطلة؟ ليسوا الأنبياء ولا أتباع الأنبياء، من سيكونون؟ الشياطين وأتباع الشياطين. ولن تكون برعاية إلهية، ستكون برعاية طاغوتية. ولن تأتي على وفق السنن، بل ستكون بمخالفة ما يجري عليه الناس وما يحبّونه؛ لأنّها ضدّ مراد الشعوب وضدّ مراد البشرية.

والّذي ينبغي أن يُبحث عنه في قضية البروتوكولات، وهي الّتي تدور حولها في كيفيّة جريان النبوءات اليهودية. **كيف تجري النبوءات اليهودية؟ هذا هو البحث الذي ينبغي أن ندور حوله وينبغي أن نتكلّم فيه**. ما هي المؤسّسة التي صاغت هذا الأمر؟

يعني أن يصبح تعلّق بيئة التطبيع، فالبروتوكولات ما تكلّمت إلّا عن إقامة دولة، لكن بعد ذلك من طرق سيطرتهم على الشعوب: تطبيع الشعوب. يعني اليهود في فلسطين جسمٌ غريب أجنبي. والغرب يعلم واليهود يعلمون أنّ الأجسام الغريبة طال أمرها أم قصر، طال تاريخها أم قصر؛ لا بدّ أن تزول، مثل حكومة جنوب إفريقيا. حكومة جنوب إفريقيا الآبارتيد فصيل عنصري إلى آخره، فهي لا بد أن تزول لأنّها غريبة عن الشعب.

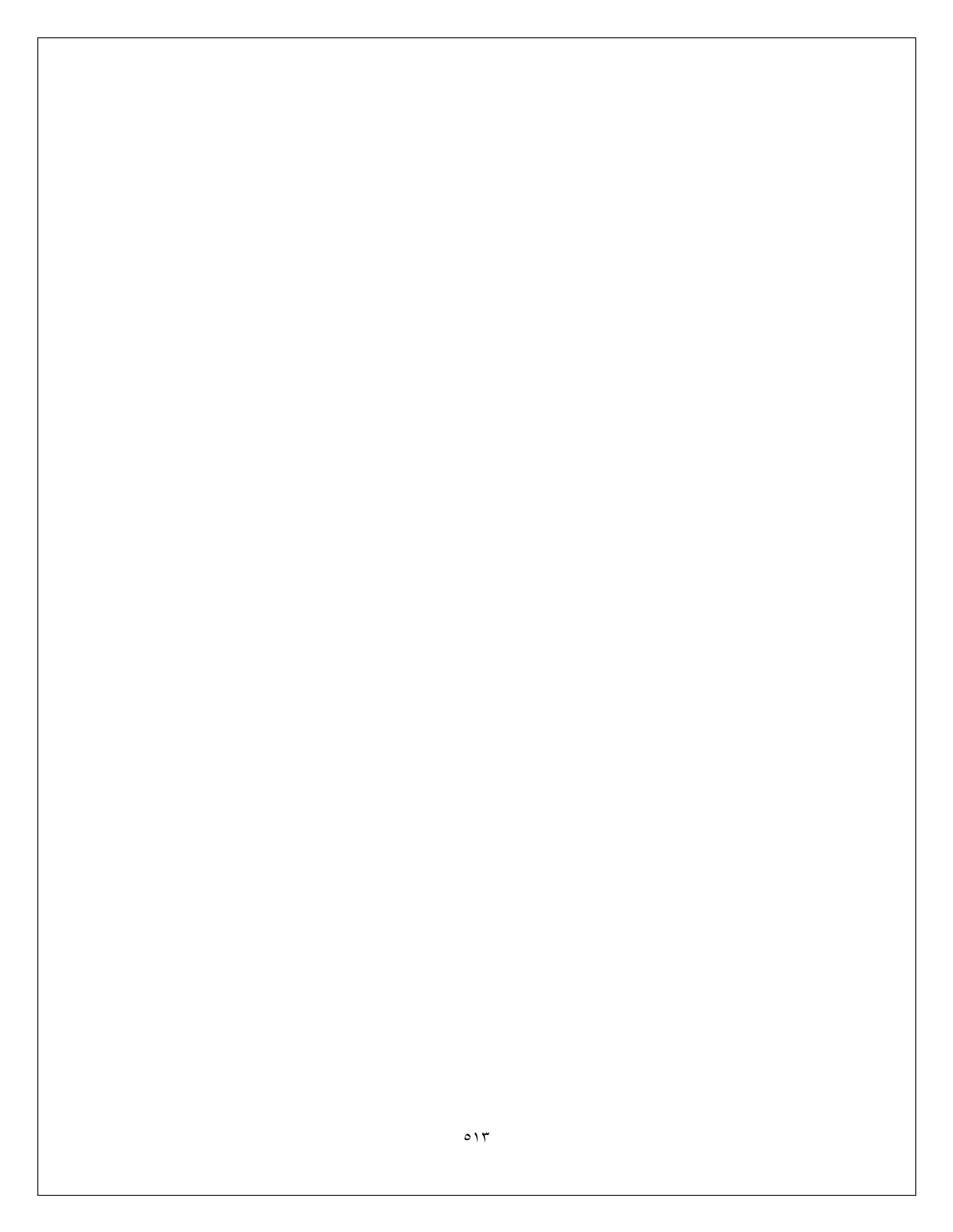
ما الّذي جعل الأمة المسلمة والفتوحات الإسلامية تستقرّ؟ هو أنّ الإسلام صار حقيقة في داخل الشعوب. وبالتالي لأوّل مرّة في تاريخ البشرية أناس يغلبون غيرهم فيحكم المغلوب! انتهى عصر الصحابة، فمن الّذي غلب على بلاد المسلمين؟ حتّى على ثقافتهم، من الّذي غلب على ثقافتنا في اللغة العربية؟ الأعاجم، فبالتّالي لا يمكن أن تغلب على الشعوب وأنت منعزل عنها. لا يمكن! لا بدّ أن يزول يومًا من الأيام، وهذه من مقرّرات الاستعمار. أنا قال لي ضابط أمن زارني ليكتشف أفكارا فقال لي كلمة: "والله لن نرتاح في بلادكم وحذاء عسكري أجنبي موجود فيها". هم يعرفون، وجود الغرب يعني لا بد يبقى هناك ثورة، ويبقى هناك رفض. يأتون بصاحب لحية مزيّفة مثل ما قال الشيخ أنور العولقي: "إن أخرجتم لنا الملا عمر أحضرنا لكم الملا برادلي"، فالآن يحضر رجل مثله.

فالسؤال الذي ينبغي أن يُطرح الآن كيف تُطبّق هذه النبوءات وكيف تقع؟ **واكتشافنا لمنافذ الشيطان في تطبيق النبوءات هو الذي يهمّنا.** لا ينبغي أن يبقى الحديث فقط عن أمر انقضى، اليهود فعلوا كذا اليهود فعلوا كذا، الذي يهمّ في هذا الباب هو النّظر إلى نبوءات اليهود، النبوءات اليهودية كيف تُطبّق ومن هم رجالها.

الآن أنا ذكرت قضيّة النّاس، اليهود كانوا يحتاجون للفطير اليهودي يقتلوا الطبيب تومارت باعتباره نصراني من الجوييم. الآن لو فيه ضرورة يذهبوا إلى بنك الدم. فليس من الضروري أن يستخدم اليهودي. مثل قضيّة التطبيع، ليس من الضروري أن يأتوا بصحفي يهودي ويضعوه حتّى نظلّ نقول اليهودي اليهودي، لا، يأتوا برجل من بلاد المسلمين وتُصنع عقولهم على وفق المراد ويشتغلوا بهذه الطريقة ويمشوا، وهذا ما نحتاج إلى استكشافه وإلى البحث فيه.

يكفي الآن، وإن شاء الله نتابع الحديث عن البروتوكولات في الدرس القادم.

بارك الله فيكم.



الجلسة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

نتابع اليوم أيّها الإخوة الأحبّة المناقشة لكتاب (**بروتوكولات حكماء صهيون**)، وهذا هو الجزء الثاني وهو الأخير إن شاء الله تعالى. تكلّمنا في الدرس الفائت ما يدور حول هذا الكتاب من نقاش في إثبات نسبته إلى اليهود، والنّفاة له في الغرب أكثر من النّفاة له في عالم الشرق. والمسلمون هنا في الشرق يعرفون واقع اليهود الظاهر. يعني اليهود في الغرب يدخلون في القرار السياسي وفي السيطرة المالية وفي التدبير، يدخلون فيها خفية ويوجد هناك قوانين شديدة في صدّ الكلام عن اليهود، كما تكلّمنا في موضوع المحرقة، الكلام عن اللا سامية

فهذه نقاط شديدة في الغرب. وعامّة الناس لا يهتمّون بها، ومن يدقّق لا يُسمح له بالكلام. ولكن في مجتمعاتنا يُسمح بالكلام عن اليهود بطريقة واضحة، وإن كان يقع التدخّل مرّات، مثل ما وقع لما أرادوا أن يعرضوا فلمًا كما سمعت، ونحن في السجن لما صدر فيلم بروتوكولات حكماء صهيون تدخّلت السفارة الأمريكية في مصر وتدخّلت السفارة اليهودية الإسرائيلية في مصر، فيمكن أن يقع هذا ولكن على الجملة في عالمنا العربي الكلام عن اليهود ليس مشكلة. وهم يسمحون به.

واليهود لا يهتمّون كثيرًا لواقعنا في شعوبنا ولا لغوغائيتنا؛ والسبب أنّهم ضبطوا هذه الغوغائية وضبطوا هذه الشعوب من خلال السلطة الحاكمة ومن خلال الجيوش ومن خلال أنظمة الأمن.

وبالتالي أنتم ترون لو تُرك المجال للجهاد مثلًا ولإزالة السفارات الإسرائيلية في الدول العربية لتدمرت وأزيلت، ولو تُرك المجال للجهاد؛ لكان كل يوم هناك عمليات استشهادية وقتالية ضدّ اليهود، على طول الحدود مع كل الدول العربية اللبنانية والسورية والأردنية والمصرية. ولكن الأنظمة الّتي تدور حول هذه الدول هي التي تمنع، ولما كانت هي التي تمنع فلها الاهتمام أكثر من غيرها.

هم لا يهتمّون بوجود مشاعر عربية ضدّ اليهود، لا يهتمّون كثيرًا، ومرّات يحاولون استفزاز هذه المشاعر أو اكتشافها أو تليينها عن طريق ما يُسمّى بالتطبيع. لكن على الجملة لا يستطيعون؛ لأن الحسّ الإسلامي نحو اليهود أشدّ من الحسّ الغربي نحو الحروب الصليبية. يعني الغرب عنده حسّ عالي ضدّنا؛ بسبب تاريخ وإرث الحروب الصليبية. ونحن كذلك مع اليهود لنا تاريخ، فلا يمكن إلغاء هذا التاريخ.

فالقصد أنّهم لا يهتمّون كثيرًا بمشاعر الشعوب الإسلامية؛ السبب هو أنّهم يستطيعون ضبط هذه المشاعر، يستطيعون ضبط إيقاعها، يستطيعون ضبط فعاليتها، يستطيعون ضبط مداها أين ستصل.

ولذلك اليهود من أركان عملهم كما سيأتي هو التحالف مع الأقوياء. وهذا تطبيق لقوله تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ}، فاليهود كُتب عليهم الذلّة أين ما كانوا، لكن ترتفع هذه الذلّة بحبل من الله وحبل من الناس. حبل من الله هو القدر الآذن بهذا، وحبل الناس هو التحالف مع الأقوياء. ولذلك اليهود لا يمكن أن يكون لهم شأن إلّا من خلال التحالف مع الأقوياء. والتحالف مع الأقوياء له أساليبه، وربّما نأتي على بعض منه. فلا يهمّ كثيرًا المشاعر هنا في بلادنا، الكلام عن اليهود ليس له قيمة في إزالته، وإنّما له قيمة بالمتاجرة به. يتجارون بهذا الحقد العربي كما يسمّونه على اليهود في الغرب، يعني يذهبون بما يُقال من قبل المشايخ على المنابر وما يُقال في الكتب عن اليهود، يذهبون به إلى الغرب فيتاجرون به استعطافًا.

لأنّ اليهود كالشيعة تمامًا في هذا الباب، وهو الفعل الكربلائي وهو البكاء. دائمًا الشعار الآخر وكذلك بناء الناس في داخلها أنّها مظلومة. اليهود دائمًا يبنون أفعالهم أنّهم مظلومون.

من نقاط التحالف مع الأقوياء؛ إشعار القوي بأنّ هذا اليهودي مظلوم، وأنّ تاريخه هو تاريخ الظلم، وتاريخه هو تاريخ البلاء مثل الشيعة. الشيعة عقيدتهم تقوم على البكائيات، البكاء على كربلاء، البكاء على قتل فلان، والتاريخ مربوط بهذه البكائية. واليهود كذلك يقوم أمرهم على هذه البكائية أنّهم مظلومون، فكما أنّ هناك المظلومية الشيعية كذلك تُقام في الغرب المظلومية اليهودية.

وبالتّالي إذا أراد أحد أن يتكلّم عن اليهود فورًا تُبرز له الحالات التي كان يعيش فيها اليهودي في الغرب، كيف كان يُقتل، كيف كان يُمنع من مزاولة العمل، كيف كان يُشرّد، كيف كان يُحرم من الحقوق، كيف كان يوضع داخل المعسكرات. فهذه المظلومية هي سمة من أجل الاسترزاق، ومن أجل استنزاف العواطف ومن أجل استجلاب التحالف مع الأقوياء.

رغم الحالة الأخرى أنّ هذه المظلومية نشأت بسبب، يعني الغرب يحقد على اليهود بسبب؛ وهو أنّه يرى اليهودي مصاص دماء، وأنّه إنسان ربويّ يمتصّ دماء الشعوب ولا يستفيد هو إلّا بتكديس المال، ولا تستفيد الشعوب من أمواله الّتي ينتفع بها، لا يبني بها مصانع ولا يبني بها بيوت، هو فقط مال بمال وهو الربا {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ}.

فهو أكل للربا، المال بالمال. والمال بالمال ما هو أساسه؟ هو إبطال الاستثمار الذي يعود على الشعوب؛ لأنّه إذا أبطلنا الربا لا بدّ أن تدخل البضاعة، الناس يبيعون الذهب بالمال فيشتري به البضاعة ويبني به بيوتاً ويقيم به مصانع ويزرع به أراضي. فينتقل المال إلى بضاعة، والبضاعة عرضة للدفع والطلب عن طريق ركن المخاطرة. وهذا ركن مهم من أركان الاستثمار الإسلامي المخاطرة.

فهذا اليهود لا يقومون به، يعطون مالًا مقابل مال وبالتالي لا يستفيد المجتمع. لا تتمّ أي منفعة لهذا المجتمع. المجتمع يحقد على هذه الفئة وهم يبنون هذه العقائد عن طريق الكتب المقدّسة عندهم. يبنون هذه الأفعال عن طريق شعور الاستعلاء، وبالتالي اليهود ليس لهم عقيدة مهمّة في قضايا الغيب. يعني لما تناقش نصرانيًا، فالنصراني يناقشك أنّ عيسى هو ابن الله، وأنّه نزل في قضية الخطيئة البشرية، ثمّ نزل الصلب ثمّ الفداء ثمّ الخلاص، فهذه أركان العقيدة النصرانية تتعلّق بشخص. اليهود لا توجد خصومة بينهم وبين العالمين على أيّ عقيدة تصوّرية إلّا أنّ اليهود هم شعب الله المختار!

أنت عندما تذهب لليهودي تريد أن تناقشه في مسألة من مسائل التصوّر ما هو أمر الغيب؟ ما هو أمر الآخرة؟ هذا لا يهمّه ولا يعنيه. وإنّما يعنيه أنّه هو كيف يطبّق عقيدته وعقيدته قائمة على العنصرية. أساس العنصرية هم اليهود، وهم يرون أنّهم شعب الله المختار والأرض ملك لهم. والبشر بهائم خُلقوا لخدمتهم. ما عقيدة اليهودي؟ هو أنّه شعب الله المختار، وأنّه هو الذي ينبغي أن يحكم العالم، وهذا هو مفتاح سرّ عمل اليهودي. إذا أردت أن تعرف لماذا يعمل اليهودي هذا؟ ماهو السبب؟ كيف تنشأ سلوكيات هذا اليهودي؟ لا بدّ أن تعرف عقيدته.

فعقيدة هذا اليهودي هو أنّه الإنسان الذي اختاره الله من أجل أن يحكم العالم، وذلك لسرٍّ خاص فيه يعطيه هذه الخصوصية. وبالتّالي الأرض هي كلّها ملك لهم. فلسطين هذه يسمّونها موطئ القدم. وهناك قام مؤتمر بازل وقام عليه الصهيوني الشهير هرتزل. وللذكر هرتزل ملحد، هرتزل الذي أنشأ المؤتمر اليهودي العالمي سنة ١٨٩٧، لما أنشأ هذا المؤتمر؛ من أجل وضع خطّة لحلّ المسألة اليهودية، وهي إنشاء وطن قومي لليهود هذا هرتزل كان ملحدًا. هل يمكن تصوّر يهودي ملحد؟ الجواب: نعم. وأنا سمعت مناقشات عدّة ليهود ولحاخامتهم كانت في وثائق يقولون لا يخرج اليهودي من يهوديته إذا ألحد. ولذلك في إحدى الدراسات أكثر دولة انتشر فيها الإلحاد هي اليهود، أكثر ديانة فيها إلحاد يعني أتباعها ألحدوا وخرجوا من دينهم بالمفهوم العقدي وبقوا يهودًا مع ذلك هم اليهود. وسُئل أحد حاخامتهم هل يبقى اليهودي يهوديًا حتى لو ألحد؟ قال نعم ما دام أنّه

يهودي. إذًا اليهودية هي عنصرية يعني تعود إلى هذا النسل أنّه مميّز، فاليهود هم شعب الله المختار، والأرض ملك لهم، والبشر خُلقوا لخدمتهم. هذه عقائدهم، وهذه التوراة لا يوجد فيها غير ذلك. لا يوجد فيها حديث عن الإله وعن الغيب، يعني نحن في القرآن تجد الحديث عن الله وعن صفاته وعن أسمائه وعن حقوقه على عبيده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، حديث عن الملائكة، حديث عن الجنّ، حديث عن الغيب، حديث عن الجنّة، حديث عن النار حديث عن الأحكام ولها تفصيلات. لما تقرأ التوراة لا تجد هذا.

هذه العقيدة كما ترون هي عقيدة استعلائية. واليهود عنصر صغير قليل في العالم مستضعف، وطيلة عمره {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}، وأنا أحتجّ بهذه الآية؛ لأنّه لا يوجد وصف يطابق تاريخ اليهود كهذه الآية. لا يوجد وصف يمكن أن يطلقه إنسان يطابق واقع اليهود وتاريخ اليهود كهذه الآية. مع أنّه قال: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ}، ومع أنّه قال: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا}، والصواب أنّ هذين العلوين بعد بعثة النبي ﷺ وليس قبلها. فكيف يمكن هذا؟ هنا تأتي الثنائية. هذا المفتاح الذي أريد أن أبدأ به، ونضع البروتوكولات في مساقها الصحيح وإلّا أخطأنا ونخطئ كثيرًا، والكثير من الذين يتكلّمون يخطؤون كثيرًا في فهم وضع خطّة تُكتشف في مساقها الصحيح.

عندنا هناك هذه الثنائية المتناقضة. ثنائية تقوم على أنّ اليهود هم أسياد الكون، وعلى أنّهم هم شعب الله المختار، والأرض ملك لهم، والبشر بهائم جوييم لا قيمة لهم رعاع عبيد، فهذه أولًا عقيدة استعلائية. يقابلها الآلة، الآلة ضعيفة عاجزة، اليهود قلّة. والسبب أنّ الدين اليهودي ليس دينًا دعويًا. الإسلام دين دعوي، النصرانية فيها التبشير (الكرازة)، الإنجيل أصلًا يسمونه البشارة، فيجب أن تذهب به وتدعو به الخراف –بني إسرائيل الضالة وغيرهم–، تكرز به.

اليهودية غير الدعوة، اليهود لا يؤمنون بدعوة الغير؛ لأنّ هذه كرامة خاصة بشعب، اليهود دين خاص لشعب وهو نسل إسرائيل يعقوب عليه السلام.

هؤلاء قلّة لا يستطيعون محاربة العالم، لا يدخلون غيرهم في دينهم من أجل أن يعينهم على هذا الاعتقاد كما هو حال المسلمين، إلى آخره. كيف يمكن تطبيق هذه العقيدة الاستعلائية وحكم العالم والسيطرة عليه؟ كيف يمكن تطبيقها من خلال هذه الأدوات الضعيفة؟ الموجة الإسلامية الأولى حقّقت إسقاط الإمبراطوريات، دولة الإسلام، الدفقة الأولى القوية حقّقت

إسقاط الإمبراطوريات. لكن بناء هذه البلاد الشاسعة وهذه المملكة الإسلامية العظيمة من بناها؟ الّذين أسلموا، وليس هم أصحاب الدفقة الأولى. يعني لم يبن المجتمع الإسلامي هؤلاء الذين خرجوا من الجزيرة العربية، تركوا بناء هذه الأمة إسلاميًا لمن أسلم، من بنى العلوم، من بنى الثقافة؟ الّذين أسلموا، فهذا شيء مفهوم. اليهودي كيف يمكن أن يحقّق عقيدته الاستعلائية بأدوات ضعيفة قليلة عاجزة. مع أنّ هذه العقيدة كذلك مثبّطة! هذه الأعداد الكثيرة، يعني الصحابة كانوا قلّة، لكن بسبب قوة الدفق الإيماني، وبسبب حبّ الآخرة وبسبب الرغبة في الدار الآخرة؛ أسقطوا الإمبراطوريات.

اليهود لا يملكون هذا المعطى الإيماني. الله يقرّر وهذه حقيقة، {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}، فهؤلاء لا يحبّون الموت، ولا يريدون أن يدفعوا بأنفسهم إلى المعركة للقتال لتحقيق النصر، وليس عندهم الشجاعة ليحقّقوا هذا الفعل، يخافون ولا يريدون الموت، وهذا هو شأن الغنيّ وشأن المترف، شأن الغنيّ وشأن المترف؛ ألّا يندفع للموت، واليهود أغنياء لا يحبّون الموت، ومملكتهم العظمى في هذه الدنيا وليس في الآخرة.

والسؤال الذي ينبغي أن نسأل أنفسنا إيّاه: كيف يمكن تحقيق هذه العقيدة؟ يعني لنفترض أنفسنا نحن حكماء صهيون، بالرغم أنّ حكماء صهيون هو واحد، هو ينبغي أن يكون بروتوكولات حكيم صهيون، فالّذي كتبها هو رجل واحد، ولا أريد أن أدخل كثيرًا في تحليل النّص فهذا يمكن لكل أحد أن يقرأه فيرى هذا الذي نقول، فشخص واحد الّذي كتبها، والجلوس مجموعة من الاقتصاديين ويقول لهم في الحوار: "وأنتم جميعكم أهل الاقتصاد".

ولذلك اليهود لما أرادوا نبيًّا يقاتل بعد موسى عليه السلام، في سورة البقرة {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ}، طالوت طال من القوّة، وجال من الجول وهو القدرة كذلك في قدرة الحركة. فهذا طالوت ملكًا. هم ماذا قالوا؟ لأنّ ميزانهم في التعظيم وفي الملك وفي السيادة ماذا؟ يعني عادة الناس يختارون ما يحتاجونه وما يرونه يمثّل أشواقهم النفسية. يعني لو جلس طلبة علم وأرادوا أن يختاروا أميرًا من يختارون؟ أعلمهم. لو كان هؤلاء شجعانًا ويحبّون الشجاعة فلو اختير الأمير من الذي يُختار؟ الأشجع، وهكذا. والأغنياء والنقابات من يختاروا؟ أنصبهم وأكثرهم سرقة. فلمّا {قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ}، قالوا: {أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ **وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ**}.

فميزان هذا المجتمع اليهودي هو ميزان المال.

فالقصد أنا لا أريد أن أحلّل هذا النوع من النصوص؛ لأنّنا يجب أن نتجاوزه وهذه نقطة مهمّة جدًّا، فبروتوكولات حكماء صهيون لا يجوز لأحد أن يقرأه الآن من أجل أن يفهم واقع اليهود اليوم.

أنت إذا قرأت القرآن هل القرآن نصّ تاريخي، أم فوق التاريخ والزمن وهو فوق الجغرافية؟ فوق الزمن، فوق التاريخ، فوق الجغرافية، هو نصّ إلهي. ولكن كلّ كتاب كتبه بشر غير النصّ النبويّ –فالنصّ النبويّ هو تفسير للقرآن فلذلك هو يلتحق بمعناه وبطرف فهمه–، ولكن كلّ نص بشريّ يجب أن يُفهم ضمن سياقه التاريخي. ولذلك حتّى قصص القرآن يجب أن نفهمها في سياقها التاريخيّ. فلا يصحّ أن يأتي واحد الآن يقول عن ذي القرنين كان عنده قوات نووية! هذا غبي! {وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}، يعني سببًا في عصره ومن الأسباب التي كانت موجودة في عصره. فليس معنى {مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} أنّه كان عنده بنادق!

القصص القرآني يُقرأ من خلال سياقه التاريخي. القرآن والسنّة لأنّهما أمر الله لكل زمان ومكان؛ فهما فوق الزمان وفوق المكان، ولكن كل نصّ بشري يجب أن يُقرأ ضمن ظرفه التاريخي. وبالتالي واحد يريد أن يعرف اليهود كيف اليوم، يذهب إلى برتوكولات حكماء صهيون هذا من الغباء، **فلا تظنّوا أنّنا أتينا به من أجل أن نفهم ما اليهود اليوم، ولكن معطيات القضية وهي العقيدة واحدة. يعني أنّ اليهود ضعفاء يجب أن يسيطروا على العالم، إذًا هناك طريقة لكن هذه الطريقة كيف تتغيّر باعتبار الوقت الذ يعيشه اليهودي، والزمن الذي يعيشه اليهودي. فهذه نقطة مهمّة.**

أريد أن أقول بأنّ هذه الثنائية المتناقضة في عقيدة اليهود وواقعهم؛ توجب عليهم صناعة حكمة –تطبيق الحكمة لا بالمفهوم الإيجابي ولكن بالمفهوم العام، توجب عليهم حكمة في هذا التطبيق، أسلوب.

قبل أن أذهب لهذا فقط بقيت كلمة واحدة في الردّ على من نفى كتابتهم للبروتوكولات، استنادا لأنّ اليهود لا يسيطرون على العالم، والدليل القراءة المالية. هذه نمرّ عليها، ليس لها أهمّية كبيرة ولكن بعض الناس يتعلّقون بالأدلّة الضعيفة. يتركون الأدلّة الكبيرة ويتعلّقون بالأدلة الصغيرة، وبعض الناس يحبّ الغرائب! مثل أحداث ١١ سبتمبر المنسوبة إلى القاعدة، فواحد يأتي يتعلّق بأخبار ليست صحيحة وأخبار مكذوبة وأهواء، يعني المصدر له قيمة، النّاس أخرجوا دعاية أنّ ثلاثة آلاف يهودي ما راحوا يومها على البرجين! تتذكرون هذه النكتة! فقط هي منتشرة عندنا ولكن هي نكتة لا وجود لها.

هناك صحفية في السي آن آن شهيرة، جاءت في لقاء، أنا سمعتها في إحدى تلفزيونات العرب وببيان رسمي من التلفزيون، وليس في لقاء أو تحليل سياسي، فالمذيعة تقول: له من صنع هذا؟ فقال: لا أدري، يمكن اليهود عملوها، يمكن اليابانيين عملوها. فقالت: كيف اليهود يعملوها؟ فقال: هناك ثلاثة آلاف من اليهود ما راحوا يوم التفجير على البرجين. فقالت له: لو سمحت من أين أتيت بهذا الخبر؟! يعني أنا نفسي يُثبت هذا الخبر ولكن من أين؟

فبعض النّاس يحبّون الغرائب وما زال الناس يحبّون هذا.

فمن الأدلّة قال اليهود لا يسيطرون على مال العالم والدليل الأرقام، هناك أموال مثلًا لفلان وفلان ومليارديرات عظيمة وكذا.

الجواب: هناك فرق، ولا أريد أن أدخل في خصومة؛ لأنّ هذا دليل ضعيف، ولكنّي أريد أن أفرّق بين المال المؤثر والمال غير المؤثر. مثلا بيل غيتس ملياردير ومن أشهر مليارديرات العالم، ولكن ماله غير مؤثر سياسيًا. هو لا يستخدمه في السياسة، يعني لا يهتمّ بها ولا يهمّه هذا الباب. لكن تعالى إلى مردوخ الناشر الأسترالي المشهور، وهو ليس يهوديًا ولكنّه متصهين. هذا ماله أقلّ بكثير من أثرياء العالم لكنّه يضع ماله في الجوانب المؤثرة، له صحافة كثيرة في بريطانيا، له قنوات تلفزيونية، له صحافة في أمريكا. ولأنّ صحافته مسيطرة ومهتمّ بها؛ فتجد أنّ رؤساء العالم يحتاجون إليه ويرجونه ويتزلّفون إليه.

لما سقطت قضية "ورلد نيوز" المجلة الشهيرة الأسبوعية وكانت له، وأغلقها هو لما صارت فضيحة كبرى في بريطانيا في قضايا التنصّت، ثبت أنّ هذه الجريدة تتنصّت حتّى على رئيس الوزراء توني بلير، هو يقول كانوا يتنصتون عليّ. وحتّى العبد الفقير ذهبوا بي إلى الشرطة وأنا في السجن، أعطوني ورقة في داخل القائمة الّتي تتنصت الجريدة عليهم.

ففضيحة يتنصتون على كلّ أحد حتّى رئيس الوزراء فاضطرّ أن يغلقها. فالمهمّ أجرت معه لجنة برلمانية حوارًا طويلًا؛ من أجل استكشاف هل هو متواطئ في هذا التنصّت أم لا. فممّا اعترف به قال أنا قبل كلّ انتخابات كان توني بلير يجلس معي جلسات عدة. قالت: ولكن نحن لا نراك تدخل من الباب الرئيسي، الباب الرئيسي لداونينغ ستريت رئاسة الوزراء البريطانية. فقال هناك مدخل خلفي ندخل منه، وهو لا يملك من المال ربع ولا عشر ما يملكه بيل جيتس، لكن ما قيمة مال بيل غيتس مقابل مال مردوخ.

من أكثر في أمريكا الآن المسلمون أم اليهود؟ المسلمون أكثر. من أكثر في بريطانيا المسلمون أم اليهود؟ المسلمون. من أكثر في فرنسا المسلمون أم اليهود؟ المسلمون. فالعبرة بالتأثير وليس العبرة بالعدد. فلا يأت واحد يقول المسلمون في أمريكا عددهم

كذا وكذا واليهود عددهم كذا وبالتالي اليهود لا يسيطرون على أمريكا. اللّوبي اليهودي يسيطر. وأنا أنصحكم مثلًا بقراءة كتاب: من يجرؤ على الكلام لبرادلي وقصّته شهيرة اسمه من يجرؤ على الكلام أو من يستطيع التحدث حسب الترجمة. هذا كان له ستّ عشر سنة وهو عضو في الكونجرس عن بلدته عن مكان له فيه. فمرّة خُطفت ابنة ولايته باليمن الجنوبي لما كان اليمن الجنوبي منفصلا قبل الوحدة المبهدلة، فجاؤوه وقالوا له خُطفت وهناك يهتمّون وليس كعندنا، عندنا نائب نائب نائب رئيس البلدية الوصول إليه من الصعوبة بمكان.

المهمّ فذهبوا إليه وشكوا له أنّ ابنتهم خُطفت في اليمن الجنوبي، فسافر، المسألة جدّية، وسافر من أمريكا وراح إلى اليمن الجنوبي، وهناك تعرّف على القضيّة الفلسطينية وبدأ يتحدّث، وتحدّث عن مآسي وتحدّث عن سيطرة اللّوبي اليهودي. هذه قصّة فريدة من سيطرة اللّوبي اليهودي. اللّوبي يعني القوّة الضاغطة في المجتمع في السياسة الأمريكية. فهذا شيء مقرّر.

مثلًا انتبهوا اليوم لا ينبغي أن ننظر فلان يهودي أو غير يهودي، نشأ ما يُسمّى -وهذا من التطوّر الذي سنصل إليه، تصلح دليلًا لما سيأتي-، وهو أنه لا ينبغي أن يوصل لليهودي، استطاعوا اختراق الأديان! ما يُسمّى بحزام التوراة الجديد، هذا مذهب بروتستانتي وهو مذهب صهيوني ومسيحي! ومشتقّ من البروتستانتية ويؤمن به كثير من الرؤساء المؤثّرين. يعني هذا جورج بوش هو من أتباع هذه الديانة، التي يسمّونها السبتية الجديدة، أو حزام التوراة الجديد. وهذا لا ضرورة له بأن يكون يهوديًا بل هو يخدم اليهود أكثر من اليهود أنفسهم.

وكذلك ممّا ينبغي أن يُعلم أنّ هناك من اليهود الّذين يُسمّون باليهود المندمجين، لأنّ هذه قضية نشأت قديمًا، صراع بين اليهود المتدينين واليهود العلمانيين. هناك من آمن خلاف هرتزل، بأنّ طريقة حلّ المسألة اليهودية هو الاندماج في الشعوب، والتوقف عن قضيّة الفصل بيننا وبين الشعوب والعيش متقوقعين لوحدنا وأن نندمج في الشعوب. وهذه فكرة يؤمن بها إلى الآن كثير من اليهود، ومن هؤلاء اليهود الّذين يؤمنون بفساد حلّ الدولتين في فلسطين. على أساس أنّه هذا غلط ويجب على فلسطين أن تكون دولة واحدة لليهود وللعرب وتنشأ أحزاب عربية ويهودية وإلى آخره، وهذا لا يعجب اليهود المتدينين. اليهود المتدينون يؤمنون بأنّه يجب أن تقوم مملكة إسرائيل؛ حتّى يأتي ملكهم وأنّ فلسطين هي موطئ القدم للزلّفى من أجل السيطرة على العالم.

القصد من هذا أريد أن أقول بأنّ الزعم بأنّ مجرّد أنّ اليهود لا يسيطرون على المال العالمي؛ لنقد سيطرة اليهود على العالم هذا غلط، والسبب كما قلنا بالتفريق بين المال المؤثر والمال غير المؤثر، الأعداد المؤثرة والأعداد غير المؤثرة. هذا مهمّ جدًّا. ملايين من المسلمين ماذا قال عنهم النبي ﷺ؟ (غثاء كغثاء السيل). يعني الأعداد الّتي عند المسلمين أكثر من اليهود، اليهود في العالم كلّهم تقريبًا الآن يعادلون عدد الفلسطينيين فقط. هذا عدد اليهود في الداخل والخارج، نصفهم في فلسطين ونصفهم في الخارج وهو يعادل عدد الفلسطينيين في الداخل والخارج، ولكن سيطرتهم على العالم وإدارة السياسة في العالم وأهمّيتهم. يعني أهمّيتهم الآن هناك دول فيها مشاكل عظيمة ولكن لا يُسمع بها كما يُسمع بالقضية الفلسطينية لأهمّيتها.

إذًا نرجع للنقطة الّتي نحن بصددها، فقط هذه أمرّ عليها؛ لأنّ البعض يهتمّ بها ويذكر أنّها غير صحيحة وأنّ اليهود لا يسيطرون. هذا كلّه من الجهل، هم يسيطرون، وهم يتحالفون مع الأقوياء، ولهم أثر على السياسات الاقتصادية والسياسات الإدارية والتنظيمية إلى غير ذلك، لهم سيطرة حقيقية لا ينبغي أن نقلّل منها، والإحصائيات لا تخدمنا ولكن الواقع يخدمنا بمعنى إحصائيات توزيع الثورة.

نرجع إلى النقطة المهمّة جدًّا الّتي بين أيدينا، وهي الّتي لو أنّني انتهيت منها اليوم أعتبر أنّنا انتهينا من الكتاب، لأنّها هي أهمّ شيء، **وهي الرجوع إلى ثنائية التعارض بين الاعتقاد وبين الأدوات**.

الاعتقاد عظيم يؤمنون بالسيطرة على العالم والأدوات ضعيفة. يعني لو نحن حكماء صهيون ما هي الطريقة إذن؟ يعني الطريقة ليست ذكاءً وليست من العبقرية، ولا حكماء، هذه فقط تحتاج إلى إرادة وتحتاج إلى عاملين، لكن اكتشاف هذه المعضلة سهل ميسور. ما هو السهل الميسور؟ أنّك حين لا تريد أن تغيّر اعتقادك، عندما يكون اعتقادك يقول لك بأنّك أنت العزيز، وأنت سيّد هذا الكون والشعوب أغبياء لا قيمة لهم، أنتم شعب الله المختار، أنتم الّذين اختاركم الله وفضلّكم على العالمين، إلى آخره. فأنتم هكذا والعالم يجب أن يكون تحت سيطرتكم. والشعوب يجب أن تكون خادمة لكم. النتيجة ندعو الناس لتدخل في ديننا لنسيطر؟ لا. هل نحن دين هداية، نهدي الناس لهذا الدين؟ لا. ونحن لا نستطيع أن نقاتل.

ثمّ إنّ الإنسان اليهودي ليس لأنّ جيناته يهودية فهو جبان، ليس هناك جينات جبانة أو جينات شجاعة. ولذلك الإنسان لو كانت جيناته شجاعة أو جيناته جبانة؛ لما احتاج النّاس إلى الأنبياء. لماذا؟ الأنبياء لماذا يدعون؟ هل الأنبياء جاؤوا ليغيروا هذا الكأس من زجاج إلى حديد؟ فإذا كانت جينات الإنسان شجاعة لا يمكن أن يصبح جبانًا، وإذا كانت جيناته جبانة لا

يمكن أن يكون شجاعًا. فالإنسان صناعة، فما الّذي صنع جبن اليهود؟ هو محبّة المال والترف. هذه الدنيا التي هم عليها، المال بين أيديهم، هذا هو الذي صنع عندهم الجبن.

وبالتالي إذن هذه الثنائية كيف تُحلّ؟

أحد الإخوة: **أولًا التحالف مع الكبار.**

ثانيًا إسقاط الآخرين وإضعاف القوة النفسية عند الآخرين حتى يتمّ التمكن عليهم.

الشيخ أبو قتادة: النقطة الأولى نريد أن نكتشفها وليست كافية للكلام ولكنّها قويّة ومهمّة. النقطة الأولى التحالف مع الأقوياء من أجل أن يستخرجك القويّ هذا من ضعفك ويجعل لك أمرًا عظيمًا.

الآن النقطة الثانية هي تفسّر الأولى وهي تدمير عقيدة الآخر من أجل أن تكون خادمة لك. هذا قمّة ما يُسمى بالجاسوسية. ما هي قمة ما يُسمّى بالجاسوسية؟ هو الّذي قاله الشيخ. وهو أمر يسير جدًّا، ولكن نحن نتحدّث عن أمور عظيمة بإدراك طبيعة المعركة. ما هي هذه الجاسوسية العظيمة؟ هي استخدام عقيدة الخصم ضدّه ومعك!

يعني أنت أردت أن تقول بأنّه لا بدّ من التحالف معه وذلك كيف؟ بأن نفعل كذا وكذا بأن ندمّر عقيدة الآخر الممانعة لنا.

- **السائل: أنا ما قصدت هذا، أنا ما قصدته أنّهم يبثّون الأفكار ويبثّون العقائد الّتي تهدّن الآخرين حتّى تستقرّ هذه العقيدة في نفوس النّاس ويروّا أنّهم ضعاف وليس لهم مكانة وليس لهم عزيمة**

الشيخ: أي سلب مصادر القوّة في الأمم الأخرى أو نستطيع أن نقول نشر الفساد في المجتمع

- **السائل: بأيّ شكل العقدي السلوكي؟**

الشيخ: فهذه نقطة الآن بدأت تتجلّى وهذه هي طريقتهم. ولذلك أريد أن أكرّر وأقول وهذا هو المراد في هذا الكتاب من البداية: من الخطأ العظيم اعتقاد أنّ بروتوكولات حكماء صهيون هي وضع إلهي فوق الزمان والمكان والتاريخ. يعني لا يصحّ أن يأتي واحد يقول بروتوكولات حكماء صهيون ما زالت تطبق إلى اليوم. لا! يجب أن تعرف معطيات الوقت الّتي تفرض على هذا المعتقِد وعلى هذا الذي يقول: كيف يتعامل مع هذا الوقت.

يعني أنتم تعرفون ما ذكره روجي جارودي وكذلك ذكره عبد الوهاب المسيري في كتابه (الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ)، اتفقّوا على وجود أدّلة كبيرة جدًّا على أنّ اليهود تحالفوا مع الحلفاء وتحالفوا مع المحور في نفس الوقت. يعني هذا شامير الذي استلم رئاسة الوزراء، وحضر معهم مؤتمر مدريد الشهير للسلام، هذا كان ممّن له تواصل مع هتلر. اليهود تواصلوا مع هتلر وتواصلوا مع الحلفاء، من أجل أن يكونوا مع المنتصر. الناس يقولون هم أذكياء عرفوا كذا وكذا، لا، هم بشر.

ولذلك حين يتعاملون لتطبيق عقيدتهم إنّما ينظرون للواقع، ما يفعلون كما يفعل بعض المشايخ. هناك بعض المشايخ يفرضون الرؤى على الواقع. الأصل الواقع هو الّذي يخرج الفتوى. قال ابن القيم: لإصابة الفتوى الصحيحة تحتاج إلى فهم الواقع وفهم الفتوى الملائمة لها في الشرع. ولكن هل الأوّل تذهب تفهم الفتوى وتطبّقها على الواقع قبل أن تفهم الواقع؟ تقول لا الواقع هكذا يجب أن يكون هكذا.

سمعتم عن الشيخ الذي كان يتحدّث مسكين قال له: يا شيخ وقعت فأرة في داخل البئر واتفسّخت فما حكم الماء؟ قال له: الله يهديك لماذا لم تسكّر البئر! بعض المشايخ هكذا، هو يريد أن يفرض الواقع.

الطريقة الصحيحة في التعامل هي أن تعرف الواقع، انظر للواقع كما هو، واقرأه كما هو. انظر إلى القوى في داخل اليهودي لا يأتي ويقول أنا أتوقّع أن يكون قويًّا، يمكن يتوقّع لكن مع الواقع كما هو.

الآن اليهود كانوا يعتبرون أنّ الغرب هو مصدر القوة ثمّ ظهرت قوة جديدة وهي أمريكا. ظهرت قوة جديدة في العالم وقطب جديد ينبغي أن يتحالفوا معه وهو أمريكا، وذهبوا تحالفوا مع أمريكا ولم يكن في ذلك تجاوز للقضيّة.

- **السائل: جاء في بالي نظرة اليهود على تعظيم شأن النسل اليهودي دون النظر إلى مسألة التدين والمذاهب والفرق عندهم.**

الشيخ: هذه قلنا عنصرية اليهودي أنّه لا يهمّ ماذا هو في موضوع الغيب والآخرة، المهمّ أنّه من النسل اليهودي.

- **السائل: الفكرة التي في ذهني أنّه يجب إيجاد عدوٍ لليهود لأنّهم يهود فيجمعوا بهذا العدوّ يهود العالم عندهم.**

الشيخ: هذه التطبيق لقضية الكربلائية، هذه طبّقوها لفترة ولكنها لا تصلح كاستراتيجية.

الأخ يقول بأنّ اليهود ينشؤون أعداءً يعملون مجازر في اليهود، وبالتالي يتمّ استقطاب وتوحّد اليهود، هذه عملوها لفترة في خلال ترانسفير اليهودي؛ لأنّ كثيرًا من اليهود لم يكونوا يعتقدون بالرحلة إلى أرض الميعاد. كانوا يرفضون، يعيشون في البلاد والمجتمعات مرتاحين وكيف يذهبون إلى أرض كذا، يعني بأسباب كثيرة يرفضون الذهاب لأرض الميعاد.

وهنا نقطة مهمّة جدًا: بعض المسلمين من جهلهم يظنّون أنّ ما يقع بين المسلمين من خصومات في قضيّة من القضايا، ويضربون بعضهم البعض ويمكن البعض يغتال البعض، يظنّ أن هذا خاص بالمسلمين!

يعني المجاهدون الأفغان كان يقع قتال بينهم ويقع خلاف ويقع خصومات ويقع اغتيالات ويقع سباب، فبعض المسلمين يظنّ أنّ هذا خاص بنا. ولولا أنّنا اجتمعنا هنا من أجل شيء تجد اختلافًا متباينًا وشديدًا جدًّا، وممكن بعض الناس ما يتحمّل الثاني، واحد عصبي يردّ عليه أنت الذي لا تفهم تريد تخرّب جلستنا، فيظنّ البعض أنّ هذا خاص بنا وهذا غير صحيح! ما يقع في العالم من خصومات عند المأزق وعند الحل هذه تقع مع كل المجتمعات.

يعني يأتينا واحد يريد أن يقول بأنّ اليهود لما صنعوا دولة إسرائيل كانوا أذكياء، فجلسوا ووضعوا المخطّط واتفقوا عليه جميعًا وما اختلفوا، ولم يخرج منهم أحد إلا وهم مجتمعون، وبالتالي وضعوا الخطط بهدوء ورويّة وحكمة وهدوء من غير خصومات، وبعد ذلك اتفقوا عليه وخرجوا وكل واحد طبّق المكلّف به تطبيقًا كاملًا، وانظر إلينا نحن ماذا نصنع. هذا كلّه من أكاذيب الخيال! اليهود اغتال بعضهم بعضًا، وقتل بعضهم بعضًا، بل ثبت أنّ بعض المنظمات كالهاجانا والإرجون أكبر فصيلين يهوديين ثبت أنّهما أقاما من الاغتيالات لبعضهما البعض ما لم يقع في أي حركات إسلامية من القتل، بل ثبت أنّ الوكالة اليهودية –لأنّهم أنشؤوا الوكالة اليهودية من أجل تسفير اليهود إلى فلسطين–، أغرقوا سفنًا بعشرات آلاف اليهود. هم أغرقوها! لماذا؟ لجلب الاستعطاف العالمي إليهم!!

هذا ثبت عليهم بدون تلاعب، وأثبتوا أنّهم أغرقوا سفنًا يهودية تحمل اليهود من أجل الهجرة اليهودية لفلسطين أغرقوها لجلب الاستعطاف! عشرات الآلاف من اليهود أُغرقوا من قِبل اليهود.

فهذه فقط نقطة وهذه تؤكد على ما نقوله فيهم، ولكنّها تبيّن لنا أنّ من الأسباب كذلك وهذه نقطة أريد أن أشرحها **وهي تدلّنا على قضية مهمّة أخرى: وهي صناعة الثورات الفاشلة!**

ممّا يذكره البحّاثة الروسي بافلوف مشهور هذا، ممّا طُبّق نظرية بافلوف في قضية إسقاط الإرادة بالفشل المتكرّر. عندنا المال يأتي بالمال، النصر يأتي بالنصر، الهزيمة تقتل الإرادة. فهذه طريقة تُطبّق، طبّقها بافلوف على الفأر. أتى بفأر وأجاعه، ووضع ثلاث شرائط كهربائية، ثمّ وضع له قطعة جبنة بعد الشرائط الكهربائية. وأطلق الفأر بعد أسبوع من التجويع فجاء الفأر كالهواء. انطلق الفأر انطلاقة سريعة نحو الجبن وأكلها من الجوع دون أن يأبه للشرائط.

ثمّ بعد ذلك جوّع الفأر مرّة ثانية ووضعه في القفص ووضع الشرائط، فراقب خروجه من القفص كان أضعف؛ لأنّه صُعق وهو ماشي لكنّه جائع فاقتحم وأكل، ولكن المرّة الثانية خرج من القفص يعني على ضعف وهو خائف، المهمّ خرج وأكل قطعة الجبن. المرّة الثالثة خرج من القفص ووقف عند الشريط الكهربائي وجعل ينظر إليه وما ذهب. المرّة الرابعة ما خرج من القفص ورضي بالموت ولا يخرج ويُضرب بالشريط الكهربائي. هذه حقيقة، النجاح يعني إنشاء المعارك –لكن هذه ليست استراتيجية هذا تكتيك للحظة كما ذكرنا قضيّة صنع الكربلائية والعطف بالقتل، فممكن هي صناعة ثورات فاشلة المرة الأولى والثانية والثالثة. الناس لما تقوم مظاهرة أو ثورة الناس يندفعون إليها، لكن بعد الفشل يقولوا: جربّنا هذا الأمر كثيرًا، وخرجنا وما حصل شيء، وهكذا فتموت الهمم.

فهذه هي إحدى الطرق، ولكن نحن نأتي إلى قضيّة مهمّة جدًا: بعد قضية التحالف مع الأقوياء تأتي قضيّة المكر والخداع. الشيء الذي لا تستطيع أن تأخذه بالقوة خذه بالحيلة. يعني هي قضيّة منطقية لا تحتاج إلى عبقرية وذكاء، أنت هذه عقيدتك تريد أن تسيطر على العالم، لا تملك القوة اللازمة، والأشخاص الذين عندك أصلًا ليسوا مادة قتال وليسوا مادة حرب ليسوا مادة صراع وصدام، فالطريقة هو استغلال الآخرين، التحالف مع الأقوياء وكذلك من أعظم ما فيها وهو الخداع. من الخداع قديمًا –ومن هنا الكتاب– وهذه قضيّة انتهت اليوم، يعني الحديث عن القومية. أنتم تعرفون أنّ اليهودي يُعزل إذا نُظر إليه أنّه يهودي، إذا كان المجتمع يوزّع مناصبه ويوزّع أموره على أساس الدين، فإذًا الأساس أن نزيل الدين ليبقى التعامل على أساس القومية. ومن هنا نشأت قضية الدعوة للقومية، والدعوة للقومية في بلادنا أوجدت لليهود مكانًا.

يعني الآن النصارى كانوا يُعاملون على أنّهم رعايا، على أنّهم درجة ثانية، على أنّهم أهل ذمة. فالطريقة لعودة النصارى لإمكانية أن يكونوا قادة، ويصيروا قادة جيش ويصيروا رؤساء وزراء ويصيروا حكماء إداريين ويصيروا أمنيين؛ **الطريقة هي أن تنتهي قضية التعامل مع الناس على أساس الدين من أجل أن يُفتح المجال لهم للوصول**. من هنا كانت العمدة الفكرة

القومية في بلادنا هم النصارى! الفكرة القومية لماذا استغلتها النصارى والدروز النصيريون؟ يعني كيف وصل هذا النصيري حافظ الأسد، كيف وصل والده، كيف وصل إلى رئاسة الجمهورية؟ بالفكر القومي البعثي.

والعجيب أنّ هذا اكتشفه الأوائل.

كنّا نعجب أنّهم يتحالفون ويتكتّلون على أساس النصيرية، ونحن أهل السنة نقول يجب أن نفتح الباب وهذه نظرة دينية متخلّفة ومعوّقة، والدين ليس له مجال في هذا الباب.

الآن ترون من الذي بقي متمسكًا بديانته، ورأينا أنّ فكرة القومية هي مطيّة من أجل الوصول لأهدافه، ومن الّذي آمن في هذه القومية إيمانًا صحيحًا وفي النهاية انتهى به أمره إلى المشانق والمزابل والسجون؟ واحد فقط في الدنيا وهو الإنسان غير الطائفي! الّذي صدّق هذه الفكرة الغبية -أنا أتكلّم على أسلوب حياة، أمّا هي من جهة الدين كفر وردة إلى آخره-، نتكلّم عمّن ضُحك عليه. الّذي صدّقها واحد في هذه الدنيا وهو غير الطائفي، وغير الطائفي في الوجود هو السنّي. السنّي لم يكن يومًا من الأيام طائفي.

ولذلك هم دائمًا ما كانوا يقولون وطائفة أهل السنّة، فأهل السنّة ما كانوا يومًا طائفة، أهل السنّة هم الحقّ، أهل السنّة هم الأمّة. أنتم الطوائف، أنتم الجذر القليلة في داخل المجتمعات، لكن أهل السنّة لم يكونوا يومًا من الأيام طائفيين. من الطائفي؟ النصيري، الدرزي، النصراني، هذا الّذي ينتظر كيف ينقضّ عليك وكيف يستغلّ حالة السّلام الّتي تعيشها من أجل أن يحقّق مكاسبه ضدّك.

هذه انتهينا منها.

إذًا ما هي الطريقة لتحقيق اليهودي لمقاصده؟

التحالف مع الأقوياء. الأمر الثاني التغلغل، كان قديمًا يتغلغل بأن يدّعي، مثل يهود الدونمة هذه نموذج. الله -سبحانه وتعالى- قال: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ}، هذه صورة من صور التطبيقات، وهي صورة خطيرة جدًّا وموجودة، لكن كذلك من هذه الصور الموجودة هو قوله -سبحانه وتعالى-: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ}. إنشاء المؤسسات البديلة! الّذي سمّاه أنور العولقي الملا برادلي. يعني إذا عندكم ملّا نحن أيضًا لدينا ملّا. وما الملّا؟ "لحية ببلاش ويلبسوه الشاش" ويصير شيخًا! وهذه لا تنتهي.

وهنا نأتي لنقطة: موضوع الجاسوسية هذا لا ينتهي، وهو ليس صورة من صور ضعفك ولا صورة من صور قوّتك، هو فنٌّ لا يمكن أن ينتهي.

يعني بعض الناس يأتي يحكم على جماعات اختُرقت أمنيًا، هذا غير صحيح! في التاريخ الإنساني لا يوجد قطّ زمن لم تعمل فيه الجاسوسية عملها. كما يقولون هم: هي من أقدم ممارسات الإنسان ولا يمكن أن تتوقف. كيف يمكن توقيفها إذا كان المجتمع النبوّي وهو من أعظم مجتمعات الوجود نظافة، وتربية، وصياغة، ومع ذلك المنافقون دخلوا فيه. ولم يستطع النبيّ أن يفعل شيئًا إلّا بتقوية الصفّ وتمتينه إلى آخره، ورعاية الله له.

فبعض النّاس يتصوّر أنّه يمكن أن تصنع بناءً ما سواء دولة، تنظيم، مؤسسة، من غير أن يكون فيه اختراق، هذا لا وجود له!

قُبض على شيخ مخابرات لإحدى الدّول، لما جاء التقرير وأقرؤوني إيّاه الإخوة، أوصل لي من قبل المحبّة، فطأطت رأسي خجلًا؛ لأنّ هذا الشخص الّذي يتحدّثون عنه أنّه مخابرات، لو أخرجت اسمه وقلت هو أبو فلان لا يمكن، لو أزلت اسمه ووضعت أي شيخ في الدنيا ينفع. هذا الرجل في ممارساته الدينية والتربوية والتعليمية قبل أن يُكتشف أنّه كان جاسوسًا لإحدى الدول وللمخابراتية، لو أزلت اسمه ووضعت أيّ اسم، أيّ شيخ في الدنيا ينفع!

يعني أول شيء كان خطيب جمعة، ولا يقوم إلّا بالخطب التربوية الراقية من تحقيق الأحاديث، وتحقيق المسائل العلمية، ويكتب الرسائل التربوية، تربوية إلى الآن، أنت لو ذهبت الآن أحضرت هذه الرسائل الّتي كتبها أبو فلان وأزلت اسمه وأرسلتها إلى أيّ تنظيم تنفع الآن! ويمكن يقولوا كتبها ابن تيمية حتّى! يعني ليس فيها أيّ شيء، ليس فيها دخن، إلى آخره. وكان خطيب جمعة، وكان عنده مركز لزوجته تحفّظ القرآن للبنات، وهو يعمل الدورات الشرعية، إلى غير ذلك. يعني لا يوجد أيّ شكوك، حتّى إلى الآن النّاس يتساءلون: معقول يعني هذا جزء من اللعبة أم أنه كان كذا وكذا. ولولا أنّه اعترف ثمّ رجع إلى الدولة فصار ما يُسمّى بشاهد ملك. وتعرفون معنى شاهد ملك يعني شاهد للمدّعي العام على النّاس، الآن لو واحد جاءني وقال لي تحليلًا أن أبا فلان هو مخابرات ومدسوس لضربته! حصل التحليل، هذا أمره لم يكن تحليلًا.

فقضيّة هذه اللعبة لا تنتهي والأمثلة كثيرة.

اليوم يمكن قضيّة واحد يهودي يدخل في تنظيم يهودي هذه صعبة اليوم. قديمًا في زمن الدولة العثمانية ما توجد سجلّات، يمكن أن ترحل عائلة من بلد إلى بلد كما حدث مع يهود الدونمة دخلوا في الإسلام وتركوه، ويمكن عائلة يهودية تدخل من

مكان لمكان. يعني الهجرات الإسلامية كانت موجودة، تأتي عائلة الجزائري جاؤوا من الجزائر وسكنوا في دمشق وأقاموا فيها، وهكذا عائلات كثيرة. يعني فلسطين لا يوجد شيء اسمه فلسطين عندي، لا يوجد عشائر فلسطينية، كل الفلسطينيين من أين قدموا؟ قدموا من بلاد الإسلام من أجل الرباط ومن أجل الجهاد، ومن أجل الرباط العلمي للعبادة في المسجد الأقصى.

فيمكن أن تأتي عائلات وتتحول وتصبح يهودية إلى آخره، لكن اليوم هذا ممتنع؛ فالطريقة هي تغيير الأديان، صناعة أديان جديدة! شيخ يصنع دينًا جديدًا أو قسيس يصنع دينًا جديدًا، لا نريد أن نتحدّث عمّا يحدث في الإسلام، نريد أن نتحدّث عمّا يحدث في النصرانية، حزام التوراة الجديد هو صناعة يهودية. ومرّات لا يكون هناك ثمّة ضرورة لصناعة الدين الجديد. يعني المؤمنون بعقيدة هارمجدون المعركة النهائية، هذه الّذين يؤمنون بها يدعمون اليهود استعجالًا لهارمجدون كما يفعل الشيعة يستعجلونها حتّى يخرج المهدي!

بعض الشيعة يطلب بكثرة العصيان؛ حتّى يفشو الظلم ويفشو الفساد ليخرج المهدي. هم كذلك يريدون مزيدا من الصراع الوثني اليهودي —الوثني يعني المسلم—، حتّى تقوم هذه المعركة فيأتي المخلّص عيسى عليه السلام من السماء. هذه عقيدة ليست يهودية، لكن اليهود يستغلّونها.

الآن العقيدة الشيعية، يقول الأعمش سليمان مهران كما في رواية عنه وذكرها فيه ابن تيمية، وهذا عجيب منه في كتاب منهاج السنة النبوية في أوّله، هو أوّل من اكتشف أنّ الشيعة صناعة يهودية. هو كان من الطريقة الخشبية، إحدى المذاهب الشيعية وهي الخشبية. كسروا سيوفهم واتخذوا بدلًا منها خشبًا؛ حتّى يخرج المهدي. نفس بعض العقائد اليهودية في وقت من الأوقات، حتّى يخرج المخلّص ويخرج الملك إلى آخره. فهو أوّل من اكتشف أنّ الشيعة صناعة يهودية. قديمًا عبد الله بن سبأ هذا دخل فيها، ولكن الآن تستطيع أن تقول من الصعب واحد يدخل يقول: أنا يهودي أو لا يُعرف أنّه يهودي، اليوم اليهود لا يختفون.

إذًا ما هي الطريقة؟ صناعة أديان جديدة. الآن أشياء كثيرة أخرى يعني ليس هناك ضرورة أن يكون يهوديًا من أجل أن يخدم اليهود. الآن سلطان اليهود هناك أناس من الدول، يعني تسأل عن دولة عربية ما أو دولة أجنبية، تعجب لماذا هؤلاء يحبّون اليهود، ولماذا يعادون الإسلام، تتعجّب!

فالحلّ اليسير لهذا الاضطراب هو الزعم أنّ أصول هذه العائلة يهودية، وهذا في الحقيقة خطأ. السبب في أنّ أناس من بني جلدتنا ارتدّوا وكفروا وصاروا كارهين للإسلام أكثر من اليهود أنفسهم، وهم على استعداد أن يضعوا أيديهم في أيدي اليهود للقضاء على الإسلام. وأكبر دليل انظروا الآن ما يُسمّى بالمثقفين الّذين كانوا يدعون إلى حرية الشعوب والقيام بالديكتاتورية، لما قامت الثورة أين رأينا هؤلاء الكلاب؟ رأيناهم يتحالفون مع أمريكا ضدّنا، رأيناهم يتحالفون مع الديكتاتورية والعسكرتارية ضدّ المسلمين.

الآن لا ضرورة لأن تبحث عن عائلته، وإن كان للعائلة دور وللتربية دور إلى آخره، ولكن الآن الّذي يجعل النّاس يحقدون على الإسلام ويعادون أمّتهم أسباب كثيرة منها: هذا خليل زلماي، هذا شخصية أُخذ طفلًا صغيرا من أفغانستان وصار ممثّلًا لأمريكا في الأمم المتحدة، كان سفير أمريكا في الأمم المتحدة. هذا أُخذ من أفغانستان وهو طفل، وأرسلوه إلى لبنان ودرس في المدارس اللبنانية وربّوه. تصوّر هذا الذي من أفغانستان صار يمينيًا أكثر من اليمين المتطرّف نفسه! وصار خادما لليهود وعدوّا للإسلام وهو أُخذ ورُبي. وهناك العشرات ممّن يُؤخذون ويربون في دوائر.

حدثت قصّة ما أذكرها لكم في قضيّة التربية والتنشئة، الآن النظر إلى طريقة تعامل اليهود كحالة واحدة مع الأمّة هذا خطر كبير. والآن ليس فقط اليهود، الغرب لما صار الزلزال الشهير في تركيا قبل سنتين أو ثلاث وقبله كان هناك فيضان عظيم أصاب شمال باكستان أُهلكت فيه قرى كاملة وأُبيدت. فالّذي حدث أحضرت قناة BBC إحدى ممثّلي جمعيات رعاية الأطفال وغير ذلك، فيقول: نحن لم نر أحدًا أعاننا على رعاية الأطفال كما أعاننا برويز مشرّف، قال: لما صار الفيضان الفلاني في شمال باكستان، أمر أمرًا لكل الموانئ الباكستانية ألّا تمنع أي طفل خارج معنا من غير أيّ أوراق، طبعًا عنده طيارات خاصة وعند وسائل خاصة. قال: نحن عادة نذهب ونقاتل من أجل الطفل والطفلين، قال: صار عندنا عجز في قضيّة أخذ الأطفال من كثرة ما أخذنا أطفالًا في تلك الفترة، ورحلوا إلى مدارسهم أين يكوّنوا بعد ذلك على طريقة الجيش الانكشاري. وهؤلاء يرجعون غدا ويكونون على أمّتهم، وهم جنود ورجال ويقاتلون وتُعطى لهم الأموال ويُربّون إلى آخره.

بقاء التصور في فهمنا لما يُفعل بنا من قبل أعدائنا اليهود وغير اليهود، المؤسسات المجرمة الّتي تعطي الأموال وتشتري الرجال وتنشر الكتب. أنت تعجب! هذه المؤسسات الكبيرة جدّا حاملة فتات، مساكين في بلادنا لو واحد قالوا له ألّف لنا كتابًا بألف وخمسمائة دينار يقبّل أيديهم. ألف وخمسمائة دينار هذه زبالة ومن عذرة القوم. لكن لما يأتي لواحد ما يُسمّى الآن قضيّة

مراكز الدراسات والبحث، يشترون بها الذمم، يشترون بها الرجال يشترون بها الأبحاث القيّمة؛ لأنّهم مهما بلغوا من الإتقان لا يمكن أن يفهمونا. فرق بيننا وبينهم. يعني واحد الآن ما الّذي يستطيع أن يقدّم لقومه عنّا، هل لو جلس واحد غربي بيننا في هذه الجلسة واستمع لنا لمدّة سنة، هل يستطيع أن يبلّغ أقوامه ما نحن عليه كما يبلّغ واحد منا؟ هذا يفهمك، ويعرفك، مؤسسات الدراسات.

الآن الأمر الآخر أكثر من هذا: دوائر المخابرات للدول والأنظمة، هذه دوائر مفصولة حتّى عن الدول أنفسها تُساق من قبل أعدائنا. وأنا أجزم لكم أنّ هناك ثمّة دوائر مخابرات لا علاقة بالنظام، ما لها إلّا مجرد استشارة، يعني أنّها تابعة لها، وإلّا فمصروفها ورعايتها وإدارتها كلّها تتمّ بإدارة الغرب. أنظمة كاملة! فالبقاء على حالة حزب التحرير غفر الله لنا ولهم، أنّ الصّراع ما زال أمريكيًا بريطانيا هذا غباء، هذا انتهى. هذا قديمًا كانت أمريكا تريد أن تحلّ بعد الحرب العالمية الثانية؛ لما اهترأت أوربا بسبب الحرب العالمية فصار صراع. وإلى الآن بين فرنسا وبين أمريكا صراع ثقافي فرنكفوني-أنجليكاني، ويوجد صراع اقتصادي وصراع سياسي لكن على الجملة هم في داخل بوتقة واحدة. أمّا القول الآن بصراع بريطاني أمريكي هذا غباء لا وجود له الآن، لولا الدعم الأمريكي لبريطانيا لأصبحت دولة ثالثة. يعني لا تملك ما تعتقدون، لكن كذلك علمت وهي العجوز، أنّ حفيدها أمريكا يجب التعلّق به.

فالّذي أريد أن أنتهي منه بقاء التعلّق بالبروتوكولات أنّها هي الصيغة التي تتكرر في كل وقت انتهى هذا. الآن مثلًا لا يستطيع أحد أن يجد الآن صراع بالمفهوم الإلحادي الشيوعي. من يستطيع الآن أن يقول الصراع في داخل النقابات، الصراع داخل المؤسسات، الصراع على الشارع في الخطاب سواء كان خطابا إعلاميا سرّيا أو ظاهرا أو باطنا، لا يوجد صراع شيوعي إسلامي. الآن الصراع الموجود حتّى ليس صراعًا نصرانيًا مسلمًا. الصراع الآن بين أهل الإسلام وبين عبيد المال.

يعني هذه الجموع الكلاب والبقر والغنم التي تخدم الغرب على أيّ أساس يخدمونهم؟ على أساس المال، يدفعون لهم. هذه الصحوات التي نشأت في العراق نشأت على أيّ أساس؟ حمل الحقائب، يدفعون لهم. يعني أمريكا لا تقول أنت تؤمن بالحضارة الأمريكية أو لا تؤمن بالحضارة الأمريكية أنت تؤمن بالحلم الأمريكي أو لا تؤمن بالحلم الأمريكي، أنت تقبل الدولار الأمريكي أو لا تقبل؟ هذا هو السرّ، فإذا قبلته كنت حبيبا دُفع لك المال، ثمّ بعد ذلك تشتغل. تعرفون في المحلّات الكبرى يكون أمام المحلّ سيارة صغيرة تضع فيها الدينار تلاعب الأطفال، فبعض الناس كالآلة هذه تضع فيه الدينار يشتغل، ترفع عنه الدينار

يوقف الشغل. هذا الصراع موجود الآن. اليهود الآن لا يهتمّون أنّك تؤمن بقضيّة العقيدة اليهودية أو لا تؤمن، المهمّ أنّك تقدّر المال فيدفعون لك. الصورة الآن للحالة التي يعيشها المسلمون يجب أن ننظر إليها نظرة دائمة. أمّا الّذي يريد أن يقول أنّ سبب الاختراق هو الضعف الذي نعيش فيه هذا خطأ.

هناك كتاب أنا أنصحكم بقراءته وهو كتاب بيتر رايت (صائد الجواسيس)، وهو كتاب واقعي ذكرته لكم من قبل. اكتشفوا في بريطانيا أنّ هناك مجموعة اسمها مجموعة الخمسة ومنهم فيلبي، محمد فيلبي الذي كان مبعوثاً للحكومة البريطانية عند عبد العزيز آل سعود هذا حفيده، لكن حفيده كان كذلك لإتقانه اللغة العربية سفيرًا لبريطانيا في السعودية، ولما كُشف أنّه عميل، اكتُشف وهو سفير، فقد كان سفيرا لبريطانيا وهرب من السعودية وذهب إلى روسيا، المهمّ منهم هذا، فاكتشفوا مجموعة اسمها مجموعة الخمسة، اكتشفوا أربعة بانوا وظهروا، بعضهم هرب إلى روسيا وبعضهم قتل نفسه وبعضهم قُبض عليه، مجموعة من علية القوم في داخل المؤسسة السياسية البريطانية، خمس جواسيس لروسيا في داخل الإدارة. وهذا بيتر رايت واحد من MI٥ أي المخابرات الداخلية، جمع بعض الأدلة فاكتشف أنّ رئيس الوزراء البريطاني ويلسن هو الخامس! والمهمّ قصّته –لا أريد أن أطيل– رفضت الإدارة كلامه واعتبروا هذا خزي وعار. هو يقول أنّ سبب عدم اعترافهم أن لا يقولوا أنّ رئيس الوزراء كان عميلًا لروسيا. المهمّ قصّته في هذا الكتاب.

والقصد أنّ أمريكا مع مدح السي أي إيه اكتشف فيها جوناثان بولارد اليهودي. فالاختراق الأمني قضيّة دائمة. أن يكون شيخًا، أن يكون معلمًا، أن يكون مدرسا، أن يكون رئيسا، أن يكون وزيرًا. هذا شيء قدري. ولذلك الطريقة هي هذه، **طريقة صناعة النبوءة اليهودية هي الجاسوسية! بالمفهوم العام وليس بمفهوم الجاسوسية بالمفهوم الساذج**. ولها طرق وأساليب تُفرض من خلال الواقع وليس من خلال الدين، الواقع يفرضها ويغيّرها ويبدّلها وينشئ حالات متعدّدة، وهذا الدور دور أن يكتشف النّاس وربّما تُقرأ بالأمارات {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}، فربّما تُعرف في لحن القول، وربّما هذا الذي قلته لكم أبو فلان هذا الشيخ، والحقيقة لو أراد أحد أن يقول بأنّ هناك ثمّة أمارة ولو يسيرة أنّه كان مثلًا عميلا جاسوسًا لما استطاع. هكذا هي الدنيا!

أنا أتمنّى أن تُكتب هذه القصّة، وهي قصّة كيف سُلّم ثمانون مقاتلًا من الطليعة إلى الحكومة السورية. هذه حدّثني بها من كان يسلّمهم المسكين الجالس على الحدود، حدّثني بها الّذي كان جالسًا على الحدود التركية السورية، كان يدخل فيهم واحدا

واحدا ويظنّ أنّهم داخلين للقواعد للقتال، وهم يُقبض عليهم من قبل المخابرات السورية حتّى دخل في الأخير عدنان عقلة أمير الطليعة وقُبض عليه!

أتمنّى كذلك أن يُكتب من هذه الصور ما اسمه ذكرته مرّة وهو صاحب حادثة الجيب الشهيرة، هذا رجل زعم أنّه هرب من المخابرات المصرية، وأقام في لبنان وأقام في سوريا وأقام في الأردن، وغيّر ثلاث قيادات في لبنان وسوريا والأردن غيّرها هو! غيّر القيادة في لبنان وغيّر القيادة لمصطفى السباعي في سوريا وغيّر القيادة في الأردن من الشيخ أبو قورة إلى أبي ماجد، هذا ليس اتّهام لهم ولكن أنا أتكلم عن الواقع، هو الّذي غيّرهم وقصّته مشهورة. وبعد أن انتهت مهمّته رجع إلى مصر، وهو الذي شهد على النّاس وكان ضابطًا مصريًا، ضابط مخابرات مصري. مثل هذه الأمور ستتكرّر وستبقى قائمة والله سبحانه وتعالى العاصم. جزاكم الله خيرا وبارك الله فيكم.

والموضوع اليوم بلا شكّ ليس هو على وفق ما ينبغي أن تُشرح له البروتوكولات؛ لأنّني لما قرأت البروتوكولات رأيت فيها السذاجة لما نعيشه اليوم. وأعتقد أنّ البقاء على قضيّة أنّها حقّ أو غير حقّ، قالها اليهود أو لم يقولوها مسألة فرعية؛ لأنّي أعتقد أنّ اليهود قد كتبوها، وأنها تبيّن طريقة اليهود العامّة في قضيّة الجاسوسية وقضيّة تخريب الأمم وقضية السيطرة على القيادات، قضيّة إنشاء الدخول مع الأقوياء، قضيّة تخريب الأديان وتخريب القيم ما زالت قائمة، **ولكن البحث دائمًا عن الأدوات في تطبيق هذا. هذا ما يهمّنا وينبغي أن نراعيه وأن نراه وأن نتعلّمه.**

الكتاب القادم الإخوة طلبوا كثيرا أن نتفرّغ جلسة أو جلستين للأستاذ محمد قطب، فإن شاء الله اللقاء القادم هو كتاب واقعنا المعاصر للأستاذ محمد قطب رحمه الله.

الأسئلة

- **شيخنا بالنسبة لبرتوكولات حكماء صهيون إذا قرأها نقفز فوق الفكرة ونأخذ الفكرة الأساسية.**

الشيخ: نعم نقفز فوق الإحداثيات وتبقى القضيّة القاعدة القائمة أنّ اليهود هذا هو معتقدهم. هذا ليس سرّا أنّ اليهود يؤمنون بالسيطرة على العالم، وأنّهم شعب الله المختار وأنّ ثنائية الضعف والعقيدة الكاملة ستبقى كامنة وحلّها عن طريق الخداع والمكر والتحالف مع الأقوياء إلى غير ذلك، هذا سيبقى دائمًا وسيتكرّر. كيف صورته؟ بالنظر كيف الأقوياء، من هم الأقوياء؟ كيف تُشترى الذمم؟ هم عندهم المال. يعني مثلًا عندنا صورة قديمة: ألم يحاولوا شراء عبد الحميد سلطان الله يرحمه؟ سلطان عبد الحميد كان عنده دين. أما الّذي ليس عنده دين؟! ليس بالضروري أن يكون ذهبًا، يقدموا له امرأة، وهكذا. عندنا صور كثيرة من تعامل اليهود مع النّاس. والتاريخ شاهد على هذا، التاريخ المعاصر.

يعني هناك دراسة قديمًا قضيّة العائلة، تذكر اعتقاد خورشيد أنّ عبد الناصر يهودي. وفي أكثر من موطن ارجع إليها، محمد نجيب يعتقد أنّ عبد الناصر يهودي.

الآن أنت ترى قبل مدّة وموجودة في اليوتيوب ارجع إلى السيسي يقول: أنا نشأت في حارة اليهود! حتّى لو لم يكن يهوديًا ولم يتعامل مع اليهود. العائلات الساقطة التي لا قيمة لها إذا وُعد، يعني الآن النصيريون في بلاد الشام يُعرف عنهم أنّهم كانوا يبيعون بناتهم! فمثل هذا يصبح حاكما لا بدّ من التحالف، فإذا جيء له بالمال، وجيء له بالملك، وجيء له بالسلطان، يبيع أمّته، ويبيع أمّه، ويبيع نفسه!

وهنا أنبّه إلى نقطة يجب أن نأتي إليها وأنا أرجو أن تفهموها: كلّ المجتمعات فيها خصومات وفيها خيانات، واليهود فيهم خيانات، وفيهم خصومات وفيهم مشاكل وفيهم أخطاء وفيهم أكاذيب، وبينهم حروب، والله –عزَّ وجلَّ– يقول: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}، لا يوجد دولة في العالم فيها أحزاب أكثر من إسرائيل يعادل عدد شعبها والخصومات كبيرة جدّا بينهم وعميقة. يعني دائمًا نحن نتصوّر اليهود أنّهم كتلة واحدة، والغرب كتلة واحدة، هذا كلّه من الخداع!

هذه نقطة.

النقطة الّتي كنت أريد أن آتي إليها وهي أنّ ونحن صغار كنّا نتصوّر أنّه لا يخرج في التلفزيون إلا العظماء والكبار، لم نكن نتصور أنّ هؤلاء الّذين يجلسون في التلفزيون ويتكلّمون برقيّ عالي وبكلام منمّق وذكيّ وأديب أن يكون وراء الكاميرا من أسفل خلق الله. واحد مستشار لبلير وهذا ذكيّ جدًا، حتّى يعتبرون أنّ بلير هو ظلّ صناعته الإعلامية التي يقودها. هذا ألّف كتابًا عن حياته مع بلير، صارت خصومة وأقصي بسبب مشاكل لكن عاش حوالي اثنا عشر سنة مع بلير. فهو الذي أشار إلى بلير قال: بلير متديّن ولكن كاثوليكي لا يؤمن بالبروتستانتية، فمرّ بجانب كنيسة ودخل فيها قال له: إذا أردت أن تنجح في الانتخابات لا تمرّ بجانب كنيسة لا أن تدخل!، وبقي صابرًا بلير على هذا حتى استقال. فلمّا استقال يمكن خلال أسبوع أو أكثر قليلًا، وإذا هو في الفاتيكان وتكثلك صار كاثوليكيًا.

يقول يوجد هناك "شيف" طبّاخ في بريطانيا في الـBBC وغيرها، هذا يستخدم الحرف القذر F بين كلّ كلمة مرّتين. فالنّاس في بريطانيا لا يعرفون أحدًا في الدنيا يستخدم هذه الكلمة كما يستخدمها هو، يعني يقول له فلان F، اعمل كذا F، يعني يستخدمها بطريقة غريبة جدا. هو يقول هذا يقول لا أعرف أحدًا في الدنيا يستخدم هذا الحرف كما يستخدمه بلير. يعني هذا طلع الطباخ صبيّ عنده. هذه صورة.

الصورة الثانية وهي أنّ توني بلير كان قد عقد تحالفًا مع غولدون برون، الّذي هو عقليًا أكثر ذكاءً لكن سياسيًا ذاك أكثر دهاءً. ولم يكمل الرئاسة. يقول ستّ سنوات، العالم يرى رئيس الوزراء ونائبه، هناك أعظم شخصية بعد رئيس الوزراء هو وزير المالية. نحن نراهم في التلفزيون يجلسون مع بعضهم البعض ويخرجون مع بعضهم يتجولون وفي الأسواق ويتكلّمون، قال ستّ سنوات لم يحدث قط أن سلّم أحدهما على الآخر! ستّ سنوات ما تحدّثا ولا كلمة مباشرة مع بعضهم البعض!

أنا أريد أن أقول بهذا، أنّنا نظنّ أنّ الآخرين جماعة مرتبّين يجلسوا يقولوا هيا يا شيخ فلان حضّر لنا بحثًا، وأنت البحث الفلاني ويجلسوا على طاولة مستديرة وكلّ واحد يقدم أفكاره بعبقرية متناهية ودراسات رائعة؛ وبالتّالي يخرجوا بقرارات مهمة، هذا كلام كلّه كلام أفلام لا قيمة له!

كولن باول لما قيل له: كيف دخلت العراق، قال: دخلت بعد ضربة سبتمبر، ذاهبون إلى البيت الأبيض حتّى نناقش ماذا نفعل مع أفغانستان؛ لأجل قضيّة بن لادن، قال: أول ما دخلت وجدتهم يقولون نريد غزو العراق! قال: دخلت وإذا القرار

موجود وانتهى. لذلك تصوّرنا كيف يُدار العالم أنّه يُدار بذكاء وأنّهم جالسين -وأنا قلت لكم كيف صُنعت الحدود العربية؟ بقلم رصاص رخيص، تشرشل سكران يدخّن سيجارا وجالس يخطّ حدود العالم.

لا تحتقروا أنفسكم، العالم أكثر قذارة ممّا تظنّون، العالم أكثر فساد ممّا نظنّ. لكن الفرق نحن لا يوجد عندنا أوراق وعندنا الطغاة وممنوع نتكلّم، والّذي يتكلّم مصيره إلى السجن والذي يفكر يذهب وراء الشمس، هذا هو الحال فقط، وإلا لو تُركت الأمّة!!

يا رجل عبد القادر الحسيني، حتّى تعرفوا كيف قامت إسرائيل، أكذوبة، لا أعني أنّهم لم يضحّوا، أنا قلت لكم أنّ عشرات الآلاف ماتوا في البحر من أجل سوْق اليهود، وبعضهم أُجبروا إجبارًا وبالقوّة حُملوا ورموا فلسطين لليهود. عبد القادر الحسيني لما أنشأ جيش الإنقاذ فيحتاج إلى سلاح فقط، فأرسل رسائل واستخدم بعض النفوذ عن طريق الحاجّ الأمير، أنا فقط الذي أحتاجه منكم السلاح، فقالوا له: تعال. اقرؤوا القصة موجودة في النت، قصّة الرماوي في رحلة عبد القادر الحسيني إلى دمشق، راح وجالسين وزراء الدفاع قالوا له: ماذا تريد قال لهم: كلمة أنا ما أريد منكم الرجال، هو مكوّن جيش الإنقاذ والكذب والدجل إلى آخره، فقط أعطوني سلاح وإذا سقطت فلسطين لكم الحقّ أن تشنقوني في أقرب مسجد -كانوا قديمًا يشنقون الناس أمام الجوامع-. فيحكي الرماوي القصة فجعلوا يستهزؤون به ويضحكون عليه؛ لأنّهم وزراء دفاع ورؤساء هيئات الأركان الّذين تعرفونهم صدورهم مليئة بالنياشين من كثرة ما خاضوا من الحروب وانتصروا فيها ما شاء الله!! فبدؤوا يستهزؤون به، قال: فذهبنا إلى الفندق، قال: غدا سنرجع إلى فلسطين، قالوا: أنت تذهب إلى الموت قال: أن أذهب فأموت خير من أن أعيش خائنًا.

المشكلة عندنا هي تقييد الأمة، وليس عدم فعاليتها، تفريغ الأمّة من طاقاتها، وليس عدم وجود طاقات لدى الأمّة، عدم إعطائها مجال لتصنع، لتعمل، وإلا ما الّذي يحمي اليهود؟ تُكتشف عمليات من قبل العرب ضدّ اليهود من قبل المخابرات العربية أكثر ممّا يكتشف اليهود أنفسهم!

على فكرة أنا لا أحبّ -وهذه ينبغي أن تذكر فهي مهمّة- **لا يجوز لنا أن نعظّم اليهود**. فقط نحن نعظّم تعاستنا وبلاءنا فيما نحن فيه، هذا هو الواقع. وإلّا فاليهود وغيرهم لا شيء. لا يعني أنّنا نقاتل أشباحًا لأنّه لما قامت حرب ثلاثة وسبعين على ما أرادها أصحابها أنور وحافظ، وُجدت الدبابات مدّ نيكسون وقتها جسرًا من أمريكا إلى تلّ أبيب، سلاح كامل، فأنت في

الحقيقة تحارب العالم. لكن مع ذلك في النهاية هي أرضك، لا يستطيعون هزيمتك. في النهاية أنت الذي ستنتصر، وينتصروا لوقت. لو بقيت الأمّة حيّة، وبقيت الأمور من غير وجود منافقين يحكموننا ويقيّدوننا ويقتلوننا فحينئذ الوقت لنا والزمن لنا ليس لهم. الجسم الصحّي وأمّتنا جسم صحيّ ليس فيها قابلية الاستعمار. أمّتنا ليس فيها قابلية الاستعمار وأخطأ فيها مالك بن نبيّ خطئًا كبير، فيها عملاء موجودون وخبثاء لكن الأغلب افتح المجال وانظر ماذا يحصل!

يعني واحد الآن ممكن بروتوكولات حكماء صهيون في بداية الكلام بعضهم نفاها؛ لأنّها تعظّم اليهود وأنّهم يصنعون العالم وأنّهم كذا، هم يريدون تطبيق عقيدتهم، لكن على واقع الأمر يا سيدي قيل لكسينجر: أنتم مصالحكم مع العرب، هم الأسواق، هم النفط، هم الأموال، وفي النهاية تذهبون لليهود! بالرغم معروف أنّ كيسنجر يهودي بولندي. فقال: نحن الّذي تتكلّمونه أنتم في الصحافة، لا يتكلّمه رؤساء العرب حينما نسمعهم.

- **السائل: شيخنا وضع بعض العلوم الّتي تخدم أو تقارب الناس من ديانة اليهود مثل سيجموند فرويد مثل داروين ومثل علم الاجتماع أوّل لمّا وضعوه على تهذيب الأسر.**

الشيخ: لا شكّ أنّي مع الأستاذ محمد قطب، بل أنا تلميذ له وليس معه يعني، عندما قال: نعم! إنّ داروين لم يصل، داروين ليس يهوديًا وهذا من طرق الاستغلال والذكاء، داروين عندما وضع نظريته أنّ الإنسان قرد وحيوان وكذا، لم يكن يريد ما أراده الّذين أخذوا النظرية فاستفادوا منها وحوّلوها إلى مذاهب سياسية ومذاهب نفسية ومذاهب اجتماعية؛ من أجل إفساد الإنسان. نحن قلنا عبد الله بن سبأ اليهودي نموذج. نحن نرى بولس، دراسات الصحيحة أنّ شارول اليهودي هو الّذي صار بولس وغيّر للنصرانية، فطرق تغيير الأديان موجودة.

والذي درس مثلًا محمد شحرور، هناك أخ سوري كتب كتابًا عن محمد شحرور وعن محمد أركون الباحث الجزائري المشهور، هو يقول بأنّ محمد أركون له أصول يهودية. فيمكن هذا، بل يقع، وتغيير الأديان وتحريفها والكتابة فيها على أسس تخدم مصالح اليهود هذا موجود. هم يريدون تدمير الأديان من داخلها، وتفجيرها من داخلها. وهناك من السذّج من يمشي ورائهم، وليس كذلك هو لكن يرى أنّ الإسلام ينبغي أن يُفجّر من داخله وأن يُغيّر وأن يُبدّل، موجود هذا.

- **سؤال: يعني لو عكسنا الصورة تفجيرهم هم من الداخل، ممكن نلعب على لعبة المذاهب عندهم تناقضاتهم.**

الشيخ: هذا السؤال كان حاضرًا طوال النهار في ذهني للإجابة عليه؛ لكنّي وجدته كبيرًا يحتاج إلى درس مستقلّ، لأنّ في الحقيقة هذا السؤال هو جزء من منظومة موجودة في داخل الفكر الذي لا يُطبّق. إحدى الأفكار الّتي لا تُطبّق في مجتمعاتنا، ولكن اتُّخذت طريقًا للجلوس والبطالة والكسل، وهو أنّنا ينبغي أن نعمل عملهم فبالتالي ما فيه عمل فننتظر، هذا كله غلط.

يعني مثلًا ينبغي أن نسيطر على الكونجرس، ينبغي أن نصنع لوبي، ينبغي أن نجني الأموال، ينبغي أن نشتغل مثلهم. هذا الحقيقة إن شاء الله نختار إحدى الأبحاث نقرؤه ونعلّق عليه؛ لأنّ هذه مسألة كبيرة والحقّ في هذا نحن أهل إسلام، نحن أصحاب دعوة، نحن نؤمن بالدّين الذي ينبغي ألّا يأتي إلينا أحد؛ حتّى يسلم وحتّى يصبح طاهرًا، ونحن نؤمن أنّنا نقذف بالحقّ في دينه والحقّ في أسلوبه والحقّ في رجاله، وهو الحقّ في مراحله كلّها من أجل أن يميت الباطل. نحن لا نريد أن نسيطر على العالم، نحن نريد أن نهدي العالم. ولكن نؤمن أنّ هداية العالم ينبغي أن تمرّ عبر السيطرة، والسيطرة لا بدّ أن تتبّع سنّة النبيّ ﷺ، وبالتالي نؤمن أنّ سنّة النبيّ ﷺ هي الطريق الوحيد الخالي من أي دجل وكذب وافتراء وتدمير الإنسان الّذي يوصل للحقيقة. حتّى وُجد في بعض التنظيمات الجهادية كانت هناك ثمّة أسئلة وكنت أواجهها بقوّة لما يقول بعض الناس: لماذا لا نستخدم أساليبهم في تدميرهم كمثال. بعض الناس يريد أن يقول لماذا لا نشتري الحشيش وننشرها في أفرادهم، لماذا لا نتاجر في المخدرات وننشرها في داخل المجتمعات الغربية من أجل أن ندمّرها؟ كلّ هذا باطل؛ لأنّه إفساد لمقصد وجودنا في هذه الحياة. هذه تحتاج إلى شرح طويل ولا بدّ من شرحها ويكفي الآن، وجزاك الله خيرا على فتحها.

- **السائل: هل اليهود جنس قبل أن يكونوا دينا؟ لأنّي كثيرًا ما قابلت في بلاد الغرب مسيحيين ومسلمين لكنّهم يهود، فلمّا أسأله ما هو جنسك؟ يقول: يهودي، وما هو دينك؟ يقول: نصراني.**

الشيخ: بلا شكّ أنّ موسى عليه السلام إنّما بُعث لبني إسرائيل، وبنو إسرائيل هم أبناء يعقوب عليه السلام، وبعد ذلك الأسباط، فالأصل اليهودية انتشر فيه لأنّ الأنبياء السابقون كانوا يرسلون إلى أقوامهم كما في القرآن {أَخَاهُمْ} فيرسلوا إلى أقوامهم. فموسى عليه السلام أُرسل إلى اليهود من أجل أن ينقذهم ممّا هم فيه بعد أن نزلوا إلى مصر {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا}، علّق ابن كثير عليها أنّهم دخلوا الدين مع اضطراب لسبب سيطرة الملك، وهذه تدلّنا على أنّ الأنبياء يأتون بالفقراء من أجل أن يتّبعهم الصادقون وليس لمجرد الإتيان من أجل الشهوات، ومن هنا ينشأ النفاق بعد غلبة الإسلام وانتشار المال فيه والقوّة فيه.

فموسى عليه السلام جاء لبني إسرائيل، فهذا الدين اليهودي كان لهم، فهم قبيلة فنقول بنو إسرائيل، وإسرائيل يعني هو عبد الله. فكرة عربية، حتّى العرب يقولون إيل، كما قال أبو بكر –رضي الله تعالى عنه– لما طلبوا منه أن يسمعوه قرآن مسيلمة، قال: هذا كلام لا يخرج من إيل. إيل يعني إله. وإسر من الأسر، الأسر هو العبد، فهو عبد الله. مثل جبرائيل من الجبر القوة، جبرائيل يعني قوة الله أو عبد الجبار.

فهذا هو الأصل. لكن هل تهوّد أقوام آخرون؟ نعم، الدراسات تقول أنّ عامّة اليهود اليوم هم يهود الخزر، البحر الأسود، وهم ليسوا من نسل يعقوب عليه السلام بل هؤلاء الفلاشا "وهم يهود الحبشة" فهؤلاء إلى الآن لا يُعترف بهم، الحاخام الأكبر في دولة إسرائيل يرفض أن يتلوا الصلوات عند الممات على الفلاشا يعتبر أنّهم ليسوا من اليهود الأصفياء. فيوجد هناك من بني إسرائيل وهناك من غيرهم ممن تهوّد من غير بني إسرائيل.

- **سؤال: في إحدى الدروس قلتم إن إسرائيل ستسقط لكن ليس على يد المسلمين.**

الشيخ: إذا جلسنا يومًا نتحدّث عن تفسير سورة الإسراء كما شرحتها ومشهورة هي في النت، نبيّن أنّ الغرب قادم. أنا أؤمن أننا سُنغزى غزوًا جديدًا، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

- **سؤال: سنغزو أم نغزى؟**

الشيخ: سنُغزى لازال مبّكرا على أن نغزو.

- **سؤال: الميثوديست هي نفس حزام التوراة؟**

الشيخ: لا، هي ديانة نصرانية، إحدى أقسام الديانات الصغيرة وهي قديمة. حزام التوراة ديانة جديدة بروستانتنية. الميثوديست ليست كذلك، هي قديمة ونشأت في أمريكا ولها جهود قديمة في التبشير. يعني هي موجودة في الأربعينات وقبل الأربعينيات موجودة.

- **سؤال: هل يجوز لأحد أن يمسح رجليْ غيره؟**

الشيخ: يجوز، ما فيه حرج، كالذي يوضّئ غيره وهذا بلا خلاف.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرا. والحمد لله رب العالمين.

[٢٥]

مناقشة كتاب (واقعنا المعاصر) لمحمد قطب

الجلسة الأولى:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيّد المرسلين وإمام المتّقين، حبيبنا وإمامنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرّ الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإيّاكم منهم، آمين.

أهلًا وسهلًا بكم أيّها الإخوة الأحبّة في مناقشة جديدة لكتاب جديد، والكتاب الّذي بين أيدينا هو كتاب الأستاذ محمد قطب -رحمه الله-: (واقعنا المعاصر).

ابتداءً أريد أن أنوّه على نقطة مهمة: الأفكار تعيش أزمتها، وكذلك في داخل الأديان القادة يعيشون هذه الأزمة، وهي قضيّة التزام الداعي بما يدعو إليه.

أنتم تعرفون أنّ قضيّة الالتزام هي قضيّة مشكلة في داخل الإسلام نفسه، ومن هنا فإنّ اهتمام القرآن بالتزام الإنسان بما يدعو إليه، وأنّ صورة العالم هي الصورة نفسها الّتي تقابل العامل، فلا يوجد انفصال بين العلم والعمل؛ ومن هنا ألّف الإمام الخطيب البغدادي -رحمه الله- كتابًا سمّاه: (اقتضاء العلم العمل)، بمعنى أنّه لا يمكن أن يكون للمرء عالما في ديننا حتى يكون عاملًا، وكلّما خان المرءُ في سلوكه كلّما كانت هذه خيانة لعلمه. وكلّما التزم بعلمه عملًا كلّما كان هذا الالتزام دليلًا على صدق العلم الّذي يدعو إليه.

النّاس ربّما ليسوا على مرتبة واحدة في فهم الدعوة، أيّ دعوة، أيّ طريقة، لكنّهم يستطيعون تمثّل هذه الطريقة وهذه الدعوة من خلال شخوص رجالها. كلّما كان الرجل ملتزمًا بدعوته كلّما كانت دعوته أدعى للقبول، وكان مظهره ممثّلًا لهذه الدعوة، وكان سلوكه هو الظلّ الّذي يمثّل حقيقة قيام هذا الفكر على وجهه الصحيح.

هذه القضيّة وهي التزام المثقّف في ديننا التزام العالم بعلمه، ولكن في عالم الأدب ينبغي أن نتحدّث عن التزام المثقّف: المثقّف الملتزم. فهذه القضيّة في داخل الفكر الفلسفي لها انفصامها، يعني يوجد انفصام شديد في داخل الفلسفة وفي داخل عالم

الأفكار بين المثقّف وبين ثقافته. وأكثر من دعا إلى تكوين المثقّف الملتزم هو اليسار. ومن هنا يوجد مثلًا إدورد سعيد له كتاب اسمه (المثقّف الملتزم)؛ لأنّه كان يرى بأنّ التزام المثقّفين لأفكارهم هشٌ. واليسار رجيس دوبريه في كتابه (ثورة في الثورة) لمح إلى القضية المثقّف الملتزم، المثقّف الّذي يلتزم لدرجة الفناء لأفكاره وأن يموت من أجلها. وهذا في عالم الأفكار الفصام موجود، ونحن نرى بأنّ المثقّفين المعاصرين ممن يدّعون المدافعة عن الشعوب، والوقوف أمام الظلم، والمعاندين للطواغيت، رأيناهم كيف انهاروا تمامًا أمام السلطة الحاكمة، كيف دخلوا في الحظيرة كما عبّر أحد وزراء الإعلام قال: أدخلتُ المثقّفين في الحظيرة. اشتراهم! المثقّفون دخلوا في الحظيرة، صاروا مجرّد أبواق.

الصحفيون أبواق للسلطة، الأدباء أبواق للسلطة، الشعراء أبواق للسلطة. هذا جليٌّ لا يستطيع أحد أن ينكره؛ لأنّه بيّنٌ وواضحٌ في حياة الناس؛ وذلك لقدرة السلطة على التغوّل، السلطة نفسها النظم في تاريخ البشرية عندها عقدة التغوّل، أن تصبح سرطانًا يلتهم كلّ من أمامه، ويأخذ كلّ من أمامه، ويدخل في جوفه الجميع. فيصبح هذا مجرّد سحرة فرعون، يصبح هذا المثقّف الأديب، الشاعر، الصحفي، المؤرّخ يكتب تاريخًا مزوّرًا موافقة للسلطة.

فهذا فصام في داخل الصفّ الإسلامي جاء القرآن بوصف بلعام بن باعوراء، في وصف هذا العالم الذي حُمّل {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ}، فلم يلتزم.

هذه المقدّمة مهمّة جدًّا؛ لأنّنا سنتحدّث عن مثقّف: الأستاذ محمّد قطب مثقّف، وكان ملتزمًا؛ وبالتالي هذا الالتزام ترجمه إلى حالة من العمل، حالة من الفكر، حالة من المتابعة، وحالة من الإنتاج الغزير. أوّل شروط الالتزام هو عدم هجران المعركة؛ لأنّ هجران المفكّر لمعركته الفكرية كانسحاب المقاتل من أرض المعركة وهذا فرار من الزحف! يعني البعض يقول أنا اكتشفت الحقيقة والعالم لا يسمع أريد أن أنعزل، أجلس، وأترك الناس وما هم فيه. في الحقيقة هذه صورة الخذلان لحقيقة العلم الّذي يعلمه، سواء كان بالمفهوم الإسلامي: عدم التزام العالم بعلمه، أو بالمفهوم الثقافي: عدم التزام المثقّف بموقفه. الموقف صحيح.

فالأستاذ محمّد قطب يُعدّ صورةً حقيقية ونموذجية للمثقّف الملتزم.

فقط هنا نقطة أريد أن أنوّه عليها: وهي قضيّة الفصام بين المثقّف وبين الفقيه، أو بين المفكّر وبين الفقيه. أمثّل بكلمة للشيخ عليّ الطنطاوي، الشيخ علي الطنطاوي فقيه حنفي، وكان قاضيًا في محكمة شرعية. يعني الآن قليل من يعرف أنّ الشيخ علي الطنطاوي كان فقيهًا حنفيًا وكان قاضيًا شرعيًا، لكنّه دخل في المجال الأدبي، وكان يراسل مجلة "الرسالة" المشهورة للزيّات،

ودخل في معامع الحروب والمعارك الثقافية والأدبية. كان مناصرًا للرافعي ضدّ المدرسة الأخرى، وله ردود شهيرة على سيّد قطب -رحمه الله- لما سيّد قطب شنَّ حربًا غير محترمة في فترة من فترات حياته قبل الالتزام ضدّ الرافعي بعد وفاته؛ ذلك لأنّ سيّد قطب كان من مدرسة العقّاد. وبين العقّاد وبين الرافعي بون شاسع، سواء كان في المدرسة أو في الالتزام. العقّاد المعروف عنه في الحقيقة أنّه كان ملحدًا لا يؤمن بدين، وكان يقيم صالونه الفكري يوم الجمعة، وقت صلاة الجمعة! كان هناك صالونات فكرية —وهي بدعة حسنة- في داخل البيوت للمثقّفين الأثرياء، فينشؤونها للحضور النقاش، ويصبح لها صدى واسع.

فكان صالون العقّاد يقوم وقت صلاة الجمعة! أي بديلًا عن صلاة الجمعة، ولم يكن ملتزمًا. وكان مصطفى صادق الرافعي يمثّل الصوت الإسلامي المجلجل في الحقيقة. فبعد وفاته قام —هذا فقط من أجل أن أصل إلى نقطة، ليس المقصود هذا، ولكن هذه هوامش تلقي بظلالها الحسنة على الفكرة نفسها-. فبعد وفاة الأستاذ الرافعي شنَّ سيّد قطب حربًا غير محترمة ضدّ الرافعي بعد وفاته؛ فالّذي انبرى له بصوت مجلجل في الحقيقة هو الشيخ علي الطنطاوي. الشيخ علي الطنطاوي كان يتأسّى ويتأسّف على أنّه عند الفقهاء يُعدّ مثقّفًا، وعند المثقّفين يُعدّ شيخًا فقيهًا؛ فهو المسكين ضاع بين بين، لم يقبله المثقّفون ولم يقبله الفقهاء فلم يُعرف. أين تريد أن تضع الأستاذ علي الطنطاوي؟ تقول أستاذ أم شيخ؟! فتضيع بينهما. فيمكن هذا أن يقع للمرء.

لماذا أقول هذا؟ لأنّ الأستاذ محمّد قطب -يعني هل تريد أن تأخذ هذه الشخصية وأن تقول هي شخصية المثقّف، والّتي هي في حسّ الناس رغم أنوفنا ورغم أن هذا فصام نكد بين المثقف والفقيه، بين المفكّر والفقيه؛ لأنّه لا يمكن أن ينتج المرء فكرًا إسلاميًا صحيحًا حتى يكون مثقّفًا، وحتى يكون كذلك فوق المثقّف: حتّى يكون فقيهًا. يعني المرء بعد الفقه وبعد فهمه لشريعة الإسلام ينتج فكرًا، ولا يمكن للمرء أن يكون مفكّرًا حتّى يكون فقيهًا؛ لأنّ الفقه هو الحدود التي تضبط حركة فكره، وإلّا بعد ذلك يخرج. فهذا فصام لكن موجود رغم أنوفنا والواقع يفرضه. كما وقع تاريخيًا الفصام بين المحدّث والفقيه، وهذه حالة تكلّم عنها العلماء. ابن الجوزي ذكرها، وذكر وجود الفصام في مقدّمة كتابه (الموضوعات): الفصام بين الفقيه وبين المحدّث. صار هناك فقهاء ولكن لا يعرفون في الحديث! وكذلك تحدّث عن محدّثين ليس لهم خبرة بالفقه! والّذي تكلّم عنه ابن الجوزي تكلّم فيه كذلك ابن رجب، وكذلك تكلّم فيه أبو عمر بن عبد البر، وتكلّم فيه ابن القيم. فهذا فصام غير مقبول ولكنّه واقع. يعني موجود رغم أنوفنا، أنّ هناك رجلا له خبرة في الحديث فإذا سُئل في الفقه لا يفهم ولا يدري، يتحدث عن علل الحديث عن الرجال، عن تصحيح الأحاديث، لكن لو سُئل في حديث ماذا يقول فيه العلماء فقهًا، كيف اختلفوا فيه دراية، فلا يستطيع أن يجيب.

وهناك فقيه يمكن أن يتحدّث لك عن خلاف الفقهاء، هذه المسألة يقول الشافعي فيها كذا وهذه كذا ودليلهم كذا، ولكنه إذا سُئل عن الحديث لا يستطيع أن يجيب. وقد ذكر رسالةً من الرسائل المجيدة في تاريخنا: رسالة وجّهها البيهقي -رحمه الله- لأبي محمد الجويني والد أبي المعالي صاحب القياس وغيره؛ وذلك لأنّه أراد أن يكتب كتابًا موسعًا في الفقه الشافعي، وأوّل حديث استشهد به: نسبه للبخاري وهو موضوع! فقيه من أئمة الشافعية لا يعرف الفرق بين الحديث الّذي في البخاري وبين الحديث الموضوع! ووجّه البيهقي باعتباره محدثًا وجّه لأبي محمد الجويني يعني يذكّره بأنّ هذا الحديث موضوع، وهو حديث الماء المشمّس، فهو حديث موضوع. فيوجد فصام. كذلك في هذا العصر يوجد فصام بين المثقّف -أي المفكّر- وبين الفقيه.

فواقع الأمر أنت إذا أردت أن تقيّم الأستاذ محمّد قطب ما هو؟ هل هو فقيه؟ بمعنى أنّه يستطيع أن يذهب إلى كتب الفقه ويعرف أدلّتها، وقرأ في الحديث، ويعرف أصوله، ويستطيع أن ينظر في الأحاديث؟ الإنتاج لا يسعفنا بالجواب، وعدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود. لكنّه لا شكّ أنّه في ثقافته الّتي يتحدّث بها في ألقها وفي صورتها تنبئ وتكشف أنّه كان فقيهًا. يعني لا يتحدّث عن مسائل الأحكام من فراغ، بل يتحدّث عن معرفة. مثلًا عندما يتحدث الأستاذ محمّد قطب عن الفرق، يتحدث عن المرجئة؛ فهذا يدلّ على أنّه يعرف الفرق، يعرف ما هو الإرجاء، يعرف ما هو الخارجية، يعرف الأصول الدقيقة.

لأنّ المرجئة في هذا العصر الّذي نعيش فيه ليسوا هم المرجئة الغلاة، وليسوا المرجئة الجهمية الّذين ذهبوا، بل عندنا هنا إرجاء دقيق، وهو أقرب ما يكون لإرجاء الفقهاء. وهذا لا يبصره بعض مشايخ الفقه ولا مشايخ العقيدة. يعني نتحدّث عن الشيخ ناصر الألباني -رحمه الله- بأنّه على هذه الطريقة، بأنّه على طريقة الإرجاء، وهو رجل مشهور في دعوته إلى الكتاب والسنة ودعوته إلى عقيدة السلف؛ ومع ذلك هو لا يميّز بين المرجئة وبين أهل السنة في بعض المسائل الدقيقة، كقوله بأن العمل هو شرط كمال وليس شرط صحّة، هذه من المسائل الدقيقة.

وهناك الكثير الآن ممن يزعم الانتساب للسلفية وللسنة لا يعرفون هذه العقائد. الأستاذ محمّد قطب دقيق في هذا، ومبصر لهذه المسألة؛ ومع ذلك إذا أردت أن تضعه من أصحاب البصيرة في موضوع الاعتقاد لوجدته أفهم ممن يتسمّى باسم الفقه أو يتسمى باسمه الداعية للعقيدة السلفية. لكنه على الجملة لو قيل هذا رأي للأستاذ محمّد قطب لعدّه الناس رأي مثقّف! ورأي المثقّف في المسائل الفقيهة لا يُطرح. حتّى يخرج شيخ له صورة معيّنة وهيئة معيّنة وبزّة معيّنة، وطريقة معيّنة ليتكلّم في الفقه فيُقبل منه قوله.

إذًا أوّلًا نستطيع أن نضع الأستاذ محمّد قطب؛ لأنّه أوّلًا من المثقفين وأنا علّقت على المثقفين بما يكفي الآن حتى لا يُظنّ أن هذا من التصغير؛ لأنّ الثقافة في تاريخنا تعني التدقيق والاختيار العلمي الدقيق؛ لأنّها مأخوذة من الثقافة، وثقف الرمح أي تهيّأ للعمل. يعني اشتغل فيه صاحبه، جاء بالخشبة وحدّدها ووضع لها الحديدة وجعلها جاهزة لعملها، فهذه الثقافة. إذًا الثقافة التزام، الثقافة تدقيق، الثقافة رُقيّ. ومن ذلك كذلك كلمة الأدب. لما تقول الأدب، ما معنى الأدب؟ لأنّك لو أخرجتها من مفهوم الثقافة لوجدتها التزام، سلوك. فترى أنّ كلمة الثقافة هي كلمة تعني -يعني واحد يقول نجّر حالك، خليك منجّر. تُستخدم إلى الآن، يقول: والله "بدّك" "تنجير" يا رجل. يعني "بدّه" تثقيف، يعني "بدّه" فارة تشتغل عليه، وشاكوش يضربه، وسكينة تحدّه. الثقافة هي كذلك. هي عملية إنتاج.

الأدب هي عملية تربوية؛ فعندما نتكلّم عن مثقّف لا ينبغي أن نستسهلها، علينا ألّا نستسهل هذه الكلمة في عرفنا العربي وفي عرف تاريخنا. والأستاذ الرافعي للذكر في كتابه (تاريخ الأدب العربي) عاد ملتقطًا استخدام القدماء لكلمة "الأديب". ارجعوا إلى المجلّد الأول، ومشهور كتابه الّذي أنتج منه جزأين قبل وفاته، وجُمع الجزء الثالث بعد وفاته، كان عبارة عن مجموعة أوراق في بيته، وأصدره تلميذه سعيد العريان. فهذا كتاب (تاريخ الأدب العربي) عندما طُلب من الجامعة المصرية مسابقة طلبت من المثقفين أن يكتبوا مسابقة في الأدب العربي له قصّة لا أريد أن أخوض فيها الآن. والقصد من هذا أنّه أعاد قراءة كلمة الأديب، وأنّها تعني في حسّ الأقدمين حالة من الرُّقي النفسي، وحالة من الرُّقيّ العقلي. وليست كما تُطلق اليوم! اليوم تُطلق على من يقرأ الجرائد يُقال له مثقّف! وتجده لا يعرف شيئًا في النحو ويُقال له مثقّف! وهذا كذب على هذه الكلمة وافتراء عليها.

فإذًا لما نقول نحن الأستاذ محمّد قطب نموذج للمثقّف هذه رفعة، كما في كلمة "الأستاذ". أنتم تعرفون أنّ من العلم الذي يُجهل أنّ أبا حامد الغزالي كان يتمنّى أن يُطلق عليه لقب "الأستاذ"؛ لأنّها كانت خاصة هذه الكلمة بالأئمة الكبار، كالأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني. يعني "محدّث" تُطلق على الكثيرين، "الفقيه" تُطلق على الكثيرين، لكن كلمة "الأستاذ" في التاريخ الإسلامي تُطلق على القلّة. فكانت تُطلق مثلًا على أبي إسحاق الإسفراييني كما ذكرنا، وتُطلق على الماوردي. ولكن كان الغزالي مع أنه لُقّب بلقب اختصّ به في التاريخ الإسلامي وهو "حجّة الإسلام" كان يتمنّى أن يُطلق عليه لقب "الأستاذ". أنتم تعرفون هذه إذًا ليست على الصورة المبتذلة الّتي اليوم تُطلق عليها: أستاذ، مثقّف، أديب، إلى آخره. وكذلك

فقيه أو شيخ اليوم يخرج من المعصية مجرّد تربية اللحية يصبح هذا من قبل عائلته وأهل المسجد والنّاس الشيخ فلان. وهكذا كما يُقال أخ اليوم. الألقاب لها قيمتها، لها أهمّيتها في التاريخ الإسلامي.

فنحن نستعير هذا الألق، ونستعير هذا الأمر العظيم في تاريخنا ليُقال على الأستاذ محمّد قطب أنّه مثقّف.

وثانيًا أنّه ملتزم، أول درجة من درجات الأستاذ أنّه متابع دقيق لكل الجوانب الّتي احتاج الإسلام تغطيتها في عصرنا هذا. هذه ميّزة لا يشارك الأستاذ محمد قطب واحد فيها أبدًا. لا يوجد.

يوجد عندنا كبار تكلّموا، ولو استعرضنا من مالك بن نبيّ باعتباره مثقّفًا مسلمًا. لو أخذنا الأستاذ غازي التوبة وسنختار إن شاء الله الكتاب القادم للأستاذ غازي التوبة وهو (الفكر الإسلامي المعاصر)، لو أخذنا الأستاذ سيّد قطب، لو أخذنا أبا الأعلى المودودي، لو أخذنا وحيد الدين خان –بغضّ النظر عن مقدار مرتبة معركته–؛ لوجدنا أنّ الوحيد الذي تكلّم عن كل جوانب معركة الإسلام مع عصرنا؛ لوجدنا الأستاذ محمّد قطب هو الأوّل في هذا. ومن أجمل كتبه عندي ولو خُيّرت لما اخترت (واقعنا المعاصر) واخترت كتابه (الفنّ الإسلامي)، وهذا كتاب من أروع ما يكون. وأنا لا أريد أن أعود للأستاذ محمّد قطب مرّة ثانية ولكن أنصحكم بقراءته؛ فإنه يعطي نظرية للفنّ الإسلامي من أرقى ما تكون. ولا بأس أن أمرّ عليها لأهمّيتها؛ لأنّي أحبّ هذا الكتاب وأحبّ هذا الكلام.

وللذكر هنا: كلمة سريعة لمن يريد عن (واقعنا المعاصر)؛ هذا الكتاب (واقعنا المعاصر) هو خلاصة ما كتبه محمّد قطب في كلّ كتبه. يعني لو قيل لك ما الكتاب الذي لو –على قاعدة الكسالى، أعطني كتابًا واحدًا في التاريخ، أعطني كتابًا واحدًا في النحو. فما فيه كتاب واحد في النحو، لكن مجاراة لمن يسأل هذه الأسئلة "والتنبال تنبال" كما قال أبو الطيب؛ فلو قيل أعطني كتابًا للأستاذ محمد قطب هو جامع لكلّ ما كتب لقلت لك اقرأ (واقعنا المعاصر)، فواقعنا المعاصر أعطى فيه الأستاذ محمد قطب خلاصة ما آمن به.

ممّا قاله –وهذه تجدها كذلك في خاتمة كتاب (واقعنا المعاصر)–، في قوله أنّ الأدب الإسلامي ليس فقط هو الّذي يتحدّث عن الإسلام بالمفهوم الضيّق للوعظ والقصاص. يعني لو أنت سألت واحدًا قلت له قدّم لي مسرحية إسلامية، هذا من الأدب الإسلامي، قدّم مسرحية. تجاوز الجواز وعدم الجواز؛ لأنّ هناك أصلًا خصومة هل يجوز كتابة مسرحية إسلامية، لأنّ هذا من الكذب أنّ واحدا يكتب مسرحية. فبعضهم يرى أن هذا كذب، أنت تنتج شخوصًا لم يقولوا هذا ولم يوجدوا. نريد أن نتجاوز

هذا، لا نريد أن ندخل في هذا الأمر الآن. فكيف تُسمّى هذه مسرحية إسلامية بعد أن تجاوزنا شرعية المسرحية؟ فالحسّ الموجود المعاصر أنّ المسرحية الإسلامية بمعنى أننا نقدّم صورة تربوية مباشرة للوعظ الإسلامي.

لو قيل لأستاذ مدرسة أو لمخرّج: قدّم لي مسرحية إسلامية؛ فورًا يدخل إلى الوعظ المباشر. يعني بمعنى لو أراد أن يتكلّم عن الحجاب سيحضر امرأة محجّبة أو بنتا محجبة مقابل بنت سافرة، ويبدأ الحوار بالطرق التقليدية لموضوع الحجاب، فهذا وعظ مباشر. لو أراد أن يتحدّث عن الصدق نفس الشيء، فالأستاذ محمّد قطب يقول هذا غير صحيح. يقول في كتابه (الفنّ الإسلامي) أن الفنّ الإسلامي الّذي يتحدّث عن الإنسان، فحيث يستطيع الأديب أن يكشف حقيقة الإنسان مع حقيقة المثل الصحيحة فهو فنّ إسلامي.

ويضرب أمثلة على ذلك، وأنا لا أريد أن أذهب إلى الأمثلة الأجنبية الّتي اختارها؛ لأنّها صادمة، لكن نذهب إلى قصيدة لبهاء الدين الأميري مثلًا، وبهاء الدين الأميري معروف أنّه شاعر إسلامي ملتزم. لكن هو لا يذهب إلى قصيدة وعظية مباشرة تتحدّث عن الأشواق لأنّ له ديوان شعري فيه مناجاة لله، فالإسلامي صريح وواضح. لكن أن يأتي إلى قصيدة رجل شابّ –يتحدّث عن نفسه بهاء الدين الأميري– ودخل يومًا الفندق فرأى امرأةً تنازعه، دخلنا إلى قصّة يوسف –عليه السلام–؛ فمال إليها وكاد أن يقع في المعصية ثم بدأ الصراع النفسي الحقيقي بين أن يفعل أو لا يفعل. لأنّ صورة الوعظ المباشر أنّه قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أستغفر الله العظيم، وغضّ بصره، هذا الوعظ المباشر. هو يريد أن يتحدّث عن إنسان وقع في هذه المشكلة، وبدأ الصراع الحقيقي في نفسه حول هذه المعصية، يفعل أو لا يفعل، وهذا الصراع انتصر بعد ذلك فيه الإيمان وتقوى الله والخشية والحياء إلى آخره؛ فيقول هذا فنّ إسلامي، هذا أدب إسلامي.

لا أريد أن أستطرد في هذه القاعدة؛ لأنّها في الحقيقة ستكون صادمة لنا. ما الّذي نستطيع أن ندخله في الأدب الإسلامي؟ هل هناك أدب إسلامي؟ هذا سؤال قام ولما تجمّع أناس في تكوين تحالف أو تكوين لجنة لرعاية الأدب الإسلامي، هناك من الإسلاميين الغلاة الّذين أنكروا هذا ومن على رأسهم الأستاذ محمود شاكر. محمود شاكر كان يستهزأ بكلمة "الأدب الإسلامي"، يقول لا يوجد أدب إسلامي، هناك أدب. يعني أين ستضعون الأدب الجاهلي؟! لأنّه ليس أدبًا إسلاميًا نرميه في الشوارع يعني؟ وهكذا كان يستهزأ.

ويذكر القائم على رئاسة الأدب الإسلامي قصّة استهزاء الأستاذ شاكر معه في هذا الباب.

وهذا الكتاب يبيّن أنّه حتّى هذا الجانب ملأه الأستاذ محمد قطب وتكلّم فيه كلامًا، وحاول جاهدًا أن ينشأ نظرية. استيعاب الأستاذ محمّد قطب للمذاهب المعاصرة، له كتاب اسمه (المذاهب المعاصرة). وهو يعترف في كتاب (واقعنا المعاصر) عندما جاء إلى الّذين يريدون منا أن نعتزل الحياة؛ لأنّ هذا الكتاب من ميّزاته -وميّزات ليس معناها أنّها من إيجابياته، ولكن ينبغي أن يُقرأ الكتاب من خلالها- أنّه يعالج حالة إسلامية الناس، وأنا في شكّ أن أقول هذا الكلام-، ولكن هناك حالة إسلامية تجاوزها الإسلاميون، ليس على طريقة أبي الحسن الأشعري. لأبي الحسن الأشعري (مقالات الإسلاميين) يعني المسلمين، لكن لما نقول إسلامي اليوم أي يعمل الإسلام السياسي. لما تقول مسلمين= كلّ أحد، لكن لما تقول الإسلاميين= المقصود بهم الّذين يخوضون غمار العمل الإسلامي وخاصّة السياسي. يعني الّذين لديهم تطلّع للخلافة، تطلّع للحكم، تطلع لصراع الطواغيت، وهكذا.

فهو في وقت من الأوقات نشأت حالة من الارتباك في داخل الصف الإسلامي ونتج عنها ظواهر مَرَضِيَة، منها اعتزال المدارس، واعتزال الجامعات. يعني فكرة اعتزال الناس، العزلة، والابتعاد، ونحن نريد أن نربّي فقط على الدين.

يقول عمر -رضي الله تعالى عنه-: تُنتقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. نحن نقول لا يجوز لك أن تعرف الجاهلية، عليك أن تذهب إلى الصحراء، وإلى الجبال القفار، أو تذهب في داخل المدينة إلى ما يُسمّى العزلة الشعورية. يعني تعيش ولكن كأنّك لا تعيش حياتك، ما الذي يجري في الحياة؟ هذا ليس مهمًّا!

فهو يقول عن نفسه بأن قراءتي لفرويد، قراءتي لدارون، قراءتي للمذاهب الغربية أفهمتني الكثير من الحقائق. وهذه أنا قلتها في فنّ القراءة، وأعدتها، بأنّه لا يمكن إنتاج الصورة الإسلامية الكاملة حتى ترى مواطن الظلال الّتي تلقيها هذه الأضواء الإيمانية. ما الّذي يقابل هذا النوع؟ الظلمة. يجب عليك أن تعرف ما هي الظلمة، ومعرفة دقائق الظلمة. فهذا جانب من الجوانب، وخاصة حين تعرفون أنّ الأستاذ محمّد قطب تخصّصه أدب إنجليزي.

وفقط للذكر الّذي دفعه لدراسة الأدب الإنجليزي هو أخوه؛ لأنّ سيد ولا كلمة إنجليزي. فكان سيد قد ربّى محمّد تربية الأب لابنه؛ لأنّه كبير وبينهما فرق شاسع في العمر؛ فأراد سيّد أن يرى في محمّد ما عجز عنه هو. وهذا عبّر عنه في إحدى المقدمات، سيّد قدّم لمحمّد أوّل كتاب أنتجه محمد قطب وقال فيه هذا الكلام، قال أنا أرى ما عجزت عنه، فرحت أنه يريد أن يعبئ النقص الذي عندي من خلاله؛ لأنّه هو أخي أو ابني أو المنتَج الذي أحب أن أنتسب إليه.

إذًا هو كان واسعًا مذاهب إسلامية معاصرة، جاهلية القرن العشرين، قراءة الواقع باعتباره جاهلية. هذا صاحب موقف، أن يضع المرء عنوانًا لكتاب جاهلية القرن العشرين إذًا هو صاحب التزام، وصاحب قضيّة. يعني لو أنت أخذت هذا الكتاب وقارنته في كتاب محّمد بن عبد الوهاب لوجدته متناسقًا في العنوان، كتاب لمحمّد بن عبد الوهاب اسمه المسائل الّتي عليها الجاهلية، والكتاب موجود، فهو يتحدّث عن جاهلية القرن العشرين، إذًا هو ملتزم.

أريد أن أقول أنّ قراءتنا لمحمد قطب قراءة أشمل من قراءة أخيه، بالرغم أن قراءة سيّد أعمق. كونها أشمل، فاستطاع أن يصل محمد قطب إلى جوانب في فهم الجاهلية وخطوطها الفرعية الدقيقة ما لم يقله سيّد ولم يعرفه، لماذا؟ لقراءته المتسعة، قراءته الغربية، قراءة الأدب، قراءة الثقافة، قراءة الفكر، قراءة المناهج، قراءة المذاهب، فكان وسيعًا في هذا.

ولا يغرّنكم سهولة الأسلوب! بالرغم أن المرء هو وأسلوبه، لأنّي أظّن أن سهولة الأسلوب مقصودة من الأستاذ، وهذه سنمرّ عليها، أنّ سهولة الأسلوب مقصودة؛ ذلك لأنّ الكتابة الأدبية الراقية بالعبارات الفخمة الجزلة لا تصل إلى كل النّاس. وهذه مشكلة حقيقة. يعني الآن أنت لو أحضرت كتب طه حسين -أنا أتكلّم عن الأسلوب- وأحضرت كتب الرافعي، وأعطيتها لطالب الجامعة، على اعتبار أنّ طالب الجامعة هو طالب الإعدادي زمان! فقلت له اقرأ: أنا متأكدّ بعد أن يقرأ صفحتين ثلاثة من الرافعي ويرمي الكتاب، ويقول لك: الله يسعدك أنا جاي أفهم ولا جاي أحلّل الكلام ماذا يريد، يعني جاي أسمع ما يقول ولا أمرّ لأصل لفهم ما يقول، وما هي دعوته، حتى أمرّ على هذه القناطر الكثيرة؛ لأفهم ماذا يريد، قبل أن أؤمن بما يقول عليّ أن أتعلّم ماذا يقول، ماذا يقول في تحليل الكلام الصعب الشاق. وأمّا إذا قرأت ما يكتبه -على الرغم أنّ طريقة كتابة طه حسين متعبة جدًا، لكن أنا أتكلّم عن سهولة العبارة. يعني أن تقرأ فتفهم ما يقول، وبسرعة ومن غير مشقّة.

ولذلك هناك حالات ينبغي أن يكون للشيخ تلميذ يعبّر عنه بلغة تصل إلى أقصى الناس، ومن ذلك الأستاذ محمود شاكر. الأستاذ محمود شاكر كتابته فخمة، جزلة، صعبة، فكان هناك بعض تلاميذه يقومون بهذا الدور مثل أنور الجندي. يعني الحقيقة الكثير من الباحثين يعتبرون أن الأستاذ "أنور الجندي" هو ظلّ الأستاذ شاكر؛ لأنّه يأخذ الفكرة فيصنع بها كتابًا، ويأتي بالأدلة والنقل والمناقشة، والناس يقرؤون لأنور الجندي يفهمون ما يقول. والآن من يقرأ للأستاذ الرافعي، ويقرأ لمحمود شاكر؟ لا يقرأ إلّا المثقّف الذي يستطيع أن يحلّل العبارة الجزلة الفخمة القديمة.

فكون الأستاذ محمّد قطب عبارته سهلة هذه منقبة له، وأظنّ أنّه أرادها، أنّ هذا الكلام يصل للناس، وهو صاحب دعوة، وكما قلنا صاحب التزام، وهذا مهمّ جدًا.

النقطة الّتي أريد أن أصل إليها بعد هذا الكلام عن الأستاذ محمّد قطب وهو أنّه لا يُعلم قضيّة إسلامية ثار حولها الكلام أو صار فيها القتال أو صار فيها النوازل إلّا وتكلّم فيها وألّف فيها كتبًا؛ ولذلك كثرت كتب الأستاذ محمّد قطب الخاصة بالحوادث والنوازل. أفغانستان، ذهب إلى أفغانستان وكتب فيها كتابًا. وفي هذا الكتاب كان صادقًا، وكان صادمًا.

ولما صارت أحداث البوسنة ذهب إلى البوسنة وكتب كتابًا، وزلزل في هذا الكتاب ما قرّره هنا وما قرّره في كلامه عن أفغانستان وهي ضرورة القاعدة الصلبة. حتّى أنا لما تكلّمت عنه في مجموعة مقالات تحت عنوان "نظرة جديدة في الجرح والتعديل" كتبت عن مجموعة من النّاس والجماعات، والأشخاص، والعلماء، فتكلّمت عن الأستاذ محمّد قطب، وقلت بأنّ ما قاله في البوسنة ينسف النظرة الّتي قالها هنا وأشار إليها في كلامه عن أفغانستان وهي ضرورة القاعدة الصلبة.

ومن هنا هذه حقيقة إذا قيل لي أنا –وهي شخصية قد تُقبل أو لا تُقبل وهي مجال للمناقشة– لو قيل لي أين إخفاقات الأستاذ محمّد قطب؟ لقلت: هو فهمه لقضيّة القاعدة الصلبة الّتي موجودة في كثير من عقول المسلمين، هو لا يتحدّث حديثًا فقهيًا هل يجوز أو لا يجوز، هو يتحدث حديث المثقّف، وهذا بقي متسلسلًا في داخله بترك إعطاء الواقع الأحكام، وكأنّه ما زال يعيش مع كتاب (دعاة لا قضاة)، كأنّه ما يزال يعيش فيها، بأنّه لا يريد أن يصف الواقع؛ لأنّه وجد أنّ –أو هكذا ظنّ– أنّ توصيف الواقع توصيفًا فقهيًا سيؤدي بنا إلى التزامات هي خارج سيطرتنا، وربّما في ظنّه أنّها تؤدي إلى شيء من العزلة أو شيء من القسوة مع المجتمع؛ لأنّه وجد واقعًا أنّ الّذين حاولوا ترجمة أفكار سيّد قطب فقهيًا وقعوا في كثير من المنزلقات لا يحبّها فكريًا، لا يستطيع أن يرد عليها فقهيًا، ومنها قضيّة العزلة.

ومن هنا فلا يجوز لنا –وهذه أنبّه عليها وإن شاء الله سنختار كتابًا لسيّد وننبّه على هذه النقطة: كلّ من يحاول أن ينشئ فقهًا فرعيًا وسلوكًا عمليًا، يعني يتعلّق بالتكتيك أو بناء الاستراتيجية لجماعة من خلال فكر سيّد هذا من تمام الانحراف؛ لأنّ سيّد لم يرد هذا ولا يستطيع أن يقّدم هذا.

يُقال بأنّ سيد كان قد طلب من الأستاذ عبد المجيد الشاذلي، وأجابه عبد المجيد الشاذلي في كتابه (حدّ الإسلام وحقيقة الإيمان) وهذا من ضمن القائمة إن شاء الله، أنّ سيّد طلب منه؛ لأنّهما كانا في قضيّة واحدة ويذهبان إلى المحكمة في زنزانة

واحدة، أنّه طلب منه أن يترجم ما كتبه في (الظلال) إلى تأصيل فقهي. يُقال هذا، وأنا سمعتها من أحدهم نسبها إلى الأستاذ عبد الحميد الشاذلي، فقال بأنّه طلب منه أن يترجم ما كتبه في الظلال تأصيلًا فقهيًا وبالتالي أنتج كتاب (حد الإسلام وحقيقة الإيمان).

لكن لو أردت أن تنتج –وهذه قضيّة خطيرة جدًا؛ لأنّه قد وقع فيها الكثير من الناس، لإعجابهم بسيّد ذهبوا من أجل أن يترجموا سيّد كحركة كجماعة، وسيّد لا يستطيع لا هو بمقداره ولا بأسلوب حياته ولم يعان في الجماعات، هو رجل أديب عاش محنة الإسلام باعتباره شعارً عامًا وهو التوحيد: لا إله إلا الله، والحاكمية. وكتب كتابه (الظلال) من خلال ظلال المصطلحات الأربعة في القرآن، ومن خلال رؤيته النفسية، ومن خلال رؤيته الشعورية، ومع أنّ المصطلحات الأربعة فلا يستطيع أن يقدّم تحليلا فقهيا وهذا ليس تقليلًا منه، لكنه ليس فقيهًا، لا يستطيع أحد أن يقول سيد قطب فقيه يستطيع أن يجيب على أسئلة المعاصرة ما هي.

يعني لما يتحدّث سيّد عن قضيّة الجنسية، لما يقول ما هي جنسية المسلم يقول عقيدته، هل هذا جواب فقهي؟ وأنا اضطررت في وقت من الأوقات أن أقول الجنسية ليست كذلك، الجنسية ليست فقط عقيدة هي هجرة وهي بيعة إذا أردت أن تقول بالمفهوم الفقهي. لكن هذه العبارة له هي عبارة أدبية وليست عبارة فقهية، فهذه عبارة أدبية وليست عبارة فقهية، لا يجوز لأحد أن يشتقّ منها فقهًا، ولا يجوز أن يشتق منها أحكامًا، ولا سلوكًا لجماعة.

ولذلك لو قيل لي ما هو الإخفاق لهذا هو محاولة –أنا أعتبر بأنّ النهاية التي أرادها الأستاذ محمّد قطب في كتاب (واقعنا المعاصر) في كيفيّة الخروج من المأزق عمليًا وذلك من خلال إعطاء أحكام صاغها بطريقة أدبية على طريقة المثقّف، أنّه ماذا نقبل من الوظائف، هذه لا يجيب عليها الأديب. عندما يتكلّم عن القاعدة الصلبة، عن قضيّة هجران المجتمعات الجاهلية كما أفرزتها جماعات المسلمين التي سُميت من قبل المخابرات "بجماعة التكفير والهجرة"، وهناك كان في مصر جماعة اسمها "القطبيين" يعني ينتسبون لسيّد قطب، ويحاولون إنتاج سلوك من خلال ما قاله سيّد قطب في (الظلال) فسُمّوا بهذا. ومرّات نُسب الأستاذ محمد قطب لهم، أنّه منهم.

ولذلك من زعمائهم الأستاذ عبد المجيد الشاذلي الذي مُدح كتابه (حد الإسلام وحقيقة الإيمان) وطُبع في جامعة أم القرى بدعم من الأستاذ محمّد قطب.

لعلّنا خلطنا الأمور بطريقة ما ولكنّها تضفي صورة كاملة عن الشخصية، هو شخصية مثقّفة واسعة الاطلاع، كاتبة، ولا يستنكف الأستاذ محمّد قطب عن التراجع، فمثلًا لما كتب كتابه (شبهات حول الإسلام) وكتبه وقال: أنّني لم أكتبه تحت ضغط سلطان الجاهلية، ولكن لمرادي، ولكن العنوان خطأ، وذلك امتثالًا لما قاله سيّد؛ لأن سيد في (معالم في الطريق) نبّه على أن كثيرًا ممّا يُكتب من قبل المسلمين منشأه شعور الضعف والهزيمة أمام الغرب. فندافع عن الإسلام، عمّا يُسبّ به الإسلام، بمنطق الهزيمة.

يعني الكلام عن المرأة والشبهات الّتي ثارت، الكلام عن الرقّ، الكلام عن تحرير الربا، الكلام عن الديكتاتورية وعدم الشورة، فهذه المسائل الكثير منها كُتب من قبل بعض الكتّاب بنفسية المنهزم. يعني كأنّ النموذج الغربي المهاجم هو النموذج الجيّد، فنحن نقول نحن وأنتم الجيدون، ولا زالت هذه المعركة يمارسها الكثيرون إلى اليوم. كأنّ النموذج الغربي هو نموذج المعيار الصحيح وبالتالي نقول نحن مثلكم: تريدون الإسلام فيه ديمقراطية؟ الإسلام فيه ديمقراطية، الإسلام عنده مساواة للرجل والمرأة؟ الإسلام عنده مساواة، والإسلام ليس عنيفًا في الحدود، وهكذا؛ فتبدأ المقارنة والدفاع عن الإسلام من منطق الهزيمة أمام الغرب. بحيث أنّ الغرب هو النموذج الكامل للصورة الإنسانية التامة وبالتالي الإسلام وصل إليها. يعني الإسلام سبقكم في هذا، وبالتالي هو موجود! هذا الأستاذ محمّد قطب يقول بأنّي كتبت (شبهات حول الإسلام) ليس من خلال هذا المنطق، لكن هذا العنوان يوحي بهذا المعنى، وسيّد نبّه عليها؛ لأنّها كانت ضمن -فيما تكلّمنا عن الشيخ مصطفى صبري، لأنّ هذه نقطة مهمّة، مصطفى صبري سنعود إليه كثيرًا في الحديث عن واقعنا المعاصر؛ لأنّ المدرسة التي أنشأها الأزهر كما ذكرنا في نقاشنا في كتاب (موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين) لشيخ الإسلام مصطفى صبري كانت هذه المدرسة قد وُجدت وغلبت في داخل المعاهد العلمية.

إذًا يكفي إلى هنا. أمّا الكلام عن الأسلوب فقد انتهينا منه، وأمّا إذا أردتم أن أقول ما هو مقدار دخوله في عالم الدعوة، بعد أن انتهينا من هذه الصورة واهتمامه بجانب الإنسان. يعني الأستاذ محمّد قطب في إدراكه لجانب تغيّر الإنسان هذا شيء مهمّ؛ لأنّ كثيرًا من الحركات الإسلامية لا تهتمّ بالإنسان، حتّى وهي تجاهد لإسقاط الطواغيت لا تهتمّ بتربية الإنسان، والأستاذ محمّد قطب في همّه لتغيّر العالم من خلال تغيّر الإنسان هذا فهم راق عنده.

نستطيع أن نقول فقط أنّ الإخفاق الأكبر في حياة الأستاذ محمد قطب، أنّه عاش محمّد قطب ومات محمّد قطب، ولم يلتزم لا بجماعة، ولا بتنظيم، ولا بحزب، ولا بعمل، وهذا في الحقيقة لا أريد أن أخوض فيه كثيرًا لكن الأستاذ محمّد قطب لم يكن يستطيع في ظنّه أن يتجاوز الإخوان المسلمين، لم يستطع أن يخرج، ماذا يصنع؟ مصر بلده قد خرج منها، وبقي في جامعة أم القرى يدرّس؛ ولذلك انتظم كعقلية أكاديمية؛ ولذلك لم يظهر شعبيًا.

يعني أنتم الآن لو أردتم أن تروا أين محمّد قطب، أين أعطى محاضرات؟ تجدونها قليلة مقابل الحياة الّتي عاشها، وأنتج إنتاجًا أكاديميًا في بعض الشخوص، لا نريد أن نخوض الآن لئلا يكون في ذلك إيذاء أو عدم رضا من قبل أصحاب هؤلاء، لكن على الجملة الأستاذ محمّد قطب لم يعش شعبيًا، وبالتالي عاش كاتبًا، فتصل كتبه إلى المعنيين، وكتبه تصل إلى داخل الصفّ الإسلامي. يعني المقصود بها الصفّ الإسلامي، وبقيت على هذا الإطار.

ولا نستطيع أن نقول أنّ الأستاذ محمّد قطب أنشأ مدرسة كبيرة غالبة لها وجود وحضور، وحتّى التلاميذ لا نستطيع أن نقول أنّهم قد استقوا من الأستاذ محمّد قطب حتى كانوا ظلًّا له، بل هم كانوا ضمن مدرسة كبيرة كان الأستاذ محمّد قطب جزءً من إمداد هذه المدرسة، وجزءً من تكوينها. وليس محمّد قطب هو سيّد هذه المدرسة.

ولذلك من الأمور الّتي الأستاذ محمّد قطب لم يستطع أن يتجاوزها -وهذا قدره، ليست سيئة ولا ذمّ ولا قدح، أنّه لم ينشئ جماعة. يعني لو أنكم قارنتموه بأبي الأعلى المودودي على اعتبار أنّ أبا الأعلى المودودي صحفي. يعني من هو أبو الأعلى المودودي؟ صحفي! لكن استطاع أن ينشئ جماعة. وآمن أنّ التغيير لا بدّ له من جماعة، وهكذا. بغضّ النظر لا نريد أن نستقصي أشخاصًا هم بمستوى محمّد قطب أو هم أدنى من محمّد قطب وأنشأوا جماعات، ولهم تأثير، ولكن الأستاذ محمّد قطب لم يكن من هذا الصنف ولم يكن من هذا النوع الذي أشرنا إليه.

الآن يكفي هذا في الكلام عنه. هناك من يتهمّ محمّد قطب بأنّ أسلوبه سهل ليس فيه عمق، وهذا في الحقيقة غير صحيح. وثانيًا الأستاذ محمّد قطب -وهذه نقطة مهمة جدًا، وهذه وجدتها عند البعض-: هل حاول الأستاذ محمّد قطب أن يخرج من شرنقة أخيه؟ لأنّ هناك من يكون تلميذًا ولا يحب بعد ذلك أن يبقى كأنّه مقلّد أو كأنّه ظلّ لشيخه، يريد أن يكون هو كما هو، فهل حاول الأستاذ محمّد قطب ذلك؟ ربّما هذا كان جزءًا من إحساسه، والدليل أنّنا لو أردنا أن نقرأ محمّد قطب ماذا يقول في أخيه لوجدنا القليل.

قد يكون هناك أحد يسمع هذا الكلام وهو قد سمعها مباشرة منه، أنا أتكلّم تحليلًا، وقد يكون هناك من النّاس لأنّه معاصر وله تلاميذ وله أصدقاء وبيته كان مطروقًا والناس يتعاملون معه، فربّما يأتي أحد يقول كل هذا الكلام الذي تقوله كنّا نسمعه أو نسمع ضدّه أو نسمع ما يخالفه، ولكن أنا أتحدّث عن تحليلي، أنا لم أقابل الأستاذ، رأيته مرّات فقط قليلة عندما كان يزور الأردن كما يراه الناس، ليس في جلسات خاصّة ولا غير ذلك.

لكنّي أعتقد بأن عدم قياس الأستاذ محمّد قطب بالكلام عن أخيه فيما اتُّهِمَ فيه وفيما احتاج إلى أن يجيب عنه كونه عاش معه إلّا القليل، يخفي أنّه لا يريد أن يدافع عنه ليترك الآخرين ليدافعوا عنه حتى لا يُقال أنّه يدافع عن أخيه.

يعني مثلًا عندما يأتي الشيخ الألباني مثلًا ويقول إن هناك عبارات في (الظلال) توحي بوحدة الوجود. طبعًا الألباني منصف فيها، يقول أنا أقول العبارة غلط ولا أقول الأستاذ سيّد يؤمن بوحدة الوجود. ولكن يأتي مجرم وظالم ويقول بأنّ سيّد قطب يؤمن بوحدة الوجود كما يقول بعض المرتزقة.

فهذه المسألة كبيرة في حقّ الأستاذ سيّد قطب، وقيلت في حياته وهو يكتب، فلماذا لم يدافع؟ يقول الكتب تدافع، وحياته تدافع. عندما تكلّم عن قضية مفهوم المجتمع الجاهلي، هو في الحقيقة يستخدمها كثيرًا في كتبه، وفي هذا الكتاب كأنّه لما جاء لكلمة المجتمع الجاهلي علم أنّ وراءها الكثير من الظلال السيئة؛ لأنّ الّذين يتكلّمون عن سيّد في تسميته للمجتمعات المعاصرة مجتمعات جاهلية يتهمّونه بالتكفير، أنّه يكفر الأمة. هو يقول لا نحن لا نتكلّم عن الأمة، نتكلّم عن النظام الّذي يحكم هذه المجتمعات، وهذه كلمة صحيحة. لكنّك تلاحظ أنّه يعيش هذا الهاجس، فلماذا لم يدافع ولم يتكلّم الأستاذ محمّد قطب عن سيّد؟ واضح أنّه كان يريد ألّا يُقال أنّه دافع؛ لأنّه دافع عن أخيه، وواضح أنه لا يريد أن يقول أنا ظلّ أخي، ولكني أنا هكذا أؤمن فأُحاسب لأنّي محمّد قطب وليس لأنّي شقيق سيّد قطب. فأريد أن أُحاسب أنا على ما أكتب وما أقول وما أعتقد وليس لأنّه أخي.

ولكن لما تكلّم عن أخيه في بعض المواقف أتى بأشياء عجيبة وأفادت الأمّة. ولذلك في الحقيقة حقّ العلم كان عليه أن يتكلّم.

والناس يتّهمونك ويتكلّمون عنك ويقولون فهذا شيء لا ينتهي، وبعد غد الناس سينظرون فيرونك ما تكتب لا من أنت هل أنت شقيق سيّد أو أنت لست شقيقه، ولا شكّ أنّه معذور؛ لأنّ الكثير من الناس حين يُدرسون فتُلغى شخصياتهم الذاتية من أجل محاسبتهم على شخصياتهم الّتي عاشوا في ظلالها.

يعني الآن جمال البنا، وهو قرآني، يقولون ذلك وفي الحقيقة لا يوجد قرآني، فالكثير لما يتكلّم عنه يتكلّم عنه على اعتبار ردّة فعل، لما يحاسبون لا يحاسبونه على أنّه يقول هكذا وينبغي أن يُحاسب لأنّ جمال البنا يقول هكذا، ما دخله في أخيه؟ يحبّه، يكرهه، انظر إلى كلامه، ولكن يحاسبونه على كلامه ويحاكمونه عليه وما هو متجّه فيه. كثير عندما يحاسبون جمال البنا يحاسبونه على أنّه شعور النقص أمام أخيه.

وكذلك واحد اسمه الرنتيسي كذلك يكتب كلامًا سيئًا فيحاسبونه لأنّه يعيش هاجس الشيخ عبد العزيز الرنتيسي. وهكذا الناس لا يتركونك سليمًا ليناقشوك كما أنت ولكن يلحقونك بظلال أخرى وكأنّها هي الحاكمة على سلوكك وأفكارك.

لقد عاش الأستاذ محمّد قطب محترمًا بين كل الجماعات. وهذا له سبب: لأنّ الأستاذ محمّد قطب لم يخرج أشياء صريحة في حكمه على الجماعات. يعني لو أردنا مثلًا أن نحضر قصيدة شقيقته أمينة قطب في الكلام عمن انحرف وتغيّر وبدّل، والقصيدة مشهورة لأمينة قطب، تستطيعون أن تراجعوها. فالحقيقة واضح أنّها تقصد "جماعة الإخوان" يعني تقصد هذه الجماعة الّتي بذل شقيقها روحه من أجل ما تدعو إليه ومن أجل أن تعيش فيه، ثمّ بعد ذلك تصالحت مع جلّاديها! يعني لما خرج عمر التلمساني من السجن أوّل عمل فعله ذهب إلى قصر القبة، وسجل في دفتر التسجيلات كلمةً في حقّ العضو الأيمن للمحكمة الّتي حكمت على سيّد قطب بالإعدام، وهو أنور السادات!! أين الوفاء؟!

ومع ذلك بقيت كلمتها ككلمة عائمة ليس لها أهمية. فلذلك الناس كما قال الزهري –رحمه الله–: كانت قريش قد سكتت عن النبيّ ﷺ حتى سبّ آلهتهم وآباءهم. يعني لا يهمّ أن تدعو إلى ما تريد لكن لا تسبّ ما نحن عليه، فتبقى محمودًا وتبقى مسكوتًا عنك. ولذلك الأستاذ محمّد قطب لم يخض الحروب على كثرة ما قيل في أخيه، وعلى كثرة ما قيل فيه؛ لأنّ هناك تيّار معيّن تعرفونه وليس ببعيد وهذا التيار وضع سيّد قطب كحجر زاوية لما يُسمّى بانحراف التكفير كما هو عندهم كما تعرفون، وتكلّموا عن سيّد بكل الشرور، ومع ذلك هو سكت ولم يتكلّم، فكانت علاقة هذا الأستاذ مع الآخرين هي علاقة يعني كان الجميع يريد أن يتبنّاه وأن يكون مثله ولا شكّ أن هذا له أسبابه كما ذكرت.

بهذا أنا أستطيع أن أقول أنيّ قد أتيت على ما عندي، أو ما يحضرني في ذاكرتي على شخصية الأستاذ محمّد قطب وما هو فيه وماذا تكلّم وما هي كتبه، وهي كتب نافعة؛ في كل كتاب تستطيع أن تجد له لمحات جميلة، تمثيلات رائعة، حتّى في لقاءاته القليلة جدًّا المسجلة. ولا أعرف هل هناك مسجلات يعرفها تلاميذه وأصدقاؤه الخاصّون فقط، ولكن المنشور قليل. ولكن هو يأتي بالعجائب والفرائد ويأتي بما هو جيّد مع سهولة ما يأتي به.

الآن بعد أن انتهينا من الكاتب نأتي إلى الكتاب: أسأل الله أن نستطيع أن ننتهي من هذا الكتاب هذا اليوم، وإذا لم نستطع نكمل في الأسبوع القادم في الكلام حوله.

في الحقيقة هذا الكتاب وهو (واقعنا المعاصر) هناك مشكلة وهي أنّنا نستطيع أن نقول بأنّ النموذج الفكري المثقّف التزامه التزام تصالحي مع فترة كان الانحراف فيها يسيرًا. وهناك صورة عرضها بعض العلماء لبداية الانحراف الّذي نعيشه اليوم نحن من قضيّة افتراق السلطان عن القرآن، ومن قضيّة هجوم العلمانية ضدّ الإسلام، ومن قضيّة فساد المرأة وفساد النظم. فنحن الآن نعيش في حالة من الافتراق الكامل، يعني هناك عندنا مسلم يريد الإسلام، وهناك عندنا علماني يحارب الإسلام، ويوجد من المسلمين في الوسط كالشاة العائرة، كما وصفهم رسول الله ﷺ، يعني بين وبين، يريد من الإسلام ويريد من العلمانية.

أغلب هؤلاء الّذين يريدون الصف الإسلامي النقيّ تجدهم إنتاج مجتمعات معيّنة ومن تأثّر بهم. وهذه نقف عندها قليلًا لأهمّيتها. أغلب الّذين يأخذون جانب التشدّد، الإسلام مع عزلة كاملة عن العلمانية فقهًا، علمًا، فكرًا، وكذلك حركة، هؤلاء نجدهم إنتاج مدرسة ذات بيئة معينة ومن تأثّر منها. يعني بالمفهوم حتّى نقرّب الصورة: الدعاة، لو نظرنا إلى السلفية المعاصرة بهذا المفهوم، السلفية النجدية اليوم، الّتي غلبت بسبب سلطان المال. يعني المشايخ الّذين غلبوا بسلطان المال، غلبوا على مظهر السلفية. لوجدنا أنّ هؤلاء إنتاج بيئة، ومن تأثّر بهم فهؤلاء أخذوا الجانب الأقصى ضدّ الجانب الآخر.

ونجد في وسط الطريق إنتاجا، هم من المسلمين والمفكرين الإسلاميين الّذين عاشوا خارج هذه البيئة ولم يتأثّروا بها، يعني عاشوا في مصر، عاشوا في المغرب. فتجد أنّ عندهم شيء من المصالحة مع الفترة الأولى. يعني لو تحدّثوا مثلًا عن الكواكبي تجدهم يتحدّثون عنه برقّة، ولما يتحدّثوا عن محمد عبده يتحدّثون عنه برقّة. يعني لو وجدت الإخوان المسلمين يتكلّمون عن محمد عبده يتكلّمون عنه بمدح ورفعة وأنّه شيء عظيم.

الغريب أنّ الأستاذ محمّد قطب ليس خرّيج المدرسة السلفية. يعني نحن دائمًا أيّها الإخوة بحاجة إلى المدرسة السلفية باعتبارها علمًا، ولكن بحاجة لوعينا على معركتها -انتبهوا إلى الفرق بينهما- نحن بحاجة للمنهج السلفي ببعده العلمي، لا تدخلونا في المؤسسات والشخوص وكذا كلّ هذا تعرفون رأيي فيه، لكن أتحدّث عن المدرسة السلفية باعتبارها منهجًا علميًا. يعني مثّله الأئمة الأربعة، مثّله البخاري، لما ألّف البخاري الأدب المفرد لماذا ألّفه؟ ألّفه من أجل الوقوف أمام مدّ إنتاج الأدب من خلال الدمج بين الإسلام وبين ثقافة الغرب. يعني لما أنت ترى (الأدب المفرد) ماذا يريد به البخاري؟ يردّ على ابن المقفّع ومثيله وابن السكّيت، طبعًا لا أهتمّ هنا بالزمن، ولكن أتكلّم عن المنهج.

هؤلاء الّذين أرادوا إنتاج أدب خليطًا من الثقافة اليونانية والهندية والفارسية والإسلام، فتجد قال رسول الله وقال أرسطو، قال أفلاطون، قال يزدجرد، قال كذا، وكأنّ الأدب صار حالة إنسانية. فماذا يقول البخاري؟ يقول الأدب لما يؤلّف (الأدب المفرد) الأدب هو إنتاج إسلامي فقط. مثلًا يأتي للحياء، يقول النبيّ ﷺ: (الحياء لا يأتي إلا بخير) فيقول له أحدهم: يقولون هناك من الحياء ما هو ضعف، وهناك ما هو كذا، والنبيّ يقول الحياء لا يأتي إلّا بخير. اخرس، اطرده من الباب، والله لو لم يخرج من هذا الباب سأخرج أنا. وهكذا، صراع، قضيّة النموذج. هذا توحيد المصدر. فهمنا هذه الصورة؟

الصورة الإسلامية هي صورة نقيّة، أنّ الإسلام لا يحتاج إلى غيره. والإنسان المسلم في إنتاجه لمعارفه القيمية لا يحتاج إلى غيره.

الغريب جدًّا أنّ الّذين كشفوا -وهذه للأسف قصّرت فيها ومضطرّ إلى أن آتي إليها هنا لأهمّيتها، وهذه أساس اختياري لكتاب الشيخ مصطفى صبري، أستاذ اختياري له دون غيره في هذا لأقول: بأنّ اكتشاف جذور الانحراف لالتقاء الإسلامية مع العلمانية لم يكن من المدرسة السلفية التي هي في أذهاننا. نعم هي نشرتها، هي أخرجتها وأظهرتها بسبب قوّة المال، لكن الّذي اكتشفها هم من؟ اكتشفتها أوّل شيء المدرسة الأدبية. اكتشفها الأستاذ محمد محمد حسين في كتابه (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)، اكتشفها في كتابه (حصوننا مهدّدة من الداخل). اكتشفها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي (تحت راية القرآن). هي الّتي اكتشفت جذور الانحراف داخل الصفّ الإسلامي. الّذي كان يحارب الأزهر وليست المدرسة السلفية بالمفهوم المؤسسي القادم من الجزيرة، الّذي حاربها هم الفقهاء التقليديون. والدليل ما ذكرناه من كتاب مصطفى صبري. مصطفى صبري خرّيج أي مدرسة؟ المدرسة الفقهية، رجل حنفي، وهو شيخ الإسلام في داخل الدولة العثمانية، وهو الّذي كشف، وهو الّذي

حارب. قولوا ما شئتم في زاهد الكوثري، باعتباره محارب المدرسة السلفية باعتباره حنفيًا متعصّبًا، وهذا حقّ، هو حنفي متعصّب وغلا في هذا الجانب. لكن مقاتلة هذا الرجل لانحراف إدخال العلمانية في الصف الإسلامي كان ينبغي أن يُذكر من مناقبه، وأن يُذكر من حسناته. هذه النقطة واضحة؟

يعني لما أردت كتاب مصطفى صبري نموذجا لكشف بداية انحراف المشيخة والعلماء ومدرسة محمّد عبده ومدرسة العلمانية الّتي فتحت خرقًا في الانحراف وقد ذكرنا هذا، والدليل أنّ الأستاذ محمود شاكر هو ممّن اكتشف هذا الانحراف وليس خريج مدرسة السلفية بالمفهوم المعاصر الّذي نحياه اليوم.

هذا أرجو أن يُفهم، العبارات لا تخدمنا؛ لأنّنا أمام واقع، لما نقول المدرسة السلفية للأسف مضطرين أن نميّز؛ لأنّنا نعيش مع واقع. لو قيلت كلمة، فورًا ذهن السامع لا يذهب إلّا إليها، هذا من الأخطاء، فلنعالج هذا بالطريقة الّتي توصل الفكرة بما نستطيع.

الأستاذ محمّد قطب هنا -يعني لو أنت أخذته، وأقرأ ما يقول سيّد، وسيّد لو أردته خرّيج مدرسة إخوانية على اعتبار حزبه وتنظيمه ولكن هو فكرًا حالة خاصة. وما أنتجه من إنتاج مفاصلة تامّة بين الإسلام والجاهلية هو إنتاج ذاتي، لم يأخذه من أيّ مدرسة، هو إنتاج أنتجه من وحدة المصدر وهو القرآن. يعني لما صار القرآن هو المصدر الوحيد لدى هذا الكاتب أنتج هذه المعارف.

لكن مثلًا ذكر محمود شاكر أنّه تأخّر في إخراج كتابه (أساس البلاغة) لما كتب مقدّمته قال: بأنّ كلّ انحراف حصل في الأدب الإسلامي وفي الفقه الإسلامي في داخل مدرسة المركز، أي مصر. مصر هي المركز، في وقت من الأوقات. طبعًا بسبب انتشار المعلومة والنت والجرائد وغيره لم تصبح مصر بهذه الأهمّية، وإلّا في وقت من الأوقات كانت هي المركز، وهو كشف هذا الأستاذ. لما يريد الرجل أن ينتشر حتى لو كان مغنيًا أين يذهب؟ إلى مصر. لو يريد ينشر صحافة أين يذهب؟ مصر. ومن الّذي أنتج الصحافة العلمانية في مصر؟ هم لبنانيون مارونيون، وهذا يقوله الأستاذ في كتابه (واقعنا المعاصر).

الآن هذه المدرسة التي كشفت هذا الانحراف وذهبت إلى أقصى المعاداة؛ لانتصاف الطريق بين الإسلام والعلمانية خاصة في جذورها الأولى. جذورها الأولى عادة يشتكون الانحراف يكون يسيرًا، المثلث يبدأ البعد بين الخطين قليل، لكن كلما امتدّ به الزمن أبعد، اليوم واضح البعد بين العلمانية والإسلام. والدليل هو يضرب، وهذا الدليل هو يذكره: قاسم أمين لما أراد أن يؤصّل

لتحرير المرأة أصّل له في كتابه الأوّل إسلاميًا، هذا هو الإسلام الّذي يدعو إليه. لكن لما دُعم سياسيًا من سعد زغلول ولما وجد نساء أخذن الدعوة وتحرّرن من الحجاب وخلعنه في ميدان التحرير وحرقنه؛ ألّف كتابا أبعد تمامًا عن قضيّة الإسلاميه، في كتابه المرأة الجديدة صار أكثر جرأة في الحرب، صار أكثر جرأة وتقدّمًا في الحرب.

لماذا أقول هذا؟ لأصل إلى نقطة مهمّة جدًّا، أنّ الأستاذ محمّد قطب حسم خياره في قضيّة توصيف جذر الانحراف بصورة رسمية. هذا هو في الحقيقة قاله من قبل، ولكن في هذا الكتاب هو أوضح ما يكون فيه.

وبهذا نختم لما سيأتي إن شاء الله من الكلام؛ لأنّنا في الحقيقة سنظلم الكتاب إذا وقفنا هكذا، أنّ عنوان هذا الكتاب ما هو؟ لأنّه يتكلم عن واقعنا المعاصر، فهو يتحدث عن جذور الانحراف، ما هي جذور الانحراف؟ هذا الّذي هو بيان أنّ المشايخ والقادة السياسيين كانوا منحرفين، صحيح في ذلك الوقت فكريًا كان الانحراف قليلًا، لكن في داخلهم وفي سلوكهم كان الانحراف يمثل نهايات الانحراف وهو الافتراق بينهم وبين الإسلام. يعني سعد زغلول رجل وطني، ولما أراد الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أن يعطي (وحي القلم) بعدًا وطنيًا وبعدًا مهمًّا فإنه صدّره بكلمة لسعد الزغلول، وسعد زغلول من هو؟! هو يصفه هنا الأستاذ محمّد قطب بأنّ سعد زغلول هو أوّل من سرق الثورة الإسلامية المصرية لتكون ثورة وطنية شركية. فطبعًا هنا يخجل، لا يأتي محمّد قطب على السلوكيات لسعد زغلول إلّا قليلًا، وإلّا فسعد زغلول زوجته هي صفية زغلول، لقّبت بأمّ المصريين؛ لأنّ سعد زغلول لم ينجب، فسُمّيت زوجته صفية بأمّ المصريين، يعني تعظيمًا لها. كانت هي الداعم الرئيسي لقضيّة تحرير المرأة. هدى شعراي ما هي إلّا لعبة ودمية بيد صفية زغلول الّتي جعلت المرأة تخلع الحجاب. وكان لاعبًا للقمار، وهذا في مذكراته وليس اتهامًا، مذكرات سعد زغلول أنّه كان لاعبًا للقمار وشاربًا للخمر من الدرجة الأولى.

والقصد من هذا أنّ الأستاذ محمّد قطب ونختم بهذا وسيكون إن شاء الله الكلام عنه في درس قادم، الأستاذ محمّد قطب حسم خياره في كشف مصادر الانحراف، وذلك بما يقوله أصحاب المدرسة التقليدية في كشف بداية الانحراف على ما تقدّم من كلام مصطفى صبري في كتابه (موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين)، ولذلك هذا الكتاب في مجمله هو خرّيج لمدرسة محمد محمّد حسين، وخرّيج لمدرسة مصطفى صبري في توصيفه أساس الانحراف المعاصر الّذي نحياه وكيف بدأ ومن هم رموزه، وكيف تغلغل في داخل الفكر الإسلامي. مقدّمة في مقدمة ستُشرح إن شاء الله في الدرس القادم. أرجو أن أكون قد بلّغت ما ينبغي به البلاغ في هذا.

الجلسة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين، حبيبنا وإمامنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرّ الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإياكم منهم، آمين.

أهلًا وسهلًا بكم أيها الإخوة الأحبة في هذا اللقاء الجديد في مناقشة الكتب من مشروع "الألف كتاب"، وهذه هي **الجلسة الثانية** في مناقشة **كتاب الأستاذ محمد قطب**: **(واقعنا المعاصر)**.

وتكلّمنا في اللقاء الأوّل عن شخصيته الفكرية. وأهلًا وسهلًا بالشيخ أبو حذيفة "محمد أبو رحيّم" معنا، وهو من تلاميذ الأستاذ محمد قطب. ويسعدنا أن يتقدّم فيتكلم عن جوانب فكرية لصيقة به من خلال معرفته الشخصية به.

وأنا لا أكتمكم أن هذا الكتاب سيأخذ معنا درسًا جديدًا غير هذا؛ لأن الكتاب في الحقيقة جامع وشامل لطرق الحركات، وتوصيفه لأسس الانحراف، وتدقيقه -حسب رؤية الكاتب توافقه أم تخالفه- في قراءة جذور الانحراف المعاصر كشخصيات ومركزية نشر العلمانية المعاصرة التي نعيشها. ثم إننا اليوم نعاني خللًا ما زال هو الذي تحدَّث عنه نفسه في هذا الكتاب.

الرجل ليس قديمًا يتحدَّث عن جذور الانحراف في الدولة العباسية، أو جذور الانحراف الذي أسقط الدولة الأموية، وإنما يتحدّث عن جذور الانحراف الذي نعيشه نحن اليوم. وبالتالي هذا حديث متشعِّب، وينبغي أن يُستوفى استيفاءً جيدًا.

ونرجو من الشيخ أن يستفرغ الكلام فكريًا حول الأستاذ محمد قطب.

الشيخ أبو حذيفة: بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد الخلق محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أنا سعيد جدًا بك وبهذه الوجوه الطيبة، وفُوجئت بطلب الأخ أبي قتادة مني بأن أتكلم في هذا الموضوع.

الحديث عن الأستاذ الشيخ محمد قطب هو حديث عن حركة إسلامية مميزة قام بها -رحمه الله-، وأسَّس من خلالها مدرسة؛ هذه المدرسة نشأت في مكة المكرمة، وبخاصة في جامعة "أم القرى".

الشيخ محمد قطب كانت لي به معرفة شخصيًا، بعد التحاقي في الدراسات العليا في مرحلة الماجستير في جامعة "أم القرى" عرفته عن كثب، بالرغم أنني كتبت عنه سنة ١٩٧٠ بحثًا خاصًا عن كتاب (التربية في الإسلام)، وكنت قد قدمت هذا البحث

للجامعة الأردنية للدكتور إسحاق الفرحان، والبحث لا يزال موجودًا عندي إلى الآن، ولو كان عندي سعة من الوقت لقرأت عليكم بعض فصول هذا البحث. إلا أن الجديد في الأمر أنني قابلت هذه الشخصية المميزة فكريًا، والمميزة أيضًا عقديًا عن الإخوان المسلمين.

وأتحدث عن الإخوان المسلمين بالذات لأنني التحقت بهم عام ١٩٦٨م، وتعلمون أن المنهج الذي كنا نُربى عليه يختلف اختلافًا كليًا عن المنهج الذي قرأته في شخصية الأستاذ محمد قطب، والذي كان في جامعة "أم القرى" يدرّس مادة (مذاهب فكرية معاصرة) كمتطلب رئيس في مرحلة درجة الماجستير في جامعة "أم القرى" وخاصة في السنة المنهجية قسم العقيدة.

إذًا معرفتي بالشيخ كانت معرفة دراسة عليه، قرأت هذه المادة عليه، مع بعض المواد الأخر في قسم العقيدة؛ من هذه المواد: الفرق، ودرّسني إياها الأستاذ الدكتور عبد المنعم عيش، ومنها أيضًا: الأديان، درست مادة الأديان في مرحلة الماجستير على الدكتور عبد العزيز عُبيد عميد كلية أصول الدين في الأزهر، ثم مادة عقيدة الأشاعرة والعقيدة بشكل عام قرأتها على الأستاذ الشيخ كمال هاشم نجى وكان أعلم المصريين في عقيدة الأشاعرة، وأيضًا من أعلم الناس في عقيدة السلف.

ومن عجائب الأمور التي لاحظتها أن المشايخ الذين أُحضروا من الأزهر وهم يحملون العقيدة الأشعرية ليتم غزو العقيدة السلفية في الجزيرة العربية، إلا أن هؤلاء قد انتقلوا من الأشعرية إلى السلفية؛ السلفية الحقة التي تقوم على منهج الكتاب والسنة.

ولم يتخلّف عن هذا الأمر سوى شخصية واحدة، وليس له أي قمة كنت قد تحدثت عنه في كتابي الأخير (في طريق الوصول إلى إسلام الرسول) ﷺ، والكتاب لم أطبعه، وأخّرت طباعته حتى يشاء الله -سبحانه وتعالى-.

الأستاذ محمد قطب كما تعلمون من مواليد ١٩١٩م، وعاش هذه المرحلة؛ مرحلة بناء الإخوان المسلمين في داخل مصر، ثم مرحلة الابتلاء التي مرَّ بها الإخوان المسلمون في مصر، وهو شقيق سيد قطب -رحمهما الله-.

الشيخ محمد قطب حسب قراءتي له سار على طريقين اثنين: وهاتان الطريقتان تختلف اختلافا كليًا عن منهج الإخوان المسلمين؛ فهو لم يكن إخوانيًا بل كان صاحب مدرسة فكرية محددة تميّزت تميزًا كاملًا عن الإخوان المسلمين.

الخط الأول الذي سار عليه: **أسَّس لمفهوم الثقافة الإسلامية العامة**. وأعني بالثقافة الإسلامية العامة أنه ربط ما بين الجانب المعرفي والجانب السلوكي في الثقافة، وألّف كتابًا تحت مسمى (الثقافة الإسلامية)، تحدث فيها عن فصول هامة في إرساء كلمة التوحيد؛ توحيد الألوهية، توحيد الربوبية، توحيد الأسماء والصفات، ثم التركيز على (توحيد الحاكمية).

هذا المسار الذي سار عليه في ظني، وإن كان طبعًا قد وافقه غيره في هذا المسار على اعتبار أن الثقافة الإسلامية تعني الجانب المعرفي، إلا أنه ركّز تركيزًا كبيرًا جدًا على أن الثقافة الإسلامية ليست معرفة فقط وإنما هي أيضًا سلوك.

إذًا الثقافة الإسلامية لم تتجرَّد عن السلوك إطلاقًا، ولو كانت مجرَّدة عن السلوك إذًا ما الفائدة من قضية الآخرة أو ما فائدة قول "لا إله إلا الله" إذا لم تتحول هذه الكلمة من معرفة إلى سلوك؟ كلمة "لا إله إلا الله" تكفي عند المرجئة، وعند الجهمية، لكن كلمة "لا إله إلا الله" عند المسلمين لا بد لها أن ترتبط بالعمل ارتباطًا مباشرًا.

والجانب الآخر أو الطريقة الأخرى التي سار عليها: **من أمسك بزمام المبادرة فيما يُسمى بالثقافة بالمفهوم الممِّيز لها**. ما معنى المفهوم المميز؟ أن أدرس الثقافة الغربية، المذاهب الفكرية المعاصرة الموجودة، ثم أقرأها قراءةً جيدة، أبيّن محاسنها ومساوئها في ضوء الإسلام.

إذًا هو أسّس لمفهوم جديد مميّز للثقافة الإسلامية؛ ولذلك ألّف كتاب (المذاهب الفكرية المعاصرة) فضلًا عن الكتب السابقة التي كان يناقش فيها المذاهب التي غزت البلاد العربية الإسلامية.

وكان لي شرف دراسة هذا الكتاب على يديه في السنة الأولى المنهجية، وطبعًا ناقش فيها مجموعة من المذاهب الفكرية المعاصرة منها: العلمانية، الديمقراطية، والرأسمالية، والماركسية الشيوعية. وتخرّج على يديه مجموعة من الشخصيات؛ من هذه الشخصيات من التزم التزامًا كاملًا بهذا المنهج وسار عليه، ومنهم من أخذ الشهادة ونام عليها. وأعرف طبعًا بعضًا من هؤلاء الشخصيات التي عاشت معي مباشرة. يعني كانوا هؤلاء يتكسَّبون من خلال درجة الدكتوراة.

في الواقع هو ربّى جيلًا! هذا الجيل قائم على مفهوم محدد: **أولًا يجب أن يهتم الناس أو العلماء الذين درسوا عليه اهتمامًا كاملًا بالتوحيد**، ويعلّمون الناس، قبل أن يفكّروا بالخروج أو الاصطدام مع الأنظمة الحاكمة السياسية. هذا المفهوم طبعًا غير موجود عند الجماعة الإسلامية السابقة؛ ولذلك هو خطّأ الجماعة الإسلامية "الإخوان المسلمون" واتهمهم بأنهم لا وعي عندهم إطلاقًا في السياسة الشرعية، ولا حتى بالبُعد الرِّسالي الذي بُعث فيه الأنبياء.

فأشار في كل محاضراته إلى أنه لا بد من تعليم الناس التوحيد، قبل أن يفكّروا بقضية الاصطدام مع الأنظمة السياسية المعاصرة سواء كانت هذه الأنظمة علمانية، أو ديمقراطية، أو ما شاكل ذلك.

إذًا لا بد من التوحيد، ولا بد من إيضاح معنى كلمة "لا إله إلا الله" بالمفهوم التطبيقي الذي هو توحيد (الحاكمية)، والدعوة إلى هذا الأمر.

هذا المسار الذي سار عليه ما سار عليه "الإخوان المسلمون" إطلاقًا، ما كانوا يهتمون بقضية التوحيد إطلاقًا. حتى أسرهم إلى غاية هذا اليوم لا يهتمون بالتوحيد؛ ولذلك كان يُقال أن جماعة الإخوان المسلمين جماعة: سنية، سلفية، شيعية، صوفية،... إلخ. هذا الخلط ما كان يعجب الأستاذ محمد قطب نهائيًا!، بل كان يرى أنه لا بد أن تكون هذه الجماعة مبنية بناءً كاملًا على ما بُني عليه السلف الصالح من التوحيد الخالص.

هذا المسار الذي سار عليه ودعا إليه في جميع كتبه التي بين أيدينا.

والمسار الثاني أنه **أسهم في الرّد على المذاهب الفكرية المعاصرة**، ليس ردًا أجوفًا أو مفرغًا من البُعد العقدي، لا؛ بل كان يناقش هذه المذاهب مناقشة تامة بموضوعية تامة، ثم يُبيّن محاسن الإسلام.

ظهر كتاب له في هذا الجانب في حينه وهو (مذاهب فكرية معاصرة) تأثّر وتخرّج على يديه مجموعة من المفكّرين والذين نعتزّ بصحبتهم منهم: الدكتور سفر الحوالي، الذي ألّف كتاب (ظاهرة الإرجاء) كما تعلمون. وأيضًا منهم الدكتور الذي تتلمذ على يديه: محمد سعيد القحطاني، وهو من أصدقائي وزملائي في الدراسة.

ومن فضل الله على العبد الفقير الذي أمامكم ألّفت كتاب (مذاهب فكرية معاصرة) بالتعاون مع مجموعة من الأساتذة الذين كنت أرأسهم في جامعة العلوم التطبيقية يومئذ، والكتاب لا يزال يُدرَّس، وهذا الكتاب هو ثمرة من ثمرات تأثُّري بالمنهج الصحيح الذي سار عليه الأستاذ محمد قطب.

هذا المختصر المفيد ولا أريد أن أطيل في هذا الجانب.

إذًا الشيخ –رحمه الله– دعا إلى التريّث في قضية الاصطدام مع الأنظمة الحاكمة السياسية إطلاقًا، وانطلق من خلال بُعدين:

البعد الأول: توضيح معنى كلمة التوحيد والدعوة إلى "الحاكمية" وإيضاح هذا للأمة، يعني حتى يكون هناك مفهوم كامل للأمة واضح أمامها. ثم بعد ذلك ناقش المذاهب الفكرية المعاصرة، طبعًا تحت مظلّة ما يُسمى بالثقافة الإسلامية بالمفهوم المميز، وهذا كان له قدم السَّبق به.

الأستاذ محمد قطب بقيت لي معه صحبة، وهذه الصحبة دامت حتى وفاته بشهر ونصف ذهبت إلى العمرة وكان لا يستقبل أحدًا، كان مشلولًا، ومن فضل الله كانت لنا معزَّة في صدره، كان لا يأذن لأحد بالدخول عليه إلا العبد الفقير الذي أمامكم. زرته قبل وفاته بشهر ونصف تقريبًا أو شهرين، ثم أبلغته يومئذ وفاة ولدي الحارث -رحمه الله- في سوريا؛ فبكى ودعا لي بخير، وكان مقعدًا لا يتحرَّك إطلاقًا. وطلبنا منه الدعاء لنا ولهذه الأمة.

هذا مختصر مفيد عن صحبتي لهذا الرجل الطيب صاحب المدرسة الفكرية المعاصرة، والذي أثّر تأثيرًا بالغًا في كثير من أفراد جامعة "أم القرى". تنبّه له الآخرون بعد أن انتهى الأمر، ثم عُزل عن التدريس كما عُزل غيره عن التدريس في الجامعة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الشيخ أبو قتادة: دائمًا الذي يعشق شيئًا كلما تحدث عن شيء مال إليه. يعني حتى قال الشيخ عبد الله عزام لو طُلب مني أتحدث عن الكمبيوتر سأتحدث عن الجهاد الأفغاني. فأي شيء رأيت الأستاذ محمد قطب يجلبه ويشدُّه كلما يتكلم عن شيء يذهب إليه؟

الشيخ أبو حذيفة: في الواقع، الأستاذ محمد قطب يحب الجهاد في سبيل الله. وطبعًا الجهاد بمفهوم نصرة المظلومين، وليس بمفهوم التكفير، يعني هذه نقطة مهمة جدًا. يعني هو فصل ما بين قضية الجهاد لنصرة المظلومين، وقضية أن أكفّر الناس ثم أنطلق، هو لم يكن من المكفِّرة إطلاقًا، بل كان يحب الجهاد في سبيل الله. ولكن كما قلت لكم كان يدعو إلى بناء التوحيد في شخصية الإنسان المسلم قبل أن تصطدم مع الأنظمة السياسية.

لو تعرَّض المجتمع المسلم لأي غزو خارجي؛ لأن مفهومه عن الغرب مفهوم الإنسان المسلم عن الصليب؛ ولذلك الحرب التي بين المسلمين والصليبيين لم تنته بعد. يعني كما قال غورو عندما غزا دمشق قال: "الآن انتهت حروب الصليب"، عندما كان يخاطب صلاح الدين الأيوبي. الحروب الصليبية لم تنتهِ إطلاقًا، الحروب الصليبية مستمرة. الأستاذ محمد قطب يعتقد ذلك اعتقادًا جازمًا.

وكان يميل إلى قضية جهاد "الدفع" عن المسلمين بالنسبة إلى الغزو الصليبي، لكن هذا الجهاد لا يرتبط الارتباط الذي يفعله بعض الناس: التكفير ثم الجهاد، وإنما كان الجهاد لدفع الظلم. وأما قضايا التكفير فهذه طبعًا لها علماؤها، لها رؤساؤها، لها رجالها، مع تأكيده بأن المذاهب الفكرية المعاصرة من حيث بيانه لها هي مذاهب ليست إسلامية إطلاقًا.

ولذلك أنا أقول لكم أن أحد الأشخاص يسألني: ماذا تقول في الأنظمة العربية؟ طبعًا هو يريد مني كلمة واحدة؛ فقلت له الأنظمة العربية علمانية؟ قال: علمانية، ديمقراطية؟ قال: ديمقراطية؛ إذًا لماذا تسألني عنها، فضحك الرجل وقال: أصبحت تكفيريًا!.

النظام العلماني كافر أصلي، والنظام الديمقراطي كافر أصلي، لا يمكن أن تحسبه على الإسلام لا من قريب ولا من بعيد، يعني لم يكن مسلمًا ثم ارتد، هذا نظام. لكن عندما نتحدث عن الأفراد ينبغي أن نتوقَّف؛ ولذلك الشيخ محمد قطب -رحمه الله- ما كان تكفيريًا إطلاقًا كما يزعم بعض الناس، وإن كان يحب الجهاد في سبيل الله -سبحانه وتعالى-، وكان من الذين أيّدوا عبد الله عزام في رحلته إلى أفغانستان.

وأيضًا كان ممن يؤيّد الدعوة إلى سبيل الله -سبحانه وتعالى- بالحكمة والموعظة الحسنة ممن كان يرسلهم للدعوة في ماليزيا وإندونيسيا، فقد كان له حلقات وصل، حتى عرض عليَّ أنا شخصيًا أن أهاجر إلى ماليزيا بعد أن صدر قرار بعزلي عن التدريس، فأنا رفضت وقلت له أنا أبقى بجانبك.

الشيخ أبو قتادة: جزاك الله خيرًا وبارك الله فيك. طيب شيخنا عندك كلام على كتاب (واقعنا المعاصر)؟

الشيخ أبو حذيفة: أنا تصفحته تصفحًا، أما من حيث القراءة لا بد من دراسة النقاط.

الشيخ أبو قتادة: لم يحصل لك حوار معه كلاميًا حول الكتاب كون أن خلاصة أفكار الأستاذ محمد قطب في هذا الكتاب؟

الشيخ أبو حذيفة: نعم أعلم، لكن لم يحصل نقاش.

الشيخ أبو قتادة: جزى الله خيرًا الأستاذ الشيخ أبا حذيفة على ما قدّم.

نعود إلى هذا الكتاب إخواني، في الحقيقة هذا الكتاب كوصف عام له هو كأنه يضع فقط علامات على مناطق فكرية شائكة، وكذلك تاريخية شائكة. يُلقي بكلماته النهائية حول قضايا كثيرة متعددة، وكل قضية من هذه القضايا تحتاج بنفسها إلى كتاب. وهو يعترف أنه لا يفصِّل ولا يستطيع أن يفصّل في مناقشة القضايا التي يطرحها، ولكنه يقول هذا ما أقوله وهذا توصيفي لما أتبنّاه من أحكام حول قضايا تاريخية مضت وقضايا معاصرة نعيشها جميعًا.

الكتاب يبدأ بقضية شائكة وعامة من تكلّم عنها لم يتكلم قبل الأستاذ محمد قطب بهذا البُعد، وإن كان هناك من تكلّم عنها بأبعاد أخرى، وهي قضية: **ما هو جذر الانحراف السياسي؟** طبعًا هناك الأستاذ طاهر بن عشور له كتاب عن الحرية وعن المقاصد، وضع الحرية كمقصد سادس من مقاصد الشريعة وضرورة من الضروريات الخمس، وهو سابق للأستاذ محمد قطب. مع أن هذا الكلام غير صحيح عندي ولا نريد أن نخوض في هذه النقطة.

لكن هنا يضع الأستاذ محمد قطب أن المشكلة ليست في جذور انحراف السياسية. والأستاذ منطقي، ويريد أن يصل إلى نقطة، صحيح أنها ليست بيّنة في الكتاب لكنها بيّنة في جذور الكتاب وفي اتصال الكتاب من أوله، كأن الأستاذ يريد شيئًا. وهذا يصرّح به في النهاية ولكن لا يربطه مع البداية؛ ولا بد للقارئ أن يفهم ما المراد.

هو يبدأ تقريره لقضية "لا إله إلا الله"، وللجيل على طريقة أخيه في جيل المنفرد وسمات هذا الجيل المنفرد، وقضية "التوحيد" إلى آخره، بعد هذه القضايا المهمة التي هي ضرورة لكل باحث لما كانت عليه الأمة كيف بدأت. وأنا أريد أن أضع قوسًا هنا: أن الأستاذ محمد قطب يمثِّل الشَّطر أو القسم الآخر للأستاذ أبي الحسن الندويّ؛ كلاهما يملأ نقطة لا يملأها الآخر، وكلاهما يملأ نقطة هي ضرورة لما يفكر فيه.

يعني عندما تقرأ للأستاذ أبي الحسن الندوي تجده يهتم بالجانب التربوي التعبُّدي النُّسكي، وأن الإنسان الذي يحصل به التغيير لا بد أن يكون عابدًا، ذاكرًا، مُخبِتًا، لا بد أن يتمثّل صورة النبوّة في عبوديتها، وصورة الصحابة في إخباتها وعبوديتها. هذا مدار كلام أبي الحسن عندما يطرح قضية التغيير.

وثاني كتاب قرأناه هو (ماذا خسر العالم) تجده يعود إلى أن جذر الانحراف؛ أننا لم ننشئ المسلم العابد النسكي لأنه أساس التغيير، لكنه حين يأتي إلى توضيح ما الذي يملأ عقل هذا العابد، هنا يضعف، إن لم يكن هذا الضعف يصل إلى درجة التلاشي. ما الذي يملأ عقله؟ أنت بحاجة إلى الشطر الآخر الذي يمثله الأستاذ محمد قطب.

هذا لا يعني أني مع كل ما يقوله أبو الحسن ولا مع كل ما قاله الأستاذ محمد، بل سأناقش، وسأقسو على الأستاذ محمد قطب في نهاية الكلام حول منهجية التغيير. وفي الحقيقة هذا دليل على أنه لم يعِش عيشًا حقيقًا سُننيًا في قضية التغيير، وهذه أنا صريح فيها، كما أننا تكلمنا عن كبار في هذه النقطة، ولا نجبن في أن نقول الحق في المسائل الفكرية، ولكن هذا من

الإحسان للرجل، من أجل أن نعرف أين نضع أيدينا على مكامن القوة وعلى أماكن الضعف؛ فالقوة نستفيد منها، وأماكن الضعف نحاول أن نوجد بدائلها أو نوجد ما يُقوّيها.

ما الذي يملأ عقل هذا العابد؟ نحتاج إلى ما يقوله محمد قطب. لأننا لا بد أن نختار شخصيات عملاقة لتكوين شخصية المسلم. نحن ما زلنا نعاني إلى هذه اللحظة في إنشاء الشخصية المسلم، ما هي مكوّنات هذه الشخصية؟ ما هي مصادرها؟ كيف تتكوّن الشخصية الصحابية؟ شخصية الصحابي المعاصر كيف نكوّنها اليوم ونقذف بها إلى المجتمع فتحدث التغيير، وكما قال الله -عزَّ وجلَّ-: {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} يصبح له النور ليمشي في الناس.

هنا أقول بأن أبا الحسن تكلّم عن هذا الجانب، لكن أين توصيف أبي الحسن للواقع؟ ولجاهلية العصر في الأحكام الشرعية، وفي الحكام الطواغيت؟ لا تجد كلمة لأبي الحسن عن حاكم طاغوتي، ولا تجد كلمة واحدة عن الصراع الإسلامي الشيوعي مثلًا، والصراع الإسلامي الرأسمالي، لا تجده يتكلم عن هذا الجانب. فحينئذ أنت بحاجة إلى ما يقوله الأستاذ محمد قطب، ومن هنا يأتي الشقّ الآخر الذي يملأ هذا الجانب.

نحن نريد العابد بالفعل وليس بالكلمة، نريد العابد، الذاكر، المخبت، نريد هذه الشخصية النُّسكية التي إذا رأيتها ذكَّرتك بالله. وكذلك نريد الشخصية المفكِّرة، لا نريد الغبي، لا نريد أن ننشئ دراويشًا! لو سألت الأستاذ أبي الحسن الندوي ما هي الشخصية المُغيِّرة؟ ستجده يميل إلى جماعة التبليغ. ولو سألت الأستاذ محمد قطب ما هي الشخصية الأقرب التي هي ضعيفة ولكنها هي التي يمكن أن نقوِّمها لتصلح للتغيير؟ لقال لك الإخوان المسلمين، سواء كان الشيخ موافقًا أو غير موافق، وهذا الذي يقوله في كتابه.

الشيخ أبو حذيفة: في نهاية عهدي به ما كان يؤيد الإخوان.

الشيخ أبو قتادة: الآن هو لا يؤيدهم، لكن للأسف سنرى الآن أنه ينقد الإخوان فيما لا يُنقد فيه.

الشيخ أبو حذيفة: هو اتهمهم بعدم الوعي، وقلّة الخبرة.

الشيخ أبو قتادة: هو يتكلم عن الإخوان أن مشكلتهم الأكبر هي التجميع خارج إطار السنة، وهذا في كتابه (واقعنا المعاصر). وهذا في الحقيقة خطأ منهجي في البحث.

نحن في الدرس الفائت وفّينا الأستاذ محمد قطب حقّه فيما نحبه، الآن سنوفّي الأستاذ محمد قطب فيما يحبه الفكر، سواء أصبنا أو أخطأنا، هذا الذي ندين الله به.

أعود إلى النقطة الأولى التي بين أيدينا، عندما جاء إلى جذور الانحراف في أمتنا لم يجعله فقط افتراق القرآن عن السلطان، ولم يجعله فقط تغوُّل السلطة في قضية عزل الأمة عن مراقبة الحاكم، بحيث أنه تحوّل الحكم إلى ملكي، كما تحوّل على يد معاوية – رضي الله تعالى عنه–، لكن الأهم وهو الذي ينبغي أن نربطه في نهاية الكتاب هو عزل الأمة. إذًا من أين يبدأ هو؟ يبدأ في قضية إحياء الأمة. يعني المشكلة عندما الأمة بسبب الضربات حولها، بسبب قيام طغيان ما ضدها، بسبب تغول ضدها تنعزل وتنكفئ عن أن تقوم بدورها، هذه هي المشكلة. المشكلة التي ينبغي أن نهتم بها هي هذه وهي إعادة إحياء الأمة.

هذه النقطة يصل فيها الأستاذ محمد قطب في النهاية إلى كون طريق التغيير هي: البيان والتربية. وفي أول الكتاب يقول ما هي الطريقة؟ هي التذكير، يعني البيان، ويصرّح في إحدى صفحات الكتاب –أظن صفحة ٤٥٧– بأن الطريقة المثلى لإعادة تكوين القاعدة الإسلامية كما يسميها في بعض كلامه، ويسميها بعض محبُّوه بالقاعدة الصلبة، وتسميها بعض الجماعات بضرورة وجود القاعدة الصلبة التي يتم بها بيان التوحيد الحق وكذلك تربية الأمة من أجل أن تحمل تكاليف الدين. هذا كيف يتوافق مع قضية نقضه لقضية التجميع أنا لا أفهمها!. وهنا يظهر ضعف هذه الطريقة في التفكير في هذه النقطة بالذات.

يعني أنت تريد أن تُحيي الأمة وترى أن الأمة قد انكفأت عن دورها في قيامها بالحق الذي أعطته ووكّلت به الحكام من الأمويين والعباسيين، وانكفأت من خلال ما أحدثه الحكام من جرائم في حق الأمة، فالأمة خافت وانكفأت وانكفأ العلماء. وعندما نتكلم عن العلماء نتكلم عن الأمة، وعندما نتكلم عن الأمة نتكلم عن العلماء، هم الذين يقودونها في واقع الأمر.

فعندما تنكفئ هذه الأمة وتقول نريد أن نبيّن للأمة ونريد أن نربّي الأمة، ثم ترى أن أكبر مشكلة أن الجماعة إذا جاءتها الجموع، فهذه مشكلة ومعضلة، ويجعل السبب في أن الجماعة التي تحمل همّ الدعوة لم تكن صريحة في إعطائها المدعوّين ما هي الدعوة التي تقوم عليها.

إذًا هنا المشكلة؛ أنَّ الجماعة التي يمكن ترميمها ويمكن إصلاحها لتقوم بعملية البناء والتغيير في الأمة هي الجماعة التي أنت تؤمن بها وهي جماعة الإخوان المسلمين، والسبب في انضمام الجموع إليها أنها لم تُبيِّن لهذه الجموع ما هي هذه الدعوة.

تاريخيًا هذا الكلام خطأ؛ والسبب أن المحنة لما وقعت ما وقعت على مجموع الأمة، وقعت على الإخوان، ولو أردتم تقييمًا حقيقيًا للمحنة ستكون النتيجة أنهم نجحوا فيها. بغض النظر عن الجماعة وما هو منهجها، لكن أنت إذا قرأت الإخوان المسلمين في قضية المحنة هل فشلوا؟ هل ضعفوا؟ هل خانوا؟ هل تراجعوا؟ أم أنهم صمدوا في المحنة؟ ما هي النتيجة التي ينبغي أن نكون عادلين فيها؟

الأستاذ أمين شنَّار كان من حزب التحرير ثم بعد ذلك تحوّل إلى صوفي، واعتزل الناس كلهم، وذكر السبب في ما ذُكر عنهم، وذكرها الشيخ عبد الله عزام في تفسيره سورة التوبة، قال المشكلة أن الجموع هذه من حزب التحرير دخلوا في المخابرات كلهم وقعوا وبصموا وتركوا الدعوة وخرجوا!، فأُصيب بصدمة، أن هذه الجموع التي تتحدث عن قضية الكتلة المسلمة كلهم أمام أول محنة تراجعوا وغيّروا وبدّلوا.

أمام أول محنة لحزب التحرير تخلّى عن أفكاره، وترك الإخوة حزب التحرير، ومن خلال هذا الضغط الذي تعرّضوا له في العذاب انفصلت اللُّحمة لأنها ضعيفة.

لكن أنا أريد أن أسأل: كم واحد من الإخوان المسلمين من هذه الجموع التي سُجنت وعُذبت، كم منها ضعُف حتى باع دينه وتغيّر؟ العدد قليل جدًا. لكن هنا الفساد لا نراه في داخل الجموع ولا نراه في داخل القاعدة إنما نرى الفساد في داخل القيادة. عدد الذين تخلّوا عن الإخوان المسلمين مثل الباقوري وغيره الذين تخلوا عن الإخوان المسلمين بمجرد عرض الوزارات، هم في القيادة وليسوا في القاعدة، وإنما القاعدة ثبتت.

ففي الحقيقة أن التربية الدينية والتربية العاطفية التي كان يصيب بها حسن البنا أفراده ثم من جاء بعده صمدت أمام المحنة.

الأمة التي لم تدخل معك لا ينبغي أن تُحمّلها أي نتيجة، هي لم تفهم معك، ولم تحمل النتيجة. لما أنت تقفز بجماعتك ضد السلطان، ضد الطاغية، ضد المشرك، وبعد ذلك تقول: أنا اعتمدت أن تتفاعل معي الأمة بعد ذلك، هذا عليك أن تُحاسب عليه!!

الشيخ كشك -رحمه الله- في آخر حياته أُصيب بحالة نفسية واعتزل الخطاب، وقيل له لمَ؟ قال: ذلك لأني خطبتُ في الناس طويلًا، ولو كانوا ذبابًا لسمعت لهم طنينًا. هذه عبارته فيما نُقل عنه. يعني كان يخطب ويتمنّى أن تثور الأمة، وهذا غير صحيح؛

الخطابة تذكر الناس، لكن أنت شيخ تحتاج إلى جماعة، تحتاج إلى كتلة معك، تحتاج إلى ناس من أجل أن يُغيّروا. مجرّد الخطابة والوعي الذهني والسماع لا يصنع تغييرًا.

وللذكر الأستاذ محمد قطب في كتابه هذا يعترف بأن **أول مكوّنات الشخصية المسلمة بعد التوحيد هو الالتزام بمفهوم الأمة**، وهذه كلمة مهديَّة وصحيحة وصائبة؛ الصحابي عندما كان يؤمن بالتوحيد ويقول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" يفهم أنه انقلع من أمة إلى أمة، انقلع من جماعة إلى جماعة، انقلع من إمارة إلى إمارة، انقلع من صحبة إلى صحبة، خرج من ولاء إلى ولاء. وهذه كلمة مائة بالمائة صحيحة.

وهنا تأتي أهمية مفهوم الجماعة، الجماعة في وقت من الأوقات تصبح معوِّقًا يجب أن تُزال؛ لأن مفهوم الجماعة هو مفهوم يصبح ضرورة عند فقدان فاعلية الأمة، لكن عندما تتحمل الأمة النتيجة وتسيح فيها هذه الأفكار وتنتشر حينئذ تصبح الجماعة معوِّقًا.

وجود الجماعة في وقت من الأوقات ضرورة؛ عندما الأمة تكون تائهة لا تدري ماذا تفعل، أو أنها غير حاملة لمفهوم الدعوة.

فالقصد عندما تكون الأمة فارغة من تحمُّل ضرورات هذا الدين ومهمات هذا الدين، حينئذ لا بد من الجماعة؛ لأن الجماعة هي التي تبني هذا المفهوم وتُربّيه في الناس، الجماعة مثل الجمر لا بد أن تعتني به اعتناءً خاصًا، لا بد أن تُربّيه تربية خاصة ومهمة، حتى إذا اشتعل تقذفه في المطلوب. الصاعق لا يُفجِّر، لو أنت أحضرت صاعقًا الآن كم سيُهلك من هذا البيت؟ مثلًا مائة كيلو (TNT) أو (C٤) فقط غرامات، لو فجَّرت هنا ربما لا يستطيع أن يغيّر إلا تغييرًا موضعيًا، لكن ماذا يفعل هذا الصاعق؟ هذا الجمر؟ يقوم بعملية تفجير للمادة المتفجِّرة الكبيرة فيُفجّر. وهذا هو دور الفئة المؤمنة.

وهذا الذي تمثّل في الصحابة، الصحابة في مكة صُنعوا صناعة الجمر والصاعق. بعد ذلك لـمَّا قُضي على المانع الأكبر المتمثل بقريش رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا. فهذا مفهوم مُهتدٍ في قضية تكوين الأمة ومهم جدًا.

هذه دائمًا المشايخ يخطؤون فيها خطأً كبيرًا جدًا، وهي سبب من أسباب بناء الأفكار فوق الواقع. ماذا أقصد بهذه الكلمة؟ يعني الآن نقول الأستاذ محمد قطب إذا جاءت جموع ماذا نصنع؟ سؤال سأله لنفسه الأستاذ -رحمه الله-؟ أنا إذا قمت بدعوتي، قلت للناس هيا إلى الجهاد، أجاب مائة ألف، أقول هذه طريقة خطأ؟ وهذه حدثت معه هنا للذكر، حضر الأستاذ محمد قطب محاضرة في الجامعة الأردنية فتعجّب، كانت الدعوة مفتوحة هنا في الأردن، والحقيقة صورة النساء والحجاب

والشباب المتدين وحملة القرآن كانت منتشرة، فأعطى محاضرة وحضرت جموع من الناس يستمعون للأستاذ محمد قطب، اعتبرها هو ظاهرة مَرَضيَّة! قال هذا مخالف لسنة الأنبياء!

هذا خطأ، أن تصنع واقعًا من أجل أن يمثّل أفكارك؛ لأن بعض المشايخ يؤمن أنه لا بد من أن نمشي بطريقة الدعوة النبوية، -أنا أتكلم قدرًا لا شرعًا-؛ يعني يجب أن نعيش في إحياء الأمة بقدريَّة ما عاشه رسول الله ﷺ في الدعوة! هذا لا ينبغي أن يخطر على أحد، ولا ينبغي أن يكون في عقل أي مسلم! أننا يجب أن نبدأ بالسِّرية أولًا، ثم ننطلق للعلنيَّة، ثم بعد العلنية للهجرة، هذا كلام لا يجوز.

الذي يُفرض عليك امتثاله شرعًا ما هو موجود قَدَرًا من صناعتك أو من صناعة غيرك.

بعض المشايخ يريد أن يصنع قَدَرًا أو أن يُوجد قدرًا ما من أجل أن تتمثَّل عليه أفكاره! يعني يجب أن نؤمن بأننا نعيش جاهلية أولى، هذه الجاهلية بكل أبعادها وبكل صورها، هذه الجاهلية تُنتج حركة ما، ما هي الحركة التي توجدها الجاهلية المغلقة التي لا تقبل الدعوة والإسلام؟ السِّرية. فيجب أن نتمثّلها!

وهذا في الحقيقة بعض صور ارتدادات الأفكار من خلال الواقع. يعني كيف تنشأ التكفير والهجرة؟ جزء من إنشائها هذه الصورة؛ إذًا نحن نعيش في الجاهلية الأولى، الجاهلية الأولى ما هي؟ لا يعرفون "لا إله إلا الله". من أين أتينا بهذا الكلام؟ نذهب إلى سيد، سيد يقول نحن نعيش في جاهلية، إذًا نحن نعيش في جاهلية. ما هي الجاهلية؟ أن الناس لا يعرفون إسلامًا.

للأسف -وأنا لا أقول الأستاذ محمد قطب من هؤلاء- ولكن هو يقول نحن إذا حكمنا على المجتمع حكمًا عامًا نُخطئ، وهذا غير صحيح، فرق بين أن تكون الأمة حاملة للدين، وحاملة لمهماته، وبين أن تكون هي مسلمة في داخلها.

هذا لا يحتاج إلى فقه جديد، فقط أنا أذهب الآن بكم إلى كتاب الجهاد من كتاب (بدائع الصنائع) للإمام الكاساني -رحمه الله- الإمام الحنفي، تجدون ما هو مُنطلق الجهاد؟ هو الحكم على الناس؛ يعني إذا علمت أن هذا مسلم فقاتلك فهذا له نوع قتال. إذا علمت أن هذا مسلم فبغى على الإمام هذا له قتال خاص. إذا علمت أن هذا مرتد له قتال. إذا علمت أن هذا كافر أصلي فهذا له قتال؛ فالذي يُنشئ الجهاد هو الأحكام، والذي ينشئ التصرف هو الأحكام.

هو يريد أن يرتد بنا إلى عصر الدعوة. لماذا؟ لأن الأستاذ -رحمه الله- يرى بأننا لا نستطيع أن نحكم على الأمة، وهذا وقت البلاغ لأنها تعيش الجاهلية، لأنها مفرّغة من "لا إله إلا الله" إلى غير ذلك!

هذا كلام يمكن أن يستند عليه المهتدي ويمكن يستند عليه الضال، لكنه بعيد عن الأحكام المحدَّدة. أنا لا يُنشئ لدي أي تصرُّف تجاه (عرفات) لو قلت أنه عميل؟ كلمة (عميل) أبحث عنها في كتب الفقه لا أعرف لها حكمًا. لو قلت هذا خائن، أنا أتكلم عن شخص ولا أتكلم عن جماعة، من الذي يقاتل تحت رايته؟ ما هو الدين الذي يريده هذا الرجل؟ أنا كجماعة كيف أتعامل معه؟ كيف أتعامل معه من غير أحكام؟!

ولذلك قاعدة "دعاة لا قضاة" قاعدة غير صحيحة. وهي للأسف مما يدعو إليها الأستاذ ويراها.

هو لماذا يخاف من الأحكام؟ لأنه يظن أن الأحكام تُوجب حكمًا عليهم بالردة لأنهم يجهلون "لا إله إلا الله"، وهذا غير صحيح.

نرجع إلى الصور المشرقة في الكتاب:

يرى أن أول خطأ حصل به الانحراف هو عزل الأمة عن القيادة وعن المحاسبة. والأستاذ محمد قطب في هذا الجانب، وهو الجانب السياسي يعتني به اعتناءً مهمًا، وينبغي الاعتناء به. لماذا؟

أولًا: لأن الأمة فقد المراقبة، هذه وإن كانت في البداية بسبب انشغال الأمة بالجهاد وكان ظهور هذا الانحراف ضعيفًا.

تعرفون هتلر كيف اكتسح أوربا، أخذها، ولم يدخل موسكو، وصل إلى حدود موسكو حتى اجتاح فرنسا، وقف على حدود الكانال الفرنسي البريطاني، وأمريكا تدخّلت، بعد حادثة بيرل هاربر الشهيرة.

فلما جاء أيزنهاور القائد العسكري الوحيد الذي وصل إلى رئاسة أمريكا، وكان قائدًا للجيش ٢١ الذي حرّر أوربا، فلما حضر وجد بأن عدد المستشارين الذين تتم بهم إدارة المعركة في أوربا ثلاثة وخمسون ضابطًا عسكريًا!، فطردهم كلهم وأبقى خمسة فقط؛ لأن العسكرية ليس هذا وجهها الصحيح.

فيمكن هذا أن تُعذر إذا كانت الأمة مشغولة بأعدائها وكان وقت جهاد ولا يمكن أن تختار الأمة، لكن حين تُفرض القيم تكون لها عِللها عندما تقوم لكن بعد ذلك إذا استُمرئت وطالت تصبح مرضًا في داخل الأمة. ونحن نقول هذا الكلام الآن، ربما في وقت من الأوقات يُعذر الناس كما قلنا في شكل الجماعة؛ الجماعة ضرورة عندما تتخلّى الأمة عن مهماتها، فإذا سرت في الأمة انتهت وظيفة الجماعة، الأمة تتحمل، صار دور الأمة أن تقوم بالفعل.

ففي الابتداء عند وجود الجانب الجهادي في الأمة وأنها مندفعة بقوة نحو خصومها، ربما يمنع من وجود المشورة العامة وتحمُّل الأمة لمهماتها، أن يكون للعلماء مهمات السيطرة على الحكام، لكن بعد ذلك هذا المقبول في هذه اللحظة لا يصبح مقبولًا في لحظة أخرى.

القصد أن الجانب الأول أنه علّق المشكلة على تخلّي الأمة عن مهماتها، وأنا أُعيد وأقول كلمة بأن الأستاذ محمد قطب كان يقول بأن كل الجوانب في تاريخ الأمة مشرقة إلا الجانب السياسي، وهذه طبيعة السياسة، طبيعة السلطان، طبيعة القوة، طبيعة الترف، السلطة فيها مال، فيها قوة؛ وهذه تؤدي إلى الطغيان. فلا بد للأمة أن تجابهها وأن تتحمل النتائج لا أن ترضخ. الوصول لنتيجة أن أهل السنة المقرَّر عندهم السكوت عن الحاكم الظالم من أجل عدم الفساد ما الذي صنعه؟ هل صنعه الشرع؟!

يقول ابن حجر: "بعد فتنة ابن الأشعث تقرَّر عند أهل السنة هذه القاعدة: وهي عدم جواز الخروج على الحاكم الظالم". إذًا لم يصنع ذلك الفقه، إنما صنعه الواقع! وهذه تحتاج إلى مناقشة واسعة؛ لأن الانتصار لا يعني أن هذه الطريقة خطأ؛ لأن الهزيمة لا تعني الخطأ. ألم يُهزم النبي ﷺ في أحد؟ هل يعني أن الجهاد خطأ؟! أين الخطأ؟ في ممارسته، في إدارته، في كيفية حركته، وليس في ذاته.

للأسف أغلب المشايخ لما تأتي تكلمه يقول لك هذا الطريق جربتموه من قبل وما نفع! جربناه من طريق غلط، كانت هناك أخطاء في الممارسة، يجب أن تُعيدها مرة بعد مرة، وتتكرَّر مرة بعد مرة لكن بصورة صحيحة، وأن تتجنّب الأخطاء الأولى.

أنا أسألكم سؤالًا: الغرب يمثّل الشيطان، على أرض الواقع في صراعنا في التاريخ هم الغرب، حروب صليبية إلى يومنا هذا، كم مرة انهزم الغرب في حروبه ضدنا؟ ثمانية حروب صليبية امتدت مائتي سنة هل كلُّوا؟ بعد ١٢٩٠ لما خرجوا من آخر معقل في عكّا، آخر حملة صليبية جاءت لبلادنا قبل خروجهم من بلادنا فقط بسبع سنوات. وفي هذه الحملة لم يُهزموا، بل دخلوا عسقلان.

بعد أن خرجوا، هل قالوا خلاص اكتشفنا المسلمين هؤلاء جماعة لا يُهزمون، كلما قاتلناهم هزمونا؟ هل توقفت حركة القتال ضدنا؟ أم جاؤوا بعد ذلك أيضًا؟ ألم يأتِ نابليون بعدها في الحملة الشهيرة؟! بعد حملة نابليون ألم يأتِ ما يسمونه الاستعمار؟

لماذا الكفر كل يوم يجرّب الطرق نفسها في قتالنا وحربنا ولا ييأس؟!

أمريكا ألم تُهزم في فيتنام؟ لماذا نزلت على العراق مرة أخرى؟ وهُزمت في العراق وكانت تنتظر أن تخرج منها. هل تتوقعون أن أمريكا لن تعود مرة أخرى؟؟!

لماذا فقط نحن المسلمون عندما نُهزم في معركة نريد أن نغيّر المنهج؟ نريد أن نغيّر الطريقة؟ نريد أن نبدّل؟

تصوُّر أن الواقع ينبغي أن يغيّر فينا عقائدنا، يغيّر فينا أفكارنا، يغيّر فينا الطرق السُّنية في التعامل مع الخصوم مع أنفسنا طريقة غير صحيحة.

فهذا هو الجانب الأول.

والشيخ أجَّل الحديث عن الإرجاء، مع أن الإرجاء تاريخيًا نشأ في زمن الأمويين ردة فعل على الخوارج، وصار محبوبًا للملوك؛ لأنه في النهاية هو الذي ينفع للتسكين وللتهوين ولترك الناس مهمة المراقبة ومهمة العمل، كلنا مسلمون، وانتهى الموضوع، ولا تسأل، ولا تراقب ما هو ظاهر الناس، ما دام أن بواطنهم مسلمة وأقوالهم مسلمة.

تكلّمت في اللقاء الفائت وقلت أن الأستاذ محمد قطب تاريخيًا كان جريئًا، بلا شك أن الحديث عن بداية الانحراف في تحوّل الملك للعضوض بعد أن كان شورى راشدة من قبل الخلفاء، هذه جرأة. البحث عنها فرعيًا يحتاج إلى دراسة، ربما لم يقم بها أهل السنة لخوفهم.

لأنه في الحقيقة أي حديث عن تغوُّل السلطة في الدولة الأموية يقترب قليلًا من الصحابة، مع أننا عندنا الحجة في أنه قال: (خلافةٌ على مِنهاجِ النُّبُوَّةِ ما شاء اللهُ أن تكونَ، ثم يَرْفَعُها اللهُ تعالى، ثم تكون ملكًا عاضًا)؛ فعندك حجة أن النبي تحدث عن انحراف. والحديث هنا هو حديث عن قضية حركة قدريَّة.

وهذا الذي يخطئ فيه بعض الدارسين من أهل السنة، يعني عندما أقول هذا رجل أخطأ في هذا، فهي عندهم تعني الإثم! يعني نحن الآن نؤمن أن معاوية أخطأ في قتاله لعلي صحيح أم غير صحيح؟ لكن هذا لا يستدعي السب، لا يستدعي الإسقاط. لما نقول: اجتهد الشافعي فأخطأ، أين الربط بين الخطأ وبين الإسقاط؟؟!

لكن لأن الصغار لا يفهمون إلا هذا، يفهمون أن التَّخطئة هي إسقاط، التخطئة تأثيم، التخطئة إبعاد، هذا غير صحيح. عندما نقول أن معاوية –رضي الله تعالى عنه– أخطأ في تعيين ابنه يزيد، يزيد لا يستحق.

وهذه أنا أمدح فيها الكتاب، أنا لا أستطيع أن أقيّم كل الكتب، ولكن أزعم أن الأستاذ محمد قطب انفرد في هذه النقطة.

القصد أنه عندما نقيّم ما فعله معاوية -رضي الله عنه- في تعيين ابنه يزيد ليس له دليل قوي، بل في الحقيقة أنا كنت لوقت طويل أتبع ما يقوله محب الدين الخطيب وما يقوله فلان من مدح يزيد وذكر حسناته، حتى قرأت كلام عبد الله بن حنظلة الغسيل وهو ذهب عنده وزاره لعدة أشهر، وهو رجل عابد تقي، من الزهّاد، وكان معتزلًا الفتن، وهو في المدينة يرفض أي أحد يتكلم عن يزيد كلمة، فاستدعاه يزيد إلى دمشق وعاش عنده مدة ورأى ما رأى ورجع إلى أهل المدينة ووصف لهم ما رأى في يزيد من الأعمال وحرَّض على الخروج عليه، ووقعت فِتنة الحرَّة بقيادة عبد الله حنظلة الغسيل -رحمه الله- وهو تابعي.

قارن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بعبد الله بن الزبير! بل أهل السنة كما تعلمون يذكرون الخلافة بعد علي -رضي الله عنه- الخليفة الخامس: عبد الله بن الزبير.

القصد بأن هذه الدراسة التي تعيننا؛ لأننا لا نريد أن نبرّر الطغيان، لا نريد أن نبرّر الخطأ في عزل الأمة عن مصادر التأثير وأنها صاحبة القرار.

من هم قادة الأمة؟ **قادة الأمة هم العلماء**، لو سقط النظام الحاكم وبقيت الأمة قائمة من خلال قادتها الحقيقيين وهم العلماء، هل تُنشئ الأمة وتُعيد نفسها بقوة أم لا؟ حصل أم لم يحصل هذا؟ كم من مرة سقطت بلادنا تحت مستعمر، ثم بسبب وجود مفهوم الأمة: علماء، وقادة صغار، ومشايخ عشائر. اقرأوا الحروب الصليبية قراءة صحيحة. قادة قبائل، قلاع موجودة، مدن، عشائر. من هم السلاجقة؟ السلاجقة مجرد عشائر، لكن فيهم النخوة والشجاعة وآمنوا بالإسلام، وهم الذين حاربوا الصليبيين سنين طويلة.

لما نقول الأيوبيون؟ هو واحد، كانوا مجرد قادة عند آل زنكي، ثم صار واحد منهم بطلًا عظيمًا، وأبناؤه حدث فيهم انحراف؛ فالذي قام بالحروب الصليبية هم مشيخات لكن تحت مفهوم بقاء الأمة ثابتة.

لكن لما سقطت دولة الخلافة وجاء الصليبيون الجُدد أي المستعمرون الجُدد، وذهبت الخلافة، ذهبت الصورة الجامعة لهم، أين ذهبت الأمة؟ كانت قد ذهبت من زمن وبادت؛ فسهُل بعد ذلك السيطرة عليها.

فإعادة مفهوم الأمة لتتحمل النتائج هذه مهمة وضرورة. والدعوة الآن أن الأمة لا قيمة لها، هؤلاء من أكذب خلق الله، هؤلاء يريدوا أن يُصادروا مصادر القوة في الأمة.

أنا أسألكم: عندما قاتل العراقيون تحت راية القاعدة وتحت راية المجاهدين جميعًا في داخل العراق، كم واحد كان من خارج العراق؟ ألف؟ خمسة آلاف؟ طيب بقية المجاهدين من أين جاؤوا؟ من أين جاء المجاهدون في العراق وقاتلوا أمريكا وأبادوها وكان -كما يذكر أقرب الناس لبوش- أن أمر الاستسلام والخروج من العراق كان موجودًا في المكتب البيضاوي على مكتب بوش ينتظر متى يوقعه، حتى جاؤوا إليه بلعبة الصحوات. من الذي دمّرهم؟ الأمة. **الأمة هي مخزوننا.**

ولذلك عندما تريد أن تتجاوز الأمة في تحمل نتائجها لن تستجيب، **ما الذي جعل كل الحركات الإسلامية تفشل؟ أنها تجاوزت الأمة.**

لكن لما أنت تبعث في الأمة النار، هذا الوقود الذي سميناه الصاعق: الأمة تستجيب. فيها أخطاء نعم، فيها فساد نعم.

ومن الدراسات التي أعيت الغرب، وكانوا دائمًا يسألوننا ما هي طرق صناعة الإرهابي؟ فمرة أحد الإخوة يسأله أحد ضباط الـ(MI٥) قال له كيف تصنعون الرجل؟ قال له الأمر بسيط، نأتي به من الخمارة ونُلبسه الحزام مباشرة.

ولذلك هذه قضية التربية كما يطرحها خارج إطار السنة الشيخ صُدم فيها، وعبّر عن هذا في كتابه لما تكلّم عن البوسنة، الشيخ لما زار البوسنة، والبوسنة آية من آيات الله!، عجب، وفي الحقيقة كل حركات الجهاد التي قامت وحقّقت مقاصد عظيمة في الأمة كلها ضد مفهوم التربية الذي يطرحه الشيوخ وهو القاعدة الصلبة، وبعد ذلك ينشرون الدعوة حتى تتحرك الأمة، كل هذا لا وجود له؛ لأنه تصوّر للعدو أنه ساكن!!

هذه القاعدة الصلبة من الذي يسمح من الأعداء بوجودها؟!

البوسنة دليل على هذا، مجتمع عاش تحت حكم تيتو ومن وراءه الذي يُسمى يوغسلافيا شيوعيًا حتى انحلّ ونسي الإسلام، إلا بقايا مدارس تحت السراديب.

تعرفون لما قام الاتحاد السوفيتي الناس تنفّسوا قليلًا، واكتشف الناس كم كان الإسلام عظيمًا في تسلُّله لقلوب الأطفال تحت السراديب. يُعلِّمون الأبناء الصغار القرآن في السراديب، واحد قال لي بنفسه: قال كان عمي يعلّمنا القرآن أنا وابن عمي وابن آخر ويعلّمنا السريّة حتى إن أبي لا يعلم أني أتعلم القرآن في السراديب في الغرفة تحت البيت، في مصحف واحد ممزق.

أخبرني أحد الإخوة قال كنا نذهب لروسيا، كان يذهب لدراسة الكمبيوتر، فقال كنا نهرِّب المصحف بأن نضع عليه صورة مجلّة (الموعد)، هذه مجلة لبنانية قديمة يعرفها الممثلون والمغنون، فيُحضر الغلاف ويمزّق غلاف المصحف ويضع عليه غلاف مجلّة "الموعد" حتى يُدخله من داخل المطار إلى داخل الاتحاد السوفيتي!.

يوغسلافيا كانت كذلك، سراييفو كانت هي موطن الألعاب الشتوية، هذا المجتمع المسلم اسمًا وتاريخًا واقعًا انحلَّ من الإسلام وبقي اسمه أنه مسلم، فجأة وإذ به تحوّل من هذه الحالة، لما جاء الجهاد وقاتلوا الصِّرب وإذا الناس في لحظات وإذا "المسلمون" الشيوعيُّون هؤلاء صاروا مجاهدين، صاروا مصلِّين، وصاروا عبَّادًا، إلى آخره. فأين فترة التربية هذه؟!

ولذلك لما راح الأستاذ محمد قطب وزار ساراييفو والبوسنة صُدم، وكتب، وفي كلامه إشارة واضحة أن قضية التربية هذه تحتاج إلى إعادة نظر.

عندنا الآن بفضل الله -عزَّ وجلَّ- صحيح أنها لم تحقق النهاية الكلية في الجهاد في البوسنة لكن في النهاية صارت هناك مدارس القرآن، وعرفوا الحجاب، وعرفوا الصلاة، وعرفوا الحج، وانتشر الدين. كيف تحوّل هذا؟

هذه صورة من صور أننا نريد أن نجعل الأمة كما نريد؛ فإذا رأينا شيئًا مختلًّا اعتبرناه خارج إطار السنة!، والدليل ما ضربناه لكم: لما رأى المحاضرة الممتلئة، والناس يُقبلون على الدين، قال هذا خلاف السنة، لا بد في المسألة من غلط. وفي الحقيقة الغلط هو أنك افترضت أنه يجب أن نمشي في هذا الطريق ونُحضر نخبة. لا؛ إذا أقبلت الأمة أنت تقبل معها، وإذا أدبرت الأمة أنت تُكيِّف نفسك مع هذا الإدبار ولا تُصدم.

التغيير الاجتماعي فعل إنساني، لا يوجد أحد في الوجود قادر أن يتنبأ في الفعل التغييري المختص بالإنسان أو يتوقع ماذا سيكون غدًا!

كبار صنَّاع الثورات في العالم قبل انتصارها بلحظات لم يكونوا يعتقدون أنها ستنتصر. لينين قبل ستة شهور من انتصار ثورة البلشفيَّة سنة ١٩١٧ كان يمشي في قطار في ألمانيا، فسأله صحفي فقال: إذا أحفادنا عاشوا الثورة البلشفية فنحن سعداء!.

على طريقة عبد الله بن حنظلة الغسيل ذهب وحفر الخندق، قال كيف انتصر النبي ﷺ؟ انتصر بحفر الخندق حول المدينة، إذًا نحفر خندق أيضًا، من أجل أن يصدّ جيش يزيد مسلم بن عقبة، والخندق ما نفع. هذه طريقة فرض الرُّؤى على الواقع بطريقة غيبية أو بطريقة تاريخية، وهذا خطأ! الواقع هو الذي يفرض عليك أن تتعامل معه، لا أن تفرض رؤاك على الواقع.

الواقع موجود، عندك مسلمين، مفتوح لك الدعوة، لماذا السرية؟! الناس موجودون ويدعون إلى الله، والمساجد موجودة. تصور واحدًا في بريطانيا ذهب يدعو إلى الإسلام بسرية! تظل تدعو إلى الله ولا أحد يقترب منك. بل تذهب وتدعو جهرًا، ويقترب منك الأمنيون يراقبونك ليعرفوا من أنت وكذا ولكن لا يتدخلون معك، وتدعو الناس للعمل. في لحظة من اللحظات تأتي المواجهة، لا بد منها، هذا شيء طبيعي المواجهة بين الحق والباطل، بين الجاهلية والإسلام لا بد أن تكون يومًا من الأيام، هذه سنة الدَّعوات. لا نقول فقط بين الحق والباطل، بل بين الباطل والباطل، الصراع على المكان الواحد يُوجب قتالًا وزحامًا.

ففرض الرؤى هذا غير صحيح.

هناك نقاط كثيرة؛ لأن الأستاذ له هيبته وله احترامه وله تجربته، ولكن عندما يطرح قضايا التغيير تصبح رؤى شخصية.

هناك نقطة مهمة جدًا وأرجو أن تُفهم؛ لأننا نعاني من آثارها، وأنا والله أُشهد الله أن هذه الكلمة من مقالاتي من سنين، من أكثر من خمسة وعشرين سنة وأنا أدعو لهذه الكلمة.

وأنا سأبتدئ كلماتي فيمن أنتسب إليهم، وفي الحقيقة أنا مسلم؛ أنا تبليغي، وصوفي، وسلفي، وإخواني، وكل شيء. أنا ما تركت مرحلةً وما حملتها معي، وهذا بفضل الله، ما من مرحلة عشتها إلا وحملتها معي، وما تركتها ورائي.

لكن هنا نقطة وهذه نعاني منها من الحركات الإسلامية جميعًا، وخاصة للأسف ممن أفرزته بعض الحركة الجهادية مشوَّهًا، هو خرج منها ولكن خرج مشوهًا، المرأة تلد مشوهًا ولا تُريده لكن بسبب مرض، بسبب عوامل، فيروس يدخل فيها يخرج مشوها. كما خرج الخوارج من علي -رضي الله عنه-، كما خرج التكفيريون من الإخوان المسلمين في مصر. وأنا أخاطب الحركة الجهادية لأنه في النهاية سيكون الكلام أكثره لهم:

من ظنَّ أن الحركة الجهادية أو حركة التغيير المسلمة هي حركة مادية فقط فهو جانٍ على هذه الحركة. ومن ظنَّ أن التغيير في الجانب الآخر أن حركة التغيير في الأمة هي حركة فكرية فقط فهو جانٍ على الأمة.

الحركة الجهادية للأسف هذا موجود في داخلها، إلا من القادة. لو سألتني عمن أعرفه من القادة وعشت معهم لا يقولون هذا، لكن للأسف أفرادها لم تصل إليهم هذه الرسالة. والقادة من الصف الأول من الأدنى والثاني للأسف لا يعرفون هذا، يظنون أن التغيير في الأمة هو تغيير مادي، وأننا بقُدرتنا في موطن من المواطن وفي مواجهة من المواجهات على هرس خصومنا وإبادتهم والانتصار عليهم يُحقّق إحياء الأمة، وهم على خطر عظيم، وكلامهم لا يُقبل البتة.

حركة إحياء الأمة حركة شاملة، تشمل الإنسان نفسه؛ فكرًا، تربية، إعدادًا، علمًا. وكذلك هي في الشق الآخر: هي حركة مجاهدة، مجاهدة أي بالمفهوم القرآني: يعني حركة مقاتلة يجب أن تتصدَّى لخصوم الأمة تصديًا حقيقيًا.

الأستاذ محمد قطب في النهاية يصل إلى ما نُسب إلى أخيه في كتابه (لماذا أعدموني) من ضرورة تكوين جماعة قادرة على أن ترد على خصومها؛ لأن تجربة الإخوان في مصر تجربة مؤسفة، عشرة آلاف أو عشرين ألف أو ثلاثين ألف في ليلة واحدة يأخذونك ويرمونكم في السجن ولا ترد عليهم بطلقة! ولا ترد عليهم بمواجهة خوفًا من الدم، ثم أنت تدفع من الدَّم أضعاف أضعاف ما خِفته! هذه مصيبة، هذه طامة!

وافتراض أن خصمك يسمح لك بأي مدى تمشي فيه هذا افتراض جاهل، أنت لا تعرف خصمك. هؤلاء لم يقرؤوا القرآن ولا يعرفون خصومهم.

نحن إلى هذه اللحظة التي نعيش فيها -وحتى أبو قتادة نفسه- لا نعرف خصومنا كما وصفهم القرآن من الخسّة والنذالة والجبروت والدمار وقدرتهم على الدماء. والدليل الذي فعله السيسي في مصر! يعني كنت أتصور هروبنا نحن من الدماء والخوف، وهو خوف غير شرعي، يعني أن تخاف من قتل المسلمين لا يجوز لك أن تقتل مسلمًا، ولكن هنا يأتي الحكم: لما يقول لك الشرع هذا حكمه مرتد، وحكم المرتد في دين الله أشد من حكم الكافر الأصلي هذا ليس حكمًا شرعيًا متعلّقًا بعالم الغيب فقط، هذا هداية لك؛ لأن المرتد هو أشد إيلامًا لك لو قدر عليك من الكافر الأصلي. وبالتالي يجب أن تتعامل معه تعامل الصديق مع المرتدين. ليس هناك مسامحة ولا مهادنة.

وإذا تورّعت تورعًا باردًا كاذبًا فالنتيجة هي ما يفعله السيسي، وما يفعله النصيريون في الشام، ما فعله الزنادقة في العراق. وانظروا إليهم ماذا يفعلون، وفي كل موطن عليك أن تتوقعه في كل موطن.

القذافي لو استطاع أن يُبيد أهل ليبيا يفعلها أو لا يفعلها؟! كلهم لرمى عليهم الأسيد مرة واحدة!

أنتم أمام خصوم لا يتورّعون من الدم؛ فإما أن تكون صوفيًا لا دخل لك في الحياة، تسبِّح، وتصلي على النبي، وتقوم الليل، ولا يسمع صوتك إلا زوجتك تحت الفراش، أما خارج البيت لا يخرج لك صوت. وأما إذا أردت لصوتك أن يخرج خارج بيتك فلتُعِدَّ نفسك للدم؛ فإما أن تظفر به وإما أن يظفر بك.

فإذا ظفر بك فلا تلعنه، وتقول: أنا ما كنت أتوقع منك ذلك! بل عليك أن تتوقع منه أكثر.

وإن ظفرت به وفعلت ما فعله مرسي فحينئذ الجناية عليك، أنت الملوم ولا تلم خصمك!.

نرجع إلى القضية التي بين أيدينا: إذا اعتبر البعض أن الإحياء هو فقط أن نقضي على خصمنا من خلال أشخاص يُديرون المعركة وهم البارحة خرجوا من الجاهلية فلا يعرفون إلا السلاح؛ فأرادوا قيادة حركة الأمة في التغيير الشامل هؤلاء من أجهل خلق الله، هؤلاء مُفسدون أكثر مما يصلحون.

هذه كلمة لا يُزعم أني أقولها اليوم، هذه أقولها من سنين منذ أن عرفت دين الله -عزَّ وجلَّ-. وهذا الذي قلته في (بين منهجين) وكُتب في (الجهاد والاجتهاد).

الحركة الجهادية هي حركة شاملة لتصحيح مفاهيم الأمة وتصحيح عباداتها، وتصحيح سلوكها، وكذلك أخذها بأسباب القوة والمواجهة. إنتاج المسلم الصحابي هو ما نريده لهذا العصر.

في الحقيقة لو قرأ المرء كتاب الأستاذ محمد قطب يرى هذا من حسنات هذا الكتاب. لأن هذا الكتاب ينفع المثقفين، كما ترون عندما يتكلم عن التاريخ يمرّ عليها مرورًا سريعًا، الإرجاء مرور سريع، الأمة مرور سريع، فهو يصلح للمثقفين؛ فإذا أراد أحد أن يقول: كيف تريد أن تنشئ إنسانًا؟ تقدم له هذا الكتاب. ما هي جذور الانحراف الذي نعيشه؟ تقدم هذا الكتاب.

لكن إذا أردت أن تقول له: كيف يخرج المسلمون مما هم فيه؟ هذا الكتاب يصلح صلاحية جُزئية وليس صلاحية كاملة.

بعض الناس عندهم إحياء الأمة أن يحقِّق حديثًا، ويعتبر هذه هي السلفية التي دعا إليها مالك بن أنس -رضي الله عنه- لإصلاح الأمة: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها"، فيقول أولها حقَّق حديثًا، فيذهب ليحقق الأحاديث!.

أحدهم قال مرة: والله ما من سبب لفساد الأمة إلا أخذها بالقياس! تصوَّر!! الشرك والكفر والهزيمة والضلال الذي تعيشه الأمة سببه القياس، لو تتخلَّى عن القياس ينتهي الموضوع.!

فبعض الناس هكذا.

أحدهم مرة سمعني أتكلم عن الأمة وفسادها، فهو من العباقرة! قال: هل تدري ما سبب الفساد الأمة يا شيخ؟ قلت له: ما سبب الفساد؟ قال: سبب الفساد أن الأمة غيّرت شرب السيجارة الهيشي إلى شرب السيجارة الجاهزة، فصاروا نواعم، لو ظلوا خشنين والسيجارة يصنعونها بأيديهم كان بقيت الأمة رجالًا!.

نكتفي إلى هذا، وإن شاء الله الكتاب يحتاج جلسة أخرى لمراجعة لما يقوله في كثير من أفكاره، ونسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يغفر لنا، وأن يسامحنا أحباب الأستاذ محمد قطب في مناقشتنا له؛ لأن المسألة تتعلق بواقع.

ومع ذلك فأنا أقول كلمة: إن الواقع اليوم تجاوز هذه الأفكار. أنا أتكلم عن قضية طريق التغيير، الواقع تجاوزها، تجاوز الجماعات، والخصومات القديمة؛ كيف نصنع المسلم المعاصر؟ كيف نقاتل؟ الناس تجاوزوها، وهذا من أقدار الله الرحيمة بنا؛ لأن الله أعطانا أعظم مما أمَّلنا.

الجهاد اليوم والله هو عطاء وهدية ربَّانية أكثر مما طلبها أهلها، فلا تحزنوا لما يحدث هذا خير عظيم وبركة من الله -سبحانه وتعالى-، وهدية نسأل الله أن يُقيم لها رجالها.

الأسئلة

- **سؤال**: (.....)[٧].

الشيخ: هؤلاء الذين جاؤوا من الجاهلية، نحن أمام مشكلة أناس عاشوا الجاهلية، فلما جاؤوا صاروا قادة للسلاح؛ فظنّوا أن بهذا السلاح يصلحون لقيادة الأمة سياسيًا، ولقيادتها شرعيًا، ولقيادتها إداريًا، ولقيادتها عسكريًا. عسكريًا مبروك عليهم؛ لأن الشباب لحقوهم وصاروا قادة. لكن هل يصلحون لقيادة الأمة في دينها، وفي علمها، وفي منهجها، وفي طريقة تغييرها؟!

لو قال واحد: ما قيمة محمد قطب وهو لم يقاتل؟ لو قيل لأحدهم ما قيمة الشيخ ناصر الألباني وهو لم يقاتل؟ هكذا هم يريدون في هذا الزمن. هذا جزء من المشكلة. وهناك جزء من المشكلة من يريد ألا يرى في الأمة إلا مجرد تغيير فكري، ومصارعة فكرية، وحين تقوم الأمة بمهماتها في القتال فيعُدُّ هذا من الخطأ.

يعني الآن مثلًا ما هو المطلوب عند وجود اليهود في فلسطين؟ أن تتحمل الأمة مهمتها في القتال. وهذا لا يمنع بقاء الأمة سائرة في قضية التربية، وقضية التصفية، قضية البيان، قضية التذكير، لكن الأمة يجب أن تتصدى لخصومها، ويجب أن تبني نفسها؛ البناء المادي الحقيقي الذي به يتحقَّق مقصد من مقاصد الشرع وهو إخضاع الناس لألوهية الله كما خضعوا لربوبيته، كما يقول ابن القيم وهذا لفظه -عليه رحمة الله-.

بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا.

والحمد لله رب العالمين.

---

[٧] انقطاع في الصوت.

الجلسة الثالثة:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين، حبيبنا وإمامنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرّ الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله –عزَّ وجلَّ– وإياكم منهم، آمين.

أيها الإخوة الأحبة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. هذا هو **اللقاء الثالث** بخصوص كتاب الأستاذ محمد قطب –رحمه الله تعالى–.

وابتداءً عندي بعض النقاط من أجل أن أبيّن بعض الأمور المهمة في قراءتنا لمثل هذا الكتاب، ولمثل هؤلاء الرجال.

الأمر الأول المهمّ في الموضوع: **وهو أننا يجب علينا أن نقرأ هؤلاء الرجال كجزء منا**؛ أن نتعامل مع تاريخ من مثل الأستاذ محمد قطب ممن يسمَّون بالمفكّرين الإسلاميين أو بالدعاة المسلمين أو بالعاملين في حقل تربية الأمة وإعدادها، أن نتعامل معهم ليس باعتبار الآخر وإنما باعتبار الأنا؛ أننا منهم وأنهم منا، وأننا جزء من هذا القارب الذي يحوينا جميعًا وهو قارب الإسلام، ونريد جميعًا أن نصل به إلى مستقَرِّه.

أولًا المستقَر هو أن ندرك ما هو دين الله حتى نعمل به على حقيقة وعلى نور وعلى بصيرة. وثانيًا أن يقودنا هذا المركب إلى رضى الله –عزَّ وجلَّ– وإلى دخول الجنة، ونحن نقود هذا المركب كذلك إلى مستقرِّه من النصر والتَّمكين.

هذه الكلمة يمكن أن يرددها الجميع على اعتبار أن الكل يزعم أنه نائب عن الأمة!، وهنا تأتي المشكلة؛ أن الكل يزعم أن الأمة قد تركت دين الله، وتعطّلت عندها الأحكام الشرعية، وجهلت دين الله –عزَّ وجلَّ–، وكل هذا الكلام يمكن أن يُناقش وأن يُقيَّد وأن يُثقَّف حتى يصل إلى فهم صحيح، ويمكن أن يُرد، ويمكن أن يُقبل بالكلية.

لكن اعتبار البعض أنه يمثّل الأمة وأنه منوب عن الأمة، أو أنه يمثّل الصوت الإلهي والنيابة الربّانية في قيادة الأمة، مع إلغائها وإلغاء الجميع، يريدون إلغاء الجميع من أجل أن يكونوا هم فقط ليقولوا: نحن الأمة ونحن الذين ينبغي أن نقود، وبنا بدأ التاريخ الإسلامي. كل هذه أعراض مَرَضيَّة!

والجواب على هذا أن نعتبر أن كل من بنى لبنة في صرح الإسلام العظيم هو الأمة وهو منها؛ فإذا فهمنا هذا قرأنا قراءة عادلة، **ولا بد من القراءة العادلة؛ لأن القراءة الظالمة تُنتج أحكامًا ظالمة**، وإلغاء العامل ظلم، والله -عزَّ وجلَّ- لم يجعل في هذا الوجود ذنبًا أعظم من ذنب الظلم؛ فالظلم ظلمات يوم القيامة، والطريق الحق هو العدل والإنصاف.

فإذًا الأمر الأول الذي يُوجبه علينا دين الله، وواقع وجودك أنت مصليًا في المساجد، عالمًا بما دار من مؤامرات ومكائد حول الإسلام، واضعًا رجلك على الطريق، يجب عليك أن تعلم من الذي مهَّد لك هذا الطريق.

عندما تقول أنا ذاهب للمسجد، عليك أن تنظر من الذي بناه، إن لم تعترف بفضل من بنى المسجد لك قبل سنة أو سنتين أو مائة سنة فأنت ظالم!

عندما ترى أنك أنت الذي بدأ بك الإسلام، سيُقال لك من الذي بنى هذا المسجد الذي تصلي فيه؟! أنت تفهم الآن السنة النبوية، من الذي أفهمك السنة النبوية؟

عندما تعلم أن الإسلام يجب أن يكون حاكمًا في الوجود، من الذي علّمك هذا الحكم؟ من الذي أوصل لك هذا الدين؟ ما الذي ضحَّى؟

الإسلام عانى وما زال يعاني من مكائد أعدائه، وأرادوا له أن يذوب وأن ينتهي. وطبعًا كلمة الانتهاء هنا لا تعني أنهم يريدون إلغاء الإسلام بالكلية، هم يعرفون أن هذا لا يكون، ولكن يريدون إزالة عنصر القوة فيه، لا يريدون هذا الإسلام الفاعل في الحياة. وبالتالي هناك نماذج يمكن أن تُبنى أو تُستثمر في واقع الأمة وتصبح هي التي تمثّل الإسلام.

وبالفعل التاريخ القريب لنا لمثل هذه النماذج موجودة. يعني النماذج المشيخية التي لا تريد للإسلام أن يكون له حضور في حياة الأمة، وتريد أن تنتكس فيه، ما زالت إلى الآن تعيش بيننا. النماذج السلفية المعروضة اليوم مما ترون من أسماء هؤلاء عندما تقوم مظاهرة مثلًا فيقولون: هؤلاء ليسوا سلفيين، أو الذين يجاهدون فيقولون: هؤلاء ليسوا سلفيين، فما هي السلفية عندهم؟! هي انتكاسة نحو الداخل! أن تترك الحاكم وما هو فيه، وأن تترك قضايا الأمة وما تعيش فيه، وتعيش ذاتك؛ أن تتعلم الدين بما يخصك أنت، هذه صوفية وإن تلبّست بلباس السلفية!

فإذًا عندما ترى أنت أن الإسلام قد قاوم عوامل التذويب وعوامل الإفناء وعوامل الإلغاء أو عوامل نزع فتيل القوة منهم، من الذي سبقك في هذه المعركة؟

هذا ما يهمني أكثر من اهتمامي بأن نناقش كتابًا على صفة ما أو على محاوره الذي أقامه كاتبه عليه.

أنت الآن ترث ميراثًا، يجب عليك أن تكون أمينًا في وصفك لهذا التراث. ويجب أن تعترف أن هناك من الناس من قام به وأوصله إليك.

نحن قرأنا مثلًا من كتاب الشيخ مصطفى صبري كنموذج، وإلا فمعركة الإسلام ضد التذويب وضد الإلغاء وضد التطويع قام بها علماء ثبّتوا الإسلام، أوصلوا لك أن الإسلام هو الحق. كان هناك مشايخ وتيار كبير جدًا يريد تطويع الإسلام للفكر الغربي، لمنهج الجاهلية. ويقوم عليه سدنة وعلماء بعضهم مُستأجَر وبعضهم مُخلص ظن أن هكذا هو الدين. فمن الذي نجح في إبطال هذه المعركة؟! هناك علماء.

إذا كنت تريد الإسلام الصافي فأنت وارث لهؤلاء؛ إذًا يجب عليك أن تعترف، تقول: جزاكم الله خيرًا، وتُكرِّر مقالة الصادقين ممن مدحهم القرآن: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ}. وليس الذي سبقك بالإيمان هم الصحابة فقط، وإلا لانقطعت سلسلة السند بينك وبينهم، بعد الصحابة جاء التابعون، وقبلك وأنت تقف هذا الموقف اليوم هناك جماعة، أنا لا أقصد الجماعة بمفهوم التنظيم وإنما أقصد أمة.

بداية انحراف أي جماعة أن ترى نفسها أنه بها بدأ الدين، وهي التي ورثت الجميع، وحُقّ للجميع أن يدخل في داخلها لأنها ورثته. ما زلنا لم نصل لهذه الدرجة.

الجماعة الوحيدة التي لها الحق أن تدخل الأمة في داخلها لا تكون إلا جماعة الأمة، ووصفها أنها هي الجماعة التي استطاعت أن تمكّن للدين في الأرض بحيث يدخل فيها المسلم وقد رأى نفسه أنه دخل البيضة الحامية له، والإمام الجُنَّة الذي يقاتل من ورائه.

وحينئذ لا يمكن أن تكون جماعة، حينئذ تكون هي الأمة!

وبعد ذلك تبقى عملية إدارة الإسلام في داخله؛ العلماء في مساجدهم ومعاهدهم، والتربويون، والإداريون، والمجاهدون، وكلهم تحت هذه المظلة. قبل ذلك هي دعاوى!

وهذا المرض ليس خاصًا بجماعة، هذا مرض موجود في داخل المشايخ، وموجود داخل التنظيمات، كلهم يرى أنه هو الذي يحقّ له أن يقود الأمة، أو أنه ورث جميع مُقدَّرات الأمة في داخله؛ ولذلك هو يلغي الآخر!

إذا استطعنا أن نزيل هذا الشر، وهذا الفصام النكد بين الجماعات؛ فحينئذ يمكن أن يكون لك خير عظيم قادم.

الذي يعيدنا لهذا هو أن ننظر إلى أن كل الناس قدَّموا خيرًا عظيمًا. هناك مشكلة، أن يستطيع الكاتب أن يتجاوز تنظيمه؛ هل يمكن للمرء أن يقدم خيرًا للأمة جمعاء؟ والأمة تنظر إليه أنه إنتاج إسلامي دون أن ينتمي لجماعة؟

في الحقيقة أنا أعتقد أن الرجل الذي يعيش خارج جماعة ولا يسعى لها هو ضعيف.

في وقت من الأوقات ينبغي أن تكون هناك الجماعة، وهذا ذكرناه في دور الجماعة في إحياء الأمة، وفي كون هذه الجماعة هي الصاعق والجمر الذي يمدّ النور والقوة والحرارة لداخل الأمة. لكن أحيانًا يحتاج هذا العالم إلى قدرات عالية حتى يصبح هذا العالم إنتاج أمة وهو يعيش مع جماعة.

أبو الأعلى المودودي مثلًا، هذا إنسان كوَّن (الجماعة الإسلامية) -نحن لا نناقش الآن سلبيات أو إيجابيات، هذا موضوع آخر-، لكن هل استطاع أبو الأعلى المودودي أن يصبح إنتاجًا إسلاميًا بحيث يقرأه الجميع؟ هذه تحتاج إلى عملية متبادلة، منه هو، ومن الجماعات الأخرى.

منه هو: وذلك بأن يتكلم عن الإسلام ولا يتكلم عن جماعته، وأن يتكلم عن هموم الإسلام حتى لو لم تكن من إنتاج جماعته. عندما يرى أن هناك عظمة أو بناءً ما خارج جماعته حقق خيرًا للإسلام فيمدحه ويجعله جزءًا منه، ويتكلم عن قضايا الإسلام باعتبار عمومه لا باعتبار جماعته؛ فحينئذ هو حقّق المقصد منه.

تبقى القضية الثانية والمتبادلة من الآخر: الآخر ينبغي أن ينظر إليه أنه إنتاج إسلامي، وأنه ينبغي أن يُقرأ، وأن يُحترم، وأن يُقدر، وأن يُناقش خارج إطار عقلية التنظيم ضد التنظيم.

ربما هذا الكلام اليوم البعض يشعر أنه غير مهم لكن ما زلنا نعيش مرضه. اللقاءات بين الجماعات المسلمة، وبين الطوائف، وبين التيارات القديمة والحديثة ما زالت للأسف ليست عرجاء لكنها كسيحة، وحتى التنظيمات التي تنشأ جديدة وهي تحمل

منهجًا واحدًا وطريقًا واحدًا أو تعيش بلاءً واحدًا داخل إطار بلد واحد، ومع ذلك تجد هذا البلاء والانشقاق والنظر أنه يتعامل مع نفسه كأنه هو الثقب الأسود، الذي ينبغي أن يبتلع الجميع وأن يدخل الجميع في داخله لأنه هو مركز القوة، وهذا خطأ.

ومن هنا هل يمكن أن ندرس الأستاذ محمد قطب باعتباره إنتاج جماعة؟ هل هو من جماعة؟ فهذه المباحث التي نضعها في أذهاننا تشكل عائقًا في قراءتنا له، اذهب إليه واقرأه كما هو لا باعتبار جماعته، اذهب إلى أبي الأعلى المودودي واقرأه باعتباره إنتاجًا إسلاميًا، تستفيد منه وتحقق رقيًا في داخلك، لأنه إنتاج حقَّق الخير الكثير للأمة.

عندما تذهب لسيد قطب لا تتعامل معه بهل سيد قطب إخواني أو ليس إخوانيًا؟ ما هي القيمة المرجوّة في بحث هذه المسألة؟! الرجل مات وأفضى إلى ربه، والصراع الآن لا يدور حول شخصه هل دخل الإخوان؟ ثم هل رقَّاهم؟ إلى آخره، النظر يكون إلى منهجه وإلى ما يكتب، انظر إلى إنتاجه وتعامل معه باعتبار أن هذا الإنتاج هو إنتاج إسلامي.

لكن انظر لما يكون الصراع على أساس: سلفي إخواني مثلًا، وهذا مرض موجود في داخلنا للأسف، فلأننا نريد أن نسب على كل إنتاج إخواني فانظر ماذا فعلوا في سيد، انظر كيف يفعلون مع حسن البنا ويُخرجونه من إطار القدرة والإرادة إلى إطار العالم الذي كذب في كل شيء.

كما هو الحال في قضية المذاهب؛ الحال واحد ما زلنا نعيشه، لما يعتبرهم خصومًا: قال الخصوم، قال الخصوم..، ما الخصوم؟! الفقيه الحنبلي ليس عدوًا وليس خصمًا للشافعي، والشافعي ليس عدوًّا للحنفي، هذا إنتاج إسلامي وينبغي أن تتعامل معه، هنا فقه وهنا إدراك وتعامل معه بهذا الإنتاج أنه يتكلم عن الإسلام لا يتكلم عن مذهبه ولا يتكلم عن شيخه، هو يريد أن يرى حكم الله لا حكم شيخه، وحكم الله لا حكم مذهبه، وهكذا.

والوصول لهذا للقارئ دور فيه.

وأنا قلت في الدرس الفائت أن الأستاذ في مجمل كلامه يرى أن الحركة الإسلامية -أي الإخوان المسلمين- هي الحركة التي يمكن تصحيحها من أجل أن تحقق الخير. وهذه نظرته، ولكن كما قلت لبعض إخواني نحن نخوض هنا في حقل ألغام دقيق جدًا، تخاف عند كل كلمة أن يثور فيك لغمٌ مضاد من قِبل الخصوم أو حتى من قِبل من تريد أن تعالجه وتريد أن تشكره.

نحن في الحقيقة أمام أمراض المتدينين؛ هناك أمراض ساكنة مثل مرض الحسد، مرض الاستعداء، مرض تجاوز الآخر، هذا موجود في داخل التيارات الإسلامية، ونحن منهم، نحن لا نتحدث لأننا فوق، لا تظنوا أن المتكلم جالس فوق مَرْقَب والناس يعيشون في داخل البحر وهو يتحدَّث عن البحر، لا، كلنا غرقى في هذا البحر، كلنا نعاني فيه، ولكن جيد أن نكتشفه، جيد للمريض إذا أراد أن يعالج نفسه أن يكتشف نفسه من أجل أن يعالج نفسه؛ لأنه إن لم يكتشف أنه مريض لن يعالج نفسه، بل يصبح هذا المرض مصدر لذّة، ويعتبر أن هذا المرض عامل من عوامل القوة!.

الآن لما يتكلم واحد عن قتلى رابعة، ويعتبر أن هذا الحدث تميُّز إلهي له! لما يقول: هؤلاء قُتلوا وليتهم قُتلوا جميعًا! هو يتمنى أن يُقتل ربع مليون من أجل أن ينصر مذهبه، ويعتبر أن هذا مصدر قوة وأن هذا تميز إلهي له!

كحال المريض الذي يُصاب بالجرب، فما هي لذته؟ أن يهرش ويهرش، هو يهرش ويظنّ أنه يعالج نفسه وفي الحقيقة يقتل نفسه، ويسيل منه الدم والقيح وهو فرح به مستلذ بهذا الهرش! هذا حال كثير من الناس، يظن أن الأمراض التي يعيشها هي ميّزة ربّانية أُعطيت له!

وليت بعض علماء المسلمين كابن الجوزي يؤلّف لنا (تلبيس إبليس) جديد! نحن بحاجة اليوم إلى تلبيس إبليس جديد، انتهى هذا التلبيس، هو موجود ولكن صار عندنا تلبيس جديد. مثلًا لو أراد الشيخ أن يتقرّب للناس، وسُئل مثلًا عن البنك الإسلامي، وهذه أعاني منها أو يعاني منها أي إنسان يكتشف أنه يمكن أن يكون هذا إسلاميًا، ما هو الأقرب للعوام؟ وما هو الأقرب للبيئة الدينية؟ ماذا تقول حتى لا تكون أنت من أبناء السلطة ومن المشايخ الرسميين، فما الأقرب إليك؟ تقول: حرام، والشعار العام: ليس هناك بنك إسلامي وكلها بنوك ربوية، فهذا من تلبيس إبليس، لو يكتشف مثلًا أن مسألة قد حقّقت الشروط الإسلامية يخجل منها! حتى يصبح رجلًا راديكاليًا (متعصّبًا، شديدًا، وقوّالًا للحق)، فيقول: كله حرام يا شيخ، لا تقول فيها شبهة، يضحكون علينا، وهكذا. وهو لم يقرأ، وإذا قيل له: تعال افهم، فيقول المسألة طويلة، أظن ما جاوبتني على أسئلتي وهو لا يريد أن يعترف!.

وهكذا لما نريد أن نتكلم عن جماعة ففي بيئات معينة من الخير مثلًا وتُحب أن تقول: هذه جماعة ضالة، ويزيد الآخر يقول: جماعة ضالة. هناك من ألّف كتابًا وهناك من أعطى محاضرة ليقول أن حسن البنا ماسوني!. يعني حسن البنا عدو للإسلام، وجاء ليكيد للإسلام ومربوط باليهودية وإلى آخره. نفس الشيء يُقال عن حزب التحرير، أنت تنقض حزب التحرير نقضًا

علميًا، جماعة اجتهد صاحبها وأخطأ، لكن أن تقول: هي إنتاج يهودي! حينئذ تصبح كالسُّعار؛ كلما زدت تصبح مقبولًا في داخل بيئات معينة. وهذا خطأ، وهذا من تلبيس إبليس. عليك أن تقف مع حدود العدل والإنصاف مع الجماعات.

عندما يريد واحد أن يجعل جماعة ما أنها شرٌ كلها، فهذا في الحقيقة ظلم!

ولما تكلمنا عن الإخوان مثلًا أنت تشعر أن الرجل يُنصفهم، يرى أنهم بالفعل حقَّقوا صدمة الإسلام المدني ضد جاهلية أرادت أن تعزل الإسلام عن هذه الصورة، الجاهلية تريد أن تُقدِّم الإسلام باعتباره مشيخة عفنة، والناس لماذا تركوا الدين؟ يعني واحد اقتصادي لماذا يترك الدين؟ هو لا يرى الإسلام الذي يحبه، وهو إسلام الحضارة، إسلام النور، إسلام العظمة، الإسلام الذي يقاوم، النبي المسلَّح، فهو لا يرى إلا شيوخًا في الزوايا!، من الذي أخرج الإسلام من هذه الصورة؟ في الحقيقة نماذج مسلمة منا ومنهم.

إذًا هذه النقطة المهمة جدًا في هذا الباب: **علينا أن نتعامل مع كل إنتاج إسلامي أنه منّا**. هذه نصيحة لله –عزَّ وجلَّ–: تعاملوا مع كل عامل للإسلام أنه أخوكم، أنه منكم، يوجد النقد، توجد المخالفة، يوجد الرد عليه، هذا كله مشروع، ولا ينبغي أن يتوقَّف. هذا ليس إلغاءً لعملية النقد والمراجعة، وحتى الخصومة في العلم، هكذا قام العلماء. وبالتالي هذه الصورة المشرقة التي تروnها في علمائنا كيف يرد بعضهم على بعض؛ فإذا كانوا معًا ترى الاحترام والتقدير وكان الإسلام يعيش عزيزًا.

اليوم ما هو المطلوب وأنت تعيش إسلامًا محاربًا؟! المطلوب هو أن تتكاتف مع أخيك.

ويمكن أن ترد عليّ وتقول: أنا أتكاتف معه وهو يطردني!. عليك بحديث النبي ﷺ: (لئن كنتَ كما قلتَ، فكأنما تُسِفُّهمُ الملَّ) ابقَ هكذا، وأنت إذا بقيت هكذا ستُنشئ خيرًا عظيمًا في الأمة.

ونحن في الحقيقة نعاني من قضية قراءتنا للأغيار، وإذا جاز لنا أن نستفيد مما كُتب من غير المسلمين في أمور الحياة، التي هي من العلم المُشاع؛ فمن باب أولى أن نستفيد من علمائنا المسلمين وما قدّموا للدين.

النقطة الثانية: **أنه من الصعب جدًا أن تقرأ في كتاب وتُقدِّمه تَقدِمة شاملة**؛ فالتَّقدمة الشاملة هي التقدمة العادلة، وهذه صعبة إلا أن تتفرغ، أن يصبح دورك أن تُقدِّم هذا الكتاب بما هو فيه، وأن تناقش كل مسألة، هذه أنا معها، هذه أنا ضدها، هذه مقبولة، هذه ممكنة، إلى آخره، وهذا صعب.

ولكن التَّقدمة التي بها يتم سلوك سبيلًا تحاول به أن تعرف عمود الصورة للكتاب فهذه قد يقع فيها الخطأ ولكنها ضرورية، هكذا هي الحياة! فربما أنت لا تستطيع أن تضع الدواء في داخل البدن حتى تجرحه، حتى تخرقه بالإبرة؛ فأنت مضطر إلى هذا الألم.

وبالتالي ما يقال عن مناقشة للأستاذ محمد قطب، نحن لا نستطيع أن نناقش كل كلام له، وهناك جوانب كبيرة وعظيمة جدًا أنت تقبلها منه. يعني خلاصة هذا الكتاب، لو قيل لأحد ما هو كتاب (واقعنا المعاصر)؟ عمود الصورة فيه نقطتان: النقطة الأولى هو وصفه للواقع مع جذور تكوّنه المعاصر، وجذور الانحراف الذي نعيشه، مع جذوره التاريخية منذ أن تغيَّرت مسألة الإمامة إلى يومنا هذا، وهو يعترف في كثير من المرات: "نحن لا نؤرّخ، نحن لا نفصّل، ولكننا نرسم صورة عامة"، هو يكرر هذه الكلمة كثيرًا؛ لأنه يشعر أن كلامه لا يستطيع أن يجيب على كل الأسئلة في هذا الباب وإلا لكان في مجلدات.

فإذًا هو وصف لجذور الواقع مع وصفه للواقع بطريقة إجمالية، ثم بعد ذلك يُقدِّم العلاج. فالواقع وما تكلم فيه، الحقيقة لا تستطيع أن تخالفه كثيرًا.

ولكن نأتي إلى قضية ما يُسمى "**الصحوة**" ومدار كلامنا عليها: فهو يصل إلى موضوع "الصحوة"، وهنا يبدأ الكلام يدور على الأوصاف التي اعتبرها ناقضة لقضية عدم تحقيقنا مرادنا، وكيفية سلوك الطريق القويم في تحقيق هذا المقصد.

يقدم الأستاذ محمد قطب كلمة واحدة لعملية الإخفاق، يقول إن عموم الجماعات سقطت في قضية "الاستعجال". هذا الذي يدور حوله، -طبعًا الكتاب ليس أكاديميًا، ولكن المرء ينبغي أن يتعامل معه أكاديميًا ويقسمه إلى فقرات تاريخية وفقرات علمية-.

يقول الأستاذ محمد قطب في كلامه بأن الجماعة الأولى التي كوّنها الشيخ حسن البنا -رحمه الله- أغفلت قضية العقيدة! وهذه نوافقه عليها بالإجمال مع الاختلاف في التفاصيل.

يقول بأن الجماعة لم تُبنى بناءً عقائديًا، لكن الشيخ حسن البنا ظنّ أن العلم موجود في الأمة لكنها ناقصة الوجدان والعاطفة الدينية. هذا خلاصة كلامه حول توصيف الواقع، وبالتالي يقول بأن هذا جزء من الاستعجال بالنسبة للحركة الأولى.

ثم بعد ذلك يقول: بعد أن أدركت جماعات كثيرة هذا الخطأ وأرادت رعاية موضوع العقيدة وقعت في المرض الأول وهو الاستعجال، ويمثِّل على الاستعجال في الحالة الأولى كما في الحالة الثانية أن من الاستعجال الذي وقع أن جماعة الإخوان المسلمين كشفت عن نفسها في الدخول في حرب فلسطين.

صحيح أن الكلمات الجميلة تُخيفني، الكلمات الجميلة لم تعد مثيرة لدي، يعني واحد يأتي لي بفكرة جميلة فورًا أردُّها ثم بعد ذلك أناقشها، مع الاعتذار؛ لأن الأفكار الجميلة لا تمتُّ للواقع، الواقع شيء آخر تمامًا، الواقع معقَّد وليس بهذه السهولة. لو واحد سألته -قبل هذه الفترات الجهادية المباركة اليوم- عن كيفية إقامة دولة إسلامية؟ يستطيع أن يقدِّم لك نظرية رائعة جميلة على الورق، يقول لك: نربي ونأتي بجماعة، ونبدأ بالدعوة إلى الله، وتبدأ الجماعة تزيد، ونبنيها بناءً واحدًا، والقاعدة الإسلامية تتكوَّن، وبعد ذلك تخرج عصيَّة، كما وصفها الأستاذ محمد: بندقة قوية عصيَّة على الكسر، وبعد ذلك تدخل في المجتمع وتحقق الخير وتنتصر!.

كلام جميل، لكنه كلام سينمائي؛ لأنه لا حقيقة له ولا وجود له في الواقع، الواقع أعقد من ذلك.

فإذًا هذه صورة البناء عنده.

هو يقول بأن المشكلة في الجماعة الأولى أنها لم تُراعِ موضوع العقيدة، هذا كلام صحيح مائة بالمائة، لكن الموضوع الذي يُراد البحث فيه هو الذي هرب منه؛ لأن العقيدة هي التي تُنشئ الأحكام. لو سأل سائل: ما هي مشكلة الإخوان المسلمين مع الأنظمة التي سكتت عليها أو التي تعاملت معها حتى بعد الخروج -وهو يذكر قضية الانتخابات الدبلوماسية ونوافقه في كثير مما يقول-، أين المشكلة التي يعاني منها هؤلاء؟ **أنهم لم يجعلوا للعقائد سبيلًا للوصول إلى الأحكام في التعامل مع الواقع**.

السؤال: لماذا يتعاون هؤلاء مع الأنظمة؟ **السبب أنهم لم يُربَّوا تربية عقائدية**. ما هي التربية العقائدية؟ أن هؤلاء مرتدُّون، وهؤلاء كفرة. ولا تُحل قضية فلسطين حتى تُحل قضايانا في داخلنا، حتى نعرف من هؤلاء. حتى لا نصل إلى أن نتعامل معهم تعامل المسلمين وبعد ذلك نعيش تجربة مُتكرِّرة مرة وراء مرة ثم نكتشف أنهم خنجر في ظهورنا.

إذًا قضية الاعتقاد الذي نريده ينبغي أن نحلّل هذه الكلمات: **تربية الاعتقاد**، كيف نربي الاعتقاد؟ هو لا يريد أن يُدخل أفراده في الصراع قبل الوقت، هو لا يريد الاستعجال في قضية الصراع حتى لو حضر؛ لأن قضية فلسطين قضية حضور وليس

اختيار؛ هو حضر في بيتك، فرق بين أن تُنشئ أنت صراعًا وبين أن يحضر الصراع إلى بيتك وإلى داخلك. يمكن أن يكون كلامه مقبولًا ما لو نحن ذهبنا إلى قضية خارج إطارنا من أجل أن نحلّها، بخلاف مجيء اليهود من أجل أن يأخذوا فلسطين.

فتجييش الأمة لقضية فلسطين هذا عمل مبارك شرعي، الخطأ هو ما يدور حوله البحث، وهو كلمة ما هي "التربية الاعتقادية"؟ كيف تربيهم اعتقاديًا؟

أنا لا تهمّني الشعارات ولا الكلمات الكبيرة، ضع لي حدودًا واضحًا وتربية مميزة، كيف هي التربية العقائدية؟ أنا أتابع الشيخ ثم أكرّ على كلامه لأنه يرفض الأحكام، يقول: التربية العقائدية وهي أن تُعلّم أتباعك بأن من الدين ومن التوحيد، والذي ينقض التوحيد ما لو خالفته قضية "الحاكمية"، أن إعمال الشريعة من الدين، وأن العمل من الدين. بعد ذلك ما الذي سيُنتجه هذا؟ لو بقينا عند هذه النقطة فقط أين سنصل؟ ستصبح قضية كلامية، والواقع يُثبت لنا أن كل جماعة لا تسري بفاعليتها إلى الآخر يُصبح حالها في الداخل اجترارًا وتحطيمًا.

لو اجتمع جماعة ليُقرّروا عُمق القضايا المطروحة في داخلهم فسينتهي بهم المقام إلى أن يأكل بعضهم بعضًا، لأنهم يعيشون في الداخل، فإذا لم يخرجوا للآخر فحينئذ سترتدُّ هذه الفاعلية إلى الداخل تحطيمًا لذواتهم، وهنا تأتي المصيبة!

فإذًا لما يقول: بأن مشكلة الجماعات هي الاستعجال والحل هو التربية، كيف التربية؟ ما هي التربية التي تدعو إليها؟

الصحابة –رضي الله عنهم– تعاملوا مع الواقع، وقذفوا الأحكام الشرعية مع قريش، وبدأ الصراع، وثلاثة عشر سنة بعد الدَّفقة الأولى لدخول الجماعة الأولى في الإسلام، بعد ذلك عاشوا بيئة واحدة ومغلقة، وأقصى ما ذهب ﷺ إلى الطائف، وكان يأتيه الرجل فيقول: (ارجع إلى قومك فأخبِرْهم حتى يأتيك أمري).

نحن الآن لا نعيش هذه الحالة، ومحاولة جلب التاريخ لإلباس صورة قديمة على واقعنا هذه مَزلَّة أقدام، وهذه في الحقيقة مَهْلَكة! نحن نعيش واقع موسى –عليه السلام–، أقرب ما يمكن في صورة الأنبياء واقع موسى، أنه كان يعيش مع فرعون من أجل قضيتين: ليس فقط قضية التوحيد، ولكن أيضًا قضية الحق. ماذا قال موسى لفرعون؟ دعاه إلى الله، وأن يُخرج معه بني إسرائيل؛ لأنه هناك مشكلة في الواقع أنت تريد أن تحلها، هناك قضية تعيشها الأمة مثلًا قضية الفساد في داخل مجتمع من المجتمعات، قضية مثل عمل قوم لوط، أو فساد اقتصادي أو كما قال لهم شعيب –عليه السلام–: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ

الْمُخْسِرِينَ}؛ ولذلك قالوا: {أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا} علمانيون! أول علمانية دعوا إلى فصل الدين عن الاقتصاد هم قوم شعيب؛ لأنه دعاهم إلى إعمال الشرع في قضية الاقتصاد.

إذًا أنت في صراعك مع الواقع الآخر ينتظر منك أن تُطلق أحكامًا حتى تُحدِّد الموقف منه.

عندما يأتي اليهودي إلى فلسطين، ما هو الحل الشرعي؟ أن يقوم المسلمون بالدفاع عن الأرض؛ لأنها أرض إسلامية؛ فقوله إن هذا استعجال وكشفه لواقع الحركة هذا غير صحيح.

هنا نأتي إلى حالة أنا دائمًا أهرب منها لأنها معقّدة جدًا، لكن ربما أستطيع في هذه الجلسة أن أكشف ما عندي؛ ذكرتها في بعض كتاباتي في (صبغة الله الصمد) ولكن لا زالت تحتاج إلى بحث وبيان، وحاولت معالجتها في حديث (لو تفتح عمل الشيطان)؛ **المشكلة عند المسلمين أنهم لا يهتمون بجانب الإنسان في معرفة التحوُّلات الاجتماعية**. **أعقد شيء في الوجود هو عمل الأنبياء**، أعقد من صناعة الصاروخ، أعقد من الصعود على القمر، أعقد من بناء بيت، أعقد من بناء السدود، **أعظم شيء في الوجود هو صناعة الإنسان**.

أعظم قضية هي الإنسان؛ الإنسان شيء غريب جدًا، ومن هنا بعث الله الأنبياء، بل أكثر من هذا، مع أن الأنبياء يملكون أعظم الحكمة في الوجود، وهم أقدر الناس على إدارة حركة الحياة استقلالًا عن الوحي ما لو لم يكن هناك وحي، ومع ذلك الله قال لهم: هذه القضية ليست لهم، مع حكمتهم، ومع عقولهم، ومع إدراكهم، قال هذه القضية يجب أن تمشوا عليها خطوة خطوة كما آمركم في كل حركة، وليس لكم الاستقلال فيها، لماذا؟

لأن قضية التغيير الاجتماعي قضية معقدة، قضية خطيرة، الآن الحروب صليبية أين انتهت؟ انتهت في البوسنة والهرسك، جاء بطرس الناسك والأعور والأعرج تبعه، وأول حملة صليبية شعبية مشت حتى استقرّت في البوسنة والهرسك، وهناك وجدوا أراضٍ جميلة لخصومهم الكاثوليك واستقرّوا فيها وقتلوا وانتهت!. حركة الإنسان وهم ذاهبون في جموع من أجل أن يُحرّروا قبر السيد المسيح -كما يزعمون في دينهم- من الوثنيين وهم المسلمون. ومع ذلك انتهت!

القضية الاجتماعية قضية خطيرة، حركة الإنسان بلحظة واحدة تنقلب. بلحظة واحدة تتحرك هذه الجلسة من واحد يتكلم والباقي يسمع لو دخل مخالف الآن يستطيع أن يصنع ضجة ربما تصل إلى القتل، كيف حدث القتل؟ ليس له أي مقدمات،

هو رجل دخل؛ لأنه إنسان، وبعد ذلك يصبح القتل وراءه قتل، وممكن أربعين سنة كداحس والغبراء تمتد المعركة من أجل جمل، حرب البسوس من أجل جمل!

فحركة التغيير الاجتماعي لا ينبغي أن تُقرأ بسذاجة. هذه تفتح لنا بابًا: ينبغي أن نعترف بالقدر الإلهي في الحركة؛ لأن هذه القضية قضية دين. يعني عندما منع الله -عزَّ وجلَّ- حدوث قتال في الحديبية هل هو اختيار بشري أم هو تدبير إلهي؟ تدبير إلهي. هل هناك أعظم عقلًا من الصحابة؟ هل هناك ناس يفهمون الدين في الوجود أكثر من الصحابة؟ ومع ذلك نزع منهم هذا الفعل، لم يرد أن يُنفذ إرادتهم في القتال، منعها، وهم غاضبون ولولا أن رسول الله بينهم لذهبوا إلى القتال، ومع ذلك النبي قال نذهب إلى الصلح وأنا رسول الله ولن يضيّعني الله. غياب الرسول ﷺ لا يعني غياب التدبير الإلهي.

أنا أعرف أن بعض الناس يقولون: قدري، وبعضهم يقول: هذا جبري، ليست مشكلة، فليقال ما يُقال، وأنا أعيش هذا الدين مراقبًا، ومع ذلك تعجب أن هناك ثمة تدبيرًا خطيرًا ومحكمًا من أجل تحقيق فعل ولا يكون، تتعجب لماذا لا يكون؟ والله يصرف هذا الفعل، لتدبير إلهي لا تدركه. بعد ذلك أنت تبحث عن حكمة هذا الصَّرف. وهناك أمور لم يكن هناك داعٍ لفعلها وتقوم وتحدث، هذا جزء من الإجابة.

الأمر الأول: قراءة الحدث الاجتماعي كيف وقع، ينبغي أن يُقرأ قراءةً صحيحة وليس قراءةً ساذجة.

الأمر الثاني: الذي ينبغي أن يكون في هذه الدراسة هو النظر على قدر الله في رعاية هذا الدين، الله له إرادة أن يرعى هذا الدين.

إذًا لماذا يُقال أن سبب الفشل هو أننا كشفنا عن أنفسنا؟ لماذا نتعامل بأن هذه الجماعة فقط هي التي ينبغي أن تصل، وليست هي سلسلة من حلقة تمتد حتى تصل إلى النهاية؟

أرجو أن يكون كلامي واضحًا، يعني نحن لسنا رسول الله ﷺ بحيث نقول كما قال حزب التحرير: يجب أن يكون الداعي الأول هو الذي يحقق النصر، لسنا كذلك. لما الآن واحد يقرأ حركة الجهاد الأفغاني ويقول انظر ماذا أنتجت؟ فشلت وانتهت! كما يفعلون الآن، يضعون نصب القبور فوق كل الحركات. أنا لا أقرأها هكذا، هذا خطأ في القراءة، والذين جاهدوا من الأفغان لم يخطئوا ولم يستعجلوا، حققوا أمر الله في حياتهم، وحققوا أمرًا عظيمًا، وأنا أعتبرها سلسلة من سلاسل الوصول إلى تمكين الإسلام.

يعني عندما أرى المجاهد في سوريا أنا في حقيقة الأمر –وينبغي لكل عاقل أن يفهم هذا، مع الاعتذار أنا لا أسمي مخالفي غير عاقل–، لكن هذا واقع الأمر: من يقاتل في سوريا الآن هو إنتاج المعركة التي قامت في أفغانستان. لماذا ننظر أن كل حلقة يجب أن تحقق النصر؟!

الآن قضية البوسنة، من قال أنها فشلت؟! من الذي يزعم ذلك؟! الذي يزعم هو من لم يقرأ الواقع قراءةً صحيحة، وجاء إلى أناس مُسخوا من الدين ولم يعودوا يعرفون من الإسلام إلا أنهم فقط مسلمون من غير صلاة ولا زكاة ولا شيء، يريد خلال حقبة تاريخية صغيرة أن يُحقق خلافة إسلامية في البوسنة، فهذا تقول له أنت جاهل!. لكن هذا الجهاد حقق أمرًا عظيمًا.

انظر إلى البوسنة قبل الجهاد وانظر إليها الآن، وانظر إلى التغيير الاجتماعي الذي حدث فيها، إلى الانقلاب حول انتشار الدين، وأنها صارت ممدًا للإسلام، هناك مجاهدون في المشرق والمغرب من البوسنويين.

قلت لكم سابقًا: لا يجوز لنا أن نعتبر أن الفشل بسبب الممارسة الخطأ، الممارسة صحيحة، لكن لم يكن فيها عواملها.

الذين ذهبوا إلى الجهاد حقّقوا فعلًا عظيمًا، وأتوا الباب الذي ينبغي يؤتى منه. فلماذا فشلوا؟ فشلوا لعوامل.

الفعل عند أهل السنة ما هو؟ قدرة وإرادة. ماذا قال ابن حزم عن الإرادة؟ الإرادة هي سلامة الأعضاء، يعني عندك جماعة جيدين، هذا سلامة الأعضاء، هو يتكلم عن الفعل الإنساني الواحد، لكن عندما تأخذها على الجماعة يعني سلامة الجماعة؛ قوتهم، قدرتهم، إلى آخره. فسلامة الأعضاء هو عدم وجود المانع. المانع لماذا لا تهتم له؟ وهذا ليس فشلًا.

أنا أسألكم سؤالًا: هل الذهاب إلى الطائف كان فشلًا؟ أنت في نظرك أنه لم يحقق الغاية منه، لكن أنت لا تدري ماذا أحدث. والدليل انظر إلى سورة طه لما قال لهم موسى –عليه السلام–: {وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} هذه كلمة ماذا فعلت بهم؟

المشكلة عندنا أننا لا نناقش حركة النبوّة كحركة إنسانية لأنها محكومة بالنص، وإلا فإنه يجب أن نحكم على حركة الأنبياء أنها حركة إنسانية. الآن لو لم يوجد هذا الكلام في النص كان سيقول ماذا فعل موسى؟ المشهد غائب عنك، موسى قال لهم: {وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} انتهى المشهد، أدرنا وجوهنا ولا نرى شيئًا، ماذا سيقول القائل؟ فشل ولم يحقق شيئًا. يعني هو أراد أن يقول لهم لا تفعلوا هذا الفعل، هل فعلوه أم لم يفعلوه؟ فعلوه.

فالطريقة لتحقيق النصر كما يتصوره الناظر منا في المشهد الظاهر هو أن يقول: لم يحقق شيئًا، هو قال كلمة وانتهى، القرآن قال: {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ} المشهد وراء الكواليس، كشف لنا القرآن ماذا حدث، نحن لم نشاهد هذا المشهد، القرآن هو الذي كشف لنا هذا؛ لأن العليم القدير هو الذي تكلّم به؛ فقال: {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى}؛ لما قال لهم هذه الكلمة تنازعوا، هم أمامك عندهم صلابة، أقوياء على الباطل الذي هو معهم. لكن حيث أُغلق المشهد وإذا هم يتقاتلون فيما بينهم!.

ولذلك أيها الإخوة الأحبة **من أعظم هداية القرآن ليس كشف الحق فقط، ولكن كشف الباطل**، ولا أقصد الباطل فقط، هو يكشف نفوس أهل الباطل، يكشف لك أعداءك حتى ينتهي الإعذار. القرآن أعظم ما فيه في حكايته عن الأخبار والسيرة هو أنه **يكشف النفوس**.

فالمشهد أُغلق لنا في الظاهر، لكن الجماعة يتقاتلون في الخلف. ومن هنا هذه الكلمة لم يحدث فيها النصر المطلوب من إيقاف المعركة بين موسى وبينهم في قضية إلقاء الحبال، لكنها كانت حلقة للوصول إلى سجودهم بعد ذلك.

والدليل أنهم تنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى، صار هناك تنازع، تقاتلوا، ثم بعد ذلك قالوا: يا جماعة شدُّوا همتكم، والشيطان خرج لهم، {وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى}، لكن كيف انهاروا بعد ذلك؟ القرآن يكشف لنا أن النصر النهائي الذي تحقق بسجودهم لربهم -عزَّ وجلَّ- وبإيمانهم، لكن هذا النصر النهائي هل أتى بلا مقدمات؟ قضية بناء الجماعة.

نرجع إلى القضية حتى نربط الأمور، هي قضية متسلسلة وخطيرة: لبناء الجماعة التي نحقق بها النصر. هذا الذي حدث في مصر يجب أن تفهم أنه جزء وحلقة ضرورية، والدخول في فلسطين والمقاتلة فيها حلقة ضرورية، والذهاب إلى أفغانستان حلقة ضرورية، والذهاب إلى البوسنة حلقة ضرورية، وكل مسلم مارس فعلًا جهاديًا أو فعلًا إيمانيًا أو داعية إلى الله، حتى الشيخ كشك، وحتى الشيخ محمد متولي الشعراوي، هؤلاء هم سلاسل من أجل الوصول للنصر. لا ينبغي أن تنظر إليه ماذا حقق في القضية النهائية، يجب عليك أن تفه أنه حلقة في سلسلة النصر النهائي؛ **لأن النصر النهائي هو مجموع انتصارات صغيرة،** قطرات ماء تشكّل النهر الذي يهدم السد ويهدم الباطل.

هذه مربوطة في القضية الأولى. أن **تنظر إلى نفسك أنك حلقة في السلسلة**، ولست مُوجِدها!

انظر هؤلاء الذين يكفرون بكل جهاد المجاهدين وبقادتهم ما الذي أحدثوه؟ انظر إلى الفساد، بسبب جرثومة الشر في أن يقولوا: نحن! نحن الذين بدأ بنا الإسلام!! هؤلاء ذبحوا المسلمين، وغيرهم صاروا أولياء للطاغوت ضد المسلمين. الذين رأوا أننا نحن الإسلام! وهؤلاء الجماعات الإسلامية كلها شر، وبداية صعود الإسلام هو الانتهاء من هؤلاء، هكذا يتصورون!.

أنا أتكلم لكم عن واقع، والله ليس خيالًا. هذه حقائق في النفوس، إن بعض الجماعات يتصور أنه لا يمكن انتصار الإسلام حتى يسحق الجماعات الإسلامية كلها وحتى تنتهي، وهو لا يستطيع أن يُقيم صلاة الجماعة في بيته، ولكن يتصوَّر أنه هو الذي ينبغي أن يقود، بعد أن يُهلك الجميع ويدمّر الجميع.

إذًا قضية الاستعجال هذه وأن الجماعات استعجلت لا يوجد استعجال. إما أن تحضُر لك المصيبة فلا بد أن تقوم لها، وأن تنظر إلى نفسك أنك حلقة، وهذا الدين يمشي لمستقره، هناك عامل قدريّ وهو أنه ينزع من هذا الفعل فاعليته المطلوبة منه أو المرجوة منه لأن الله يريد أمرًا آخر، يريد أن يُسيِّرك لأمر آخر. **هذا الدين كما أنه مرعيٌ بالشريعة في القرآن، يجب أن تؤمن أن هذا الدين مرعيٌ من الله بالقدر والتدبير.**

يجب أن تؤمن أن هذا الدين رعاه الله. والله حتى الأخطاء في أُحد هي من رعاية هذا الدين، أخطأ الصحابة أم لا؟ لكن تفجّر منها معانٍ إيمانية عظيمة، **حتى الأخطاء والمصائب التي تظن أنها أهلكت الإسلام ليس صحيحًا، هي كانت ضرورة من ضرورات الطريق من أجل تقويمه ومعرفته وسلوكه. فكل من بذل ولم يُحقّق في ظنك هو في الحقيقة ساق الإسلام وقدّمه ولو خطوة.**

نحن الآن نعيش على مشارف التمكين إذا كانت القراءة صحيحة، والأمل بوجه الله، القراءة تقول بأن زمن الهزيمة انتهى، الآن الإسلام بفضل الله سيظهر، الخلافات المنهجية بين الناس تكاد تتلاشى، كما أن عقيدة الفُسطاطين تتكوّن بفضل الله، مع الخلافات ولكن عليك أن تنظر إلى اتجاه السهم الأعظم أين يسير، في الحقيقة نحن على مشارف النصر والتمكين ومشارف تحقيق الوعود والنبوءات النبوية.

أنا فقط أخاف من كلمة "التمكين" لأن بعض المسلمين تصوُّره للتمكين هو التصوُّر القديم أن يُقيم انقلابًا أو تقوم ثورة ونكون دولة وتصير دولة إسلامية، هذه ليست في ذهني، ولذلك أقول لكم كل كلمة أخاف أن تنتج معرفة خاطئة لاشتراكهما في اللفظ مع الاختلاف في المعنى.

أنا عندي أن أعظم الخير هو أن تقوم النبوءات النبوية الشريفة، الطواغيت لا يصبح لهم مُستَقَر في بلادنا، وأن يقوم الجهاد، وأن تنهار هذه الحواجز الأمنية، كما أن اعتقادي أن طريقة إزالة إسرائيل هي {أَكْثَرَ نَفِيرًا} أن جماعات صغيرة هي التي ستقاتل، لو حاربت إسرائيل جيوش بالنووي يدمرونها، فالذي سيقضي عليها جماعات بلا جيوش، ولا تنظيمات إلا تنظيمات صغيرة وهكذا، كما حارب أسلافنا الصَّليبيين. اقرأوها قراءة جيدة، لا تغرّكم القراءة السريعة، ولا القراءة الظاهرة ولا الخطب، اقرؤوا قراءة دقيقة: كيف تحقَّقت النبوءات الربانية في الصليبيين وانتصر أهل الإسلام. مائتا سنة تقريبًا وهم يقاتلون جماعات وتنظيمات وعشائر وقرى وقلاع إلى آخره، وتحقق بعد ذلك التأييد الإلهي.

القصد من هذا أن الحركة لم تخطئ. نعم هناك ممارسات قامت بها الجماعات وما زال عندي ظن-كما ذكرت هذا في (المقاربة)- أنه حتى الخطأ الذي وقع كشف الله به الحُسن، بعض الأخطاء التي وقعت في الجماعات وهي أخطاء شرعية لكن تم بها كشف الحُسن. أن تقول عنه أنه أنتج حقًا لا يجعله حقًا، الباطل باطل، وكما قال الإمام أحمد -وأنا آخذها دائمًا شعارًا لي، استفدتها من الإمام أحمد وأنا أقرأ في الحديث ولكني وجدت قاعدته تصلح للحياة-، عندما قال: "الضعيف يُحتاج إليه في وقت، والمنكر منكر". ما معنى المنكر؟ المخالف، هذا لا يمكن الاستفادة منه، ولكن الضعيف يُحتاج إليه في وقت؛ فهذه من قواعد الحياة.

يعني ألم ترسّخ تجربة "جبهة الإنقاذ الجزائرية" في أذهان الناس فساد الديمقراطية؟ وكذلك تجربة "مرسي"، وهذا ليس تبريرًا للباطل، الآن تجربة مرسي تمّت، الحكم الشرعي فيها واضح بالنسبة إلينا مع الاعتذار للمخالف، وفي المسائل الخلافية العبرة بالدليل والعبرة بالنص وبالأقوى.

رجاءً إخواني: دائمًا عندما تتكلمون عن الإسلام فإنكم تتكلمون عن يد الله الراعية له، انتبهوا، إذا غفلتم عن هذه النقطة ونظرتم إلى الدعاة وإلى الجماعات وإلى الأشخاص حينئذ تُسيئون الظنّ بالله. هذا الدين من الذي يرعاه؟ هذا الدين الله هو الذي يرعاه، والذي يرعى الجماعات ويرعى الناس، وحتى الذي يريد أن يكيد له يجعله سببًا للخير.

أنا أسألكم: الله -عزَّ وجلَّ- ألم يأذن للصليبيين بالمجيء؟ وأنا أذكر أمثلة قديمة حتى تُفهم، ألم يأذن ربنا للصليبيين بغزو بلادنا من أجل خير في الأمة؟ هو قرر في سورة أُحد التي هي سورة آل عمران لما جعل الإثم على أهله، وقال: أنتم الذين أخطأتم،

وأنتم كذا، لكن لما أعطى الأحكام، لما بيَّن السبب، إخواني شيء مهول وهو يقول لهم: {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}، {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ}، لكن في المشهد النهائي: انظر إلى هذه الرحمة العظيمة: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}.

العجيب أن هؤلاء الشهداء ماتوا بخطأ، لو عندنا لن يقولوا شهداء، هؤلاء أخطأوا، نزلوا من أجل الدنيا وماتوا شهداء؟ الله -عزَّ وجلَّ- حكم على كل هؤلاء شهداء، حتى الذي نزل ليأخذ من الغنيمة شهيد، فِعلهم غلط، لكن في النهاية المشهد الإلهي في الحكم عليهم لأنهم في صف الإسلام ما هو؟ قال: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}. ما المشهد النهائي؟ ختام مشهد أُحد ما هو؟ {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا} المنظر عجيب، مشهد عظيم.

ثم بعد ذلك: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ..} انظر إلى المشهد!، حتى وهم يمارسون الخطأ في عالم الغيب شهداء وفي عالم الوجود وهم ذاهبين في الطريق واصلوا، ما قالوا انهزمنا والطريق خطأ وخروجنا خطأ مثلما قال المنافقون. كشف المنافقين وجعل لهم حوارًا عجيبًا فيها.

وأنا بالنسبة إليّ هذه السورة الذي فتح عليَّ معانٍ أن أكتب فيها في (صبغة الله الصمد) ما رأيته بعد ١١ سبتمبر، أنا أُجيز أن يقول القائل: ١١ سبتمبر خطأ فيمن قدّره، وهؤلاء الذين قدّروا خطأً عظيمًا فيما فعلوه إلى آخره، ويكون السبب إيمانيًا، وليس السبب أنه زعلان على الكفار!، لا نتكلم على هؤلاء، نحن نتكلم عمن يكون عِلَّة رفضه سببٌ فقهي علمي، والنظر إلى مراد الله، أنا أُجيز هذا، ولكن بعد ذلك أي خطوة غير مقبولة منك، وهذا كشفه لي حوار سورة آل عمران.

وأنا أطلت في هذا البحث ولكنه مهم، لأنه طريقة تعاملنا مع التاريخ فيما يكتبه الشيخ وما يكتبه غيره.

النبي ﷺ عندما استشار الصحابة في أحد، النبي ماذا كان رأيه؟ البقاء في المدينة، وهو رأي من أيضًا؟ رأي المنافقين. رأي المنافقين ألَّا يخرجوا، ورأي النبي ألا يخرجوا، وقطعًا هناك من الصحابة من قالوا ألا يخرجوا، ولكن الشباب قالوا: نخرج، انتهى الموضوع. ولذلك ماذا قال القرآن؟ في سياق غزوة أحد كشف أن أمر النبي شورى بينهم، كشف صورة النبي، أنه اختار وفعل الشورى {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، الأصل يقول: خطأ، وأنا رأيي ألا تخرجوا. شاورهم، وفي النهاية الشباب عندهم حماسة، ونريد أن نخرج ولا يغزون المدينة، وبعد ذلك تراجعوا وقالوا يا رسول الله لعلنا حملناك على غير ما تحب، قال: (ما يَنْبَغِي لنبيٍّ لَبِسَ لَأْمَتَهُ أن يَضَعَها حتى يُحَكِّمَ اللهُ بينَه وبينَ عَدُوِّهِ)، وذهبوا وقاتلوا وطبّقوا الأمر الإلهي.

لم يحدث أن صار الحوار حول صواب الاختيار أو عدمه، المنافقون هم الذين قالوا لهم ألم نقل لكم؟ {لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا}، هذا النفاق، لذلك أنا لا أعيب أي جماعة تقاتل أعداء الله، حتى في أخطائهم، هذا اختيار يتحمَّلون نتيجته، وإذا وقعت عليّ يجب أن أكون مسلمًا. وقُتل في أحد ممن اختاروا أن يكونوا في المدينة ولا يخرجوا، لكن ما جعلوا يعيبون على من أخرجهم، ولا يعيبون قرار رسول الله ﷺ فيهم مع أنه مخالف لطلبه، ومخالف لما أحب، لكن من الذي صار يعالج ويعاتب؟ المنافقون.

هذا المشهد الذي ترونه في سورة آل عمران ارجعوا إليه.

وهذه مسألة صعبة القول لكنها ضرورية؛ كنت أحاول أن أقرّب الصورة لأنها معقَّدة: أنا أعتقد بأن ما حدث في تاريخ الحركة الإسلامية -ليس الإخوان وإنما الحركة الإسلامية عمومًا، المسلمون والعلماء والجماعات- **كلها كانت أقدارًا إلهية لخدمة هذا الدين، حتى الهزيمة في أحد أقدار لخدمة هذا الدين، حقَّقت خيرًا عظيمًا**، والناس عرفوا ما جهلوه، والدنيا هكذا فيها مثل هذا، ما دامنا نعيش هذا الواقع المعقد.

تبقى هذه الكلمة الأخيرة أضعها سدادة على هذا الموضوع: **حتى الذين أخطأوا كان خطؤهم مُسيِّرًا لدين الله -عزَّ وجلَّ- إلى مستقره الذي يحبه الله -عزَّ وجلَّ-**.

هذا في قضية الرد على الاستعجال، وأن الحركة لم تحقق شيئًا وأنه حدث كذا وكذا إلى آخره، وكل هذا لا نتكلم عن تصرفات شخصية لأناس سقطوا في الطريق وانضموا لجهة الباطل، فهؤلاء الحديث لا يدخل فيهم، والحديث حولهم هو كالحديث عن المنافقين في أحد! الذين تركوا الطريق، وذهبوا للجاهلية وتمالؤوا معها.

وهنا سأفتح بابًا مهمًا جدًا؛ طرحت موضوع التربية قديمًا وقلت أن التربية هي أن تقذف أتباعك في الحياة، والتربية لابنك ألَّا تعزله عن الوجود فإذا خرج للوجود صُدم، نحن نريد النبي المقاتل، نحن نريد الإسلام المقاوم، اقذفه في الحياة، اقذفه ليعيش، اقذفه ليتعلم، ولا تقل: هذا قضاء علي، هذا ليس قضاءً عليك، القضاء على جماعتك ليس قضاءً على الإسلام، أنت لست الإسلام، لست أنت رسول الله إذا قُضي عليك قُضي على الإسلام، هذا الإسلام كل من عاش فيه حقَّق خيرًا فيه إلا من انقلب إلى الجاهلية وانقلب إلى الطواغيت فهذا لا حديث حوله.

من محاسن هذا الكتاب -وإن كان الأستاذ لم يذكر الأمثلة ولكنه معذور-، من مصائب الجماعات الإسلامية التي أوبقتهم: جاهلية التحالفات؛ التحالف بين الإسلام وبين غيره مدمِّر! ولو التجأ هؤلاء للقرآن لوجدوا الحل: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}.

والتحالف يعني أن تتنازل عن مبادئك شئت أم أبيت، وللأسف الدافع لها هو دافع نفسي! وهم للأسف ليس عندهم الفهم للتوحيد، ولا يتعاملون مع هذه الجماعات ومع أنفسهم أنهم جماعات تمثِّل أحكام الشرع من أجل إقامة دين الله.

يا إخواني، الدولة التي ننشُدها ليست دولة خَدَمِيَّة، نحن عندنا قوله تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ} ماذا؟ {أَقَامُوا الصَّلَاةَ}، نحن جئنا لنبيّن للناس توحيد الله، والقرآن يبيّن لنا نماذج أنه لو كان الخيار بين مصلحة النجاة مع إلغاء مفهوم التوحيد والخيار الآخر أن تموت في سبيل تقرير التوحيد فعليك أن تموت في سبيل التوحيد، والنموذج: "أهل الأخدود"، النموذج القرآني العظيم في الأنبياء، في داعية (يس). أي شيء يُلغي أو يُضعف مفهوم التوحيد هو تشويش من الجاهلية عليك لإفسادك وإزالة عنصر القوة منك. أي سبيل تأخذه في هذا يريده الجاهلي من أجل أن تكون مثله، هو يريد منك على قاعدة "نعبد ربك عامًا وتعبد ربنا عامًا". هذه هي حقيقتها.

ولذلك إذا كان الخيار أن تنجو مع تشويش قضية التوحيد فإيَّاك أن تختار هذا الطريق، عليك أن تموت في سبيل أنني أنا مسلم جئت من أجل تعبيد الناس لربهم، التَّحالفات الحزبية هي إماتة لقضية دعوتك، حين تريد أن تصل إلى هذا النظام متمكِّنًا أو بعض متمكّن كأنك تريد أن تصل إليه من أجل الخدمات، من أجل أن تخدم الناس، هذه اتركها لغيرك، أنت ينبغي أن تبقى قضية إقامة دين الله {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ}. وإذا حليفك الجالس معك لا يُقيم الصلاة وتقول له: أخي، وتصبح أنت وإياه في طريق واحد!! ومع أن واقع الأمر أن التحالفات كانت السبيل لمقتلة عظيمة فينا، والتاريخ يشهد على هذا.

الشيخ يقول ويمكن أن توافقه كثيرًا في هذا، صحيح أن الجماعة التي يقصدها أذهبت التصوّف الذي يدعو إلى التواكل والدَّعة والكسل وحرّضت العواطف، لكنها لم تُجلِّ مفهوم الحاكمية بالبناء العلمي، وهذا حق نوافقه عليها. فالجماعة في مفهوم البناء العقلي والعقدي فيها ضعف شديد، وقامت جماعات أخرى نبّهت عليها.

في الحقيقة أعجبني الشيخ في قضية استعراض العضلات، وأنا شرحتها في (الأربعين الجياد) في حديث: (نهى رسول الله عن الخَذَف)، ورأيت أن الخذف استعراض عضلات. وما زلت مترددًا هل أضع كتاب (الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ) لمحمود عبد الحليم على قائمة الألف كتاب، وهو كتاب مهم في الحقيقة. وهو ثلاثة أجزاء، إذا أردت الرواية الرسمية لمجموعة الأحداث والتكوُّن فتقريبًا هذا الكتاب يمثّل تقريبًا الرواية الرسمية لجماعة الإخوان المسلمين وتاريخها.

لو قال قائل: أعطني كلمة واحدة تصف تاريخ هذه الحركة، لأجبت بهذه الكلمة وهي: "الاستعراض". ماذا أقصد بهذه الكلمة؟ لا أريد أن أتكلم عمَّا يريده الشيخ، وربما نلتقي في بعض الجوانب، ولكن لأقول لك خطورة هذا الموضوع.

أي إنسان يقرأ تاريخ هذه الحركة يجد أنها في تاريخها كله تدفع بنفسها وبأبنائها للصراع مع الأنظمة، لا نتكلم عن قضية جهادية، نتكلم عن الصراع الموجود بين السياسيين والدعوة إلى آخره، -وهذه شرحتها (في الجهاد والاجتهاد) قليلًا، ليس بالدرجة المطلوبة ولكن ينبغي أن يُكتب فيه-، وهو أنها تدفع بنفسها وبأفرادها إلى الصراع مع الأنظمة الجاهلية إلى اللحظة الحرجة ثم تتراجع!

أقرب مثال: تذكرون عندما صدام دخل الكويت؟ ظل يهاجم ويهاجم حتى آخر لحظة ماذا فعل في جيشه؟ هذا إذا صحَّت الرواية، قبل الهجوم انسحب، وهذا الانسحاب لا ينفع، هو زيادة مهلكة. تاريخ الإخوان كله هكذا، أنا لما قرأت الكتاب وقرأته مرات لا تخرج إلا بهذه الكلمة: دائمًا يقذفون بأبنائهم للصراع، وتحدي الحكومات، ورفع درجة سقف المواجهة معهم، فيبدأ الصراع ويشتد، عند حدوث المواجهة والخصم يفهم أن المعركة بدأت هنا، وهي معركة وجود أكون أو لا أكون، ولا بد من المواجهة، إذا بهم يتراجعون! ويبدأ النَّحيب الكَّربلائي: ذبحونا وقتلونا!! أنت الذي وصلت إلى هذه الدرجة!.

على ماذا يُبنى هذا؟ يُبنى هذا للأسف لأنهم لا يقدِّرون قذارة الخصم، لا يعرفون خصومهم، هذا هو البناء العقدي؛ اعرف المرتد، خصمك أسوأ من أبي جهل، خصمك هذا الطاغوت أسوأ من أبي لهب، هذا أسوأ من فرعون، هذا فقط يُداريك في البداية من أجل أن يشتريك، وبعد أن يفهم أن المسألة بينك وبينه إما أن أكون أو لا أكون، حتى لو أدرت ظهرك لا يمكن أن يطمئن إلا بعد ذبحك، وبعد قتلك، وبعد سلخك. وجودك أنت مُهدِّد له! وإذا سكت عليك حينًا فهو من تقدير المصالح، أنه لا يريدك الآن، يريدك غدًا، أو لأنه مشغول بغيرك. هو لا يستقرّ له حال مع وجودك، حتى وأنت تدعو إلى الله لمجرد الدعوة، أن تبيّن التوحيد وتبيّن أحكام الشرع. هو لا يقبلك بهذا حتى لو كنت تسير فقط في هذا الاتجاه.

وهم يسكتون في ظروف عن الدَّاعي لأنهم مشغولون بمن يحمل السلاح، وهم يسكتون عن السياسي لأنهم مشغولون بمن يواجههم في الكلمة.

هل الكافر لا يعرف تقدير المواقف؟ هل الكافر ليس عنده ذكاء في تقدير الأعداء؟!

فيبدأ الصراع بينهم وبين الأنظمة، وفي نهاية المطاف هو يقتلك حتى لو لم تبدأ الصراع، فكيف لو بدأت الصراع وأظهرت أنك جاهز من أجل الاستبدال، وجاهز من أجل الخلافة، وجاهز من أجل أخذ ما يملك!

ولذلك عدم فهم الجماعات، **وعدم فهم المسلمين عمومًا من هم خصومهم يوقعهم في هذه المزالق**. ولذلك يبدأ الصراخ: ما تصوّرنا أن يفعل بنا عبد الناصر ذلك! ما تصوّرنا أن يفعل بنا حافظ الأسد ذلك! أنت لست مهديًا بهداية القرآن، لست مهديًا بهداية سيرة النبي ﷺ، لست مهديًا بسيرة أبي بكر مع المرتدين. هذا لا ينفع معه إلا السَّحق.

ولذلك التَّراجع في هذه اللحظة لا يصح، ينبغي أن تواصل. التراجع حدث، الشيخ عبد القادر عودة لما قام وصرف الناس عن القصر الجمهوري لما خرجوا وثاروا ضد عبد الناصر لما قام ضد نجيب؛ فخرجت جموع المصريين ضد عبد الناصر، فمن الذي أنقذه؟ أنقذه الشيخ عبد القادر عودة، وصرف الجموع!. وهذه تكررت في اليمن.

فلذلك الاستعراض هذا لا يجوز أن يكون في حركة الحياة، هذا لا ينفع، هذا كله مظاهر مثل الألوان الزاهية، لا يجوز لك الاستعراض، النبي ﷺ نهى عن الخذف، والخذف هو استعراض؛ أن تمسك حجرًا وترمي به، خصمك لا ينفع معه حجر! ولذلك قال: (لا يُصادُ بها صيْدٌ، ولا يُنكَى بها عدوٌّ، وإنَّه يكسِرُ السِّنَّ، ويفقأُ العينَ). فأنت لا تحتاج إلى كسر سن، ما دام كسرت سنه يصبح كالنمر الجريح، يعني أكون أو لا أكون، تفقأ عينه هناك عين أخرى.

وهذه مهمة جدًا وتحتاج إلى مزيد شرح.

لا يجوز للحركة الإسلامية ولا للدعاة أن يستعرضوا، إن نزلت إلى الشارع يجب أن تحضّر نفسك تكون أو لا تكون. وعدوك جاهز، لا يحتاج إلى مشورة منك، ولا يحتاج إلى إذن منك، لما يبدأ السَّحل والسحق والإبادة.

ماذا قال عبد الملك بن مروان؟ عبد الملك بن مروان كان من أخص أصدقاء عبد الله بن الزبير، بينهما من الحب ما الله به عليم. من الذي قتل عبد الله بن الزبير؟ عبد الملك بن مروان، ولذلك أطلق كلمته قال: "الملك عقيم"!.

في التاريخ الإسلامي والإنساني ألا يوجد من قتل أباه من أجل الملك؟ من قتل أخاه من أجل الملك؟ من قتل ابنه من أجل الملك؟ فإذا قتل ابنه وأباه وأخاه، فمن أنت؟! فإذا كانت القضية فوق هذا الصراع حول الملك هو صراع عقائد ودين، وصراع مرتد خبيث سيء يرى أنك أنت صورة الطُّهر التي يكرهها كما وصفها أبو الحسن -رحمه الله- في كتابه (ردة ولا أبا بكر لها)، فحينئذ ما النتيجة؟ سحق، إزالة، فناء. وهذا الذي يمارسه أعداؤنا ضدنا.

هناك قضايا كثيرة تحتاج إلى بحث، ولكن يكفي إلى هنا إن شاء الله مع الاعتذار. في النهاية اقرؤوا الكتاب لأن الكتاب مليء. وهناك مشقة كبيرة أن تناقش رجلًا يناقش التاريخ، يناقش العقيدة، يناقش الجماعات، يناقش السلوك، يناقش المناهج؛ فمن الصعوبة بمكان هو أن تستوعب كل ما يريد موافقة أو مخالفة أو تنبيهًا أو شرحًا أو ملاحظة، إلى غير ذلك.

جزى الله -عزَّ وجلَّ- الأستاذ محمد قطب خير الجزاء، ونسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يرحمنا وإياه، وأن يلحقنا به غير خزايا ولا مفتونين.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

الكتاب القادم هو كتاب (الفكر الإسلامي المعاصر) للأستاذ غازي التوبة.

الأسئلة

- **سؤال: ما الفرق بين مفهوم التربية عند الكيلاني وعند قطب؟**

الشيخ: للأسف أن ماجد عرسان الكيلاني أكبر خطيئة مارسها في كتابه أنه جعل المدرسة الصوفية هي المدرسة التربوية، وما جعل غيرها! أين المدرسة الفقهية؟ أين مدرسة المحدِّثين؟ علماء كبار كان لهم دور في حياة الأمة، ومع ذلك ما أتى على ذكرهم، جاء على الغزالي ومدرسته، وجاء على عبد القادر الجيلاني ومدرسته. ولذلك أنا قلت في مناقشتي لكتاب الدكتور ماجد عرسان الكيلاني أنه جعل سبب الفساد عِلَّة للإصلاح على قاعدة أبي النواس: "وداوِني بالتي كانت هي الداءُ".

ففرق كبير بينه وبين الأستاذ محمد قطب؛ الأستاذ محمد قطب يرى أنه لا بد من تمكين مفهوم التوحيد فيما غفل عنه المسلمون وهو قضية أن العمل من الإيمان، وقضية الحاكمية كأخص قضية في هذا البحث.

- **السائل: أقصد في قضية الكتلة الصلبة والتربية قبل المواجهة**

الشيخ: هي نظرية، قلت أن مشكلة مفهوم التربية أن الجماعات كلها تتبناها كمبدأ، لأنها هي المشكلة قبل الانطلاق للعمل، هم واحد في هذا. لكن حتى لا نظلم فيظن الظان أن التربية التي يريدها الكيلاني هي التربية التي يريدها الأستاذ محمد قطب، قطعًا لا، ولكن كمفهوم للانطلاق نحو العمل والفعل واحد.

وهذه مشكلة المشاكل في داخل العمل الإسلامي، كلهم يتبنَّونها، ومع ذلك الأقدار كلها تجري ضدهم؛ واضح كل الذين تبنَّوا التربية اضطروا بأن يقذفوا بأفرادهم عندما ظنّوا أن النصر قريب أو أن المعركة قادمة.

وثانيًا: رأينا أفرادهم يهربون منهم لنوادي العمل، ملوا من التربية ويريدون أن يجاهدوا. أخ ليبي جاء من ليبيا يريد أن يجاهد في أفغانستان، فمرّ على جماعة الـمُعطِّلة هؤلاء، فجعلوا يذكرون له مساوئ الجهاد في أفغانستان؛ والشيخ فلان نهى، والشيخ الفلاني قال مشركين عن الأفغان، فالأخ الليبي قال: لو كان الجهاد مكروهًا سأجاهد أيضًا. لتروا أن وعي الأمة لواقعها أكثر من وعي المشايخ!.

▪ **سؤال: أليس محمد قطب –رحمه الله– مع الأستاذ الشاذلي يشكلان تيارً خاصًا؟**

الشيخ: في الحقيقة لا أقدر أن أقول ذلك، السؤال بعيد عمَّا نحن فيه، ولكن عبد المجيد الشاذلي له تيار تربوي معيَّن، وظهر عدم تمكُّنه من تياره لما جاءت قضية انتخابات مرسي. مات –رحمه الله–، وإنما هما خريجان لمدرسة الأستاذ سيد. مع أني أعتقد بأن الأستاذ محمد قطب ليس امتدادً لسيد، هناك تطور. وهذا ينبغي أن نفهمه، يعني هناك تطور في فكر الأستاذ محمد قطب؛ لأنه عاش قضايا معيَّنة لم يعِشها سيد.

لكن تصرّف عبد المجيد الشاذلي أكّد كلمة من قال: بأنه لو عاش سيد قطب لمارس الديمقراطية كما مارسها مثيله أبو الأعلى المودودي؛ أبو الأعلى المودودي يؤمن بتوحيد الحاكمية وأن الديمقراطية كفر، لكن في النهاية تحالف مع علي جناح في الأحزاب، وتحالف مع أحزاب علمانية في قضية باكستان الإسلامية، ودخل الديمقراطية!، وجماعته ما زالت إلى الآن تمارس السياسية.

فقال بعضهم لو عاش سيد قطب لدخل الديمقراطية كما دخلها أبو الأعلى، وجاء عبد المجيد الشاذلي ليؤكد هذه النظرية.

ذلك لأن عبد المجيد الشاذلي يعتبره الكثيرون بأنه وارثٌ لما يقوله سيد، على اعتبار الصَّداقة القديمة والقربى، وأن سيد طلب منه وهو في السجن أن يؤصِّل له فقهيًا وأصوليًا ما قاله في الظلال، فأخرج كتابه، وإن شاء الله قريبًا نقرأ كتاب (حد الإسلام وحقيقة الإيمان) للأستاذ عبد المجيد الشاذلي.

فللأسف عبد المجيد الشاذلي ممن دعا إلى انتخاب مرسي.

▪ **سؤال: هل ما مارسه عبد المجيد الشاذلي هو عين ما يريده محمد قطب؟**

الشيخ: هذا سؤال كبير لا أستطيع أن أجيب عليه، ربما نعم وربما لا، ولكن الأستاذ محمد قطب صريح في قضية الدخول في العملية السياسية أنها مظنة الهلكة، وأنها لا تورث إلا الهوان والخسارة، والأستاذ عبد المجيد فعل ما فعل.

▪ **سؤال: الشيخ محمد شاكر الشريف ألف كتابًا من أربعمائة (المشاركة في البرلمان والوزارة عرض ونقد) في منع المشاركة في البرلمان، وبعد انتخابات مرسي وفوز الإخوان مال للديمقراطية وشبه تراجع، وقال الواقع تغيَّر، وقال: أنا ذهبت لمحمد قطب لأراجعه في هذه المسألة وأقول له تعال أيِّد، لكن محمد قطب رفض.**

الشيخ: جيد هذه المعلومة في أنه بقي رافضًا لقضية تأييد مرسي، هذا يدل على أن للواقع أثرًا في نفوس المشايخ، مع الاعتذار، المشايخ أُسراء النصر! والدليل أن الذين منعوا الجهاد وكانوا يقولون أعظم الجهاد هو الذهاب للنساء وجاهدوا في نسائكم، لما قام الجهاد في سوريا صاروا أئمة له، وصاروا يدعون له، المشايخ أسراء الواقع!

- **سؤال: لماذا الحركات الإسلامية رغم أن أبنائها على درجة معينة من القراءة والثقافة ومتميزون عن العوام، لماذا لا يستفيدون من أخطائهم –ولا أقول أخطاء غيرهم–، يعني الحركة الإسلامية (الإخوان المسلمين) مذبحة أيام الملك فاروق انتهت بمقتل حسن البنا، مذبحة أيام عبد الناصر، مذبحة أيام الكل!، تجربتهم تُكرَّر مائة مرة، وما زالوا هم هم؛ نفس الطريقة ونفس التفكير ونفس المبادئ. يعني الديمقراطية فشلت أيام حسن البنا، وفشلت أيام مصطفى السباعي، في الأردن فشلت ثلاث مرات، وما زالوا يُراهنون على نفس الفكر. يعني هل هذه العقلية أسهل وأيسر أم هي العقلية التي ليس عندنا غيرها أو ماذا أنا لا أفهم؟!**

الشيخ: جيد هذا الذي طرحته، نسيت أن أذكر شيئًا مهمًا وهو أن الفعل الاجتماعي نصرًا وهزيمة تطورًا أو تغييرًا، لا يمكن ربطه بعلة واحدة، الصواب هنا علل متعددة. بمعنى لو أنت سألتني هذا السؤال لأقول لك ما هي العلة؟ فإذا أجبتك بعلة واحدة ربما أظلم التَّقييم، وإذا قلنا علل ينبغي الدراسة والبحث، لكن هناك أمور ظاهرة يمكن أن نناقشها وأن نقرّها.

يعني هو يعترف وهذه الكلمة هناك من فسّرها تفسيرًا خطيرًا، قال: بعد فتنة ١٩٤٨ التي حدثت للإخوان من مقتل الشيخ والسجن وغيره، وهو بلا شك أمين في هذا ولا يتكلم كخصم للجماعة، يتكلم عن طائفة دخلت الإخوان المسلمين لأنها رأت فيهم النصر السياسي، وهذا في قسم الصحوة، قال: هناك من دخل الإخوان المسلمين لأنه رأى فيه حزبًا سياسيًا يحقق له مصالحه، بمعنى هذا حزب اجتاح الأرض فأدرك نفسك وانضم له!، يقول هؤلاء لما ضُربوا في النهاية اكتُشفوا وذهبوا. وإذا أردنا أن نفسِّر هذه الكلمة بالتفصيل وبذكر الأسماء تكون المسألة خطيرة.

ماذا أقصد؟ هناك من يفسر بأن هذه الطائفة هي التي حرفت الإخوان المسلمين، يعني صار الإخوان المسلمون بعد الضربة أمام تيارين: تيار مواجهة يمثل شق الفصل بين الجاهلية والإسلام سيد ومن معه من المشايخ المذكورين الذين نذكر أسماءهم، وهناك تيار سياسي دخل الإخوان المسلمين باعتبار ما ذكر، فبالتالي حمل الإخوان المسلمين لهذه الجهة وأخذوها، ولا أريد أن

أذكر أسماء لأنها خطيرة، هناك من يقول إنهم استطاعوا اختراق بيت الأستاذ حسن البنا، يعني هناك من يذكر عبد الحكيم عبدين —زوج أخت الشيخ حسن البنا— ويعتبره رجل القصر الذي اخترق الإخوان المسلمين من أجل سَوْق الإخوان المسلمين لاتجاه سياسي معين، من أجل الوقوف أمام تيار آخر أراد أن يطوّر الحركة، كحالة عادية مما قاله سيد إلى آخره.

لو رأيت مثلًا الإخوان المسلمين عندنا في الأردن، لا نريد أن نذهب بعيدًا، تجد هذا موجودًا، هذا الفصام بين تيار يريد أن يقول بأننا نريد أن نتعامل بإعادة صياغة مفهومنا أننا دعوة إلى الله وتوحيد وفصام مع الآخر إلى آخره، وعزلة عن الغلط إلى الحق، وهناك من يريد أن يدجّن هذه المفاهيم.

وهذا ليس جوابًا نهائيًا، أنا أتكلم لكم ربما عن خمسة في المائة من المشكلة، هناك من يعتبر بأن تولي مصطفى مشهور قيادة الإخوان هو سوق للإخوان. طبعًا الناس لن يقبلوا هذا الكلام مني، لكن في الحقيقة جزء كبير منه صحيح، أن مصطفى مشهور استطاع أن يسرق الإخوان من ذلك التيار إلى (تيار القطبيين) الذين هم جماعة التنظيم الخاص. إذًا هو صراع حتى في داخل الحركة، كما هو عندنا في الأردن وفي بلاد كثيرة الصراع موجود.

فهذا جزء من قضية قراءتنا لقضية لماذا يتكرر.

تصور أن يأتي راشد الغنوشي ويعتبر أن ما فعله الإخوان المسلمون في مصر هو عملية قُطبيَّة! قطبية يعني فيها تشدُّد. هؤلاء جماعة يسمون القطبيين المتكلِّسين. ولذلك هو ذهب بنفسه إلى مصر لينصح الإخوان المسلمين –أنا أتكلم كصراع سياسي داخلي، لا أتكلم عن مفهوم شرعي أو غير شرعي–، يرى أن ترشيح الإخوان المسلمين لرئاسة الجمهورية خطأ، وذهب لينصحهم: لا تواجهوا. هو يريد النموذج الذي فرضه، بغض النظر عن الحديث حوله.

فيمكن أن يكون هذا جوابًا.

- **سؤال: استعراض حركة الإخوان أنها وقعت في جميع المذابح فيه عدم الإنصاف لها، خاصة أنها في الفترة الأخيرة وصلت إلى سدة الحكم، وإذا نحن نريد أن نتكلم بالمنطق أو نُلزم أنفسنا بما قرَّرناه أننا نسير في الجهاد مرة مرتين وثلاث وأربع حتى نصل إلى الصحيح. يعني ما يمنعهم هم من نفس الكلمة؟ أننا نسير في نفس الخطة مرة مرتين وثلاث حتى نصل إلى الصحيح.**

الشيخ: في الحقيقة ليس هكذا الكلام، آسف إذا فُهم بهذا الاتجاه فهو خطأ. نحن نتكلم عن قضية من يفرض المعركة ولا يواصلها. نحن ليس كلامنا عمَّن مشى في المعركة وأصلها وفي النهاية انسحب لما ذكرنا من الفعل الاجتماعي وتعقيدات الحكم عليه بالتغيير والتدبيل أو بالإصلاح، نحن نتكلم عن جماعة تصل المعركة ثم تنسحب. يعني عندما أنت تتحدى جمال عبد الناصر في موضوع التحالف لما صارت الاتفاقية المصرية الإنجليزية ووقفوا ضدها، وتريد أن تستبدل وترفض، دخلت في صراع أنت معه، لا يجوز لك أن تنسحب، ادخل في الصراع لنهايته. إما تكون سياسيًا مُدجَّنًا تتعامل بالموقف السياسي الذي يأخذ ويعطي، هذا موقف آخر. أما نحن نلاحظ خروج مظاهرات تريد إسقاط النظام، فلما يُنزل لك الجيش، فتدير ظهرك وتقول: اقتنعنا أنه لا يمكن إسقاط النظام، ارجع على بيتك!

الكلام ليس على تكرار التجربة التي تنتهي لنهايتها، الجماعة لا تواصل. مع ذلك كلها قراءات لنا، ونحن نحترم الجميع ونقدّر الجميع.

- **سؤال: ألا يُعتبر هذا هزيمة؟ يعني فكرة أنهم دخلوا المعتقلات وسُجنوا وشُنقوا هذه ضريبة الإيمان؟**

الشيخ: هذا حق، بلا شك أن هذا الذي قدَّموه من قضية الوفاء للدين وتقدمة الشهداء والبلاء الذي أصابهم هذه ضريبة نحن كلنا استفدنا منها بلا شك. الآن الذي كتبه فلان، الذي قدَّمه فلان، نحن كلنا في صغرنا في بداية تديّننا عشنا على هذه النماذج المشرقة الإيمانية، إلى الآن نتغنى بموقف سيد قطب. فهذا ليس كلامًا عمَّا هو في جانب حق.

بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا.

والحمد لله رب العالمين.


تم بحمد الله

المناقشات الباقية:

- (الفكر الإسلامي المعاصر) لغازي التوبة.
- (تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه) لأحمد الكاتب.
- (السجينة) لمليكة أوفقير وميشيل فيتوسي.
- (التوحيد) لمحمد المسعري.
- (النبوات) لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- (في ظلال سورة التوبة) لعبد الله عزام.
- (أين هو الفكر الإسلامي المعاصر) لمحمد أركون.
- (العودة إلى الذات) لعلي شريعتي.
- (إنجيل برنابا).
- (مؤتمر النجف) لعبد الله العباسي السويدي.
- (الشريعة الإسلامية وفقه التطبيق) لرشيد البليدي.
- **ولا زالت المناقشات مستمرة ....**